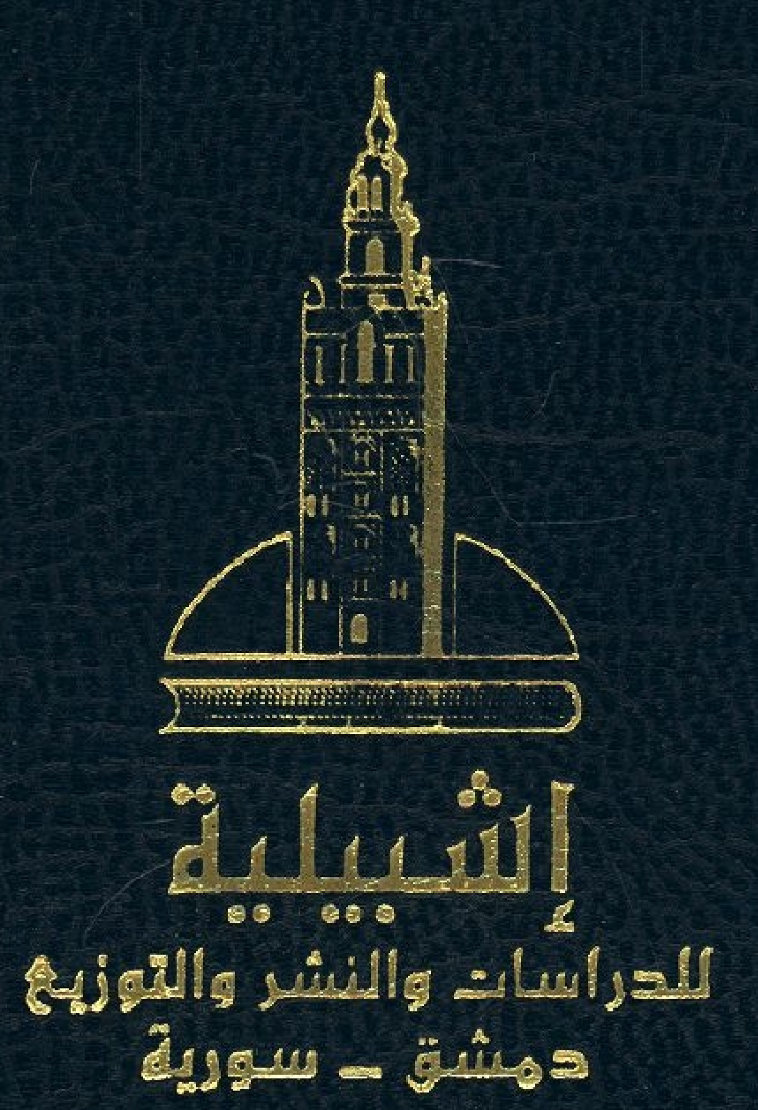


دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة



دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المسؤول : د. شاكر الفحام رئيس التحرير : ناظم كلاس

العددان السابع عشر والثامن عشر : آب ـ تشرين الثاني ١٩٨٤

المراسلات :

لجنة كتابة تاريخ العرب ـ مجلة دراسات تاريخية
جامعة دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

الاشتراك السنوي :

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية أو ما يعادلها

للافراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سوريــة أو مايعادلها

تضاف اليها أجــور البريــد الجوي أو العادي

حسب رغبة المشترك

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعــداد الصادرة في السنوات السابقة بالقيمــة نفسها

في هذا العدد

الصفحة

تنويــه

- ترتيب البحــوث يخضع لاعتبارات فنية
- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها

تقـــديم

يصدر هذا العدد من مجلة ((دراسات تاريخيـــة)) وقد اتمت عامها الخامس ، ملتزمة بنهجها وتوجهها ، يحدوها الامل في المضي قدما الى غايتها مســددة الخطا ، بمؤازرة المؤرخين والباحثين والمفكرين العرب وتشجيعهم .

ان المجلة ، اذ تتوجه بالشــكر لجميع الذين شاركوها مسيرتها خلال السنوات الماضية ، وغذوها بثمار افكارهم ونتاج اقلامهم ، ترى من المفيـد أن تعود فتذكر بما سبق ان اعلنته ، وهو انها ليست غاية بحد ذاتها ، ولم يكن القصـد من اصدارها اضافة دورية اخرى للدوريات العلمية المماثلة ، بل كان القصـد ان تكون التوطئـة والتمهيد ، والخطوة الاولى ، نحو غاية أجل وأكبر ، الا وهي كتابة تاريخ العرب في موسوعة عربية كاملة ، كتابة تلتزم المنهجية التاريخية العلمية النقدية ، فتنقي هـذا التاريخ مما شابه او علق به من تشويه وزيف ، وتتيح لابناء الامة العربية وعي تاريخ امتهم على حقيقته ، وصفاء رؤيتهم لحاضرها وللمستقبل الذي تصبو اليه .

فالمجلة اذن خطوة من خطوات ، تخدم كلها وبمجموعها المشــروع الام ، مشروع كتابة تاريخ العرب . على صفحاتها تتلاقى الافكار ، وتعرض الاراء الجديدة وتناقش كيما يثبت منها ما هو جدير بالبقاء ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث التاريخي وتسليط الضوء على التيارات العميقة التي حركت تاريخ هذه الامة ، وتوضيح ما كان يلفه الغموض ، او لم يحظ بعناية المؤرخين من قبل .

ان مجلة ((دراسات تاريخية)) تفتح صدرها وصفحاتها للمفكرين والباحثـين والمؤرخين العرب ، في الوطــن العربي وخارجــه ، وترحب بكل قلم يشــارك في اغناء فكرتها ، وبكل مقترح ورأي ينير طريقها ، وبكل بحث يعالج موضوعا من موضوعات التاريخ العربي يندرج في الاطار الذي رسمته لنفسها ، ملتزمة فيما تنشره بمبادىء العمــل ، وهي ان كتابة تاريخ العــرب تتم من خــلال منظــورات ثلاثة : المنطلــق الوحدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد بمبادىء البحث العلمي.

دراسات تاريخية

نظرة في فهم التاريخ

د. سليمان سعدون البدر
جامعة الكويت

ان كلمة « تاريخ » تعنى ذلك العلم المتعلق بالانسان منذ ان بدأ في التعبير عن فكره ، ناحتا ذلك الفكر على الحجر بالكهوف والمغارات . وفي اللغة العربية ، نجد « التاريخ » او « التأريخ » تعنى الاعلام بالوقت وما يلحق به من حوادث ووقائع ، أي انه علم يبحث عنوقائع الزمان من ناحية التعبير والتوقيت،وموضوعه الانسان(١). واستعملت كلمة « التاريخ » في تراثنا العربي الاسلامي لتعنى أمجاد القوم وخلاصه شمائلهم كما تعنى تراجم الرجال ورواية أخبار الماضي .

وفي اللغات الاجنبية الحديثة نجد أن كلمتي History الانكليزية ، و Histoire الفرنسية ، مشتقتان من الكلمة الاغريقية Historia بمعنى التعلم . أما في اللغة الالمانية فالكلمة Geschichte تعني حوادث الماضي . أو ذلك الذي حدث أو العلم الذي يحقق في هذا الشيء الذي حدث . ولقد استخدم فلاسفة الاغريق كلمة « التاريخ » لتعني سردا منظما لمجموعة من الظواهر الطبيعية سواء أكانت مرتبة ترتيبا زمنيا أم غير مرتبة . وحين اختصت كلمة Science لتعني « السرد المنظم للظواهر الطبيعية » دون الاعتماد على ترتيبها الزمني . أصبحت كلمة « التاريخ » مقتصرة على سرد الظواهر الطبيعية المتعلقة بالمسائل الانسانية والمرتبة ترتيبا زمنيا . وبكلمة أخرى

اصبح معنى التاريخ « الماضي والعلم به »(٢) . ومن ناحية أخرى ، فان اللفظة تطلق تارة على الماضي البشري ذاته ، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة ذلك الماضي ورواية اخباره ؛ أو العلم المعني بهذا الموضوع (٣) .

لقد عرّف بعض الكتاب التاريخ بأنه « علـم الماضي » ، غير ان هـذا التعريف فضفاض يخشى منه التأثير على خصوصية التاريخ ، ذلك لان الماضي عبارة عن وعاء يشمل كل مظاهر الكون بمختلف أشكالها وألوانها ، فهو يتسع لعلم الجيولوجيا وعلم تطور الحياة وعلم النشوء والارتقاء وعلـم الفلك . . . الخ . وبذلك أصـبح لكل علم صنّف من هذه العلوم علماؤه ومختصوه ومؤرخوه ، واصبح للتاريخ مفهـوم خـاص يتعلق بالكائن البشري وما طرا عليه في الماضي من أحداث وتطـور حضاري ومدني ، وغدت دراسة تاريخ العلم محبذا في مثل هذه الدراسة .

وطالما الامر كذلك فان للثقافات القديمة سمات متميزة تـدل بوضوح على دور الانسان الحضاري ، مثل ثقافـة العصر الشـيلي Prechellean ؛ أو الحضـارة الشـيلية أو الآشولية Acheullean او الموسـتيرية Mousterian او الاوريانسية Aurgnacian ، واخيرا ثقافة وحضارة العصر الحجري الحديث ، وما تلى ذلك العصر من ثقافات ؛ ولكل حضارة أو ثقافة مكان متميز في تحديد البدايات الاولى لمـا نسميه « شبه التاريخ »(٤) ، والـذي اتضحت صورته عندمـا جنح الانسان الـى الاساطير أو الخرافات « الميثولوجيا » Mythology ؛ وهي قصص وروايات عـن الماضين وأخبارهم وأساطيرهم . وكان التاريخ يتضمن ، بهذه الصورة ، سلسلة من الحوادث المتعاقبة علىشكل معلومات عامة يستفيد منها المسؤولون والادباء والساسة، وكانت المعلومات التاريخية تعتمد على ثقات غايتهم الالمام بحوادث الماضي ؛ والاحصاء العددي لها . وبدأ تدوين هذه الحوادث ، وبخاصة البارزة منها ، مع ترتيبها ترتيبا زمنيا دون أن يحاول الانسان المؤرخ فهم هذه الحوادث فهما عقليا عميقا والتعرف على مدى تأثيرها على بني الانسـان ومسيرته .

وانطلاقا من محاولة تتبع الجهد الانسـاني في ظهور علم التاريخ ، وما بذل بصدد تطور هذا العلم والرقي به ، يحاول الباحث القاء ضوء ، من خلال هـذه الدراسة ؛ للتعرف على « علم التاريخ » كمحاولة لفهمه الفهم الصحيح ودراسته دراسة علميـة تقود الى نتائج يمكن الاستفادة منها في حاضرنا ومستقبلنا .

نشاة التاريخ وتطوره

ظهر التاريخ أول الامر . وكمرحلة أولى من مراحل نشأته وتطوره ، بصورة بدائية ، على شكل قصص واخبار كان الانسان القديم يرويها لابنائه ؛ الى جانب ما يرتبط بهذه القصص من أساطير ومعتقدات دينية . وظهرت أهمية الاحساس لدى الانسان ببعض الحوادث التي تواجهه ، فعبر عنه بالرسم والنقش على جدران الكهف . وبذلك يمكن القول بأن التاريخ قد نشأ في مراحله الاولى على المستوى الفردي عن طريق الرواية . وعن طريق الرسم . وبذلك يكون التاريخ عبارة عن ممارسة فكرية عفوية وجدت بين الناس وانتقلت الى الابناء عن طريق الآباء ، حتى اذا اتسعت المجتمعات وظهرت القرى انتقل التاريخ من المستوى الفردي الى المستوى الجماعي واضحى عملية مستمرة يعبر عنها بالتسجيل المتوارث من جيل الى جيل .

ومن خلال تقدم المجتمعات وتطور الانسانية انتقل التاريخ الى التعبير عن سياسات ودول ، وتغير مفهومه المعبر عن الافراد الى مفهوم يعبر عن خبرة المجتمعات والظواهر العامة ، الى جانب الابقاء على شخصية الفرد عندما يكون هذا الفرد ممن ينطبق عليهم تعبير (صانعو التاريخ) ، وهم أولئك الافراد الذين يؤدون لمجتمعاتهم أعمالا فذة في مجال السياسة والحروب والثورات ... الخ . وأصبح التاريخ مادة علمية لا تقتصر دراستها على المؤرخين فقط بل شملت غيرهم من هواة وسياسيين وأدباء وباحثين اجتماعيين .

ويعتبر التاريخ قرين الحضارة ؛ فهو يبدأ مع الخطوات الحضارية الاولى للانسان الذي اخذ يسجل بشكل أو بآخر ما يعبر عن ماضيه ؛ ويستعيد من بين ذكرياته ما يصلح ان يكون نموذجا لاعماله . وهذا العمل جهد انساني أدى في النهاية الى بداية العصر التاريخي(٥) . فالتاريخ بدأ مع الكتابة . ومنذ اكتشاف الانسان الكتابة اتسع نطاق فكر الانسان كما ازدادت تجاربه عن طريق التأمل والتحكم فيما حوله واخذ يواجه بيئته ويتفاعل معها من أجل الانتفاع بما تجود به عليه هذه البيئة من خيرات ، وللوقوف أمام تمرضها ودرء اخطارها . وبتوصل الانسان الى الكتابة استطاع أن يسجل ثمرات تجاربه ومعلوماته وفكره ليشكل هذا التسجيل احساسا جوهريا في سيرة الانسان الحضارية . وأصبح ما دونه الانسان سجلا حافلا بألوان من الاحداث والافكار والاعمال .

كان لانسان الوطن العربي القديم الاسبقية المطلقة في هذا الاكتشاف العظيم ، ففي بلاد الرافدين اكتشف الكتابة التصويرية التي تطورت الى كتابة مسمارية ؛ أما في وادي النيل فقد استخدم الهيروغليفية ؛ كما استخدم انسان سورية مزيجا من الكتابتين العراقية والمصرية . وارتبطت معرفة الكتابة ارتباطا شديدا بالعقيدة الدينية وعبر عنها الانسان خير تعبير حيث ظهرت في كل ما حدث ويحدث له منسوبة الى الآلهة ، وأصبح للمعبد مكانته الاولى في المجتمع يسير اقتصاده ويوجه سياساته ويعلن الحرب أو السلم . وتكونت لهذا المعبد القاعات الضخمة منافسا بذلك السلطة المدنية المتمثلة بالملك أو الحاكم ، الذي سعى الى اضفاء قدسية خاصة على نفسه ، فاصبح الها مقدسا لدى قدماء المصريين ، أو حاكما يستمد سلطته من الآلهة كما حصل في بلاد الرافدين .

وبذلك يكون التاريخ قد دخل مرحلة دينية . وسيطر الفكر الديني الممتزج بالاساطير على تفكير الانسان في منطقة الوطن العربي القديم ، فظهرت الملاحم والاساطير البابلية والفرعونية والكنعانية والفينيقية . وكذلك ظهرت الحوليات الدينية العادية ومنها القوائم النذرية والقوائم التي تسجل أسماء كهنة وكاهنات المعبد وسجلات الصدقات والنذور . وهذه جميعها كتابات تعطينا صورا تتصل بالتاريخ في كثير من النواحي ، كما تعبر عن ألوان من الفكر . غير انه لا يمكن الاطمئنان الى هذا الفكر من الناحية التاريخية لانها لم تكن تعبر عن الانسان وجهده وانما كانت تعبر عن الآلهة وعلاقتها بالانسان . ومع ذلك يمكن أن نعتبرها ، الآن ، وثائق تاريخية تفيد الباحث في التعرف على تطور الفكر الديني وعلاقة الانسان بالآلهة ومزج الحقيقة بالاسطورة . وبمعنى آخر ، فان الانسان القديم لم يكن يعي شيئا عن « فكرة التاريخ »، كما أن الانسان الذي دون هذه الكتابات لم يكن صاحب « وعي تاريخي » أو مدركا للزمن أو الحقيقة كما نفهم هذين التعبيرين الآن .

وعلى صعيد آخر ، فان للرواية الشفوية التي انتقلت عن طريق التواتر عبر القرون ، وحفظت لنا بعض الاخبار عن الماضي ، دورها في التعرف على أحوال العصور السابقة . وقد وجد المؤرخون في الرواية الشفوية مصدرا سهلا وايسر منالا ، في التعرف على أحوال الغابرين ، وبخاصة اذا كانت كتاباتهم قد دونت أو نقشت بلغة لا يتقنها المؤرخ (٦) .

أما المرحلـة الثانية لتطور علـم التاريخ فانها تتمثل في الكتابة عنـد الاغريق ، حيث تتميز الكتابة عند مؤرخي الاغريق بأنها اتجهت اتجاها عقليـا ارتبط بالانسان ونشاطاته المختلفة . ولم يخضع الفكر الاغريقي الانسان للارادة الالهية، ومع ذلك فانه ظل محتفظا بالاسـاطير الدينية ومعبرا عنها ، وقـد عرف كتاب الاسطورة بالناثرين الايونيين . وبذلك وضع المؤرخ الاغريقي التاريخ في اطاره المكاني واطاره الزمني مـع الاستشهاد بالملاحم الاغريقية التي تعبر عن أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية. بمعنى أن الناثر الايوني لم يكتف بالوثيقة المكتوبة أو بالرواية الشفوية المتداولة ؛ بل درس العالم من حوله ليضع تاريخا يكون الاقرب الى الواقع الخالي من شوائب عناصر الاسطورة والمبالغة .

وتميزت كتابـات المؤرخين الاغريق بالاسـلوب العلمي الذي يتنـاول الحدث التاريخي بالتفصيل الدقيق . مع ابراز واضح للشخصيات التي كانت وراء الحدث . وخير ما يعبر عن هذا الاسلوب كتابات هيرودوت Herodotus (٤٨٤ — ٤٢٢ ق.م) والمؤرخ ثوكيديدس Thucydides (٤٧١ — ٤٠٠ ق.م) . الذي اكد على استخدام الوثائق وضرورة الاعتماد عليها في البحث التاريخي ، وطبق هـو نفسه هـذا المنهج باخلاص في كتابه عن الحروب البلوبونيزية الذي اشـار فيه الى انـه يكتب مـن اجل الفائدة التي يمكن أن يحصل عليها من معرفة حقائق الماضي . ومن ثم يضع مقاييس سـليمة للاحداث المتشابهة والتي يمكن أن تقـع مستقبلا وذلك وفقـا وترتيبا على الطبيعة المشتركة بين البشر . وهو بذلك يوضح لنا فوائد دراسة التاريخ وأهدافـه والتي منها امكانية استنباط ما يشبه القوانين التاريخية .

ومن الكتاب الاغريق . بوليبيوس Polybius (٢٠٣ — ١٢٠ ق.م) الذي أكد في آرائه على الهدف المادي للتاريخ . وأشـار على المؤرخين توخي الدقـة العلمية في السعي نحو كشف الحقيقة المجردة والابتعاد عن الغيبيات . وهو بذلك يسـتند في كتاباته الى الحقائق ويبـرز دور الانسان الـذي يصنع التاريخ(٧) . فالتاريخ عنـد بوليبيوس « يجب أن ينزه عن الاغراض التي تشوه الحقائق ؛ واذا ما وقف الانسـان موقف المؤرخ فعليه أن يتخلى رأسـا عـن جميع الاعتبارات كحب الانسان لصديقه وكرهه لعدوه . . . . وعليه في بعض الاحيان ألا يتورع عن مدح أعدائه وذم أصدقائه . وكما أن الانسان يفقد كل قيمته اذا انتزعت منـه عيناه ؛ كذلك التاريخ يفقد كـل اهميته اذا ما انتزعت منه الحقيقة ولا يبقى الا قصة لا قيمة لها . . . . »(٨) .

وفي نهاية العصر الاغريقي اتجه التفكير التاريخي الى اهمية التزام المؤرخ بوحدة موضوعية تربط بين مراحل التاريخ الزمنية ، وبذلك تميزت هذه الفترة بالعمومية في كتابة التاريخ التي تخطت المفهوم السابق المتمثل بتدوين التاريخ لمراحل متعددة . وقد بدأ هذا الاتجاه في أعقاب القرن الخامس قبل الميلاد ، حين ابتعد المؤرخ الاغريقي عن التقيد بالزمن وأصبح بامكانه أن يكتب تاريخا يمتاز بالوحدة الواضحة ، بصرف النظر عن مداها الزمني ، مستعينا بالمادة العلمية لمن سبقه من المؤرخين .

أما المرحلة الثالثة لتطور التاريخ فتتمثل عند الرومان ، حيث شهد التاريخ تطورا أصيلا ، فالى جانب الصيغة العمومية للتاريخ ، برز الاهتمام بالحقيقة التاريخية التي لا يرقى اليها الشك . وبذلك أصبح التاريخ لدى الرومان تاريخا للعالم بأسره ، وذلك بعد أن أصبحت روما سيدة العالم ومجالا للفخر والعظمة لدى الرومان الذين نظروا الى التاريخ على أنه دراسة اجتماعية تتناول تاريخ الانسان ممثلا في الشعب الروماني ، كما نظروا في الكون واعتقدوا بوجود قوى الهية مقدسة تعبر عن ارادة عليا وتدعم ارادة الانسان الحرة ولا تتدخل في مجرى التاريخ أو توجهه توجيها جبريا . فالآلهة الرومانية لم تكن أشخاصا بل كانت قوى طبيعية ذات وظيفة معينة ، مع ميل فيها لكي تتكون من مجردات(٩) . ويعتبر هذا الاعتقاد امتدادا لما كان عليه الاغريق ، ومن هنا أضرت هذه النزعة بروح البحث العميق والنقد حيث أصبح للتاريخ قدسية التزم بها الكتاب والمؤرخون .

ويعتبر تيتوس ليفيوس من أبرز المؤرخين الرومان ، وقد اعتبره الغرب « شيخ مؤرخي روما » ، فقد كتب ليفيوس التاريخ ليدون الاعمال العظيمة ويسجل المآثر المفيدة التي حققها الشعب الروماني ، من أجل أن يضع حقائق التاريخ أمام القارىء ليأخذ منها الصالح ويتجنب المثل السيء (١٠) .

أما المرحلة الرابعة لتطور التاريخ فتتمثل في العصر المسيحي وهو العصر الذي حدث فيه تغيير كبير في مفهوم الكتابة التاريخية حيث خضع هذا المفهوم لتكييف جديد نجم عن الانقلاب الذي جاء في ركاب التفكير المسيحي ، وهو الانقلاب الذي تمثل في ادخال فكرتين أساسيتين هما :

١ ــ فكرة التفاؤل بالطبيعة الانسانية .

٢ ـ فكرة وجود قيم أبدية خالدة تكمن وراء عملية التغيير التاريخي .

لقد بدلت المسيحية الفكر البشري تبديلا بالغ العمق ، ومن ثم طرأ تغيير على العديد من مفاهيم المنهج التاريخي التي شاعت في العهد الاغريقي والروماني وبخاصة حين حملت المسيحية معها ثورة جديدة من القصص والاحداث والحكم والامثال الواردة في التوراة . وفتحت المسيحية آفاقا جديدة للتاريخ على أيدي رجالها البارزين ومنهم أوغسطين St. Augustine (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) الذي أفسح المجال امام تصور تاريخي جديد للكون يبدأ بالخلق كما جاء في التوراة وينتهي بيوم الحشر ، وبذلك يكون التاريخ هو تاريخ البشرية كلها . وأصبحت كتابة التاريخ تتميز بصفة العموم والشمول متضمنة أخبار الكنيسة وفكرة القدرية الموجهة لاحداث التاريخ ، وانصب الاهتمام على حياة المسيح حيث جعلها المؤرخون محور الاحداث ، حتى ان اسيدور الاشبيلي أستحدث في القرن السابع الميلادي تاريخ ميلاد المسيح توقيتا للاحداث التاريخية ، كما قسمت حياة المسيح الى حقب وفترات لكل منها مميزاتها الخاصة بها .

أما المرحلة الخامسة فتتمثل في العصور الوسطى حيث اتسمت الكتابة التاريخية بسمات أدت الى بعدها عن مفاهيم وأفكار العهد المسيحي الاول . ويمكن ايجاز هذه السمات على النحو التالي :

- الرجوع الى الاسلوب الذي درج عليه المؤرخون بعد الاسكندر والمتمثل في الاعتماد على المصادر الوثائقية لاستنباط الحقائق .

- اتسمت الكتابة التاريخية بفكرة القومية والاعتزاز بها والصراع بين القوميات المختلفة .

- الاعتقاد بأن التاريخ يمضي بمشيئة الهية تنظم الاحداث كلها ، فأهمل العنصر البشري واختفى النقد والتحليل وتركز اهتمام المؤرخين في دراسة خصائص الذات العليا المقدسة واقرار المشيئة الالهية .

- ظهور التراجم التي تتناول سير القديسين لتكريمهم وتقديسهم ، مما نجم عنه ظهور نوع من الكتابة التاريخية التي تدون للاسر .

- بروز عدد كبير من المؤرخين من بين رجال الدين الذين استمروا يؤرخون

حتى القـرن الخامس عشـر ، حيـث انتقلت مهمـة التدوين الى رجال القانـون الذين اعتمدوا على الوثائق الرسمية ، وخصوصا الصكوك والوصايا والعقود .

أما المرحلة السادسة من تطور التاريخ فتتمثل في العصر الاسلامي ، وهو العصر الذي ازدهرت فيه المعارف والعلوم ولعب فيـه العرب دورا هامـا في تطور مفهـوم التاريخ وتقدم العلوم التاريخية ، فلكان دورهم في عصورهم الذهبية يفوق بكثير دور الامم الاخرى . فعن طريق منهجية الحديث ادخلوا في التاريخ الاعتنـاء بالموضوعيـة والتأكد من صحة الاخبار المروية . فقد نبت التاريخ في تربة علم الحديث الذي يقوم على الدقة والتحري والضبط بالنسبة للحديث المروي ، وعلى نقد الرجال ، وهو علم الجرح والتعديل(١١) ، فيما يتصل برجال السند وهم قواعد الرواية وعمدها .

وحيث أن التحليل الدقيق لنشوء مدارس التاريخ الاسلامي مسألة دقيقة لا يمكن لهذا البحث ان يلم بها ، فاننا نستطيع القول بأن التأريخ الاسلامي قد اتصف بصفات منها الاصالة والاستقلال ، اذ جاءت به حاجات المجتمع ، فجاء ملبيا لتلك الحاجات ومتصفا بخصائص المجتمع الاسلامي . ويتضح ذلك من توجيه المؤرخين منذ القـرن الثاني للهجرة عنايتهم الكلية الى التاريخ العربي منذ ظهور الاسلام ، ذلك أن التاريخ الاسلامي دخل منذ ولادة الرسول (ص) في مرحلة حاسمة تستحق أن تتخذ منطلقـا لبحوثهم . ويضاف الى ذلك أن المؤرخين المسلمين اعتبروا علم التاريخ متمما للعلوم الدينية وخاصة علم التفسير ودراسة أسباب التنزيل . وكذلك متطلبـات النظامين المالي والقضائي ، وتشجيع الخلفاء ، والنزاع السياسي ، كل هذه العوامل مجتمعة جعلت للتأريخ عند المسلمين صفات خاصـة ومميزات اقتصرت على ماهيـة الكتابة التاريخية عند المسلمين ، وتفوقت بها على ما عند الشعوب الاخرى من مناهج ينتظم بها المنهج التاريخي . ولهـذا فان مجال التأريخ عنـد المسلمين واسـع شاسع شـمل السـيرة والمغازي ، والطبقات ، وفتـوح البلدان ، وتواريـخ البلدان ، والتراجـم والتواريخ العامة(١٢) .

لقد شكلت مقدمة ابن خدون(*) منعرجا حاسما في كيفية فهم الانسان لتاريخه وتقييمه له وما يرجو مـن كشف لا عن ماضيه فحسب بل عـن تطور الجنس الذي ينتمي اليه ومصيره . وبذلك فتح ابن خلدون في مقدمته أبواب الاجتماع والاقتصاد

(*) ابن خلدون (١٣٣٢ ــ ١٤٠٦ م) ، هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، من أبرز المؤرخين وعلماء الاجتماع ، اشتهر بكتابة « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » .

والمؤسسات وضروب الثقافات والعلوم أمام التاريخ . ويذكر ابن خلدون في مقدمته : « .... حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني ، الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتأنيس والعصبيان واصناف التغلبات للبشر بعضهم ببعض وما ينشأ عن ذلك من الدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران من الاحوال ...... »(١٢) . فموضوع التاريخ اذن لا ينحصر بما حدث من الفتوحات والحروب ، وما توالى من الدول والملوك في الازمنة الغابرة بل يشمل كل ما حدث من التحول في الحياة الاجتماعية على اختلاف انواعها وفي المؤسسات الاجتماعية ، ذلك أن الاخبار المتعلقة بالاحوال الاقتصادية والصنائع والعلوم تدخل جميعها في نطاق موضوع التاريخ .

كما يقول ابن خلدون في مقدمته : « .... فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الامم والاجيال وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقيال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال ... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق .... »(١٤) . ويريد ابن خلدون بذلك القول أن يجعل من التاريخ اداة كشف عن سير الانسان وتطوره الاجتماعي، وعن خروج هذا الانسان من مرحلة « التوحش » الى « التأنيس » بفضل الصراع من أجل تخطي العقبات التي تعترض السبيل نحو انسية أكمل عن طريق الرقي المستمر الناشيء .

وبكل هذا يصبح التاريخ في رأي ابن خلدون استكشافا كليا لتطور الانسان ، وبالتالي سعيه للكشف عن العوامل الاساسية التي تؤثر في سير الوقائع التاريخية وتعمل على استنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها الامم والدول(١٥) ، وبالتالي توصل الانسان الى فهم وضعه في هذا الكون ومحاولة ادراك مصيره العاجل والآجل . وهذا يؤدي الى أن يتناول علم التاريخ أمور التطبيق والاسلوب والنظرية ، وعدم الاكتفاء بالمنهج فقط .

أما المرحلة السابعة فنستطيع القول بأنها المرحلة التي استعاد بها الغرب دوره القديم وذلك خلال عصر النهضة الاوربية(١٦) ،حيث نلمس تطورا هاما في علم التاريخ، اذ اتسم التاريخ في هذه المرحلة بعدة مميزات تجمع بين المناهج السابقة ومفاهيم حديثة متطورة . ويمكن ايجاز هذه المميزات على النحو التالي :

ـ بدأ التاريخ يفقد طابعه الديني ، وسيطر المذهب العقلي على الكتابات التاريخية

فاستبعدت المعجزات والخرافات ، واصبح المؤرخ يعتمد على النقد والتحليل ، ويهتم بالتثقيف السياسي اكثر من اهتمامه بالقاء المواعظ . كما برزت الدراسات الوثائقية بكل وضوح ، فقد استطاع الراهبان فالا ومابيون بعد نجاحهما في دراسة الوثائق ان يفتحا الباب على مصراعيه أمام دراسة اصول علم الوثائق . الذي عرف باسم الباليوجرافيا Paleography ، ووظيفته دراسة الخطوط والكتابات القديمة ، وتفرع عنه علم النقوش المعروف باسم الابيجرافيا Epigraphy ، ووظيفته دراسة النقوش والرسوم على الاحجار وغيرها ، وتفسيرها ، واستخراج المادة التاريخية منها ، ومن ثم أدى ذلك الى وجوب معرفة انواع المادة المستعملة في التدوين كالورق والرق والبردي ، والمواد الاخرى كالخشب والقماش والزجاج والمعادن وغيرها . وقد ارتبطت حركة البحث عن الوثائق والعناية بها في أوربا بنمو الشعور القومي (١٧) ، كما أدى الاهتمام بالبحث عن الماضي الى ظهور علم الآثار Archaeology ، ووظيفته دراسة التركة الاثرية للانسان عبر العصور الماضية ، وما تمثله هذه التركة من أبنية واشياء مصنعة أو ادوات أو نقش ، وهي جميعها تعكس حياة الانسان اليومية الى جانب ما تحمله من فكر انساني اعتنقه الانسان ومارسه عبر مختلف العصور ، وبدرجات متفاوتة ، خلال تطوره الاقتصادي الى الاجتماعي والسياسي والديني .

- تركز اهتمام التاريخ حول الدولة بوصفها المحور الرئيسي الذي ينبغي أن تدور حوله الاحداث ، وابتعدت الكتابات التاريخية بالتالي عن دراسة الكونيات . واستعان حكام الدول بالادباء لتدوين تأريخ دولهم . فبرز الاسلوب الادبي في الكتابات التاريخية ، ولا سيما في ايطاليا التي سبقت الدول الاخرى الى عصر النهضة .

- أهمل المؤرخون الشعب والجماهير كموضوع حقيقي للتاريخ ، وتركز اهتمامهم على بلاط الملوك والامراء والحكام وعظماء الرجال ، واصبح المؤرخون في الصفوف الاولى من رجال الدولة ، ومن هذه الامثلة فولتير في فرنسا ، وكلارندون بانكلترا .

ويلاحظ الباحث أن علم التاريخ قد خطا خطوات واسعة على امتداد هذه المرحلة ، من عصر النهضة حتى وصل الى صورته الحالية في القرن العشرين .

واذا انتقلنا الى المرحلة الثامنة من تطور مفهوم التاريخ ، وهي المتمثلة في

عصرنا الحالي ، نجد أن علم التاريخ في العصر الحديث قد تميز باتصال المؤرخ اتصالا عفويا بالجماهير . ويمكن تتبع هذا التطور على النحو التالي :

آ ـ ظهور حركة « الاستنارة » أو « التنوير » في التاريخ The Enlightenment ونهضة البحث التاريخي خلال القرن الثامن عشر ، وقاد هذه الحركة أو المدرسة الجديدة في التفكير التاريخي فولتير ، وهيوم(١٨) . ويقصد بالاستنارة تلك الجهود التي اتسمت بها مقدمات القرن الثامن عشر والتي استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية في كل ميادين الحياة الانسانية والتفكير ، وهي في واقعها ثورة على الدين الذي كان يعتبر قيداً على النشاط الانساني ، فهي جهاد ضد سيطرته وسلطانه ، وغايتها تحرير الانسان من كل قيد على فكره وتصرفاته . ويمكن ايجاز أهم مظاهر هذه المرحلة على النحو التالي :

ـ الالتزام بفكرة البحث التاريخي ، الذي أصبح مدخلا قويا للتاريخ العلمي .

ـ ظهور جماعة اليسوعيين في بلجيكا التي سعت الى تأريخ حياة القديسين على حقيقتها وتقويم الاساطير من خلال نقد وتحليل الوثائق والاصول . وقد شجع هذا الاتجاه على بروز جماعة «الباحثين» الذين وجهوا كل اهتماماتهم الى نقد الوثائق بحيث أصبح هذا النقد فنا له أصول وقواعد .

ـ انتشار النزعة العلمية في التأريخ في فرنسا وغيرها مما شجع الباحثين على زيادة اهتماماتهم بالوثائق وحفظها في اماكن خاصة في معظم أقطار أوربا .

ب ـ ظهور كتاب ديكارت Discours de la Methode الذي اصبح منهجه قاعدة للباحثين ، وشجع المؤرخين بالتالي على استبعاد كل شواهد التاريخ القائمة على أساس العقيدة وحدها ، وأصبح الشك هو الاساس العام للدراسة والسبيل الوحيد للوصول الى المعرفة .

ومن مميزات هذه المرحلة ان اصبح المؤرخ يهتم بالاحداث من خلال الوثائق والظروف المحيطة بعد مناقشتها ونقدها ثم عرض نتائجها في أسلوب ادبي .

جـ ـ ومنذ أوائل القرن الثامن عشر أخذ التاريخ يستقر على قواعد واصول فنية علمية خرجت به ـ شيئا فشيئا ـ من مجال الادب والفلسفة والتأملات واساطير القديسين ، ومدائح الملوك الى أرض العلم الصلبة ، وولد علم التاريخ في الغرب .

وقد ارتبط مولد علم التاريخ في الغرب بأسماء مشهورة منها : دوشن Duchesne الذي كتب تاريخا للكنيسة الكاثوليكية ، وبالوز Baluze ومابيلون Mabillon ومونفوكون Montfaucon . أما ادوارد جيبون Edward Gibbon ١٧٣٧–١٧٩٤ فيعتبر من أعظم المؤرخين واساتذة علم التاريخ على مر العصور ، ومن أشهر مؤلفاته كتابه عن « تاريخ سقوط الدولة الرومانية » ، وقد عاصر فولتير ، ومونتسكيو (١٩) وجان جاك روسو(٢٠) وغيرهم من أعلام ذلك العصر ، ويرى العديد من المؤرخين أن جيبون صاحب مدرسة في التاريخ مثل رانكه ، وانه ارتفع في التاريخ الى مستوى لم يعرفه الغرب من قبل . ومما هو جدير بالذكر انه من المؤرخين الغربيين القلائل الذين قدروا التاريخ الاسلامي .

ومن اعلام المؤرخين في عصر التنوير آدم سميث ١٧٢٣ – ١٧٩٠ الذي يعتبر مؤسسا لعلم الاقتصاد بعد نشره كتابه المشهور « ثروة الامم « Wealth of Nations » وهو كتاب تاريخي لفت فيه الانظار الى أهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ ، حيث كشف عن أهمية العامل الاقتصادي في بناء الدول والجماعات ، وقد سبق كارل ماركس في هذا الاتجاه .

ان مؤرخي القرن الثامن عشر ، وعلى رأسهم جيبون (١٧٣٧ – ١٧٩٤ م) قد لفتوا أنظار الناس الى اهمية دراسة التاريخ دراسة علمية موضحين قيمته الكبرى كدراسة انسانية أصيلة ، وبالرغم من ذلك فانهم لم يصلوا الى تثبيت اقدام التاريخ كعلم له أصول ومناهج بحث، حتى أن جيبون نفسه كان يعتقد ان التاريخ ضرب من الادب، وقال عنه انه . «أشهر ضروب الادب The most popular of all Forms of Literature» وهي عبارة انكرها عليه مؤرخو القرن التاسع عشر انكارا شديدا . كما يؤخذ على مؤرخي القرن الثامن عشر عدم اهتمامهم بتطوير الانسان ومجتمعه ، وظلوا ينظرون الى انسان عصرهم وكأنه نفس انسان العصور القديمة دون التعرف على تطور عواطفه أو سلوكه . ولهذا فانهم لم يستطيعوا ان يصلوا بالتاريخ الى مرتبة العلوم التي تدرس في الجامعات .

أما في **القرن التاسع عشر** فيبدأ المؤرخ اتصاله الجماهيري ، فلم يعد يركز على الدولة أو على طائفة معينة . كما اتصف البحث التاريخي بالموضوعية ، فحاول المؤرخ الوصول الى النتائج والحقائق بأسلوب علمي مبتعدا عن الروايات الفردية أو المثيرة ، أو الاكتفاء بسرد الوقائع ، وقد ادى ذلك الى أن يصبح التاريخ دراسة انسانية تتصل بالحياة البشرية عموما في شتى مجالاتها وأنشطتها من خلال تناول الحياة اليومية للمجتمعات .

كما حدث تغيير حاسم على وضع التاريخ والنظرة اليه في هذا القرن الذي تميز بتزاحم الاحداث الضخمة التي أحدثت ثورة حقيقية في كـل ميادين العلوم تقريبـا ، فانتقل التاريخ من نطاق الهوايات أو الآداب الى نطاق العلوم ذات الاصول والمناهج . وتتمثل ثورة التاريخ في القرن التاسع عشر في التطور الشامل في علم التاريخ التـي تزعمها المؤرخون الالمان ، وتعرف بمدرسة برلين ، وقائدها ليوبولدفون رانكه (٢١) ، رغم انه سبقهم مؤرخون اوربيون واشتهر منهم جيماباتيستا فيكو Gimabathista Vico ١٦٦٨ ـ ١٧٧٤ ، وهو من مشاهير عصر التنوير . وهو اول من نظر من علماء الغرب الى التاريخ العالمي نظرة فلسفية ، كما فعل ابن خلدون قبله بنحو ثلاثة قرون ، وقد قسم فيكو التاريخ الى حقب ثلاث :

(١) **حقبة آلهية :** اي العصر الذي كان الناس فيه يردون كـل الحوادث الى صـنع الآلهـة .

(٢) **حقبة بطولية :** كان التاريخ فيها سردا لاعمال عظماء التاريخ .

(٣) **حقبة انسانية :** وقد انتبه المؤرخون فيها الى أن التاريخ الحقيقي هو الذي تصنعه الجماهير والشعوب (٢٢) .

ويعتبر المؤرخ يوهان جوتفريد هيردر Herder ١٧٤٤ ـ ١٨٠٣ مؤسس المدرسة الالمانية في علم التاريخ ، وكان أديبا ولاهوتيا ، ومن اهم كتبه التاريخية « آراء في فلسفة تاريـخ البشـــر « Ideen zur philosophie der egeschichte der menschheit » ثم رسالته المسماة :

« Auch eine philosophie der geschichte zur bildung der menschheit »

وكذلك فلسفة التاريخ في بناء الانسانية (٢٢) .

اما في **القـرن العشرين** فقـد تقدمت المدارس التاريخية ، وتطورت مناهجها . ويعتبر هذا القرن ، الذي شهد التفجر الثقافي والتطور الكبير في جميع مجالات العلوم ، أحد المعالم الشهيرة في تطور التاريخ . ففي هذه المرحلة تبلور المفهوم العلمي للتاريخ ، وظهرت القوانين التاريخية ، كما اكتمل منهج البحث التاريخي بجميع عناصره ، منهيا بذلك الجدل الذي احتدم طويلا في القارة الاوربية ، وبخاصة في المانيا وانجلترا ، بين الفلاسفة والمؤرخين من مؤيدين ومعارضين للمبدا القائل بأن « التاريخ علم » .

انتقل علم التاريخ في هذه المرحلة من فرع ثانوي من المعرفة يمارسه بعض الكتاب والسياسيين كوسيلة للتقرب الى الله برواية اخبار الصالحين أو التزلف الى الملـوك

والزعماء بكتابة تراجمهم ، الى علم مستقل له أصوله ومنهجه وعلماؤه ومختصوه ، كأحد اسس المعرفة الانسانية . كما انبثقت عنه علوم أخرى مكملة ، كالآثار ، والخطوط والكتابات القديمة ، وعلم النقوش ، وعلم الوثائق والمحفوظات ، وغيرها من العلوم التي احتلت مكانة خاصة بين العلوم الاخرى ، واصبح علم التاريخ يستعين بأحدث اكتشافات الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا ، كما انه في سبيل استخدام الاجهزة والعقول الالكترونية كي يمتد أكثر فأكثر في جميع مجالات المعرفة الانسانية .

ويعتبر كروتشه(٢٤) وكولنجوود(٢٥) ، وتوينبي ، وشبنجلر ، وماركس ، وهنري بيرين Henri Pirenne ١٨٦٢ ـ ١٩٣٥ ، من أشهر فلاسفة التاريخ في عصرنا ، فقد وصل التاريخ على أيديهم الى مرتبة العلوم ذات الوظيفة والشخصية المستقلتين ، أي ان التاريخ علم بالمنهج ، تنطبق على دراسته مناهج البحث العلمي من حيث استقصاء المادة ، ودراستها وتحليلها تحليلا دقيقا قبل استخلاص الحقائق التاريخية . وعندما قال : ب. بيوري B. Bury « التاريخ علم ، لا أكثر ولا أقل « History is a science, no more, no Less » فتح باب النقاش واسعا حول هذا الموضوع ، فقال بعض المؤرخين ان التاريخ لا يسير على قوانين ولكنه يسير على منطق، فلكل حادث أسبابه وتطوراته ونتائجه المنطقية . وهذا يوحي بأنه ليس من غاية التاريخ تجريد نواميس Nomologique (قوانين) ، أي أنه ليس علما تجريبيا ، كما يعني أن التاريخ لا تكرار فيه لانه علم الانسان قبل كل شيء وهو حركة مستمرة ؛ ولا يسمح بأن تكون له قواعد وقوانين مجردة كقوانين العلوم .

ولا يتسع المجال هنا لمناقشة جميع الآراء حول علمية التاريخ (٢٦) ، وانما يمكن الاكتفاء بالمحصلة النهائية لهذا النقاش الذي يقول : ان التاريخ وان لم يكن من العلوم الناموسية ، فليس معنى ذلك حتما انه ليس بعلم ، فهو علم بهدفه ، وهو ككل العلوم يسعى وراء الحقيقة ، وهو علم بمنهجه الذي لم يفتأ على مر العصور يتطور ويزداد احكاما . ومهما يكن الامر ، فانه ليس من الضروري كي يكون العلم علما أن يميط اللثام عن كل خفية ودقيقة ، بل يكفي أن يبلغ الحقيقة بقدر الامكان .

أما عن ماهية القوانين التاريخية فان ماركس يرى ان التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الانساني ، وهذه القوانين حتمية ، اي انها تفرض نفسها لانها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه ، واذا أدرك الانسان هذه القوانين ، استطاع ان يقرر صورة مستقبل الجماعة الانسانية ، وان هذه القوانين ليست مثل قوانين العلوم البحتة ، وانما هي حقائق متعلقة بطبيعة العمل والانتاج ، وطريقة توزيع الثروة بين المواطنين ؛ فالثروة تنتج عن العمل ، والعمل يقوم به من يعملون بأيديهم أو بعلمهم ومواهبهم ؛ وان ثمرته لا بد أن تعود حتما على أولئك العاملين أنفسهم .

ويقول ماركس ان الاحوال أو الاوضاع الاقتصادية لاي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها وكل مظاهر حضارتها ، واذا أردنا أن نفهم نظام أي مجتمع ونطاقه السياسي ، أو حتى طبيعة عقيدته الدينية وانتاجه الفني والفكري ، فلننظر أولا الى نظامه الاقتصادي ، وأساس النظام الاقتصادي هو الانتاج ونوعه وأساليبه وطريقة استعماله أو توزيع ثمراته . والانتاج نفسه ، سواء أكان يدويا بدائيا أم آليا متطورا ؛ لا يظل دائما على مستوى واحد وأسلوب واحد ، فهو يتطور دائما ، أو على الاقل هو متطور باستمرار في أدواته وصورته وطريقة توزيعه . وهذا التطور للانتاج ، أي الوضع الاقتصادي ، مستمر مهما كان بطيئا ، وتطوره هذا هو الذي ينتج عنه تطور المجتمع الذي يقوم عليه ، وكل نظمه وقوانينه ، وما يقوم على ذلك كله من أفكار وعقائد وآداب وفنون ، وكل ما يسميه الماركسيون المظهر الخارجي للمجتمع .

كما تتميز هذه المرحلة بتبلور فكرة « التاريخ الكلي » ، الذي يدعو الى دراسة العصر من كل نواحيه : السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية والحضارية لتغطية جميع مجالاته التاريخية . ومن أبرز المؤرخين في هذا المجال المؤرخ هنري بيرين Henri Pirenne ١٨٦٢ ــ ١٩٣٥ ، والمؤرخ جورج ليفبور George Lefebore ١٨٧٤ ــ ١٩٥٩ ، فقد عني الاول بالناحية الاقتصادية كجزء من الاطار العام للحقائق التاريخية ، ويعتبر من أفضل من طبق « التاريخ الكلي » . اما الثاني فقد سار على المنهج الدقيق الذي يلتزم الاصول بكل دقة ، وقد قال بأنه لا تاريخ بلا وثائق .

أما توينبي (٢٧) فهو يحتل مكانة بارزة بين مؤرخي هذا العصر ، فقد اثبت حقيقة استمرار التاريخ ، وان الماضي والحاضر يربطهما بالفعل رباط حقيقي لا شك فيه . كما انه يعتقد بدراسة عامة شاملة وصل كل منها الى قمته في صورة حضارية قائمة بذاتها ، فالتاريخ الاسلامي في نظره ، تجربة واحدة خلاصتها هي الحضارة الاسلامية، فالحضارة لا التاريخ القومي هي وحدة الدراسة التاريخية (٢٨) .

لقد كان للعديد من المؤرخين الفضل في تطور التاريخ كعلم انساني يدرس الانسان في حاضره ، ويمتد لتجاربه في الماضي ، في ظل الزمان والمكان التي تمت فيه ، والقاء الاضواء عليه ، لعل معرفتنا بالماضي تمكننا من فهم الحاضر ، ومن ثم النظر للمستقبل من خلال دراسة موضوعية تساعدنا على التخطيط لمستقبل أفضل . فقد كان لاولئك المؤرخين الفضل الاكبر في جعل التاريخ علما مستقل الشخصية ، واضح المنهج والطريقة ، واثبتوا أن التاريخ هو من الدراسات الاساسية في المعرفة الانسانية ، وأبعدها اثرا في تكوين العقل الواعي المدرك لحقائق الحياة .

كان للنهضة الاوربية أثر كبير في تطور جميع العلوم ، وقد حظي التاريخ بنصيب وافر من هذا التطور ، حيث امتزج التفكير العلمي بدراسة التاريخ ، مما أدى الى تطور مفهومه وأسلوبه ومنهجه ، فاحتل في القرن الماضي مكانة مرموقة بين العلوم الاخرى ، وأصبح العصر الحالي يتميز بعصر العلوم وبالعقلية التاريخية . لقد بذل المؤرخون جهدا شاقا في نقل التاريخ من حكايات وأساطير الى دراسات وحركات فكرية ، فالتاريخ بمفهومه الحديث لا يقتصر على أخبار وأساطير الماضين ؛ بل هو يدرس التجربة الانسانية ، أو جوانب منها ، ولا يسعى الى فهم الانسان وطبيعة الحياة على وجه الارض . والانسان كل لا نفهمه ما لم نعتن بحياته الاقتصادية والاجتماعية والتشريعة والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية ، عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته . فبيئة الانسان هي جميع مايحيط به ويؤثر فيه . وعلى الرغم من ان لكل كائن بيئته ، الا ان بيئة الانسان اكثر اتساعا من بيئة النبات والحيوان. فقد استطاع الانسان بذكائه وعلمه أن يوسع دائرة بيئته بفضل ما استخدمه من اساليب المواصلات الحديثة وتغلبه على ظروف البيئات التي لاتناسبه ، فقد سكن الارض من مناطقها الاستوائية الحارة الى قطبيها المتجمدين ، وخرج من نطاق الارض ليصل الى الكواكب الاخرى ، ويحاول الانتفاع بها الى اقصى حد ممكن .

حققت المعارف الانسانية في العصر الحالي ما يمكن ان نسميه ثورة في علم التاريخ ، تناولت مادته ومناهجه وأهدافه ، وتبعها اتساع في فروع التاريخ ، فشملت تواريخ العلوم ، والفكر ، والفنون ، والتطورات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والتواريخ المقارنة وغيرها . كما ان التاريخ لم يعد ملكا للشعوب الحضارية القديمة فقد دخلت فيه جميع الشعوب . واستعان منهجه بالعديد من العلوم المساعدة ، منها الجغرافية ، والجيولوجيا ، والفيزياء . . . ، وبمعطيات العلوم والبحوث الجديدة ، ومعطيات العلوم التقنية ، واتخذ من الشعوب والبيئة والمجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في حياة الانسان منطلقا وموضوعا .

ان حركة التجديد التي شملت مفهوم التاريخ ومناهجه قد اخرجته من المرويات وأساطير الاولين ، واستخدامه كوسيلة للوعظ والتوجيه الفكري والسياسي ، وأدخلت عليه مناهج البحث والاستقصاء ، ومدت نطاقه من الماضي ليشمل الحاضر والمستقبل ، وجعلت منه دراسات فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية . ولم تعد أهدافه تنحصر في العظة والعبرة ، انما اتسع ليشمل دراسة تطور حياة الانسان بمعناها الشامل ، والسجل الطويل للمجتمع الانساني للاستفادة من تجارب الانسان في الماضي ونتائجها في الحاضر ، ومن ثم المساعدة في التخطيط لمستقبل أفضل .

ويعتبر التاريخ حوارا بين الماضي والحاضر ، حوارا بين الاجيال ، وحوارا بين الانسان والزمان ، وحوارا بين المؤرخ والقارىء . فالتاريخ بلا شك هو التجربة المدونة للجنس البشري ، والانسان يستطيع ان يستفيد من التجربة في أي ميدان من ميادين المعرفة .

فالتاريخ يدون حياة الامم وتجاربها وخبراتها التي هي ثمرة التفاعل بين الانسان وبيئته ،فهو يحققها ويوضح الترابط والعلاقات بينها ، كما يبرز التطور الذي طرا على حياة الامم من حيث مسبباته ووسائله ، والوقوف على الاسس التي تتحكم في تلك الظروف ويمهد السبيل للتغيرات المرتقبة ، كما ينشد معرفة الظروف التي تؤثر في الاتجاهات المختلفة التي تظهر في أوقات شتى . وهذا يتطلب دراسة ومتابعة التفاعل الدائم بين المجتمع والثقافة والمصادر الطبيعية ، والمجتمع بما يتضمنه من بشر في اطار من علاقات قومية واجتماعية واقتصادية وسياسية وروحية ، والثقافة التي تتمثل في الجانب الذي صنعه الانسان من بيئته سواء أكان معنويا أم ماديا ، ثم المصادر الطبيعية التي تمثل جميع الظروف في البيئة من أرض وبحار وماء وشمس وهواء وحيوانات ونبات وثروات طبيعية . فالانسان في تفاعل مستمر مع بيئته في جميع مكوناتها المادية والاجتماعية او العقلية او النفسية التي تحيط به وتؤثر فيه ويتأثر بها ، فهو جزء منها ، وعليها تتوقف حياته ، فهو يستمد منها جميع مقوماته . ان التفاعل بين الانسان وبيئته مستمر لا ينتهي الا بنهاية حياته ، بل انه يستمر من الناحية المادية بعد نهاية حياته ولكنه لا يدخل في اطار خبرته (٢٩) ويقول سانتيا : « .... يجب ألا نخلط بين معنيين للتاريخ : أولهما سياق الحوادث كما تقع فعلا وثانيهما مشهد هذه الاحداث الذي يلتقطه المؤرخ ويضمنه كتابه » (٣٠) . وبعبارة أخرى ينبغي التمييز بين « التاريخ History » كمسيرة للانسانية ، و « علم التاريخ Historiography » كفاعلية انسانية . فعندما نكتب التاريخ ، فاننا نسجل تجربة الانسانية ، وهذه التجربة لا زالت سائرة متصلة الحلقات ، والتاريخ على هذا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل ، ونحن عندما ندرس الماضي فاننا في نفس الوقت ندرس الحاضر والمستقبل ، فالتاريخ هو سجل الماضي ، وصورة الحاضر ، والمرشد الى الغد .

والتاريخ بمفهومه الحديث يكتبه أولئك الذين يعتقدون أنه ليس قسما من « العلوم الادبية » ، وانه ليس مجرد قصة طريفة مفيدة مسلية ، بل هو « فرع من العلوم » . وهذا العلم كغيره من العلوم الحديثة ، هو نتاج نهضة القرن التاسع عشر الى حد كبير . فالتاريخ ليس أحداثا تعبر الزمن ، ولكنه ممارسة فكرية وجهد

تكويني يدون حياة الامم وتجاربها وخبراتها ويحققها ويوضح الترابط والعلاقات بينها .

فمهوم التاريخ قد تطور فيوقتنا الحاضر تطورا كبيرا ،فأصبح علما له شخصية مميزة وغايات يسعى اليها ، وله مناهج البحث الخاصة به ، ويحتل مكانة مميزة بين العلوم الانسانية ، فهو المرآة التي تعلكس شخصيات الامم والاسس التي يقوم عليها حاضرها ومستقبلها . وهو مجموعة الاحداث التي وقعت في الماضي وظروفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والتي نحصد نتائجها في الحاضر ، ثم التنبؤ على هدى ذلك وفي ضوئه بما سوف يقع مستقبلا .

ومتى ما استقر الراي على أن التاريخ هو علم له شخصية مميزة وغايات يسعى اليها فانه لا بد ان يكون لهذا التاريخ بناء منطقي ليشمل عالم الانسان . لذا فقد ارتبطت كل نظرية في التاريخ بنظرية الانسان والزمان ، فالانسان هو العنصر الاساسي في حركة التطور الشامل وما يجري من حوادث لن يكون لها من قيمة ما لم تتفاعل مع الفكر الانساني وتؤثر في وضع الانسان وتوجه مصيره ، أما الزمان فهو تلك المرحلة التي يمر بها الانسان فاعلا ومتفاعلا ، وبذلك أصبح للتاريخ سبل متشعبة ومسارات متفاوتة ومتى اصبح عمل الباحث الربط بين التأثير والتأثر وبين الاسباب والنتائج فان التاريخ يبرز لنا خبرات انسانية متعددة ، فاكتساب الخبرة بحد ذاتها ، يتوقف على عدد من العوامل منها ذكاء الانسان وقدرته على ادراك العلاقات ، أسلوب تفكيره ، شدة انفعالاته ، قوة دوافعه ... مضافا الى ذلك كله تجاربه السابقة « المكتسبة » والظروف النفسية والاجتماعية المحيطة به .

مسارات التاريخ ومحاوره الرئيسية :

ان حركة التاريخ مستمرة ، وهي في تغير دائم ، سواء في حجمها او شكلها ، او آثارها ، او تأثراتها ، او في زمانها ، كما أنها متعددة الخطوط والاتجاهات والاعماق، ويتفاعل العديد من العوامل في صياغتها . فهل هذه الحركة تسير اتفاقا في الكون ؟ وهل لها وتيرة واحدة ؟ وهل لها فلكها المحدود ؟ وما دور الانسان والزمان في المسيرة التاريخية ؟ ومن يوجه هذه المسيرة ؟ هل هي الصدفة ؟ أم جدلية المتناقضات ؟ أم المثالية ؟ أم المادية ؟ أم الميتافيزيكية ؟ ام التحدي والاستجابة ؟ أم الهزات النفسية ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة تشكل جوهر الفلسفة التاريخية .... وقد حاول بعض المؤرخين تحديد فلسفة التاريخ فيمعان رئيسة ثلاث : أولها أنها تعنى بالنظريات العالية المستوى الخاصة بالتيارات التحتية ، أو القوى الاساسية للتاريخ باعتباره

حقيقة موضوعية (هي الماضي) ، وثانيها النظرة العامة الانسانية والمفهومات الاساسية أيضا التي يأتي بها المؤرخ ، أو تأتي بها مدرسة من المؤرخين متعلقة بالمشاكل التاريخية التي يعالجونها متضمنة النظريات الخاصة بتعليل الحوادث أو مفهوم التقدم وما الى ذلك ، وثالثها انها تستعمل مرادفا على وجه التقريب للمنهج التاريخي Historical Methodology اي العملية الفعلية التي يسلك المؤرخ شعابها .

هذه هي المفاهيم الرئيسة او الافكار الرئيسة التي تناولها كبار المؤرخين والفلاسفة على مدى قرون طويلة تبلورت في القرن الاخير في مدارس متميزة واتجاهات فلسفية مختلفة . وبعبارة اخرى ، يمكن القول بأن أصل فلسفة التاريخ ترجع الى كيفية تفسير الاحداث التاريخية ، وعلاقة ذلك بالكون ، وكيفية التوصل الى القوانين التي تحكم تلك الاحداث ودور الانسان في كل ذلك .

وفي ضوء ما سبق يمكن ايجاز التطور الكبير الذي حدث في مفهوم التاريخ واسلوبه ومنهجه بمراحل حاسمة ثلاث ، اعتبرها البعض ثورة في علم التاريخ : ابتدات المرحلة الاولى مع بداية العصر الاغريقي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ؛ حيث حدث تغير كبير في مفهوم علم التاريخ ، وظهرت الفكرة التي تنادي بأن التاريخ علم كسائر العلوم ، أو ضرب من ضروب البحث العلمي بعد أن كان عبارة عن قصص واساطير ومعتقدات دينية ، ولقد استمر هذا الاتجاه في العصرين الاغريقي والروماني مبتعدا عن قيود الاساطير الدينية . فكان بمثابة « ثورة » تاريخية ، في مفهومه وكتابته ، والاعتماد على الوثائق في كتابة التاريخ وتدوين الاحداث .

اما المرحلة الثانية فقد حدثت في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، حيث خضعت فكرة التاريخ لمفهوم جديد نتيجة للانقلاب الكبير في مفهوم التاريخ الذي جاد في التفكير المسيحي .

وقد حدثت المرحلة الثالثة في عصر النهضة الاوربية واستمرت في مفهومه واسلوبه ومناهجه حتى اكتملت الصورة العلمية للتاريخ واصبح له مناهج بحثه الخاصة في العصر الحالي ، الذي تميز بالانفجار الثقافي وتطور العلوم في جميع مجالاتها .

وكيفما كان الحال فاننا سنفرد أفكارا تلقي الضوء على منجزات ابرز المؤرخين والفلاسفة في مجال التاريخ ، وتطور اسلوبه ومنهجه ومن ثم ظهور المدارس التاريخية والفلسفية المختلفة في العصر الحديث .

الانسان وفلسفة التاريخ (٢١) :

ان معظم اجتهادات المذاهب والفلسفات التاريخية لم تحدد الاجابة الكاملة عن العلاقة بين الآلهة وبين الطبيعة ، بما فيها القوى المادية والانسان ، في مسيرة التاريخ واقامة الحضارات . وبعبارة اخرى تحديد ماهية العلاقة بين الآلهة والطبيعة في صنع التاريخ .

فالتاريخ هو علم الانسان في حياته وأحواله الدائمة التغيير ، فهو ينطلق من الماضي ، ويمتد في الحاضر ، ويرخي سدوله على المستقبل ، فهو علم تطور الانسان بلا انقطاع على مدى الزمان ، والتاريخ ليس أحداثا تعبر الزمن ، ولكنه ممارسة فكرية وجهد تكويني يتميز بميكانيكية العملية التاريخية التي تتصف بالشمول والاستمرارية في اطار المعرفة التاريخية وطبيعتها وحدودها .

ولكي نفهم الانسان يجب الاهتمام بحياته الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته ، فالانسان هو محور فلسفة التاريخ ، وهو ليس مجرد مركب معقد من الكهربات (الالكترونات) والبرتونات ، أو جعبة نفسية مملوءة بالدوافع النفسية. ولكنه مخلوق معقد الى حد عجيب ولا يمكن تحليله تحليلا عمليا . لقد وجد الانسان في بيئة لا تفي بحاجاته جميعا مما حتم عليه العمل المستمر لتحسين أحواله . ويرى العديد من الفلاسفة أن الرغبة في تحقيق هذا الهدف هي غاية كل الوجود الانساني ، وغاية سعي البشر منذ القدم . ويرى محمد اقبال(٢٢) ان مهمة الانسان ، أن يسهم في اعمق مطامح الكون من حوله ، وأن يقرر شكل مصيره هو ومصير الكون ، تارة بتكييف نفسه حسب قوة الكون ، وتارة ببذل كل طاقته لصياغة قوى الكون بالشكل الذي يتفق واهدافه (أي اهداف الانسان) وغاياته .

ان الذات الانسانية قد أوجدت نوعا من التوتر في تفاعلها مع المحيط المادي ، الذي كان ولا يزال يسيطر على فكر الانسان وارادته ، وجعل كثيرا من المفكرين يعتقدون أن البيئات المادية هي التي تفرض شكل مصير بني الانسان ، وممن تزعموا هذا الاتجاه : بكل راتسل Buchele Ratzel ، وكوميت(٢٢) Comete ، وسبنسر Spencer ، والان دريبر Alan Draper ، واخذوا يبحثون عن القوانين التي تحكم هذا الاتجاه بعيدا عن دور العنصر البشري في ذلك . وقد أدى تأكيدهم على العالم المادي الى تجريد التاريخ من صفته البشرية . وهذه النظرية تستند الى حد كبير على النظرة الجغرافية للتاريخ التي ترى أن كل الاعمال التي يقوم بها الانسان ، افرادا

او جماعات ، طبقات أو شعوبا انما يقومون بها دفاعا عن سعادتهم ، أي عن حياتهم - وحماية لانفسهم من الالم ، ولاجل بلوغ هذه الغاية لابد للانسانية من ان تبذل الكثير من الجهد ، وهذا يدفعها الى العمل فتقهر العالم المادي ، وبذلك تخطو خطوة الى الامام في طريق التقدم . ويرى محمد اقبال انه ينبغي في نفس الوقت ان يقترن هذا التقدم بسيطرة المبادىء الاخلاقية على قوى الطبيعة . . . والتاريخ مليء بالامثلة التي تشير الى أن التقدم والقوة التي لا تقيدها الاخلاق تصيب العالم بهزات عنيفة قاسية .

ان صلة الانسان بالتاريخ وفهمه له تطور تطورا كبيرا منذ ذلك الوقت الذي لم يكن فيه سوى ضرب من الميثولوجية ، او قصص واساطير الاولين . فقد طرات تغييرات جذرية على العلاقة الجدلية التي تربط انسان اليوم بتاريخه ، حين أصبح المؤرخ يبحث عن اسباب الاحداث واسرارها الدفينة،مما ادى الى اهتمامه بالجماهير والظواهر التاريخية ، وجميع الظروف المحيطة بها بعد ان كان يقصراهتمامه على القادة والاحداث البارزة .

الزمان وفلسفة التاريخ : اثار الفلاسفة عدة أسئلة حول مفهوم الزمان . ما المقصود بالزمن ؟ هل له بداية ؟ ما أبعاده ؟ وما نهايته ؟

ان اصحاب النظرات الدينية ربطوا الزمان بالخلق الاول ، وبمصير الانسان في الدنيا ، وبنهاية يرتبط بها حساب وعقاب وثواب ، ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه فيلون (٢٥ ق.م ــ ٥٠ م) بالنسبة لليهودية ، ثم القديس اوغسطين (٣٥٤ ــ ٤٣٠م) بالنسبة للمسيحية (٣٤) وابن خلدون المتوفى (٨٠٨ هـ) بالنسبة للاسلام .

أما علماء الفلك والانثروبولوجيا الفلسفية ، وعلماء الحياة . ومن حذا حذوهم من المؤرخين المتأثرين بالعلوم الفيزيائية والطبيعية ، فقد ربطوا الزمن بأحداث فلكية بمعزل عن كل المعاني الدينية . ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه رينان (١٨٢٣ ــ ١٨٩٢)، وارنست هيجل(٣٥) (١٨٣٤ ــ ١٩١٩) . ويرى بعض المؤرخين ان التاريخ علم « متزمن » ، لان التاريخ علم تقوم قاعدته الاساسية على الزمن ، كما انه يسير في فلك ذي ثلاثة حدود يتمثل في الانسان ، والمكان ، والزمان . والانسان هو الكائن الوحيد الذي يعي الزمان (ماضي ، حاضر ، مستقبل) ، فالزمن التاريخي يتصف بديمومة متصلة الحركة تمتاز بالتغيير المستمر والتنوع ، أو ما يسمى بالحس التاريخي . فالتاريخ ، لانه صورة الانسان ، لا يرتبط بالزمن فقط بل ان ارتباطه بالمكان لا يقل عن ارتباطه بالزمان .

وتعتبر هذه الخطوة هامة في الانتقال من الكتابة التاريخية المعروفة ، في سرد الحوادث سردا قصصيا مع ذكر زمانها ومكانها الثابتين الى التفسير الفلسفي للتاريخ الذي يفسر الحوادث تفسيرا منطقيا ويحاول فضلا عن ذلك أن يكتشف القانون الذي ينظم هذه الحوادث ويحاول أن يجد في حدوثها معنى يعطي لحوادث الماضي تسلسلا منطقيا ، وينير الحاضر ويضيء بعض جوانب المستقبل (٣٦) .

الفلسفة ومسار التاريخ ، حاول المؤرخون وفلاسفة التاريخ منذ القدم تفسير مسيرة التاريخ ، فاستعانوا بالماضي في محاولة لثقب حجب المستقبل ، وكان التفسير السحري (الميتافيزيقي) للتاريخ من أقدم التفاسير التي استندت الى عامل واحد من هذه العوامل ، وقد تطور هذا الاتجاه في العصور الوسطى في صورة التفسير اللاهوتي . كما برز التفسير الفردي (البطولي) للتاريخ الذي يأخذ بعامل الفرد البطل الذي يقوم بأعمال خارقة في صنع التاريخ . ومن هذه الاتجاهات أيضا التفسيرات الطبيعية للتاريخ والتي تطورت الى الصورة التي عرفت (بالمادية التاريخية) التي تعرف بـ (العلمية) . ان معظم اجتهادات المذاهب والفلسفات لم تحدد الاجابة الكاملة عن العلاقة بين الآلهة والطبيعة والانسان في صنع التاريخ . فمنذ زمن بعيد بدأ الانسان يرفض فكرة اعتبار « المصادفة » قوة محركة في الكون ، واخذ يجتهد لكي يكتشف « القانون المسير » الذي يعبر هذا الكون عن وجوده تعبيرا ملموسا ، وقد خطا بذلك خطوات واسعة في تطوير فلسفة التاريخ .

وكانت الخطوات الاولى في محاولة المؤرخين الانتقال من مجرد تسجيل الحوادث تسجيلا بسيطا الى اسلوب تاريخي علمي بنوا فيه كل حادثة على اخرى ، كما شرحوا كل واقعة بواقعة أخرى ، وحاولوا تفسير وربط العلاقة بينها . الا ان هذا الاسلوب لم يوضح الا ظواهر منفصلة ، ربما تعتبر اجزاء من « قصة الكون » . ويقول محمد اقبال :

« ان هذا الكون كون قابل للاتساع والامتداد الى مدى غير محدود ، اذ ربما يكمن في أعماق كيانه حلم مولد جديد ، ان الكون ذو غاية ، بمعنى واحد فقط هو المعنى الذي يدل على انه انتخابي بطبيعته ، وان طريقه للاتيان بشيء جديد هو العمل الدائب على حفظ الماضي واضافة شيء اليه »(٣٧) .

ان الفلسفة حول علاقة التاريخ بالمستقبل ليست حديثة ، فقد ظهرت من اوائل القرن التاسع عشر ، وانتشرت واحتدمت قبل الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة ، وازدادت احتداما في السنوات التي تلتها . والسبب في ذلك هو القلق الذي اخذ يساور

مفكري الغرب عندما شعروا فجأة أن حضارتهم ليست في مأمن من أن يصيبها ما أصاب الحضارات السابقة ، وان الغد ليس حتما مضمونا . ويمكن ايجاز أبرز الآراء التي تناولت مسار التاريخ على النحو التالي :

- **الاتجاه القائل بأن للتاريخ مسارا واحدا** ، اي النمط الخطي المسترسل التصاعدي ابدا كخط مستقيم ، وبروح مطلقة . ويعتبر هيجل (١٧٧٠ — ١٨٣١) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه ، فهو يرى أن للتاريخ مسارا واحدا ، ويسير وفق خطة معينة ، ومهمة الفيلسوف هي معرفة هذه الخطة ، وان التاريخ هو تحقيق الغاية التي أرادها الله من وراء الخلق . ويتفق هيجل في ذلك مع ابن خلدون (وقد نبعت فلسفة كل منهما من تجاربه الخاصة في ظل الظروف التي عايشها) واعتمد تفسيره على الماورائية الفلسفية الدينية المسيحية .

يدلل هيجل على نظريته بنوع خاص من الجدل أو الحوار يسمى عادة باسم Dialektik وعن طريق هذا الجدل وصل هيجل الى القول بأن « العقل » أو « الفكر الانساني » يسعى دائما نحو التقدم ليصل الى « العقل أو العلم المطلق » الذي يعتبره مثالا يحتذيه (٢٨) . ومن هنا يوصف هيجل بأنه مثالي ، ويعتبر في طليعة المثاليين الالمان . وتتميز فلسفته بالصفاء والاستعلاء والقرب الى المذهب الجماعي في الحكم . ويمكن ايجاز أفكاره في هذا المجال على النحو التالي :

- ان الجماعات الانسانية تسعى للانتقال من حالة الهمجية والوحشية الى مستوى الدولة ذات النظام والقانون ، والذي لا بد ان ينتهي يوما الى تحرر البشر جميعا وعيشهم في سلام في ظل القانون ، ويقوم التاريخ الصحيح على تأدية الامم للرسالة الانسانية ، فلا يكون تاريخ أمة جزءا من تاريخ العالم الا اذا كانت تلك الامة في اثناء تاريخها هذا تؤدي رسالة (٢٩) .

- على الذين انشأوا الدولة ان يستعملوا القوة والعنف ليلزموا الناس بطاعة القانون قبل ان يصلوا الى النظام والقانون من تلقاء انفسهم ، ولا يستطيع جميع الناس ان يصلوا الى ذلك في نفس الوقت .

- الايمان بالفكر أو العقل المطلق الذي يسير الاحداث في الكون ، ويعتبره مثالا أو مثلا أعلى .

- ان فلسفة التاريخ هي التاريخ منظورا اليه بذكاء .

ـ ان التاريخ ، بنـاء علـى ذلك ، انمـا هـو عمليـة طويلـة مقـدرة بقـدر Vorsehungs Prozesse يأخذ فيها كل حدث أو ظرف مكانه ومبرراته علـى ضوء مسار التاريخ في مجموعه .

وقد اهتم هيجل اهتماما خاصا بالتطور الانساني للدولة متفقا بذلك مع رانكه الذي قال ان الدول أفكار الله Gottes Gealanken ، ويريد بذلك أنها تقوم بتقدير اللـه سبحانـه (٤٠) . ويقول هيجـل ، ان الصيرورة ليست متروكـة للمصادفـة والاسباب العارضة بل هنالك « ارادة مخططة » وراءها ، وان هدف هـذا الصراع والتوفيق انما هو تطوير « روح العالم »(٤١) ، التي تتجه دائما نحو غايتها ، الا وهي تحقيق الذات Self realization . كما يقول ان تفسير التأريخ هو بيـان لعواطف البشر وعبقرياتهم وقواهم الفعالة التي تقوم بدورها على مسرح العالم الكبير . وان الصيرورة التيتقررها المشيئة السامية المهيمنة والتي تعرفها تلك العواطف والعبقريات والقوى الفعالة ، هذه الصيرورة تكون ما يسمى بخطة المشيئة العليا(٤٢) . وتتبلور الفكرة الفلسفية حول البحث عن القوى العامة التي تحرك مسار التاريخ عند هيجل بالنظر الى التاريخ أو العملية التاريخية Geschichte Prozesse ـ كمـا سـماها هيجل ـ على أنهـا عملية صـعود منطقي الى مستويات عقليـة أو فكريـة جدليـة Dialektische Stifen تنتهي آخـر الامر الى تحقيق ما تقصد اليـه القوة العليـا المدبرة لشؤون الكون Weltgeist مـن توحيد العالم في كـل واحـد Weltganz يعيش في حرية وأمان . كما يرى هيجل اننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم أن تطوره كان دائما صيرورة عقلية (حركة فكرية متقدمة نحو الاعلـى) ، وان هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالـم ، تلك الروح التي تكـون طبيعتها دائما واحدة لا تتغير .

وتعرف فلسفة هيجل ايضا بفلسفة المتناقضات ، وتتلخص في أن التطور انمـا هو نتيجة صراع المتناقضات على أساس أن كل ظاهرة تحتوي تناقضا داخليا يدفعها الى الامام ويؤدي بها آخر الامر الى تحطمها وتحولها الى شيء آخر . الا أن تحطـم ظاهرة ما انما هو الفرصة لانبثاق ظاهرة جديدة تدفع بلا شـك الظاهرة السابقة . ولكنها في الوقت نفسه تحتوي في ذاتها على كل عناصرها الفعالة . وبهذه الطريقـة يتحول النظام الفلسفي (٤٣) الى نظام آخر .

ويأخذ المؤرخون على آراء هيجل انها ترضي الفيلسوف ، أو العقل الانساني ، لكنها لا تعين الانسان على تفسير الحركة الدائمة للتاريخ . كما أن هيجل وغيره مـن المثاليين يقولون ان الفكر هو الذي يوجه التاريخ ؛ لانهم هم أنفسهم كانوا جزءا مـن

النظام القائم ، وكانوا قادة الفكر فيه ، وتفكيرهم كله تأييد له ولاوضاعه ، ومن العسير عليهم أن يتصوروا انهم في حملة الصورة الخارجية لنظام الجماعة . كما اشتهر هيجل بمناصرته للدول والنظم الراسمالية التي سادت الغرب في أيامه .

الاتجاه القائل بان الظروف المادية للمجتمعات هي التي تحرك التاريخ ، المادية التاريخية (Historical Materialisn)

يعتبر كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) ابرز فلاسفة هذا الاتجاه، ويرى أن الاوضاع المادية للمجتمعات ، واحوال الملكية ، وصراع الطبقات بعضها مع بعض ، هي العوامل التي تدفع حركة التاريخ كله . وهذا هو ما يسمى بالتفسير المادي للتاريخ . كما ان ماركس يعترف بوجود عواطف الايثار ، والحماس الديني ، والوطنية ، وغيرها بين الخصال المثالية ، ولكنه يردها بدورها الى الاوضاع الاقتصادية وأثرها المباشر أو غير المباشر على العقل الانساني .

ويعتبر العديد من المؤرخين أن المحاولة الماركسية من أبرز محاولات تفسير الافكار التطورية في محيط العلوم الاجتماعية، وكان لها أكبر الاثر في كثير من النواحي في السياسة ، والاقتصاد ، والتاريخ ، والاجتماع ، والنقد الادبي ، وحتى في بعض العلوم الطبيعية . ومن أشهر الكتب في ذلك « المذهب المادي والنقد الاختباري والتجريبي » ، وهو كتاب أقرب الى مذهب اليقينية واللباقة الذهنية منه الى الاسهام في نشر المعرفة . وترى المدرسة المادية ان الانتاج المادي لجماعة ما هو الذي يحدد صورة نظامها الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة ، فليس وعي الناس هو الذي يحدد صورة حياتهم ومستواها الاجتماعي ، بل العكس هو الصحيح .... صورة حياة الناس ومستواهم الاجتماعي هما اللذان يحددان درجة وعيهم .

ويقول ماركس ان الاحوال أو الاوضاع الاقتصادية لاي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها ، وكل مظاهر حضارتها في المجالات السياسية ، والدينية ، والفنية ، والفكرية ، وان اساس النظام الاقتصادي هو الانتاج ونوعه وأساليبه ، وتوزيع ثرواته .

ويعتبر ماركس ، وفريدريك انجلز ، وسان سيمون ، وهم قادة المدرسة المادية، ان التاريخ يتلخص في صراع مستمر بين العاملين (من زراع وصناع) ـ أو بين ما يسمى بالطبقة الثالثة Tiers - etat ـ والطبقتين المتازتين المستفيدتين من جهود العاملين ، وهما طبقة النبلاء (الملوك ورجال الاقطاع) ، وطبقة كبار رجال الدين أو

الاكليروس ، وسان سيمون هو أول من تنبه الى ان صراع المصالح الاجتماعية ، أو مصالح الطبقات الاجتماعية ، هو السـبب الرئيسي في الحركة التاريخية ، وهو اول من تنبه الى حرب الطبقات وحرب المصالح ودورها الكبير في حركة التاريخ . وقـد ربط ماركس النظرية الهيجلية لتعاقب النماذج الحضارية مع الكفاح من أجل البقاء(٤٤)، وكانت النتيجة تفسيره للتغيير في التاريخ على أساس تقرره المادية ، أي ان السيطرة على طرق الانتاج تقرر أية طبقة ، ومن ثم اية نماذج فكرية ، يمكن أن تسود في فترة مـا . غير أن الصراع المستمر بين الطبقات يجب أن يوصل في النهايـة الى انتصـار البروليتارية (طبقة العمال) . وتتلخص فلسفة ماركس في أن الانسان يجب أولا أن يأكل ويشرب ويتخذ مسكنا ولباسا قبل ان يستطيع أن يبحث عن سياسة أو دين أو علم او فن وما سواها . ويرى أن تاريخ المجتمع منـذ وجد وحتى الان هـو تاريخ صراع طبقات ، بين الدهاقين والاقنان ، والنبلاء والعامة ، وبين السادة والعبيد ، وبين ارباب العمل والصناع (٤٥) . وبكلمة واحدة بين ظالم ومظلوم . ويؤكـد ماركس أن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد الذي يقرر الكيان الاجتماعي لأية أمة ، وان كل الجوانب المختلفة من حياة البشر تتخذ شكلها وفقا للظروف الاقتصادية التي تكتنف فترة معينة ،وبذلك فهي مدينة بوجودها تماما الى العوامل الاقتصادية .وما المجتمع الاقطاعي والمجتمع البرجوازي « الطبقة الوسطى » الا امثلة لتلك النتيجة الجماعية لمعقد العلاقات الانتاجية ، وكل منها يرسم خطوة هامـة في التطور التاريخي للجنس البشري . ويرى ماركس أن التغيير المادي للاوضاع الاقتصادية للانتاج هو التغيير الاساسي ، وان هذا التغير المادي تغيير حقيقي يمكن تقديره بدقة علمية . أما التغير في الاشكال القانونية والاوضاع السياسية والدينية والفكرية والفلسفية فهـو تغير مظهري ، اي في الاشكال الظاهرية ، التي تسمى في مجموعهـا بأيديولوجية النظـام القائم . وهي نتيجة لا سببا ، وطبقة علوية خارجية Super Structure وليسـت أساسا . وبصورة أخرى فان ماركس اهتم بالجانب المادي من الحيـاة والنظر الـى المحيط كعامل في حوادث التاريخ ، ومن ثم اشراك العامة في موكب التاريخ ، وتعتبـر آراء ماركس رد فعل معاكس ضد الآراء التي سادت قرونا طويلة وجعلت من بعض الافراد ، ملوكا وابطالا ، يغيرون وجه التاريخ .

وبعد ظهور الماركسية انكر بعض المؤرخين أن يكون للفرد دور حقيقي يذكر في التطور التاريخي ، وان الدوافع الحقيقية في ذلك التطور تكمن في الجماعات وما يحدث في حياتها من تغير . فالجماعات هي الاعماق التي تتكون في صلبها التعاريج العظمـى التي تغير وجه الكون . والهزات التي يرتجف لها من حين لحين .

الاتجـاه القائل بان التاريخ يسـير على شـكل دوائر يفضي بعضها الى بعض ،

ويعتبر فيكو (١٦٦٨ ــ ١٧٤٤) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه ، فقد أعطى فيكو تصورا جديدا للتاريخ العالمي يعرف بالمفهوم العالمي . وتتلخص آراء فيكو التي اثبتها في كتابه « العلم الجديد » في قيام الدول وسقوطها ومحاولة البحث عن أسباب القيام والسقوط ، ويرد ذلك الى عوامل بيولوجية ، وهو بذلك يتفق مع ابن خلدون في تشبيهه للدول والحضارات بالنباتات والحيوانات ، بقوله ان لها اعمارا لا بد أن تمر فيها ، فالبيئة الاجتماعية من صنع الانسان وتصلح لتكون أساسا لفهم التاريخ ، ويؤخذ عليه انه اتسم بقبوله للخرافات وعكس ذلك على فهمه التاريخي (٤٦) .

وكان لامبرخت من أوائل من فكروا في البحث عن سر التاريخ ، عن طريق تحليل عدد من الحضارات والبحث عن العوامل التي سببت قيامها وهبوطها ، واستنباط المعاني من ذلك التحليل ، أو ما يسمى بدلالات التحليل الحضاري .

Kulturmor Phologische Geschi Chts Deutungen

ويرى شاردان ان مصير كل حضارة الى فناء وزوال ، وهي وان بادت وزالت الا أن الانسان باق وهو في ارتقاء وتقدم من أجل بناء حضارة جديدة . وقد تساءل شاردان عن امكانية التعرف على غد الانسان عن طريق دراسة وفهم علم التاريخ .

الاتجاه القائل بان التاريخ يسير في دوائر مقفلة ، ويعتبر أوزفالد شبنجلر Oswald Spengler (١٨٨٠ ــ ١٩٢٣) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه . ويرى شبنجلر ان قيام الحضارات ونموها ووصولها الى القوة ، ثم انحدارها ، يشبه العملية البيولوجية للكائنات الحية من تطور عضوي Naturhafte Prozesse ، متفقا بذلك مع ابن خلدون حيث يقول ان الحضارة تمر بعصور انشاء ، ونضج ، وانحدار ، اي ان الاستجابة الابداعية تصل الى ذروتها ثم تتوقف ، بمعنى أن موت الحضارة لا مفر منه . ويعرف هذا الاتجاه بالنمط الدوري، على أساس أن للتاريخ حلقة أو جملة حلقات متناهية زمانا ومكانا ، منفصلة بعضها عن بعض ، تمثل كل حلقة منها حضارة ، من يوم نشوئها عند ابتداء الحلقة الى يوم نهايتها الحتمية عند انغلاق الحلقة ، اي تدهورها ، ومن ثم سقوطها . فكل حضارة اذن حلقة لها بداية ونهاية ، حلقة متناهية تمر بأطوار اربعة : التكوين ، فالنمو ، فالجمود ، فالانحلال ، والاضمحلال ، أي انها تشبه الكائنات الحية ، فهي تولد وتموت . وقد اصبحت فلسفة شبنجلر حافزا لبعض المؤرخين للاتجاه الى العمل العلمي في دراسة التاريخ وفقا للمنهج التاريخي دون البحث عن قواعد عامة في التاريخ ؛ لعل ذلك يساعدهم على الخروج بنتائج تكون أكثر فائدة بالنسبة للفكر الفلسفي من المحاولات المضنية لتقنين مسار التاريخ .

الاتجاه التجريبي في اطار النمط الدوري لتحديد مسار التاريخ ، ويعتبر أرنولد توينبي Arnold Toynbee ابرز فلاسفة هذا الاتجاه (٤٧) . فقد حاول من خلال فحص الحوادث لا أن يوصف الماضي . بل أن يستنتج منه عبرة وفلسفة ، وجملة من القوانين التي تسير الكون ، وتدفع التيار البشري ، وترسم الخط البياني لما سيكون عليه الغد . وقد وضع توينبي في صدارة دراسته العوامل الفكرية والروحية ، خلافا لما كان يفعله ماركس من تقديم العوامل المادية على غيرها . وهذا الاتجاه الذي يرسمه توينبي لا يعتبر جديدا في حد ذاته ، فهو يتفق في معظمه مع ابن خلدون . الا ان توينبي لا يكتفي بالمشاهدة كي يصل الى نتائج تفرضها التجربة فرضا ، وتنتهي الى تصور عام لغاية التاريخ ومصير الحضارات(٤٨) .

لقد اتجه توينبي بالدراسات التاريخية اتجاها يتسم بالتوسع والشمول . واجتهد في أن يتحقق مما اذا كان للتاريخ مسار معين يمكن التعرف عليه ولو على وجه التقريب ، ومعنى ذلك انه وجه اهتمامه الى ما يسمى أحيانا بما وراء التاريخ Metahistory أي البحث عن القوى أو العوامل أو المناهج التي تسير التاريخ(٤٩) .

يرى توينبي أن كل الحضارات التي درسها مرت بأطوار متشابهة في النمو واستمرار التقدم ، وزيادة القوة ، ثم تعقب ذلك مرحلة من المصاعب الداخلية والخارجية يليها تصدع العناصر التي قامت عليها قوة هذه الحضارة ، وربما انتهى الامر بتفككها أو تصدعها ، ويعقب ذلك تحولها الى دولة عالمية Universal State , أي ان عناصر قوتها تتفرق في الشعوب التي كانت منها كما حدث مثلا بالنسبة لدولة الرومان .

كما يرى أن لا خير ولا شر في اضمحلال الحضارات ، لان تجاربها لا تذهب سدى بل تنتقل الى غيرها ، وتكون نقطة بداية لتجربة جديدة أو عنصر من عناصر قوتها . ويقول توينبي ان التاريخ لا يعرف حضارة تزول تماما ، وانما الذي يحصل في الغالب ان الحضارة بعد أن تتم دورتها على يد أمة من الامم وتجمد أو تتحجر Petrifies تتفكك وتنتقل عناصرها الى أمة أو أمم جديدة لتقوم حضارة أو حضارات جديدة .

وقد استعان توينبي بفكرة «التحدي والاستجابة Challenge and Response » اثناء دراسته للامم التي اختارها موضوعا لدراسته ، واعتبرها مفتاح نظرته العامة للتاريخ . ويرى أن المجموعات البشرية تقودها دائما جماعات من القادة أو اصحاب الراي، وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة في استجابتها للتحدي ، ويحددون نوع هذه الاستجابة بحسب ملكاتهم . فاذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداع الوسائل التي تمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التي تواجهها والسير الى الامام كانت هذه

الجماعة موفقة ، وسار تاريخ الجماعة الى الامام ، لان استجابتهم كانت ابتكارية أو ابتداعيـة Creative Reponse . ولا تزال الامـة في صعود وتقـدم ما دام قادتهـا محتفظين بالقدرة على الاستجابة الابتداعية . فاذا عجزوا عن ذلك أخذ سير الجماعة كلها يتلكأ ويتراخى وربما توقف . وقال بعد ذلك انه من الممكن أن تستمر الحضـارة في الحياة اذا استمرت في الاستجابة الابداعية وانه بامكان الانسان أن ينفلت من الجبر وأن يوجه تاريخه في الطريق المناسب .

ونموذج آخر يراه توينبي . كلما زادت قسوة الارض على ساكنيها زاد كفـاح اهلها للتغلب على صعابها(٥٠) .

الاتجاه الى البحث عن قواعد وقوانين تحكم مسـيرة التاريخ . نجـد هنـا أن الفلسفات التاريخية قد تعددت حول مفهوم هذه المسيرة التي تعتبر في حركة دائبة ، فمن فلاسفة التاريخ من يرى أن التاريخ في تقدم مستمر ، ومنهم من اتجه الى وضع مسيرة التاريخ في دوائر مقفلة يفضي بعضها الى بعض ، ومنهـم من يرى أن مسـيرة التاريخ مرهونة بالارادة الالهية . فابن خلدون يرى ان القدرة الالهية هي التي تسير التاريخ ، ويقول بهذا الصدد : « ... وما ينتحله البشـر بأعمالهم ومساعيهم مـن الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته مـن الاحوال ... »(٥١) . و « طبيعة الاحوال » هذه يعتبرها ابن خلدون القانـون الذي بمقتضاه يسير التطور الضروري الذي هو سنة من سنن الله في الكون .

ومن فلاسفة التاريخ من اجتهد في البحث عن القوانين التي تحكم هذه المسيرة ، حيث يرى ماكس(٥٢) Max أن فلسفة التاريخ بدأت حول فكرة هي « ان التاريخ يحكمه قانون » حتى لو كانت المصادفة هي هذا القانون . وهنا يجدر القول بأنه عند الاخذ باعتبار المصادفة قانونا يحكم التاريخ ، فان فلسفة التاريخ لا مجال للبحث فيها، ذلك لان حركة التاريخ لا تخضع للحوادث العمياء التي لا يقيدها نظام ، بينما النظـم الفلسفية لها خطواتها واتجاهاتها وأسلوبها نحو تطور الروح المطلقة التي تتوصل الى ادراك ذاتها بشكل فلسفة محددة في كل حقبة من حقب التاريخ .

كما ان فكرة البحث عن قواعد وقوانين تحكم مسيرة التاريخ ما هي ، لدى بعض المؤرخين ، الا مسـألة نسبية . وقد ظهر هذا الاتجاه في نهايـة القرن التاسع عشـر الميلادي حيث نادى جورج زمل(٥٣) بالبحث عن تحديد مفهـوم القوانين التاريخية ، وحاول التوصل الى هذا التحديد . وقدم في سبيل ذلك جهـدا كبيرا يمكن ايراده بايجاز بأن القانون هو قضية تعبر عن العلاقة الثابتة بين مجموعة من الوقائع حدثت

فعلا ثم تتلوها بالضرورة وقائع لا تختلف عنها أبدا . ولتقرير هذه العلاقة لا بد من الفصل بين الوقائع السابقة والوقائع اللاحقة من ناحية . وبين طبيعة العوامل ومجرى الاحداث من ناحية أخرى .واذا نظرنا الى الاحداث التاريخية وجدناها في غاية التعقيد والتركيب والاشتباك بحيث يصعب جدا استخلاص علاقات ثابتة تربط بين هذه الاحداث ، كما هو الحال في الظواهر الفيزيائية . وهذا يفسر أنه من المستحيل على المؤرخ ان يقرر وجود روابط أو علاقات ثابتة بين الاحداث التاريخية بحيث تقع النتائج بالضرورة كلما توفرت نفس الاسباب . ولذا لا نجد في التاريخ حوادث متشابهة تماما، والحادث التاريخي الواحد لا يتكرر أبدا(٥٤) .

ويرى زمل ان هناك أسلوبين للتفسير العقلي للاحداث التاريخية ، يعتمد الاول على تحليل الحدث الى عناصره الاولى بحيث يقود هذا التحليل الى اعداد قواعد وقوانين للمسيرة التاريخية . أما الاسلوب الثاني فيأخذ بعملية التركيب بين المعاني والعناصر ، حتى يشكل هذا التركيب تركيبات أصلية واضافات هي عبارة عن مجموعات تتدرج فيها الاحداث وتبدو كأجزاء لا يمكن تحليلها لما هو أصغر منها ، أي ان عملية الاستقصاء والتحري تصل الى مداها(٥٥) .

ومع ذلك فهناك العديد من المسلمات والفرضيات التي يؤمن بها المؤرخون كبديهيات في خلفياتهم الفكرية ، دون أن يخضعوها للنقد أو التعبير عنها من وجهة النظر الاخرى . ومن النادر أن نجد باحثا من الباحثين في فلسفة التاريخ يناقش أيا من هذه المسلمات التي يمكن أن نشير الى بعضها على النحو التالي :

- وحدة الطبيعة البشرية من حيث التكوين ، فالجنسيات والقوميات لا ترسم بينها فروقا جوهرية ، كما ان الاختلاف بين البشر من حيث العرق أو الثقافة أو البيئة أو الاجتماع هي اختلافات أرجعتها بعض النظريات الى جذور اقتصادية أو فكرية ...

- تعقد الطبيعة البشرية ، حيث ان وحدة الطبيعة البشرية ليست بسيطة التكوين فهي معقدة ، وهذا التعقيد لا يوازيه الا تعقد التفاعلات التي تكون بينها وبين العوامل البيئية المؤثرة على طبيعة البشر . ومن محصلة هذه التفاعلات بين الانسان وبيئته يتشكل منظور التاريخ ومجرياته .

- ان الاهتمام بدراسة تاريخ الانسانية وتفهمه ، بما فيه من تجارب وافعال وخبرات ، هو من المسلمات المقبولة كقاعدة لتشكيل المعرفة التاريخية .

- ثبات السنن الطبيعية وتطور الظواهر الحية في آن واحد ، اي ان هناك سننا في الكون لا بد وأن تبلغ غاياتها ، كما ان الكائنات الحية ، وبخاصة الانسـان ، في تطور مستمر ، وبذلك فان ثبات السنن والتطور أمران مترابطان ومتزاوجان في نسق ومسيرة يأخذ بها معظم المؤرخين وان تفاوتت آراؤهم في تحديـد تلك المسيرة . وهذه السنن والظواهر هي التي تحكـم في النهاية الفعـل التاريخي وتسير أحداثـه .

- الاخذ بعدة نظريات عند تفسير التاريخ منها نظريـة صراع الطبقات ونظريـه التحدي والاستجابة ، ويستند معظم المؤرخين في اعتبار مثـل هذه النظريات قواعد عامة تؤدي الـى تعميمات وتفسيرات . على نتائج الدراسات المقارنـة لمختلف الحضارات الانسـانية عبر مراحل العصور التاريخية .

وبعد هذا العرض في محاولة استنباط قوانين وقواعد تحكم المسيرة التاريخية ، وبعد التعرف على بعض المسلمات التي يأخذ بها المؤرخون وفلاسفة التاريخ . فهل من الممكن القول بوجود قانون فعلي ؟

ان الاجابة على مثل هذا التساؤل تعتبر من الامور الهامة ، فهناك فعلا قوانين تحكم الحوادث التاريخية ، فالكون والوجود يخضعان لادق وأعقد القوانين . قـال الله تعالى: «وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون»(٥٦). وقال تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز الحكيم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليـل سابق النهار وكل في فلك يسبحون »(٥٧) ، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي يزخر بها القرآن الكريم وكلها تدل على أن هذا الكون يخضع لنظام دقيق وقانون ثابت . ومن ثم فمن البديهي أن يشمل نظام الكون الدقيق حياة الانسان باعتباره جزءاً من هـذا الكون مع ما فضله الله به عن سائر الكائنات حيث جعله الله خليفته في الارض يعمرها ويطورها الى الافضل ، كما فتحت الآفاق أمام عقل الانسان كي ينظر ويتدبر ويبدع. ومع ذلك فان التوصل الى قوانين راسخة في مجال البحوث الاجتماعية ما زال يمثل مشكلة بالنسبة للمؤرخين والفلاسفة وغيرهم من العلماء الباحثين في حيـاة الانسان الاجتماعية والتاريخية والفكريـة . ويمكن تتبع بعض اسـباب هذه المشـكلة على النحـو التالي :

- عدم توفر وحدة قياس للظواهر والعلاقات التاريخية .

- صعوبة بحث الحادثة التاريخية لغياب عناصـر الاستمرار وعوامل التغـير . ووضعها في صيغة واحدة .

ـ صعوبة التمييز بين الروابط السببية في وقائع التاريخ والعلاقات الوظيفية والبنائية التي تؤدي الى اخراج الوقائع التاريخية .

ومع ما يعترض الباحثين من صعوبات في التوصل الى قوانين فان هناك محاولات جمة بذلت في هذا الصدد(٥٨) ، واستطاع الباحثون وضع تصورات معينة تساعد في استنباط مثل هذه القوانين ، فنرى ابن خلدون يشير الى قيام الدول ثم تماسكها بالعصبية ، والى ارتباط العمران بالاقتصاد ، والى تأثر الانسان بالاقليم والظروف الجغرافية (٥٩) ، كما أشار جونسون الى استنباط قانون الاستمرار والتعبير ، قانون التكامل وقانون حرية الاختيار (٦٠) .

ومن تلك المحاولات يمكن القول بامكانية ايجاد قوانين تحكم مسيرة التاريخ ، غير أن هذا الامر يتطلب المزيد من الدراسة والجهد مع الاخذ بالاعتبار أن مثل هذه القوانين لا بد وأن تكون مختلفة تماما عن القوانين المتعلقة بالعلوم التطبيقية والمجردة . فليس هنا ملاحظة تجريبية يمكن متابعتها وتدوين نتائجها . ومع ذلك يمكن اخضاع الملاحظات التجريبية باعتبارها جوهرية في المعرفة والعلم اللذين هما نتاج تفاعل بين التجربة والنظرية .

وخلاصة ما عرض له هذا البحث هو تعدد الآراء والاجتهادات حول تفسير مسار التاريخ وهي تفسيرات شملت الفكر اللاهوتي والمثالي والمادي والعلمي ، وغيرها من المذاهب ، الا أن تفسير مسيرة الانسان عبر مختلف العصور التاريخية يجب أن يتضمن الموازنة والادراك لمسيرة التاريخ الانساني ، فالاسلام أضفى الكثير على القيم الروحية ولم يعتبر الممارسات الفردية للشعائر لاهوتيا بل هي قيم أخلاقية مرتبطة بحياة الانسان اليومية كفرد عامل ضمن مجتمع بشري واسع يسعى الى حياة أفضل .

لقد اهتم المسلمون بالتاريخ وتفسيره نتيجة لاحساسهم بذاتهم الحضارية الخاصة في ظل عالمية الرسالة الاسلامية وقوة الروابط بين الشعوب الاسلامية ، وتصورهم لرسالتهم في المجتمع الانساني ، واقامة الحق والعدل في الارض . وبداية يؤكد القرآن الكريم على الدعوة الى العلم والبحث والتقصي والاعتبار والاستفادة بما حدث للامم السابقة ، كما يتميز المنهج التاريخي للقرآن الكريم بتحقيق الرواية وتعليلها والتأكيد على دور الانسان القائم على العلم والمعرفة ، وبهذا يكون الانسان محورا وغاية ومركزا للنفع والعناية ، وقد سخر الله له الكون بما فيه من كائنات وظواهر طبيعية ، ويشير القرآن في هذا الصدد الى فتح الآفاق أمام الانسان لينطلق بفكره وعقله : « الله الذي خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره وسخر لكم الانهار ، وسخر

لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار »(٦١) . وقال سبحانه وتعالى : « ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (٦٢) . كما قرب القرآن الكريم بين الانسان والطبيعة فلم يعد الانسان يرهب أو يخاف من الظواهر الطبيعية ، فهي آيات الله في الكون وبرهان على قدرته ومجال للتدبير والتفكير ينتفع بها الانسان كما أراد له الله ، فيكشف الاسرار ويتوصل الى ما يدرأ الاخطار ويجلب الخير والسعادة لبني الانسان .

والمتتبع لمعالجة القرآن الكريم للاحداث التاريخية يلمس أن القصص القرآني تمثل قطاعات متكاملة من حياة المجتمعات وتبين أوجه النشاط الانساني ، وبذلك تعددت المحاور وزوايا الرؤية (٦٣) مع غياب تحديد الزمان والمكان لكثير من هذه الاحداث . وذلك لان للخبر أو النبأ في مضامين السور هدفا أسمى وأرقى من مجرد الرواية ، فهو للعبرة والعظة واكتساب الحكمة والمعرفة . وينفي القرآن الكريم أن تكون رواياته واخباره « أساطير » بل هي قصص وبلاغ وذكر . « نحن نقص عليك أحسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » (٦٤) ، « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال »(٦٥) ، « وان كانوا ليقولون ، لو ان عندنا ذكرا من الاولين . لكنا عباد الله المخلصين » (٦٦) ، « ويسألونك عن ذي القرنين قل ساتلو عليكم منه ذكرا » (٦٧) . من هنا جاءت الروايات التاريخية متضمنة المادة العلمية كي يعي البشر الحكمة من وراء الحدث التاريخي وينهجون نهجا سليما في حياتهم وسلوكهم معتبرين بما حدث لاقوام سبقوهم كانوا مثلهم بل اقوى وأغنى منهم وعمروا الارض اكثر مما عمروها : « أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(٦٨) .

ويؤكد القرآن الكريم على الاسلوب العلمي في استقراء الاحداث والحصول على المعرفة واكتساب الوجود الثقافي ، وهذه أمور تتطلب أعمال الفكر بالنظر والتدبر لاحكام السيطرة على الطبيعة ومواردها التي هي في الاساس مسخرة من الله تعالى لصالح الانسان وخدمته .

تلك محاولة أولوية لفهم علم التاريخ وتطوره ومنهجه اردت منها الاسهام في هذا المجال الهام من العلوم الاجتماعية ، فان أصبت فذاك ما قصدت واستعنت بالله عليه، وان اخطأت فلنا أجر المجتهد الذي يحاول أن يداو بدلوه في مضمار العلم والمعرفة . والله الموفق .

الحواشــي :

(١) حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٢ .

(٢) قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ١٣ .

(٣) Sibree, The Philosophy of History, New york, 1900, p. 60

(٤) صلاح الدين مدني ، المدخل الى التاريخ ، دمشق ١٩٦٧ ، ص ٣٤ .

(٥) اصطلح على تسـمية المرحلـة الزمنية السابقة على معرفـة الكتابة بمرحلة ما قبـل التاريخ ويمكن التعرف عليها من خلال التركة الاثرية للانسان المتمثلة بالادوات الحجرية والفخاريـة والعظميـة والرســوم ... الخ .

أما العصر التاريخي فيبدأ منذ معرفة الانسان الكتابة والتسجيل وهي مرحلة تبدأ في منطقة الوطن العربي القديم مع بداية الالف الثالث قبل الميلاد .

(٦) Halphen, L' Introduction a l' Histoire , Paris, 1946, P . 53

(٧) جوزف هورس ، قيمة التاريخ ، ترجمة نسيب وهيبة الخـازن ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦ .

(٨) Lewis , B. and Holt , P. : Historians of the Middle East , London 1962 , P. 75 .

(٩) Fowler , Romans Ideas of Deities , London , 1914 , P. 94 .

(١٠) اليان ، ج. ويدجيري ، المذاهب الكبرى في التاريخ ، ترجمة ذوقان قرقوط ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٩٤ .

(١١) انظر : السبكي ، قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، القاهـرة ، ١٩٧٨ .

(١٢) السيوطي ، الشماريخ في علم التاريخ، تحقيق محمد بن ابراهيم الشيباني ، الكويت (بدون) .
السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق القدسي ، بيروت ، ١٩٧٩ .
عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ .
قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ ، بيروت ١٩٦٣ .
عبد الرحمن بدوي ، النقد التاريخي (مجموعة أبحاث مترجمة) ، بيروت ١٩٦٣ .

(١٣) مقدمة ابن خلدون ، طبعة دار الشعب ، القاهرة ، ص ٧ .

(١٤) المرجـع الســابق ، ص ٧ .

(١٥) ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمـة ابن خلدون ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٧٠ . انظـر ايضـا محمد الطالبي ، منهجية ابن خلدون التاريخية ، بيروت ١٩٨١ ص ٣٧ .

(١٦) ظهر العديد من المؤرخين الاوربيين في عصر النهضة الاوربية ، وكان مـن أبرزهم : ليونـاردو برونـي Lenardo Bruni ١٣٧٤-١٤٤٤، ومن مؤلفاته كتاب فلورنسا Storia Florentihi ويعتبر من أفضل مؤلفات عصر النهضة ، نيكولـو ميكافيلي Nicolo Machiavelli ١٤٦٩ - ١٥٢٧ ، وفرانشيكو جيشارديني Francesco Guicciardini ١٤٨٣ - ١٥٤٠ والتر رالي Walter Raleigh وقـد اشتهر بكتابـه « تاريخ العالـم » History of The World كما اشتهر عدد من الرهبان في الاديرة الذين اكبـوا على دراسة الوثائق ومنهم : البندكيون في دير سان مـور Saint Mour بفرنسـا ، والراهب فـالا Valla ١٤٠٧ - ١٤٥٧ الذي

اشتهر بنقد وتحليل وثيقة قسطنطين والرسول بطرس الزيفة ، والجزويت في بلجيكا وأهمهم يوحنا بولاند Jean Bolland ١٩٥٦-١٦٦٥، وكذلك جمعية البولنديين Les Bollandistes التي تعتبر من أكبر الجمعيات التاريخية .

(١٧) محمد الالوسي ، علم تحقيق الوثائق والدبلوماتيك ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ٣ .

(١٨) اشتهر فولتير بمؤلفه عن حياة وأعمال شارل الثاني عشر ملك اسكنديناوة وحروبه مع الروس Histoire de Charles سنة ١٧٣١ ، وتميز الكتاب بدراسته الوثائقية . كما ظهرت ملكة فولتير التاريخية في كتابه البديع « خطابات فلسفية » Letters Philosophiques وهو حافل بالآراء والملاحظات على مسار التاريخ وتصاريف الزمان ، ثم ظهر كتابه المشهور عن عصر لويس الرابع عشر Le Siecle de Louis XIV الذي ابدع فيه في تحليل الاحداث والاشخاص . ويميل كثير من المؤرخين الى اعتبار فولتير مؤسس العلم التاريخي بمفهومه الحالي في الغرب ، رغم انه كان من هواة التاريخ ، كما يضعه العديد من المؤرخين على قمة الفكر الغربي في عصر النهضة الاوربية ، على اعتبار انه فتح مدرسة جديدة في التفكير التاريخي تتسم بالنظرة الشمولية . كما أن دراسته عن عادات الشعوب Essai Sur Les Moeuss تعتبر بصفة عامة أول دراسة تاريخية بمصطلح التاريخ الحديث .

(١٩) مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥)عاش في عصر التنوير وساهم في اشعال الثورة الفرنسية ، واشتهر بكتابه « روح القوانين » ، أو « روح الشرائع » .

(٢٠) جان جاك روسو Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) عاش في عصر التنوير ، وساهم في اشعال الثورة الفرنسية ، واشتهر بكتابة « العقد الاجتماعي » .

(٢١) رانكة Lepold Von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦) مسيحي بروتستاني ، ومثالي على مذهب فيخته ، ويعترف بالجانب الانساني في التاريخ . قال بفكرة التطور العضوي للجماعات وكذلك بأهمية العامل الفردي في توجيه الاحداث ، لكنه انكر استخدام التاريخ كعظة وعبرة ، وقال ان التاريخ ينبغي أن يدرس لذاته لا كوسيلة للتعليم والتهذيب . ويعتبر رانكة رائدا للمدرسة الالمانية . وتميز منهجه بالاهتمام بالوثائق التاريخية .

(٢٢) حسين مؤنس ، « التاريخ والمؤرخون » ، عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول ، الكويت ١٩٧٤ ، ص ٧٦ .

(٢٣) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٢٤) كروتشة Bendetto croce (١٨٦٦ - ١٩٥٢) من ابرز مفكري ايطاليا ، ومن اشهر فلاسفة التاريخ في عصرنا ، له ٦٠ مؤلفا ، وأهم مؤلفاته :

History as The Story of Liberty . Theory and History of Aistoriograph.
History : Theory and Practice .

وقد اهتم بمقارنة فلسفات المادية والايجابية في التاريخ .

(٢٥) كولنجوود Collingwood ، من ابرز المؤرخين المعاصرين الممثلين للنزعة التاريخية ويتفق مع كروتشة في عدم صلاحية المنهج التجريبي لعلم التاريخ ، لان الواقعة التاريخية لا تخضع لتجارب معملية من وجهة نظرهما ، كما هو الحال في العلم الطبيعي . له عدة كتب منها : Roman Britain ١٩٢٦ ، وكتاب The Idea of History ١٩٤٤ .

(٢٦) منذ القرن الثامن عشر والمناقشات تدور حول علمية التاريخ ، ويمكن الرجوع الى مجموعة من المؤلفات منها : « علم جديد » لفيكو ، « فكرة التاريخ العالمي » لكانت، « فلسفة التاريخ » لهيجل ، « المادية التاريخية » لانجلز ، « تفسير التاريخ » لماركس ، « دراسة التاريخ » لداناي ، « الايديولوجية الالمانية » لماركس وانجلز « عقم المذهب التاريخي » لكارل بوبر .

(٢٧) أرنولد توينبي Arnold J. Toynbee (١٨٨٩ ـ ١٩٧٥) له مكانة سامية في التفكير المعاصر ، اشتهر بمنهجه التجريبي ، واتجه بالتاريخ اتجاها شاملا لتاريخ البشر ، ووجه اهتمامه الى العوامل أو المناهج التي تسيره . وهو يؤمن بنظرية التحدي والاستجابة ، ويرى أن الحضارات تنمو وتتطور وتضمحل مثل الكائنات الحية . من أشهر كتبه « دراسة التاريخ A Study of History » انظر : فؤاد شبل ، منهاج توينبي التاريخي ، القاهرة ، ص٧.

(٢٨) مهرجان توينبي : منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٧٩ ، ص ٧٠ .

(٢٩) الدمرداش سرحان ، المناهج المعاصرة ، مكتبة الفلاح ، ١٩٨١ ، ص ٣ .

(٣٠) جورج سانتيا ، مولد الفكر ، جامعة كولومبيا ، ١٩٦٨ ، مترجم ، بيروت ، ص ١١٩ .

(٣١) انظر : Hans Meyerhoff, : The Philosophy of History in Our Time . Newyork, 1959.

(٣٢) محمد اقبال (١٨٧٣ ـ ١٩٢٧) فيلسوف وصوفي وشاعر ، من أشهر كتبه « تجديد التفكير الديني في الاسلام » ترجمة عباس محمود العقاد ، القاهرة ، ١٩٥٥ . كما تتضمن قصيدته « حوار بين الله والانسان Message de l' Orient Camte » أبرز أفكاره ، وترجمها عن الفرنسية ، محمد اشنا ، واسمها بالفارسية « بيام يشرمة » *

(٣٣) كوميت ، Augustine Comte (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) حاول البحث عن قواعد وقوانين لسير التاريخ ، فانشأ ما يسمى بالايجابية التاريخية La Positive ، أي التزام الدقة العلمية في كتابة التاريخ مع البحث الدقيق عن المنطق وراء كل حادث وتطور .

(٣٤) عرض أفكاره في كتابه The City of God

(٣٥) رينان وهيجل من المؤرخين المتأثرين بالعلوم الفيزيائية والطبيعية ، شأنهم شان علماء الفلك والانثروبولوجيا الفلسفية وعلماء الحياة بالنسبة لمفهوم الزمن في التاريخ وربطه بأحداث فلكية وكونية بعيدا عن المعتقدات الدينية .

(٣٦) Max Madau , The Interpretation of History , P. 44 .

(٣٧) محمد اقبال ، تجديد التفكير الديني في الاسلام ، ترجمة عباس محمود ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١٥٥ ـ ٢٣٤ .

(٣٨) استخدم هيجل مصطلحا خاصا عن العقل والفكر Der Geist الذي يعني بالعربية « الروح » وبالانجليزية Spirit وفي الفرنسية **Esprit** ، ولا يقصد بذلك العقل والفكر الانسانيين العاديين ، وانما هو العقل الاعلى الذي يوجه الكون * ونبعت فكرته هذه عن ايمانه الوثيق بالمسيحية الذي يرى فيه اجتماع العنصرين الالهي والانساني ، أي الروح والبدن ، الكنيسة والدولة ، والعبادة والحياة ، والتقى والفضيلة ، وانهما تجتمعان ، في روح أو فكر واحد يعتبر القوة التي تحرك كل شيء ، وهذا هو العقل المطلق . وقد شرح فكره في كتابه عن روح المسيحية Das Christlicha Geist .

(٣٩) عمر فروخ ، كلمة في تعليل التاريخ ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٢٢ .

(٤٠) Fritz Stern , The Varieties of History , 1956 , P. 61 - 62 .

(٤١) الروح المحركة للعالم ، وهي الله ، أو الروح المطلقة كما يتصورها بعض الفلاسفة .

(٤٢) J. Sibree, Hegel' s Philosophy of History, P. 14.

(٤٣) يقصد هيجل بالنظام الفلسفي Philosphic System الحقائق والاسس والقواعد التي ترتبط بفترة تطورية معينة من التاريخ .

(٤٤) في رسالته الى Kugelmann عام ١٨٦٨ يقول ماركس ان ديالكتيكية هيجل هي الشكل الاساسي للديالكتيكيات ولكن تجريدها من شكلها المبهم Mystical Form هو بالضبط الشيء الذي يميز اسلوبي » ، انظر : صديقي ، تفسير التاريخ ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص ٨٩ .

(٤٥) المرجع نفسه ، ص ٩١

(٤٦) عمر فروخ ، كلمة في تعليل التاريخ ، ص ١٩ .

(٤٧) احدث كتابه A Study of History ضجة كبرى قبل الحرب العالمية الثانية ، وهو كتاب من عشر مجلدات ، واعيد طبعه واختصاره عدة مرات . فقد اختصره سومرويل Sommerwell عام ١٩٤٧ كما اختصره جليمارد Gillimard تحت عنوان « التاريخ » في باريس عام ١٩٥١ .

(٤٨) Meyerhoff. op. cit. pp. 101 - 102.

(٤٩) حسين مؤنس ، « التاريخ والمؤرخون » عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول الكويت ١٩٧٤ ، ص ١٠١

(٥٠) Hans Meyerhoff : op. cit, p. 144.

(٥١) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة كتاب الشعب ، ص ٢٣ وما بعدها .

(٥٢) ماكس فيبر Max weber (١٨٦٤ - ١٩٢٠)

(٥٣) جورج زمل (١٨٥٨ - ١٩١٨) من انصار فكرة « نسبية المعرفة التاريخية » ، ومن ابرز مؤلفاته: مشكلات فلسفة التاريخ .

(٥٤) عبد الرحمن بدوي ، « احدث النظريات في فلسفة التاريخ » مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول ، الكويت ١٩٧٤ ، ص ٢٢٢

(٥٥) جورج زمل ، مشكلات فلسفة التاريخ ، ص ١٠٨ .

(٥٦) الانبياء ، آية ٣٣ .

(٥٧) يسن ، الايات ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(٥٨) انظر : هنري جونسون ، تدريس التاريخ ، ترجمة أبو الفتوح رضوان ، القاهرة ، ١٩٦٥ . عبد الرحمن بدوي ، المرجع السابق . شاكر مصطفى ، « التاريخ هل هو علم » مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ع الاول الكويت ١٩٧٤ .

(٥٩) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة كتاب الشعب ، القاهرة ، ص ١١٩ .

(٦٠) جونسون ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٦١) ابراهيم ، آية ٣٢ ، ٣٣

(٦٢) لقمان ، آية ٢٠

(٦٣) عبد العزيز كامل ، « القرآن والتاريخ » عالم الفكر ، الكويت ١٩٨٢ ، ص٢٣ .

(٦٤) يوسف ، آيـة ٣

(٦٥) ابراهيم ، آية ٤٥

(٦٦) الصافات ، الايات ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩

(٦٧) الكهف ، آية ٨٣

(٦٨) الروم ، آية ٩

بعض ملامح الاتجاهات الرئيسة في الاستشراق

د. أحمد درغام
جامعة دمشق

نقول : شــرّق : اتجه الى الشرق وأشرقت الشمس طلعت وأضاءت والشرق ج أشراق نقطة الافق التي تطلع فيها الشمس في بدء الربيع والخريف وبالتوسع جهة الافق التي تطلع منها الشمس على مدار الايام . المَشرِق والمَشرَق والمَشرَق ج مشارق مكان أو جهة شروق الشمس . والمشرقان والمغربان مشرقا الصيف والشتاء والمشارق والمغارب اختلاف مواضع شروق الشمس وغروبها لانها تشــرق كل يوم في موضــع وتغرب في موضع الى انتهاء السنة . المستشــرق العالم باللغات والآداب والعلــوم الشرقية والاسم : الاستشراق .

خلفيــة تاريخيــة

ارتبطت حركة الاستشراق بشكلها الثقافي مــع حركــة الاســتشراق بشــكلها السياسي العسكري ، حيث كانت الحملات الصليبية نواتها الاولى . وهذه الحملات وان قامت تحت راية الدين شكلا فان مضمونها الاقتصادي والســياسي والعسكري عبّر عن التوجه الاوربي لاستغلال الشــرق العربي ونهبه . غير أن الصلة بين الثقافة العربية الاسلامية والثقافة الاوربية كانت قد انعقدت قبل الحركة الصليبية ، وذلك

من محاضرة القيت في كلية الاداب بجامعة دمشق .

أثناء الحروب العربية ـ البيزنطية ، وخلال الوجود العربي في كل من الاندلس وصقلية ، الامر الذي ميز حركة الاستشراق منذ الغزوات الصليبية للشرق بظاهرتين:

أولاهما أنها أصبحت على اتصال مباشر بالاصول التي لم تكن قد انتقلت قبل ذلك الى الغرب الاوروبي .

والثانية أنها أخذت تندفع بمهماتها على خطين متوازيين ومتشابكين : خط سياسي استعماري، وخط آخر يتصل بما تركته المدارس الصقلية والاندلسية ،لدى المثقفين والمفكرين والعلماء الاوربيين . من رغبة في الاطلاع على المزيد من مصادر الحضارة العربية ومنجزاتها في مختلف فروع المعرفة ، حيث ازدهرت حركة التثقيف الاوربي ، وعلى مدى نحو قرنين (١٠٩٧ ـ ١٢٩١م) بالثقافة العربية ، وحركة نقل منجزات هذه الثقافة الى اللاتينية ، وتأثر المدارس والمذاهب الفلسفية الاوربية بالفلاسفة العرب ، كالكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد ....

بدأ نشاط الدراسات الاستشراقية الغربية لتراثنا الحضاري بشكل واضح وناشط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وازداد فاعلية في الربع الاول من القرن العشرين، مع أن حركة الاستشراق كان قد مضى على ظهورها زمن يعد بالقرون كما ذكرنا منذ حين . ان هذا الواقع مرتبط بظروفه التاريخية وأسبابه المعينة ، ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت الرأسمالية على عتبة التحول الى عصرها الجديد ، الى تطورها الى أعلى مراحلها : مرحلة الامبريالية ، أي عتبة تحول نظام المنافسة الحرة الى نظام تمركز الاحتكارات الذي دفع بالرأسمالية الى التطور نحو شكلها الجديد ، واعادة تقسيم العالم . والصراع بين الدول الامبريالية من أجل اعادة التقسيم الذي يضمن لتلك الاحتكارات مواطن خارجية لتوظيف الرساميل المالية ، ومصادر للخامات وأسواقا للتصريف. ان مقدمات هذا التحول الراسمالي كانت تشتد بروزا وحدة في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وحدث التحول فعلا في مستهل القرن العشرين . في هذه الظروف ذاتها وللاسباب ذاتها كانت الامبراطورية العثمانية المتداعية ـ بما تحتويه ضمن سيطرتها من أقطار عربية ـ احد مدارات هذا الصراع بين الدول الامبريالية ، لما يتمتع به الوطن العربي من خصائص ومزايا فعلية وواعدة مثيرة لشهوات الاحتكارات الامبريالية وملائمة لاستراتيجياتها الاقتصادية والسياسية .

في سياق هذا التحول نحو عصر الاقتسام الجديد للمستعمرات القديمة والتسابق للاستيلاء على معسكرات جديدة في ركاب الاحتكارات الكبرى ، بدأت حركة

الاستشراق اتجاهها الجديد نحو الدراسات العربية ـ الاسلامية . وفي رأينا أنه لا يجوز الفصل بين اشتداد نشاط الدراسات الاستشراقية ومطلع عصر الامبريالية . فاذا نظرنا الى هذه الدراسات منعزلة عن بدايتها التاريخية مجردة عن الظروف الاجتماعية الاقتصادية في بلدان أصحاب هذه الدراسات ، نكون قد وضعنا المسألة وضعا تجريديا لا علميا .

فمما لا ريب فيه أن التوجه الامبريالي نحو السيطرة على الوطن العربي يتطلب توجها تابعا له يسير في خطه نحو السيطرة على الثقافة العربية ؛ أي التحكم باتجاهاتها الحديثة على نحو يضمن سيطرة الامبرياليين سياسيا واقتصاديا وفكريا على الوطن العربي والمجتمع العربي . فأخذت حركة الاستشراق وفق مضمونها هذا تفسر التاريخ والتراث العربي تفسيراً غيبيا وقدريا وأسطوريا،معتمدة الرؤية المثالية الذاتية فيتحليل الظواهر الاجتماعية وتفسيرها بهدف دعم السيطرة الامبريالية بقواعد فكرية وايديولوجية ، ومكونة « مجموعة » من المفكرين والمثقفين العرب من أصول برجوازية واقطاعية تولت مهمة ترسيخ هذه القواعد في البنية العقلية للمجتمع العربي . ولئن استمرت حالة الاندهاش والانبهار الحضاري والتقليد في أساليب البحث بين أوساط المثقفين العرب فترة من الزمن وفق قانون التطور المتفاوت ، والذي يعني أن الاكثر حضارة يفرض ملامح وجوده وشروطه على الاضعف ؛ فان لفيفا من المثقفين العرب تجاوز مرحلة الاندهاش الى مرحلة الممارسة .

ولعل د. طه حسين وأحمد أمين واسماعيل مظهر وغيرهم أجرأ من أقدم على الخروج على الطرائق الوصفية الانشائية ، على الرغم من أنهم لم يخرجوا عن اطار الفكر المثالي حسب المنهج الاستشراقي .

أبرز اتجاهات الاستشراق الرأسمالي أو مواقف المستشرقين

أولا ـ الاتجاه القائم على **نظرية الجنس** ، أي دراسة الحضارة والتراث من وجهة نظر عرقية . وهذا يعني النظر الى العرب بوصفهم شرقيين في مقابل الغربيين. ويتضمن هذا الاتجاه أن الشرقيين عموما والعرب خاصة محكومون بالقصور العقلي . او أن عقليتهم غير قادرة على التفكير التحليلي أو التركيبي ، وبصورة عامة تتصف آفاقهم النظرية بالروحيات بمعناها الغيبي الاسطوري. . . الىغير ذلك من الافتراضات اللاعلمية في تصنيف شعوب العالم وتمييز بعضها عن بعض ، على أساس القابليات المعرفية بحكم التكون الطبيعي .

يمثل هذا الاتجاه الوجه الايديولوجي الاكثر عداء لتطور الشعوب والاكثر تمثيلا للمطامح الامبريالية عدا عن كونه معاديا للعلم وللواقع الفعلي لحركة التطور الاجتماعي على المستوى العالمي . ويحرص هذا الاتجاه على وضع جدار قدري جبري مغلق لا منفذ فيه أمام الشعوب المستعمرة كي تغير واقعها المتخلف الى واقع متقدم موحيا اليها بأن هذا الجدار القدري الجبري تجسيد لطبيعتها القاصرة والعاجزة ابديا عن تجاوز واقعها .

يتجلى هذا الاتجاه في الدراسات الاستشراقية باشكال مختلفة نذكر منها : أبحاث المستشرق الالماني البرجوازي هنريش بكر (١٨٨٦ – ١٩٣٣ م) والفيلسوف الفرنسي أرنست رينان (١٨٢٣ – ١٨٩٢) حيث وضع نظرية الجنس كأساس مباشر لاحكامه المعروفة على « الفلسفة العربية » وخرج بنظريته القائلة : بأن الجنس السامي أدنى مرتبة من الجنس الآري . ويقصد بالجنس السامي العرب تحديدا ، وبالآري الاوربي . وغني عن القول أن نظرية الجنس هذه أصبحت فيما بعد الاساس النظري والايديولوجي للنازية الهتلرية المعادية للعلم وللانسان وللحضارة البشرية .

ان تقسيم البشر على أساس الجنس والخصائص العنصرية مسألة أصبح بطلانها من بدهيات العلم المعاصر (معروف أن الصهيونية العالمية تبني ايديولوجيتها على أساس الجنس أو العرق) .

ثانيا – الاتجاه القائم على **نظرية مركزية الفلسفة** في الغرب دون الشرق . وربما كانت هذه شكلا آخر لنظرية الجنس ، ولكنه شكل متميز . فان نظرية مركزية الفلسفة ترجع من حيث جذورها المعرفية الى ما هو ملحوظ أثناء دراسة تاريخ الثقافة البشرية ،من أن وحدة هذه الثقافة تظهر بأشكال تبدو متناقضة ، لذا يسهل جدا اضفاء الطابع المطلق على الخصائص المميزة لكل الثقافات ، واضفاء الطابع المطلق أيضا على الفوارق بين هذه الثقافات بحيث يمكن أن تبنى على هذا الاساس نظرية كاملة . ووفق هذا يجعل أنصار « المركزية الاوربية » صفة التناقض بين التفكير الشرقي والتفكير الغربي قائمة ، ويهملون طابع الوحدة في طرق التفكير البشري ويضعون فوارق كائنة بينها فعلا . (ان الحديث الآن أيضا يجري عن مركزية غربية تشمل أوربا الرأسمالية وأمريكا الراسمالية) .

ان نظرية المركزية تقوم على جذور طبقية اي على أساس ايديولوجي . ذلك أن الراسمالية المتطورة تحتاج الى تبرير فكري ايديولوجي لسيطرتها في آسية وافريقية . اذ يجد الاوربي العقلاني أو الامريكي البراغماتي تبريرا لسيطرته على الآسيوي

اللا عقلاني أو الزنجي الذي لا يمكن أن تقوم فيه « روح طيبة » كما يقول بعض المستشرقين الاستعماريين .

ثالثا ــ الاتجاه الثالث للدراسات الاستشراقية **اتجاه رجعي محافظ** يقصر عنايته على الجوانب الاكثر محافظة ورجعية في موضوع التراث ، وهو الاكثر اغراقا في الغيبيات وفي عالم المطلق ، مع طمس الجوانب ذات النزعات المادية أو اخفاء الابعاد الاجتماعية الكامنة حتى في الاشكال الغيبية ، كآثار التصوف الفلسفي عند أمثال الحلاج والسهروردي الشهيد ورابعة العدوية شهيدة العشق الالهي . بل لقد حاول الكثير من هؤلاء المستشرقين توجيه المنظومات الفلسفية لامثال الفارابي وابن سينا وابن رشد توجيها يصرفها عن أبعادها المادية ويفرغها من هذه الابعاد ، لتصبح منظومات صوفية أو اشراقية أو دينية . فنجد مثلا المستشرق **كارادي فو** يحاول ارجاع فلسفة الفارابي العقلانية الى فلسفة صوفية ، ونجد المستشرق **ماسينيون** يحسب الكندي والفارابي وابن سينا في عداد المتصوفة، ويعتبر المستشرق **جيلسون** ابن سينا مؤسسا لنظرية الاشراق .

ان الجمع بين الشرق والغرب على الفكر الغيبي اللا علمي هو الامر الجوهري ايديولوجيا للامبريالية ، كما أن التمييز المطلق بين الشرق والغرب هو الامر الجوهري ايديولوجيا للرأسمالية ، بمعنى أن هذا الجمع وهذا التفريق يلبيان مطامح ومصالح قوى اجتماعية معينة في مرحلة تاريخية معينة ، ان الهدف الاساس من هذه المواقف كلها اخفاء كل ما يشير الى علاقة ما في الاعمال الفكرية بواقع الصراع الطبقي كمؤشر لاتجاه التطور الاجتماعي ومحدد اياه .

ونحن لا ننكر أن الحضارة العربية ،ولا سيما شكلها الفلسفي ، كانت ذات مظاهر دينية . فالواقع أنها ارتبطت بالتاريخ الديني كغيرها من حضارات القرون الوسطى . ولكن هذه الميزة الواقعية لا تخفي النزعات العقلية الواقعية . وقد استطاع فلاسفة القرون الوسطى أن يبرزوا ميولهم الفكرية والفلسفية من خلال الاشكال الدينية على نحو واضح حينا وعلى نحو مرموز أحيانا أخرى .

رابعا ــ الاتجاه الرابع وهو **الاتجاه الايجابي** ، أو الاتجاه الموضوعي أو العقلاني في الدراسات الاستشراقية لتراث الشرق . لقد سيطرت الاتجاهات الثلاثة السابقة على هذه الدراسات ولكن لا بد من الاعتراف بأن سيطرتها لم تكن مطلقة . فثمة مباحث استشراقية مهمة عالجت التراث من مواقف هي الى النظر الموضوعي أقرب منها الى الانسياق مع النظر الحزبي المتأثر باتجاهات الايديولوجية الامبريالية .

ويتصف بعض هذه المباحث بمنهجية علمية وبنظرة تاريخيـة سليمة .. بين هـؤلاء الباحثين مستشرقون برجوازيون ومستشرقون ماركسيون .

يقول العالم الفرنسي بـول ماسون ـ أورسيل في دراسـته لفلسفة الشـرق معارضا فكرة « نظرية مركزية الفلسفة » : « لا يوجد في هذه الايام انسان يستطيع الاعتقاد بأن اليونان وروما وشعوب أوربـة في العصور الوسطى والحديثة هـم دون سواهم أرباب التفكير الفلسفي . ففي جهات أخرى من الانسانية سطعت عدة مواطن للتفكير المجرد وظهرت أشعتها جليا وانتشرت في أنحاء العالم . وبما أن هذه المواطن لم تكن منفصلة بعضها عن بعض كما ظن في الماضـي فيجب الاعتراف بأن تفكير الغـرب لا يكفي بنفسه ، فتفسيره التاريخي يتطلب اعادة وضعه في وسط انساني واسـع النطاق لان التاريخ الصحيح هو وحده التاريخ العالمي » (بول ماسون ـ أورسيل « الفلسفة في الشرق » ص ١٦) .

وحاول عالم الاستشراق الكبير هاملتون جب حـول التفكير العربي والعقليـة العربية تلمس بعض التفسيرات الواقعية للتاريخ الاسـلامي في مثل قولـه « ظهرت للاسلام ملامح مختلفة في مختلف الازمنة والامكنة بتأثير العوامل المحلية : الجغرافيـة والاجتماعية والسياسية فيه » (جب ، دراسات في حضارة الاسلام ص ٣) .

ويبرز اسم المستشرقة الفرنسية **غواشون** من حيث الموقف حيال التراث العربي ايجابيا بوصفها باحثة فلسفية دقيقة الاستيعاب لنصوص الفلسفة العربية الاسلامية، فتكتب عن ابن سينا : « انه ليس عند ابن سينا من حقيقة الا في الوجـود فالماهيات التي لم تستقبل الوجود بعد هي باطلة في ذاتها » و « ان عقل ابن سينا العظيم قـد وضع نفسه في نقطة يظهر فيها انتاجه كلا واحدا متماسك الاجزاء » وانه « انتـاج بعيد جدا عن أن يكون مجرد نقل لنظريات أرسطية الى اللغة العربية » . (غواشون « فلسفة ابن سينا » ص ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥٤) .

الدراسات الاستشراقية الماركسية

انطلق المستشرقون الماركسيون في دراساتهم الاستشراقية مـن أساس مـادي تاريخي من حيث المنهج ، وعلى أساس الاشتراكية العلمية من حيث الايديولوجية . الامر الذي لا نجد في دراساتهم لتراثنا تلك الوجوه السلبية الجوهرية التي وجدناها

لدى المستشرقين والباحثين الذين شكلوا أو كانوا « ورشة عمل » لدى الدوائر الاستعمارية الامبريالية .

يتخذ المستشرقون الماركسيون الموضوعة الماركسية أساسا لدراساتهم ، والقائلة بأن تاريخ تطور المجتمع البشري مرّ ويمرّ بمراحل يحدد كل مرحلة منها شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية المثلة لانماط من الانتاج المادي تتعاقب وتتداخل في خط تصاعدي متعرج . وذلك بناء على أن علاقات الانتاج المادي هي العامل المحدد لسير العملية التاريخية ، من عصر العلاقات المشاعية البدائية الى عصر العلاقات العبودية، فعصر العلاقات الاقطاعية فالعصر الرأسمالي ، ثم عصر الاشتراكية فالشيوعية العليا . وهذا ما يعبر عنه بموضوعة **التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية .**

ويمكن القول : ان مختلف الدراسات الماركسية في موضوع التراث يتفق مع الخط العام للتوجهات التقدمية والديمقراطية لحركة التحرر العربية في مرحلة تطورها الحاضرة ، ومع ايديولوجية القوى الطليعية لهذه الحركة . ذلك بعد أن كانت السيطرة المطلقة في مجال معرفة التراث للدراسات الاستشراقية الرأسمالية التي يتعارض معظمها ويتناقض مع هذا الخط .

* * *

إيـــلافُ قُـــرَيْش

ملاحظات حول عوامل السيادة الملكية قبل الإسلام

د. صالح درادكة

الجامعة الاردنيـة

تحاول هذه الدراسة التعرف على عوامل السيادة المكية قبل الاسلام مع التركيز على دور الايلاف ضمن هذا الاطار ، اذ من الصعب الحديث عن الايلاف بمعزل عـن العوامل الاخرى لما بين هذه العوامل من تداخل .

يحتل الايلاف بين العوامل المكية أهمية خاصة ، ذلك أن الايلاف اختراع قرشي هيا لمكة القوة المادية اللازمة . ورغم هذه الاهمية لم يحظ من الدارسـين بالاهتمام الذي يستحقه ، ففي الغرب لم تدرس هذه الظاهرة التاريخية دراسة وافية اللهم الا ما كان من اشارات مفيدة ، أشار اليها ج. كستر في معرض حديثه عن مكة والحيرة وصلتهما بالقبائل العربية (١) . وما كتبه لامانس(٢) عـن الايلاف لا يعط الصـورة المطلوبة . وحاول محمد حميد الله (٣) تلافي هـذا النقص ، ومـع اعترافه بجـدارة الموضوع بالبحث ولومه الباحثين الغربيين على تقصيرهم ، لـم يصل الى تحقيـق الغرض المطلوب الذي يشفي غلة الباحث .

وفي المشرق العربي ظهرت هنا وهناك مقالات حول الايلاف (٤) توجهت وجهات مختلفة ، وكان في هذه المقالات الكثير من الفائدة ، الا أن الحاجـة لدراسة جـادة للايلاف ما زالت قائمة .

الايلاف عند المفسرين واللغويين

قبل أن نمضي في استعراض نشأة الايلاف ودوره في السيادة المكية علينا أن نعرف شيئا عن معاني الايلاف .

اختلف القراء في قراءة « الايلاف » ، فمنهم من قرأها « لألاف » بغير ياء بعد الهمزة ، ومنهم من قرأها بياء ساكنة من غير همزة « ليلاف » ، ومنهم من قرأها بهمزتين مخففتين بكسر الاولى وتسكين الثانية على وزن « لععلان » ، وقرأها الباقون بهمزة بعدها ياء ساكنة مثل : « ليعلاف »(٥) .

ويرى ابن جرير الطبري أن الصواب من القراءة : « لايلاف قريش ايلافهم » باثبات الياء فيهما بعد الهمزة من آلفت الشيء أولفه ايلافا ، لاجماع الحجة من القراء عليه ، وللعرب في ذلك لغتان : آلفت ، وألفت (٦) .

لقد أورد المفسرون واللغويون معاني متعددة للأيلاف ، نورد المشهور منها :

آلفت : وتعني المؤالفة (٧) .

ألفت : من الإلف والتأليف أي الجمع والتقريب (٨) .

وقيل انها مشتقة من الالف أي الاعتياد على الرحلتين أو مؤالفة الاقامة والاجتماع بمكة في جوار الحرم (٩) .

وقيل في معاني الأيلاف : الأجارة ، فيؤلف : يجير ، ولذلك سمي أبناء عبد مناف ، بالمجبرين كما سموا بالآلاف ، وهم هاشم ، وعبد شمس والمطلب ونوفل (١٠).

وذهب بعضهم الى أن الأيلاف الوارد ذكره في القرآن الكريم يعني : الأحلاف والاتفاقات والعهود ، وبالتوسع في المصطلح يعني الميثاق (١١) . وفي رواية لابن عباس انها تعني : العهد والذمام (١٢) ، وزاد أصحاب المعجم الوسيط على ما تقدم القول : انها الامان والعهد يؤخذ لتأمين خروج التجار من أرض الى أرض (١٣) . ويرى بعض الباحثين المحدثين انها تعني الحماية أي الحلف الذي يضمن الامن (١٤) .

ان هذا التفاوت في معاني الأيلاف انما يرجع الى التفاوت في فهم المعنى العام

للايلاف كظاهرة عملية لقريش ، أو فهم المعاني اللفظية من حيث علاقتها بنعمة الاستقرار والاجتماع في حرم الله ، والاعتياد على القيام بالرحلات التجارية بأمن وطمأنينة بفضل الاحلاف أو العصم أو الحبال (١٥) التي أخذها سادة قريش من زعماء الدول المجاورة ، ومن رؤساء القبائل النازلة على طرق القوافل . ويتضح من خلال هذه الدراسة المعنى العملي المقصود بالأيلاف .

* * *

ان ظاهرة الايلاف وليدة عوامل طبيعية وتاريخية ، فمن الناحية الطبيعية كانت مكة ولا تزال منطقة صحراوية لا يمكن لأهلها الاعتماد على الزراعة في عيشهم ، وذلك بعكس يثرب ، فلا بد والحالة هذه من الاعتماد على التجارة او أية حرفة أخرى لتأمين معاشهم . اما ما يتعلق بالعوامل التاريخية فيقصد بها نشوء مكة حول ماء زمزم وتطورها وعلاقة الكعبة بذلك . فموقع مكة على الطرق التجارية وقداستها باحتضانها أول بيت أقيم للناس ، وما نشأ عنه من تنظيمات جعلها عرضة لاطماع القبائل المتجولة في المنطقة .

فقد استوطنتها جرهم وتفاضت رسوما مقابل الدخول أليها (١٦) ، وقصدها الزوار من كل فج ، وفيهم الملك والامير والشيخ ، ومعهم الهدايا والقرابين(١٧) . ولعل هذه الزيارات كانت المقدمة التي قامت عليها علاقات مكة الخارجية فيما بعد . وبعد جرهم استولت عليها خزاعة . وبقيت خزاعة سيدة المكان حتى اخرجتها قريش بقيادة قصي بن كلاب(١٨) . وتعتبر فترة قصي المكية الاساس الذي قامت عليه عظمة حفيده هاشم بن عبد مناف صاحب الأيلاف . ولقد نسبت التنظيمات المشهورة في مكة ابتداء لقصي مثل : الندوة ، والسدانة والسقاية والحجابة . ثم تبع ذلك نظام الحمس ، ولا شك أن لهذه التنظيمات غايات اقتصادية ، ويفهم ذلك من الهدايا والرسوم التي كانت تقدم او تجبى من الزائرين أو العابرين لمكة ، بالاضافة الى دور العوامل السابقة في احترام القبائل العربية لمكة وسكانها قريش . وهذه العلاقة بدورها مهدت لنجاح قريش في تامين سير القوافل التجارية .

وكان لنظام الحمس(١٩) اثره في تمتين الروابط القرشية مع القبائل العربية الاخرى واظهار قريش بمظهر متميز في بلاد العرب . وشايع قريش في تحمسها لطقوسها وتمايزها فريق من العرب يرون ما تراه قريش، بل ان بعضهم أعلن استعداده للذود عنها وعن طقوسها ، وتطوع للدفاع عن ذلك ، كما فعل الفريق الذي تزعمه صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم(٢٠) . ولما قررت غطفان ان تنشىء حرما كحرم مكة ، هاجمهم زهير بن جناب الكلبي وحطم حرمهم (٢١) .

ان تضافر مجموعة العوامل السابقة وما نتج عنها جعل من مكة محور حركة بشرية تمخضت عن حركة تجارية محلية في البداية ، تطورت مع الزمن وبفعل الظروف الدولية المواتية أيضا . فقد خلف تجار قريش تجار اليمن في الوساطة التجارية العالمية بعد احتلال الاحباش لليمن ، واستفادت قريش من العلاقات العدائية بين الفرس والروم فنهجت نهجا حياديا في تعاملها مع المعسكرين ، الامر الذي مكنها من الاتجار مع العراق والشام (٢٢) .

ولا يغيب عن الذهن انه لم يكن يسمح للتجار الاجانب بالدخول داخل الامبراطوريتين لان الفرس والروم لم يكونوا يثقون بهم ، لذلك اقتصر دخول تجار مكة على أسواق معينة ، مثل الحيرة وبصرى وغزة على أطراف الدولتين (٢٣) .

ولذلك كان على التجار العرب أن يقدموا تضحيات كثيرة ، كدفع الضرائب الباهظة والمستمرة ، والضرائب الحدودية في أرض القبائل ، كما كان عليهم أحيانا أن يسلموا الرهائن . وفرضت مكة بدورها ضرائب ورسوم مماثلة (٢٤) .

لقد استدعت هذه الاوضاع أن يعمل زعماء قريش على تأمين وصول قوافلهم بأمان الى كل الاسواق العالمية الممكنة ، وبخاصة تلك المحيطة بجزيرة العرب كسورية والعراق والحبشة ومصر . وقد تحقق لقريش هذا الحلم على يد هاشم بن عبد مناف الذي كان عهده نقطة تحول في تاريخ مكة . ولعل عظمة قريش الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي تحققت جعلت من عمرو بن مناف « هاشم » مثلا اعلى افاضت الروايات في ذكر شمائله ، ويهمنا واحدة من هذه الشمائل، وهي «الأيلاف».

تذكر المصادر العربية أن سنوات من الجدب أصابت مكة ، ذهبت بالاموال . فخرج هاشم الى الشام واظهر من الكرم وحسن المعاملة ما افاضت به اخباره حتى بلغت قيصر ــ ولعله احد حكام الروم في سورية ــ فأمر باحضاره وأعجبته صورة هاشم وحديثه فأظهر له ودا ومحبة . ولما أيقن هاشم من ود الحاكم الروماني ، أخبره أن قومه قريش هم تجار العرب ، وطلب اليه أن يكتب لهم أمانا بدخول بلاد ، يبيعون فيها أدم الحجاز وثيابها فيكون أرخص بيعا للروم ، فكتب الحاكم الروماني أمانا لمن يقدم من التجار القرشيين الى بلاده . واقبل هاشم بذلك الكتاب ، وجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام يأخذ من أشرافهم ايلافا . والأيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف ، وانما هو أمان الطريق(٢٥) . وكانت قوافل التجار قبل ذلك تتخفر بالحرس والأدلاء من القبائل المجاورة ، وكان هؤلاء بدورهم ادلاء للقوافل يعرفون مواقع الآبار والعيون ، ويتقاضون مقابل خدمتهم اجورا يتفق عليها (٢٦) .

وبحسب الروايات العربية يكون هاشم بن عبد مناف أول من أخذ الأيلاف ، ثم أخذه المطلب ثم عبد شمس ثم نوفل أصغرهم (٢٧) .

أخذ أبناء عبد مناف الأيلاف من رؤساء القبائل لأسباب منها ، ان ذؤبان العرب وصعاليك الاعراب وأصحاب الغارات وطلاب الغوائل كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدرا ، كبني طيء وخثعم وقضاعة ، وسائر العرب يحجون للبيت ويدينون بالحرمة له(٢٨) . ومنها أن الاساليب السابقة للأيلاف لم تكن كافية للحفاظ على أمن القوافل . وتطلق المصادر العربية على الامان الذي أخذه هاشم من ملك الروم واشراف قبائل العرب ايلافا تارة ، وتارة اخرى عهدا أو ميثاقا أو حبلا أو عصما(٢٩) .

يذكر ابو علي القالي بوضوح أن هاشما اخذ عهدا من قيصر وايلافا من شيوخ القبائل ، ويعني بايلاف القبائل أن يأمن التجار في أرضهم بغير حلف(٣٠) . والعهود هي المعاهدات والاتفاقيات ، اذ ان رعاية التجارة المكية فيها كسب لقريش التجار وللدول المعاهدة ، ولو لم يكن فيها كسب للدول المعاهدة لما سمحت للتجار بدخول بلادها .

وتأليف القبائل عملية ترويض كبيرة تتطلب جهدا وخبرة طويلة . فقريش التي خبرت طبائع الناس ـ وبخاصة طبائع البدوي ـ من خلال الاحتكاك الدائم في المواسم الدينية والاقتصادية ، هي وحدها القادرة على ابتكار الاسلوب الافضل للتعامل معهم . وقد نجح أبناء عبد مناف في تأليف القبائل على طول الطرق التجارية نحو الشام واليمن والعراق ، وبعد أن كانت هذه القبائل تغير على القوافل وتنهب ما تحمله . أصبحت عنصر الامان ، تجوز بالقوافل حتى تبلغها مأمنها .

ولم يكن هذا الامان بدون مقابل « أي غير مشروط كما ذهب بعض الباحثين المحدثين »(٣١) فقد أشركت قريش القبائل في تجارتها ، فحملت لرؤسائها البضائع وكفتهم حملانها ، وأدت اليهم رؤوس أموالهم وربحهم . وحقق هاشم بهذا الاسلوب العملي الامن للقوافل ، واستفاد رؤساء القبائل باشراكهم في المشاريع التجارية المكية « فكان المقيم رابحا والمسافر محفوظا كما يقول الجاحظ »(٣٢) .

وكان تحقيق الامن مطلبا عزيزا في منطقة الحجاز وبلاد العرب ، وتحقق هذا المطلب بالايلاف ، فانطلقت السفارات التجارية في كل اتجاه وازداد حجم القوافل وتنوعت السلع ، كل ذلك بفضل الامان الذي أحرزه المكيون للتجار . فحق لله سبحانه وتعالى أن يمن على قريش بقوله : « أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء » (٣٣) .

وتذكر المصادر أن اخوة هاشم فعلوا مثله بأخذ عهود الامان لتجارة قومهم من دول أخرى غير سورية، فأخذ عبد شمس بن عبد مناف عهدا من صاحب الحبشة، واخذ المطلب بن عبد مناف عهدا من ملوك اليمن ، واخذ نوفل بن عبد مناف عهدا من ملوك العراق . وكان كل واحد منهم يأخذ الأيلاف من رؤساء القبائل ما بين مكة والجهة التي اخذ العهد من حاكمها (٣٤) .

يسمي البلاذري(٣٥) عهود أبناء عبد مناف بالعصم ، ومعناها المنع ، وعصمه تعني منعه مما يوبقه(٣٦) . ويسمي الطبري(٣٧) بدوره هذه العهود المأخوذة من الملوك والرؤساء : حبالا ، ومفردها حبل : وهو الرباط ، وجمعها أحبل وأحبال وحبال وحبول ، والحبل : العهد والذمة والامان(٣٨) . وبعض المصادر تسمي هذا حلفا أو ميثاقا ، والحلف العهد يكون بين القوم ، وحالفه أي عاهده ، والميثاق(٣٩) : العهد . والعهد كما هو واضح يفيد المعاني السابقة أي الميثاق والامان ، واليمين يستوثق بها من الطرف الثاني .

والمعاني السابقة التي استخدمتها المصادر العربية ، تفيد عقد اتفاقيات بين أبناء عبد مناف ورؤساء الدول التي ذكرناها سابقا . وذكرت بعض المصادر أن أبناء عبد مناف أخذوا العهود من حكام مصر وبلغت تجارتهم انقرة(٤٠) . وتحقق هذه الاتفاقيات منفعة متبادلة تشبه في غاياتها وأهدافها المعاهدات بين الدول في العصر الحاضر .

اما ايلاف القبائل فيعتمد بالدرجة الاولى على خبرة القرشيين بالطبائع ألبدوية وتأنيسها وتأليفها ، بأساليب تحمل البدوي على التخلي عن كثير من الطبائع المكتسبة، أي ان الأيلاف عملية تأليف واعتياد على وضع جديد ، نجح أبناء عبد مناف في ايجاده حتى أصبح لدى القرشيين والقبائل الاخرى عادة يصعب الخروج عليها . وقد دعي أبناء عبد مناف بالمؤلفين وأصبح التأليف فضيلة ومنقبة ، فهذا الجاحظ يقول : « خير الناس آلفهم للناس »(٤١) ولعل هناك علاقة ما بين هذا القول وفعل قريش في الأيلاف، ومن ثم في السياسات القرشية المتبعة ، وربما كانت منها سياسة المؤلفة قلوبهم فيما بعد . ويبدو من حديث هاشم لقيصر أن الجلود والثياب الحجازية هي السلع المهمة في التجارة المكية مع سورية ، ويبدو أيضا انه حتى عهد هاشم ابن عبد مناف كانت التجار نشاطا فرديا ، واستمر هذا النشاط الفردي ولم ينقطع حتى بداية العهد الاسلامي ، وذكر عدد من الصحابة في عداد من كان يقوم بتجارته الخاصة .

فقد اشتهر عبد الله بن ابي ربيعة بالتجارة بالعطر اليمني ، وكان يبعث الى أمه

في مكة من هذا العطر حيث كانت بدورها تبيعه نقـدا او دينا ، واذا باعت دينا كتبت مقدار الدين في كتاب(٤٢) .وكان دحية بن خليفة الكلبي يتجر مع بلاد الشام بالزيت والطعام (٤٣) ، وكان حكيم بن حزام يتجر بالبر الى اليمن وبلاد الشام ، وعمرو بن العاص كان تاجر أدم وعطر يختلف الى مصر(٤٤) . وبعد ايلاف هاشم وأخذه عهـد الامان منحاكم سورية ،انطلقت المشاريع التجارية الكبرى من مكة، ونظمت الرحلتان في الصيف والشتاء . وقد يستدل من طلب هاشم لأمان قيصر الروم ان تجار قريش كانوا يتعرضون لمضايقات من قبل رجال الحكم الروماني . ولعل هؤلاء التجار كانوا يعالجون مشاكل رجال القبائل البدوية بطرقهم الخاصة ، ولم تكن هذه المعالجة سهلة، فلربما كانت تكلفهم غاليا ، ولا تكون بعد ذلك النتائج مضمونة ، وبقي هذا الحال حتى نظم أبناء عبد مناف العلاقات التجارية مع رؤساء القبائل بشكل حاسم ودائم .

وذكر ابن سعد أن قيصر كتب مع كتاب أمانه لهاشم كتابا آخر للنجاشي طلب اليه فيه أن يأذن لتجار قريش بدخول بلاده (٤٥) .

والراجح من خلال مقارنة الروايات حول ايلاف هاشم ، أن سفارات أبناء عبد مناف الى البلدان المذكورة آنفا ، انما كانت بعد عودة هاشم من سورية . ويرجح ذلك قول بعض المصادر بأن أخوة هاشـم انما قامـوا بعملهم ــ أي اخذ عهـود الامان ــ بعد وفاة هاشم (٤٦) . كما أن هاشما لم يطلب مقابلة الحاكم الروماني لتحقيق هذا الغرض وانما جاء اللقاء مع الحاكم الروماني محظ صدفة ، وان هاشما استغل هـذه المقابلة بذكاء . واغلب الظن أن هذا التحول التجاري الكبير انما حصل في مطلع القرن السادس الميلادي . لان هاشما ــ على الاغلب ــ توفي في هذه الفترة . بدليل تصريح بعض المصادر بأن هاشما كان معاصـرا لقباذ الملك الفارسي . والحارث ابن عمـرو الكندي اللذين عاشا في مطلع القرن السادس الميلادي (٤٧) . ومن الحوادث الثابتة في التاريخ لقاء عبد المطلب لأبرهة الحبشي عام الفيل . وهو العام الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليهوسلم ، واتفقت المصادر أن هذا الحدث الكبير كان سنة ٥٧٠ م . وتذكر المصادر ان عبدالمطلب كان حينذاك شيخا وقورا ، أي ان عمره ما بين ٦٠ ــ ٨٠ سنة، وهذا يرجحصوابما ذهبنا اليه في تحديد تاريخ ايلاف هاشم في مطلع القرن السادس الميـلادي (٤٨) .

وظاهرة الايلاف ابتكار قرشي نقل تجار مكة من تجار محليين الى وسطاء عالميين وبسياسة متوازنة وواضحة في محيط العلاقات الدولية . وبتظيم نقابي مكي ، ومع القبائل العربية في الشمال أولا ، ثم تطورت لتضم معظم القبائل العربية داخل الجزيرة وخارجها (٤٩) . ولم يكن بالامكان نجاح هـذا النظـام لولا الاصلاحات التـي بدأها قصي بـن كلاب .

ومما يجدر ذكره أن هاشما مات بغزة والمطلب مات بردمان من أرض اليمن ؛ ونوفل مات بسلمان جهات فارس،ولم يمت في مكة سوى عبد شمس بن عبد مناف(٥٠). مما يشير الى توسع دائرة التجارة المكية في عهد أبناء عبد مناف . ومما ساعد في توسع دائرة التجارة المكية أن فارس كانت تفرض الضرائب المرتفعة لمرور الحرير والتوابل أيام السلم ، وينقطع مرور السلع أيام الحروب فلا يبقى أمام تجار هذه السلع الا الطريق الغربي الذي يصل اليمن بسورية برا (كان يطلق على الطريق الجنوبية المحاذية للبحر العربي ، طريق البخور ، وتتصل هذه بالطريق السابقة)(٥١) .

وقد أدرك المكيون دورهم ازاء هذا الطريق فاستخدموه بكفاية عالية وفق سياسة الحياد التي اتبعوها ، ووفق مصالح متبادلة مع الدول المجاورة . وحرص المكيون على مبدأ الادارة الجماعية ممثلة بالملأ (مجلس دار الندوة) الذي قاد قريش في المجالات الاقتصادية والدينية والاجتماعية والسياسية .

وكانت قريش تعلق على ايلاف القبائل أهمية أكبر مما تعلقه على عهود الدول . لذلك نهجت سياسة ترضية مع أبناء القبائل المقيمة على طول الطرق التجارية . ولعل في قصة أبي ذر الغفاري يوم اعتدى عليه القرشيون لاعلان اسلامه ، ما يوضح هذه الحقيقة ، فقد صاح العباس بن عبد المطلب بالمعتدين على أبي ذر قائلا : « ويلكم الستم تعلمون انه من غفار وانه من طريق تجارتكم الى الشام » فترك القرشيون أبا ذر وشأنه لما سمعوا مقالة العباس (٥٢) .

لقد كافح القرشيون طويلا ليخرجوا من محيط التجارة المحلية ، الى دائرة التجارة العالمية ، ولم يمض وقت طويل حتى اصبحوا أساتذة في فن التجارة يضرب ببراعتهم الامثال ، ويستدلون ذلك من قول عبد الرحمن بن عوف : « لو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهبا وفضة »(٥٣) . واتخذ القرشيون على الطرق التجارية المحطات والبيوت لا يدخلها أحد غيرهم ، ويحلون بها وهم في طريقهم الى اليمن والشام والعراق . فقد ذكرها الطبري في تفسيره للآية : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » (٥٤) .

وساعد حلف قريش مع تميم كبرى القبائل العربية شمال شرق مكة على تأمين سير القوافل القرشية ، ذلك أن تميما من أكبر التجمعات القبلية الشمالية ، تمتد منازلها شرقا من وادي الرمة – عقدة المواصلات شمال الجزيرة – وحتى وادي الباطن عند الطرف الشمالي الغربي من خليج العرب . وهذا يعني أن بطون تميم كانت تتحكم بطرق المواصلات التجارية ما بين مكة والحيرة (٥٥) . ومما زاد من أهمية

تميم في محيط العلاقات السياسية والاقتصادية أن الردافة ـ منصب ينوب فيه الردف عن ملك الحيرة ـ في الحيرة كانت لاحد بطون تميم(٥٦) . وهكذا نجد أن تميما اصبحت شريكة ادارية في الحيرة ومكة ، ولو أن طبيعة العلاقات بين تميم وقريش كانت تقوم على أسس أقوى وأمتن . ونظرا لاهمية تميم أصبحت القبائل في المنطقة تطلب ودها وتعقد المحالفات معها .

وكانت تميم على حلف مع قبيلة كلب ، أخطر القبائل العربية على تجارة قريش، لان مواطنها انتشرت ما بين أعالي الحجاز الى بادية الشام (٥٧) . ويبدو أن كلبا ارتبطت بقريش وحافظت على هذا الارتباط ، لاننا نجد كلبا تقف في وجه الدعوة الاسلامية وتحاول التضييق على الرسول (ص) اقتصاديا ، عن طريق التعرض للتجار الانباط الذين كانوا يحملون الدقيق والزيت للمدينة ، والحاق الاذى بهم لمنعهم من ايصال بضائعهم الى المدينة ، مما اضطر الرسول (ص) أن يجهز حملة في السنة الخامسة للهجرة لتأديبهم (٥٨) . كذلك كان تحالف تميم مع أسد وطيء يخدم التجارة القرشية . اذ تمكنت قريش من ارسال قوافلها آمنة في منطقة مكة ـ الحزن (٥٩) ونحو دومة الجندل (٦٠) الى العراق .

وقد ادركت قريش اهمية تميم في المعادلة القبلية فأشركتها في الادارة المكية ومنحتها بعض امتيازاتها ، كاشراكها في الاشراف على الاجازة والافاضة ، كما أسند لتميم دور الحكومة في سوق عكاظ (٦١) . وكانت قريش حليفة قديمة لبني كنانة وبني بكر . كما كانت على علاقات ودية مع القبائل الضاربة على جنبات الطريق التجاري نحو الشمال، مثل جهينة ومزينة وغطفان .. وكانت غطفان مع أسد حليفين، وأسد مع تميم ، وتميم مع قريش ، وكذا أشجع وسليم وبني أسد ، وكان لها مع هذه القبائل حلفاء يعيشون في مكة ويعتبرون انفسهم من القبيلة القرشية جريا على النظام القبلي (٦٢) . وأقامت غطفان وهوازن وهلال محالفات مع أشراف قريش أساسها العلاقات الاقتصادية (٦٣) . كذلك كانت قبائل عامر بن صعصعة تنزل بين ديار هوازن وسليم وثقيف. وكانت ثقيف على صلة دائمة بقريش ، اذ ان الطائف كانت مصيف رجالات مكة الذين يملكون فيها الحدائق والاطيان ، وكانت خزاعة في مر الظهران (٦٤) ولها علاقة مماثلة مع قريش (٦٥) .

وكان لقبيلة عذرة صلات قديمة مع قريش لا بد وأن توطدت بالأيلاف ، فكان لعذرة حلف مع جهينة ، جعل الاخيرة تحترم المصالح المكية وتسهل مرور القوافل التجارية في منطقة المدينة ، ويمكن القول نفسه على قبائل بلي وبقية بطون قضاعة النازلة على طول الطريق التجاري من مكة الى الشام (٦٦) .

نظرت قريش الى طريق العراق بأهمية لا تقل عن طريق الشام ، لصلة هـذا الطريق بطريق الحرير القديم ، حيث كان التجار العرب المكيون يحصلون على حرير الصين وتوابل الهند . وكان الجزء الشرقي من هذا الطريق تحت النفوذ الفارسي ، بينما كان الجزء الغربي خارج هذا النفوذ . وحاول الفرس مرارا السيطرة على هذا الطريق الى مكة ، ولعل حادثة البراض وقيـام حرب الفجار كانت مـن المحاولات لتحقيق هذا الغرض ، علاوة على المحاولات الاخرى التي قامت بها فارس للسيطرة على بلاد العرب بعامة والطريق التجاري الى مكة بخاصة (٦٧) . وكذلك استمر الروم في محاولاتهم للسيطرة على الطريق التجاري الغربي بين اليمن والشام عبر الحجاز(٦٨) .

وكانت بطون جذام تنزل على طول الطريق التجاري بين الحجاز والشام ومصر . ولم تذكر المصـادر أن جذامـا ناصبت القوافـل القرشـية العداء . وقـد حالف بعض رجال قبيلة سليم زعماء مكة واستغلوا معا مناجم المعادن الواقعة في ديار بنـي سـليم (٦٩) . وكانت تنزل مع سليم قبيلة هوازن التوية ، وكان لها حلف مع ثقيف ، كما كانت سـليم على صـلات حسنة مع يهود يثرب الذين كانت صـلاتهم وثيقـة بقريشـ (٧٠) .

وحول مكة وجهات البحر كانت تنزل بطون كنانة مثل : القين وغفـار وبكـر وبلحارث ومدلج وضمرة بن بكر وليث بن بكر والديل بن بكر ، وذلك في المنطقة ما بين مواطن هذيل وأسد بن مدركة ، وهذه البطون على صلة قوية بقريش بحكم الانتماء المشترك الى كنانة مثل بني عامر بن لؤي ، وبني فهر (٧١) .

ومن الجدير ذكره أن قريش الظواهر كان لها دورها في حماية المصالح المكيـة فكانت تغزو وتغير دفاعا عن قريش البطاح ، التي كانت تسميهم «الضب» للزوم الحرم . ودخل قسم منهم مكة مثل بني حسل بن عامـر ، وصاروا مع قريش البطاح وهـم رهط سهيل بن عمرو واخوته . فأما من دخل في العرب من قريش فليسوا من هؤلاء . وتفخر قريش الظواهر من قريش البطاح لظهورهم للعدو ولقائهم المناسـر « طلائـع الجيش »(٧٢) ، والى الجنوب من مكة كانت تتناثر قبائل عدة على طـول الطريق الى اليمن ، ففي تبالة تنزل خثعم ، وفي نجران بنو الحارث بن كعب . وكان لمكة في هـذه المواطن عيون كثيرة(٧٣) كما كانت هذه القبائل ترتبط بعلاقات حسنة مـع قريش ، وكانت مراكب التجار ترسو في ميناء الجار حاملة الطعام من مصر الى الحجاز (٧٤) . وكان لقريش لأغراض الامن محالفات عسكرية مـع القبائل كالقارة والحيا والمصطلق وبني الحارث بن كنانة ، لكي تعاون قريش في الحروب اذا داهمتها . وسـمي هؤلاء الاحلاف « بالاحابيش »(٧٥) .

وبحكم موقع مكة ودورها التجاري وتوسطها القبائل العربية أصبحت سوقا دائمة للتبادل التجاري ، تحصل القبائل القريبة منها على حاجياتها (٧٦) ، هذا علاوة على سيطرة مكة على الاسواق الثلاثة التي تقوم قربها : عكاظ ومجنة وذي المجاز ، كما كان لها مراكزها التجارية في بصرى وأذرعات على طريق الشام (٧٧) .

وعلاوة على المصالح الاقتصادية المشتركة بين قريش والقبائل ، فقد امعنت قريش في تعزيز هذه الروابط عن طريق التزاوج مع هذه القبائل . وتشير جريدة النساء التميميات اللواتي تزوجن رجالا من أسر قرشية شريفة الى هذه السياسة القرشية بوضوح(٧٨). وتأثر شيوخ القبائل بقريش وأخذوا يشاركون في الرحلات التجارية ويتفاخرون بالاسفار وزيارة البلدان ودخول المدن والارياف ومقابلة الملوك والامراء(٧٩) . وقد ارتقت حرفة التجارة في نظر العرب واعتبرت من أشرف المهن ، وأصبحت قريش بتجارتها تضارع بشهرتها في المجال الدولي شهرة حمير وفارس والحبشة . ففي رواية أنه وجد مكتوبا على بعض الآثار : « لمن ملك ذمار ، لحمير الاخيار ، لمن ملك ذمار ، للحبشة الاشرار ، لمن ملك ذمار لفارس الاحرار ، لمن ملك ذمار لقريش التجار » (٨٠) .

كانت مكة ملتقى الطرق البرية العالمية ، وقد استعملت هذه الطرق وجلبت من مختلف الاطراف السلع التجارية المطلوبة ، فعرفت طريق الهند والصين ، وحصلت من سوق الصين الرئيسي في « سرنديب » على الحرير وخشب الصندل كما جلبت من الهند التوابل ، وكانت هذه السلع اكثر ما تباع لسكان الامبراطورية الرومانية ، ولذلك كان الروم يحرصون على ضمان وصولها اليهم ، كما كانت منتوجات الصين والهند تصل بلاد العرب ثم الامبراطورية الرومانية عن طريق البحر من سيلان عبر المحيط الهندي الى السواحل الغربية للبحر الاحمر . وقد ظل هذا الطريق ابان العصور المتوالية متصلا بالتجارة المصرية ، خاصة في عصر النفوذ الروماني حيث كان وسيلة الاتصال الاكثر أهمية بين الشرق والغرب وذلك حتى بداية القرن السادس الميلادي (٨١) .

وكان النشاط التجاري يتحول من طريق الى آخر حسب تطور الاحوال السياسية في المنطقة التي غلب عليها الصراع بين الفرس والروم بغية توسيع رقعة النفوذ لتشمل فيما تشمل بلاد العرب ، ومن ثم السيطرة على محاور المواصلات العالمية لضمان وصول السلع المطلوبة . ومما زاد هذا الصراع ضراوة أن الفرس كانوا يفرضون على السلع المارة ببلادهم ضرائب باهظة ، وكان الرومان يشترون هذه السلع بأثمان عالية لأن التجار يضيفون هذه الضرائب الى اسعار السلع .

وحاول الرومان تركيز طرق المواصلات التجارية بطريقين الاول : طريق الفرات حيث كانت السفن القادمة من الشرق عبر المحيط الهادي والخليج العربي تفرغ حمولتها عند نهاية هذا الخليج ثم تحمل برا عبر الطريق البرية داخل سورية والبحر الابيض المتوسط ومصر ، وقد قامت على هذ الطرق محطات تحولت مع الزمن الى مدن مزدهرة مثل الحيرة والبتراء وتدمر . وقد ازدهر هذا الطريق في الفترة السابقة على ازدهار التجارة المكية اي حتى مطلع القرن السادس الميلادي تقريبا (٨٢) .

وتضاءلت اهمية هذا الطريق بعد انفجار الصراع بين الدولتين الساسانية والرومانية ، فأخذ الرومان يبحثون عن بديل له ، وتعاونوا مع الاحباش لتحقيق هذه الغاية ، فكان من محاولات الاحباش للسيطرة على اليمن ما هو معروف ومشهور . وعلى أثر الاحداث التي وقعت بين الفرس والروم والاحباش واليمن ازدهر الطريق التجاري البري من اليمن الى الشام عبر الحجاز ، وأضحى هذا الطريق الشريان الرئيسي للتجارة بسبب وصله بين أكبر سوقين استهلاكيين في المنطقة ، اليمن وما يتصل بها من بلاد ، وسورية وما يتصل بها من بلاد . وهذا التحول حول مكة من محطة صغيرة يقدم اهلها الخدمات للحجاج الى امبراطورية تجارية يطلب ودها الملوك والامراء . ويذكر ابن حوقل(٨٣) ان لهذا الطريق فرعين أحدهما يمر بتهامة والآخر عبر البوادي قبل أن يلتقيا في مكة . وكان هذا الطريق يمر بأكثر من عشرين محطة منها : تبالة وبيشة وجرش وصعدة (مدينة الجلود) وأخيرا صنعاء(٨٤) .

وأما الطريق الى الشمال من مكة فيتكون من مرحلتين أساسيتين : الاولى . حجازية تنتهي عند يثرب التي تأتي بعد مكة من حيث الاهمية الاقتصادية في الحجاز. أما المرحلة الثانية فتمتد من يثرب الى بصرى ، وفيه أيضا محطات تختلف في المسافات الفاصلة فيما بينها . وهناك طريق ثالث هام يصل مكة بالخليج العربي يقطع اليمامة ويصل الى موانىء الخليج ، والبحرين وجرها . ومن المراكز المهمة في هذا الطريق دومة الجندل التي كانت تعتبر عقدة مواصلات المنطقة الشرقية التي تتلقى بضائع الهند والبلاد الشرقية . وكان يقام بدومة الجندل سوق موسمية تعرض فيها منتوجات البلدان المختلفة ، المحلية والاجنبية . ومن السلع المحلية المشهورة في سوق دومة الجندل : اللبان والمر واللادن والعقيق من اليمن ، والعطور والذهب والعاج وخشب الابنوس والرقيق من افريقيا الشرقية ،والقمح في بعض الاحيان من مصر ومن اليمامة . وكانت هذه البضائع تصل مكة أولا ثم يقوم التجار بتسويق جزء منها في الاسواق العربية (٨٥) .

ومن الشام كان التجار يجلبون الى مكة زيت الزيتون والقمح (من حوران

والبلقاء) والخمور والجواري والمواد المصنعة كالاسلحة والمنسوجات (٨٦) .

وكانت المنتوجات المصرية تصل مكة عن طريق ميناء الجار . وقد أطلق المقدسي على هذا الميناء « خزانة مصر »(٨٧) . وكان يصل الى جزيرة العرب من فارس المسك والعنبر والجواهر (٨٨) . ومما ساهم في ازدهار التجارة المكية التعاون بين مكة والطائف التي كان بها عدد من الصناعات كدباغة الجلود والاسلحة والآلات الزراعية وادوات الصيد (٨٩) . وكان العود الهندي والمسك والعنبر والقرفة (سيلان) من الاطايب المفضلة واستمرت كذلك في الاسلام ، فقد ذكر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله « عليكم بالعود الهندي »(٩٠) كما ورد المسك في القرآن في سورة المطففين، « وختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون »(٩١) .

يذكر محمد حميد الله نقلا عن ابن الكلبي أن القرشيين كانت لهم رحلتان في كل عام ، واحدة الى اليمن في الشتاء ، وأخرى الى سورية في الصيف ، وشيئا فشيئا بدا لهم ذلك شاقا . ويتساءل حميد الله ، هل كان ذلك لان القرشيين اصبحوا أغنياء أم لأن سفراءهم أصبحوا كبارا في السن ؟! وحينذاك بدأ سكان تبالة وجرش وكذلك سكان بعض المناطق المحاذية لليمن يتولون نقل بضائعهم حتى مكة ، فكان تجار البر يحملون بضائعهم حتى المحصَّب جنوب مكة ، والتجار البحريون يحملون بضائعهم حتى جدة (٩٢) . ان ما أورده حميد الله يتعارض مع استمرار الرحلات القرشية ، ويكفي أن نذكر أن معركة بدر كان من أسبابها اعتراض المسلمين واحدة من هذه الرحلات ، كما انه من المعروف أن الغرباء كانوا لا ينقطعون عن دخول مكة تجارا أو وكلاء تجار ، ثم ان شهرة قريش بالرحلتين لا تعني أنهم لم يكونوا يرحلون الا رحلتين، اذ كان تجارهم يضربون في الآفاق معظم أيام السنة (٩٣) . كان من نتائج تزايد الثروة لدى تجار مكة عنايتهم بفقراء المدينة حتى اصبح البحث عن الفقراء واشراكهم في المشاريع التجارية جزءا لا يتجزأ من النشاط الاقتصادي العام . وهذا ما جعل بعض المفسرين يرى أن « لأيلاف قريش » تعني تراحم قريش وتواصلهم(٩٤) . وقد بدأ هذه العملية الجريئة هاشم بن عبد مناف ، ولعله أراد تمتين أواصر المجتمع المكي بتأليف قلوبهم وجعلهم جميعا شركاء في صنع المستقبل لتنجح سياسته في ايلاف القبائل . وقد اشار الشاعر مطرود بن كعب الخزاعي (٩٥) لهذه الصفة عند أبناء عبد مناف فذكرها بقوله :

والخالطين فقيرهم بغنيهم   حتى يكون فقيرهم كالكافي

تذكر بعض المصادر ان ظاهرة اجتماعية سلبية ظهرت في مكة قبل الأيلاف بفعل

الفقر والجوع عرفت باسم « الأعتفاد » ويعنى انه اذا اصاب إحدى العائلات المكية ضيق وجوع ، يخرج أفراد هذه العائلة الى الصحراء ويضربون على أنفسهم الاخبية بالتناوب حتى يموتوا دون أن يعلم بهم الناس (٩٦) . واستمرت هذه الظاهرة حتى زمن هاشم بن عبد مناف ، الذي أوضح لقومه سوء هذه العادة وعواقبها الخطيرة على المجتمع المكي ، وبين أن الأعتفاد لا يتناسب مع شرف قريش وسمعتها الطيبة بين العرب ، وطلب الى قومه قطعها بالتوسيع على المحتاجين واشراكهم بمشاريع التجارة حتى يصبح الفقير غنيا(٩٧) كما هو واضح من شعر مطرود الخزاعي السالف الذكر(٩٨).

يذكر الجاحظ أن قريش أخصبت بفعل الايلاف واتاها خير الشام واليمن والحبشة ، فحسنت حالها وطاب عيشها(٩٩) . وابلغ تعبير عن الوضع الجديد الذي حققه الايلاف لأهل مكة قول الله سبحانه وتعالى : « أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »(١٠٠) يعني الضيق الذي كان به أهل مكة قبل أن يسن لهم هاشم الايلاف . ويقصد بالخوف ذلك الذي كان يحيق بتجارهم بين العرب خشية العدوان عليهم ، ومصداق ذلك قوله تعالى : « تخافون أن يتخطفكم الناس » (١٠١) .

لقد ذهب كستر الى أن فكرة مخالطة الفقير على الغني كانت المثل الاعلى في المجتمع الجاهلي وقد قررها الشعر ، وهي تقليد هام في المثل الجاهلية انعكس في العناية بالاسر المحتاجة ، على أن اعتناق الاسلام اعتبر انحرافا عن هذا المثل (١٠٢) .

ان ما ذهب اليه كستر هو صحيح باستثناء ما جاء في العبارة الاخيرة حيث أورد رواية فيها لوم لأحد أبناء الاغنياء المطعمين لاعتناقه الاسلام وتتهمه بأنه هدم ما بنى أبوه باتباعه محمد (١٠٣) . وما ذهب اليه كستر يخالف المعروف والمألوف في المجتمع العربي ابان الدعوة الاسلامية ، فقد جاءت الدعوة لصالح الفقراء والمحرومين ونحن في غنى عن ايراد الآيات والاحاديث في هذا المعنى ، كما أن ما أخذ على محمد صلى الله عليه وسلم في حينه ، أن اتباعه من الفقراء والموالي والعبيد . ولعل كستر لم يوفق في فهم العبارة السالفة الذكر والمراد بها لوم نعيم بن عبد الله باعتناقه الاسلام وخروجه على جماعة قومه الذين يتزعمهم والده ويجمعهم حوله ، وكان التقليد الجاهلي يحكم بأن يخلف الابن أباه في مآثر الزعامة واطعام الطعام لا الخروج عليه .

وكما قرر المجتمع المكي محاربة الفقر فقد قرر أيضا محاربة الظلم . ومن أجل هذه الغاية كان حلف الفضول ، حيث تعاقدت خمسة بطون قرشية أن لا تدع مظلوما بمكة الا وتنصره . وكان مما تعاقدوا عليه ايضا مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم (١٠٤) . ومن الواضح أن حلف الفضول جاء بعد مماطلة في صفقة

تجارية بمكة ، وهو بأهدافه وغاياته الاقتصادية يقع ضمن سياسة الايلاف .

وكانت الشراكة المكية تتم بالتراضي ، وغالبا ما تقسم الارباح مناصفة ، اي ان صاحب المال يتقاضى نصف الارباح والتاجر الذي يسافر بالاموال يأخذ النصف . وكان الكل منهمكا بزيادة ثروته (١٠٥) . وجلبت هذه الحركة معها أعمال الصيرفة ، وتكدست في مكة العملات المتداولة ، ومهر الصيارفة بمعرفة أنواعها وأوزانها وأصالتها وزيفها ، والاماكن التي ضربت بها (١٠٦) . واغلب العملات المستعملة كانت الدينار الرومي والدرهم الفارسي والحميري (١٠٧) . وكذلك مهر القرشيون بالاعمال التجارية ، وعرفوا أساليب الوساطة والمضاربة والسمسرة والمقايضة والتأمين ، وتداينوا بالربا الفاحش . ونجد صدى ذلك في آيات من القرآن الكريم حملت على جشع التجار المكيين وذمت الربا والتعامل به ، ثم حرم الاسلام الربا واعتبره من الكبائر (١٠٨) .

وكان من أثر التجارة على المجتمع المكي شيوع الغنى والترف والاسراف . فقد ذكرت الروايات أن عبد الله بن جدعان مثلا كان يشرب بكأس من الذهب ويأكل في صحاف الفضة ، كما ذكر الكثير عن رؤوس أموال التجار ، من امثال عبد الرحمن ابن عوف ، وعثمان بن عفان ،وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم كثير(١٠٩).

ويستفاد من القرآن أن الترف قد شاع في الاوساط المكية وأصبح هم الناس متاع الدنيا وشهواتها . ومصداق ذلك قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » (١١٠) .

وعلى الرغم مما اخذ على بعض المكيين من اسراف وترف وقسوة في التعامل مع المسلمين الاوائل فان الاجراءات المكية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية السابقة للاسلام حققت تكوين قاعدة متينة للانطلاقة المكية التي حصلت في عهد هاشم بن عبد مناف ، واستمرت في تعاظمها فيميادين المعرفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة، وتوج هذا التعاظم بانفجار الاسلام من مكة ليعم ضياؤه انحاء المعمورة على أيدي رجالات مكة .

الهوامشــ :

(١) ج كستر ، الحيرة ومكة ، وصلتهما بالقبائل العربية ، ترجمة الدكتور يحيى الجبوري ، بغداد ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م .

واصل هذا الكتاب بحثــان :

(a) Al-Hira, Same note on its relations with Arabia, Arabica V. 15 (1968) Leiden.

(b) Macca and Tamim, Aspects of their relations, Journal of the Economic and Social.History of Orient, V. 8 (1963). Leiden.

(2) H. Lammens, La Mecque a la veille de l'Hegire,(extract from melange Univ . St. Joseph, Beirut, ix ., Fasc.
— H. Lammens, Enc. of Islam « Macca ».

(3) Muhammad Hamidullah, AL - Ilaf, ou les Rapports Economiques - Diplomatiques de la Mecque pré-islamique,(extrait des melanges Louis Massignon, Inst. Français de Damas, 1957.

(٤) ظافر القاسمي ، الايلاف أو المعونات غير المشروطة ، مجلة المجمع العربي ـ دمشق مجلـد ٣٤ ، نيسان ١٩٥٩ ، ص ٢٤٣ ـ ٢٥٥ . وابراهيم بيضون ، الايلاف القرشـي ، بحث في التكويـن الاقتصادي لمكة قبل الاسلام ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، عدد ٤٢ نيسان ١٩٨٢ ، ص ٢٣ ـ ٢٥ . وعدد ٤٣ أيار ١٩٨٢ ، ص ٢٣ ـ ٣٢ .

(٥) القرشي ، أبو الفرج جمال الدين عبـد الرحمن علـي الجوزي البغـدادي (٥٠٨ ـ ٥٩٧ هـ) زاد المسـير في علم التفسير ، المكتب الاسـلامي للطباعة والنشـر ، ط ١ ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م تفسير « سورة قريش » ص ٢٤١ وما بعدها .

(٦) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) جامع البيان عن تأويل القرآن المشهور باسم تفسيرالطبري ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، ١٩٧/٣٠ وما بعدها .

(٧) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) لسان‌العرب ،دار صادر بيروت مجلد ٩ ، مادة « ألف » .

(٨) ن . م

(٩) انظر تفسير « سورة قريش » في تفاسير : الطبري ، وابن كثير ، والبغوي ، والصابوني ، وسيد قطب . وبقية التفاسير لا تخرج عن ذلك .

(١٠) انظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ٢٥٢/٢ . والزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ ، الكشاف عـن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ـ لبنان ٢٣٥/٢ .

(١١) انظر بن حبيب ، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) المحبر رواية أبي سعيد بن الحسين السكري ، باعتناء الدكتورة ايلزه ليختن شتيتر ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ص ١٦٢ . وقارن حميد الله ، الايلاف ص ٢٩٩ .

(١٢) تفسير الطبري « رواية ابن عباس » تفسير سورة قريش ١٩٧/٣٠ وما بعدها .

(١٣) ابراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد علي النجار ، اشرف على طبعة عبد اسلام هارون ، المعجم الوسيط ، المكتبة العلمية ، طهران ، مادة « ألف » .

(١٤) انظر H. Birkeland, THE LORD GUIDETH, Oslo, 1956,P. 106-110.
وقارن كستر م . ج « الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية » ترجمة يحيى الجبوري ، جامعة بغداد ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦م ، ص ٤٧ – ٤٨ . وقد اعتمد بيركلاند فيما ذهب اليه على رواية أبي حيان في البحر المحيط ، تفسير سورة قريش ٥١٥/٨ .

(١٥) انظر تاريخ الطبري ٢٥٢/٢ .

(١٦) ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، (ت ٢١٣ ، ٢١٨ هـ) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وزميله ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ ، ١١٢/١ .

(١٧) انظر العيني ، شرح البخاري ص ٣٦٥ . يعلق حميد الله على خبر زيارة الاسكندر لمكة فيقول : « واذا كان المقصود به الاسكندر فان المصادر اليونانية لا تفيدنا في ذلك ، على الرغم من أن سفره من مصر الى الهند لا يلغي الامكانية النظرية لزيارة هذا المكان ، فهو ملك وثني ذو اعتقادات نظرية » الايلاف ص ٢٩٤ . وانظر أيضا الازرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ، اخبار مكة المشرفة ، رواية أبي اسحق بن أحمد بن اسحق بن نافع الخزاعي نسخة مصورة عن الطبعة الهندية ١٢٧٥ هـ ، ٨٤/١ . والحموي ، الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، معجم البلدان ، دار الكتاب العربي ، بيروت مادة « مكة » . وابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ت ٣٢٨ هـ العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر « رواية العتبي ٥٩/٢ – ٦٠ » .

(١٨) ابن هشام ١٢٦/١ ، ويذكر أن هذا الشعر لحذاقة بن جمح ، انظر : (١) من المصدر السابق.

(١٩) انظر اللسان مادة «حمس» وابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري ت٢٣٠هـ ، الطبقات الكبرى ، دار بيروت – دار صادر ، بيروت ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧م ، ٧٢/١ . وانظر عن الحمس : ابن هشام ١٩٩/١ وما بعدها ، والازرقي ١١٩/١ – ١٢٣ ، والمحبر ١٧٨ وما بعدها والجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٢٥ هـ / ٨٦٩م ، كتاب البلدان ، نشر وتعليق صالح العلي ، مستل من مجلة كلية الآداب – بغداد ١٩٧٠م ص ٤٧٢ وما بعدها ، والقيرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق (٣٩٠ – ٤٥٦ هـ) ، العمده في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ دار الجيل – بيروت ١٩٧٢م ، ١٩٧/٢ وما بعدها المرزوقي، احمد بن محمد بن الحسن ، الامكنة والبقاع ، حيدر اباد ١٣٣٢ هـ ، ١٦٦/٢ وما بعدها ، السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٥٠٨ –٥٨١ هـ) /١١١٤ – ١١٨٥م ، الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، ومعه السيرة النبوية لابن هشام ، بعناية : طه عبد الرؤوف سعد « مكتبة الكليات الازهرية ، ٢٢٩/١ والافغاني ، سعيد ، أسواق العرب

في الجاهلية والاسلام ، دار الفكر ، ط ٣ بيروت ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤م ص ٧٥ وما بعدها ، وكستر ، ص ٦٢ وما بعدها .

(٢٠) انظر الاصفهاني ، ابو الفرج على بن الحسين ، ت ٣٥٦هـ / ١٩٧٦م ، كتاب الاغاني ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٥/١٩ وما بعدها ، وكستر ٦٣ ـ ٦٤ .

(٢١) ن . م .

٢٢) انظر حول ذلك : ابن حبيب ، المنمق في أخبار قريش ـ تحقيق خورشيد أحمد فاروق طبعة الهند ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م ص ٣١ ـ ٣٢ . اليعقوبي أحمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الاخباري ت ٢٨٤ هـ تاريخ اليعقوبي ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، النجف ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م ٢١٣/١ . الجاحظ ، البلدان ، ص ٤٧٠ . الازرقي ١٠٤/١ ، ١٠٧ . تفسير الطبري ١٩٩/٣٠ ـ ٢٠٠ « تفسير سورة قريش » . القالي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم ، ذيل الامالي والنوادر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، ص ٢٠٤ . والسهيلي ٢٢٥/١ . حميد الله ص ٢٩٧ ، ٣٠٧ . م . وات ، محمد في مكة ، تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ص ١٨ . الافغاني ص ٧٥ . واحمد ابراهيم الشريف ، الندوة الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ـ الرياض .

(٢٣) لامانس ، ص ٤٣٨ .

(٢٤) ن . م

(٢٥) القالي ، ذيل الامالي ص ٢٠٤ .

(٢٦) بليايبيف ، العرب والاسلام والخلافة العربية ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٢٧) الثعاليبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعاليبي النيسابوري ٣٥٠ ـ ٤٢٩ هـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨م ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٢٨) ن.م ص ٨٩ وحول هاشم وأخذه الايلاف ، انظر : ابن هشام ١٣٦/١ ، ابن سعد ٧٥/١ ـ ٧٦ ، والازرقي ٦٧/١ وما بعدها والسهيلي ١٦١/١ ، والطبري ، تاريخ ٢٥٣/٢ ، وابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ت ٦٥٦ هـ ، شرح منهج البلاغة ، دار الفكر ـ بيروت ١٩٥٦م ، ٤٥٨/٣ .

(٢٩) انظر ابن هشام ١٣٦/١ . والبلاذري ، أحمد بن يحيى ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م أنساب الاشراف ، ج تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م. ٥٩/١ . والمسعودي ، أبو الحسن علي ابن الحسين ت ٣٤٦ هـ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م ، ٥٩/٢ ـ ٦٠ . والقرطبي ، أبو عبد الله محمد ابن احمد الانصاري ، الجامع لأحكام القرآن « تفسير القرطبي » ط ١ ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م، ٢٠٤/٢٠،وتفسير الزمخشري ٢٣٥/٢ ،والقالي، ذيل الامالي ٢٠٤ـ٢٠٥، والمنمق في أخبار قريش ص ٣١ وما بعدها ، والمحبر ١٦٢ .

(٣٠) ذيل الامالي ص ٢٠٤ .

(٣١) انظر ظافر القاسمي ، الايلاف ، ص ٢٥٥ .

(٣٢) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، جمع حسن السندوبي ص ٧١ ، وثمار القلوب ص ٨٩ ، وذيل الامالي ٢٠٤ .

(٣٣) سورة القصص ، آية ٥٧ . وانظر حول ذلك تفسير القرطبي ٢٠٩/٢٠ « تفسير سورة قريش » .

(٣٤) انظر حول العهود والايلاف لأبناء عبد مناف ، المحبر ص ١٦٢ ، والمنمق ٢١ ـ ٤٠ ، وذيل الامالي ص ٢٠٤ وما بعدها ، والبلاذري ، أنساب ٥٩/١ ، واليعقوبي ، تاريخ ١ / ٢١٣ .

(٣٥) أنساب ٥٩/١ .

(٣٦) اللسان « عصم » .

(٣٧) تاريخ ٢٥٢/٢ .

(٣٨) اللسان « حبل » .

(٣٩) اللسان « حلف » ، وثق .

(٤٠) انظر الجاحظ ، البلدان ص ٤٧٢ ، وابن سعد ٧٥/١ .

(٤١) البلدان ص ٤٦٦ .

(٤٢) الاغاني ٦٤/١ ، وجواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٦٨ ، ٢٩٣/٧ .

(٤٣) ن . م .

(٤٤) ابن بكار ، أبو عبد الله الزبير (١٧٢ ـ ٢٥٦ هـ) جمهرة نسب قريش وأخبارها ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة العروبة ، القاهرة ١٣٨١هـ ، ص ٣٦٧ رقم ٦٤٤ . والكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بعناية رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعية ، بيروت ١٩٠٨م ، ص ٦ ـ ٧ .

(٤٥) الطبقات الكبرى ٧٨/١ .

(٤٦) الجاحظ ، الرسائل ، جمع السندوبي ـ من كتاب فضل هاشم ص ٧٠ .

(٤٧) ابن سعيد الاندلسي ، أبو الحسن علي بن موسى ٦١٠ ـ ٦٨٥ هـ ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، عمان ١٩٨٢ « رواية البيهقي » ص ٣٢٧ . وانظر صالح درادكة ، الردافه ، ملحق (١) .

(٤٨) حول مقابلة عبد المطلب لابرهة الحبشي، ومولد الرسول الكريم، انظر ابن هشام٩٤/١ ،والبلاذري، أنساب ٦٧/١ ، والطبري ، تاريخ ١٣٣/٢ ـ ١٣٤ .

(٤٩) انظر بيضون « المقالة الثانية » ص ٢٨ .

(٥٠) ابن هشام ١٣٦/١ ـ ١٣٩ . المحبر . مروج الذهب ٩٠/٢ . تاريخ الطبري ٢٥٣/٢ .

(٥١) م. وات ص ٣٣ .

(٥٢) البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري ، دار الجيل ، بيروت ٥٩/٥ . ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ت ٨٥٢ هـ /١٤٤٩ م « الاصابة في تمييز الصحابة » دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٣٢٨هـ ، ٤ / ٦٢ رقم (٣٨٤) .

(٥٣) ابن سعد ٣ /١٣٦ .

(٥٤) سورة النور ، الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ ، وانظر تفسير الطبري للآيتين السابقتين .

(٥٥) انظــر G. Levidelle vida, Tamim, E. I. (1) 1964. vol.II,P . 643 - 644.

(٥٦) انظر صالح درادكة ، الردافة ص ٢٢ وما بعدها .

(٥٧) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الاول والثاني للهجرة، ط١ ، دار الفكر العربي ، مصر ١٩٦٨م ص ١٠ . وكستر ص ٥٨ .

(٥٨) انظر الواقدي ، محمد بن عمر ت ٢٠٧ هـ كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونز مصورة عــن طبعة اكسفورد ١٩٦٦ ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ٤٠٢/١ ــ ٤٠٣ . ابن سعد ٦٢/٢ ــ ٦٣ ، المحبر ١١٤ « غزوة دومة الجندل » وياقوت « دومة الجندل » . اتخذت كلب ضمــنها «ود » في دومة الجندل . انظر أبي الكلبي ، أبي المنذر هشام بن محمــد بن السائب الكلبــي ، كتاب الاصنام ، تحقيق أحمد زكي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣ هـ ــ ١٩٢٤م، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٥ ص ١٠ .

(٥٩) موقع قريب من الكوفة من أجل مرابع العرب ــ ياقوت ــ حزن يربوع .

(٦٠) المزروقي ، الامكنة ١٦٢/٢ ، كستر ٥٨ .
ودومة الجندل حصن قرب جبلي طيء بين تيماء ووادي القرى ، وهو حصن أكيدر الملك الكندي، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد غزاه في السنة الخامسة للهجرة كما وجه اليه خالد بن الوليد من تبوك سنة ٩ هـ . ياقوت « دومة الجندل » .

(٦١) كســتر ص ٧٦ .

(٦٢) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ص٢٢ . وانظر الاصفهاني، الحسن بن عبد الله ت٣١٠هـ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة ــ الرياض ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨ . ص ٦١ « الحليفان أسد وطيء » .

(٦٣) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ / ١٤١٨م) ــ نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، مصر ٢٤٥/١ .

(٦٤) مر الظهران : الظهران واد قرب مكة . وعنده قرية يقال لها « مر » ياقوت « مر الظهران » .

(٦٥) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ص١٣ .

(٦٦) ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد ٣٨٤ ــ ٤٥٦ هـ جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٣٩١ ــ ١٩٧١م . ص ٤١٩ ــ ٤٢٠ . وابن دريد ، أبو بكر محمــد ابن الحسن ٢٢٣ ــ ٣٢١ هـ ، الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٨ ــ ١٩٥٨م ، ص ٣٢٠ . أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ، ص ١٠ .

(٦٧) من بين المحاولات الفارسية السيطرة على سواحل الخليج العربي ، ثم سيطروا على اليمن ومنها محاولة السيطرة على مكة عن طريق نشر الزندقــة في عهد قباذ والحارث بن عمرو الكندي ثــم حادثة البراض . انظر ابن هشــام ١٨٤/١ وما بعدهــا ، واليعقوبي ، تاريخ ١٢/٢ ، ونشــوة الطرب ص ٣٢٧ .

(٦٨) استمرت محاولات بيزنطة منذ حملة ايليوس غالوس ٢٤ ق.م على اليمن الى تنصير وتنصيب عثمان ابن الحويرث القرشي ملكا على مكة . انظر ابن هشام ٢٢٤/١ « عثمان بن الحويرث » .والزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله ١٥٦ – ٢٣٦ هـ ، كتاب نسب قريش بعناية ا . ليفي بروفنسال ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م ص ٢٠٩ – ٢١٠. ، والزبير بن بكار ص ٤٢٥ ، ونشوة الطرب ص ٣٥٠ .

(٦٩) الشريف ، دور الحجاز ص ١٢ .

(٧٠) ن . م *

(٧١) ن . م *

(٧٢) انظر البلاذري ، انساب ٣٩/١ – ٤٠ .

(٧٣)اليعقوبي ، البلدان . مطبوعات المطبعة الحيدرية ، النجف ، ص ٧٥ .

(٧٤) ن . م .

(٧٥) الاشتقاق ص ٢٨٢ ، ابن سعد ٤٧/٢ ، ٧٠ ، وابن حزم ٢٦٣ .

(٧٦ ابن الاثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم ت ٦٣٠ هـ ، الكامل في التاريخ المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٨٤ هـ ، ٢٤١/١ ، والشريف ، دور الحجاز ص ٤٥ . وابن كثير ، أبو الفداء الدمشقي ت ٧٧٤ هـ ، والبداية والنهاية ، مكتبة المعارف – بيروت – ومكتبة النصر – الرياض ، ط ١ ١٩٦٦ ، ٤٥/٢ .

(٧٧) جواد علي ٣٠٦/٧ وما بعدها *

(٧٨) كستر ص ٨٩ – ٩٣ .

(٧٩) جواد علي ٣٠٦/٧ .

(٨٠) انظر ابن هشام ٧٠/١ ، والهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ت ٣٥٠ – ٣٦٠ هـ، كتاب الاكليل ، ج ٨ تحقيق محمد بن علي الاكوع ، مطبعة الكاتب العربي دمشق ١٣٩٩ – ١٩٧٩م، ٢٢٩/٨ .

(٨١) بيضون ، المقالة الاولى ص ٢٣ .

(٨٢) ن . م .

(٨٣) ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبي ، صورة الارض ، منشورات مكتبة الحياة – بيروت . ص ٤٦ – ٤٧ *

(٨٤) ن.م وانظر اليعقوري ، البلدان ٣١٧ وما بعدها (ط . ليدن) وابن خرداذبة ، المالك والممالك ١٣٤ – ١٣٦ ، والاصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ، المعروف بالكرخي ، كتاب مالك الممالك ، نشر دي جوج ، ١٩٧٢م . ص ٢٣ وما بعدها .

(٨٥) انظر ابن شبه ، أبو زيد عمر بن شبه الخيري البصري ١٧٣ – ٢٦٢ هـ ، تاريخ المدينة ط ٢ تحقيق فهيم شلتوت ، دار الاصفهاني للطباعة بجدة ، على نفقة السيد حبيب محمود محمد ١٤٠٢ هـ ، ٣٥/٢، « ذكر أن اليمامة كانت تزود مكة بالقمح » . وانظر جواد علي ٢٢٠/١ .

(٨٦) اليعقوبي ، تاريخ ٢٧٠/١ .

(٨٧) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دي جوج ، بريل ١٩٠٦ ص ٩٧ . بيضون المقالة الثانية ص ٣٦ .

(٨٨) الافغاني أسواق العرب ص ٢٥١ .

(٨٩) لامانس الطائف ص ١١٩ ، وبيضون المقالة الثانية ص ٢٦ .

(٩٠) البخاري ١٦١/٧ * جواد علي ٢٣٧/٧ .

(٩١) الآية ٢٦ . وحول السلع التجارية انظر الجاحظ ، التبصرة بالتجارة ص ٣٤ وما بعدها واليعقوبي، بلدان ص ٥١ (ط . النجف) . ثمار القلوب ص ٤٢٣ . جواد علي ٢٢٧/٧ وما بعدها .

(٩٢) الايلاف ص ٣٠٠ .

(٩٣) مما يشير الى أن الرحلات التجارية كانت لا تنقطع . فقد خرج المسلمون بعد هجرتهم عدة مرات في سنة واحدة لاعتراض القوافل التجارية بين الشام ومكة . انظر مغازي الواقدي ٩/١ ومـا بعدها ، وابن هشام ٥٩٠/١ وما بعدها ، وابن سعد ٥/٢ وما بعدها وابراهيم شعوط ، اباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣ م ص ٢٤ .

(٩٤) انظر تفسير سورة قريش عند السيوطي ، الدر المنثور ٣٩٧/٦ *

(٩٥) انظر ذلك في البلاذري ، انساب ٦٠/١ ، الازرقي ٦٨/١ ، والديـار بكري ، حسـين بن محمـد ابن الحسين ، الخميس في أحوال النفس نفيس ، المطبعة الوهبية ، مصر ١٢٨٣ هـ ، ١٥٦/١ .

(٩٦) انظر تفسير القرطبي ٢٠٤/٢ ــ ٢٠٥ ، السيوطي ، جلال الدين ت ٩١١ هـ ، الدر المنثور في التفسير المأثور ، دار المعرفة ، ١٣٧٧ هـ ، ٣٩٧/٦ ، الشامي ، محمد بـن يوسـف الصالحي ت ٩٤١ هـ ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ٣١٧/١ ، كستر ص ٥٠ .

٩٧) ن . م

٩٨) ن . م

(٩٩) الجاحظ ، الرسائل ، جمع السندوبي ــ فصل هاشم ــ ص ٧٠-٧١، وانظر ثمار القلوب ص٩٠ .

(١٠٠) سورة قريش آية ٤ *

(١٠١) سورة الانفال ، آية ٢٦ .

(١٠٢) كســتر ٥١ ــ ٥٢ .

(١٠٣) انظر ابن هشام ١٤١/١ ، وكستر ٥٢ .

(١٠٤) لامانس ٤٣٩ .

(١٠٥) ن . م .

(١٠٦) ن * م ٤٤١ .

(١٠٧) ن . م ٤٤٠ .

(١٠٨) انظر على سبيل المثال ، سورة البقرة ، الآيات : ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ . وسـورة آل عمران ، آية ١٣٠ ، وسورة النساء ١٦١ ، وسورة الروم ٣٩ .

(١٠٩) انظر مروج الذهب ٢٤١/٢ ، وانظر ترجمة عبد الله بن جدعان في نشوة الطرب ٢٥٣/١-٢٥٥ ، وفي الالوسي ، محمود شكري ، بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ، تحقيق محمد بهجة الاثري، مصر ١٣٤٢ هـ ٨٧/١ وما بعدها ، وتراجم الصحابة الاخرين في ابن سـعد ٥٣/٣ ، ١٠٠/٣ ، ١٢٤/٣ ــ ٢١٤/٣ .

(١١٠) آل عمران ، آية ١٤ .

أوضاع الفلاحين في العراق والشام
في صدر الإسلام

د . نجدة خماش
جامعة دمشق

اهتم الخليفة الراشدي الثاني ، عمر بن الخطاب ، باحلال الحق والعدل والمساواة في كل منطقة وصل اليها المد الاسلامي ، بتطبيق النظم الاسلامية ومراقبة ولاته مراقبة دقيقة صارمة ، الا ان أوضاع كل منطقة وتقاليدها الاجتماعية والادارية السابقة ، والعوامل السياسية في العصر الاموي وما نجم عنها من ظروف اقتصادية ، أوجدت نوعا من التمايز بين عصر وآخر ، كما سيتبين من دراستنا لأوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الاسلام .

كانت جل أراضي السواد ،الذي أصبح مرادفا للعراق(١) ، مستغلة زراعيا ،لأنها منطقة سهول لا عوائق فيها ولا شواهق تشينها ولا مفاوز موحشة تحول دون تواصل العمارة فيها ، والانهار مطردة من رساتيقها وبين قراها ، مع قلة جبالها وآكامها(٢) ، هذه المنطقة كانت تكاد تخلو من الوجود الفارسي . فالفرس الذين كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة في البلاد ، اداريين وملاكين وجنود ، تمركز سكناهم في مناطق معينة من العراق . وكان استقرارهم اكثر ما يكون في شرق دجلة خاصة بالقرب من المدائن وعلى ضفاف نهر ديالى ، كما كانت لهم حاميات على حدود العراق الغربية . على شكل مسالح ، كان اهمها في عيون الطف والأيلة والخريبة وبانقيا وأليس والحيرة والعذيب وعين القمر والأنبار ، أما المنطقة بين دجلة والفرات فكان عامة سكانها من

النبط(٣) . ويظهر هذا في اخبار الفتح ، فبعد انتصار خالد على المسالح الفارسية غرب الفرات ، أخذت غارات قواده وغارات المثنى بن حارثة من بعده تصل الى نهر دجلة دون أية مقاومة فارسية تذكر ، ولا نجد ذكرا لمعاهدات صلح سوى التي عقدها خالد ، في خلافة ابي بكر ، مع الحيرة ،وقريات من السواد هي بانقيا وأليس(٤)، كما ان سعد بن أبي وقاص بعد انتصاره في القادسية وصل المدائن دون ان يلقى مقاومة لهروب كثير من السكان وخاصة الدهاقين واصحاب الملكيات (٥) .

تشعر الروايات أن الفلاحين في السواد كانوا في وضع من العبودية للدهاقين واصحاب الملكيات ايام الحكم الساساني ؛ ولهذا فقد اعتبروا تبعا لهم (٦) . ويذكر ابن الكلبي في اشارته الى ابتداء الدهقنة « فجعل لكل قرية دهقانا وجعل أهلها له خولا وعبيدا وألبسهم لباس المذلة وأمرهم بطاعته » (٧) ويذكر سيف قول أحد الدهاقين لسعد بعد سبي جماعات من الفلاحين ، انما هؤلاء علوج لأهل فارس لم يجرؤوا عليك ، فدعهم حتى يفرقَ الله لكم الراي (٨) . ذلك أن الفلاحين كانوا تابعين للارض ومجبرين على السخرة وعلى الخدمة العسكرية كمشاة « فكانت كثرتهم العظمى تسير وراء الجيوش كأنها ذاهبة الى اذلال ابدي وبغير أجر يحفزها ولا مكافآت أخرى » (٩) وكانت الجزية تفرض عليهم . وعلى العامة من سكان المدن كذلك ، الا أن حالة العامة من سكان المدن كانت أحسن نسبيا لأنهم ، وأن كانوا يدفعون الجزية ، فقد كانوا معفيين من الخدمة العسكرية (١٠) .

سار المسلمون بالفلاحين الذين لم ينهضوا بقتال في العراق هذه السيرة التي اصر الخليفة الأول على أن يلقنها خالدا ويحمله عليها ؛ ولذلك سار خالد في هؤلاء الفلاحين ما كان أبو بكر قد تقدم اليه فيهم ، « لم يحرك هو وأمراؤه أحدا منهم في شيء من فتوحهم وسبى أولاد المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمر الاعاجم ، وأقر من لم ينهض من الفلاحين وجعل لهم الذمة »(١١) . وفي رواية أخرى لسيف بعد معركة المذار ان خالدا أقر الفلاحين ومن أجاب الى الخراج من جميع الناس بعد مادعوا وصارت أرضهم لهم(١٢) . وحصل أثناء الفتح وبعد معركة القادسية أن قامت القوات العربية ، أثناء ملاحقتها للفلول الفارسية ، بسبي جماعات من الفلاحين غربي دجلة قبل دخول المدائن (١٣) ، فقام سعد بارجاعهم الى قراهم عن طريق الدهاقين (١٤) . وفي كور دجلة والأهواز كانت عمليات السبي أكثر منها في السواد كما يظهر ، لأن الوجود الفارسي في هذه المنطقة يختلف عنه في السواد ؛ فقد كانت الأهواز تحوي مدنا فارسية وقلاعا وحصونا فتحت عدة مرات ، ولكن عمر كتب اليهم أن لا طاقة لكم بعمارة الأرض فخلوا ما في أيديكم من السبي واجعلوا عليها الخراج (١٥) .

بعد معركة القادسية سنة ١٤ هـ لحق كثير من أهل السواد بالمدائن ، فبعث سعد بن أبي وقاص رسائل الى عمر بن الخطاب يسأله رأيه في أهل السواد ، فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ، ولم يقاتل أو استسام ، « فانا بأرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل ، وقد كثر أهل صلحنا وان اعمر لنا وأوهن لعدونا تألفهم » مكان جواب عمر «اما من اقام ولم يجل وليس له عهد فلهم ما لأهل العهد . بمقامهم لكم وكفهم عنكم اجابة وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك ، وكل من ادّعى ذلك فصدق فلهم الذمة »(١٦) . كما امره بتخلية سبيل الفلاحين الذين سبوهم وأن لا يتعرّض لهم بأذى (١٧) .

ونحن نعلم ان الفقهاء جميعا يجمعون على ان السواد فتح عنوة ، واذا كان بعض علوج السواد أو الفلاحين قد شارك في القتال ضد العرب ، فانما فعل ذلك مجبرا مساقا . أما كثرتهم الكثيرة فقد كان اعتصامها بأرضها هو موقفها ، واستطاعت ان تجد في سيرة العرب بالأرض اسس هذه المسالمة والقناعة . ونجد هذا الموقف في بعض حوادث الفتح ، فكانوا اذا اغار عليهم المسلمون نقّبوا عليهم نقيبا منهم فوجهوا الى خالد أو المثنى ، أو غير خالد والمثنى من القواد ، ليصالح عنهم ويضمن السلامة لهم (١٨) . أما طبقة الدهاقين ، فهي التي تولت مقاومة الحركة الاسلامية . فقد حارب الدهاقين المسلمين ، فلما أقرهم المسلمون على بعض عملهم ارتضوا حكمهم وتعاونوا معهم ، وترك المسلمون لملاك الارض أرضهم فأسلموا لهم قيادهم . فلما أثارهم الفرس قبل القادسية وأطمعوهم بالامارة وقالوا من سبق الى الثورة فهو أمير ، ثاروا وانتقضوا (١٩) . انهم كانوا يدورون مع الحفاظ على نفوذهم حركة وسكونا ، مداراة بالصداقة او مجاهرة بالعداوة . وهم الذين ثاروا على المثنى بعد خالد ، وعلى سعد بعد المثنى ، ولذلك فان العرب لم يكونوا مرتبطين معهم بصلح أو بأية التزامات ، بل وضعوهم موضع من قاوم الفتح واعتبروا اراضيهم أرض عنوة ، ومن ثم طلب العرب من سعد بن أبي وقاص أن يقسم السواد بينهم ، ولكنه ابى أن يتخذ هذا الاجراء قبل أن يستشير عمر الذي ارتأى بدوره ، بعد أن استشار عددا من المهاجرين والانصار ، أن يقر اهل السواد في ارضهم ويضرب على رؤوسهم الجزية وعلى أرضهم الخراج(٢٠) .

لا يوجد بين ايدينا روايات تشير الى ما فرض من الجزية والخراج في السواد ، قبل التنظيم الضريبي الذي تم عام ٢١ هـ ، سوى رواية السري عن شعيب ، ان المسلمين أخذوا أهل السواد بخراج كسرى ، وكان خراج كسرى على رؤوس الرجال على ما في ايديهم من الحصة والاموال(٢١) ، وان الناس الزموا الجزية في عهد كسرى ما خلا اهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والهوابذة

والكتاب ، ومن كان في خدمة الملك ، وصيروها على طبقات اثني عشر درهما وثمانية وستة واربعة دراهم في الشهر كقدر اكثار الرجل واقلاله ، ولم يلزموا الجزية من كان اتى له من السن دون العشرين او فوق الخمسين ، وكانت هذه الجزية تجبى في ثلاثة انجم كل نجم أربعة اشهر (٢٢) . وفي رواية أبي عبيد أن عمر بن الخطاب بعث حذيفة بن اليمان وسهيل بن حنيف وانهما قلجا الجزية على أهل الســواد ، على كل انسان اربعــة دراهم في كل شهر،ثم حسب اهــل القريــة وما عليهــم لدهقان كل قرية وقالا :على قريتك كذا وكذا فاذهبوا وتوزعوا بينكم ، فكانوا يأخذون الدهقان بجميع ما على اهل قريته (٢٣) . وفقا لهذه الرواية ، نجد أن متوسط ما كان على الفلاح أن يدفعه كان (٤٨) درهما في السنة ، وهي جزية مرتفعة بالقياس الى ما طبق بعد التنظيم ، الا اذا اعتبرنا ان هذا المبلغ يتضمن ما يجب أن يدفعه الفرد من جزية عن راسه وخراج عن ارضه ، استنادا الى روايــة يوردها البلاذري عن مصر ، بـأن اهل الجزية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسـل والخل على دينارين ، فألزم كل رجل أربعة دنانير فرضوا بذلك (٢٤) .

نتيجة لقرار عمر عاد الفلاحون في السواد الى أرضهم ، وصالح العرب الدهاقين ورؤساء الطساسيج على الجزاء والذمة (٢٥) ، وحافظ الدهاقين والفلاحون برجوعهم على ملكية اراضيهم ، ولما كان العرب المسلمون قد فرضوا الجزية على أهل الذمــة كافة بغض النظر عن مستواهم الاجتماعي ، فان عددا كبيرا من الدهاقين دخلوا في الاسلام بعد الفتح ، وكان جلهم من دهاقين الكور والطســاسيج(٢٦) ، فضمن لهم دخولهم الاسلام وضعهم الاقتصادي والاجتماعي ، اذ انهم اعفوا من الجزية وفرض لهم في شرف العطاء ، واشار عمر الى علو شأن هؤلاء حين ادخلهم في الديوان فقال : « قوم أشراف احببت أن أتألف بهم غيرهم »(٢٧) .

وقد تبين لنا من رواية أبي عبيد أن العرب كانوا يأخذون الدهقان بجميــع ما على اهل قريته ، اي ان الدهاقين كانوا مسؤولين عن جمع الضرائب من السكان في المرحلة الاولى وقبل تحديد الضرائب على الأرض والسكان سنة ٢١ هـ . وكان لاجراء المسح وتحديد ضريبة كل فلاح أن ساعد على تحرير الفــلاح من سيطرة الدهقان ، الذي أصبح في ظل الادارة العربية جابيا فقط الى جانب الجباة العرب . واصبح الفلاح هو المسؤول أولا واخيرا عن دفع ما عليه من خراج أرضه وجزيــة راسه ، لاسيما وان العرب اعتبروا الفلاحين احرارا لا رقّ عليهم (٢٨) . ففي روايــة سيف عن الشعبي أن بعض الناس يزعمون أن أهل السواد عبيد ، « ولو كانوا عبيدا لما اخذ الجزاء منهم ، فقد اخذ السواد عنوة ، فدعوا الى الرجوع ، فرجعوا ، وقبل منهم الجزاء ، وصاروا ذمة ، وانما يقسّم من الغنائم ما تغنّم ، فأما ما لم يغنم

واجاب أهله الى الجزاء من قبل أن يتغنم فلهم حرث السنة بذلك » ، وفي رواية سيف عن مسلم مولى حذيفة أن المهاجرين والأنصار تزوجوا في اهل السواد ، يعني في أهل الكتابيين منهم ، ولو كانوا عبيدا لم يستحطوا ذلك ولم يحل لهم ان ينكحوا اماء أهل الكتاب(٢٩) .

وبالرغم من انه اتفق مع السكان في البداية أن يقوموا باصلاح الطرق والجسور والقناطر وسد البثوق « فكان الفلاحون للطرق والجسور والاسواق والحرث والدلالة ، مع الجزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم ، وكانت الدهاقين للجزية عن أيديهم والعمارة وعلى كلهم الارشاد وضيافة ابن السبيل من المهاجرين » (٣٠) ، فان العرب أصبحوا هم المسؤولين، بعد التنظيمات التي تلت الفتح ، عن حفر الانهار وبناء القناطر والجسور وسد البثوق حين الحاجة الى ذلك على نفقة بيت المال (٣١).

وراعى الخلفاء الراشدون حالة الارض والسكان في تقدير الخراج والجزية ، اذ أن عمر بن الخطاب أمر ، بعد التنظيم ، أن يوضع على الدهاقين الذين يركبون البراذين ويتختمون بالذهب على الرجل ثمانية وأربعين درهما وعلى اوسطهم من التجار على راس كل رجل أربعة وعشرين درهما في السنة وعلى الاكرة وسائر من بقي منهم على الرجل أثني عشر درهما (٣٢) . أما فيما يتعلق بالخراج فان الروايات التي يوردها البلاذري والتي تنسب الى عهد عمر بن الخطاب كلها تشير الى أن الخراج فرض على كل جريب حسبنوع المحاصيل (٣٣) ، كما أن الروايات المتعلقة بالخراج عند أبي يوسف وأبي عبيد كلها تظهر اختلاف مقادير الخراج على الجريب الواحد من المحصول نفسه ، وقد يعود ذلك الى اختلاف خصوبة الارض من مكان لآخر ، وبعد المناطق عن الأسواق وقربها منها . ولما كانت الدولة في العهد الراشدي تجبي ضرائبها من الزرع بالنقد والعين ، أي أنها كانت تأخذ مع النقود منتجات عينية ، فان هذا كان يخفف عن الفلاحين بعض الأعباء فلا يضطرون الى بيع منتجاتهم بأسعار رخيصة كي يحصلوا على نقود لتسديد الضرائب .

هذا ما كان من أوضاع الفلاحين في العراق في العصر الراشدي ، فاذا انتقلنا الى الشام نجد أنها ، كالعراق ، منطقة تحتم جغرافيتها أن تكون حرفتها الاولى الزراعة كذلك ، الا أن أراضيها الزراعية ليست متصلة اتصال أرض السواد ، فهناك سهول ساحلية وأخرى داخلية تفصل بينها الجبال والوهاد ، وقد انتشر الروم ومرتزقتهم في مدن الساحل(٣٤) ، وفي المدن الداخلية كايلياء وبصرى ودمشق وحمص وتدمر وحلب . وبما أن المدينة ذات الحكومة المحلية (Municipality) كانت مسؤولة عن الاراضي والقرى والضياع التابعة لها ، وكانت الاساس في البناء

المالي العائد لعهد ديوكليسيان (٢٨٤ ــ ٣٠٥ م) ، فاننا نلاحظ كثرة المعاهــدات التي عقدها القادة العرب في الشـام ، وكل هذه المعاهدات تنص بوضوح على وجود جزية وخراج ، وتميز بوضوح بينهما ، كما تنص على أن المدن صولحت بالرغم من مقاومتها في باديء الأمر ، وأن الارض أخذت عنوة . ولذلك نجد الفقهاء يؤكدون على أن مــدن الشام والجزيرة فتحت صلحـا ، وباقي الأرض ، أي الريـف ، عنــوة(٣٥) . ويطلق المؤرخون على الفلاحين في الشام كما أطلقوا على الفلاحين في السواد اسم العلوج او النبط ، ولم يكن وضعهم بأفضل من وضع اخوانهم في العراق ، فقد استنتـج (فرديناند لوت Ferdinand Lot) من دراسته للقوانين الواردة في مدونة جستنيان وفي سنوات مختلفة واماكن مختلفة أن ضريبة الراس اصبحت بعد القرن الرابـع الميلادي تجبى فقط من الفلاحين ، وغدت سمة لهذه الطبقة من المجتمع(٣٦) ، ودلالة على المذلة كما يتبين من التعبير Plebaie Capitationis . ومما يؤكد ذلك أن الروايات التي تتحدث عن جبلة بن الأيهم ، بالرغم من اختلافها في بعض النقـاط ، فانها تتفق بأن عمر عرض الاسلام على جبلة مع اداء الصدقة أو البقاء على دينه ودفع الجزية ، فأنف منها(٣٧) لأنه عربي والجزية لا يدفعها الا العلوج ، وهذا دليل على أن ضريبة الرأس كانت مفروضة على الفلاحين في العهد البيزنطي .

وكان من اهم التطورات التي نجمت عن نظام الضرائب الذي فرضته دولة الروم ــ نظرا لفداحة ما استتبعه من أعباء ، ولانتشار نظام الحماية ، ثم لحرص الدولـة على توفير الأيدي العاملة في وقت كان عدد السكان فيه يتناقص ــ ان تحوّل الفلاحون الى أرقاء للارض(٣٨) مقيدين بها ، وأصدرت الدولة التشريعات اللازمة لاجبارهم على الاقامة .

انتشر العرب بالفتوح في بلاد الشام كلها ، الا أنهم لم يتعرضوا لجماعات القرى بأي أذى أو ضرر ، كما يتبين من عهود الصلح الكثيرة ، فكانت خطتهم منذ البداية قائمة على عدم الاضرار بالفلاحين ، بل ان قادة العرب بذلوا جهودهم لبعث الطمأنينة في نفوسهم وابقائهــم في الأرض ، كما لا نجد ذكـرا لهرب ، او سبي ، جماعات مــن الفلاحين في الشام ، الذين اعتبروا احرارا بالرغم من أن أرض الريف أخذت عنوة . لأن عمر بن الخطاب رفض أن يقسم أرض الشام وما فيها من شجر وزرع (٣٩) على المقاتلين العرب . وكان من رأيه تركها لأصحابها مقابل وضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم فتكون فيئا للمسلمين « المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم »(٤٠) .

كانت الجزية في باديء الأمر في الشام جريبا ودينارا على كل جمجمة (٤١) ثــم

عدلت بعد التنظيم فجعلها عمر أربعة دنانير على أهل الذهب واربعين درهما على أهل الورق ، وجعلها طبقات لغنى الغني واقلال المقل وتوسط المتوسط ، وتتفق رواية عمرو الناقد عن اسلم مولى عمر مع رواية عمرو بن حماد بن أبي حنيفة عن اسلم مولى عمر ، أن عمر بن الخطاب كتب الى أمراء الأجناد يأمرهم أن يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى ، على اهل الورق على كل رجل اربعين درهما وعلى اهل الذهب اربعة دنانير ، الا ان الرواية الأولى تضيف وأن عليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة وثلاثة اقساط زيتا كل شهر لكل انسان بالشام والجزيرة ، وجعل عليهم ودكا وعسلا . أما في الرواية الثانية فتذكر أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام(٤٢) . ويبدو أن الارزاق فرضت على اهل الريف فقط دون أهل المدن لأن الأرض لهم وبامكانهم دفعها ، فيذكر أبو يوسف : « انهم انما فعلوا ذلك لأن أهل الرساتيق هم اصحاب الأرضين والزرع وأهل المدائن ليسوا كذلك »(٤٣) ، ولعل هذه الأرزاق كانت تشكل الضريبة على الأرض في هذه الفترة المبكرة ، وبما ان الروايات المتعلقة بما فرض من خراج بعد ذلك غير متوفرة ، فاننا نستنتج ، استنادا الى ما ذكره الماوردي من ان عمر بن الخطاب راعى في كل أرض ما تحتمله في الشام(٤٤). واستنادا الى التعديل الذي حدث في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ)، نستنتج ان الاجراءات التي تمت في الشام قد تكون شبيهة بتلك التي تمت في سواد العراق ، من مسح للاراضي ، واختلاف فيما فرض على الأرض باختلاف نوع الحاصل وطريقة الري والبعد والقرب من الأسواق . ونلاحظ رفق عمر بن الخطاب بالفلاحين مما ورد في صلح ايلياء « أن لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم » . وفي الرواية التي يوردها أبو عبيد عن ابي مسهر بن سعيد بن عبد العزيز عندما سأل عمر بن الخطاب عامله سعيد بن حذيم (والي حمص سنة ٢٠ هـ) عن سبب تباطئه في ارسال الخراج، فبين له انه انما يؤخرهم الى غلاتهم ، فقال عمر : « لا عزلتك ما حييت » : قال أبومسهر ، ليس لأهل الشام حديث في الخراج غير هذا ، ويعلق ابو عبيد ، وانما وجه التأخير الى الغلة الرفق بهم ، ولم نسمع في استيفاء الخراج والجزية وقتا من الزمان غير هذا (٤٥) .

وكانت الضريبة في الشام كما في العراق تجبى عينا ونقدا ، فكان اهل الذمة اذا جاؤوا بعرض قبل منهم ، مثل الدواب والمتاع وغير ذلك ، يؤخذ منهم بالقيمة ، ولم يكن يؤخذ منهم في الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر (٤٦) ، لأن عمر بن الخطاب كان قدنهى عن اخذ ذلك منهم في جزيتهم ، وطلب من أهل الذمة أن يولوها اربابها لبيعها ، وأن يأخذ عامل الخراج اثمانها اذا كان هذا أرفق بأهل الجزية (٤٧) .

اما في العصر الأموي ، فنلاحظ هذا الاتجاه في جباية الضرائب نقدا من جهة

والتشديد في أوزان الدراهم التي تجبى من جهة ثانية ، فقد فرض يزيد بن معاوية الخراج على أرض السامرة بالاردن وجعل على رأس كل منهم دينارين ، وفرض الخراج على أرض السامرة بفلسطين وجعل على رأس كل منهم خمسة دنانير ، وكان أبو عبيدة بن الجراح قد صالحم على جزية رؤوسهم وأطعمهم أرضهم ، مقابل ان يكونوا عيونا وأدلاء للمسلمين (٤٨) . وكان عمر بن الخطاب قد قسط الخراج في العراق ورقا وعينا والدراهم تؤدي فيه عددا ، ففسد الناس ، فكانوا يؤدونه بالطبرية ووزن الدرهم اربعة دوانق (كل دانق قيراطان ونصف) ويستبدون بالوافي ووزنهمثقال (مثقال الفضة في العراق ١٢ قيراطا) (٤٩) . فلما ولي زياد بن أبي سفيان ، طلب أداء الوافي فشق ذلك على الناس (٥٠) . وبالرغم من أن عبد الملك فحص عن النقود والأوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم العربية الا أن ولاة العراق كما يبدو كانوا يطالبون أثناء تحصيل الضرائب عملات ذات وزن معين بدلا من العملات المتوافرة لدى الاهالي ويستولون على فروق النقد . كما أن الولاة ، رغبة منهم في دفع الفلاحين الى الزراعة ، كانوا قد عمدوا الى فرض الخراج على الأرض المزروعة وغير المزروعة ، وعادوا لأخذ هدية النيروز والمهرجان ، لأنه كان من عادة الفرس أن يتقدموا الى العمال والأمراء بالهدايا ، وبلغ من تأصل هذه العادة انها كانت جزءاً من النظام المالي في الامبراطورية الساسانية . ولهذا نلاحظ في العراق شيئا لم نلاحظه في الشام ، يتقدم الفلاحون أو الدهاقين بالهدايا الى خالد او أبي عبيد أو المثنى او الى امرائهم (٥١) ويحار هؤلاء القواد والأمراء ماذا يفعلون بها ، أيردونها على أصحابها أم يحتفظون بها . . ؟ . . ويكتبون بذلك الى الخليفة ، ثم يستقر بهم الأمر ان يتقبلوها على أنها من بعض الجزاء المفروض ، فيكتب أبو بكر الى خالد : « ان تقبلها منهم واحتسبها من الجزاء الا أن تكون من الجزاء »(٥٢) . هذه الهدايا أصبحت في العصر الأموي ، كما يبدو ، تعتبر حقا لهم في أعناق هؤلاء الناس وواجبا في ذمتهم . فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز كتب الى واليه على العراق ، أن لا يحمل خرابا على عامر ولا عامرا على خراب ، وأن لا يأخذ من الخراب الا مايطيق ولا من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، كما أمره الا يأخذ في الخراج الا وزن سبعة ليس لها اس ولا أجور الضرابين ولا اذابة الفضة ولا هدية النيروز(٥٢) .

ونلاحظ في العراق كذلك ظاهرة لم نلاحظها في الشام ، وهي ظاهرة هجرة الفلاحين من الريف الى المدن . والسبب في ذلك أن انتشار الاسلام في العراق كان أسرع من انتشاره في الشام ، ولن نتطرق في هذا البحث الى الأسباب التي ساعدت على انتشار الاسلام في العراق ، فهذا موضوع يستحق أن يفرد له بحث خاص ولكنا نستطيع أن نشير الى الأسباب الخاصة التي تميزت بها هذه المنطقة . فمن

المؤكد أن القلق الديني الذي كان قد استحوذ على الفرس خلال الفترة السابقة للاسلام ، وتباين النظرات الدينية ، وتعدد المذاهب بين زرادشتية ومانوية ومزدكية ، وتطاحنها هذا التطاحن الشديد ، كان عنصرا مساعدا في سرعة انتشار الاسلام بعد غلبة المسلمين ، ومن المؤكد أن الفرس كانوا أهل حكم وسياسة ، وكانت لهم تقاليدهم في الادارة وحظوظهم من السلطان ، فلما وجدوا أنهم غلبوا على أرضهم خافوا كذلك ان يغلبوا على سلطانهم . اما العامة ، فقد يكون ما غلب عليها هو الدين ، او غلبت عليها سماحة الحرية التي أتاحها الاسلام ، وفرصة الانقاذ التي منحها لها. وأما الخاصة ،من الذين كانوا يلون السلطان والادارة من مثل الاساورة والدهاقين ورؤساء المقاطعات ، فقد انفوا أن تستلب منهم سيطرتهم هذه التي يعيشون بها ولها ، ولذلك حبب اليهم ، بعضهم او كثرتهم ، أن يستجيبوا للاسلام ، وربما كان ذلك يعني بالنسبة اليهم الاسهام في هذا النظام الجديد الذي يقيمه المسلمون الغالبون ، والمشاركة فيه ، والابقاء على ما كان من حظوظهم في الحكم والادارة .

ولعلنا نفهم من هنا فرق ما كان بين الفرس والروم ، فقد كان الروم يحاربون في غير أرضهم ، ولذلك انصرفوا عنها ، وكان هذا وما تبعه من حروب الثغور هو الصورة التي كيفت علاقاتهم بالمسلمين . أما هنا ، مع الفرس ، فقد كان للمسألة وجه آخر ، كان الفرس يحاربون في عقر دارهم ، فلما غلبوا عليها لم يكن في وسعهم أن ينصرفوا عنها كما فعل الروم ، لأن العرب استطاعوا بعد استيلائهم على المدائن عاصمة الفرس أن ينساحوا فيما وراء ذلك في كل اتجاه وان يقضوا على الدولة الساسانية ويسيطروا على كل المناطق التي كانت خاضعة لها ، ولذلك فان الكثرة المطلقة من الناس لم تكن تملك الا أن تتلاءم مع الوضع الجديد بأن تتبنى الاسلام أو أن تستتر وراءه كاتمة ميولها وعواطفها ، وهذا ما أدى الى وجود أعداد كبيرة من الموالي في العراق ، والذين بلغ عددهم في الكوفة فقط في خلافة معاوية (٢٠) الفا(٥٤). ولا شك أن هذه الاعداد ازدادت بازدياد انتشار الاسلام ، لان الادارة العربية لم تحافظ على النظام الاقطاعي الساساني المحكم الذي كان يسيطر على الفلاحين ويجبرهم على البقاء في أرضهم ، كما أن التشريع المالي الاسلامي كان واضحا كما يبدو فيما يتعلق بأرض العنوة ، فمن أسلم فهو حر مسلم وتطرح الجزية عن راسه(٥٥) ، أما الارض فيبقى الخراج عليها لانها فيء للمسلمين ، وله الخيار في أرضه ان شاء أقام فيها يؤدي ما كانت تؤدي ، وان شاء تركها فقبضها الامام للمسلمين مع ما في يديه مما كان في أيدي أهل فارس ، فان شاء أنفق الامام عليها من بيت مال المسلمين واستأجر من يقوم بها ويكون فضلها للمسلمين ، وان شاء أقطعها رجلا ممن له غناء عند المسلمين(٥٦) . غير ان الواقع العملي اختلف عن التشريع النظري ، فالاحداث في العراق وما يذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق كلها تدل على أن من أسلم رفعت

الجزية عن راسه وله الخيار في ارضه ، ان شاء أقام فيها يؤدي ما كانت تؤدي ، وان شاء تركها وصار ما بيده من الارض بين اصحابه من أهل قريته يؤدون عنها مـا كان يؤدي من خراجها ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه ، ولا يرون انه وان أسلم اولى بما كان في يديه من أرضه من اصحابه من أهل بيته وقرابته ولا يجعلونهـا صافية للمسلمين . كما نفهم من نص يورده ابن عساكر أن القرية كانت مسؤولة عن دفع مبلغ الخراج متضامنة ، فاذا أسلم الذمي اسقطت الجزية عن راسه وبقيت الارض لأهل القرية يقومون بزراعتها ودفع الخراج عنها(٥٧) وبما ان انتشار الاسـلام بين أهل القرى في الشام كان بطيئا ، فان الفلاحين لم يشعروا بازدياد الأعباء عليهم كما حدث في العراق ، حيث حدثت هجرة واسعة من الفلاحين الى البصرة والكوفة ادت الى الاضرار بالاراضي الزراعية ، التي حرمت من الايـدي العامـلة ، فنقص انتاجها . وازدادت أعباء من ظل في الزراعة من الفلاحين ، الامر الـذي كان يدفعهم بدورهم الى مغادرة أراضيهم أو تحمل حياة صعبة مضنية .

ويبدو أن هذه المشاكل وصلت حدا خطرا زمن الحجاج بن يوسف الثقفي فاضطر الى اصدرا أمره بارجاع من كان لهم أصل في القرى الى قراهم ، عندما كتب اليه عماله «بأن الخراج قد انكسر وان أهل الذمة قد اسلموا ولحقوا بالامصار»(٥٨) . وقد دفععمل الحجاج هذا الى اتهام البعض له بأنه أخذ الجزية ممن أسلم ، بينما نرى ، وفقا للرواية السابقة ،وهي رواية عراقية ، أنارجاع الفلاحين الىقراهم جاءبطلب من العماللانكسار الخراج بنتيجة اسلام أهل الذمة ولحاقهم بالامصار ، اي ان قلة الايدي العاملـة في الاراضي الزراعيـة كانت وراء هـذه الشكوى التي تحمل في طياتهـا عـدم قـدرة الدهاقين على جمع الأموال المطلوبة من أراضيهم ونواحيهم نتيجة لذلك . وقد كان بامكان الحجاج أن يعمد الى احصاء الموالي في البصرة والكوفة وان يستوفي الجزية منهم ، وهو أمر لم يحدث ولم يشر اليه مصدر من المصادر ، مما يدل علىأن غايـة هذا الاجـراء هي تعمـير الريف واستيفـاء خراجـه ، وهنا لا بد من كلمة بحـق الحجاج ، وهي دقته في جباية الامـوال واستيفائها حتى من كبار اشراف العـرب . ففي سنة ٧٨ هـ قدم عليه المهلب بعد أن فرغ من حرب الآزارقة ، وكان عزم على ان يوليه خراسان ، فحاسبه قبل أن يبعثه واخذه بألف ألف درهم من خراج الأهواز . هذا بالرغم من المكانة الكبيرة التي كانت للمهلب عند الحجاج واكرامه له ولابنائه(٥٩) . وعندما خرجت بعض الاراضي من ايدي اهلها الى قوم مسلمين بهبات وغير ذلك واصبحت عشرية ، عاد الحجاج فصيرها خراجية ، وهو عمل لا يخالف الشرع لأن الخلفاء الراشدين كانوا يعارضون فكرة شراء المسلمين للاراضي الخراجية كرها أو طوعا، لانهم كانوا يفضلون بقاءها وقفا على آخر هـذه الامة من المسلمين المجاهدين وقوة على جهاد من لم يظهر عليه(٦٠) .

وجه الحجاج اهتمامه للزراعة والفلاحين بعد ان تم القضاء على الخوارج الازارقة والصفرية ، وعلى ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث ٨٥هـ ، فاسلف المزارعين ألفي الف درهم(٦١) . واذا كانت المصادر تذكر ان خراج العراق في عهد عمر بن عبد العزيز بلغ المائة والعشرين ألف ألف درهم ، وذلك بعدله وعمارته ، وهو اكثر مما جُبي في عهد الحجاج(٦٢) ، فان ذلك يعود ولا شك الى الاجراءات الكثيرة التي كان الحجاج قد اتخذها بعد استتباب الآمن في العراق ، من حفر للانهار والقنوات واقامة القناطر والجسور واستصلاح للمغايض والآجام ، وتجفيف لمساحات واسعة من أرض البطائح ، وهذه ولا شك قد أعطت أكلها في خلافة عمر بن عبدالعزيز (توفي الحجاج سنة ٩٦ هـ وأصبح عمر بن عبد العزيز خليفة سنة ٩٩ هـ) .

واذا كانت هناك روايات تشير الى بعض الأعباء الاضافية التي ربما أثقلت كاهل الفلاح في العراق ، فان الوضع في الشام كان مختلفا ، فسياسة معاوية المالية التي أصبح على الولايات بموجبها ارسال الفائض من الأموال الى بيت المال المركزي، ادت الى تدفق الأموال على الشام ، بالاضافة الى أخماس الغنائم التي كانت ترسل اليها ، مما ادى الى انتعاش الشام وتمتع أهلها كافة بمميزات خاصة ، فنحن مثلا لانجد ذكرا لضرائب اضافية في الشام كتلك التي اشير اليها في العراق ، مما ساعد على ازدهار الزراعة في الشام وبقاء الفلاحين في ارضهم ، على عكس ما حدث في العراق في العصر الأموي ، أو في الشام زمن هارون عندما ترك بعض أهالي فلسطين أراضيهم من كثرة الخراج (٦٣) ، أو عندما اشترك عدد كبير من الفلاحين في ثورة المبرقع اليماني سنة ٢٢٧ هـ في فلسطين والاردن ، اذ يشير الطبري الى ان اتباعه كانوا قوما من فلاحي تلك الناحية وأهل القرى وانهم كانوا في حدود مائة الف (٦٤) .

وتدل الاشارات التي ترد في مصادرنا ، أو التي توصل اليها علماء الآثار الى اهتمام الامويين بالزراعة في الشام ، هذا الاهتمام الذي كان ينعكس بدوره على الفلاحين الذين كانت لهم كلمتهم المسموعة كما يبدو ، والدليل على ذلك أن نهر يزيد كان نهرا صغيرا يجري فيه شيء يسير يسقي ضيعتين في الغوطة لقوم يقال لهم بنو فوقا ، ولم يكن لأحد فيه شيء غيرهم ، فماتوا في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ولم يبق لهم وارث ، فأخذ معاوية ضياعهم واموالهم ، فلم يزل كذلك حتى مات معاوية ، وولي ابنه يزيد ، فنظر الى ارض واسعة لا يسقيها سوى نهر صغير ، فأمر بحفره فمنعه من ذلك أهل الغوطة ودافعوه ، فلطف بهم على أن ضمن لهم خراج سنتهم من ماله، فأجابوه الى ذلك (٦٥) . وكانت المياه توزع عن طريق الأقنية وما يسمى المواصي ، كما كانت هنالك أنهار عديدة متفرعة عن بردى ، فكان الخليفة يأمر بأن توزع المياه بالعدل على هذه الأنهار عندما تقل المياه في بردى ، وقد بلغ عدد الأنهار المتفرعة عنه في عهد هشام بن عبد الملك ما يزيد على ثلاثة عشر نهرا (٦٦) .

ان الروايات المتناثرة القليلة بين أيدينا لا تسمح لنا باعطاء صورة مفصلة دقيقة عن أوضاع الفلاحين ، الا أنها توضح أمرا بالغ الأهمية ، وهو أنه كان من الأصول الكبرى التي قام عليها الفتح العربي تحرير الأرض في الأقطار المفتوحة وانقاذها من سيطرة الطبقة الحاكمة العليا ، وترك زمامها للفلاحين العاملين عليها واستنقاذهم من ألوان الاضطهاد أو الضغط أو الاحتكار . كما ألحت كتب الصلح على أن الجزية مقابل المنعة ، يمنع المسلمون الفلاحين، ويحمونهم ويمكنونهم من أرضهم في زراعتها واستثمارها واقتطاف خيراتها ، فيستحق المسلمون لذلك هذه الجزية يتقوون بهـا على أمورهم ، فاذا لم تكن منعة لم تكن الجزية . واذا أضفنا الى ذلك المساواة بين الجميع في تحمل العبء ، والغاء الامتيازات التي كانت تتمتع بها طوائف معينة كانت تعفى من ضريبة الرأس أو غيرها ، كالطبقات الارستقراطية في الشام ، وأهـل البيوتات والعظماء والهوابـذة والأسـاورة والكتاب في العراق والمناطـق الشرقية ، أمكننا القول أن الادارة الاسلامية خففت أعباء الفلاحين من جهة ورفعت مكانتهم الاجتماعية ، وصان لهم التشريع الاسلامي حريتهم وكرامتهم بعد أن كانوا أدنى طبقة اجتماعية ، سواء في العراق أم في الشام .

* * *

الهوامش :

(١) البلاذري ، فتوح ص ٢٤٢ ، الماوردي ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، ابن رسته ، الاعلاق النفسيسة ص ١٠٤ ، ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة السواد .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب مادة نبط ، الخطيب البغدادي ، ج١ ص ٥٧

(٤) الطبري ج٣ ص ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ص ٣٤٥ ، البلاذري ، فتوح ص ٢٤٥ *

(٥) الطبري ج٤ ص ٥ .

(٦) المصدر السابق ج٣ ص ٥٢٢ ، ج٨ ص ٧١ .

(٧) المصدر السابق ج١ ص ٣٧٩

(٨) المصدر السابق ج٤ ص ٥ ، ابو يوسف ص ١٣٨

(٩) كريستنسن ، ايران في عهد الساسانيين ص ١٦٨ ، ٣٠٦ نقلا عن امين مارسيلين

(١٠) المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .

(١١) الطبري ج٣ ص ٣٥٠ .

(١٢) المصدر السابق ج٣ ص ٣٥٢ ، ٣٥٤ .

(١٣) خليفة بن خياط ، تاريخ ج١ ص ١١٣ ، الطبري ج٤ ص ٥ ، ٣٠ .

(١٤) الطبري ، ج٤ ، ص ٥ .

(١٥) البلاذري ، ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

(١٦) الطبري ج٣ — ٥٨٤ — ٥٨٦ *

(١٧) المصدر السابق ج٤ ص ٥ ، ٣٠ ، أبو عبيد ، كتاب الاموال — ٢٠٠ — ٢٠٦ يحيى بن آدم ص ٤٨ .

(١٨) الطبري ، ج٣ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(١٩) المصدر السابق ج٣ ص ٤٤٩ .

(٢٠) يحيى بن ادم ، الخراج ، ص ١٣ ، البلاذري ، فتوح ، ص٢٦٨، الطبري ج٣ ، ص ٥٨٦ .

(٢١) الطبري ج٣ ، ص ٥٨٦ .

(٢٢) المصدر السابق ، ج٢ ص ١٥١ ، الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٧١ .

(٢٣) ابو عبيد ، الاموال ص ٧٤ .

(٢٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٢١٨ .

(٢٥) الطبري ج٣ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ج٤ ص ٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، خليفة ابن خياط ج١ ص ١٢٩ .

(٢٦) كان الدهاقين يتدرجون في المركز ما بين دهقان كورة ودهقان طسوج ودهقان قرية ، ويذكر كريستنسن ان الدهاقين انقسموا الى خمسة اقسام يتميز بعضها عن بعض بملابس مختلفة ، وأحيانا كان الدهاقين هم الرؤساء وملاك الاراضي والقرى واحيانا لم يكن الدهقان نفسه الا أول فلاحي الناحيـــة ، وفي هذه الحال لم يكن له قِبَل الفلاحـين ما للسـادة مالكي الارض من الارستقراطية الرفيعة ، وانما كان ممثل الحكومة امام حراثي الدولة : (كريستنسن ص ١٠٠) .

(٢٧) اليعقوبي ج٢ ص ١٥٣ ، المقدسي ، بدء ، ج٥ ص ١٦٩ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٢٦٤ .

(٢٨) الطبري ج٣ ، ص ٥٨٧ ، ابو عبيد ، الاموال ، ص ٢٠٦ .

(٢٩) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٥٨٨ .

(٣٠) المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٣٢ ، البلاذري ، فتوح ص ٢٧٨ .

(٣١) ابو يوسف ، الخراج ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٤٥ ، البلاذري فتوح ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٣٣) البلاذري ، فتوح ص ٢٦٨ ــ ٢٧٠ .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٣٥) البلاذري ، فتوح ص ١٢٣ ، ١٣٢ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج٣ ص ٦٤٧، ابويوسف، الخراج ، ص ٨٢ ، ابو عبيد ، ص ٤٠٠) .

(36) Daniel Dannette, **Conversion and the poll - tax in early Islam,** pp. 54 - 55.
Ostrogorsky,**History of the Byzantine State,** trans.Jaan Hussy, P. 34.

(٣٧) البلاذري ، فتوح ص ١٤٢ .

(38) M. Baynes, **The Byzantine Empire,** pp. 102-105
Ostrogorsky, OP. CIT., p. 38.

(٣٩) محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ص ٣٧٦ .

(٤٠) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٣٠ .

(٤١) البلاذري ، فتوح ص ١٣١ ، ١٢٠ ، الطبري ، ج٣ ص ٤٤٤ .

(٤٢) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣١ ، ابو عبيد ، الاموال ص ٥٥ .

(٤٣) ابو يوسف ، ص ٤٨ .

(٤٤) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ١٤٨ .

(٤٥) ابو عبيد ، ص٦١ .

(٤٦) الصولي ، ادب الكاتب ص ٢١٥ .

(٤٧) ابو يوسف ، ص ٦٩ .

(٤٨) البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٤٩) ولترهينتس Walter Hintz ، المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلهـا بالنظـام المتري ، ترجمة الدكتور كامل العسلي ، ص٩ .

(٥٠) ابو هلال العسكري ، الاوائل ، ج٢ ص ٣٢ .

(٥١) الطبري ج٣ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٥٢) المصدر السابق ج٣ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٥٣) ابويوسف ، الخراج ، ص ١٣٠ ، ابو عبيد ، الاموال ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، اليعقوبي ، تاريـخ ج٢ ص ٣٠٥ .

(٥٤) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢٨٨ .

(٥٥) يحيى بن آدم ، ص ٧ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ .

(٥٦) يحيى بن آدم ، ص ٧ ، ابو يوسف ، ص ٧٥ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ .

(٥٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلدة الاولى ، ص ٥٩٣ .

(٥٨) الطبري ، ج٦ ص ٣٨١ *

(٥٩) المصدر السابق ج٦ ص ٣١٩ ، ٣٢١ .

(٦١) ابن عساكر ، المصدر السابق ، المجلدة الاولى ص ٥٩٤ .

(٦١) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ص ١٠٥ .

(٦٢) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٦٧ .

(٦٣) البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٦٤) الطبري ، ج٦ ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٦٥) ابن عساكر ، المصدر السابق ، المجلدة الثانية ، القسم الاول ، ص ١٥٢ .

(٦٦) المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

* * *

مُلاحظات
حول نمط الحكم في ولايات التخوم
في الدور العباسي الأول

د . نبيه عاقل
جامعة دمشق

لعل أصعب ما واجه الادارة العباسية في الدور الأول من أدوار حياتها ، قضية الحكم في المقاطعات التي كانت تقع على اطراف دولة الاسلام ، والتي يمكن تسميتها بمقاطعات التخوم ، ولها خصوصيات جغرافية وبشرية فرضت على الدولة سلوكية ادارية ، نحاول في الصفحات التالية الكشف عن بعض خصائصها ، وبيان الأساليب التي اضطرت الادارة العباسية الفتية لاتباعها ، لضمان استمرار سيادتها على هذه المقاطعات .

وتتناول هذه الدراسة مقاطعتين اثنتين من هذه المقاطعات ، كمثالين ، هما : خراسان ، في الشمال الشرقي ، وافريقية في الغرب . وكان اختيارنا لهذين المثالين بسبب تماثل بعض ظروفهما ، ففي كلا المقاطعتين نجد حدودا مفتوحة ، فهي بالتالي عرضة لهجوم خارجي عليها . كما ان هذه الحدود لم تكن مجرد خط مرسوم على الخريطة ، بل هي مزيج مما يمكن تسميته ب « الحدود الداخلية » التي تفصل بين مساحات تدين بالولاء للدولة ، واخرى لا تدين بمثل هذا الولاء ، وفي خراسان كما في في افريقية ، كانت هناك شعوب محلية حريصة على استقلالها ، متشبثة بتقاليدها الموروثة وتنظيماتها الاجتماعية . على أن هذا التشابه لم ينف وجود تمايز في مجالات أخرى . فسكان الامارات الجبلية في خراسان كانوا مختلفين في نواح

عديدة مع المجتمع البربري الافريقي ، الأمر الذي اضطر السلطة العباسية لأن تتعامل مع كل منهما بما يناسب أوضاعها ، وما تتطلبه هذه الأوضاع من ترتيبات ادارية مناسبة . وقد انعكس هذا الوضع الخاص على حرية الدولة في انتقاء الأشخاص الذين يمكن ان توسد اليهم المسؤولية الادارية ، وحد من حرية اختيار الولاة ، بقدر ما حد من نوعية الصلاحيات التي يمكن لهؤلاء الولاة أن يتمتعوا بها .

ففي خراسان مثلا ، كان لابد ان يكون الوالي مقبولا من الحامية العباسية المحلية ، دون أن يلقى اختياره معارضة من الزعماء المحليين . وفي افريقية . كان على الوالي أن ينتصر او يسيطر على العنصر البربري المحلي . وان يتمكن من كسب ولاء الجند المحليين الذين كانوا حريصين على الدوام على الاحتفاظ بمكانتهم المتميزة . وقد ادى هذا الى جعل اختيار الولاة محصورا في فئة من الرجال لهم جذور او صلات بالمقاطعات ، أو سواهم ممن يستطيعون ان يستقطبوا الولاء المحلي ويجتذبوا الاتباع الذين تعتمدهم السلطة في تثبيت وجودها . وحين يتسلم الوالي سلطاته ، كان لا بد له من السير بحذر في ادارته شؤون الولاية ، لأنه سيواجه بأمور ومشكلات ان لم يكن قادرا على التعامل معها فستطيح به ، أو بهيبة من يمثله . فاذا ما كان كعبد الجبارالأزدي،الذي ولي خراسان للمنصور (١٤٠ هـ) . والذي كان شديد الاستجابة للضغوط المحلية ، فسيجد نفسه خارجا على سلطان الدولة ثائرا عليها (ثورة الأزدي عام ١٤١ هـ) . اما اذا أراد أن يفرض اوامر الدولة دون أن يأخذ بالاعتبار الظروف والحاجات المحلية ، فسيجد نفسه معزولا من منصبه كما كان الحال مع محمد العكي والي افريقية زمن الرشيد . وكان على الوالي ، في الوقت نفسه ، أن يراقب بحذر كبير « الجبهة الداخلية » ، وأن يرعى شؤونها . فعلي بن عيسى بن ماهان الذي استطاع ارضاء فئة « الابناء » والخليفة معا ، آل أمره الى الفشل لانه لم يفلح في استرضاء بعض العناصر المحلية المتنفذة . وطبيعي ايضا أن الامور كانت تختلف من ولاية الى اخرى ، وذلك حسب طبيعتها الجغرافية وتركيبها السكاني ، ودورها في الحياة العامة للدولة . فأحداث خراسان مثلا كان لها صداها في جميع أصقاع الدولة ، كما كان لها أثرها في رسم سياسة الخلافة بوجه عام . اما افريقية التي كانت تظهر على الدوام ميولا انفصالية ، فقد كان ما يجري فيها لا يؤثر على مجريات السياسة العامة ، وذلك لبعدها عن العاصمة من جهة ، ولما كانت تسعى اليه على الدوام من انفصال عن جسد الدولة . ويتضح ما ذكرناه بصورة جلية في الفترة التي تلت وفاة الخليفة هارون الرشيد ، فخراسان ، وللمرة الثانية خلال قرن واحد من الزمن ، تربعت مكان الصدارة وغدت في موضع القلب من جسد الدولة . ترسم سياستها وتلعب الدور الاهم في الاحداث وتستقطب أبرز الرجال ، ويلجأ اليها

الخليفة المأمون ليقيم فيها ردحا من الزمن . في حين ان افريقية ذات النزعة الانفصالية كما أسلفنا ، لا تلبث بعد موت الرشيد أن تستقل تحت حكم الاسرة الاغلبية ، وتبتعد رويدا رويدا عن مركز السلطة العباسية .

وعلى الرغم من هذين المسارين المتمايزين اللذين أخذتهما الحياة والاحداث في خراسان وافريقية بعد فترة غير طويلة من قيام حكم بني العباس ، فان الباحث يجد العديد من وجوه الشبه بينهما ، مما يجعل المقارنة مجدية لالقاء الاضواء على مشكلة نمط الحكم في ولايات التخوم في الدور العباسي الاول .

خراســـان

كانت خراسان احدى أكبر مقاطعات خلافة بني العباس ،وتشكل الحد الشمالي الشرقي للدولة . كما كان لها مكان فريد في التاريخ العباسي . ففي خراسان شهدت الحركة العباسية مولدها ، وكان لما يجري فيها من أحداث أثره البالغ على بقية أرجاء الدولة . ويمكن ايضاح ذلك بالقول انه اذا ما قامت مشكلة ما في مصر مثلا ، فان هذه المشكلة لن تتعدى آثارها حدود مصر ، ولن تعتبر همّا الا لوالي مصر ، ولن تترك بصماتها على بقية ولايات الدولة . أما اذا قام ما يماثل ذلك في خراسان فان الدولة بأسرها ستتأثر بما حدث في هذا الاقليم . ولربما كان ذلك بسبب اتساع رقعتها ، وانها تأتي الثالثة من حيث أهميتها الاقتصادية وما يدخل من وارداتها الى بيت مال الدولة ، اذ كان لا يفوقها في مقدار ما تدفعه من ضرائب الا السواد ومصر . ولعل أهم ما يجعلها على هذا المقدار من الخطورة والنفوذ انها كانت موطن الغالبية العظمى من الجند الذين تعتمدهم الدولة في عملياتها العسكرية . وقد كان الجند الخراسانية، على الرغم من سكناهم في العاصمة بغداد، يولون أهمية كبرى لما يجري في موطنهم الاصلي خراسان ، ويتابعون ما يجري فيه ويتأثرون بأحداثه أشد التأثر .

ان أهم ظاهرة تلفت النظر في اقليم خراسان هي ظاهرة التنوع ، ولا سيما على الصعيد الجغرافي ، فهذا الاقليم الذي كان يمتد على رقعة واسعة من الارض تبلغ من الري الى سمرقند ما يعادل الف ميل ، يتصف بتنوع كبير في المظاهر الجغرافية ، ويمكن تقسيمه الى ثلاث مجموعات طبيعية هي :

أولا : مناطق الواحات ووديان الانهار . وتضم زَرَفشان ، وواحة مرو ، وخوارزم في دلتا نهر سيحون (oxus) ، ومدنا كبرى كنيسابور والري وما كان فيهما من نظام للاقنية على جانب كبير من التقدم . وتتصف هذه المناطق بازدحام السكان من جهة ، وبنشاط زراعي واسع من جهة اخرى .

ثانيا : المناطق الجبلية ، كمنطقة جبال الهندوكوش التي تقع جنوب نهر سيحون، وجبال كِش والخُتّل بين نهر سيحون وزَرَفشان ، ومنطقة فرغانة التي تقع الى الشرق من سمرقند .

ثالثا : المناطق الصحراوية والتي تضم صحارى كراكوم Karakum وكيزيل كوم Kizil kum التي تجاور أسفل نهر سيحون (oxus) وتعزل المناطق المأهولة عن بعضها وتجعلها مزقا لا تواصل بينها .

وطبيعي ان هذا الاختلاف في البيئة الجغرافية سيؤدي الى قيام بنى اجتماعية وسياسية متباينة . ففي المدن الكبرى التي قامت في الواحات تمتعت الدولة بسلطان كبير ، اذ سلكنها العرب الفاتحون وسيطروا على الحياة العامة . وخير مثال على هذا النوع من المدن : مرو ، وبلخ وهرات ونيسابور وسمرقند . وقد ادت السيطرة العربية على هذه المدن الى ضعف سلطان الحكام الايرانيين المحليين ، واضطرارهم للتخلي عن هذا السلطان الى العرب الوافدين . ولا بد من الملاحظة في هذا المجال ان الطبقة العليا من السكان الايرانيين المحليين حافظت في ظل السيادة العربية على شيء كثير من ثروتها ومكانتها الاجتماعية البارزة . وكان بعضهم يعيش في قلاع حصينة ، ولا سيما في منطقة بخارى ، التي يذكر أحد المؤرخين(١) انها كانت تضم سبعمائة قلعة لوجهاء ايرانيين يتمتعون بالسلطان والنفوذ .

أما الحال في المناطق الجبلية فكان مختلفا . اذ أن الطبيعة الجغرافية لهذه المناطق سمحت باستمرار وجود بقايا النظام القديم وبعض رجالاته ، في حين اختفى هذا النظام كليا من المناطق السهلية . ففي ممالك الوديان الصغيرة في اعالي نهر سيحون ، ك : اشروسنة ، التي تقع في الجبال التي تطل على وادي فرغانة ، والاجزاء النائية من بادغيس ، استمرت بعض الاسر الحاكمة ، كاسرة الافشين واجداد الطاهريين ، في الحفاظ على سلطتها ومكانتها في المناطق التي تقيم فيها ، ولم يكن للعرب فيها الا بعض مظاهر السيادة الشكلية . ويصح الامر نفسه على خوارزم . التي استطاعت الحفاظ على استقلالها عن النفوذ العربي على الرغم من كونها منطقة واحات ، ولم تتسرب اليها الا قلة قليلة من العرب . وكان اقتصاد غالبية هذه المناطق اقتصادا رعويا فقيرا . ويتضح فقر هذه المناطق . اذا ما قورن بمدن السهول الغنية ، مما تورده لنا المصادر حول عائدات الضرائب التي كانت تجبى من هذه وتلك ، ففي حين كان مجموع الضرائب التي تجبى من هرات (١٫١٥٩٫٠٠٠) درهم . ومن نيسابور (٤٫١٠٨٫٠٠٠) درهم ، كانت ضرائب اشروسنة لا تتجاور الـ (٥٠٫٠٠٠) درهم ، وضرائب صَغَنيان Saghaniyan (٤٨٫٥٠٠) درهم،

أما بمنيان فكانت ضرائبها لا تتجاوز (٥٠٠٠) درهم (٢) . ولكن هـذه المناطق على فقرها كانت مهمة بالنسبة للخلافة ، لانها كانت مصدرا مهما لتمويل جيش الخلافة بالرجال ، على الرغم مماكان يحمله هؤلاء الرجال من حقد وكراهية للدولة العباسية وحرص على استقلال بلادهم عنها ، مما جعلهم في كثير من الاحيان مصدر خطر على سيادة الدولة .

لقد لعب حكام خراسان دورا هاما في تاريخ الدولة العباسية في الدور الاول من ادوار حياتها . وعلى الرغم من أن الجغرافيين العرب يقدمون لنا قوائم طويلة بأسماء هؤلاء الحكام والقابهم (شاه ، اخشيد ، خاقان ... الخ) ، فانهم مقلون في الحديث عن منجزاتهم والاحداث التي جرت في زمنهم . ولعل افضل وصف لاعمال وحياة حاكم من حكام هذه الامارات يمكن أن يستخلص من وصف محاكمة الافشين ، حاكم اشروسنة ، الذي كان من القواد البارزين في بلاط المعتصم ، والذي اتهم بالعصيان زمن هذا الخليفة ، وبالارتداد عن الاسلام ، الامر الذي يستوجب انزال عقوبة القتل اذا ثبت عليه مثل هذه التهمة . كما كان من بين التهم التي وجهت للافشين قيامه بأعمال وممارسات مخالفة للاسلام ، منها انزاله العقوبات ببعض الاشخاص لانهم كانوا يقومون بالدعوة للاسلام ويحاولون نشره بين السكان المحليين في امارته ، وأنه عقد اتفاقا مع ملوك الصغد يعمل بموجبه معهم على منع انتشار الاسلام في تلك الاصقاع ، واحتفظ ببعض الكتب الدينية الوثنية التي كانت متداولة بين السكان المحليين قبل الفتح الاسلامي لبلادهم ودخولهم في الاسلام ، وأنه كان يطلب من اتباعه أن يعتبروه الها وأن يخاطبوه بهذه الصفة .

ويبدو من هذه المعلومات التي نستقيها من اخبار محاكمة الافشين حول السياسة التي اتبعها في ادارة مقاطعته ، وما وجه اليه من تهم توضح ممارساته المعادية للاسلام ومحاولته الوقوف في وجه انتشار هذا الدين ، أن الافشين ، وقد يكون العديد من حكام مقاطعات خراسان سواه ، كانوا يجهدون لان يعطوا حكمهم صفة دينية مستوحاة من الاديان المحلية السابقة للاسلام ، وذلك كجزء من محاولاتهم للانفصال عن جسد الخلافة في بغداد ، والاستقلال بما تحت ايديهم من ارض . وتذكر المصادر القابا عديدة لهؤلاء الحكام، ولكن اللقب الاكثر شيوعا هو لقب « دهقان » ، و سنعتمد هذا اللقب في دراستنا هذه .

وطبيعي أن ينجم عن الانقسامات الاجتماعية والجغرافية صراعات سياسية ، وهذه الصراعات هي التي أدت بالنهاية الى قيام الثورة العباسية والحرب الاهلية . ومما يؤسف له أننا لا نملك الكثير من المعلومات حول الحياة السياسية في خراسان في

هذه الفترة ، اذ لم يصل الينا اي من التواريخ المحلية التي عالجت احداث الدور العباسي الاول في هذه المقاطعة ، ولا بد للباحث من ان يتسقط المعلومات والاخبار مما يتوافر له من مصادر متأخرة ، وغالبا ما تكون هذه المعلومات متضاربة ومشوشة ولا ترسم الصورة الحقيقية الواضحة لاحداث الفترة التي هي موضوع بحثنا . ولهذا فان جل ما نعرفه عن هذه الفترة يعتمد على الظن والتقدير والتخمين ، ولكن لابد لنا من أن نبذل كل جهد مستطاع لاستخدام هذه المعلومات ، على قلتها ، وتوظيفها في محاولتنا لتقصي أخبار هذه المقاطعة ودراستها دراسة معمقة ، لما كان لخراسان من دور رئيسي في حياة خلافة بني العباس في الدور الاول من ادوار حياتها .

كانت اهم المشكلات التي تواجه الخلفاء في هذا الاقليم مشكلات ثلاث ، هي : ١ ـ مشكلة اختيار الولاة ونوعية الصلاحيات التي يمنحونها ، ٢ ـ مشكلة الثورات المحلية والعلاقات مع الدهاقين ، ٣ ـ مشكلة الحدود الشرقية . وواضح ان هذه المشكلات الثلاث مرتبطة بعضها بالبعض الاخر ، وسنحاول فيما يلي دراسة كل منها دراسة مستقلة .

ولعل اول ما يجب أن نشير اليه في هذا المجال ان مساحة ولاية خراسان كانت تختلف من فترة الى أخرى . ففي زمن أبي مسلم الخراساني كان والي خراسان يحكم غالبية ايران ، بما في ذلك منطقة فارس (Fars) . ولا تدخل في ولايته همذان أو أذربيجان أو السند . وبعد مقتل أبي مسلم تقلصت مساحة الولاية الى حد كبير ، ولكنها ظلت تمتد من مدينة الري الى أقصى الحدود الشمالية الشرقية . وكان حكام المقاطعات التي تقع وراء نهر سيحون (oxus) يعتبرون أتباعا لولاة خراسان . اما سنستان (Sistan) فكان امرها غير ثابت . ففي زمن أبي مسلم كان حكام سستان من اتباعه وهو الذي يعينهم . ولكن حين آل الامر الى معن بن زائدة عام ١٥١هـ / ٧٦٨ م ، فقد كان الخليفة هو الذي يعين حكام سستان(٢) . ومنذ أن آل الامر الى الخليفة المهدي ، عاد امر تعيين حكام سستان الى والي خراسان الذي كان يعتبر المسؤول عن هذه المقاطعة . وكان مركز الحكومة ، حتى قيام الحرب الاهلية ، في مدينة مرو ، وذلك فيما عدا فترة السنوات العشر حين كان المهدي يحكم من الري ، وذلك بين ١٤١ ـ ١٥١ هـ/ ٧٥٨ ـ ٧٦٨ م . ويبدو أن المهدي كان يتولى المسؤولية كاملة في مقاطعات المشرق ، وكان يولي خراسان من يدير شؤونها نيابة عنه .

ومنذ مقتل ابي مسلم ، وحتى آل امر الخلافة الى هارون الرشيد ، كانت العادة أن يولى خراسان ولاة من الاسر العربية الخراسانية التي كانت معروفة بولائها

للعباسيين منذ قيام دعوتهم وثورتهم ، وبالتالي كانت تربطهم بالبيت العباسي روابط وشيجة . ويمكن هنا ان نطرح قضية أحد ولاة خراسان المشهورين ، الا وهو عبد الجبار بن عبد الرحمن الازدي ، فقد كانت علاقة عبد الجبار بالعباسيين قديمة وتعود الى الفترة التي سبقت ثورتهم . وحين آل الامر اليهم سماه الخليفة العباسي الاول ابو العباس السفاح صاحبا لشرطته ، واستمر كذلك زمن خليفته المنصور . وبسبب هذا الماضي الذي لا تشوبه اية شائبة شعر المنصور أنه خير من يولى على خراسان عام ١٠٤ هـ . ولم تمض سنة على تعيينه حتى اعلن العصيان على الخليفة . ولا نعرف بدقة السبب الذي دعاه لاتخاذ هذا الموقف ، والـذي يبدو انه قرر ان يكون على رأس الجماعة التي كانت تريد زعزعة السلطان العباسي في خراسان، واتخذ من قضية قديمة، كانت تثار منذ أيام بني أميـة ، ذريعة لهذه الثـورة . وتتلخص هـذه القضيـة بأن بعض الزعامات المحلية كانت ترى أن الضرائب التي تجبى من خراسان يجب أن تصرف في خراسان لا أن ترسل الى العاصمة . فتذرع عبـد الجبار بهذا الامـر ، واضاف عليه ذريعة أخرى حين طلب منه الخليفة المنصور ان يرسل بعضا من أفراد جيشه لينضموا للجيش العباسي في معاركه مع الامبراطورية البيزنطيـة ، فرفض طلب الخليفة مدعيا بأن الترك المقيمين قرب الحدود الشرقية لولايته يقومون بتحركات مريبة ، وأنه لذلك لا يستطيع أن يلبي طلب الخليفة . وأراد الخليفةان يتحقق من صدق دعواه ، فعرض عليه أن يرسل له جيشا يساعده ضد الترك ، ولكن عبد الجبار رفض عرض الخليفة بحجة أن الموسم في خراسان سيىء وانه لا يستطيع أن يتكفل باطعام الجيش القادم من العاصمة ، وطبيعي أن كل هذا لم يكـن يرقى الى حد اعـلان العصيان ، ولكنه أثار في ذهن الخليفة مخاوف وشكوك جعلته يمعن التفكير في أمـر هذه الولاية . فخراسان بالنسبة للمنصور ، لم تكن سوى ولاية من ولايات الدولة لا تختلف عن سواها : ضرائبها تعود الى بيت مال العاصمة ، وجيشها يشكل جزءا من جيش الخلافة يتحرك بأمر الخليفة وينفذ كل ما يطلب منه من مهام . أمـا عبـد الجبار ، فكان يرى في خراسان ، على ما يبدو ، مقاطعـة متميزة لابد وان تعامـل معاملة خاصة ، وأن يكون لها ما يشبه الاستقلال(٤) .

ودون ان ندخل في تفاصيل ثورة الازدي ، يمكننا القول ان المنصور سحق هذا العصيان بعد أن كلفه ذلك دماء كثيرة ، الامر الذي حدا به لان يفكر في أسلوب جديد في ادارة شؤون خراسان . لذا أرسل ابنه المهدي الى الري وسلمه مسؤوليـة ادارة الجزء الشرقي من دولته (٥) . وقام المهدي من جانبه بتعيين ممثلين له في مرو من بين القادة العسكريين العرب الخراسانيين . وقد كان لهذا الاجراء محاسن عديدة أهمها ان سلطة الدولة لم تعد ممثلة بالخليفة القابع بعيدا في بغداد ، بل بابنه المقيم في الري . كما أن خراسان حصلت على ما يمكن تسميته بـ « الوضع الخاص » ، دون أن يهدد

هذا الوضع وحدة الدولة ككل . وقد سارت الامور في خراسان بعد تعيين المهدي على ما يرام ، اذ أن وجوده في خراسان اكسبه خبرة في الحكم من جهة ، وجعله على صلة وثيقة بعامة الناس هناك من جهة اخرى . على أن هذا التدبير لم يتح لـه أن يعيش طويلا ، اذ أنه بعد عودة المهدي الى بغداد ليتسلم الخلافة بعد وفاة أبيـه ، سـمي حُمَيْد بن قَحْطَبة ، واليا على خراســان . وكان حميد هذا ، سليل احدى اعرق الاسر العربية ، وعادت خراسان ولاية كبقية الولايات تتبع الخليفة المقيم بعيـدا في بغداد ، ويحكمها الجند العرب الخراسانيون . لكن لا حميد بن قحطبة ، ولا من تلاه من الـولاة ، راودتهم أحـلام الانفصال ، ولـم نعد نسمع عـن ثورات يقـوم بهـا حكام المقاطعـات .

واستمر حال خراسان على هذا المنوال حتى العام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ، حين قرر الخليفة هارون الرشيد تعيين الفضل بن يحي البرمكي واليا عليها . فآل برمك ينتمون الى طبقة مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي كان ينتمي اليها أسلافهـم في الولاية : فهم ايرانيون من جهة ، ومن فئة الدهاقين مـن جهة أخرى . وقـد قرر الفضل بن يحي خلال فترة ولايتـه القصيرة ان يتعـاون تعاونا وثيقـا مع جماعـة الدهاقين . ويتضح ذلك من الحملات العسكرية التي وجهها ضد بعض المقاطعـات . فقد هاجم كابول وانضم اليه في هذا الهجوم أمراء ودهاقنة طخارستان ، ومن بينهم حاكم بَمْيان الذي اعاده الفضل الى عرشه . كما قام بحملة أخرى ضـد أشروسَنة وتوصل الى اتفاق مع ملكها الذي كان يرفض من قبل مقابلة اي والٍ مسلم . ورأى الفضل ان يقوم في ولايته بأعمال تذكر له فيما بعد ، فقام باشادة عدد من الابنيـة وبنى عددا من القلاع والحصون على الحدود ، وقدم المساعدات لمسـجد بخارى . وبالاضافة الى ذلك جنّد ما يقارب الخمسين ألف جندي من رجال خراسان ، سمّاهم بـ « العباسية » ، أرسل منهم عشرين الفا الى بغداد ، وأبقى ثلاثين الفا فيخراسان(٦). واغلب الظن ان غالبية هؤلاء الجنود كانوا من بين فئـة الدهاقين واتباعهم . ويذهب البعض الى القول بأن البرامكة ارادوا أن يجعلوا من الجند الذين ارسلوهم الى بغداد جيشا خاصا بهم يحميهم ويأتمر بأمرهم ، ولا سيما وانهم كانوا في هذه الفترة في أوج قوتهم ولابد لهم من جند يكون ولاؤهم خالصا لهم . كما انهم ارادوا أن يجعلوا منهم السد الذي يقف في وجه الفئة الاخرى من الجند ، وهي الفئة التي كانت تعرف باسم « الخراسانية » الذين كانوا معروفين بعدائهم لآل برمك واشياعهم . ويبدو أن من تبقى في خراسان من الجند الذين جندهم الفضل بن يحي قد سرحوا زمن ولايـة علي بن عيسى علىهذا الاقليم ،كما أن بعضهم انضم الى جيش رافع بن الليثوالمأمون.

وقد أعقب ترك الفضل لولاية خراسان ومغادرته اياها في العام ١٧٩هـ /٧٩٥م،

فترة من القلق والفوضى استمرت عاما . وخلفه في الولاية بعد ذلك علي بن عيسى ابن ماهان ، الذي كان من خصوم البرامكة والذي كان يعيش بعيدا عن أجواء السلطة منذ وفاة الخليفة الهادي . ويعتبر تعيين علي بن عيسى واليا على خراسان انقلابا كاملا في السياسة الداخلية للدولة في هذه الفترة . وعلى الرغم من اننا لا نعرف تفاصيل الوضع الذي أدى الى هذا الانقلاب فيالسياسة الداخلية للدولة ، الا انه من الجائز أن يكون للضغط الذي مارسه الجند الخراسانية دور كبير في هذا التغيير ، لا سيما وان الخراسانية قد ساءهم ازدياد نفوذ البرامكة في خراسان ، وان الخليفة الرشيد كان يشعر شعورا مماثلا تجاه هذه الاسرة ويعد العدة لنكبتها المشهورة .

ويصعب على المؤرخ ان يقدم تقويما دقيقا لفترة ولاية علي بن عيسى على خراسان . فعلي في العديد من المصادر شخص ذو مطامع أنانية وصفات تجعله أقرب الى الطاغية (٧) ، وهو كذلك أيضا بالنسبة لباحثين محدثين من امثال بارتولد ومتحدة ، اللذين يقبلان هذا الوصف (٨) . على انه لا بد لنا من أن نذكر أن المصادر التي نعتمدها في دراستنا كتبت كلها بعد الحرب الاهلية التي قتل فيها عليّ وشهّر به وبسياسته . ويضاف الى ذلك ايضا أن هذه الصورة التي تعرضها المصادر عن علي تكونت في زمن كانت فيه خراسان تحكم من قبل اسر الدهاقين من امثال الطاهريين والسامانيين وسواهم ، ممن لا نتوقع منهم انصافا لشخص كعلي بن عيسى بن ماهان الذي جاء بعد البرامكة .

وأياً كانت حقيقة علي بن عيسى وصفاته ، فانه حين سمي واليا على خراسان سار على سياسة تتلخص في مهاجمة سلطة الدهاقين ومكانتهم المتميزة . ويحدثنا الطبري عما قام به من أعمال للنيل من مكانة وجهاء خراسان واشرافها ، كما أن انجهشياري يذكر انه قتل العديد من وجوه هذه الولاية وملوكها . ويقيم الجهشياري مقارنة بين سياسة الفضل بن يحي التي كانت تقوم على الاعتماد على الزعماء المحليين، وسياسة علي بن عيسى الذي سار بالاتجاه المعاكس ، وصب جام غضبه على هذه الفئة المتنفذة وحاول حرمانها مما كان لها من امتيازات وجباية ما كان يتوجب عليها من ضرائب ، الامر الذي ادى الى ازدياد واردات خزانة الدولة عما كانت عليه في السابق . ويقدم لنا الطبري مثالين عن شخصيتين من شخصيات خراسان هددهما علي بن عيسى بالموت لتآمرهما عليه : احدهما هو الحسين بن مصعب حاكم بُشَنْج Bushang الذي هرب من تهديد علي والتجأ الى الخليفة الرشيد ، الذي كان في مكة ، فمنحه الخليفة حمايته . أما الثاني فهو هشام بن فَرَخُسْرو Farkhusrow الذي كان من كبار ملاك الارض في مرو ، والذي لم يتخلص من سيف علي بن عيسى الا بتظاهره بالاصابة بالشلل(٩) (By feigning poralysis) ولهذين المثالين اللذين

يقدمهما لنا الطبري اهمية فائقة ولا سيما فيما سيلي من أحداث في هذه الولاية اذ أن طاهر بن الحسين بن مصعب ، وعلي بن هشام بن فرخسرو كانا من أوائل الذين انضموا للمأمون وساندوه في صراعه مع أخيه الامين ابان ما يعرف بالحرب الاهلية .

وقد استطاع علي بن عيسى ، بما كان له من تأييد ودعم في الجيش المتواجد في خراسان ، أن يتغلب على الضغوط التي كان يتعرض لها من بغداد والتي كانت تهدف الى اقالته من منصبه . كما انه استطاع بهذا الدعم أن يواجه المعارضة التي قامت ضده في خراسان . وقد حاول البرامكة ، ما وسعتهم المحاولة ، ان يقنعوا الرشيد باقصائه عن منصبه ففشلوا (١٠) . وقد لجأ علي الى اغداق الهدايا على الخليفة ، والتقى به مرتين (في العام ١٨٣ هـ والعام ١٨٩ هـ) ليبرر له مواقفه ويؤكد ولاءه (١١) . ولم تفلح كل الضغوط التي مورست على الخليفة في بغداد لعزله ، وانما جاء عزله نتيجة للاضطرابات التي قامت في خراسان نفسها ، اذ أن الرشيد على ما يبدو كان مستعدا للتغاضي عن كل ما يقال عن ممارسات علي في خراسان ومعاملته لوجهائها لايمانه بولائه له . ولكن حين قامت في العام ١٩٠ هـ / ٨٠٥م الثورة العارمة في سمرقند ، والتي قادها رافع بن الليث ، حفيد نصر بن سيَّار آخر ولاة بني أمية على خراسان ، اضطر الرشيد لان يرضخ للامر الواقع ويبعد علياً عن هذه الولاية . وقد يبدو غريبا أن الثورة العباسية لم تضع حدا لنفوذ أسرة نصر بن سيَّار ومكانتها، اذ ان الليث بن نصر بن سيَّار وقف الى جانب السلطة العباسية لقمع ثورة المقنّع الخراساني خلال حكم المهدي ، وكان لابنه رافع قصر منيف في سمرقند (١٢) .

وطبيعي أن شخصية من نوع رافع ، بنفوذها وثروتها ، ستكون موضع سخط وشكوك علي بن عيسى ، ولهذا وفي العام ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م حاول سجنه بتهمة الزنا . ولكن رافعاً تحدى الوالي . وسانده في عصيانه أهل سمرقند وأعلنوا ولائهم له(١٣) . وماكاد رافع يعلن ثورته حتى استقطبت هذه الثورة ولاء جميع المناوئين للسلطة العباسية، واخذت جماعات المناوئين لعلي بن عيسى في جميع مناطق ما وراء النهر تتقاطر على رافع وتنضم اليه . وكان بين الذين انضموا اليه بعض الدهاقين كحاكم الشاش وعُجَيْف بن عَنْبَسَة وسواهم ممن لعب دورا بارزا في ثورة رافع(١٤) . وقد أدى هذا التأييد العارم الذي لقيته الثورة الى نجاحها ، ولم تفلح محاولات علي بن عيسى في قمعها . وقتل الثوار ابناً لعلي ، مما جعل الرشيد يشعر ان لا مكان للسلام والهدوء في خراسان ما دام علي فيها، ولكن لا بد من ايجاد الوسيلة لابعاده عنها دونما سفك دماء . لهذا لجأ الرشيد الى أخلص معاونيه وقادته ، هرثمة بن أعين ، فأرسله الى خراسان بحجة مساعدة علي على قمع ثورة رافع . قام هرثمة بعد وصوله الى خراسان باتصالات مع زعماء المعارضة ، من امثال طاهر بن الحسين وسواه . بقصد

طمأنتهم واقناعهم بالتوقف عن تأييد رافع . وحين شعر بالاطمئنان الى موقف زعماء المعارضة الداخلية ، التفت الى علي وواجهه بكتاب من الخليفة بعزله وتوليته عوضا عنه . ثم ما لبث أن قبض عليه وأرسله الى بغداد (١٥) .

ولم يؤد عزل علي الى اخماد ثورة خراسان على الفور ، وكان لا بد لهرثمة من ان يقنع العديد من اتباع رافع بالتخلي عنه . كما ساعد على ذلك ايضا انضمام عُجَيْف بن عَنْبَسة وأهل الشاش وفرغانة الى جانب السلطة العباسية . واستطاع هرثمة أن ينقل الحرب الى سمرقند ، وهكذا لم يعد رافع الخطر الداهم الذي يهدد خراسان بكاملها (١٦) . على أن هذا كله لم ينه حالة الاضطراب التي كانت تعيشها هذه المقاطعة . اذ أن رافعاً لم يقض عليه قضاء نهائيا ، كما ظل مستقبل خراسان السياسي غير واضح أو محدد ، ولا سيما على المدى الطويل . وكان أهم ما يشغل البال هو : هل لا بد لحكم خراسان من قائد عسكري كعلي بن عيسى ، أم أنه من الافضل أن تحكم برجال من نوعية البرامكة ، أو هرثمة بن أعين نفسه الذي كانت له صلات وثيقة مع الارستقراطية المحلية المتمثلة بالدهاقين ؟! ومن أجل هذه المعضلة، فقد قرر هارون الرشيد عمل ما لم يعمله أسلافه ،من الخلفاء الامويين او العباسيين، الا وهو زيارة هذه الولاية بنفسه وتقييم الامور على الطبيعة . ولكن المنية عاجلته وهو في الطريق اليها ، وأدت وفاته بطبيعة الحال الى ترك الامور دونما حل .

اما المشكلة الكبرى الثانية التي واجهت السلطة العباسية في خراسان فكانت الثورات والتحركات التي كانت تقوم بين بعض الجماعات غير العربية التي تقطن هذه الولاية . وكان بعض هذه الثروات يأخذ طابعا دينيا ، كأن يدّعي زعيمها النبوة مثلا . على أنه لا بد لنا من ان نذكر ان العديد من أفراد هذه الجماعات كانوا يعتقدون أن لحكامهم صفات قدسية ، كما توضح لنا أحداث ومجريات محاكمة الافشين التي جرت زمن الخليفة المعتصم . فقد كان الافشين مسلما ، ولا يوجد في مصادرنا ما يجعلنا نشك بأنه كانت له تطلعات لزعامة دينية . وعلى الرغم من ذلك ، فان جماعته من أهل أشروسنة كانوا ينظرون اليه نظرة تقديس وصلت الى حد تأليهه(١٧) . ولا بد من التنبيه هنا الى انه الى جانب الاطر الدينية التي كانت تنتظم بعض هذه الثورات ، فانه لا بد لنا من اعتبارها مظهرا من مظاهر الاحتجاج على ما حاوله الحكم العربي من ادخال تغييرات على طرق الحياة التقليدية ، وما اعتبروه اعتداء على حقهم في تسيير امورهم على النحو الذي اعتادوه . كما لا بد من التوضيح أن غالبية هذه الحركات لم تكن حركات انفصالية تود الاستقلال عن السلطان العباسي ، بل كانت في غالبيتها ردة فعل محلية على محاولات مد السلطان السياسي والاجتماعي والديني للدولة الى مناطق لم يكن قد وصلها هذا السلطان في السابق .

أولى هذه الثورات كانت ثورة أستاذسيس سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧م . فقد كان أستاذسيس هذا حاكما مستقلا في ولاية باذغيس الجبلية البعيدة ، منذ عام ١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م ، أو ربما قبل ذلك بكثير . وتذكر بعض المصادر انه ادعى النبوة ، كما تذكر أخرى انه كان من اتباع المصلح الزردشتي بِها فَريد Bihafarid . ويصف الطبري الجيش الذي أرسل لقمع ثورة هذا المتمرد بأنه جيش « مسلم » مما يوحي بأن أستاذسيس لم يكن كذلك في نظر الطبري . اما المؤرخ المسيحي اغابيوس ، فيدّعي ان هذه الثورة كانت احتجاجا على محاولات السلطة العربية السيطرة على مناجم الفضة الموجودة في المنطقة ، والتي كانت تدر خيرات كثيرة عليها (١٨) .

وقد وقع الصدام بين جماعة استاذسيس والعرب القاطنين في مَرْوَرُوذ التي كانت اقرب منطقة يسكنها عرب، وانتهت هذه الصدامات بانتصار جماعة الثوار . وقد اضطر الخليفة المنصور اثر ذلك أن يرسل تعزيزات من سورية وخراسان بقيادة خازم بن خزيمة ، فتحولت هزيمة العرب الى نصر ، واستطاعت السلطة الحاكمة أن تفرض سيادتها على المنطقة .

ومن هذا القبيل ايضا موقعة كبيرة جرت على الطريق بين نيسابور وهرات ، اجبرت فيها القوات العباسية المتمردين على الهرب عائدين الى مناطقهم الجبلية التي انحدروا منها . ويمكن القول أن الدولة في معالجتها لهذا النوع من الاضطرابات كانت تلجأ الى الحكمة والمصالحة ، الى جانب لجوئها للقوة والقمع . فمثلا بعد أن هزمت الجيوش العباسية أستاذسيس واستسلم اتباعه لها ، عفت عنهم وسمحت لثلاثين الف رجل منهم بالعودة الى بلادهم ومنحتهم بعض الهدايا والأعطيات . ويذكر اليعقوبي أن أستاذسيس أرسل الى بغداد حيث أوقعت به عقوبة القتل ، ولكنا لا نجد في المصادر الأخرى ما يؤكد هذا الزعم . حتى أن بعض الروايات تذكر أن استاذسيس هو والد مراجل التي تزوجها الرشيد وانجبت له ابنه الخليفة المأمون (١٩) . واذا صح هذا الخبر فيمكن تأويله على انه محاولة من الرشيد لائتلاف أهل باذغيس . كما انه يفسر لنا السر في العلاقة الطيبة التي كانت تربط المأمون بالطبقة الأرستقراطية في خراسان .

وفي العام ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م قامت ثورة يوسف البرْم التي لانعرف عنها الكثير، والتي يبدو ان مركزها كان بخارى . ويعتبرها المؤرخ اليعقوبي حركة احياء ديني . والبرم من أصل غير عربي ، وقد لاقت حركته تأييد الصغد وفرغانة ، ولكن الثورة لم يكتب لها أن تعيش طويلا ، فقد استطاع القائد يزيد بن مزيد أن يهزم البرم وأن يقوده الى بغداد حيث لقي حتفه . وعلى الرغم من أن المصادر لا تزودنا بتفاصيل

وافية عن هذه الثورة ، الا أننا نستطيع القول انها لم ترفع شعارات معادية للاسلام ، كما كانت الحال بالنسبة للعديد من الثورات التي قامت في هذه الولاية ، في هذه المرحلة من تاريخها(٢٠) .

ومن هذه الزمرة من الاضطرابات يمكن ان نذكر ثورة ثانية قامت في منطقة تختلف كليا عن المنطقة التي نشبت فيها ثورة البرم ، الا وهي الثورة التي قامت في جبال كش الواقعة جنوب بخارى . فقد كانت كش في الدور العباسي الأول مملكة مستقلة ، وكان زعيم الثورة التي اشتعلت على ارضها شخصا غريبا عنها تسميه بعض المصادر (هاشم) ، وتسميه أخرى (حكيم) ، وكان يلقب بـ « المقنع » لانه كان يستر وجهه بقناع ، ولا يرفع هذا القناع حتى امام أتباعه . ويقال ان والد المقنع جاء من بلخ ، وأن المقنع كان يعمل في خدمة أبي مسلم الخراساني ، كما كان على صلة وثيقة بعبد الجبار الأزدي . وحين فشلت ثورته اقتيد الى بغداد ، حيث بقي لبعض الوقت ، وأطلق سراحه بعدها . ولكنه لم يكتف بما قام به ، اذ مالبث بعد اطلاق سراحه أن عاد الى مرو وادعى النبوة . ويبدو ان أهل مرو لم يتأثروا كثيرا بأفكاره التي كانت خليطا من آراء بعض الشيعة الغلاة ومن الافكار المعادية للاسلام ، الأمر الذي لا يجد قبولا كبيرا في بلد كمرو التي كانت من أهم مراكز استيطان العرب في خراسان . لهذا لجأ المقنع الى ارسال دعاته الى بعض المناطق الايرانية كالصغد وكش وبعض قرى بخارى ، حيث لقيت دعوته تجاوبا أكبر ، ولهذا ايضا ترك المقنع نفسه مرو وأقام في قلعة بناها في جبال كش ، في موقع لا يسكنه عرب ولا يعرف انهم ترددوا اليه كثيرا من قبل (٢١) .

وقعت أولى احداث ثورة المقنع في مرحلتها الثانية هذه في بخارى ، اذ ان ابن امير بخارى (٢٢) كان من الذين اجتذبتهم دعوة المقنع وأفكاره ، واعتبر أن هذه الحركة قد تكون السبيل الذي يوفر له التخلص من الحكم العربي . ففي عام ١٥٩ هـ / ٧٧٥ م قامت جماعة من أتباع المقنع بذبح المسلمين في احدى قرى واحة بخارى . ولكن الحاكم حسين بن معاذ منع الثوار من الاستيلاء على المدينة ، وصمد في وجههم لمدة أربعة أشهر وصلت بعدها امدادات وتعزيزات من سمرقند . وهكذا نجت بخارى من شرور جماعة المقنع ، ولكن سمرقند نفسها مالبثت ان وقعت فريسة الخطر ، اذ ان المقنع وحليفه خاقان اتراك خَرلوق قاموا بالهجوم عليها ، ووقعت سمرقند فريسة سهلة بيد المقنع . وكان هذا الحادث من أشد ما تعرض له عرب خراسان سوءا ، وكادت معنويات بعض الزعماء العرب المحليين ان تنهار ، لولا أن تغييرا في القيادة أجري في العام ١٦١ هـ / ٧٧٨ ، وعيّن معاذ بن مسلم حاكما على خراسان . قام معاذ باتخاذ اجراءات صارمة ، واستطاع أن يطهر الطرق من العصابات

وقطاع الطرق الاتراك الذين كانوا ينتشرون فيها . كما استطاع بمساعدة سعيد الحرشي ، نائب حاكم هرات ، ان يشن هجوما على قلعة كش نفسها . وكان الفضل لسعيد هذا في اجبار المقنع على الانتحار في معقله الحصين في الجبال وذلك في العام ١٦٣ هـ / ٧٨٠ م .

وهكذا انتهت هذه الثورة التي اقلقت الدولة لفترة من الزمن . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع الجزم فيما اذا كانت كش قد عادت للسيادة العربية أم لا ، فانه يمكن القول ان الحال في المنطقة عموما عادت الى سابق عهدها ، وتوطد السلطان العربي في المدن والسهول المأهولة بالسكان . أما ابن امير بخارى ، فقد قتل في مقره بعد ثلاث سنوات من اخماد الثورة ، بتدبير من الادارة العربية . ويبدو ان ذكرى المقنع ظلت حية لبعض الوقت بعد موته ، واعتبره بعض الغلاة من أتباعه نبيا حقيقيا .

وتعتبر ثورة المقنع من أخطر الثورات التي قامت في خراسان ضد الحكم العباسي في هذا الدور الأول ، وتلتها بعض التحركات والانتفاضات التي كانت تعبر عن البرم بالحكم العربي . وقد ازدادت حدة هذه التحركات بعد العام ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م حين عين علي بن عيسى حاكما على خراسان . ففي نسا (Nasa) ، وهي موقع في الشمال الغربي من خراسان ، قامت ثورة ابو الخصيب التي استمرت بين مد وجزر لمدة أربع سنوات ، وانتهت بمقتل ابي الخصيب في العام ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م (٢٣) . كما أن سِستان خرجت نهائيا من السيادة العربية ، اذ انه منذ العام ١٨٢ هـ/٧٩٨م كانت هذه المقاطعة تحت سيطرة حمزة بن الأزرق ــ وهو زعيم خارجي من اصل فارسي ــ الذياستطاع ان يمد سيطرته على عاصمة المقاطعة التي كانت تعرف باسم زَرَنج ، وتمكن من منع علي بن عيسى والي خراسان من تعيين حاكم لهذه المقاطعة. وقد قام حمزة بغارات وحشية على المناطق الجنوبية من خراسان حول هرات وباذغيس ، ولم تثمر الجهود المكثفة لردعه عن اية نتيجة (٢٤) .

وعلى الرغم من أن هاتين الثورتين قامتا في الريف ، ولم تصل اي منهما لمد سلطانها على مدن خراسان ، فانهما أعاقتا عملية جمع الضرائب . وأضعفتا من سلطان علي بن عيسى على بعض مناطق ولايته . كما أن هاتين الثورتين تظهران بوضوح الميول الانفصالية التي ما زالت حية في نفوس بعض سكان المناطق النائية من خراسان ، وأن بعض الزعماء المحليين استغلوا كل ذلك لاثارة النقمة ضد السلطان العباسي . وطبيعي أن هذا لا يعني ان ضعفا حقيقيا اصاب سلطان بني العباس في خراسان ، اذ ظلت المناطق الهامة في هذه الولاية تدين بالولاء لهم ولاسيما مناطق : الري ، ونيسابور ، ومرو ، وهرات ، وبلخ . وحتى المناطق التي تعرض السلطان العباسي فيها لهزة مؤقتة اثناء ثورة المقنع ، كبخارى وسمرقند ، فان القضاء على

هذا الثائر جاء ليؤكد من جديد أن الدولة قادرة على كبح جماح الخارجين عليها وبالتالي عادت لتنضوي تحت لواء خلافة بغداد .

وهكذا ، وعلى الرغم من ضعف نفوذ الدولة في بعض المناطق النائية ، فان السلطة العباسية كانت تنظر بارتياح الى مجمل الأوضاع في خراسان .

ولعل أعقد المشاكل التي واجهتها خلافة بغداد هو التحديد الدقيق لحدودها الشمالية الشرقية في خراسان . ففي حالة الحدود مع الامبراطورية البيزنطية مثلا ، كانت هناك منطقة تخضع للنفوذ الاسلامي، واخرى تخضع للنفوذ المسيحي ، وبينهما منطقة فاصلة أشبه بما يعرف اليوم بالمنطقة العازلة . أما في خراسان فقد كانت هناك بعض المناطق النائية ، كبلخ وسمرقند ، وتخضع لسلطان الدولة بشكل كامل ، في حين أن مناطق اخرى ، كباذغيس وكش ، قريبة من مركز الخلافة ، وليس للدولة سلطان عليها . وبالاضافة الى ذلك كانت هناك قبائل تركية ، ما تزال على البداوة ، تقيم في السهوب الواقعة بين مرو وبخارى ، وليس لبغداد اي سلطان (٢٥) عليها ، وكانت في كثير من الاحيان تقوم بقطع الطريق بين هاتين المدينتين الهامتين . كما انه ليس من السهل تحديد المقاطعات التي كانت تخضع للخلافة ، أو التي لا تخضع لها. فكابول مثلا ، هي بالنسبة للجغرافي الشهير ابن خرداذبة من مقاطعات خراسان ، في حين كانت كابول ، في واقع الحال ، تحكم من قبل أمراء وملوك محليين ، وكل صلتها بالخلافة أنها كانت تدفع الجزية لبيت المال في بغداد في بعض الاحيان .

هكذا يمكن القول أن الخليفة العباسي كان بالنسبة لبعض المقاطعات الحاكم الاسمي ، وان الحكم الفعلي كان للامراء المحليين ، مما يجعل سلطان الدولة الحقيقي مقتصرا على مساحات أصغر من المساحات التي وصل اليها الفاتحون المسلمون في في عصر الفتوح وما تلاه باتجاه الشمال الشرقي .

وبين الفينة والفينة كان حكام خراسان يرسلون الحملات الى الشرق ، بقصد تثبيت عهود الولاء ، التي كان يقطعها الامراء المحليون للسلطة العباسية ، كما كانوا يهدفون الى جباية الجزية ممن يتأخر منهم في دفعها . ولم تستطع هذه الحملات ان تضمن للسلطة العباسية السيطرة المطلقة على مناطق الشرق . ففي العام ١٥٢ هـ/ ٧٦٩ م قاد حميد بن قحطبة الذي كان واليا على خراسان حملة على كابول (٢٦) .وفي نهاية خلافة المنصور ، أرسل الخليفة مولاه ليث ، ليخضع فرغانة . وقد استطاع الليث أن يهزم ملك فرغانة ويجبره على دفع مبلغ كبير من المال مقابل ضمان امنه وسلامته (٢٧) . وفي خلافة المهدي ، قام احد قادته ، أحمد بن أسد ، بهجوم آخر

على فرغانة واخضع بعض الاراضي للسلطان العباسي ، بما في ذلك حاضرة المقاطعة . ويقدم لنا المؤرخ اليعقوبي لائحة بأسماء الامراء الذين أعلنوا ولاءهم للخليفة ، ومن بينهم ملوك كابول وطبرستان والصغد وطخارستان وبميان وفرغانة واشروسنة وسستان ، كما يذكر ان الترك وبعض ملوك التبت والسند والصين والهند وسواهم ، كانوا من بين الذين أعلنوا هذا الولاء . وكما ذكرنا آنفا ، فقد قام الفضل بن يحي أثناء ولايته على خراسان بارسال حملة الى كابول . وقد رافق قائد هذه الحملة ملوك ودهاقين طخارستان وملك بميان الذي كان الفضل قد عينه في هذا المنصب قبل ذلك . كما أن الفضل الذي كان يتبع سياسة وفاق ومصالحة مع الحكام المحليين ، أقام علاقات ودية مع ملك أشروسنة(٢٩) .

ويبدو انه حين عزل الفضل من منصبه توقف العمل بهذه السياسة الودية . اذ ان علاقة علي بن عيسى مع الامراء المحليين لم تكن طيبة ، ولكنه لم يقم بحملات ضدهم لان همه الاول كان توطيد الامن في الداخل . ويعود امراء المقاطعات الى الظهور على مسرح الاحداث السياسية في الدولة ، وذلك خلال ثورة رافع بن الليث وفي النزاع بين الامين والمأمون ، الذي وقف فيه هؤلاء الامراء الى جانب المأمون .

وقد وصل التوتر في خراسان اوجه بعد وفاة الخليفة هارون الرشيد . وخلال النزاع بين الامين والمأمون . اذ أن الامين كان معروفا بصلاته الوثيقة بفئة الابناء وبأهل بغداد ، الامر الذي أتاح الفرصة لدهاقين خراسان أن يكون لهم دور في هذا النزاع . فقد استطاع الفضل بن سهل ان يضمهم الى صف المأمون ، وهكذا سارت جيوش خراسان غربا لتسقط الحكم في بغداد وتشارك في قتل الخليفة الامين .

افريقيــة

اتخذ الفتح العربي لشمال افريقية ، كما هو معروف ، شكل الغارة السريعة التي لم تؤد في بادىء الامر الى السيطرة العربية الكاملة على الارض الافريقية المفتوحة . وقد حقق هذا الفتح فيما حقق انهاء الحكم البيزنطي المتمركز في قرطاج ، والذي كانت له السيادة على السهول الساحلية لمدة قرن ونصف ، وذلك منذ أن قام الامبراطور البيزنطي جستنيان بحملته على شمال افريقية ليعيدها للسيادة البيزنطية ، كجزء من مخططه المعروف ، والذي كان يهدف الى استعادة الاراضي التي كانت تخضع للامبراطورية الرومانية وانفصلت عنها بعد أن آل الحكم الى الامبراطورية البيزنطية . وكانت هذه السهول الساحلية تشكل نواة الجزء الذي وقع تحت حكم العرب المسلمين في شمال افريقية ، كما كانت في السابق الجزء الذي سيطرت عليه

الامبراطورية البيزنطية . أما المناطق الجبلية والصحراوية التي تحد بهذه السهول ، فقد ظلت غالبيتها في وضع يمكن تسميته بالحكم الذاتي ، الزعامة فيه للقبائل البربرية المحلية . وكانت هذه القبائل ذات نزعة استقلالية شديدة ، الامر الذي جعلها تتصدى بشراسة لكل محاولة لاخضاعها ، او اجبارها على دفع الضرائب ، كما فعل اقباط مصر مثلا ، أو سكان العراق المحليين ، بعد أن آلت السيادة الى الفاتحين العرب . وقد تبدت مظاهر المقاومة البربرية بالثورات والحروب المحلية ، وبالمعارك الضارية التي قام بها البربر ، وشاركت فيها بعض العناصر الاخرى من بقايا الجماعات النصرانية أو اليهودية التي كانت تقيم في افريقية قبل الفتح العربي . وقد آل أمر هذه الثورات الى الفشل ، ولعل اشدها ثورة الكاهنة التي استطاع العرب القضاء عليها في العام ٧٨ هـ / ٦٩٧ م .

بعد القضاء على هذه الثورات الطاحنة استطاع العرب مد سلطانهم على هذا الجزء من البر الافريقي ، ونشروا دينهم ، كما جبوا الضرائب واخذوا الاسلاب والاماء ، حتى أن بعض هاته الاماء غدون أمهات لشخصيات بارزة ، من بينهم الخليفة المنصور ، وعبد الرحمن بن معاوية (عبد الرحمن الداخل) اول أمير أموي حكم الاندلس . ولعل أهم صفات هذه الفترة المبكرة من تاريخ الحكم العربي في شمال افريقية هي ضعف هجرة القبائل العربية الى افريقية بقصد الاستقرار فيها ، اذ كانت الحملات العربية الاولى لا تضم أعدادا كبيرة من الجند ، وكانت غالبيتهم تفضل العودة الى المشرق ، أو الاستقرار في بعض المناطق الاسبانية الغنية (٢٠) . أما من استقر منهم في افريقية فقد آثر أن يسكن في المدن الجديدة التي اقامها الفاتحون كالقيروان وتونس وبعض الحصون العسكرية المتقدمة . وفي نهاية حكم الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك بدأت الامور تأخذ منحى جديدا ، اذ أن موجة جديدة من المقاومة البربرية أخذت بالظهور ، وكان يقود حركة المقاومة هذه بعض من رجالات الخوارج الذين تسربوا من المشرق . وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر بأن الحركة الخارجية التي قامت في المشرق بعد معركة صفين ، ما لبثت ان انقسمت الى فرق متعددة اشهرها الازارقة والصفرية والاباضية . وقد لاقت هذه الحركة مقاومة عنيفة من السلطة الاموية ، واستطاعت خلافة دمشق أن تكيل للخوارج ضربات موجعة ادت الى كسر شوكة الازارقة والصفرية بشكل خاص ، وانتهى الامر بالفرقة الاباضية التي كانت أكثر اعتدالا ، الى قبول نوع من التعايش مع البيت الاموي الحاكم ، وتجمعت غالبيتهم في مدينة البصرة حيث امتهن العديد منهم التجارة ، وغدت لهم اتصالات تجارية مع العديد من بلدان العالم المسلم آنذاك .

وبعد موت الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ/٧٠٥م ، تغيرت سياسة الامويين

تجاه الخوارج واشتدوا في طلبهم ،الامر الذي اضطر هؤلاء لان يفتشوا عن مراكز جديدة لنشاط دعوتهم بعيدا عن أعين السلطة في الشام والعراق . ولذا توجه دعاتهم الى عمان في المشرق ، والى بربر شمال افريقية ، حيث وجدوا تجاوبا كبيرا وترحيبا حارا . ويبدو انه كان بين اباضية البصرة وبربر شمال افريقية علاقات تجارية سهلت مهمة الدعاة وساعدتهم على نشر افكارهم . ولا بد من التنويه هنا ان الحركة الخارجية في نهاية فترة الحكم الاموي ، كانت تعني أشياء قد تختلف باختلاف المكان . ولكنها تتفق اينما وجدت على رفضها دفع الضرائب للدولة . وهذا ما كان عليه رأي البربر أيضا . كما أن الخوارج كانوا يبشرون بالمساواة بين جميع المؤمنين ويقولون ان الامامة حق لكل مؤمن تتوافر فيه شروطها دون النظر الى عرقه أو جنسه أو نسبه ، او ما شابه . وفي هذه الآراء ، كما هو متوقع ، ما يروق للبربر الذين ظنوا انهم غدوا . بعد الفتح العربي، مواطنين من الدرجة الثانية في دولة عربية .

ومنذ العام ١١٧ هـ / ٧٣٥م ، اخذ الدعاة الخوارج يظهرون في افريقية . وكانوا أول الامر من اتباع الفرقة الصفرية . ثم تلاهم أتباع الفرقة الاباضية . وقد لاقت دعوتهم رواجا كبيرا بين البربر ولا سيما من كان منهم يقيم في المنطقة الواقعة جنوبي طرابلس وغربي تونس ، مما أدى في العام ١٢٢هـ / ٧٤٠م الى قيام ثوة كبيرة ضد الحكم الاموي ، وذلك بتحريض من الدعاة الخوارج الصفرية(٢٩) . أما الثورة العباسية فلم يكن لها أي أثر في الاحداث في شمال افريقية ، اذ انه في العام ١٢٧ هـ/ ٧٤٥م وقعت هذه المنطقة تحت سيطرة عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، على الرغم من أنه لم يكن مخولا من قبل السلطة الاموية بالولاية أو الحكم . وجاءت الاحداث التي كانت تعصف بمشرق الدولة والصراع على السلطة بين بني امية وبني العباس . لتساعد على تثبيت سلطة عبد الرحمن هذا . وبعد ان حسم الصراع لصالح بني العباس ، وكانت خلافة المنصور ، كتب الخليفة الى عبد الرحمن يطلب منه الدخول في الطاعة . وكان رد عبد الرحمن على طلب الخليفة أن أرسل اليه بعض الهدايا وعهدا بالولاء ، ولكنه افهمه انه يود الاحتفاظ باستقلاله(٣٢) . وطبيعي ان يكون رد فعل المنصور على هذا الموقف ردا غاضبا . وتشاء الظروف أن ينشب صراع بين عبد الرحمن وبعض افراد اسرته ،وأن ينتهي هذا الصراع بمقتل عبد الرحمن ١٣٧هـ/٧٥٥م. فخلفه في الامارة ابنه حبيب بن عبد الرحمن (٣٣) .

وقد استغل البربر هذا الصراع . لا سيما وان عبد الرحمن كان شديد البطش بهم ، فقاموا بثورة عارمة ضد الحكم . وكان الخوارج على راس هذه الثورة . فقد قاد ورفجومة الصفري جماعة من رجاله ، واستولى على نفزة (Nafza) التي تقع جنوب شرقي القيروان ، واستطاع ان يقتل العديد من الرجالات العرب . على انه

لم يتح لثورة ورفجومة الصفري أن تعيش طويلا ، وذلك بسبب الاوضاع الداخلية المتردية . وقامت بعدها ثورة أججتها بعض القبائل الاباضية في نفوسة وهوارة جنوب طرابلس ، وقادها امامهم ابو الخطاب الاباضي . واستطاع الاباضية في العام ١٤٠ هـ/ ٧٥٨م ان يستولوا على القيروان وبقية الجزء الغربي من المغرب . وثبت ابو الخطاب نفوذه في طرابلس ، وعهد بحكم القيروان الى احد أصدقائه الخلص ، عبد الرحمن ابن رستم ، وهو من أصل فارسي (٢٤) .

ان نجاح هذه الثورة كان يعني أن الفتح العربي لشمال افريقية قد أصيب بطعنة قاسية ، وذلك لان الحكام الجدد كانوا مسلمين بربر (غير عرب) يتبعون المذهب الخارجي ، وبالتالي لا تربطهم اية رابطة بالخلافة . ولذا كان لا بد للعباسيين، الذين كانوا حتى الان يقفون موقف المتفرج من هذا الصراع ، ان يولوا شمال افريقة عناية لم يولوها اياها في الماضي . ولهذا الغرض جهزوا حملة قوامها أربعون الف جندي من الخراسانيين بقيادة القائد المشهور محمد بن الاشعث . وهزم ابو الخطاب ورجاله هزيمة منكرة ، وتربع ابن الاشعث على كرسي الولاية في القيروان ، وهرب ابن رستم وبقايا الجيش الاباضي باتجاه الغرب الى تاهرت ، حيث أقام لنفسه ولاية مستقلة . وقد استقرت القوات الجديدة في القيروان التي دعمت دفاعاتها ؛ وأصبحت تونس نواة الجند الذين سيكون لهم الدور البارز في شؤون المقاطعة . وبالاضافة الى ذلك ، فقد عين الحاكم الجديد أحد اتباعه ، وهو خراساني من أصل عربي واسمه اغلب بن سليم، حاكما على تبنة في الزاب (Zab) ، حيث يستطيع من موقعه هذا ان يراقب تحركات بربر جبال الاوراس (٢٥) (Aurés)

ولم تكن مهمة الحاكم الجديد مهمة سهله ؛ وذلك لان البربر رفضوا الخضوع للسلطة الجديدة ، كما أن الجند الذين شعروا بأهميتهم عملوا على تقوية مركزهم من جهة ، وعلى تأمين أعطياتهم من جهة اخرى . وقد نجح ابن الاشعث في قمع تحركات البربر ، ولكنه فشل في اقامة علاقات طيبة مع الجند ، لاسباب لا نجد تفصيلا لها في المصادر . وفي العام ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م قامت جماعة منهم على راسها عيسى بن موسى الخراساني بثورة عليه وأجبروه على ترك الولاية فآل امرها الى عيسى بن موسى . ولم يطل الامر بعيسى ، حتى ثار عليه اغلب بن سليم وحل محله، وعاد محمد بن الاشعث الى المشرق ، حيث قتل في العام التالي (١٤٩ هـ) اثناء معركة مع الجيش البيزنطي (٢٧) .

وعلى الرغم من ان أغلب خرج من بين صفوف الجند الذين ثاروا على ابن الاشعث وكان ذا شعبية كبيرة بينهم ، الا أن الوقت لم يطل حتى بداوا يتذمرون منه

ويثيرون القلاقل ضده . ولم يمض عامان على تسلمه السلطة حتى اجبر على قيادة حملة ضد احد زعماء الصفرية يدعى ابو قرة ، كان يقيم في تلمسان ويهدد افريقية . وقد استطاع اغلب أن يدحر أبا قرة ورجاله ، وتابعهم من تلمسان حتى طنجة . ويبدو أن جيش اغلب لم يكن شديد الحماس لهذه الحرب ، لا سيما وانهم دحروا ابا قرة ووجدوا أن لا ضرورة لملاحقته وفضلوا العودة الى بيوتهم . وهكذا تفرق جيشه وانفض من حوله ، الامر الذي ادى الى سنوح الفرصة لقائد حامية تونس ، حسن بن حرب الكندي ، لان يسير على راس فئة من رجاله وأن يحتل القيروان . وحين عاد أغلب مع القله المتبقية من جنده الى القيروان ، آملا أن يطرد منها الكندي ، كان نصيبه القتل على يد حاميتها وذلك في شعبان من العام ١٥٠ هـ/ ٧٦٨ م (٢٨) . وهكذا أظهر الجند مرة أخرى أنهم العامل الاهم والذي لا بد من اخذه في الحسبان من أجل استقرار الولاية وحكمها .

وبعد موت أغلب ، أرسل الخليفة المنصور عمر بن حفص كحاكم على افريقية . ويعتبر عمر هذا أول ممثل لآل المهلب الذين سيتاح لهم حكم افريقية والسيطرة على الحياة السياسية فيها خلال ربع القرن الذي تلا . وقد وصل عمر الى مقر ولايته في العام ١٥١ هـ / ٧٦٨ م ومعه حوالي خمسمائة من الجند . ورافق وصوله بدء مرحلة اضطرابات جديدة ، اذ اقام زعماء الخوارج في هذا العام (١٥١ هـ) ، تحالفا فيما بينهم بقصد القضاء على الحكم العباسي في افريقية .

ويقدم لنا ابن عذاري وصفا لتشتيت شمل الثائرين نستطيع أن نستخلص منه بعض المعلومات حول قوة كل من الفئات المتصارعة (٢٩) . فالصفرية الذين كان يقودهم ابو قرة التلمساني كانوا اكبر هذه الفئات . وقد حاول اغلب قبل وفاته ان يهاجمهم ويقضي عليهم ، ولكن حلمه لم يتحقق لان جماعة كبيرة من الخوارج الاباضية انضمت اليهم وساعدتهم على الوقوف في وجهه . وكان على راس الجماعة الاباضية ابن رستم ومعه خمسة عشر الفا من رجاله من تاهرت . كما انضم اليهم ابو حاتم الذي خلف أبا الخطاب في زعامة خوارج طرابلس ، ومعه خلق كثير ، وعاصم السدرتي (AL - Sadrati) ومعه ستة آلاف من رجاله ، ومسور الزناتي ومعه عشرة آلاف ، وسواهم . وبمواجهة هذا الحشد المعارض ، لم يستطع عمر بن حفص ان يجمع أكثر من خمسة عشر الفا من الجند ، فحوصر في تبنة ، ولكنه تمكن من أن يجبر جماعة أبو قرة من الصفرية أن يعودوا الى ديارهم ، وأن يغلب ابن رستم في موقعة مشهورة وأن يعود الى القيروان . ولكن ذلك لم يضع حدا لمتاعبه ، اذ انه ما لبث ، بعد أن عاد الى القيروان ، أن حوصر من قبل قوات ابي حاتم التي كانت تفوق قواته عددا . وفي نهاية العام ١٥٤ هـ / ٧٧١ م قتل اثناء محاولته الهرب من

المدينة ، واستبيحت القيروان من قبل جند أبي حاتم (٤٠) ، وعادت السيادة البربرية على القاطعة .

ووقع الاختيار على رجل جديد ليقود حملة اعادة الاستقرار في المقاطعة ، وكان هذا الرجل ، كسلفه ، من أفراد أسرة المهالبة ، الا وهو يزيد بن حاتم الذي كان من بطانة الخليفة المنصور . ويحدثنا ابن عذاري أن الخليفة كان عليما بأمور افريقية ، وانه أرسل رجلا من أخلص رجاله ليعالج الوضع المتدهور في ذلك الاقليم . وكان يزيد يتمتع بمزايا عظيمة ، وقد سبق له أن ولي اذربيجان ومصر . ولم يكن هذا وحده السبب في توليته افريقية في هذا الجو العاصف . ويبدو أن آل المهلب ، بما كان لهم من صلات وثيقة مع اوساط التجار في البصرة ، ولا سيما من كان منهم على مذهب الاباضية ، كانوا خير من يستطيع تولي الامر في هذه الفترة التي كان الاباضيون فيها قوة كبرى يحسب لها ألف حساب في الميدان الافريقي .

وصل يزيد الى افريقية ومعه جيش لا يقل تعداده عن ستين الفا من الرجال . وهو اكبر قوة ترسل من مشرق الخلافة الى مغربها (٤١). وضم هذا الجيش رجالا من خراسان والعراق وسورية . وكانت ليزيد تجارب سابقة في هذا النوع من التوطين ، وذلك حين شجع البصريين على الاستقرار في أذربيجان ابان ولايته عليها (٤٢) . وكانت أولى مهامه أن يهزم أبا حاتم قرب طرابلس ، وفي ذلك ايذان بانتهاء السيطرة الاباضية ، لا في منطقة طرابلس فحسب ، بل في افريقية عامة . وقد انضم بعض الاباضيين المتحمسين الى جيش ابن رستم في تاهرت ، في حين بقي آخرون منهم في المقاطعات الشرقية ، وفي القيروان نفسها . واستطاع يزيد بحنكته وسياسته ، أن يصلح مابينه وبينهم وان يضمهم الى صفه . واظهر مهارته في الميدان التجاري منذ الأيام الاولى لتوليه الولاية ، اذ قام بتنظيم أسواق القيروان وشجع العمليات التجارية ،الا مر الذي سر به الاباضيون ورحبوا به .

وتعتبر فترة السنوات الخمس عشرة التي حكم فيها ، فترة استقرار وسلام ، تم خلالها الكثير من المنجزات ، كاعادة اعمار مسجد عقبة وتزيينه بأجمل الزينات ، والاهتمام بالمرافق العامة في المدينة ، وسواها من الامور العمرانية . وكانت سياسته في ادارة المقاطعة تتلخص في أنه اعتمد في حكم الأقاليم على رجال من اسرته ليضمن ولاء هذه الاقاليم . لذا كان من الطبيعي أن يعهد الخليفة الى أخيه روح بولاية افريقية بعد موته في العام ١٧١ هـ / ٧٨٨ م .

كان روح أكبر سنا من أخيه يزيد ، ولكنه لم يكن على مثل دهائه وحنكته .

وقد ساعدته سمعة أسرته في أن يمضي سنوات حكمه الثلاث بهدوء وسلام ، والا تشهد الولاية اية اضطرابات ذات بال (٤٣) وعندما مات في العام ١٧٤ هـ / ٧٩١ م حاول ابنه قبيصة أن يتولى الأمر بعده ، ولكن الجند لم يوافقوا ، وطلبوا الى الخليفة هارون الرشيد أن يوكل أمر الولاية الى مهلبي آخر . وهكذا آل الامر الى نصر بن حبيب دونما معارضة كبيرة . وكان نصر هذا صاحب شورى يزيد بن حاتم ، حين كان واليا على مصر ، ثم حين ولي افريقية . وقد جعله هذا المنصب على صلة وثيقة بالجيش ، في حين ان روح وأولاده لم يكونوا معروفين في افريقية . وكان لروح ابن آخر هو الفضل ، الذي كان يلي حكم منطقة الزاب الستراتيجية حين توفي والده، وقد ساءه أن يرى أسرته تبعد عن الحكم وأن الامر يؤول الى سواهم . ولهذا غادر الزاب الى بغداد ، وقابل الخليفة الرشيد واقنعه بعزل نصر وتوليته هو . ووافق الخليفة على ذلك ، ويبدو أن البرامكة لعبوا دورا هاما في ايصاله الى ولاية افريقية ، وانهم قصدوا من وراء ذلك جعل افريقية تخضع لسلطان الدولة وسيادتها المباشرة .

كانت بداية ولاية الفضل بداية حسنة ، ولكنه ما لبث بعد فترة قصيرة أن قامت بينه وبين الجند مشاحنات ومنازعات . وكانت بداية هذه الاضطرابات في تونس حيث ولى الفضل ابن اخيه المغيرة حاكما . ولم يتقبل امراء الجند في تونس هذا التعيين ، وكتب زعيمهم عبد الله بن الجارود رسالة الى الفضل يعلمه فيها بسلوك المغيرة ويطلب اليه عزله . ولم يكن في الرسالة اي تهديد أو تلميح الى عصيان محتمل . ولكن الفضل اعتبر ذلك اهانة له ، وآثر ان يقف الى جانب ابن أخيه . وهكذا بدأ نزاع جديد انتهى بمقتل الفضل بعد أن تخلى عنه جنوده ، وذلك في العام ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م ، بعد حكم لم يدم اكثر من سنة (٤٤) . ويعتبر موت الفضل نهاية حكم المهالبة في افريقية . وواضح أن سقوط امرة هذه الاسرة يعود الى عوامل عدة ، من بينها الصراع بين أفرادها على السلطة ، ولكن أهمها السياسة الخاطئة التي اتبعها الفضل والتي تتمثل بمخاصمة الجند ، علما بأن جلهم كان من الذين احضرهم يزيد بن حاتم معه ، وولاؤهم لآل المهلب غير مشكوك فيه ، برهنوا عليه في أكثر من مناسبة .

ولم تحاول حكومة بغداد أن تعين مهلبيا آخر . ولم تكن صلة الرشيد بالمهالبة متينة كصلة المنصور والمهدي بهم . يضاف الى ذلك أن البرامكة ، الذين كانوا يتولون مقاليد الأمور في بغداد ، كانوا يحرصون على الا يتولى حكم المقاطعات اسرة قوية ، قد تغدو في المستقبل مصدر خطر عليهم . هذا فضلا عن أن نفوذهم بالنسبة للجند لم يكن نفوذا كبيرا . ولذا بداوا بمفاوضات مع ابن الجارود ، الذي كان يعرف أيضا باسم عبدويه ، وأقنعوه بالقدوم الى بغداد ، حيث استقبل استقبالا حسنا ، وعومل معاملة لائقة . وهكذا كان النصر في ولاية إفريقية الى جانب الجند .

وحاول البرامكة أن يقلبوا الامر لصالحهم ، وأن يضمنوا ولاء افريقية لهم ، ولهذا عينوا هرثمة بن اعيَن حاكما على افريقية . وكان هرثمة من أهم الشخصيات العسكرية التي ترتبط برباط وثيق مع البرامكة ، وتحت امرته ثلاثون الف رجل كان الفضل بن يحى البرمكي قد جمعهم من خراسان ، وارسلهم غربا حيث قاموا بتهدئة الامور في فلسطين ، وانتقلوا منها الى مصر باتجاه افريقية فوصلوها في العام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م . ولم يكن وصول هذه الحملة الجديدة الى افريقية موجة هجرة جديدة ، كما حدث زمن يزيد بن حاتم ، اذ أن هرثمة استخدم هؤلاء الجند في تثبيت دعائم السلطة العباسية في الولاية ، وبنى الرباط المشهور في مونستير (Monastir) الذي مازال موجودا حتى يومنا هذا . ولم يكن هرثمة راغبا في البقاء في افريقية وطلب الى الخليفة أن يعيده الى المشرق ، فوافق الخليفة على ذلك ، فعاد الى بغداد حيث أتيح له أن يلعب دورا بارزا في الاحداث التي جرت خلال السنوات العشرين التي تلت .

بعد عودة هرثمة ، عين البرامكة رجلا آخر من اتباعهم ليلي افريقية ، هو محمد ابن مقاتل العكي . وكان العكي شابا ، وليس له اية خبرة ادارية سابقة ، هذا فضلا عن انه لم تكن له اية جذور في افريقية . وكانت حكومة بغداد في هذه الفترة تعاني ضائقة اقتصادية ، وانخفاضا في جباية الضرائب ، الأمر الذي جعل العكي يخفض رواتب الجند . وطبيعي أن هذا التدبير سؤدي الى تذمر هذه الفئة الهامة . وقد زاد في تذمرهم معاملته السيئة لهم واستعلاؤه عليهم . ولم يمض على ولايته سنتان حتى قامت عليه ثورة انتهت بعزله ، وذلك في العام ١٩٣ هـ / ٧٩٩ م . وقد قاد الثورة علي العكي قائد حامية تونس تمام بن تميم التميمي . فغادر تونس الى طرابلس ، ولم يستطيع التميمي أن يسيطر على الأمور في القيروان ، اذ ثار عليه ابراهيم بن الاغلب ، وطرده من القيروان بحجة اعادة الوالي الشرعي محمد العكي الى ولايته . ولكن شعبية العكي لم تكن كبيرة ، ولهذا كاتب ابراهيم الخليفة هارون الرشيد وطلب منه أن يوليه افريقية . وهكذا غدا ابراهيم بن الأغلب (من الأسرة الأغلبية) واليا على افريقية عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م (٤٥).

ويعتبر ابراهيم بن الأغلب اول حاكم مستقل لافريقية ، ولم يعد للدولة العباسية منذ تسلمه الحكم اي سلطان في تعيين ولاة هذا الاقليم ، او عزلهم . وقد استغل ابراهيم دعم الخليفة له ، فادعى الشرعية في مطاردة تمام التميمي والقضاء عليه . وتم له ذلك ، فانتقل بعدها لتمتين صلته بالجند ، والحد من سلطان الخوارج بين الفئات البربرية ، مما أمن له استقرارا داخليا لم تعهده الولاية من قبل .

كان ابراهيم مؤهلا لشغل هذا المنصب ، فقد كان ابوه الاغلب قد انتخب من قبل الجند ليخلف ابن الأشعث ، وبعد وفاته في العام ١٥٠ هـ / ٧٩٠ م غادر ابنه ابراهيم إفريقية الى مصر حيث لم يبق طويلا . وفي العام ١٧٤ هـ / ٧٩٠ م عاد الى الزاب حيث استغل فترة الاضطرابات زمن حكم المهالبة ليثبت مركزه وليرفع من شأنه بين السكان المحليين ، حتى غدا سيد المنطقة بلا منازع . ولما وصل هرثمة بن اعين ليهدىء الأمور وينشر الاستقرار ، سالمه ابراهيم ، واصبحت الزاب منطقة مستقلة يعود امرها الى بغداد مباشرة وليس الى والي إفريقية . وفي هذه الفترة قدم ابراهيم خدمة جليلة للرشيد اذ دبر أمر دس السم لادريس بن عبد الله ، الشخصية الشيعية المعروفة ، المناوئة للرشيد . وبذلك زادت حظوته عند خليفة بغداد . واستغل ابراهيم ثورة الجند ضد محمد العكي ، كما أسلفنا ، فغدا الطريق مفتوحا أمامه للوصول الى منصب الوالي بشكل شرعي . وكان ابن الأغلب سليل أسرة عريقة في سلك الجندية ، كما كان قائد اهم حامية حدودية في افريقية . وقد زكاه القائد هرثمة ، فاعتمده الرشيد في مؤامرته ضد أدريس بن عبد الله . وسار في حبك خيوط مؤامرته شوطا ابعد ، اذ قام بعقد صفقة مالية مع الخليفة تنص ، لا على استغناء ولاية افريقية عن المعونة المالية التي كانت تدفع لها من ولاية مصر فحسب ، ومقدارها مئة ألف درهم سنويا ، بل وعد الخليفة أن يمد خزانة الدولة في بغداد بمبلغ سنوي لايقل عن اربعين الف درهم . وهكذا شعر الخليفة أنه وقع على الشخص المناسب لهذا المنصب الذي كان مصدر قلق له . ولكنه كان ، في الوقت نفسه ، حذرا ، فعينه واليا دون أن يكون له حق توريث المنصب لأولاده من بعده ، او أن تكون له اية حقوق تميزه عن سواه من حكام الأقاليم .

وماكاد الامر يؤول الى ابراهيم حتى شدد قبضته على الولاية ، فأنشأ حرسا خاصا قوامه خمسة آلاف من العبيد السود يدينون له بالولاء الشخصي ، وأقام لنفسه قلعة محصنة سماها « العباسية » قرب القيروان ، حيث نقل اليها جميع الاداوات والمؤسسات التي تساهم معه في حكم البلاد . اما علاقاته بالجند فكانت دقيقة ، ففي العام ١٨٦ هـ / ٨٠٢ وقف الجند الى جانبه حين قامت عليه ثورة في تونس ، ولكن هذه العلاقات مالبثت أن تدهورت في العام ١٩٤ هـ / ٨١٠ م ، اذ أنه زاد في استيراد العبيد لحرسه الخاص ، كما تأخر في دفع مرتباتهم . الأمر الذي حدا بهم الى الثورة عليه في ذلك العام . ووجد ابراهيم نفسه مضطرا للاستعانة بالخليفة الأمين ، الذي قدم له المساعدة اللازمة . واستطاع ابراهيم أن يتغلب على ثورة الجند ولكنه لم يقسو على زعمائهم بل اكتفى بنفيهم من الزاب .

وتوفي ابراهيم في العام ١٩٦ هـ / ٨١٢ م ، وكان بمقدور الخليفة العباسي أن

يتخلص منه ومن أعقابه بتعيين وال جديد ، ولكن الظروف الداخلية في الدولة العباسية في فترة النزاع بين الأمين والمأمون لم تسمح بذلك . وقبل الأمين أن يتولى ابنه عبد الله بن ابراهيم الولاية مقابل وعده بتقديم العون للامين في صراعه مع أخيه . وبعد وفاة عبد الله ، ولي كرسي الامارة في افريقية ابن ثان لابراهيم ، هو زيادة الله، وذلك في العام ٢٠١ هـ / ٨١٧ م ، دونما موافقة من خليفة بغداد . وقد حكم زيادة الله مدة اثنين وعشرين عاما مما ادى الى تثبيت دعائم الحكم الأغلبي ، وحين اراد المأمون ، بعد أن صفا الجو له ، أن يمد بصره الى افريقية ، وجد أن هذه الولاية قد خرجت عن الطوق العباسي .

يتضح مما تقدم من عرض لانماط الحكم في ولايتين من ولايات التخوم من الدور العباسي الأول ، أن مسيرة الحكم في كل من الولايتين كان مختلفا . فقد ادى النصر في الحرب الأهلية وحكم الأسرة الطاهرية الى ضم خراسان وتوثيق ارتباطها بالعالم الاسلامي . وقبل الأمراء المحليون بالتخلي عن عزلتهم ومكانتهم الخاصة التقليدية والاندماج في جسد الدولة اكثر من ذي قبل . أما افريقية ، فقد غدت على النقيض قوة متوسطية مستقلة ، وغدت القيروان المركز الثقافي والفكري للشمال الافريقي المسلم . *وفي كلا الحالتين ، بدأ هذا التطور في البروز ، والولايتان مازالتا في حضن* الدولة العباسية ، وجزءا لا يتجزأ منها . ويظل الأمر المهم ، انه في حالة هاتين الولايتين ، كانت الخلافة العباسية في بغداد لاتتمتع بنفوذ كبير ، كما كانت سلطة الادارة المركزية شبه مفقودة ، والخليفة شخصية رمزية أكثر منه شخصية فاعلة . وكان الخليفة وواليه على كل من هاتين المقاطعتين يتعثران على الدوام بالصدامات التي فرضت عليهم من القوى المحلية ، وما كان الحكم العباسي يستطيع البقاء لولا لجوء الخلفاء الى الصبر والأناة واستعدادهم للقبول بالحلول الوسط والمظاهر الشكلية للسلطة فحسب .

* * *

الهوامش :

(1) Narshakhi, The history of Bukhara,trans. R.Erye (Cambridge, Mass 1954) pp.62 - 63.

(٢) انظر ، ابن خرداذبة ، « مسالك » ص ٣٤ — ٢٩ حيث تجد تفصيلات أوفى حول موضوع الضرائب.

(٣) الطبري ، دي خوية ، ص ٣٦٨ . وانظر أيضا :
C.E.Bosworth, Sistan under the Arabs, ed . Rome,, 1968.

(٤) انظر ، الطبري ، دى خوية ، ج٢ ، ص ١٢٨ ، ١٣٤ — ١٣٥

(٥) المصدر السابق،ص ١٣٤

(٦) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٦٢٩ ، ٦٣١ — ٦٣٧ ، ٦٣٨ . وانظر ايضا اليعقوبي ، ط . هوتسما ، ليدن ١٨٨٣ ، ج٢ ، ص ٤٩٢ .

(٧) انظر مثلا ، الطبري ، ج٣ ص ٧١٣ — ٧١٨ ، والجهشياري « كتاب الـوزراء » ط . السقا ، القاهرة ، ١٩٣٨، ص٢٢٨ .

(8) *Barthold, V., Turkestan down to the Mongol invasion,* London, 1928, p.203 ; Mottahedeh, R. , the Abbasid caliphate in Iran, Cambridge History if Iran, vol.4, pp.70 - 71.

(٩) انظر التفاصيل في : الطبري ، ج٣ ، ص ٧١٣ — ٧١٨ . وانظر أيضا : الجهشياري ، « وزراء » ، ص ٢٢٨ ، والاصفهاني ، « كتاب الاغاني » ط .دار الكتب ، ج٥ ، ص ٣١٢ .

(١٠) انظر ، الطبري ، ج٣ ، ص ٦٧٥ ، والجهشيارى، وزراء ، ص ٢٢٨ .

(١١) انظر التفاصيل في : الطبري ،ج٣ ، ص ٦٤٨ — ٦٤٩ ، ٧٠٤ .

(١٢) ابن الاثير ، « الكامل في التاريخ » ط. تورنبرغ ليدن ١٨٦٦—١٨٧٧ ، ج ٦ ، ص٢٦ .

(١٣) اليعقوبي ، (تاريخ) ، ط. هوتسما ،ليدن ١٨٨٣ ، ج٢ ، ص ٥٢٨ .

(١٤) الطبري ،ج٣ ، ص ٧١٢ ، ٧٢٢

(١٥) انظر التفاصيل في الطبري ، ج٣ ، ص ٧١٩ — ٧٢٧ ، واليعقوبي ، ج٢ ، ص ٥٢٨ .

(١٦) الطبري ، ج٣، ص ٧٣٢ .

(١٧) انظر مايذكره E. G. Brown في كتابه Literary History of persia حول محاكمة الافشين والنقاش حول موضوع الوهيته .

(١٨) انظر الطبري ، ج٣ ، ص ٣٥٤—٣٥٨ ، اليعقوبي ،ج٢ ، ص ٤٥٧ — ٤٥٨ . وقارن ذلك بما جاءعند: اغابيوس المنبجي ، « كتاب العنوان » ، ط فازيليف ، ص ٥٤٤ ، في :
Patrolgia orientalis, V111, Paris, 1911.

(١٩) انظر المسعودي « مروج الذهب » ط. بيروت ١٩٧٣ ، ج٤ ، ص٢٩٩ .

(٢٠) انظر اخبار هذه الثورة في : الطبري ، ج٣ ، ص ٤٧٠ ، واليعقوبي ، ج٢ ، ص ٤٧٨ .

(٢١) انظر الطبري ، ج٣ ، ص ٤٨٤ وانظر أيضا : Barthold, V. , op. cit. , pp. 199 - 200.

(٢٢) كان امير بخارى يعرف بلقب « بخارى خداة » .

(٢٣) الطبري ، ج٣ ، ص ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ .

(٢٤) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٦٣٨ ، ٦٥٠ . وانظر ايضا : ابن الاثير ، ط. تورنبرغ ، ج٦ ، ص ١٠٣،١٠١ ، ١١٤ ، ١٣٤ .

(٢٥) (25) Nashakhi, op. cit. ' pp. 71 - 72.

(٢٦) انظر : الطبري ، ج٣ ، ص ٣٦٩ .

(٢٧) اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٦٥ .

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٤٧٩ .

(٢٩) انظر : الطبري ، ج٣ ، ص ٦٢١ .

(٣٠) (30) Talbi, M.,L' Emirat Aghlabide, ed Paris, 1966 , pp. 12 - 22

(٣١) (31) Talbi, op. cit. , pp. 37-41 .

(٣٢) (32) Talbi, op. cit. ' pp. 35-37.

(٣٣) ابن عذاري « البيان المغرب » ج١ ، ط. كولين وليفي بروفنسال ، ١٩٤٨ ، ص ٦٧-٧٠ .

(٣٤) ابن عذاري ، ج١ ، ص ٧٠-٧١ .

(٣٥) البلاذري « فتوح » ، ص ٢٧٥ .

(٣٦) ابن عذاري « البيان » ج١ ، ص ٧٢-٧٣ .

(٣٧) الطبـري ، ج٣ ، ص ٣٥٣ .

(٣٨) ابن عذاري « البيان » ج١ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٣٩) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٤٠) ابن عذاري ، ج١ ، ص ٧٥-٧٨ .

(٤١) الطبري ، ج٣ ص ٣٧٢ ، ابن عذاري ، ج١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٤٢) اليعقوبي ، ج٢، ص٤٤٦ .

(٤٣) انظر اخبار فترة ولايته في : ابن عذاري ، ج١ ، ص ٨٤ - ٨٥

(٤٤) ابن عذاري ، ج١ ، ص ٨٥ - ٨٨ .

(٤٥) ابن عذاري « البيان » ج١ ، ص ٨٩ - ٩٢ .

الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الأوربي في القرن التاسع عشر

د . عبد الكريم رافق
جامعة دمشق

يعد القرن التاسع عشر نقطة تحول هامة في تاريخ الوطن العربي، مشرقه ومغربه، على حد سواء ، بسبب شدة المجابهة بينه وبين الدول الاوربية الصناعية ، التي تحولت الى استعمار اقطاره ، مخضعة اقتصاده لخدمة مصالحها الرأسمالية .

وفي المجال الاقتصادي ، الذي يعنى به هذا البحث ، تبدت المجابهة على صعد متعددة ، أهمها التجارة والصناعة . وكانت ردود الفعل المحلية هامة لانه ، رغم شدة المجابهة ، لم تستسلم الفعاليات المحلية للتحدي الاوربي ، بل طورت انشطتها الاقتصادية للتأقلم مع الواقع الطارىء . ونتج عن ذلك فرز اجتماعي وطبقي جديد ، فظهرت البورجوازية المحلية المرتبطة بالغرب ، وحدثت تبدلات موازية على المستويين السياسي والفكري . *

---

* للباحث بحثان يمتان بصلة لهذا البحث ، نشر الاول بعنوان : « مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني » ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد الرابع ، نيسان ١٩٨١ . والثاني اعد للندوة التي انعقدت في استراسبورغ بفرنسا (١ ـ ٥ تموز ١٩٨٠) حول الاقتصاد والمجتمعات في الامبراطورية العثمانية (من نهاية القرن الثامن عشر حتى اوائل القرن العشرين) وهو باللغة الانكليزية ، وقد نشر في الكتاب التالي : (عنوان البحث واسم الكتاب) .

«The impact of Europe, on a traditional economy : the case of Damascus, 1840 - 1870 » in **Economie et Sociétés dans l' Empire Ottomane (fin du XVIIIe - début du XXe siécle)**,eds. Jean - Louis Bacqué - Grammont et Paul Dumont, Editions CNRS, Paris, 1983.

التبدلات التجـــارية

تمتعت مدينة حلب بموقع تجاري ممتاز في القرنين الاولين من الحكم العثماني ، اذ انفتحت امامها اســـواق الامبراطورية العثمانيـــة ، وبخاصـــة مناطق الاناضـــول المجاورة (١) . وكانت مركزا هاما لتجارة المرور بين اوربا من ناحية وايران والشرق الاقصى من ناحية اخرى ، بطريق العراق والخليج العربي . ويشهد على نشاط حلب التجاري ما بني فيها من اسواق وخانات لتصريف البضائع محليا او لشحنها الى ماوراء الحدود ، وكان ميناؤها الطبيعي الاسكندرونة ، كما استخدم ميناء طرابلس في نقـــل البضائع منها واليها . ونظرا للدور التجاري الهام الذي لعبتـــه حلب محليا ودوليـــا اقامت الدول التجاريـــة الاوربية ، وابرزها انكلترا وفرنســـا ، ممثلين تجاريين فيها . واتخذ هؤلاء الصفة السياسية كقناصل لدولهم . ومن ذلك اقامة الانكليز مركزا لشركة بلاد المشرق (ليفانت) في حلب في عام ١٥٨١ ، الى جانب المراكز الرئيسية الاخرى لهذه الشركة في استانبول وازمير . وكان لهذه المراكز مراسلات تجارية ودبلوماسية مـــع مركز الشركة الرئيسي في لندن . واستمرت هذه الشركة في العمل الى ان قضت عليها منافسة شركة الهندالشرقية ، وتوقفت في عام ١٨٣٥(٢) .

واقام الفرنسيون ممثلين تجاريين — دبلوماسيين لهم في حلـــب في اواخر القرن الســـادس عشر ، وتعود رسائلهم الى عـــام ١٦٠٠ ، وهي محفوظـــة في غرفة تجـــارة مرسيليا التي كانت المسؤولة عنهم والموجهة الرئيسية للتجارة الخارجيـــة لفرنســـا . وتمتع التجار الاجانب بامتيازات تجارية وقانونيـــة بموجب نظام الامتيازات الذي بدأ في عام ١٥٣٦ واستمر حتى النصف الاول من القرن العشرين .

ولم تكن دمشـــق بمثل اهمية حلب في المجـــال التجاري ، فنشـــاطها في تجارة المرور لم يتعد نطاق بغداد والحجـــاز ومصر . وحتى في هذا النطـــاق ، كانت خطوط تجارتها تحت رحمة القبائل البدوية التي تسيطر على معظم هذه الطرق . ولكن دمشق افادت الشيء الكثير من كونها مركز تجمع قافلة الحج الشامي التي كان ينضم اليهـــا الحجاج من المناطق الشمالية والشـــرقية ، وتبلغ اعدادهم في كل ســـنة ما يقـــرب مـــن خمســـة عشـــر الى عشـــرين الف حـــاج ، يتجمعون في دمشـــق ، ويحملـــون البضائع منها واليها ، من بلادهم الاصلية ومن الحجاز. لذلك كانت قافلة الحج الشامي على جانب كبير من الاهمية التجارية بالنسبة لدمشق ومنطقتها(٢) . ونظرا لعدم اهمية دمشق بالنسبة لتجارة المرور الاوربيـــة ، بالمقارنة مـــع حلب ، لم يكـــن للاجانب فيها ممثلون او قناصل الى ان سيطر عليها محمد علي باشا والي مصر عام ١٨٣١ . وكان

تعامل التجار الاجانب مع دمشق وريفها قبل ذلك ، يتم بوساطة وكلائهم فيها ، او عن طريق ممثليهم من القناصل ونوابهم في المدن الساحلية ، وبخاصة صيدا .

وقد تضررت تجارة المرور في حلب ، في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، حين احتلت روسيا ، في عهد القيصر بطرس الاكبر، المناطق المنتجة للحرير في شمالي بلاد فارس ، وذلك في عامي ١٧٢١ ــ ١٧٢٢ ، وانقطع بذلك تدفق الحرير الفارسي الى حلب وعبرها الى اوربا . ورافق ذلك في الوقت نفسه تردي الوضع السياسي بين العثمانيين وحكام بلاد فارس واستئناف القتال بين الفريقين ، وبخاصة في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ، حين سيطر نادر شاه على الحكم في بلاد فارس وأنهى حكم السلالة الصفوية فيها . وكان لهذا الوضع اثره الكبير على تحجيم النشاط التجاري بين حلب واصفهان والخليج العربي وما ورائه .

وصادف في تلك الاثناء ازدياد الاهتمام الفرنسي التجاري ببلاد الشام الجنوبية ، اذ استغلت البورجوازية التجارية الفرنسية معاهدة اوترخت عام ١٧١٣ ، التي اتت بالسلام لفرنسا وامنت خطوط مواصلاتها في المتوسط ، فوسعت من نشاطها التجاري الخارجي بدعم من الملكية الفرنسية . واشتدت منذئذ المنافسة التجارية بين فرنسا ، التي ركزت اهتمامها على بلاد الشام الجنوبية ، وبين انكلترا التي تركز اهتمامها على حلب(٤) .

ومما حد ايضا من تجارة حلب اشتداد منافسة الشركة الانكليزية ــ الموسكوفية لشركة الليفانت ، بعد ان منحت الاولى حق المتاجرة مع بلاد فارس . وادى ضعف الدولة العثمانية ، واضطراب الامن في الطرق الرئيسية بين حلب وميناها الطبيعي الاسكندرونة ، التي كثر فيها قطاع الطرق ، الى الحاق ضرر كبير بتجارة حلب . وتضاءل اهتمام اوربا ، في اعقاب الثورة الصناعية ، بشراء المنتجات المحلية بطريق المقايضة ، لان المنتجات الاوربية الصناعية بدات تفرض نفسها بمقابل المال . ووجد القطن المحلي ، الذي كانت تستورده اوربا من حلب والاناضول ، منافسا قويا له في قطن البنغال الاجود والارخص ، بالنسبة للصناعة الاوربية .

ونتج عن الثورة الصناعية الاوربية ان ازدادت منتجات اوربا ، واتسعت السفن التجارية التي اخذت تسير بقوة البخار ، واصبحت الحاجة ملحة للبحث عن مواني كبيرة تتسع لهذه السفن وحجم البضائع التي تحملها. ولم تكن الموانى القائمة حينذاك، مثل الاسكندرونة وطرابلس وصيدا ، لتفي بهذا الغرض ، لذا بدا انشاء ميناء بيروت الذي طغى على ما حوله منذ القرن التاسع عشر . وافادت دمشق الشيء الكثير من نمو هذا الميناء وتدفق بضائعه ، عبرها ، الى الداخل وما ورائه .

وفي العقد الثاني من القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيون يهتمون ببيروت، وباقامة ممثلين لهم فيها . ولهذا ، سمي القنصل الفرنسي في حلب ، في أواخر عام ١٨١٩، وكيلا مؤقتا في بيروت التي وصفها « بانها اليوم الميناء الناشط للدمشق »(٥) . وفي عام ١٨٢٢ وافقت سلطات باريس على تسمية السيد جان باتيست بودان (Jean Batiste Beaudin) للوكالة القنصلية في دمشق ، المرتبطة بالقنصلية العامة في حلب . وقد وصل السيد بودان الى دمشق في أواخر شباط ١٨٢٤ ، وبدأ بممارسة أعماله في الاول من اذار . ولكن والي دمشق رفض الاعتراف به رسميا ، ومع ذلك ، سمح له بالبقاء في دمشق ريثمايحصل على فرمان من استانبول يعترف به « كوكيل لطائفة الفرنساوية » . وهكذا ، لم يتم تعيين قنصل رسمي لفرنسا في دمشق حتى ٨ تموز ١٨٣٩ حين اصدر ملك فرنسا قرارا بانشاء قنصلية في دمشق . وكان أول قنصل بريطاني فيدمشق قد عين قبل ذلك بست سنوات(٦) . وسرعان ما أصبح للدول الاجنبية الاخرى ، مثل بروسيا والولايات المتحدة الامريكية ، والنمسا ، واليونان ، قنصليات في دمشق .

وشجع النشاط التجاري الاوربي في بلاد الشام آنذاك الامتيازات التجارية الواسعة التي منحتها الدولة العثمانية لبريطانيا ، ثم للدول الاخرى . فقد عقدت اتفاقية تجارية ، بين الدولة العثمانية وبريطانيا في عام ١٨٣٨ ، سرعان ما طبقتبنودها على دول أوربية اخرى ، ونصت على الا تتجاوز الضرائب الجمركية التي تتلقاها الدولة العثمانية على البضائع الاوربية المستوردة خمسة بالمائة . وقد زاد هذا الى حد كبير من النشاط التجاري الاوربي ، ومن استيراد البضائع الاوربية الى الدولة العثمانية . وطبقت نصوص هذه الاتفاقية في بلاد الشام بعد انسحاب قوات محمد علي باشا منها . وبالمقابل، كانت التجارة الداخلية ،في الدولة العثمانية ، تخضعلنسبة من الضرائب الجمركية أعلى بكثير ، مما اضر بها واضعف من منافستها للبضائع الاوربية المستوردة .

وكان محمد علي باشا ، ابان حكمه في بلاد الشام ، بين عامي ١٨٣١ و ١٨٤٠ ، قد فتح الباب على مصراعيه للمؤثرات الاوربية على اختلاف أنواعها . وتدفقت البضائع الاجنبية واخذت تنافس ، بصورة جدية ، البضائع المحلية . وقد جاء في التقرير الذي رفعه جون باورينغ (John Bowring) الى وزير الخارجية البريطاني اللورد بالمرستون، بتاريخ١٧ تموز ١٨٣٩ ، وتناول فيه احصاءات وتفاصيل تجارية واجتماعية حول بلاد الشام ، ان مجموعالدكاكين التي تبيع البضائع الانكليزية بالمفرق، في دمشق ، بلغ مائة وسبعة دكاكين يقدر مجموع رؤوس الاموال التي وظفها أصحابها في اعمالهم بمبلغ يراوح بين ٠٠٠ر٦٠٠ر١ و ٠٠٠ر١٠٠ر٢ قرش . واضاف التقرير ان

التجار المسلمين والمسيحيين واليهود قد شاركوا ، على حد سواء ، في المتاجرة مع اوربا وفي تسويق بضائعها . وبلغ مجموع المؤسسات ، او البيوتات التجارية ، التي كان يملكها مسلمون في دمشق وتتاجر مع اوربا ، ستة وستين ، يراوح مجموع رؤوس اموالها بين عشرين وخمسة وعشرين مليونا من القروش . ومن هذه البيوتات ثمانية يزيد راسمال كل منها على المليون . وهناك مؤسستان تجاريتان يملك احداهما عبد الرحمن هاشم ، وثانيتهما محمد سعيد اغا البغدادي ، وكانتا تتاجران مع بغداد ، يبلغ رأسمال كل منهما بين مليون ونصف ومليونين من القروش . ويبلغ راسمال مؤسسة اخرى ، يملكها الحاج حسين جرتقجي ، مابين مليونين ومليونين ونصف . والمؤسسات الكبرى تتاجر عادة مع أوربا وبغداد ، في حين تتاجر المؤسسات الاصغر مع استانبول وازمير . وهناك حوالي اثنتي عشرة مؤسسة تتاجر مع القاهرة والاسكندرية ، ومؤسسة او اثنتان تتاجر مع مكة والمدينة ، وقلة منها تتاجر مع القدس ونابلس واجزاء اخرى من فلسطين . وهناك مؤسسة واحدة امتد نشاطها التجاري الى جزر الهند الشرقية . ويبلغ وسطي راس مال هؤلاء التجار المتعاملين مع الخارج حالي اربعة آلاف ليرة أسترلينية ، أي ما يعادل ٤٠٠ الف قرش (٧) .

ويبلغ عدد التجار المسيحيين في دمشق الذين يتعاملون في التجارة الخارجية تسعة وعشرين ، يراوح مجموع رؤوس اموالهم بين اربعة ملايين ونصف المليون وخمسة ملايين ونصف مليون قرش . وكان اغنى هؤلاء التجار على الاطلاق السيد حنا عنحوري ، الذي بلغ راسماله بين مليون ونصف ومليونين من القروش . وكان يتاجر مع بغداد وفرنسا وايطاليا ، كما انه ينتج البضائع الدمشقية ، ويشترك معه في التجارة الخارجية عدد من افراد اسرته . وكانت النسبة الاكبر من التجار المسيحيين تتعامل مع بريطانيا ، ولكنهم كانوا ، على وجه العموم ، أقل ثراء من التجار المسلمين واليهود . ويتراوح وسطي راس مال الغالبية العظمى من التجار المسيحيين ما بين ٢٥ و ١٠٠ الف قرش(٨) .

وكان التجار اليهود في دمشق من اغنى التجار المتعاملين مع الخارج . ويبلغ عددهم اربعة وعشرين ومجموع رؤوس اموالهم ما بين ستة عشر وثمانية عشر مليونا من القروش ، اي بمعدل ستة آلاف الى سبعة آلاف ليرة استرلينية لكل منهم ، ويعادل ذلك ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ الف قرش . ومن بين هؤلاء تسعة تجار على الاقل يتراوح راسمال كل منهم ما بين مليون ومليون وثلث من القروش . ويعتقد ان أغنى تاجرين من اليهود كانا مراد فارحي ونسيم فارحي وتزيد ثروة كل منهما على مليون قرش ونصف المليون . وكانت معظم المؤسسات اليهودية تتاجر مع بريطانيا(٩) .

ومما شجع هؤلاء التجار الدمشقيين على التعامل بالبضائع الاجنبية تسهيلات

الدفع التي منحهم اياها التجار الاجانب . ومعظم هؤلاء التجار هم من تجار الجملة ، يستوردون البضائع أولا ثم يدفعون قيمتها بعد ذلك ، في حين كان تاجر المفـرق يبيعها نقدا في الغالب . ولم تكن دمشق السوق الوحيدة لهذه البضائع ، فكان تجار القوافل يحملونها الى الداخل والخارج ، ويمنحون بدورهم تسهيلات في الدفع مـن قبل تجار الجملة الدمشقيين ، بحيث يسددون ثمن البضائع عند عودتهم في العام التالي . وضم تجار القوافل اناسا من العراق وفارس والمناطق الى الشرق منها . وكانوا في الغالب على درجة كبيرة من الامانة في التعامل والدقة في دفع ما يستحق عليهـم مـن مـال .

وازاء هذا النشاط التجاري وحسن التعامل ، نشطت المتاجـرة بالبضائـع الاجنبية ، وبدأ البحث لايجاد تسهيلات أكثر ، في التعامل وفي المواصلات ، لتصريف هذه البضائع بشكل أوسع (١٠) .

وقد وجدت في دمشق ، ابان الحكم المصري ، محكمة تجارية مهمتها النظر في الخلافات الناجمة عن الاعمال التجارية ، وكانت تتألف من اثني عشر عضوا منهـم تسعة من المسلمين ، ومسيحيان ، ويهودي واحد . وكانت هذه النسبة تتفق وأعداد الطوائف المختلفة آنذاك ،ولا تؤثر بأي حال على قرارات المحكمة بالنسبة للمتقاضين على اختلاف مذاهبهم (١١) . وقد توقفت هذه المحكمة عن العمل ، كما يبدو ، بعـد انسحاب المصريين من بلاد الشام وحل مكانها ديوان التجار للنظر في القضايا التجارية، ولهحق أصدارالاحكام ، التي سمح للمتقاضين باستئنافها الى مجلـس شـورى الشام العالي (١٢) .

وفي عام ١٨٥٠ أنشئت في دمشق ، من جديد ، محكمة تجارية تضم اربعة عشر عضوا . وفي حين أن المحكمة الاولى ، التي كانت قائمة ابان الحكم المصري ، لا تعرف كيفية تعيين أعضائها ، فان نصف اعضاء المحكمة الجديدة كان يعين من قبل الحكومة العثمانية ، ونصفهم الاخر يعينه القناصل من بين التجار الاجانب . وهذا دليـل على ازدياد حجم التجارة الاجنبية في الشام ، وكذلك على ازدياد نفوذ القناصل الاجانب وتدخلهم في القضايا الاقتصادية المحليـة . وضم الاعضـاء السبعة الذين عينتهـم السلطات العثمانية أربعة مسلمين ، ومسيحيين ، ويهوديا واحدا . واذا كانت نسبة الاعضاء في المحكمة الاولى تتوافق والنسبة العددية للطوائف ، كما ذكرنا ، فان نسبة ممثلي الطوائف ، فيما يتعلق بنصف أعضاء المحكمة الجديدة ، تدل على نسبة مساهمة كل طائفة في النشاط الاقتصادي وفي التعامل بالتجارة الاجنبية (١٣) . وبعد خمس سنوات ، أي في عام ١٨٥٥ ، انشئت محكمة تجارية في حلب (١٤) .

واقتضى ازدياد حجم التجارة بين دمشق والدول الاجنبية ، الاهتمام بتحسين طرق المواصلات ، وبخاصة بين دمشق وبغداد . ونظرا لسيطرة البدو آنذاك ، من قبائل العنزة ، على البادية السورية ، وتحكمهم في طريق دمشق ـ بغداد وفرضهم الاتاوات على المسافرين وعلى البضائع مقابل حق الطريق ، فقد لجأت القوافل التجارية ، سواء منها القادمة من الشرق الاقصى بطريق الخليج العربي وبغداد ، أو الذاهبة الى تلك الجهات من دمشق ، الى سلوك الطريق الاطول والاكثر أمنا ، عبر الموصل وحلب (١٥) . فالقافلة التي تسير من بغداد الى دمشق ، بطريق الموصل وحلب ، يقتضي وصولها الى دمشق من شهرين ونصف الى ثلاثة أشهر (١٦) . أما القافلة التي تنطلق من بغداد الى دمشق ، عبر البادية ، فيقتضي وصولها حوالي خمسة وثلاثين يوما(١٧) . ووجدت محاولات في الشرق الاقصى لارسال البضائع من كلكوتا الى دمشق عبرالبحر الاحمر وخليج السويس وغزة (١٨) . ولكن هذه المحاولات فشلت بسبب صعوبات الطريق وكلفته ، وبقي طريق دمشق ـ بغداد ، عبر البادية ، ناشطا في نقل البضائع رغم اخطار البدو . وحين ازداد حجم التجارة الخارجية التي سلكت هذا الطريق في أعقاب انشاء طريق دمشق ـ بيروت البري ، اضطر التجار الاجانب وممثلو الشركة التي انشأت هذا الطريق الى التعامل مباشرة مع القبائل البدوية وشراء صداقتها بالمال ، لتأمين سلامة البضائع ومرورها عبر البادية . وكان ذلك بداية التعامل بين الدول الاوربية الصناعية ، وبخاصة بريطانيا وفرنسا ، وبين القبائل البدوية ، بعد أن فشلت جميع المحاولات لايجاد البديل عن خط بغداد ـ دمشق المباشر .

وحدث في عام ١٨٥٩ ، مثلا ، أن هاجم البدو القافلة التجارية المتجهة من دمشق الى بغداد ، فاضطرت الى قطع الطريق بثلاثة وخمسين يوما . ومن شأن ذلك ان يتلف المنتجات السريعة العطب ، كما انه يزيد في مصاريف النقل . ولم يتمكن تجار دمشق ، أو تجار بغداد ، على السواء ، من ايجاد تسوية مع البدو المجاورين للطريق، وحتى البعيدين عنه ، الذين يهاجمونه بسبب عدم قدرة الدولة العثمانية آنذاك ، وخوف البدو من نكوث التجار بوعدهم ، باعطائهم ما ألفوا أن يأخذوه من الخوة ، التي هي بمثابة حق الطريق . وحين ازدادت مصلحة التجار الفرنسيين والانكليز في استتباب الامن وحماية القوافل التجارية بين دمشق وبغداد ، عمدوا من التقرب من هذه القبائل التي أصبحت صديقة لدولة أو لاخرى . وذكر في عام ١٨٦٦ أن قبائل ولد علي والشمر والفدعان ، وبني صخر والموالي ، وبعض أفخاذ السبعة ، كانوا موالين للفرنسيين ، في حين أن قبائل الرولة وبعض أفخاذ السبعة والقبائل التي تسيطر على البادية في الجانب العراقي من نهر الفرات ، باتجاه بغداد ، كانت موالية للانكليز . وبالاضافة الى الفوائد المادية التي جنتها القبائل ، من ذلك ، فانها في كل

مرة نشب فيها الخلاف بينها وبين السلطات العثمانية كانت تلجأ الى قنصل الدولة التي تتعامل معها ليتدخل لدى هذه السلطات لصالحها (١٩) .

ومن المحاولات التي جرت لايجاد بديل عن خط بغداد ـ دمشق ، تلك التي حدثت في عام ١٨٧٠ حين بدأ نقل البضائع بين بغداد ومسكنة بواسطة السفن التجارية في الفرات . ومن مسكنة كانت البضائع تنقل برا الى حلب التي تبعد عنها بحوالي خمسين كيلومترا . وكانت تسير رحلة واحدة ـ في الاتجاهين ـ كل اسبوعين . واستغرقت الرحلة النهرية من مسكنة الى بغداد ثلاثين ساعة ، في حين أن الرحلة من بغداد الى مسكنة اقتضت تسعة ايام ، لانها كانت تسير ضد مجرى المياه . وقد فشلت هذه المحاولة بدورها (٢٠) .

وكان من انجح خطوط المواصلات التي تمت آنذاك خط بيروت ـ دمشق البري. وقد اعطي امتيازه في الاساس الى الفرنسي (الكونت دو برتويس (de Perthuis) في ٢٠ تموز ١٨٥٧ ، فأوجد شركة عثمانية مغفلة براسمال قدره ثلاثة ملايين فرنك موزعة على ستة آلاف سهم . وبدأ العمل في هذا الطريق في تشرين الثاني في عام ١٨٥٩، وشارك حوالي الف الى الف وخمسمائة عامل في انجاز الجانب اللبناني منه ، وبعد اربعة أشهر تم تعبيد أربعة وعشرين من أصل مائة وثمانية كيلومترات من الطريق . وكان مقدرا للعمل أن ينتهي في عام ١٨٦١ ، ولكن الطريق دشن فعلا في الاول من كانون الثاني عام١٨٦٣(٢١) . وبلغ عدد المسافرين الذين استخدموا هذا الطريق في عام افتتاحه ٥٨٠٩ ، وارتفع هذا العدد الى ٨٤١٨ مسافرا في العام التالي ، وبلغ ٩٥٠٩ في عام ١٨٦٩ . وبلغت العائدات الاجمالية لهذا الطريق ٥٥٠ الف فرنك في عام ١٨٦٣ ، ثم ارتفعت الى ٩٨٠ الف فرنك في عام ١٨٦٦ . واتصل ممثلو الشركة المسؤولة عن الطريق بالبدو في البادية السورية لتسهيل نقل البضائع بين بيروت وبغداد عبر دمشق (٢٢) . وذكر أن كمية البضائع التي نقلت بواسطة طريق بيروت ـ دمشق ، في عام ١٨٦٣ ، بلغت ٤٫٧٣٠ طنا ، وارتفعت في عام ١٨٩٠ الى ٢١٫٤٠٠ طن . وزاد ذلك من عائدات الاسهم التي بلغت ٤٢ فرنكا في عام ١٨٧٢ ثم ارتفعت الى ٨٠ فرنكا في عام ١٨٨٢ . ولعب هذا الطريق دورا رئيسيا في حياة بيروت الاقتصادية ، وفي حياة المناطق المحيطة به ، ولاشك انه كان عاملا هاما في استمرار بيروت كأهم ميناء على الساحل السوري(٢٣) . ولا ادل على اتساع نشاط ميناء بيروت خلال القرن التاسع عشر من الارقام التالية : بلغت زنة البضائع التي استوردت أو صدرت عن طريق هذا الميناء في عام ١٨٣٥ ، ١٢٨٫٦٣٥ طنا ، منها ٧٨٫٤٦٣ طنا من الواردات و ١٧٢ر٥٠ من الصادرات (٢٤) ، في حين كان مجموع البضائع التي تعامل معها ميناء بيروت ، استيرادا وتصديرا ، ٨٠٥٫٥٢٠ طنا في عام ١٨٩٥ (٢٥) .

وحين عارضت الحكومة العثمانية تمديد امتياز الشركة المشرفة على طريق بيروت ـ دمشق ، أو زيادة فعالياتها التي كانت تكفي لاستخدام ألف من الخيول والبغال في عمليات النقل ، بدأ التفكير لدى الشركة في الثمانينات من القرن التاسع عشر ، بربط بيروت بدمشق بخط حديدي. وتم انشاء هذا الخط في عام ١٨٩٥ على يد شركة أخرى فرنسية بلجيكية عثمانية . ولكن الخط الحديدي هذا مني بخسائر كبرى الى ان فرض الانتداب الفرنسي في ١٩٢٠ على سورية ولبنان ، وعندئذ أخذت عائدات الخط بالازدياد (٢٦) .

وازداد تدفق البضائع الاجنبية الى دمشق بنتيجة التسهيلات في عمليات النقل بينها وبين بيروت ، ويتبين ذلك من الاحصاءات التالية :

جدول ببيان قيمة البضائع المستوردة الى دمشق والمصدرة منها بالفرنكات الفرنسية

السنة	البضائع المستوردة	النسبة	البضائع المصدرة	النسبة	الاجمالي	
١٨٣٣	١٣ر٢٤٢ر١٢٥	٥٤٪	١١ر٢٤٨ر٢٥٠	٤٦٪	٢٤ر٤٩٠ر٣٧٥	(٢٧)
١٨٥٩	١٥ر٣١٨ر٢٥٠	٦٠٪	١٠ر٤١٨ر٠٠٠	٤٠٪	٢٥ر٧٣٦ر٢٥٠	(٢٨)
١٨٦٢	٢٠ر٢١٤ر٤٢٠	ــــ	ــــــ	ــــ	ــــــ	(٢٩)
١٨٨٣	١٤ر٩٥٣ر٢٢٨	٥٧٪	١١ر٢٧٥ر٤٤٤	٤٣٪	٢٦ر٢٢٨ر٧٣٢	(٣٠)
١٨٨٤	١٥ر٠٠٧ر٠٠٠	٦٥٪	٨ر١١٣ر١٧١	٣٥٪	٢٣ر١٢٠ر١٧١	(٣١)
١٨٨٥	١٤ر٣٦٧ر٠٠٠	٦٣٪	٨ر٣٢٠ر٥٠٠	٣٧٪	٢٢ر٦٨٧ر٥٠٠	(٣٢)
١٨٨٧	١٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٦٣٪	١٠ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٧٪	٢٧ر٠٠٠ر٠٠٠	(٣٣)

يتبين من الجدول اعلاه ان قيمة البضائع المستوردة الى دمشق خلال نصف قرن تقريبا راوحت قيمتها بالنسبة للقيمة الاجمالية للبضائع الاجمالية المستوردة والمصدرة ما بين ٥٤٪ و ٦٥٪ . في حين أن البضائع المصدرة منها تفاوتت نسبتها بين ٤٦٪ و ٣٧٪ . ويلاحظ أن قيمة البضائع المصدرة من دمشق كانت في تناقص في حين أن البضائع المستوردة كانت في ازدياد ، أي ان نسبة العجز في الميزان التجاري كانت بازدياد مستمر ، وقد بدأت هذه النسبة في الجدول بمقدار ٩٪ ثم بلغت بعد نصف قرن

٢٦٪ . ويعزى ذلك ، بدرجة كبيرة ، الى افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، التي حولت جزءا كبيرا في تجارة المرور بين الشرق الاقصى واوربا عن دمشق ، ثم الى تزايد نقل الحجاج الى الحجاز بالطريق البحري ، وكذلك الى الخسارة التي منيت بهـا البضاعة الدمشقية بفعل منافسة البضائع الاجنبية .

وادى فتح قناة السويس وتحول قسم كبير من الحجاج لاستخدامها الى تحول قسم اكبر من البضائع التي كانت ترافق قافلة الحج عن دمشق . ولكن فتح القناة زاد من ناحية أخرى ، في حجم العلاقات التجارية بين دمشق ومصر . وكانت هذه العلاقات تقوم في السابق على المتاجرة بالتبغ ، الذي كان يستورد من بلاد فارس ويصدر الى مصر . واستوردت دمشق البضائع المصرية . وبخاصة الكتان ، الذي كانت لـه سوق رائجة في بلاد الشام (٣٤) . كما أن وجود تجار مصريين مقيمين في دمشق ، وبالمقابل وجود تجار من أهل الشام في مصر ، شجع مثل هذه العلاقات التجارية . ومما يجدر ذكره أن وجود الجالية المسيحية الشامية ، التي بدات بالهجرة الى مصر منذ أوائل القرن الثامن عشر ، قد زاد من اتساع العلاقات التجارية بين البلدين (٣٥) .

وقد ضمت قوائم البضائع التي استوردتها دمشق في عام ١٨٣٣ السلع التي استوردتها من مصر ، وشملت الكتان ، والبن من مخا ، والنيلة ، والحناء ، وجوز الهند ، والاصبغة والجلود ، وانياب الفيلة ، والرز ، والسكر ، والقبعات ، والكرابيج، والحصر ، والبلح . وبلغت قيمة هذه البضائع آنذاك ٤٦٣ر١٢٥ فرنكا ، اما صادرات دمشق الى مصر في تلك السنة فضمت الفواكـه المجففة، والتفاح ، والاحذيـة ، والمنسوجات ، والتنباك ، والشال الكشمير ، وسيوف فارس (٣٦) .

وكان لاستعمال الحجاج ، وبخاصة حجاج الاناضول والبلقان ، للطريق البحري الى الحجاز ، اثره الكبير في تناقص حجم التجارة التي كانت تفيد منها دمشق كمركز لقافلة الحج الشامي . فقد افادت دمشق الشيء الكثير من تجارة الحج قبل ذلك . وكان يؤمها عادة ، كل سنة ، حوالي ١٥ الى ٢٠ الف حاج ترافقهم بضائع كثيرة ،الى الحجاز ومنه . وينفق هؤلاء الحجاج الاموال الكثيرة في دمشـق للتزود بالمـؤن ، واستئجار الجمال ، وشراء السلع (٣٧) . ولا ادل على أهمية البضائع التي تحملهـا قافلة الحج الشامي من استعراض البضاعة التي حملتها معها ، مثلا ، قافلة الحج العائدة من الحجاز الى دمشق في ١٥ صفر ١٢٥٨/ ٢٨ آذار ١٨٤٢ ، فقد ضمت ٢٢٥ حملا من الحناء ، تزن ٢٢٥٠ رطلا (حوالي ١٤٥٠٠ كغ) ، ويقدر ثمنها بـ ١٢٠ الف قرش فضة (ما يعادل ٣٠ الف فرنك فرنسي) ، و ٤٠ حملا من بن مخا (كانت في الاصل تسعين فقد منها في الطريق خمسون حملا) ، تزن ٤٠٠٠ رطل ، ثمنها ١٤٠

الف قرش ، و۲۰ حملا من نسيج هندي للعمائم ، كل حمل من بالتين ، تحتوي كل منهما مائة قطعة ، ثمن كل قطعة ۲۰۰ قرش ، مجموع ثمنها ۸۰۰ الف قرش. وقدرت الجواهر التي حملتها القافلة بما ثمنه ۱۰۰ الف قرش . وبلغ سعر ريش النعام الذي حملته هـذه القافلة ۱۷۰ الف قرش ، والعطـور ۱٦۰ الف قرش ، والسلع المتنوعة ٦۰ الف قرش . وكان مجموع ثمن البضائع التيحملتها القافلة مايعادل ۲۰۰ر۱٫۸٥۰ قرش(۳۸) .

وهكذا اخذت اعداد الحجاج المسافرين عن طريق دمشق بالتضاؤل التدريجي في القرن التاسع عشر . فقد اشتملت ، مثلا ، القافلة العائدة الى دمشق من الحجـاز بتاريخ ۲۱ نيسان ۱۸٤٥ على حوالي ستة الاف حاج ، الفينمنهم منا لاعجام، والفين من الاتراك ، والبقية من العرب . ورغم هذا العدد المتواضع للقافلة فان الحجاج احدثوا حركة تجارية ناشطة في دمشق ، وقدرت مشترياتهم منها بحوالي ستة ملايين قرش(۳۹) .

وقد بدأ الحجاج الاتراك ، منذ اوائل الخمسينات من القرن التاسع عشـر بالسفر ، على نطاق واسع ، بطريق البحر الى الحجاز ، بواسطة السفن التجارية التي شاع استعمالها انذاك(٤٠) . وكانت اشهر شركتين تسيران مثل هذه البواخر في المتوسط هما : المساجيري امبريـال(Messageries Imperiales) والشركـة الروسية (Compagnie Russe) ويصل الحجاج الى بور سعيد او الاسكندرية ثـم يتابعون سفرهم ، من الاولى في القنال ومن الثانية في القطار ، الى السويس حيـث يستقلون باخرة اخرى الى جدة . ويعود اختيار الحجاج للطريق البحري الى كونه أكثر امنا من الطريق البري ، الذي اخذ يعـج بقطاع الطـرق ، وكذلك الى كونـه أقل كلفة(٤١) .

وكان بعض الحجاج الاتراك يستخدمون الطريق البري في الذهاب والطريـق البحري في الاياب ، حين يكونون محملين بالبضائع . وضمت القافلة التي عادت الى دمشق من الحجاز في ۷ آب ۱۸٦۳ الموافق ۲۲ صفر ۱۲۸۰ ،مائتين وخمسين حاجا فقط . اما الباقون فقدعادوا بطريق البحر . وكان يرافق هؤلاء الحجاج الى دمشق ٦٥۰ عبدا من الجنسين ، وجه مئتان منهم الى حلب وبيع الباقون في دمشق ، على الرغم من وعود الباب العالي ومحاولات الدول الاوربية منع المتاجرة بالرقيق(٤٢) . وزاد في تناقص الحجاج المسافرين بطريق دمشق ان الحجاج من العجم اخذوا يستقلون منذ عام ۱۸۷۰ ، الطريق البحري من الخليج العربي الى جدة(٤٣) .

وقد علق نعمان القساطلي، صاحب كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ،

والذي عاصر تلك التحولات ، على تناقص حجم التجارة المرتبطة بقافلة الحج بقوله : « واول نكبة دهمتها (أي دمشق) تسببت عن سير سفن التجار في البحار فخسرت تجارتها البرية مع الاستانة والروم ايلي وبر الاناضول وغيرها وتحول ذلك الى الموانىء البحرية وعندما فتحت ترعة السويس حلت بلية عظمى وطامة كبرى على تجارة دمشق لانها سلبت كل مابقي لها من التجارة البرية وفتحت بابا قريبا للحجاز فامتنع الحجاج عن الاتيان اليها فخسرت جداول الذهب الغزيرة التي كانوا يسكبونها ذهابا وايابا حيث كان يأتيها كل سنة ثمانية الاف ونيف ويتجهزون منها للحجاز وفي ايابهم يتجهزون منها الى بلادهم ويأخذون البضائع والاقمشة اما هدايا او للتجارة واذا انفق كل حاج ٥٠ ليرة يكون ما ينفقه الحجاج سنويا اربع مئة الف ليرة ولا يخفى كم كانت تنتفع دمشق من هذه المبالغ وقد كان كثيرون من اهلها من ذوي العيال الكبيرة الذين لا ثروة عندهم يتعيشون من البيع بالامانة للحجاج او من انزال البعض في بيوتهم . وقد كملت في هذه السنة اضرار ترعة السويس بتجارة دمشق لان ما بقي لها من تجارة العراق فتح له طريق على السويس فتحول الى موانىء سوريا» (٤٤) .

وادى تضرر دمشق التجاري هذا الى تضرر الاسواق الريفية التي تتعامل معها، وبخاصة القرى في حوران وغيرها ، التي كانت تؤجر الاف الجمال لنقل الحجاج ومؤنهم والقوات العسكرية المرافقة لهم . واشهر تلك الاسواق سوق المزيريب (وتبعد مسيرة يومين عن دمشق) ، حيث كان يتجمع الحجاج استعدادا لانطلاقهم الى الحجاز . وكان يقام في المزيريب كل سنة ثلاثة اسواق كبيرة اشبه بالمعارض ، اثنان منها بمناسبة ذهاب قافلة الحج وعودتها ، وثالثها في الربيع لخدمة مصالح الفلاحين والبدو والتجار من مراكز المدن(٤٥) .

وكانت المزيريب سوقا رائجة لتجارة الخيول التي ياتي بها بدو العنزة وبدو نجد . واهتم الاوربيون بشراء الخيول من سورية نظرا لجودتها ، ولاستخدامها في تحسين نسل خيولهم ولاستعمال حرسهم الملكي(٤٦) وقد ادت كثرة شراء الفرنسيين والانكليز للخيول والبغال (التي استخدمت في النقل) من سورية ، الى تضرر المواصلات المحلية والحد من انتقال البضائع والسلع(٤٧) .

منافسة البضائع الاوربية للبضائع الشامية

لاحظنا ان تدفق البضائع الاجنبية ، وبخاصة النسيجية منها ، الى بلاد الشام قد بدأ يلفت النظر ابان الحكم المصري ، نظرا للتسهيلات الكبيرة التي منحها ذلك الحكم للمصالح الاجنبية . ثم كانت معاهدة ١٨٣٨ بين الدولة العثمانية وبريطانيا،

والتي تلتها معاهدات اخرى من هذا القبيل مع دول اوربية متعددة ، فازداد تدفق البضائع الاوربية الى ولايات الدولة العثمانية ، بفعل الضرائب الجمركية المتدنية التي تقاضتها الدولة العثمانية عنها . وكانت الثورة الصناعية في اوربا في اوجها ، وتبدت بصورة خاصة في صناعة النسيج التي اخذت تكتسح العالم برخص منتجاتها وجودتها في الوقت ذاته . ولم تتمكن المنتجات الحرفية المحلية ، التي اعوزتها حماية الدولة العثمانية ،من منافسة البضائع الاجنبية .

ولم يكن اثر هذا الوضع مقتصرا على اصحاب الحرف ، وبالتالي على الاقتصاد المحلي التقليدي ككل ، بل بدل في بنية المجتمع وافرز فئات وسيطة غير منتجة ، لعبت دور الوسيط بين المستهلك المحلي والمنتج الاوربي ، وكونت احدى دعائم البورجوازية الجديدة . كما ان هذا الوضع ساعد ، بالنتيجة ، على ظهور انماط جديدة من الانتاج المحلي والتعامل الاقتصادي ، في محاولة للتأقلم مع هذا المد الاوربي . واذا ما تذكرنا ان حوالي خمس عمال دمشق كانوا يعملون في الصناعة النسيجية ، فان اثر المنافسة الاوربية للبضائع المحلية ينعكس الى حد كبير على البنية الاجتماعية أيضا .

وقد سوقت المنسوجات الاجنبية في دمشق في دكاكين خاصة بها في الاسواق الرئيسية ، مثل سوق الخياطين وسوق باب البريد . واشار الاهلون الى هذه البضائع على انها افرنجية . واذا ما اشتهر نوع منها فعندئذ يذكر بلد المنشأ الى جانب اسم البضاعة ، كأن يقال (جوخ انكليزي) .وادت المنافسة بين البضائع الاجنبية في السوق المحلية الى تدني اسعارها بدرجة اكبر ، الامر الذي جعل منافستها للمنتجات المحلية اشد من ذي قبل . ويذكر ،مثلا، عام ١٨٥١،ان مؤسسة تجارية يونانية استوردت الى دمشق كمية كبيرة من الكتان النمساوي ، وطرحته في السوق باسعار تقل عن اسعار مثيله الفرنسي ، مما اضر بهذا الاخير(٤٨) .

وعمدت البضائع الاجنبية الى تقليد الانماط النسيجية المحلية ، مما زاد في ترغيب السكان المحليين باقتنائها . وكمثال على ذلك تقليد الصناعة النسيجية السويسرية لانماط الكتان الدمشقي ، ثم تصديره الى دمشق ومنافسته للكتان المحلي في عقر داره(٤٩) .

وطبيعي ان المنافسة الاوربية لم تقتصر على بضائع دمشق فحسب ،بل شملت بضائع المدن الاخرى ، ففي حلب مثلا ، قلدت منسوجات مدينة ليون الفرنسية منسوجات حلب ، وفعلت ذلك منسوجات بريطانية وبلجيكا وسويسرا والمانيا ، مما اشاع استعمالها بين السكان المحليين لرخص اسعارها(٥٠) . وكانت البضائع الالمانية

قد اخذت في غزو السوق المحلية بعد عام ١٨٧٠ ، أي بعداكتمال الوحدة الالمانية ، وانطلاق المانيا الى التوسع التجاري والاستعماري . وقد علق القنصل الفرنسي في دمشق على دخول المنسوجات الالمانية ميدان المنافسة مع البضائع الاوربية فيالسوق المحلية فقال انها تغزو اكثر فأكثر سوق دمشق(٥١) .

ومما اضر بمنتجات دمشق ان المراكز التقليدية لتصريف هذه المنتجات ، سواء المدن والارياف السورية ، أم الاناضول والعراق ومصر ، قد اتخمت هي الاخرى بالبضائع الاجنبية ، التي نافستها فيها . وقد ادى تحول قسم من الاهالي عن الزي المحلي الى الزي الاوربي الى التخلي عن البضائع المرتبطة بالزي المحلي ، ورواج البضائع المناسبة للزي الاوربي .

ولم تكن الحكومة العثمانية لتهتم بالمصير الذي آلت اليه الصناعة المحلية لولا ظهورافلاسات بين التجار المحليين الذين يتعاطون المتاجرة بالاقمشة المحلية ، والى اضطراب اوضاع الحرف ، وبخاصة النسيجية منها ، مثل حرف فتالة الحرير ، والصباغين ، والقصارين ، والطباعين ، والدقاقين ، والالاجاتية ، والقطنية ، مما افقر أصحابها ، وأدى بالتالي الى تعذر جباية الضرائب المفروضة عليها . واوضح مثال على ذلك الطلب الذي تقدم به أحد كبار ملتزمي الضرائب في دمشق ، ويدعى عبد القادر آغا خطاب ، الى السلطات المسؤولة في دمشق بتاريخ ٥ محرم ١٢٦١/١٤ كانون الثاني ١٨٤٥ ، يلتمس فيه تخفيض قيمة الضرائب من العام السابق نظرا للخسارة التي لحقت بالمشتغلين بالاقمشة المحلية من جراء منافسة البضائعالاوربية . وكان عبد القادر هذا قد التزم في عام ١٢٦٠ ضريبة دمغة منسوجات القطني والالاجه والصلواتي والديما ، بمبلغ قدره (١٤٥ر٠٠١) قرش . وحين طرحت تلك الضريبةفي المزاد العلني في مطلع العام التالي بدات المزايدة ب ٣٠ر٠٠٠ قرش وبلغت ١٣٠ر٣٠٠ تقدم بها عبد القادر خطاب بالنيابة عن ابنه ، ثم تقدم هو بنفسه بمبلغ العام السابق . والجدير بالذكر ان جميع المزايدين كانوا من كبار اعيان دمشق . والتزم عبد القادر خطاب قلم المنكنا (تستعمل في كبس الانسجة القطنية) بمثل ما التزمه به في العام السابق . ويقدر بمبلغ ٦٠ر٠٥٠ قرشا . وفعل مثل ذلك بالنسبة لالتزام دق القطني الذي التزمه بمبلغ ٤٧ر٢٠٠ قرش ، والتزم حوالي ١٢ قيراطا من دق الالاجه بمبلغ ٢٧ر٠٠٩ قروش ونصف . وكان مجموع المبلغ الذي التزم به عبد القادر خطاب هو ٢٧٩ر٣٥٩ قرشا ونصف . وذكر عبد القادر خطاب انه خسر في عام ١٢٦٠ في التزام هذه الاقلام مبلغ خمسين الف قرش واضاف : « واذا لم صدقتم مبلغ الخسارة فاستحضروا السيد محي الدين كاتب سوق الدق وباقي كتاب الاقلام واطلعوا على الدفاتر يظهر لحضراتكم صدق تقريرنا ففي هذه السنة (أي ١٢٦١ هـ) بحسب حالة

الكار وقلة تشغيله من قبل تكاثر وجود اجناس البضائع الافرنجية فالاقمشة الشامية كلمالها على تدني ومن ذلك يزيد بالاقلام المذكورة تدني حاصلاتها وهذا شيء معلوم عند حضراتكم وليس له تدبير فان تحسن يصير التبصر بما اعرضناه لاجل ملاحظة حال دعجيكم ورفع المغدورية عنه الموصلة لخراب الحال حيث هذه الاقلام بالاقيام السابقة لا تستطيع على تأدية حالها » . وبمذاكرة السلطات المعنية بالطلب رأت « انه بخصوص توقف بضايع الاقلام المذكورة في محروسة الشام من تكاثر البضائع الافرنجية فهذا مشاهد وملحوظ من تدقير الاقلام المذكورة وتنازل اموالها عن العام الماضي لقلة رواج بضايعها التي هي القطني واللاجة والديما(٥٢) فقبول هذا الالتماس فيه المغدورية على جانب الميري وان كانت اعذار عبد القادر آغا من تدني الاقلام المذكور لسبب تدقير بضايعها مقبول ولكن لا يصوغ الرخصة من تنقيص الاموال الميرية على قياس تدنيها في الماضي فقد تتزايد في المقابل بحسب تواجد البضايع»(٥٣). ومع ان عبد القادر خطاب قد رفض طلبه بتخفيض مبلغ التزام هذه الضرائب فانه قبل الالتزام نظرا لما كان يتوقعه من فائدة ولانه كان هو بالذات ممتهنا لهذا الالتزام وغيره . وحصل مع ذلك على تسهيلات في دفع الضرائب ، اذ أعفي من دفع أي مبلغ في الاشهر الثلاثة الاولى من سنة الالتزام على ان يقسط كامل المبلغ على الاشهر التسعة الباقية ويدفع قسط كل شهر في نهايته(٥٤) .

ومما يجدر ذكره ان عبد القادر خطاب هذا حين توفي بعد سنوات قليلة وحصرت ثروته من قبل القسام العربي بتاريخ منتصف ربيع الاول ١٢٦٥/ (٨ شباط ١٨٤٩)، تبين أن مجموع ثروته هو ٤٠١ر١٩٥ قرشا ، بعضها كان ديونا لقاء ثمن جمال وكدش لم يستوفها ، وبعضها ديون مدفوعة له ، وبعضها ثمن امتعة وممتلكات اخرى . وحين اقتطعت الرسوم والنفقات المترتبة على وفاته والبالغة ١٦ر٦٥٦ قرشا وثلاثة أرباع القرش ، بقي من ثروته ٣٨٤ر٥٣٨ قرشا ونصف القرش . وقد حجزت خزينة الدولة كامل هذا المبلغ لان تركة المتوفي مغرقة بالديون الميرية للدولة . ولم تستفد نساؤه الاربع وأولاده من ثروته ، ولكن بقيت الدار المقدرة قيمتها بـ ١٠٠ الف قرش بين الورثة(٥٥).

ونجم عن شدة منافسة البضائع الاجنبية للبضائع المحلية وتحول التجار الاجانب عن اسلوب المقايضة في السلع ، الذي اعتمدوه قبل قيام الثورة الصناعية ، الى بيع منتجاتهم بالعملة الذهبية(٥٦) ، ومعظمها أوربي ، وانهيار قيمة العملة المحلية الفضية وكثرة فرض الضرائب على الاهلين من قبل السلطات الحاكمة ، ان عمت الفوضى في الحياة الاقتصادية المحلية لصالح الراسمالية الاوربية .

وكانت كثرة أنواع العملات المتداولة في دمشق ، من محلية واجنبية ، وذهبية

وفضية ونحاسية ، واختلاف اسعارها ، عامل فوضى في التعامل التجاري . فالوحدة المحلية المتداولة كانت القرش الفضي الذي يوصف بانه صاغ وصحيح وميري، ويقسم الى اربعين مصرية ، او بارة ، اما العملات الاخرى فبعضها من بقايا الحكم المصري وبعضها الاخر عثماني يحمل اسماء بعض السلاطين ، وبعضها اوربي متنوع يشاراليه باسم الدولة التي اصدرته أو بالعلامة التي يحملها ، وباستعراض قيمة بعض العملات المتداولة الرئيسية ، من اجنبية ومحلية ، خلال سنتين، يتبين مـدى ازدياد قيمـة العملات الاجنبية منها بالنسبة لوحدة التعامل الرئيسـية ، وهي القرش الفضي الصحيح الميري .

السنة	ليرة مجيدية	ليرة مصرية	ليرة فرنساوية	ليرة انكليزية	ليرةموسكوفية
١٢٧٤هـ/(٥٧) ١٨٥٧	١١١قرشا	١٢٥	٩٥ر٥	١٢٠	٩٧ر٥
١٢٧٦هـ/(٥٨) ١٨٥٩	١١١ر٥	١٢٦	٩٨ر٥	١٢٤	١٠٠

	قرانيصة	ريال شوشة(٥٩)	ريال سينكو(٦٠)	ريال مجيدي	ريال فنس	بشلك
١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧	٥٧ر٥	٢٦ر٥	١٤ر٢٥	٢٢ر٥	١٩ر٥	٥ر٥
١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩	٥٧ر٥	٢٥ر٧٥	٢٤ر٥٠	٢٢	١٩ر٥	٥

نلاحظ من هذه القائمة انتشار العملات الذهبيـة الاجنبية وارتفـاع اسعارها بالمقارنة مع العملات العثمانية والمحلية ، وكذلك ارتفاع سعر الليرة الانكليزية بالنسبة للعملات الاخرى . وهذا دليل على سيطرة الراسمالية الاوربية ، وبخاصة البريطانية، على السوق المحلية . وبلغ من الثقة بالعملات الاجنبيـة ان معظم تركات المتوفـين الميسورين ، اذا ما احتوت على نقود ، كانت معظم تلك النقود بالعملات الاجنبية .ومن الطبيعي ان يحدث هذا نظرا لكثرةالعملات العثمانية والمحلية المتراكمةمن عهود مختلفة، كمايستدل من اسمائها ، وتبدل اوزانها ، والتلاعب فيها ، وانعدام الثقة بها .وكانت اسعارها اما ثابتة او بتراجع مما لا يشجع على اقتنائها وادخارها ، بالمقارنة معالعملات

الاجنبية . وضمت القائمة الاولى من عام ١٢٧٤/ ١٨٥٧ بالاضافة الى ما ذكرنا ، فئات النقود التالية المتداولة : ذهب عتيق ٦٠ قرشا ، التنك ٥ر٦ ، قمريات ؟. وفي القائمة الثانية من عام ١٢٧٦/١٨٥٩ ذكرت العملات الاضافية التالية : دبلون ٤٠ قرشا ، قرانيصة مربع ٢٥ ، حجر ٥ر٥٦ ، بيشلي قديم ٢٠ ، عامود(٦١) ٧٥ر٢٧ ، ربع فنس ٧٥ر٤ قروش وخمس مصريات او بارات ، فرنك ٤ قروش وخمس مصريات ، ربع فرنك ٥ر٣ ، جهادي صحيح وازنه ١١٢ ، نصف جهادي طري ٥٠ ، نصف جهادي يابس ٣٩، غازي قديم وازن ٣٧ ، ممدوحي وازن ٢٨ ، ربعية جنزرلية ١٥ ، ليرة مجيدية مبخوشة ١٠٩ ، مجيدي مبخوش ٥ر٢١ .

واذا ما أجرينا مقارنة بين نسبة ازدياد قيمة الليرات الاوربية خلال سنتين (١٢٧٤-١٢٧٦/ ١٨٥٧-١٨٥٩) ، والتي بلغت حوالي٣٪ ، ونسبة ازدياد قيمة العملة العثمانية الذهبية بالنسبة للقرش الفضي ، لتبين لنا انخفاض قيمة القرش بالنسبة للذهب . ونظرا لاختلاف تسميات العملات بين فترة واخرى ، نأخذ مثال الغازي القديم ، الذي يبدو ان تسميته لم تتغير. فقد ضرب الغازي القديم عام١٢٢٣/ ١٨٠٨ - ١٨٠٩ فيعهد السلطان محمود الثاني ، وكان عيار ذهبه ٢٥ر٢١ قيراطا ، وسعره ٢١⅛ قرشا . وسعّر رسميا في دمشق في١٨ نيسان ١٨٨٣،ابان الحكم المصري، بما يساوي ٢٠ قرشا وخمس بارات(٦٢) . واصبح سعره في عام ١٢٧٦/١٨٥٩ مايعادل ٣٧ قرشا ، اي ان سعره ازداد خلال واحد وعشرين عاما ١٦ قرشا وخمس وثلاثين بارة . وهذا دليل علىانهيار قيمة الوحدة النقدية الفضية ، وهي القرش بالنسبة للذهب ، بنسبة تقدر بحوالي ٥٤٪ .

ومما زاد في الضائقة المالية لدى افراد الشعب فرض الدولة ضرائب اضافية ، أهمها ضريبة الاعانة التي فرضتها الدولة في عام ١٨٣٤ . وجبيت الاعانة من دمشق بفرضها جماعيا على كل ثمن من اثمان المدينة . وكذلك فرضت جماعيا على القرى . وجبيت الاعانة من الافراد الذكور حسب وضعهم المالي ، واعفي منها ، كليا او جزئيا، من ثبت فقره .وطولب الافراد بدفع الاعانة في أماكن اقامتهم لا في محلات عملهم . واعفي من الاعانة بعض الفئات ، مثل العسكريين وملتزمي الضرائب ، وسكان القرى الخربة . ومن الامثلة المتوافرة لدينا ، نلاحظ ان مبلغ الاعانة قد راوح ، في حواليعام ١٨٤٥ ، ما بين مائة وخمسمائة قرش على الفرد الواحد ، ولجأ البعض الى الاحتماء بالقنصليات الاجنبية لتحاشي دفع الاعانة(٦٣). وهناك ارتباك في المصادر حول التمييز بين ضريبة الاعانة وضريبة الفردة . فمن المصادر ما يستخدم الاعانة في مكان الفردة ، التي سبق أن استعملها المصريون اثناء حكمهم كضريبة على الافراد ، ثم عاد فظهر استعمالها زمن العثمانيين . ومن المصادرما يجعل الفردة غير الاعانة . وقد زيد مبلغ الفردة على الشخص الواحد في عام ١٨٤٥ الى ٥٠٠ قرش ، في حين انها خفضت على

الفقراء الى حدود ١٥ الى ٣٠ قرشا(٦٤). ويدل هذا التباين في الضريبـة على اتساع الهوة بين الفقراء والاغنياء، وكان ذلك احد عوامل الاضطرابات الاجتماعية ـ الطائفية التي حدثت في حلب في عام ١٨٥٠ ، وفي جبل لبنان ودمشق في عـام ١٨٦٠ ، والتي استغلها اصحاب المصالح ، من فئات محلية وقوى اجنبية ، لصالحهم .

واناخ التجنيد الاجباري بثقله على الاهلين وعطل من فعاليات شبابهم الاقتصادية. وحسب الاوامر الصادرة في عام ١٨٥٠ ، فقد زيد عدد المجندين من سورية عشرة آلاف. ويشكل المجندون ، حسب الاحصاءات المقدرة آنذاك ، نسبة واحد الى احد عشر من الشبان الذين تراوح اعمارهم مابين ٢٠ و ٢٥ سنة . وفيما يلي بعض اعداد المجندين من المناطق السورية في عام ١٨٥٠ : دمشق ١٦٫٨٥٤ مجندا ، حلب ٢٦٫٣٧٤ ، صيدا ٢٤٫٣٣٤ ، طرابلس ٥٫١٦٤ مجندا . وهرب عدد كبير من الشباب من دمشـق الى الجبال لتحاشي التجنيد (٦٥) .

وقد نتج عن هذه العوامل ، وفي طليعتها العامل الاقتصادي الذي تجلى بسيطرة الراسمالية الاوربية على السوق المحلية ، ازدياد حالات الافلاس بـين صغار التجار والحرفيين على حد سواء . ولفتت الافلاسات في مدينة دمشق النظر منذ السنوات الاخيرة من الحكم المصري في بلاد الشام . ومن الذين افلسوا أيضا ملتزمـو الضرائب الجمركية الذين وقعوا في عجز في عام ١٨٣٩ قدر بمائتي الف قرش(٦٦) . وقد وقف القضاء الى جانب المفلسين الذين ثبت عجزهم عن الدفع ، الى حد دفع ببعض المراقبين الاجانب الى القول ان تسامح القضاء مـع المفلسين شجـع على الاكثار مـن حالات الافلاس(٦٧) .

وتوضح الامثلة التالية بعض حالات الافلاس وطرق معالجتها من قبل السلطات . فقد تقدم السيد ابراهيم المالح بتاريخ ٢٩ صفر ١٢٦١/ ٩ اذار ١٨٤٥ بالمعروض التالي: « نعرض لسعادتكم بانه غير خافي المراحم العلية بالاصناف وتأخير احوالهم فعبدكـم رجل دكنجي برقبته أطفال وعيال من قلة الحركة متأخر عليه جانب عن ثمن بضايـع لاربابها وارباابها ما هم صابرين مرادهم كل من له شي يأخذه بالتمام وهذا شي ما هو متوقع مع عبدكم وما له قدرة عليه ومرادهم كسر سبب عبدكم ومن ذلك يحصل على عبدكم غدر وتتعطل احواله واذا تعطلت احواله فهلك عياله نرجوكم احالت المادة الى ديوان التجار ومن بعد الوقوف يعملوا لعبدكم رابطة موافقة لاداء المطلوب بالذي يمشي به الحال من دون مغدورية على احد واغتنام دعانا والامر امركم افندم » . وفي التقرير الذي قام به محمد بك عصمة زاده ، بمعرفة التجار ارباب الديون ، تبين له وللسلطات حقيقة أمر المستدعي « فعمومهم قرروا بعجزه وتأخير حاله فحصل جرد دكانه بحضور

بعض ديانته فوجد له موجودات بدكانه مع جارية سودة كانت بداره وضعها مع الموجودات وحررنا قايمة بالديون التي عليه وتخمين موجوداته فبلغ القرش نصف عبارة عن عشرين بارة فاقتضى تحرير هذا الخطاب لكي نستعلم من الديانة عن الذي يقبل اخذ النصف الموجود ويسمح بالباقي كما ذكر واما يأخذ النصف ويعطي مهلة بالنصف المتأخر مدة ستة سنين عن ستة اقساط يدفع قسط واحد وابتدا تناوله بعد سنتين من تاريخه حيث ما بقي بيده مال يستعين منه الوفا وصارة يده فارغة من الرسمال فينبغي تحرير المجاوبة عما ذكر لنعرض كيفية الجواب لطرف المجلس حسب الاصول » . وقد اجاب ارباب الديون بانهم يقبلون قبض النصف ويبقى النصف الاخر ، باستثناء دائن واحد قبل قبض النصف وسمح ، أي تنازل ، عن النصف الباقي ، وقبلت السلطات بذلك وخيرت بقية الدائنين الذين لم يحضروا بان يحذواحذو هؤلاء والا ترتب عليهم اقامة البينة على يسار صاحب المعروض . وحسمت القضيةعلى هذا الشكل بتاريخ ٤ شعبان ٦/١٢٦١ تشرين الاول ١٨٤٥(٦٨) .

والجانب الهام في هذه القضية هوية الدائنين ، الذين ضموا ، حسب تسلسل ورود اسمائهم ، حنا زريفة ، فتح الله طراد ، الحاج محمد ابو رشيد ، السيد محمد الادلبي ، السيد ابراهيم الدقر ، جرجس عنحوري ، محمد انيس قصاب حسن ، الحاج سليم اغا (الذي سمح بالنصف الباقي) ، الياس مخشن ، الشيخ سعيد متوليقطنا ، السيد صلاح القتلان ، الخواجة نقولا خباز ، وابراهيم التركريتي . ولم تذكر مبالغ الديون التي كانت لكل واحد من هؤلاء ولا نوعيتها ، أو فائدتها او مدتها . وكان السيد ابراهيم المالح قد أشار في معروضه الى أن الديون التي بذمته هي ثمن بضائع لاربابها ، مما يدل على أن هؤلاء الدائنين هم من التجار الذين قدموا ، كما يرجح ، البضائع للسيد ابراهيم المالح على ان يدفع ثمنها فيما بعد . وليس هناكدليل على نوعية البضائع التي تعامل بها المدين والدائنون . ولكن وجود اربعة من المسيحيين بين الدائنين ، وربما خامس هو فتح الله طراد ، الى جانب ثمانية ، أو تسعة ، من المسلمين امر له دلالته، لانه يظهر القاسم المشترك الذيجمع هؤلاء في التجارة وغيرها ، وكذلك التعامل على قدم المساواة في عقد الديون وتحمل نتائجها . ويتبين أيضا من كون اثنين من الدائنين حملا لقب « الحاج » وآخر « الشيخ » ، وثلاثة لقب «السيد»، وربماكانوا من الاشراف ، ان طائفة التجار لم تكن مقتصرة على فئة معينة من الناس ، وان مهنة التجارة صهرت وقربت بين الناس على اختلاف مذاهبهم ومستوياتهم الاجتماعية .

وفي قضية أخرى نظرت السلطات في الديون المترتبة على أحد الصناع ، وربما كان يعمل في اعداد مواد البناء. وبالاتفاق مع دائنيه قرر معظمهم اخذ ربع ما هو مدين

بـه لهم وأبرأوا ذمته من الباقي ، في حين ابرأ البعض ذمته من الدين كاملا (٦٩) .

وهناك عدة قضايا تدل على الازمات التي اخذت تعاني منها ، بخاصة ، الحرف التي كانت تساهم في تصنيع الاقمشة . من ذلك معروض حسن بن حسين الصباغ الى السلطات في دمشق ومضمونه : « يعرض عبدكم اني صباغ وابي صباغ وجدي صباغ ولنا قدمه بصبغ نيل واحمر واخضر والان ظهر بصمجية متعلقين على صباغ الاحمر من نحو عشرة سنوات ولم احد مانعهم والان يريدوا يمنعونا من كارنا وكار ابونا وجدنا ونحن فقرا واصحاب اعيال وعلينا مال مكسور الى اربابه ويقولوا لنا شاركونا وبطل شغل النيل والا لم يخلونا نشتغل والامر امركم » . وقد رات السلطات بتاريخ ١٦ جمادى الثانية ١٢٦١ / ٢٢ حزيران ١٨٤٥ « ان مقدم المعروض رجـل فقـير الحـال ومعارضته وممانعته من تعاطي أسبابه غير موافق لكون ان اليد الواحدة ممنوعـة بالوجه الشرعي والعرفي فيقتضي عدم المعارضة في تعاطي أسبابه » (٧٠) . ويتبين من هذه القضية أن احد اساسيات العمل الحرفي ، وهي توزيع العمل والتخصص فيه ، قد انتهكت آنذاك حين سلب احدهم الصباغة باللون الاحمر لعدة سنوات ، وأريد سلبه بعد ذلك الصباغة باللون النيلي ، من قبل أناس ليسوا من المهنة (متعلقين) . وهذا الاعتداء على التخصص يدل على أن مرابح هذه المهنة لم تعد كافية ، لذا عمد البعض الى تجميع اكبر عدد ممكن من التخصصات الحرفيـة في ايديهم . وجـاءت السلطات لتدعم تقاليد العمل المتعارف عليها .

وفي قضيتين اخريين ، احداهمـا تقدم بها اليهود من طائفة غسـالي القماش ، والثانية رفعها طباع فقير « يطبـع القماش » في عام ١٢٦١ / ١٨٤٥ ، بـرز خلاف بين المعلمين والصناع في هاتين الحرفتين حول أجور الصناع . ولم تقف السلطات الى جانب أي من الفريقين ، بل تركت لكل حرفة حل خلافاتها بنفسها (٧١) . وهذا دليل، من ناحية ، على استقلالية الطائفة المهنية تجاه الدولة ، وعدم تدخل هذه الاخيرة في شؤونها . ومن ناحية ثانية ، فان اثارة الخلافات حول الاجور بين المعلمين والصناع ، في هذه الطوائف الحرفية بالذات التي عملت في تصنيع الاقمشة ، دليل آخر علـى الضائقة التي اخذت تعاني منها الاقمشة المحلية التـي تعرضت لمنافسة البضائع الاجنبية . والمعروف أن المعلمين في الحرفة ، وهم الذين يحق لهم افتتاح الدكاكين والمشاغل ، يحاولون في أوقات الضيق الاقتصادي أن يقللوا من اجرة الصناع لتلافي الخسارة ، او لتفادي التقليل من ارباحهم . وليس هذان المثالان الا شاهدين على حالة عامة من الشقاق ضمن الطوائف الحرفية ، وبخاصة منها التي تتعاطى صناعة الاقمشة التي تهددت مصالحها بفعل المنافسة الاوربية . وقد اشار الياس قدسي ، الذي كتب

في عام ١٨٨٣ عن الحرف الدمشقية ، الى « الثورات التي تحدث من الفعلة على المعلمين بطلب تزيد الاجرة (ويعبرون عنها بقولهم « الكار قالع » أي ثائر) »(٧٢) .

ونستدل من هذا ان الضائقة المالية التي لحقت بالحرف قد أزّمت العلاقة بين الصناع والمعلمين الى الحد الذي وصف به أحتجاج الصناع بأنه ثورة . وفي هذا ملامح صراع طبقي في مجتمع بدأت تتسرب اليه الراسمالية الغربية وتهز أسسه التقليدية المتوازنة وتسهم في ايجاد الفوارق في الثروة بين المنتجين والمستهلكين . ولم يكن ، في الاقتصاد الحرفي التقليدي ، تباين كبير في الثروات بين المعلمين في اية مهنة، أو بينهم وبين الصناع . ويلاحظ في تصنيع الاقمشة مثلا ان المشاغل كانت فردية ومتواضعة ، ولم يزد عدد الانوال في أي منها ، كما يتبين من معظم سجلات الوثائق الشرعية ، عن أحد عشر نولا . وضم معظمها بين نولين وأربعة انوال . ومردود هذه الانوال المعتدل يوزع بشكل مقبول أرباحا للمعلمين وأجورا للصناع . ولكن المجابهة مع الصناعة الاوربية لم تضعف الصناعة المحلية فحسب بل زادت من التناقضات الاجتماعية حتى داخل الحرفة الواحدة ، وأصبح الحرفيون الفقراء عنصر عدم استقرار سياسي واجتماعي في دمشق .

ومن الامثلة البارزة التي تجلى فيها الاثر المدمر للاقتصاد الاوربي على الاقتصاد المحلي التقليدي ما حدث لانتاج قماش الالاجه الفاخر في دمشق . وكانت الالاجه ، الى جانب قماش القطني ، اهم نسيجين في دمشق . وتختلف نسبة الحرير في كل منهما : ولكنهما يشتركان في انتاج النسيج المقلم ، وفي تسويق هذا القماش على شكل قطع أو اثواب ، طول الثوب منها في الغالب ، كما قدر في حوالي ١٨٦٣(٧٣) ، (٦٠ر٥) أمتار ، بعرض (٧٠) سم . وقدر مصدر آخر طولها بتسعة أذرع أو تسعة وربع ، وذلك قبل غسلها ودقها وكبسها (٧٤) . ولا يعرف هنا بدقة طول الذراع المستخدم ، ولا يمكن حسابه على أساس التقدير بالامتار لان عمليات الغسل والدق والكبس ستعدل من الطول المذكور ، وكان ربع كل ثوب من الالاجه والقطني مصنوعا من الساتان ، وبقية الثوب في القطني مصنعة من الحرير في اللحمة ومن القطن في السدى. اما ثوب الالاجة فبقية الثوب مصنعة من القطن في اللحمة ومن الحرير في السدى ،اي ان نسبة الحرير فيه هي الغالبة(٥٧) ، وبالتالي كان سعره مرتفعا ، ولا يتمكن من شرائه الا القادرون .

وقد قدر عدد الانوال التي كانت تنسج قماش القطني في دمشق عام ١٨٥٠ بـ٦٥٣ نولا تستخدم ٦٥٣ رجلا و ٣٠٠ ولد . وبلغ عدد انوال الالاجه آنذاك ١٠١٣ نولا تستخدم ١٠١٣ رجلا وحوالي ١٣٠٠ ولد . وانتجت هذه الانوال بمجموعها ما يقرب

من (٢٢٠ الى ٢٣٠) الف ثـوب في السنة(٧٦) . وتظهر اعداد الانوال هذه ، وكذلك انتاجها ، عام ١٨٥٠ ، تراجعـا كبيرا عما كان عليه عـدد الانوال وانتاجها في اواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر ابان الحكم المصري . فقد قدّر عدد الانوال التي انتجت القطني والالاجه آنذاك بـ ٤٠٠٠ نول ينتج كل منها في الاسبوع ما بين أربعة الى خمسة اثواب (٧٧) . أي ان انتاجها السنوي يقدر ، على هذا الاساس ، بحوالي ٨٣٢ الف الى ٠٤٠ر١ الف ثوب.

ويـدل هذا التراجـع في الانتـاج على شـدة منافسـة البضائـع الاوربيـة للبضائع الشامية في السوق المحلية . ونظرا لان الاقتصاد المحلي ، بمـواده الخـام والمصنعة ، أصبح يدور في فلك الاقتصاد العالمي ، فان ايـة تبدلات في هذا الاقتصاد الاخير من شأنها ان ترمي بظلالها على الاقتصاد المحلي . وقد حدث مثلا ، في عـام ١٨٥٦ ، أن أصيب انتاج الحرير في أوربا وتركيا بكوارث طبيعية ، فتضاعف سـعر الحرير في بلاد الشام ، وافادت من ذلك صناعة الاقمشة الحريرية المحلية فزادت من أنوالها ، وبالتالي من انتاجها . وبلغ عدد الانوال في ذلك العام ٢٨٠٠ نول أنتجت حوالي ١٢٠ ألف ثوب من القطني و٢١٠ الاف ثوب من الالاجه ومن نسيج آخر مشابه ، عرف بالصوراتي . وسوّق نصف هذه الاثواب في حلب وازمير واستانبول وآسيا الصغرى، وسوق ثمنها في بغداد ومكة ، ومثل ذلك في دمشق وصيدا (٧٨) .

الا أن صناعة الاقمشة الحريرية والقطنية في دمشق لم تلبث ان انتكست ، وخلال اربع سنوات ، من جديد . فقد ازداد سعر الحرير عالميا بمعدل ٥٠٪ ، كما زادت الحكومة العثمانيةمن الضرائب الجمركية على الاقمشة المحلية وموادها الاولية . ففي العهد المصري لم تفرض اية ضريبة على المواد الاولية الداخلة الى دمشق من القـرى المجاورة ومن لبنان ، كما ان الانسجة الحريرية لم تدفع ضريبة حـين تصديرها مـن دمشق . وبعودة الحكم العثماني فرض على الحرير عند دخوله دمشق ضريبة قدرها ١٢٪ من قيمته ، كما توجب على الاقمشة المصدرة منها ان تدفع حوالـي ٥ الى ٦٪ من سعر القطعة . وعلق القنصل الفرنسي في دمشق على ذلك ، في أوائل عام ١٨٦٠ ، انه نظرا لهذه الاحوال فقد توقف عدد كبير من الانوال عن العمل (٧٩) .

وكانت الكارثة الرئيسية التي المت بصناعة النسيج في دمشق وانقصت انتاجهـا الى النصف تقريبا ، الاضطرابات الاجتماعية التي حدثت في عام ١٨٦٠ . فقد احرق أو تعطل انتاج عدد كبير من الانوال ، وقدّر عدد ما بقي منها في أواخر عـام ١٨٦٢ بحوالي ٣٠٠ نول (٨٠) . ثم عادت الحركة الصناعية في دمشق الى الانتعاش حين عاد

اليها عدد كبير من الحرفيين المسيحيين الذين لجأوا الى لبنان (٨١) ، في حين استوطن الباقون بيروت والقاهرة والاسكندرية واسهموا في تطوير اقتصاديات هذه المدن .

وتنعكس الازمات التي مرت بها الصناعة الدمشقية ، وبخاصة صناعة الاقمشة ، في ارتفاع ثمن الانوال وانخفاضها ، وتكرار بيعها في أوقات الكساد . وكانت أكثر الانوال طرحا في السوق انوال الالاجه نظرا لكلفة انتاجها المرتفعة وصعوبة تسويق أثوابها الفاخرة بين الاهالي الذين كانوا يزدادون فقرا بغالبيتهم العظمى . ويرتبط بالانوال مصير المشاغل التي اقيمت فيها ، وكذلك مصير الدكاكين التي سوقت انتاجها . ولذلك طرحت للبيع أيضا المشاغل والدكاكين التي تنتج او تسوق الالاجه باكثر من غيرها . وعلى غرار أسعار الانوال ، تبدلت أسعار شغل هذه المشاغل والدكاكين ، ارتفاعا أو انخفاضا ، بحسب السوق . واستعملت كلمة « كدك » التركية للتعبير عن عدة الدكان ، من انوال أو خزائن أو رفوف ، وغير ذلك . واستعملت كلمة « خلو » العربية للتعبير عن المال الذي يدفع لاشغال المكان ، وهو ما زال ساريا ومتعارفا عليه حتى يومنا هذا . وحين تذكر الكلمتان معا ، كأن يقال ان فلانا اشترى كدك وخلو الدكان ، فان ذلك يعني أنه اشترى العدة وحق استعمالها في مكان تواجدها ، أي حق اشغال ذلك الدكان واستعمال العدة فيه . ويلاحظ انه يمكن بيع أجزاء من الكدك والخلو تقدر بالقيراط ، ووفي هذه الحال يكون البائع قد ورثها ، كما ان النساء كثيرا ما تملكن الكدك والخلو حينا عن طريق الوراثة . وحينا بتوظيف المال المتجمع لديهن ، حين يكون الكدك والخلو لدكان ما ، أو مشغل ، مربحا ، اي ان السلعة التي يبيعها الاول ، او يصنعها الثاني ، رائجة . والقائمة التالية(٨٢) المبينة على سجلات محاكم دمشق الشرعية توضح لنا أسماء مالكي وبائعي الكدك والخلو ، واماكن تواجد المشاغل والدكاكين ، وأسعار بيعها .

* * *

نماذج من عمليات بيع وشراء أدوات وأماكن الانتاج والتسويق والخدمات

التاريخ	المشتري	البائع	كيفية تملك البائع	الحصه المباعة والسلعة	الموقع	الثمن بالقروش
٢٩ ربيع١ ١٢٥٧/ ٢١ ايار ١٨٤١	شمعون الشطاح اليهودي	الشيخ عبد الله افندي الحلبي	بالشراء من المشتري	جميع دكان الصباغة (بناء وادوات)	بمحلة الخراب	٤٥٠٠ر
١٥ ذو القعدة ١٢٥٧/ ١٧ كانون اول ١٨٤١	الحاج محمد الحلبي	السيد مصطفى الفضماني بالوكالة عن حرمه	بالارث	جميع كدك وخلــو المخزن داخل خان الحماصنة	قرب البزورية	٦٥٠
١١ جمادى١ ١٢٥٨/ ٢٠ حزيران ١٨٤٢	المعلم جريس شريفية النصراني بالوكالة عن الحرمة تقلا	جريس اللبان	بالارث	جميع كدك الدكان بخان الكرجية فيها دواليب للفتالة	حارة النصارى	٢١٥٠ر
٨ ربيع١ ١٢٥٩/ ٨ نيسان ١٨٤٣	السيد عمر الرهونجي بالوكالة عن ابنه القاصر	خليل حشيش	بالشراء في ١٢٥٠	جميع كدك وخلو الدكان بخان الدبس وفيها ١١ نول الاجه	محلة القيمرية	٢٠٢٠ر
١٢ ربيع١ ١٢٥٩/ ١٢ نيسان ١٨٤٣	السيد حمزة شحادة	الحاج عرابي ابن السيد يوسف	بالشراء في ١٢٥٠ و ١٢٥٨	جميع الدكان داخل الخان وفيها نولان لنسج المناشف	محلة الشويكة	٣٥٠
٦ رمضان ١٢٥٩/ ٣٠ ايلول ١٨٤٣	عبد الله النديم النصراني بالوكالة عن ولده القاصر	حنا جبارة وشركاه	بالارث	جميع كدك وخلو الدكان بطالع القبة وفيها دولابان للفتالة	حارة القصبة	٢٠٠٠ر

التاريخ	المشتري	البائع	كيفية تملك البائع	الحصة المباعة والسلعة	الموقع	الثمن بالقروش
٢٨ شوال ١٢٥٩ / ٢١ تشرين اول ١٨٤٣	الحاج حودي الحمصي	السيد عبد الغني جبري الوكيل عن حرمة	بالارث	جميع الدكان بزقاق المليحي فيها انوال لنسج الحرير	محلة مأذنة الشحم	١ر١٠٠
٥ محرم ١٢٦٠/ ٢٦ كانون ثاني ١٨٤٤	المعلم باروخ المغربي اليهودي	الشيخ احمد المنجد	بالشراء في ١٢٥٧	جميع كدك وخلو الدكان لصيق بركة السبيل بسوق المنجدين		٧ر٦٠٠
٢٧ رجب ١٢٦٠ / ١٢ آب ١٨٤٤	المعلم الياس شحيرة وكيل المتولي على وقف دير صيدنايا	الخواجة سركيس دبانة بالوكالة	بالارث	جميع عمارة وبناء الدكان وفيها ٤ دواليب فتالة	محلة النصارى	١ر٥٠٠
٢٨ جمادى١ ١٢٦١/ ٤ حزيران ١٨٤٥	السيد حسن جلبي بالوكالة	احمد وحسن ولدي القصاب باشي وغيرهما	بالارث	جميع كدك وخلو دكان اللحامة بسوق راس البزورية	قرب فرن الزين (ثم اجرت ٢٧ قرشا بالسنة)	٩ر٥٠٠
٢١ ربيع٢ ١٢٦١/ ٢٩ نيسان ١٨٤٥	الحاج عبد الفتاح الحمصي بالوكالة عن زوجته	الحاج عمر الاقسماوي	من تعميره	جميع كدك وخلو الدكان المعدة للكنافة	بمحلة سوق القاضي	١ر٢٠٠
١٢ شوال ١٢٦٣/ ٢٣ ايلول ١٨٤٧	الحاج محي الدين البصروي	الحرمة فاطمة الاركزلي	بالارث	الحصة ١٤ و ٤/٥ قيراط من جميع عمارة وبناء دكان شغل السيوف	محلة الحضرة ظاهر دمشق	١ر٨٢٥

التاريخ	المشتري	البائع	كيفية تملك البائع	الحصة المباعة والسلعة	الموقع	الثمن بالقروش
غرةجمادى١ ١٢٦٤/ ٥ نيسان ١٨٤٨	الحاج حسين الانقود	الحاج محمد الريحاوي	بالشراء في ١٢٦١	جميع كدك وخلو الدكان وفيها٦ انوال الاجه	بمحلة الجورة داخل خان	٥٠٠
١٤ رجب ١٢٦٥/ ٥ حزيران ١٨٤٩	احمد افندي الاسلامبولي	عيدي افندي الكردي	بالشراء في ١٢٦١	جميع الدكان وفيه ٨ انوال الاجه	بمحلة باب مصلى بزقاق المخللاتي	٣ر٥٠٠
غرة ربيع١ ١٢٧٣/ ٣٠ تشرين١ ١٨٥٦	الخواجه ابراهيم صيدناوي	الخواجة حنا فارس	بالشراء في ١٢٧٢	١٢ قيراط من جميع كدك وخلو الدكان وفيها ٧ انوال لنسج الالاجا والكريشة وغيرها	بمحلة طالع القبة داخل خان الحمام	٥٠٠
ختام ربيع١ ١٢٧٥/ ٧تشرين٢ ١٨٥٨/	الخواجة ميخائيل الطوى والخواجة انطون الطوى	السيد حامد جلبي بالوكالة عن حرمة	بالشراء في ١٢٦٨	جميع عمارة وبناء الدكان وفيها ٥ انوال الاجه	خان عيسي القاري	٣ر٢٠٠
٦ القعدة ١٢٧٥/ ٧ حزيران ١٨٥٩	السيد درويش الروماني	الخواجة ابراهيم الزبال	بالشراء في ١٢٦٨	جميع عدة دكان الفتالة وفيها ٣ دواليب وتوابعهم	محلة الخراب بخان الجاموس	٤٦٠٠
٢٧ شوال ١٢٧٧/ ٨ ايار ١٨٦١	الخواجة حنا الفتال العيساوي	الخواجة يوسف البيطار العيساوي	بالشراء في ١٢٧٠	الحصة ١٢ قيراط من جميع كدك وعدة الدكان وفيه٣دواليب لفتل الحرير	بمحلة باب توما بخان بين العمارين	٧٥٠

نلاحظ في هذه القائمة اثباتها هوية كل من البائع والشاري ، وكذلك انتقال السلع بين مختلف الطوائف . وضمت القائمة مبيعات تتعلق بغير صناعة الاقمشة ، للمقارنة بين اسعار مختلف الخدمات والبضائع في مدى عشرين عاما . وتظهر القائمة كذلك اماكن تواجد الفعاليات الاقتصادية وحجمها وتوزعها على مختلف احياء المدينة وخاناتها . ويدل هذا على عدم وجود مناطق صناعية تختص كل منها بانتاج نوع معين من السلع ، اي ان انتاج السلع كان يتم غالبا في خانات ودكاكين متفرقة في انحاء المدينة .

وبينت القائمة كيفية تملك البائع للمرفق المبيع ، وما اذا كان قد آل اليه عن طريق الارث او بالشراء . ولو ذكرت الوثائق سعر الشراء الذي دفعه المالك ، الى جانب تاريخ حجة البيع التي ذكرت في حالات كثيرة ، لامكننا معرفة نسبة سعر المبيع الوارد في القائمة الى سعر الشراء . ويلاحظ ورود اسماء بعض النساء والقاصرين بين الشارين بواسطة وكلاء عنهن ، وأوصياء عنهم ، مما يدل على توظيف أموال النساء والقاصرين في عقارات أو مصالح تجارية .

ان كثرة طرح أنوال الالاجه للبيع ، خلال السنوات العشرين التي غطتها القائمة، وبيع بعض مالكيها لها بعد سنوات قليلة من شرائها ، يبين المصاعب التي اعترضت تسويق هذا النسيج ، بالمقارنة مع غيره من المنسوجات الارخص ، كالقطني مثلا .

وقد لخص مراقب فرنسي يدعى غوستاف روبان (Gustave Robin) في تقرير له من دمشق بتاريخ ١٩ تشرين الاول ١٨٦٩(٨٣) ، الوضع التجاري والصناعي في المدينة ومقدار ما عانته الصناعة الدمشقية والشعب ، تحت تأثير الرأسمالية الاوربية بقوله: أن الصناعات التي اسهمت في السابق في غنى دمشق وشهرتها قد اندثر بعضها ، وبعضها الاخر في طريق الاندثار ، والاهالي الذين يزدادون فقرا كل يوم لا يطلبون من أوربا الا منتجاتها السيئة ، ويغلقون اسواقهم في وجه معظم المستوردات الفرنسية . وربما تجدر الاشارة هنا الى سيطرة البضائع الانكليزية وغيرها من البضائع الاوربية . وفي قائمة الواردات والصادرات التي ارفقها غوستاف روبان بنهاية تقريره، جاء ان وزن الاقمشة التي نقلت من بيروت الى دمشق في عام ١٨٦٨ بلغ ٨٢٤ر٣٥٢ اوقة (الاوقة تعادل آنذاك ٢٨٢ر١ كغ) أي ما يعادل ٣٢٠ر٤٥٢ كيلو غراما ، في حين كان وزن ما نقل من دمشق الى بيروت ٣٠٥ر١٠٩ كغ . واحتلت الاقمشة المرتبة الثالثة ، بعد الرز والسكر ،في قائمة المستوردات من بيروت الى دمشق ، وشغلت المرتبة الرابعة في قائمة الصادرات بعد الدقيق والصوف والاصبغة ، مع النظر بعين الاعتبار الى الفارق الكبير بين الكميتين .

موقف الصناعة الدمشقية من التحدي الاوربي

أدت منافسة البضائع الاوربية للبضائع المحلية الى حـدوث تطورات هامـة في التمويل والتصنيع وفي العلاقات التجارية المحلية . وقد قاومت بعض الصناعات المحلية اي تغيير في بنيتها ، ولم تستطع المنتجات الاوربية أن تحـل محلها ، بتأثـير العادات الاجتماعية المرتبطة بها . وكمثال على الصناعات المحلية التي لم تندثر صناعـة فوط الحمامات التي ظلت رائجة مادام استعمال الحمامات قائما(٨٤) .

ولما كان الاقتصاد التقليدي يقوم ، في الغالب، على المبادرة الفردية في العمل ، والمشاغل والدكاكين التي تحوى الانوال او أدوات الانتاج الاخرى في ملكية الافـراد ، فقد حدث تطور جديد تحت ضغط المنافسة الاوربية تجلى في الشركة ، أو الشراكة ، في العمل . والهدف من ذلك زيادة رأس المال الموظف للتمكن من انتاج سلعة جيدةبسعر معتدل . ومثال ذلك ما رواه نعمان القسـاطلي الدمشقي في أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر بقوله : « أما الآن فقد نكبت صنائع دمشق أعظم نكبة ولاسيما صنعـة النسيج لسبب غلاء الحرير وكثرة انتشار البضائع الافرنجية مع عدم متانتها . وهـذا مما دعا الحاذق السيد عبد المجيد الاصفر ان يقلد الالاجهبالغزلليتمكن ابناء الوطن من استعماله ولضيق ذات يده انضم الى السـيد حسن الخانجي فأمده . وبعد الجهد نال مراده وراج عمله بين الخاص والعام واقتدى به بعض العملةوزادوا عمله اتقانا فاضحى نسيج الديما صناعة مهمة يتعيش بها الو ف »(٨٥) .

وقد شاع هذا الاتجاه نحو (الشراكة) في العمل بغية تأمين رأسمال أكبر لمقاومة المنافسة ، المحلية والاوربية ، وتحقيق الجودة في الانتاج ، والحصول، في الوقت نفسه، على أرباح أكبر . ومن مزايا هذه الشراكة انها لم تكن مغلقة طائفيا بل ضمت اناسـا من مختلف المذاهب .

وفي ميدان الشراكة المساهمة في الانتاج فقد ذكر القسـاطلي ان بعض اعيان دمشق اجتمعوا في عام ١٨٦٠ وأقاموا كرخانة* تدير آلاتها المياه لغزلالقطن ، وانفقوا عليهـا مالا كثيرا . وبعد صعوبات كثيرة ، توقف خلالها الانتاج لعدم حسن الغـزل ، عادت الكرخانة الى العمل . وكانت تغزل في كل يوم نحو ستين رطلا من القطن(٨٦) .

---

* التعبير مشتق من الكلمتين التركيتين الفارسيتي الاصل كار (kar) وتعني حرفة ، وخانة (hane) وتعني المكان . وتعنيان معا المشغل أو المعمل *

وحاولت صناعات محلية كثيرة التأقلم مع المؤثرات الاجنبية ، فظهرت عدة صناعات يظهر فيها اللون المحلي والاثر الاوربي في آن واحد . ومنها ما نجح في تقليد البضاعة الاوربية ووصل الى حد التفوق عليها . وقد ذكر القساطلي ان رجلا من بيت مرتضى استنبط « شكلا جديدا منقوشا نقشا جميلا فراج كثيرا ثم تبعه السيد درويش الروماني وقلد القلاووظ الافرنجي المعرق بمساعدة الخواجة جرجي ماشطة على ان النساء أبين لبسه لانه غير مشرف بوسام أفرنجي فعدل عن عمله » (٨٧) . ويظهر هذا المثال كيف ان المستهلكين المحليين أخذوا يرتبطون تدريجا بالازياء الاوربية ويمحضونها ثقتهم . وكان هذا تحديا كبيرا للصناعة المحلية التي وجب عليها ان تحافظ على مستوى مناسب من الجودة وان تتأقلم مع الازياء الجديدة لتحظى بثقة المستهلك .

وقد نجح نسيج الديما المحلي في الحصول على ثقة المستهلك ، وفي التأقلم مع الازياء المستجدة . وقد استوعب ادخال تعديلات عليه ليتفق ولبس البنطلون (الكلمة مأخوذة عن الفرنسية وهي ايطالية الاصل) . وكان صاحب المبادرة في ادخال هذه التعديلات الخواجة يوسف الخوام الذي رأى « انصباب القوم على لبس البنطلون واحتياجهم الى نسيج خفيف يناسب الصيف فغير وزاد في نول الديما واتى بنسيج احسن من النسج الافرنجية وارخص فنال ثناء الجميع »(٨٨) . ومن منطلق الحرص على الصناعة المحلية ورواجها ، علق القساطلي ، بروح من الالتزام بالمصلحة الوطنية ، على عمل يوسف الخوام بقوله : « ولو اهتم جميع الصناع اهتمامه في اصلاح صنائعهم لفازوا واغنوا البلاد عن النسج الافرنجية في برهة وجيزة »(٨٩) .

ولم تقف الصناعات الدمشقية عند تقليد الصناعات الاوربية والتلاؤم معها ، بل املت في تصدير منتجاتها الارخص سعرا الى اوربا لمصلحة المستهلكين من ذوي الدخل المحدود . لقد استورد عبد الله بولاد الدمشقي ، قبيل عام ١٨٦٠ ، نولا من فرنسا لصناعة « الجاكار Jacquard » ، باستطاعته ادخال الوان متعددة ومتشابكة في النسيج . والتسمية بالنسبة الى الفرنسي J. M. Jacquard (١٧٥٢ — ١٨٣٤) الذي اخترع هذا النول . وبعد سنوات من التجربة اثبت فيها النول المستورد مقدرته على انتاج النسيج باشكال متعددة ، استورد عبد الله بولاد نولين آخرين ، مما مكنه من زيادة الانتاج بأشكال وحجوم مختلفة . ولكن اضطرابات عام ١٨٦٠ أدت الى حرق انواله مما ادى بالسيد بولاد الى اليأس . وذكر ان عشرة انوال من النوع نفسه كانت تعمل في دير القمر في الوقت ذاته ثم تناقص عددها (٩٠) . وبالرغم من ان تجربة عبد الله بولاد انتهت الى الفشل في دمشق ، الا انها كانت تجربة رائدة في استخدام الانوال الاوربية في الصناعة المحلية لمواجهة المنافسة الاوربية بمثل مستواها .

ومن الصناعات الدمشقية التي قاست من انتشـار الازياء الاوربيـة صناعـة العقادين ، وكان يعمل فيها آنذاك (حوالي عام ١٨٦٣) نحو خمسمائة صانع وخمسين معلما . والعقاد ، كما يقول القاسمي(٩١) «من يحترف في خيطان الحرير والصـوف والقطن والشرايط وغيرها » . وتسوق هذه المنتجات في المدن والارياف على حد سواء . ولكن المنتجات الاجنبية المشابهة اضحت تباع في دكاكين المعلمين مـن العقادين الـى جانب المنتجات المحلية . وضمت المنتجات الاجنبية «الكراكر» ،و « الزنانيرالحريرية»، و « السيم المقصب » ، و « شلل الخيطان » ، واكياسـ حريرية مقصبـة للدراهـم وامثالها(٩٢) . ونظرا لمنافسة المنتجات الاجنبية في العقادة للمنتجات المحلية ، أخذت اعداد العقادين تتضاءل وانتاجهم يخف . ولكنهم وجدوا سوقا رائجـة لمنتجاتهـم في الحجاز(٩٣) .

ومن الصناعات الهامة التي حققت نجاحا كبيرا في دمشق صناعة النجارين . فقد « ضارعوا الاعمال الاوربية وفاقوها اتقانا »(٩٤) كما اشتهرت صناعة الدباغـين . والسراجين ، وصناعة الفواكه المجففة .

وباجراء مقارنة بين ما أنتجته دمشق من مختلف السلع ، في مدى ست عشرة سنة ، كما ورد في ثلاثـة تقارير فرنسية ، مؤرخـة على التوالي في ١٨٦٣ و ١٨٦٩ و ١٨٧٩ ، تتبين لنا الصناعات التي تطورت وتلك التي انحطت في تلك الفترة . فقد جاء في التقرير الاول بتاريخ ٥ آذار ١٨٦٣(٩٥) أنه قبل احداث عام ١٨٦٠ استهلكت دمشق ٣٠٠ كنتال (حوالي ٨٠٠٠ كغ) من الحرير المستورد من جبل لبنان ، ومائة كنتال من حرير الشام والحرير المستورد من بروسه ، وجيورجيا (بلاد الكرج) وفارس . وقدر التقرير ما استهلكته صناعة دمشق من الحرير في عـام ١٨٦٢ بحوالي نصف الكميـة السابقة . ويفسر هذا التناقص بسببين: أولهما هجرةالمسيحيين في أعقاب الاضطرابات، وكانت لهم الاسبقية في صناعة الحرير ، وثانيهما منافسة بضائع حلب ، في الاسـواق الخارجية ، وبخاصة مصر ، لبضائع دمشق الحريرية التي اضعفتها الاضطرابات .

وقد انتجت دمشق ، في عام ١٨٦٢ ، ٢٤ الف ثوب من الانسجة التي تستخدم الحرير والقطن ، وهي الالاجه والقطني . وبيع منها الف ثوب أو قطعة محليا ، وصدر الباقي الى روميلية وآسيا الصغرى ومصر وأزمير وحلب ، وكان سعر قطعة الالاجـه (٥٫٦٠ مترا x ٧٠سم) بين ٢٠ و ٢٥ فرنكا . وهناك نوع آخـر منها أرخص ثمنـا يراوح بين ٩ـ١٣ فرنكا . وبلغ مجموع الانوال التي صنعت هذه الانسجة ١٧٠٠ نول .

ووجد ٥٥٠ نولا تنتج اقمشة قطنية يلبسها الصناع والعمال ، انتجـت في عام

١٨٦٣ ما مجموعه ٢٩٧ ألف ثوب طول واحدهما ٣٠ر٦ امتار وعرضه حوالي ٧٥ سم . وبيع الواحد منها في مطلع عام ١٨٦٣ ما بين ٤و٥ فرنكات ، ثم ارتفع سعره في العام نفسه الى ٦ـ٧ فرنكات بسبب ندرة القطن . ونظرا لغلاء اسعار انتاج هذه الانوال فقد توقف اكثر من مائتي نول منها عن العمل . وكان يعمل في تصنيع هذا النسيج قسم كبير من الجالية الجزائرية بدمشق .

وكان يعمل في صناعة المشالح ذات الالوان المتعددة ٣٠٠ نول . وصنع منها ٣٥ الف مشلح في عام ١٨٦٣ ،استخدم نصفها محليا ، وصدر الباقي الى انحاء سورية ومصر .

ووجد ٣٠٠ نول تنسج كتانا ابيض ، خفيفا وممتلئا يسمى مبروم ، وله سوق رائجة في مصر . وقد صدر اليها ٣٠٠ الف قطعة منه عام ١٨٦٢ . وينسج المبروم بكامله من قبل النساء . وعانى هذا النسيجآنذاك من ندرة القطن ، وتعطل نصف انواله . وتنسجمائة نول آخر نسيجا مشابها ولكنهأكثر سمكا واكتنازا،يستخدم كملابسداخلية للقرويين ، ويشهد التقرير الفرنسي ان هذا النسيج أحسن وأكثر صلابة من الكتان القطني المستورد من أوربا ، وبخاصة انكلترا .

وينسج ٥٠ نولا الشالات التي تقلد برسومها شالات فارس ، واللحمة فيها من الحرير والسدى من القطن . وطول الشالة (٨٠ر٢) مترا وعرضها متر واحد ؛ وسعرها يراوح بين ١٠ ـ ١٢ فرنكا للنوع العادي و ٢٠ـ٢٢ فرنكا للنوع الممتاز الذي يدخل الحرير في سديه . ومن الشالات ما هو مصنوع بكامله من القطن لاستعمال الطبقة الفقيرة وسعر القطعة منه بين ٦ ـ ٧ فرنكات . وثلاثة أرباع الشالات يصدر الى استانبول ومصر وازمير . وقد انتج منها ، عام ١٨٦٢ ، أكثر من ٤٠ الف شالة .

واستعمل في صناعة الكوفيات (الكوفية قماش مربع طول طرفه بين ٧٥ ـ ١٠٠ سم) (٣٠) نولا ، تخصص نصفها بانتاج الكوفية الحرير ، والنصف الآخر بصناعة الكوفية القطن . ويصدر قسم من النوع الاول ، ويستخدم الباقي منه الميسورون . أما الكوفيات القطنية فتباع الى البدو والفلاحين . وسعر الكوفيةمن النوع الاول يراوح بين ٢٠و٣٠ فرنكا ، ومن النوع الثاني ٣ الى ٤ فرنكات .

ويعمل في دمشق ٦٠ نولا تنتج قماش الكريب الحريري على نوعين ، احدهما خيطه مبروم ومن الوان متعددة والاخر انعم بكثير ويصنع من الحرير الابيض او البني . ويعرف هذا النسيج باسم بامبازار ، وابعاد قطعته (٥ر٦) امتار طولا و (٧٥

سم) عرضا ، وتباع الواحدة بين ۲۰ و ۳۰ فرنكا . وانتاجه يصدر بمجموعه تقريبا الى الداخل ، وبخاصة الى نابلس ويافا والقدس وبغداد . ووجد ٥٠ نولا تصنع السجاد والمخدات واقمشة الديوان وغيرها ، وتستخدم الصوف والقطن .

وهناك ٥٠ صائغا يتعاطون صناعة الفضة ،وقد صنعوا ١٠٨٠٠ أوقه (١٣٨٤٥٦٠ر كغ) في عام ١٨٦٢ ، اشترى الفلاحون تسعة أعشارها ، ويتعاطى ثمانية صياغ تصنيع الذهب . وقد صنعوا في عام ١٨٦٢ حوالي ٤٠ أوقة من الذهب (٥١٢٨٠ر كغ) . ويعمل خمسة صياغ في الاحجار والمجوهرات . وتأتي الجواهر في الغالب من استانبول حيث تصنع باتقان .

وتستورد الواح النحاس بكاملها من انكلترا ، وتصنع منها الصحون والطناجر والقناديل وادوات المطبخ . ووجد في دمشق ٦٠ الى ٧٠ نحاسا و ٦ مروبصين . وقد صدروا في عام ١٨٦٢ ما قيمته ٥٠٠٠٠٠ قرش (١٢٥٠٠٠ر فرنك)،الى داخل سورية بما في ذلك الى البدو .وتمتاز دمشق بتطعيم النحاس بالفضة ، ولكن أصحاب هذه الحرفة تضاءل عددهم ، ومن بقي منهم طلب اجورا عالية .

ومنذ ان بدأت اوربا بتصدير الادوات الحديدية الى سورية تضاءلت اهمية الحدادين المحليين وقل عددهم ، ولم يبق منهم في دمشق أكثر من مائة حداد ، يصنعون السكك والفؤوس والمجارف والمسامير . وأكثر الحدادين عملا أولائك الذين يصنعون نضوات (نعال) الخيل ، وبالرغم من استيراد كميات من هذه النضوات من لبنان ، فان عدد ما صدر منها الى الداخل قدر سعره بـ ٢٠٠٠٠٠ قرش (٥٠٠٠٠ر فرنك)، ويؤكد القساطلي انحطاط مهنة الحدادة بقوله : « وأما الحدادون فاعمالهم متأخرة ».

وكان يعمل في مهنة السروجية في دمشق حوالي ٥٠٠ صانع ، يصنعون عدة أنواع من السروج واللجم والرسن والحياصات . وقد بلغت هذه الصناعة حدا كبيرا من الاتقان ، وتشكل منتجاتها قسما كبيرا من صادرات دمشق .وكانت قيمة ما صدر منها في عام١٨٦٢ تزيد على ١٨٠٠٠٠٠ر قرش (٤٥٠٠٠٠ر فرنك) . وقدرت الكميات التي بيعت داخل ولاية سورية ، وللبدو ، بأكثر من ١٢٠٠٠٠٠ر قرش .

ووجد في دمشق اكثر من الف صانع للاحذية (كندرجي) . وقسم من الجلد الذي يصنعونه ينتج فيدمشق ، وكان من نوعية ممتازة ،والباقي يستورد من انطاكية ومدن اخرى في اسيا . وازدهرت صناعة القباقيب التي تستعملها النساء داخل البيوت . وللخروج في الجو السيء . وكان يعمل بها ٢٠٠ صانع يصدر نصف انتاجهم الى مصر، وحلب .وقدر ثمن ما صدر منها عام ١٨٦٢ بـ ١٢٠٠٠٠٠ر قرش .

وفقدت صناعة السلاح الابيض التي اشتهرت بها دمشق في السابق ، الكثير من

اهميتها . فوجد معلم واحد يصنع نصال السيوف العادية ، وبعض الصناع الذين يصنعون الخناجر . وقد صنع ٢٠٠٠٠ خنجر عام ١٨٦٢ ، يراوح سعر الواحد منها بين ٥ ــ ٢٠ قرشا . ونظرا لمنع تصدير هذه المنتجات الى بقية انحاء سورية ، في عام ١٨٦٣ ، تضاءل عدد الصناع في هذه الحرفة . ومع ذلك تسرب ثلاثة أرباع هذه المنتجات الى خارج دمشق تهريبا .

ووجد في دمشق ٦٠ معلما لصناعة الأثاث ، يرصعون خشب الجوز والزيتون والشوح بالفضة والصدف . وباستثناء معلمين أو ثلاثة ،كان هؤلاء المعلمون على درجة كبيرة من الابداع والاصالة في صناعتهم . ويباع معظم انتاجهم محليا . ولم تتجاوز قيمة الصادرات ٢٥٠٠٠٠ قرش تقريبا .

وكان يوجد في دمشق معملان للزجاج يتبعان الطرق التقليدية ، وينتجان الزجاجات (القناني) والمصابيح والكؤوس . ولم تصل هذه الصناعة الى الجودة ، وانتاجها لا يصدر الى الخارج .

ومن الصناعات الرئيسية في دمشق صناعة (الاراكيل) التي تلقى سوقا رائجة في الخارج ، وتصدر الى حلب والقدس ومصر ، وتقدر صادراتها بحوالي ١٠٠٠٠٠ قرش (٢٥٠٠٠ فرنك) وتتبعها صناعة (البرابيش) التي يُمص بواسطتها الدخان ، وكانت تزخرف بالحرير والخيوط الذهبية ، وتلون بألوان جميلة . وتتراوح قيمة (البربيش) بين ٢٥و٤٠٠ قرش (٦ ــ ١٠٠ فرنك) .

وكانت دمشق تمتاز بصناعة الفواكه المجففة ، وبخاصة المشمش ، واستخدمت هذه الصناعة ، عام ١٨٦٢ ، ١٢٢٥ كنتالا من السكر (٣١٤ر٩٠ كغ) . وصدرت منها ما قيمته مليون ونصف مليون قرش تقريبا ويتراوح سعر الرطل منها (٢ر٥٦٤ كغ)، بين ٢٥ و ٣٥ قرشا . وكان رطل السكر يباع بـ ١٥ ــ ١٨ قرشا .

واشتهرت دمشق بصناعة ماء الورد وماء الزهر ، وكذلك العطور . وكانت تنتج حوالي ٢٠٠٠٠ كنتال من الصابون تصدر ثلثها . وينتهي تقرير ١٨٦٣ عن صناعات دمشق الى ان فن تزيين البيوت أخذ بالانحطاط نظرا لضآلة الثروات . ولا يوجد من الصناع من هو على مستوى القدامى في هذا الفن .

ويشير التقرير الثاني الذي كتب من دمشق في ١٩ تشرين الاول ١٨٦٩ الى أن صناعة الاسلحة البيضاء متأخرة جدا ، ولهذا تباع في دمشق النصال المستوردة من

فارس أو ليبج أو صولينجن . أما صناعة الاثاث فقد فقدت الكثير من رونقها وما يصنع منها ، مثل الصناديق والطاولات الصغيرة ، فهو خشن وضخم ، ويشتريه عادة الفلاحون .

وينطبق الشيء ذاته على صناعة الزجاج التي لم تتطور . وما زالت (شيشة الاركيلة) الزجاجية تستورد من أوربا ، وبخاصة بوهيميا ، كما تستورد الشيشة النحاسية من ألمانيا . والحفر على النحاس متأخر بدوره . كما أن الصياغة في انهيار ؛ ويعزى ذلك الى هجرة الصناع المسيحيين اثر احداث ١٨٦٠ .

ولكن الاقمشة الصوفية والحريرية المصنعة في دمشق احتلت المرتبة الاولى في التصدير . ومن هذه الاقمشة الديما التي يعمل فيها نحو الفين من الصناع ينتجون ١٥٠,٠٠٠ ثوب في السنة يصدر معظمها الى استانبول والاناضول ومصر وبغداد .

وكان طول الثوب الواحد ١٢ ذراعا (تعادل ٨,١٦ مترا) وعرضه ٥١ سم* وكانت خيوط الديما تستورد من انكلترا وتصبغ في دمشق . والوان هذا القماش الرائجة كانت الازرق المقلم بالاحمر أو الاخضر أو الاصفر ، وكذلك الاحمر الغامق المقلم بالابيض أو الاصفر أو الازرق .

وكان يعمل في نسيج الالاجه في عام ١٨٦٩ حوالي ١٥٠٠ الى ١٦٠٠ صانع ينتجون حوالي ١٠٠ ألف ثوب سنويا ، تصدر ثلاثة أرباعها . ويسجل هذا الانتاج زيادة كبيرة على انتاج عام ١٨٦٢ الذي قدر بـ ٢٤ ألف ثوب من الالاجه والقطني . وتفسر هذه الزيادة الكبيرة في الاستقرار الاجتماعي في دمشق وعود كثير من الصناع المهاجرين اليها الذين اشتهروا بصناعة الحرير .

ونظرا لازدياد الانتاج من أقمشة الديما والالاجه والقطني ، في عام ١٨٦٩ ، فقد استهلكت هذه الصناعات ما زنته ١٢,٨٠٠ كغ من حرير لبنان و ٣٣,٢٨٠ كغ من حرير فارس ، وذلك بزيادة كبيرة عما استهلكته قبل أحداث عام ١٨٦٠ .

وقد عمل في انتاج الكوفيات الحريرية ١٠٠ الى ١٢٥ عاملا وكان معظمها يصدر الى الخارج . ويشكل هذا زيادة كبيرة على صناعة الكوفيات في عام ١٨٦٢ .

أما صناعة المشالح فيبدو انها تضاءلت عما كانت عليه في ١٨٦٢ ، فقد بلغ عدد

* وبذلك يكون طول هذا الذراع ٦٨ سنتمترا .

المشتغلين فيها في عام ١٨٦٩ حوالي ١٩٠ صانعا . واستخدم هؤلاء خيوط الصوف الانكليزية للمشالح الممتازة ، وخيوط الصوف المحلي للمشالح الادنى .

وفيما يتعلق بالعقادين ذكر تقرير عام ١٨٦٩ ان انتاجهم يستهلك بكامله محليا ، في حين ان تقرير عام ١٨٦٣ ذكر أن العقادين يقاسون من بيع سلعهم بسبب تبدل الازياء ، وان أعدادهم في تناقص ، ويحاولون ايجاد سوق بديلة في الحجاز . ويبدو أن أعدادهم قد تناقصت ، وبالتالي انتاجهم ، عام ١٨٦٩ ، الى حدود استيعاب السوق المحليـة .

ومن السلع التي صنعتها دمشق واستمرت في تصديرها السروج والحبال ، وكانت في غاية الاتقان . وفي حين كانت اسعار السروج معتدلة فان أسعار الحبال كانت مرتفعة مما حال دون تصديرها الى أوربا . وكانت تصدر في الغالب الى بقية انحاء سورية ، والى بغداد .

واستمرت دمشق في تصدير منتجات المشمش الى أزمير واستانبول وموانى سورية وآسية الصغرى . وكانت مراكب شركة (مساجيري امبريال) تحمل هذه المنتجات بين الموانى السورية والتركية .

وصدرت دمشق بزر المشمش الى مرسيليا وليفورنة ، وبلغ ما صدرته اليهما منه في عام ١٨٦٩ ما يزيد على ٣٠٠ الف كغ .

وجاء في التقرير الثالث من دمشق بتاريخ ٢٤ نيسان ١٨٧٩ ان دمشق صدرت من بزر المشمش في ذلك العام ٥١٢٫٨٠٠ كغ. وهذا يدل على ازدياد مردود هذا الانتاج.

ويذكر التقرير بالنسبة لنسيج الالاجه أن حوالي ١٢٠٠ صانع يعملون في نسج الالاجه ، وينتجون سنويا ما بين ١٠٠ و ١٢٠ الف ثوب . وبالمقارنة مع تقرير سنة ١٨٦٩ ، الذي يذكر ان حوالي ١٥٠٠ – ١٦٠٠ صانع الاجه انتجوا حوالي ١٠٠ الف ثوب في السنة ، نستدل ان هذه الصناعة قد حافظت على مستوى متقارب في الانتاج بكلفة أقل من السابق ، لان عدد الصناع نقص بما يقرب من ٣٠٠ – ٤٠٠ صانع . أما الديما فقد ازداد عدد صناعهاعنالسابق ، اذ راوح في عام ١٨٧٩ بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ ، وتضاعف انتاجهم كذلك فبلغ ٣٠ الف ثوب .

بالنسبة للكوفيات ، ذكر التقرير الثالث ان حوالي مائة صانع يعملون فيها ، انتجوا في السنة ١٣ الف كوفية . ولكن ليس هناك من تفصيل عن نوعية الكوفيات

واماكن تصريفها أو تصديرها . وانتج من قماش المبروم ، بموجب هذا التقرير ، ٣٠٠ ألف قطعة ، في حين ذكر التقرير الاول ، لعام ١٨٦٣ ، ان ٣٠٠ الف قطعة من هذا النسيج صدرت الى مصر في عام ١٨٦٢ . ويدل هذا على تناقص انتاج المبروم في عام ١٨٧٩ .

وهكذا ، ومن هذه التقارير الفرنسية الثلاث لاعوام ١٨٦٣ و ١٨٦٩ و ١٨٧٩، يتضح أنه بالرغم من تناقص عدد الانوال النسيجية عما كانت عليه في الماضي فان الانتاج ، بوجه عام ، قد اخذ بالازدياد فيأواخر الستينات وبخاصة في السبعينات من القرن التاسع عشر ، عما كان عليه في أوائل الستينات وقبلها بقليل . ومن العوامل التي تفسر هذه الزيادة ركود النشاط التجاري العالمي في السبعينات ، وبخاصة الازمة التي حلت بالصناعة الفرنسية ، وخففت من أثر منافستها في الخارج . يضاف الى ذلك الغاء بعض الضرائب الجمركية على انتقال المواد الاولية المنتجة محليا كالقطن والصوف والحرير .

ويرسم نعمان القساطلي صورة مشابهة لما ذكرته التقارير من أن عدد الانوال في دمشق قد تناقص ولكن الانتاج قد ازداد في السبعينات . ويقول : « أما انوال النسيج فقد قل عددها في وقتنا الحاضر عما كان في بداءة هذا الجيل وما بقي منها فهو ١٦٠٠ نول الاجهو ٦٥٠ نول قطني و ٢٣٠٠ ديما و ١٥٠ شالات حرير وشالات غزل ، و ٢٥٠ كفيات حرير وكفيات غزل ، و ٥٠ زنار طرابلسي حرير وزنار طرابلسي غزل و ٥٠ فوط وملاية حرير وغزل وبوشيه ..الخ و ٢٠٠ كريشة وهرمزي وسلطانية ومجتمع هذه الانوال ٥٢٥٠ نولا»(٩٩) .

يتبين من الاحصاءات السابقة ان الصناعات الدمشقية الاساسية ، بالرغم من كل الازمات ، قد اثبتت وجودها الى جانب الصناعات الاوربية المستوردة ، ولكنها لم تتطور الى الدرجة التيكان يمكن انتصل اليها لو لم تتدفق البضائعالاجنبية. ويلاحظ في بعض الصناعات النسيجية التي مر ذكرها ، مثل الديما والمشالح ، ان الخيوط القطنية في الاولى ، والصوفية في الثانية ، كانت تستورد من انكلترا . وهذه ضربة أخرى موجهة للصناعة المحلية ، اذ انها ، عوضا من استخدام الخيوط المصنعة محليا ، عمدت الى استيراد موادها الاساسية من الخارج ، وبذلك غدت مرتبطة بالسوق العالمية لهذه المواد من حيث توافرها ، وبصورة أخص اسعارها ، التي فرضت من الخارج وتحملها المستهلك المحلي على شكل زيادة في اسعار السلع . وكانت معظم المواد الاولية للصناعة الاوربية تستورد من الخارج ، بما في ذلك بلاد الشام، باسعار تفرضها السوق الدولية التي تسيطر عليها الرأسمالية الاوربية ، ثم يعاد تصديرها خيوطا او

بضائع ، وفق الاسعار التي تفرضها الدول الصناعية المصدرة . وبهذا يكون انتاج المواد الاولية في بلاد الشام قد ارتبط بدوره بعجلة الرأسمالية الاوربية وأصبح تابعا لها .

وقد صدرت دمشق الى الخارج ، في عام ١٨٨٢ ، ما مجموعه ٤٢٠ الف كغ من الصوف ، وهو من خمسة انواع :الناعم ومصدره الجولان حوالي ١٠٠ الف كغ ، والبلقاوي من البلقاء في متصرفية نابلس ١٠٠ كغ ، وصوف المرج والبحيرة ٨٠ الف كغ ، وصوف عجلون ٦٠ الف كغ والصوف الجبلي ومصدره جبل الدروز وحوران ٨٠ الف كغ .

ويدوم موسم الصوف خمسة أشهر تبدأ في ايار وتنتهي بنهاية تشرين الاول . وقد تم تصدير هذه الكميات ، بطريق بيروت ، الى مرسيليا وجنوه وليفورنه وتريستا وليفربول(١٠٠) . والجدير بالذكر ان هذه الكمية من الصوف المصدر تعادل تقريباكمية الصوف التي صدرتها دمشق عبر بيروت الى الخارج في عام ١٨٦٨ والتي بلغت حوالي ٤١٦ الف كغ (١٠١) .

ومما تجدر ملاحظته ان القطن لم يذكر في اي من قوائم الصادرات من دمشق الى أوربا عبر بيروت . وباستعراض ما صدرته منطقتا حماه وحمص في عام ١٨٧٨ نجد أن قيمة صادرات حماه من الصوف بلغت ٦٢٥ ألف فرنك . وكانت وجهة التصدير بيروت بطريق طرابلس .اما حمص فقد صدرت الى بيروت ، بطريق طرابلس ، صوفا بلغت قيمته ١٢٥ الف فرنك . ولم تصدر أي من المدينتين قطنا ، بل استوردتا في الواقع خيوط القطن من فرنسا وانكلترا(١٠٢) .ونستدل من غياب القطن في صادرات كل من دمشق وحماه وحمص أن محصوله لم يكن كبيرا يسمح بالتصدير ، أو ان نوعيته لم تكن لتتلاءم مع الصناعة الاوربية . وقد جرت محاولة في عام ١٨٥١ لادخال زراعة القطن الامريكي ، من ولاية لويزيانا ، الى سورية بسبب نوعيته المتميزة ، ولكن المحاولة فشلت(١٠٣) .

ولم تفد بلاد الشام من تعطل زراعة القطن الامريكي ابان الحرب الاهلية الامريكية في الستينات ، في تطوير انتاج القطن وتصديره الى أوربا التي انقطع القطن الامريكي عنها . والمعروف أن مصر أفادت الشيء الكثير من توجيه زراعتها نحو القطن آنذاك . والامر الوحيد الذي خلفته الحرب الامريكية في بلاد الشام أن سعر القطن فيها زاد ثلاثة أضعاف ، وارتفعت بنتيجة ذلك أسعار الاقمشة القطنية . وذكر احد المراقبين في عام ١٨٦٢ (١٠٤) انه كان يمكن توسيع زراعة القطن في بلاد الشام لو عملت الحكومة العثمانية على توفير الامن في الريف ورد اعتداء القبائل البدوية التي كانت تفرض ضرائب على المزارعين لا تقل عن ضرائب الحكومة ذاتها .

وبنتيجة هذه التطورات مجتمعة ارتبط الاقتصاد الدمشقي بالاقتصاد الراسمالي الاوربي ، ونشأت في دمشق طبقة بورجوازية ، من التجار والصناعيين ورجال المال ، مرتبطة بأوربا ، وأصبح لها قواعد وارتباطات في بيروت التـي كانت مركز التجـارة العالمية في المنطقة . وعلى غرار الصناعة ، شاعت الشراكة في ميدان التجارة واتخذت طابعا رأسماليا . وجنت البورجوازية المحليـة ، بالمشاركة مع البورجوازية الاوربية ، الارباح الكثيرة مـن المستهلكين ، ولكنهـا تعرضت ، شـأن الرأسمالية الاوربية ، الى الازمات وحالات الافلاس ، والمنافسة الشـديدة فيما بينهـا ، والتقاضي أمام المحاكم . وتعج سجلات المحاكم التجارية والمحاكم المختلطة ، منذ الربع الاخير مـن القرن التاسع عشر ، بتفاصيل هذه القضـايا .

ونظرا للازمات الاقتصادية التي مرت بهـا الصناعـة المحلية ، والتبايـن في الثروات بين الاثرياء الذين ازدادوا عددا وثروة ، وبين الطبقات الدنيا التي ازدادت أعدادها وزاد فقرها ، وظفت الرأسمالية ، المحلية والاجنبية ، بعض رأسمالها في عقد الديون التي لجأ اليها عدد كبير من الناس ، سواء في المدينة أم في الريف ، لمجابهة الازمة الاقتصادية . وزاد ذلك من ارتباط سكان الريف ببورجوازية المدن عن طريق التبعية المالية . وبالتدريج فقد عدد من سكان الريف ممتلكاتهم للوفاء بالتزاماتهم المالية .

وكانت نسبة الفائدة التي تقضاها المرابـون عاليـة تقارب في الواقـع ٢٥٪ في السنة ، في حين أن الفائدة الرسمية قد حددتها الدولة في عام ١٨٥٢ بـ ٨٪ . وأشارت بعض وثائق المحاكم الشرعية الى الفائدة باسم المرابحة أو الربح . ولكنها في الغالب لم تشر اليها صراحة . وكان الغطاء الذي استخدم للفائدة هو الشراء الوهمي لكمية من الصابون ، وذكر الى جانب قيمة الدين . وأكد استخدام الصابون لهذا الغرض تقرير القنصل الفرنسي في دمشق عام ١٨٥٢ (١٠٥). والجدير بالذكر أن الادارة المالية والادارة العسكرية في دمشق كانتا مدينتين ، عام ١٨٦٣ ، بمبلغ قدره ٦ ملايين فرنك عدا رواتب الجند المتأخرة . وكانت الفائدة على هذا الدين ، ومعظمه للتجار الاجانب، تقدر من ٢ الى ٥ر٢٪ شهريا ، أي بين ٢٤ الى ٣٠٪ سنويا(١٠٦) .

ولم تكن الطبقة البورجوازية المحلية ، التي لعبت دور الوسيط للراسماليـة الاوربية ، مقتصرة على فئة من السكان دون غيرها ، بل شارك فيها الجميع ، بدلالـة الثروات الكبيرة التي ذكرت تفاصيلها في سجلات التركات . وتوضح تفاصيل هـذه الثروات طرق التعامل التجاري وتنوع توظيف المال ، سواء في الديون أو في الصناعة أو الزراعة ، وكذلك هوية الطبقات الاجتماعية الدائنة والمدينة . وخير مثال على ذلك موجودات تاجر دمشقي هو السيد غازي بـن الشيخ محي الدين بن شيخ المحيـا ،

المختل العقل الذي لا قدرة له على تعاطي مصالح نفسه . وتتألف ثروته من ثلاثة بنود : ١) بيان الذمم الموجود أربابهم بدمشق : ذمة الخواجه متري قسطون ، خليل مصابني ، اسحاق يهودي سمكري ، الخواجه نقولا صايغ ، مجموع ذلك ٢٤١ر٣٩ فرشا ونصف . ٢) بيان الذمم المترتبة للمختل في الجهات خارج دمشق الشام : ذمة الخواجه يوسف علام بالجبل ، أولاد زخور بحمص . الخواجه متري زمريتا في أزمير . بيت سبرطلي الفريدي باللوندرة ، الحاج محمد آغا زرابيلي في بروسة ، محمد رزق في طرابلوس ، حسين السيوفي في طرابلوس ، مجموع ذلك ٢٩٠٨٩ر٤ قرشا ونصف . ٣) موجودات أموال واشياء في الشام ، مستكة ، كافور ، قهوة ، باذنج ، قماش كرمسوت . المجموع ٢٤٩ر١١ قرشا ونصف . ويبلغ مجموع الثروة ٥٨٠ر٤٧٩ قرشا (١٠٧) .

ويستدل من المواد التي يتعامل بها هذا الشخص انه كان تاجر عطارة . ومع ذلك فان مصدر ثرائه الرئيسي كان تعاطي الديون وما تدر عليه من فوائد . وتبلغ نسبة الذمم التي كانت له في دمشق والخارج حوالي ٩٨٪ من ثروته . ومما يلفت النظر تعامل هذا الشخص مع بيت تجاري في لوندرة (لندن) .

نستنتج مما سبق ان البورجوازية المحلية في دمشق اصبحت تدور في فلك الراسمالية الاوربية التي تنامت أبعادها الى حد كبير في أعقاب الثورتين التوأمين . الفرنسية والصناعية . وقد ضمت البورجوازية المحلية في بداياتها خليطا من كبار الملاك ، ورجال المال والصناعة . ثم بدأ الفرز بين هذه العناصر يظهر بالتدريج حين حاولت البورجوازية أن تلعب دورا سياسيا ، تماما كما فعلت البورجوازية الاوربية . وفي هذا الوسط ظهرت اتجاهات فكرية كثيرة ، منها الاتجاه القومي ، والاتجاه القطري . والاتجاه الديني ، والاتجاه العلماني . والاتجاه الاشتراكي . وتبنى كل اتجاه فئة اجتماعية أو أكثر . ولفهم واقع كل اتجاه ، واسباب فشله أو نجاحه ، وارتباطه بفئة دون أخرى ، يجب البحث في الاسس الاجتماعية والاقتصادية لكل فئة ، وهي وحدها التي تفسر لماذا تبنت هذه الفئة اتجاها معينا وقاومت اتجاها آخر(١٠٨) .

الهوامش :

(١) انظر البحث التالي :

André Raymond, « La Conquête ottomane et le développement des grandes villes arabes : le cas du Caire, de Damas et d'Alep », **Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée,** 1 (1979), pp.115 - 134.

(٢) حول شركة بلاد المشرق ، انظر :

Alfred C. Wood, **A History of the Levant Company,** London, 1935.

(٣) انظر بحثنا : « قافلة الحج الشامي واهميتها في الدولة العثمانية »، مجلة دراسات تاريخية ، العدد ٦ ، تشرين الاول ، ١٩٨١.

(٤) انظر حول هذه التطورات كتابنا :

The Province of Damascus, 1723 - 1783, paperback ed. , Beirut, 1970, pp. 73ff.

(٥) انظر :

Archives du Ministère des Affaires Etrangères (AE), Paris, Correspondance Commerciale (CC), Alep, vol.25, le 25 novembre 1891.

(٦) انظر :

AE, CC, Alep, vol.27, 14 octobre 1823, 30 mars 1824; AE, CC, Damas, vol, 1, (Paris, 17 juillet 1839), vol. 2, 20 janvier 1846.

(٧) انظر :

John Bowring, **Report on the Commercial Statistics of Syria,** London, 1840, reprinted, New York, 1973, p.94.

(٨) المصدر السابق ، ص ٩٤

(٩) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(١٢) سجلات دمشق (مجلس الولاية) ، رقم ١١، ص ٢٢١ ــ ٢٢٢ ، القضية ذات التاريخ ٤ جمادى الاولى ١٢٦١/ (١١ ايار ١٨٤٥) .

(١٣) انظر : AE, CC, Damas, vol. 3, 28 mai 1850.

(١٤) انظر : AE, CC, Alep, vol. 31, 31 mai 1855.

(١٥) سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٣٧٥ ــ ٣٧٦ ، ١٢ شعبان ١٢٦١/ (١٧ آب ١٨٤٥) .

(١٦) انظر : AE, CC, Damas, vol. 4, 3 mai 1859.

(١٧) انظر : AE, CC, Damas, vol. 2, 14 juin 1846.

(١٨) انظر : AE, CC, Damas, vol. 3, 1 octobre 1851.

(١٩) انظر : AE, CC, Damas, vol. 4, 27 février 1866.

(٢٠) انظـر : Archives Nationales, Paris, F. 12, 7191, Paris, 28 juillet 1870; AE, CC, Alep, vol. 34, 22 juin 1870.

(٢١) انظـر : AE, CC, Damas, vol. 4, 27 février 1860, 12 juin 1863.

(٢٢) انظـر : AE, CC, Damas, vol. 5, 29 avril 1870.

(٢٣) انظر حول اهمية الطريق بالنسبة لبيروت والمناطق اللبنانية على اطرافه الكتاب الهام التالي :

Leila Tarazi-Fawaz, **Merchants and Migrants in Nineteenth - Century Beirut,** Harvard, 1983, pp. 68-69.

(٢٤) انظـر : Bowring, p. 53.

(٢٥) انظـر : Tarazi-Fawaz, p. 123.

(٢٦) انظـر : **Ibid.**, pp. 69-71.

(٢٧) انظر الكتاب التالي :

Henri Guys, **Esquisse de l'état politique et commerciale de la Syrie,** Paris , 1862, pp. 202-206.

(٢٨) انظـر : AE, CC, Damas, vol.4, 10 janvier 1860.

(٢٩) انظـر : AE, CC, Damas, vol.4, 9 juillet 1863.

(٣٠) انظـر : AE, CC, Damas, vol.6,8 février 1884.

(٣١) انظـر : AE, CC, Damas, vol.6, 15 mai 1886 .

(٣٢) انظـر : Ibid

(٣٣) انظـر : AE, CC, Damas , vol.6,25 janvier 1889 .

(٣٤) انظـر : AE, SS, Damas, vol.3, 1 octobre 1851.

(٣٥) حول هجرة المسيحيين من بلاد الشام الى مصر في القرن الثامن عشر ودورهم التجاري البارزفيها،

انظـر : André Raymond, **Artisans et Commersants au Caire au XVIIIe Siècle,** Damas, 2 vols, 1973-4 , vil.l, pp. 483-501.

(٣٦) انظر : Guys, pp. 202, 205.

(٣٧) للحصول على دراسة وافية لقافلة الحج الشامي ، ا نظر كتابنا :

The Province of Damascus , pp. 53-76.

(٣٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.1, 30 mars 1842.

(٣٩) انظر : AE, CC, Damas, vol.2,16 mars 1847.

(٤٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,25 septembre.

(٤١) انظر : AE, CC, Damas , vol.4,16 octobre 1862, vol.5,19 janvier 1870.

(٤٢) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,21 août 1863, vol.5,1 mai 1872.

(٤٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,19 janvier 1870

(٤٤) ص ١٢٤–١٢٥ من كتاب القساطلي ، طبعة بيروت ، ١٨٧٦ ، اعاد تصويره وقدم له عيسى فتوح، مكتبة السائح ، بيروت (دون تاريخ) .

(٤٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,13 octobre 1851, vol.5,5 juin 1856.

(٤٦) انظر : AE, CC, Damas , vol.2,12 mai 1847, 3 juin 1874.

(٤٧) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,1 août 1855.

بيعت الخيول السورية لعدد من الدول الاوربية ، مثل روسيا وايطاليا ، وفرنسا التي استخدمتها لحاجاتها الداخلية ، وفي تحسين نسل الخيول في الجزائر الخاضعة بها ، وكذلك في العمليات العسكرية . وكان شراء الخيول يتم خلال فترة معينة من العام ، في نيسان وايار وحزيران وتموز ، بعد عودة البدو من البادية الى مشارف المدن . وكان البدو يستغلون مجيء الاوربيين خصيصا لشراء الخيول فيرفعون من اسعارها . ولذلك تحاشى هؤلاء الاتصال مباشرة بالبدو وعمدوا الى تكليف التجار والوكلاء الوطنيين شراء الخيول لحسابهم باسعار معتدلة . وكانت المهر مرغوبة اكثر من غيرها لرخص ثمنها ، الذي راوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ قرش للمهرة الواحدة ، ونظرا لرخص العلف في بلاد الشام عمد المشترون الاوربيون الى ابقاء المهر المشتراة في البلاد سنة ، ليتاكدوا من نوعيتها وصلاحيتها ، والا اعادوا بيعها محققين ربحا اضافيا .

انظرحول هذا : AE, CC, Damas, vol. 4, 16 oct. 1962.

(٤٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.2, 2 novembre 1851.

(٤٩) انظر : AE, CC, Alep, vol.31 (Paris, 20 janvier) .

(٥٠) انظر : AE, CC, Alep, vol.35,30 mai 1871.

(٥١) انظر : AE, CC, Damas, vol.5,11 janvier 1873.

(٥٢) اثبتناالعبارة كماوردت في النص الاصلي ، وهو باللهجة الدمشقية العامة ، وتعطي فكرة عن انحطاط لغة القضاءانذاك .

(٥٣) انظر : سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٩٨–١٠٠ ، ٥ محرم ١٢٦١/ (١٤ كانون الثاني ١٨٤٥) .

(٥٤) لمقارنة مقدار التزام عبد القادر خطاب لهذه الاقلام المتعلقة بصناعة النسيج بدمشق بالقيمة الاجماليةللضرائب المستوفاة من المدينة في تلك السنة (١٢٦٠/١٨٤٤)، انظر :

AE, CC, Damas, vol. 2, « Etat du Revenue du Pachalik de Damas pendant l'année 1844 » , joint à la lettre de Damas le 16 janvier 1845.

(٥٥) انظر سجلات دمشق الشرعية مجلد ١٢ ، ص ١٦٢–١٦٦ .

(٥٦) انظر : Bowring, p. 59

(٥٧) انظر: سجلات دمشق الشرعية، مجلد ٤٩٤، ص ١١٣ ، ختام محرم ١٢٧٤/ (٢٠ ايلول ١٨٥٧) .

(٥٨) انظر : سجلات دمشق الشرعية ، مجلد ٥١٠ ، ص ٤٤ ، ١٤ جمادى الثانية ١٢٧٦/ (١٠ كانون الثاني ١٨٥٩) .

(٥٩) كلمة ريال مأخوذة اصلا من ريال ماريا تيريزا . ولم يتبين لنا معنى كلمة شوشة . ولكن وجد في غزة في الفترة ذاتها نقد عرف باسم ريال فرانسة شوشة ، انظر بحثنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣ – ١٢٧٧ / ١٨٥٧ – ١٨٦١ ، دمشق ١٩٨٠ ، ص ٨٨ .

(٦٠) سينكو ، او سنكو أو شنكو ، كلمة مشتقة من الايطالية وتعني خمسة . انظر : الاب انستاس ماري الكرملي البغدادي ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ١٤١ .

(٦١) لعله النقد ذاته الذي ذكر في غزة باسم ريال فرانسة عامود ، وكان سعره ٢٢ قرشا ، انظر : غزة ، ص ٨٧، واشير اليه كذلك باسم « ابو مدفع » .

(٦٢) انظر : Bowring, p.95.

(٦٣) انظر : AE, CC, Damas, vol,1, 30 novembre 1843, 8 décembre 1843.

(٦٤) انظر بحثنا باللغة الانكليزية وعنوانه :

« Land Tenure Problems and their Social Impact in Syria around the Middle of the Nineteenth Century », in **Land Tenure and Social Transformation in the Middle East**. ed. Tarif Khalidi, American University of Beirut, 1984, pp. 384-385.

وانظر ايضا : AE, CC, Damas, vol.2,16 avril 1845, 20 mai 1845.

(٦٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,29 juin 1840.

(٦٦) انظر : AE, CC, Damas, vol.1,1 décembre 1839.

(٦٧) انظر : AE, CC, Damas, vol.1,28 décembre 1839.

(٦٨) انظر : سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٣٦١ – ٣٦٢ .

(٦٩) المصدر السابق ، ص ٢١٦ – ٢١٧ .

(٧٠) المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .

(٧١) المصدر السابق ، ص ٧٧ ٢ – ٢٧٨ ، ٢٨٢ .

(٧٢) الياس بن عبده بك قدسي (قنصل دولة هولاندة بدمشق) ، « نبذة تاريخية عن الحرف الدمشقية » . قدمها للمجمع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليدن ، عام ١٨٨٢ ، وقد نشرت في :

Carlo Landberg, **Actes du VIe Congrès des Orientalistes,** t.2, Leiden, 1885, p.15.

(٧٣) انظر : AE, CC, Damas, vol,4, 5 mars 1863.

(٧٤) انظر : قاموس الصناعات الشامية ، جزآن ، الجزء الاول تاليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تاليف جمال الدين القاسمي وخليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر دار موتون وشركاه ، باريس لاهاي ، ١٩٦٠، جا ، ص ٣٩ .

(٧٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863.

(٧٦) انظر : AE, CC, Damas, vol.3, 20 janvier 1850.

(٧٧) انظر :
Bowring, p. 20; Charles Issạwi (ed.) , **The Economic History of the Middle East, 1800 - 1914,** Chicago, 1966, p. 224.

(٧٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,21 octobre 1856.

(٧٩) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,10 janvier 1860.

(٨٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 16 octobre 1862, cf. 11 mai 1863.

(٨١) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 5 mars 1863, 30 avril 1863.

(٨٢) تفاصيل القائمة مبنية على القضايا المعروضة على محاكم دمشق الشرعية حسب تواريخها ، وذلك وفق السجلات والصفحات التالية، دون مراعاة التسلسل لانه يوجب تكرار ارقام السجلات :مجلد رقم ٣٧١ ، ص٣ ، ص ٢٨ ، رقم ٣٧٢ ، ص٢٢٧ ، رقم ٣٧٤ ، ص ٢٣١ ، رقم ٣٧٦ ، ص ١٥ ، ص ١١١ ، ص ٣٩٤ ، ص ٣٧٦ ، ص ٢٦٠، ص ٢٧ ٣، ص ٢٧٦ ، رقم ٣٧٧ ، ص ٢٥ ، رقم٣٧٩ ص ١٦٤ ، رقم ٣٨٦ ، ٢٣٣ ، ص ٢٠٥ ،رقم٣٨ ، ص ١٤٠ ، رقم ٣٩٨ ، ص ٦٣ ، ص ١٥٣، رقم ٤٠٤ ، ص ٢١٩ ، رقم ٤١٣ ، ص ٤٩،رقم ٤٨٦ ، ص ١٨٦ ، رقم ٤٩٣ ، ص ٢٧٧ ، ص رقم ٥٠٣ ، ص ٣ ، رقم ٥٠٤ ، ص ٣٢ ،رقم ٥٠٧ ، ص ٢٢٩ ، رقم ٥٢٣ ، ص ٢ ٦.

(٨٣) انظر :
AE, CC, Damas, vol.4,19 octobre 1869, « Situation Commeciale et Industrielle de Damas ».

(٨٤) انظر:
Dominique Chevallier, « Un exemplẹ de resistance technique de l'artisanat syrien aux XIXe et XXe siècles », **Syria, 30 (1962).**

(٨٥) القساطلي ، الروضة الغناء ، ص ١٢٣ ، وانظر ايضا القاسمي ، ج١ ، ص ١٤٧ – ١٤٨ .

(٨٦) القساطلي ، ص ١٢٤ .

(٨٧) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٨٨) المصدر السابق ، ص ١٢٣.

(٨٩) المصدر السابق، ص ١٢٣ .

(٩٠) انظر : AE, CC, Damas , vol.4,5 mars 1963.

(٩١) « قاموس الصناعات الشامية » ، ص ٣١٣.

(٩٢) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

(٩٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863.

(٩٤) القساطلي ، ص ١٢٥.

(٩٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863.

(٩٦) يذكر التقرير بعد سطرين من ذلك (ص ١١٠) ان الكنتال يساوي ٢٥٦ كغ و ٤٠٠غ ، ولهذا فان ٣٠٠كنتال تساوي ٧٨٠٠ كغ .

(٩٧) ص ١٢٤ .

(٩٨) انظر : Roger Owen, **The Middle East in World Economy 1800 - 1914,** London, 1981, p.171 .

(٩٩) ص١٢٣ .

(١٠٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.6,8 juillet 1883.

(١٠١) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,19 octobre 1869.

(١٠٢) انظر : AE, CC, Damas, vol.6,31 juillet 1879.

(١٠٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,2 novemdre 1851.

(١٠٤) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 16 octobre 1862.

(١٠٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,12 janvier 1852.

(١٠٦) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 30 avril 1863

(١٠٧) سجلات دمشق الشرعية ، مجلد ٣٩٧، ص١٢ ، ١٧ربيع الاول ١٢٦٢/ (١٥ اذار ١٨٤٦) .

(١٠٨) انظر الدراسة الهامة التالية حول الدور السياسي لاعيان دمشق بين ١٨٦٠ و ١٩٢٠ وجذورهم الاجتماعية :

Philip S. Khoury, **Urban notables and Arab nationalism, the politics of Damascus 1860 - 1920,** Cambridge University Press, 1983.

* * *

مِنْ خفايا السّياسةِ البريطانيّة في المَشْرِقِ العربي خِلالَ الحربِ العالميّةِ الأُولى

المكْتَبُ العَرَبيُّ في القاهِرَة قِراءَةٌ في الوَثائِقِ البَريطانيّة

د . خيرية قاسمية

مع نشوب الحرب العالمية الاولى ركزت السياسة البريطانية على أهمية البلدان العربية الشرقية بالنسبة لمتابعة العمليات الحربية . وكانت وزارتا الخارجية والحربية البريطانيتان مسؤولتين عن الامور السياسية والعسكرية في تلك البلدان ، وخاصة في مصر وفلسطين ، في حين كانت حكومة الهند مسؤولة عن الاموراالسياسية والعسكرية في العراق والخليج العربي وعدن . وكان هناك خلاف في الرأي بين الجهتين حول الاجراءات الادارية والسياسية في كلا المنطقتين ، رغم اتفاقهما على أهمية البلدان العربية الاستراتيجية . ففي حين دعت الاولى وهي التي سميت (بالمدرسة المصرية) الى التعاون مع العرب وكسب القوات العربية في الجيش التركي ، ومهاجمة الدولة العثمانية عن طريق ثورة عربية في هذه المنطقة ، ومنح العرب استقلالا محدودا تحت رقابة بريطانية مستترة ، رأت الثانية ، وقد أطلق عليها اسم (المدرسة الهندية) ، أن

---

* يعتمد البحث بصورة رئيسية على وثائق وزارة الخارجية البريطانية الموجودة في دار الوثائق العامة في لندن Public Record Offire ونقع في مجموعتين :

(أ) المراسلات بين وزارة الخارجية والسلطات البريطانية في مصر وفلسطين وهي مصنفة تحت رقم F.O. 371

(ب) أوراق المكتب العربي في القاهرة Arab Burean Popers وهي مصنفة تحت رقم F. O. 882

بامكانها الانتصار في الحرب دون الاستعانة بالعرب ، او اطماعهم بوعود استقلالية . وقد انتصرت (المدرسة المصرية) التي تقدر قيمة الفوائد التي يمكن أن تنجم عن صداقة العرب ، اثر فشل زحف القوات البريطانية في العراق (نيسان/ ابريل ١٩١٦)، وتطور الاحداث في بلاد الشام ، وتسارع المفاوضات البريطانية مع الحسين للقيام بثورة تتعهدها بريطانية بالسلاح والمال(١) .

يمثل « المكتب العربي » Arab Bureau الذي أنشىء في شباط / فبراير ١٩١٦ في القاهرة (المدرسة المصرية) . وتم احداثه بايعاز من (مكماهون) المندوب السامي البريطاني في مصر ، وبالتشاور مع ريجنالد وينجيت (الحاكم العام للسودان والمندوب السامي فيما بعد ١٩١٧ .ورونالد ستورز (السكرتير الشرقي في دار المندوب السامي ــ المعتمدية سابقا) ، وجلبرت كلايتون (رئيس قلم الاستخبارات المدنية والعسكرية في مقر القيادة العامة للقوات البريطانية) وعهد الى الاخير بمهمة رئاسة هذا الجهاز المستقل في دار المندوب السامي ، الذي أصبح احد أهم الاجهزة المنفذة للسياسة البريطانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى .

وضم المكتب جماعة من الخبراء في شؤون المشرق العربي ، ممن كانوا يعملون في دائرة الاستخبارات في القيادة العامة . أو من الموظفين السياسيين في دار المندوب السامي (المعتمدية سابقا) ، وهم من الرحالة وعلماء الآثار والمستشرقين والضباط العسكريين ، وقد سبق لهم وتعرفوا على المنطقة العربية عن كثب من خلال اقامتهم وجولاتهم ودراساتهم قبل الحرب ، وجميعهم من ذوي الخبرة . المشهود لهم بالمهارة في فنون الدبلوماسية الشرقية ، ومن بين هؤلاء جورج هوغارث ، و ت. أ . لورنس ، ورونالد ستورز ، وجرترود بل ، واورمسبي غور . وعمل بعضهم مستشارين وخبراء لقوات الثورة العربية ، وادعوا « صداقة العرب » ، التي كانت تنبع في الحقيقة من صميم المصلحة البريطانية .

وقد تولى خبراء « المكتب العربي » خلال الحرب رفع التقارير والمذكرات الى وزارة الخارجية ، أو وزارة الحربية (دائرة الاستخبارات العسكرية) في لندن . كما اشرفوا على اصدار نشرة ملحقة سرية اسمها النشرة العربية Arabe Bulletin لمعالجة كل الاحداث السياسية المتعلقة بالبلاد العربية والدولة العثمانية والحركة العربية (٢) . ولم يكن الخلاف الذي بدا احيانا في وجهات النظر بين رجالات المكتب العربي في القاهرة وبين الاجهزة المختصة في لندن نابعا عن الزعم القائل بأن « اصدقاء العرب » كانوا يجهلون نوايا حكومتهم ، بل ، لكونهم أقرب الى مواقع الاحداث واكثر خبرة بشؤونها ، كانوا يبدون بعض الآراء التي قد تتناقض أحيانا مع آراء مخططي السياسة البريطانية في لندن .

كان امرا طبيعيا أن تحتل مسألة فلسطين مكانا بارزا في تقارير «المكتب العربي» واعداد نشرته السرية ، نظرا لموقع فلسطين ، ولاحتوائها الاماكن المقدسة ، ولوجود مطالب متداخلة ، ومصالح معقدة لمعظم الدول المشتركة في الحرب ، وكذلك لحرص بريطانيا على عدم السماح لاية قوة أخرى بالتواجد على الشاطىء الشرقي لقناة السويس بحيث تهدد حكمها في مصر وتهدد القناة ، واخيرا لان الاستيطان الصهيوني في فلسطين كان يشكل ، قبل الحرب ، جزءا من السياسة البريطانية في المشرق . وقد زادت الظروف الاستراتيجية الناجمة عن الحرب من الاهتمام البريطاني بفلسطين ، وخاصة حين اصبحت فلسطين هي المنطقة التي يجب أن توجه منها بريطانيا الضربة الاخيرة للدولة العثمانية . وتمهيدا لنقل فلسطين الى منطقة النفوذ البريطاني زادتعزيز الحكومة البريطانية للحركة الصهيونية التي انتقل مركز نشاطها الدبلوماسي الى لندن ، وزاد ضغطها للتأثير على الحكومة لاصدار تصريح بالعطف على المطامع الصهيونية في فلسطين .

وتناولت تقارير « المكتب العربي » وموضوعات نشرته السرية جملة قضايا تتعلق بالمسألة الفلسطينية ، قبل اصدار تصريح بلفور وبعده : قبل التصريح لرسم صورة واضحة أمام المفاوضين البريطانيين مع ممثلي الحركة الصهيونية (في وقت كان العرب يدخلون فيه في تحالف مع الدولة صاحبة التصريح) ، وبعد التصريح لرصد ردود الفعل العربية ولمحاولة تخفيف الشكوك حرصا على استمرار التحالف البريطاني العربي والتوفيق بين المصلحة الصهيونية والاماني العربية .

آ ـ القضايا المتعلقة بفلسطين التي تناولتها تقارير المكتب العربي ونشراته

« قبل تصريح بلفور »

١ ـ عمليات التجسس الصهيوني لحساب القوات البريطانية وراء الجبهة الفلسطينية المصرية :

كشفت أوراق « المكتب العربي » عن شبكة تجسس صهيونية عرفت باسم مجموعة نيلي Nili نظمها هارون أرونسون في مستعمرة زخرون يعقوب . وكان أرونسون مديرا لمركز التجارب الزراعية قبل الحرب في بلدة عتليت على الشاطىء الفلسطيني وعهدت له السلطات العثمانية بتنظيم حملة عملية لمكافحة الجراد الذي هاجم فلسطين سنة ١٩١٥ (٢) . واعطاه هذا حرية التنقل التي استخدمها في عمليات

المخابرات لصالح بريطانيا (٤) . وبعد رحيل ارونسون الى لندن عرض خدماته على وزارة الخارجية البريطانية ، معتمداً على معرفته بفلسطين وبالوضع العسكري فيها .

وعمل ارونسون لدى هيئة الاستخبارات العامة في مصر وقام بتزويدها بالمعلومات المحلية عن توضع القوات التركية والالمانية شمال وشرق الجبهة المصرية ، من خلال مجموعته التجسسية (قبل أن يكشف أمرها في خريف ١٩١٧(٥)) . وعن طريق صلاته برجالات « المكتب العربي » (كلايتون وديديس وغيرهما) كسب بعض الدبلوماسيين البريطانيين في الشرق الادنى للمسألة الصهيونية (أهمهم الماجور اورمسبي غور الذي أصبح وزيرا للمستعمرات خلال الانتداب) . كما تمتع بدعم اللنبي (القائد العام للحملة المصرية) ووينجيت (المندوب السامي الذي خلف مكماهون) . وأصبح ارونسون محور نشاط صهيوني كبير . وفي تموز / يوليو ١٩١٧ تولى سكرتيرية لجنة صهيونية للاشراف على المصالح الصهيونية في مصر وفلسطين ، كما تعهد نقل الاموال الى فلسطين لمعونة اليهود . وكان المسؤول عن حملة دعاية صهيونية عالمية استغلت عملية اخلاء الاتراك للمناطق الساحلية في فلسطين لتصوير مظالم الترك ضد اليهود(٦). وتشير مذكرة « للمكتب العربي » في ١٩١٧/٢/٥ بعنوان « المسأله اليهودية »(٧) الى أن الهدف السياسي من تقديم الصهيونيين خدماتهم للقوات البريطانية في العمليات ضد الترك في فلسطين هو جعل هذه الخدمات أساسا لدعواهم في (الوطن القومي) والقول بأنهم شاركوا في عملية « تحرير البلاد » .

٢ ـ النشاط الصهيوني في فلسطين :

أشارت تقارير « المكتب العربي » الى النشاط الصهيوني العملي في فلسطين قبل الحرب . وقدرت « النشرة العربية » في ١٩١٧/١/١٩ (٨) أن الصهيونيين قد امتلكوا حتى عام ١٩١٤ (١٣٠.٠٠٠) هكتار ، منها (٩٠.٠٠٠) استوطنت فعلا (٤٠ مستوطنة تقريبا) تشمل أحسن الاراضي في فلسطين ، وأنه قد بذلت جهود لتدريب اليهود على الاساليب الزراعية وتأمين المساكن لهم ، كما أنشىء مركز للتجارب الزراعية في عتليت ، وتعزو « النشرة » التقدم الملحوظ في هذه المستوطنات ، الى جانب المساعدات الخارجية ، الى الامتياز الذي يتمتع به المستوطن اليهودي عن الفلاح المواطن ، لكونه قادرا على مقاومة جامع الضرائب التركي . وقد أجمعت تقارير « المكتب العربي » على معاناة جميع فئات الشعب في سورية خلال الحرب وسوء الاوضاع الاقتصادية وانتشار الجوع والمرض وقسوة الحكم التركي وما رافقه من نفي وسجن واعدام ومصادرة ، في حين أكدت هذه التقارير أن حالة اليهود كانت أفضل من اية فئة اخرى. وانهم لاقوا عناية أكثر(٩) ، وان الترك لم يوقعوا باليهود نفس القدر من

الاضطهاد الذي اصاب مجموع السكان في فلسطين وسورية خلال الحرب . وهو امر اكدته برقية كلايتون لوزارة الخارجية البريطانية في ١٩١٧/١١/٢١ (١٠) اثر زيارة تفقدية قام بها مع اللنبي للمستوطنات اليهودية الواقعة جنوبي يافا . وأشارت مذكرة « المكتب العربي » في ١٩١٧/١/١٢ (١١) الى أن النشاط الصهيوني لشراء الاراضي وانشاء المستوطنات لم يتوقف خلال الحرب . وان المنظمة الصهيونية استطاعت الحصول على (٤٠،٠٠٠) هكتار من أجود الاراضي لاستيطانها بعد انتهاء الحرب .

وتعزو تقارير « المكتب العربي » هذا الوضع المتميز لليهود الى الاهتمام الامريكي الذي يعود للفترة السابقة للحرب(١٢) ، وكذلك الى أصدقاء الصهيونيين في البلاط العثماني من يهود سالونيك والدونمة (١٣). وترى «النشرة العربية»، ١٩١٧/١٢/٤(١٤) في مقال عن « الحركة الطورانية والعرب » ان اليهود والدونمة ، نظرا لنفوذهم في الدولة العثمانية وميولهم الالمانية،هم المسؤولون عن دفع تركيا للحرب، وانهم لعبوا الدور الموجه في فكرة الحركة الطورانية وتطويرها كما يظهر في كتابات (تكين آلب) ، والذي تسميه النشرة « دكتور كوهين » . وتضيف النشرة « ان الحركة الطورانية لا تهدف الى مصلحة الترك بل يراد بها مصلحة الالمان واليهود الذين يرون ازدهارهم في المستقبل مرتبطا ببقاء الدولة العثمانية . والتقوا بذلك مع مطامع المانية في تطلعها نحو الاشراف على حزام تركي متماسك عبر آسية الوسطى » . وقد حاولت الدوائر الصهيونية الموالية للحلفاء في مصر (ادجار سوارس أحد رجال الاعمال اليهود في الاسكندرية وهارون ارونسون) نفي كل صلة للصهيونيين بألمانية ،وكذلك نفي اي عطف سياسي لليهود نحو دول الوسط ، بل واتخذت تلك الدوائر الاهتمام الالماني بالصهيونية حجة للتأثير على الحكومة البريطانية للاسراع بمنح تأكيداتها بالعطف على الاماني الصهيونية (١٥) .

٣ ــ مستقبل فلسطين :

اكدت مذكرة « للمكتب العربي » في ١٩١٧/٢/٥(١٦) الى أن « تسوية مستقبل فلسطين سوف يثير قضية معقدة ودقيقة تقلق أمن ذلك البلد التعيس » . ومع ذلك تشير المذكرة نفسها الى أن دول الحلفاء لو أعلنت عن رغبتها بدعم الاستيطان والتغلغل الاقتصادي اليهوديين في فلسطين فان ذلك كفيل بجعل الصهيونية تميل الى جانب الحلفاء ، والا فانها سترمي بثقلها الدولي ضدهم . وتشير المذكرة الى فقرة من كتاب وضع ١٩١٦ بعنوان « الصهيونية ومستقبل اليهود » ، توضح الاهمية التي يوليها الصهيونيون للربط بين الشعب اليهودي ، « تراثا وحضارة » ، وفلسطين ، ومحاولاتهم تغليف مخططاتهم بتطلعات مثالية . واكد ارونسون هذه الفكرة في مذكرته

« للمكتب العربي » أوائل ١٩١٧ (١٨) حول الاوضاع العامة في فلسطين بقوله « ان اليهودي الهارب من الاضطهاد يتطلع نحو الاستيطان في فلسطين ليعيش حياته الخاصة حسب تقاليده وتراثه وآماله وثقافته » .

ويرى « المكتب العربي » ان الصعوبة الكبرى التي تواجه المشروع الصهيوني هو تفوق العرب العددي ، ورغم الادعاء الصهيوني بامكانية العيش بانسجام بين الشعبين ، الا أن الهدف الحقيقي للحصول على التفوق اليهودي والاستئثار بالبلاد لم يكن خافيا على « المكتب العربي » وترى النشرة العربية في ١٩١٧/١/١٥ (١٩) أن « الغالبية العظمى للصهيونيين لا تزال تعتبر الاستقلال الذاتي هدفا بعيدا ، وأن ما يبحثون عنه هو سياسة الباب المفتوح والحصول على أكبر قدر ممكن من الاراضي في فلسطين واستيطانها ، ثم التقدم بعد ذلك بأساليبهم الزراعية المتطورة وسندهم المالي وشعورهم القومي وكرم الدولة الحامية نحو الوصول الى الهدف السياسي النهائي » .

٤ ـ عرب فلسطين والثورة العربية :

حاول ارونسون في تقاريره « للمكتب العربي » أن يبين أن فلسطين تفتقر الى مقومات الثورة بسبب أوضاع البلاد القاسية وحرمان البلاد من رجالها ، وكذلك فان اللنبي ، لعدة أسباب ، لم يرغب بوجود قوات عربية تعمل في جبهته (٢٠) . ولم يسمح الا لبعض العرب بمعالجة القضايا المحلية او المتعلقة بالاسرى . مع ذلك فقد بينت تقارير « المكتب العربي » اسهام العرب باحداث الحرب . فالجنود العرب الذين كانوا يفرون من الجيش التركي عبروا الصحراء للانضمام الى قوات فيصل على الجبهة الشرقية ، ومن بقي في فلسطين تعاون مع بريطانيا . وتشير « النشرة العربية » في عددها ١٩١٧/١/١٢ الى ان نشاط الاهالي ضد الاتراك والعمل من أجل قضية الحلفاء حتى في المناطق التي لايوجد فيها مستوطنات يهودية ، قد أدى الى اضطهادهم بالنفي او الاعدام ، ففي غزة أعدم المفتي وابنه ، كما نفي وأعدم كثير من زعماء نابلس بسبب هذا الموقف ، ووضعت بعض عائلات القدس تحت الشبهة بسبب مشاعرها الموالية لبريطانية ، كما ان بدو منطقة بئر السبع عملوا مع قوات الشريف أو مع قوات حليفته بريطانيا(٢١) . وقد حرصت القوات البريطانية على كسب الرأي العام العربي وراء خطوط القتال ، وتولى « المكتب العربي » وضع المنشورات وتوزيعها في فلسطين ، والتي تتولى الدعاية للشريف حسين وتشير الى ان الجيش العربي في الحجاز يعمل بالتعاون مع القوات البريطانية . ومن أجل ذلك اتهم الصهيونيون بعض العاملين في « المكتب العربي » بدعم قضية القومية العربية ، ووصف أرونسون في

تقريره السابق في مطلع ١٩١٧ العرب « بالخداع والسلبية والجهل » . ولام بريطانيا لسياستها « الخطرة والمؤسفة » في تبني الثورة العربية لانها « بعثت في الفلسطينيين حلما بأن يصبحوا جزءا من المملكة العربية المستقلة » . ونقلت « النشرة العربية » في ١٩١٧/٩/٢٧ رأي أحد زعماء الحركة الصهيونية حول الثورة العربية ، الذي عـزا موقف اليهود الحيادي في الصراع العربي التركي الى عدم ثقتهم بالثورة العربية .وتوعد العرب بعدم استغلال هذا الموقف الحيادي بالهجوم على اليهود وممتلكاتهم لان هذا لن يخدم القضية العربية ذلك أن « حسن ارادة اليهودية العالمية ضروري لتحقيق الاهداف العربية » .

٥ ـ المقاومة العربية للصهيونية في فلسطين :

رغم هيمنة أحداث الحرب على مسرح السياسة الداخلية في فلسطين منذ صيف ١٩١٤ والظروف القاسية التي عاناها شعب فلسطين أثناء الحرب ، وتجمد الموقف العربي بسبب أساليب القمع التي اتبعت ضد رجال الحركة العربية ، الا أن ذلك لم يصرف أنظار عرب فلسطين عن أخطار الصهيونية وضرورة مقاومتها . ولما كانت الحكومة البريطانية تدرك طبيعة المشاعر العربية بشأن مستقبل فلسطين ، ولم تكن تجهل المعارضة العربية للصهيونية فقد حاولت أن تحول دون البحث بموضوع الصهيونية أثناء سنوات الحرب . وفي ١٨ آب / أغسطس ١٩١٦ / ١٨ شوال ١٣٣٤) وردت اشارة عابرة في العدد الثاني من جريدة القبلة (التي تصدر في مكة) عن الصهيونيين واخطارهم في فلسطين ، أثارت مخاوف مارك سايكس (مستشار الشؤون الشرقية للحكومة البريطانية ، والموجه الرئيسي للسياسة البريطانية في المشرق العربي) . وبايعاز من سايكس بعث مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية في ١٩١٦/١١/٢١(٢٢) تعليماته الى كلايتون مدير « المكتب العربي » يطلب منه التدخل لدى أصدقائه العرب « ومنهم الشريف حسين » بتحذير خطير وشخصي بعدم الخوض في هذا الموضوع الخطير لانه « يثير عداء القوى الحيادية الآن ، والتي لو أثيرت فانها كفيلة بتحطيم الآمال » .

ونظراً لقرب العاملين « بالمكتب العربي » من المنطقة العربية ، وامكان اتصالهم بالاجواء العربية ، فقد بدأوا بجمع كل المعلومات المتاحة عن مدى المعارضة العربية للنشاط الصهيوني في فترة ما قبل الحرب ، وظروفها ودوافعها ، لوضعها امام المفاوضين في لندن . وفي مذكرة أورمسبي غور في ١٩١٧/١/١٢ (٢٣) عن الاوضاع السياسية في فلسطين تحليل لاسباب المعارضة العربية للصهيونية ، والتي يعزوهاالى أهداف الصهيونية الحديثة السياسية ، والتي تهدف لانشاء دولة يهودية مستقلة

ذاتيا واقصاء السكان تدريجيا . ويرى غور ان المسلمين في القدس خاصة يميلون نحو المسيحيين وهم ضد اليهود ، وبشكل أدق ضد الصهيونيين ، وهم يقاومون النمو المتزايد للمستوطنات اليهودية ، في العدد والنفوذ ، وشراء الاراضي وتجريد السكان من ممتلكاتهم . وفي مذكرة المكتب العربي ١٩١٧/٢/٥ (٢٤) اشارة الى أنه نتيجة للمعارضة العربية تشكلت جمعيات من الاعيان والمثقفين لمقاومة الاستيطاناليهودي .

وقد بدات السلطات البريطانية في مصر تشعر بحراجة موقفها في صيف ١٩١٧ بعد ازدياد الدعاية الصهيونية فيمصر (اثر زيارة سايكس للمنطقة)(٢٥) ، بطريقة تجاوزت رقابة تلك السلطات . واشار كلايتون في برقيته الى الخارجية في آيار/مايو ١٩١٧(٢٦) الى أن ذلك قد يؤثر على سير العمليات العسكرية في فلسطين . ونصحت الخارجية البريطانية كلايتون بعدم التدخل لان المسائل الكبرى لا تزال مطروحة على مجلس الوزراء (كانت المفاوضات المطولة بين اللجنة الصهيونية في لندن والحكومة البريطانية أواخر ١٩١٧ تتقدم بصورة متوافقة مع سير العمليات العسكرية وانتهت باصدار تصريح بلفور (١٩١٧/١١/٢) .

ب ــ القضايا المتعلقة بفلسطين التي تناولتها تقارير المكتب العربي ونشراته

« بعد تصريح بلفور »

١ ــ ردود الفعل الاولية لتصريح بلفور :

كان يهم « المكتب العربي » ، كسائر الدوائر البريطانية في مصر . أن لا يتأثر التحالف العربي البريطاني ، في وقت لم تكن القدس فيه قد وقعت بيد القوات البريطانية . وعلى اثر القلق العام الذي أخذ يسود المنطقة العربية بعد الكشف عن مضمون اتفاقية سايكس بيكو وصدور تصريح بلفور (٢٧) ، حاول كلايتون في برقيتين وجههما الى مارك سايكس ، في ٢٦ و ١٩١٧/١١/٢٨ (٢٨) . لفت أنظاره الى العواقب التي يمكن لتصريح بلفور أن يتركها على مستقبل العلاقات العربية البريطانية . ووضع كلايتون عدة اقتراحات حول الخطوط العامة للسياسة البريطانية في المشرق العربي ، وهي كفيلة ، بنظره ، بتهدئة الشكوك . وفي أعتقاده ان بواعث الشكوك وعدم الثقة التي تراود العرب هو عدم وجود تأكيد ينفي ضم سورية ، وصدور تصريح بلفور الذي كان له انطباع سيء على العرب لتخوفهم من احتمال وقوع فلسطين ، وحتى سورية ، بيد اليهود . وقد يتيح هذا ، برأيه ، المجال لدعاية المانية تركية تعد

بالاستقلال تحت السيادة التركية . وينصح كلايتون بعدم منح الصهيونية امتيازات اخرى ، والاكتفاء بالتصريح ، لانه من الخطر في هـذه المرحلة ، وبـسـبب الموقف العسكري ، السماح باستيطان يهودي في فلسطين .

٢ ـ السياسة التوفيقية بين العرب والصهيونيين :

على ضوء المعلومات التي قدمها كلايتون أخذ سايكس بوضع الخطوط العامـة التي يراها مناسبة لانقاذ الموقف ، بعث بخلاصتها الى كلايتون وهي : ان في المنطقة مكانا « للقوميتين العربية واليهودية » كي تعملا معا لاحياء الشرق ، مع الوعد بامكان تحقيق الكثير لو حدث التحالف مع الصهيونية ، والتحذير من عواقب معاداتها . وفي برقيته الى كلايتون في ١٩١٧/١١/٣٠(٢٩) ، اشار سايكس الى انه حث الصهيونيين في لندن لتبني اتجاه موال للعرب ، وانه ، اي سايكس ، قد وضع صيغة قرار سوف يتخذ في اجتماع صهيوني ضخم « تصل أصداؤه الى الشرق » ، ويأمل من كلايتون أن يستطيع تهيئة الجو بالتأثير على العرب وخاصة الزعامـة السورية في القاهرة ، ويقترح عليه أن يشرح لتلك الزعامة أهمية التعاون بالنسبة للمستقبل العربي ، وان « التحالف مع الصهيونية هو ضمان للاستقلال العربي وللازدهار ، وان معاداتها تعني ركودا عربيا وسوريا ».

وبدأ كلايتون بالدعاية حسب الخطة التي اقترحها سايكس ، فحاول كسب ثقة بعض العناصر السورية في مصر . ودبر لقاء بين أعضاء لجنة الاعانة السورية في القاهرة والزعيم الصهيوني موسيري . ولكن لم يكن لدى كلايتون تفاؤل سايكس ولم يتوقع نجاحا كبيرا لسياسته ، نظرا لمشاعر القلق والتخوف عند الزعماء السوريين بشـأن تقدم الحركة الصهيونية خطوات تهدد مصالحهم ، ولان تحالفا عربيا يهوديا يبـدو تجربة غريبة . ولذا فقد نصح كلايتون بأن تجري العملية بحذر شديد « فالدعايـة العنيفة ستثير المشاعر التي يتوجب تهدئتها ، ويبدو المستقبل مظلما يستحيل التنبؤ بـه (٣٠) » . وكان كلايتون يخشى من حدوث ما يؤثر على علاقات العرب بالحلفاء بعد أن ترك التصريح اثرا كبيرا في الاوساط العربية ، حتى « الجهات المؤيدة للانجليز لم تخف المرارة » . وهذا السبب هو الذي حمل كلايتون على التحفظ بشـأن اقتراح تقدمت به الخارجية اثر احتلال القدس في ١٩١٧/١٢/١١(٣١) بارسال بعثة صهيونية تعمل كجهاز استشاري للسلطات البريطانية فيما يتعلق بأحوال اليهود وانشاء الوطن القومي . وكانت وجهة نظر كلايتون ، وهو أيضا رأي السلطات العسكرية في مصر ، أن الوضع العسكري الحالي لا يسمح لاي شخص بالتوجه نحو فلسطين (٣٢) .

٣ ـ التأثير على الشريف حسين :

اتجهت خطة سايكس ، الى جانب محاولة اقناع الزعامة السورية بأهمية التعاون العربي مع الصهيونية ، ، الى الاتصال بالملك حسين كي يضمن قبوله ، ولم يكن كلايتون متفائلا بتلك المساعي كما جاء في برقيته الى سايكس في١/١٢/١٩١٧(٢٣). واستقر الرأي اخيرا على ارسال هوغارت (أحد رجال المكتب العربي ، ومن علماء الآثار المستشرقين) كمبعوث شخصي لدى الحسين في محاولة للتأثير عليه . ووضعت الخطوط الرئيسية للمباحثات مع الحسين في القاهرة . وارسلت الى الخارجية في ٣١/١٢/١٩١٧ (٢٤) . وبتوجيه من سايكس أضيف لها صيغة اخرى لضمان موافقة الحسين فيما يتعلق بفلسطين : اذ بالاضافة الى تأكيد الوعود التي قطعها مكماهون ، اقترح سايكس ضمانات بشأن الاماكن المقدسة وضمان « حقوق الشعب الحالي الاقتصادية والسياسية » مع التأكيد على أهمية اليهودية العالمية والتي تعني دعم كل الدول التي يوجد لليهود نفوذ فيها ، والاشارة الى أن زعماء الحركة الصهيونية عازمون على تحقيق النجاح والتعاون مع العرب وصداقتهم (٢٥) .

وكي تضمن وزارة الخارجية البريطانية مزيدا من التأثير على الحسين بعثت برسالة الى كلايتون باللغة العربية في ١٥/٢/١٩١٨ كي يبلغها للحسين، والرسالة هي من لجنة تطلق على نفسها « اللجنة العربية والسورية المدافعة عن النهضة العربية وصديقة الدولة البريطانية » . تدعو الحسين لقبول الامر الواقع الذي هو لمصلحة العرب نظرا لما للصهيونيين من نفوذ ومال ، وتقنعه بعدم جدوى معارضة ما يرمي له الصهيونيون (٢٦) . الا أن موقف الحسين لم يكن مشجعا من وجهة نظر كلايتون في رسالته الى سايكس في ٤/٢/١٩١٨(٢٧) ، واتهمه بالعناد وبتحريف كل شيء لمصلحته. ولكن كلايتون ظل يعتقد بضرورة ابقاء الحسين على المسرح رغم انه بدأ بالتركيز على الامير فيصل الذي أخذ يلوح في الصورة بعد نجاحاته العسكرية ليحقق ما فشل الحسين في تحقيقه . وأسر كلايتون الى سايكس خبرا مفاده انه أوعز الى لورنس للقيام بالتأثير على فيصل لدفعه الى الاتفاق مع اليهود بحجة انها « فرصته الوحيدة لاعطاء الحركة العربية ثمارها » .

٤ ـ الدعاية في أوساط شعب فلسطين :

بعد أن قطعت العمليات العسكرية في فلسطين شوطا كبيرا بدات السلطات البريطانية تمهد لنقل خطة سايكس الى فلسطين خاصة بعد أن أعلن سايكس في مطلع

١٩١٨ عن قدوم بعثة صهيونية لوضع تفاصيل سياسة التعاون . وبدأ اولا بتنظيم ادارة لفلسطين مستقلة عن مصر . واوكل الى الجنرال كلايتون القيام بمهمة الضابط السياسي الرئيسي للجنرال اللنبي (القائد العام للحملة المصرية) على أن يتلقى كلايتون تعليماته من وزارة الخارجية مباشرة في الامور السياسية المتعلقة بفلسطين. ووجهت له تعليمات بتأسيس فرع جديد « للمكتب العربي » تحت اشرافه في فلسطين بهدف القيام بالدعاية ،على ان يصبح كورنواليس مديرا «للمكتب العربي» في القاهرة(٣٨). وخشية حدوث مصاعب مع « السكان المحليين » ارسلت الخارجية الى كلايتون الخطوط العامة للسياسة البريطانية المقبلة ، وتتعلق بضمان المساواة الدينية لجميع فئات السكان واستخدام الموظفين من الاجهزة المحلية وابقاء الصهيونية في « الاتجاه الصحيح » الذي لا يسيء الى أمن الاماكن المقدسة ، مع تقديم التسهيلات الكاملة لاعادة بناء وتأسيس المستوطنات اليهودية .

وفي ١٩١٨/٢/٤ بعث كلايتون الى سايكس بانطباعاته الاولى من القدس(٣٩)، حيث لمس صعوبة التوصل الى التعاون العربي لان الشعور في القدس قوي ضد اليهود ، فالعرب يخشون من أن يسيطر اليهود على المدينة المقدسة ، وعلى جميع فلسطين . ولذا فان كلايتون يتطلع الآن الى وصول « بعثة وايزمان » .

٥ ـ البعثة الصهيونية في مصر :

منذ وصول البعثة الى الاسكندرية - ١٩١٨/٣/٢ (٤٠) - بدات مشاوراتها السياسية حسب الخطة الموضوعة . ورافقها الماجور أورمسبي غور من « المكتب العربي » ممثلا للحكومة . وفي مقال كتبه كورنواليس (مدير المكتب العربي في القاهرة) في النشرة العربية ١٩١٨/٤/٣٠ تحت عنوان «الصهيونيون والسوريون في مصر»(٤١). أشار الى الانطباع العام الذي أحدثته زيارة اللجنة في اذهان الزعماء السوريين في مصر . فقد تخوف الزعماء من أن هدف اليهود لا يقتصر على تولي زمام الحكم بل تجريد السكان من ممتلكاتهم - وطردهم من البلاد تدريجيا .. ويقر كورنواليس أن جهد المسؤولين البريطانيين في تهدئة مخاوفهم كان شاقا . ونقل كورنواليس ما تحدث به وايزمان للزعماء السوريين حول أهداف الصهيونيين ، وانهم يتطلعون فقط الى انشاء وطن يتيح لليهود الحياة القومية ومشاركة السكان الحقوق المتساوية . واشار وايزمان الى نيته في تحسين المستوطنات القائمة والاعداد لاستقبال المهاجرين الجدد على أراضي الدولة والاراضي البور ، كما اكد حرصه على الاماكن المقدسة وتحدث بعطف عن الثورة العربية . ويعلق كورنواليس على هذا اللقاء بقوله ان « موقف الزعماء السوريين قد تحول من معارضة متصلبة الى تعرف تدريجي على

القوى الكامنة وراء الصهيونية وقبول كاره بأن اغراضها ليست قاتمة كما صورت ، وانه في ظروف معينة قد يستفيد السكان من الغزو اليهودي » . ويأمل كورنواليس بزوال بقية الشكوك لو استمرت اللجنة في موقف الاسترضاء الحالي .

٦ ـ البعثة الصهيونية في فلسطين :

لم تكن اخبار فلسطين مشجعة فقد صورت رسائل هوغارت من القدس الى « النشرة العربية » في ١٩١٨/٣/٢٧ و ١٩١٨/٤/٧ (٤٢) حالة القلق السائد الذي لن يعمل على تخفيفه موقف اليهود العدواني . ويرى هوغارت أن تخوف الجميع من المستقبل وغموض تصريح بلفور يعرقلان العلاقات مع « السكان غير اليهود » . ويشير الى تكون الجمعيات الاسلامية المسيحية لحماية الارض كرد فعل طبيعي لهذا التخوف . ويتوقع هوغارت أن يصبح التخوف العربي أكثر حدة مع وصول البعثة الصهيونية ، ولذا فانه يقترح نشر سياسة البعثة الصهيونية على أوسع نطاق . والتي تتلخص بمعارضة الاستغلال وتجريد السكان من الارض والاشراف السياسي اليهودي والتركيز على الاستفادة من امكانيات الاراضي البور والمستنقعات لاستيطان اعداد ضئيلة من اليهود .

وبعد وصول البعثة الصهيونية الى يافا في ٤ ابريل/نيسان ١٩١٨ حيث أقامت مكتبا لها في تل ابيب ، بدأ اورمسبي غور بارسال التقارير حول المشاكل التي واجهت البعثة في فلسطين ، ومساعي السلطات العسكرية البريطانية في التمهيد لاجتماع البعثة بشخصيات عربية (٤٣) . وفي أحد هذه الاجتماعات بحث وايزمان مع تلك الشخصيات القضايا التي تثير مخاوف العرب . وقد نفى وايزمان هدف انشاء دولة ، وتجريد الفلاحين من ملكيتهم ، وأبدى تلهفه لاقامة ادارة تمكن العربي واليهودي من العمل بانسجام لتطوير البلد على اساس المساواة والعدالة لان في فلسطين متسعا لليهودي وللعربي . الا أن الانطباع المتفائل الذي نقله أورمسبي غور في تقريره للخارجية نفته « النشرة العربية » في عددها الصادر في ١٩١٨/٤/٣٠ (٤٤) ، واتفقت في ذلك مع رأي رونالد ستورز الحاكم العسكري للقدس (٤٥) . وقد صورت « النشرة » الانطباع المعادي والسلبي الذي أحدثته البعثة في القدس وتخوف المسلمين والمسيحيين المتزايد من المسألة الصهيونية وأنهم لا يشعرون بالاطمئنان على مستقبلهم ويخشون التعدي على حقوقهم ويندفعون لتأسيس جمعيات للسهر على مصالحهم . وفي تقرير الى مارك سايكس في ١٩١٨/٤/١٦ (٤٦) عبر وايزمان عن قلقه الذي يتعارض والتوقعات التي يأملها ، وبرأيه أن الجو السياسي لا يتلاءم مع التطور الذي رسمه تصريح بلفور .

وفي ١٩١٨/٥/٧ رفع كلايتون الى وزارة الخارجية تقريرا أعده ستورز (حاكم القدس العسكري(٤٧) حول وقائع احتفال كان قد اعـده في القدس كي يتيح للبعثـة الصهيونية فرصة اخرى لشرح الاهداف الصهيونية لزعماء القدس العرب . وجاء في تعليق كلايتون على التقرير « بأن السياسة الصهيونية قد عملت الكثير لازالة شعور عدم الثقة والشك الذي كان يعتمل في نفوس الطائفتين الاسلامية والمسيحية تجـاه الاماني الصهيونية » . وبايعاز من كلايتون تم نشر خطاب وايزمان في الاحفتال على اوسع نطاق وباللغات الثلاث . مع ذلك فقد ظل كلايتون مصرا على رايه بأن الاعتبارات العسكرية تجعل من المستحيل القيام بمشاريع واسعة كما يقترح وايزمان .

هذه المصاعب التي واجهتها البعثة الصهيونيـة في فلسطين دفعت السـلطات البريطانية في مصر الى ارسال لجنة من بعض الزعماء السوريين للتعرف على الحالة السياسية والاقتصادية في البلاد . وأشارت « النشرة العربية » في ١٩١٨/٦/٤ (٤٨) الى ان شاغل اللجنة كان مقاومة التخوف الطبيعي الذي يشعر بـه السكان تجـاه الاهداف الصهيونية . ولم يكن هذا يعني موافقة الزعامة السورية على فصل فلسطين عن سورية ووضعها تحت الاشراف الصهيوني . وهذا ما أكده فارس نمر احد زعماء الكتلة السورية في لقائه مع هوغارت (« النشرة العربية » في ١٩١٨/٦/٢٤) . ومن وجهة نظر « النشرة العربية » فان الزعماء السوريين قد يقبلون بالحماية البريطانية. ولكن ليس بالصهيونية (٤٩) .

٧ ــ مقترحات المكتب العربي بشأن الادارة العسكرية في فلسطين :

في رسالة وجهها وايزمان الى بلفور (وزير الخارجيـة البريطاني) في ١٩١٨/٥/٣٠ (٥٠) شكا ما تواجهه البعثة الصهيونية من مصاعب في فلسطين ، كما وجـه انتقاده للادارة المحلية التي لا تتلاءم بنظره مع خطط الصهيونية لتحقيق الوطن القومي اليهودي . ورفع كلايتون تقريرا وافيا عن الوضع الراهن في فلسطين الى بلفور ، في ١٩١٨/٦/١٦ ، لتوضيح الموقف وللرد على انتقادات وايزمان (٥١) . فوجود البعثة الصهيونية بنظر كلايتون « هو بحد ذاته دليل على الدعم الذي منح للحركة الصهيونية وهو أمر اثار انتقاد الفئات الاخرى التي حرمت من وجود منظمة مشابهة للدفاع عن مصالحها » . ويرى كلايتون أن العرب ينظرون بشك بالغ الى اي تحرك ، ولذا يشير بالتخفيف من الدعاية العدائية بين العرب . وباعتقاد كلايتون ان العداء العربي يرجع الى عوامل اجتماعية اقتصادية وليس الى الشعور القومي ، ولذا يرى أن المعارضة سوف تختفي حين يعود التطور الناجم عن تنفيـذ البرنامج الصهيوني بفوائد على

غالبية السكان . ويقترح كلايتون برنامج العمل البريطاني المقبل في فلسطين لمصلحة الصهيونية ، وهو برنامج لا يمكن أن يتقيد بقوانين وأعراف الحرب الخاصة بادارة المناطق المحتلة (والتي تفترض الحفاظ على الاوضاع القائمة في الاراضي المحتلة) ؛ لان ذلك سوف يؤدي ، بنظره ، الى خيبة أمل الصهيونية ، وقد يدفع الى رحيل البعثة الصهيونية . وهو أمر يعتبره كلايتون ضربة « لهيبة بريطانيا » . ولهذا فهو يقترح بدلا من ذلك اعطاء السلطات المحلية قدرا معقولا من حرية العمل لاحداث تعديلات بسيطة ترضي الراي الصهيوني وتتفادى الاساءة الى مشاعر الطوائف الاخرى.

اما فيما يتعلق بالمقترحات التي تقدمت بها البعثة الصهيونية وردود الفعل التي يمكن أن تحدثها ، فان كلايتون لا يرى مانعا من البدء بمشروع (الجامعة العبرية)، اما المشروع الزراعي الواسع الذي سوف يستصلح ٢٥٠.٠٠٠ هكتار من اراضي الدولة والاراضي البور ، فهو كفيل باثارة مخاوف السكان ، كما يعتقد كلايتون . ومن الوجهة السياسية لا يحبذ البدء بمشروع واسع يتعهده يهود ، ويقترح غطاء بارعا للمشروع وذلك باعطائه صفة عسكرية ، ودعوة بعض المستثمرين العرب للمشاركة فيه تحت اشراف السلطات العسكرية . ويتوقع كلايتون حدوث مصاعب بالغة بشأن ملكية حائط المبكى والاراضي المجاورة له ، والتي قد تستغلها دعاية « العدو » . ويخلص كلايتون من الاوضاع الراهنة التي عرضها في تقريره الى أن أي تطور للافكار التي تكمن في تصريح بلفور يقضي بتوسيع المعاملة التمييزية لليهود ، وهذا ما سيثير استياء وقلق « الفئات الاخرى » وهو ما قد تستفيد منه دعاية « العدو ». ولذا فهو يشير باتباع اسلوب « التمييز الحكيم والتوفيق الحريص بين مصالح جميع الفئات لان ذلك سوف يعمل على التقليل من الخطر » . لقد كان هدف كلايتون في تقريره الى بلفور تحديد المدى الذي يجب أن يبلغه تطوير السياسة الصهيونية في فلسطين في المرحلة الراهنة ، وتوجيه التعليمات الخاصة بالخطوط العريضة التي يتوجب على الادارة اتباعها . وهكذا ، ورغم كل تقدير واعجاب بلفور بوايزمان وتعضيده له ، جاءت رسالته الى وايزمان في ١٩١٨/٧/٢٦ ، ردا على مطالب الاخير ، متحفظة ، مشيرا الى ان قضيتي حائط المبكي والاراضي معقدتان لا يمكن البدء بتنفيذهما»(٥٢).

٨ ــ لقاء وايزمان فيصل :

كان كلايتون متخوفا من انتقال شعور الاستياء من فلسطين الى القوات العربية التي تقوم بعملياتها العسكرية شرقا بقيادة فيصل ، والتي يهم تركيا أن تكسبها الى جانبها ، وهذا ما يهدد الوضع العسكري في الشرق كما صور ذلك في رسالته الى

بلفور في ١٩١٨/٦/١٦ (٥٣) . ونوه تقرير «للمكتب العربي» في تموز / يوليو ١٩١٨(٥٤) بضرورة توجيه الانظار الى منطقة أبعد الى الشرق ورسم خطة جديدة بتدبير لقاء بين الحركة الصهيونية والقائمين على قيادة الثورة العربية (الجناح الايمن للقوات البريطانية) « فالمصلحة البريطانية تقتضي بقاء هذا الجناح مصدر قوة » . وكانت برقية كلايتون الى وزارة الخارجية قد سبق واكدت في ٢٦ مايو / ايار بأن موقف كل من ملك الحجاز والامير فيصل المتعاطف سوف ينجح كثيرا في عملية التنسيق بين السياستين الصهيونية والعربية لتجنب حدوث صدام متوقع يهدد المصالح البريطانية » .

وقد جرى بحث تجديد التوجه السياسي للبعثة الصهيونية تجاه الحركة العربية في مؤتمر حضره كلايتون ومساعده ديديس ولورانس وأورمسبي غور ووايزمان (٥٥) .. وانطلق هذا التوجه من فرضيات ثلاث : الاولى : ان مركز ثقل الحركة العربية هو المثلث القائم بين مكة ودمشق وبغداد ، أو بمعنى أدق سورية الشرقية (بعد أن أخذت الاضواء تتركز على فيصل) . الفرضية الثانية : ان المسألة الفلسطينية يمكن عزلها في حالة قيام حلف سياسي مع قادة الحركة العربية في الشرق . وأخيرا ، ان مسألة العلاقات مع الشعب الفلسطيني هي اقتصادية بحتة ويمكن الوصول الى حل لها بتحسن الاوضاع الاقتصادية . وقد مهد لهذه السياسة مساع سابقة تولاها كلايتون وهوغارت ولورانس لدى الملك حسين والامير فيصل للتحقق من مشاعرهما تجاه الصهيونية . ولم يكن موقف الحسين بالنسبة للبرنامج الصهيوني واضحا في نظر كلايتون ، فالحسين على استعداد للاعتراف بحقوق اليهود كمواطنين لاية دولة عربية يمكن أن تقوم فيما بعد . ولذا فان كلايتون يفضل التوجه الى فيصل ، وذلك بالتمهيد للقاء بينه وبين وايزمان للحصول على موافقته ، وبالتالي التأثير على والده .

وفي ٢٦ أيار / مايو بعث كلايتون ببرقية من القدس (٥٦) تفيد بأن وايزمان برفقة أورمسبي غور سوف يغادران السويس في ٢٨ منه باتجاه العقبة للقاء الشريف فيصل في مقر قيادته . وتوقعت « النشرة العربية » (٥٧) ان يتمكن لورنس من لقاء وايزمان عند وصوله العقبة ليقوم بتقديمه للامير . وفي ٢٧ أيار / مايو ١٩١٨ بعث كلايتون ، من مقر القيادة العامة في القدس رسالة الى فيصل يعرف فيها وايزمان كأحد زعماء الحركة الصهيونية ، حضر للعمل على تنمية التعاون الكامل بين العرب واليهود ، لان التعاون والعطف المتبادلين كفيلان ، بنظر كلايتون ، بتحقيق النجاح ، كما انه بالامكان بحث القضايا السياسية ذات الاهمية الحيوية .

وتم اللقاء بين فيصل ووايزمان في ٤ حزيران ١٩١٨ في معسكر الاول قـــرب العقبة وحضره الليفتنانت كولونيل جويس (الضابط السياسي في العقبة) مترجما ، وغاب لورنس عن الاجتماع ، وكذلك حال المرض دون حضور أورمسبي غور . وبعث جويس بتقريره الى « المكتب العربي » في ثمانية نقاط (٥٨) ورد تلخيص لها في« النشرة العربية » في عددها الصادر في ١٨ حزيران / يونيو ١٩١٨ . وصور جويس انطباعه الشخصي بنتائج اللقاء في رسالة مفصلة بعث بها الى كلايتون من العقبة في٥ حزيران/ يونيو ١٩١٨ (٥٩) . ومن وجهة نظر جويس فان اللقاء ليس لــه قيمة من الناحيــة الرسمية اذ لا يتوقع أن يصدر فيصل تصريحا علنيا . ولكنه يعتقد أن فيصل قــد رحب «بالتعاون اليهودي» اذ يعتبره جوهريا بالنسبة للتطلعات العربية في المستقبل. ويؤكد جويس ان فيصل سوف يقبل بفلسطين « اليهودية » ضمن حدود ، لو استطاع بواسطتها بلوغ توسع عربي أوسع الى الشمال .

وكان تفاؤل كلايتون كبيرا من نتائج اللقاء اذ عمل على « تعزيز عطف وتفاهــم متبادلين بين وايزمان و فيصل » . كما أدى الى « تخفيف دعايــة العدو بين أعــوان الشريف لاثارة الشكوك بالاغراض الصهيونية (٦٠) » . وشرح كلايتون في رسالة مفصلة الى الخارجية ١ تموز / يوليو ١٩١٨(٦١) أهــداف الطرفين من اللقاء : ففيصل يتطلع الى دعم بريطانيا العسكري كي يهزم الترك ويصبح حاكما على سورية ، ولكنه يأمل بدعم الصهيونية الاقتصادي والسياسي نظرا لنفوذها وامتداداتها العالمية ، ومن وراء الصهيونية يعتمد على بريطانيا التي يضع ثقته فيها . وبالنسبة لوايزمــان فيعتقد كلايتون أن فلسطين «اليهودية المقبلة» يتوجب ارتباطها ارتباطا وثيقا بالدول المحيطة بها من أجل وجودها وتطورها . ولذا يبدو حيويــا أن تعمل مــع الحركة العربيــة المجاورة . ويرى كلايتون في لقاء الحركتــين وتعاونهما المتبادل حــلا للمشــكلة التي تواجهها الحكومة البريطانية بشأن تنفيذ وعودها للطرفين . ومــن أجل مزيد مــن التعاطف والتنسيق بين السياستين الصهيونية والعربية يقترح كلايتون تهيئة لقاء مشابه مع الحسين . ومع أن الحسين قد يبــدو كارها للبرنامج الصهيوني الا انــه يمكن ، براي كلايتون ، اقناعه بأسلوب مناسب وذلك بشــرح مدى تأثــير البرنامج الصهيوني على المطامح العربية في سورية فهو ، أي الحسين ، قد يرحب ، كما يقول كلايتون ، بأية سياسة تمكن فيصل من تحرير سورية وتقليده أميرا حاكما عليها .

وانتهى كلايتون الى القول بأنه لا يمكن للحركتين الصهيونية والعربية أن تعملا معا حسب الخطة التي اقترحت في لقاء وايزمان فيصل اذا ما ظلت اتفاقية سايكس بيكو سارية المفعول . والتقى كلايتون بذلك مع اقتراح تقدم به وايزمان الى الخارجية البريطانية من اجل التأثير علــى الحسين وضــمان الحصول على اعترافــه بالاماني

الصهيونية في فلسطين لقاء الاعتراف بالحسين زعيما للحركة العربية والتعهد بأن يدعم الصهيونيون اقامة مملكة الحجاز ، وكذلك دعم التطلعات السورية(٦٢) . واعتبر سايكس أن الاقتراح الصهيوني قد تجاوز الحد المرسوم بشكل بدأ يؤثر على المصلحة البريطانية فيما يتعلق بعلاقاتها مع فرنسا، وانه لابد من حصر النشاط الصهيوني في فلسطين وحدها ، وكان سايكس يعتبر أن الاتفاقية التي تحمل أسمه لا تزال قائمة ووفقا للاتفاقية فان سورية هي خارج نطاق النفوذ البريطاني ، عدا فلسطين التي سعى سايكس لابقائها مفتوحة حتى يتم التوصل الى تسوية بشأنها مع فرنسا ، وكان يهمه قبل هذه التسوية ان يزيح من أذهان العرب فكرة ضم فلسطين الى سورية (٦٣) .

٩ ـ اتساع المعارضة العربية للصهيونية :

سعت السلطات البريطانية الى استخدام وسائل الدعاية في فلسطين للتدليل على فوائد الاحتلال البريطاني لشعب فلسطين ، في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ولتخفيف مشاعر التخوف لدى أبناء فلسطين من فكرة اقامة دولة يهودية بالتركيز على الضمانات التي قدمها تصريح بلفور . ووجدت السلطات المحلية في قدوم لجنة التطوع العربية الى فلسطين للحصول على متطوعين لقوات فيصل ، فرصة لاقامة الاحتفالات والقاء الخطب ، وكان اهمها احتفال القدس في ٤ تموز / يوليو ١٩١٨ في مقر المكتب العربي . وبعث كلايتون صورة من الخطب التي القيت في الاحتفال الى بلفور الذي أوعز له بالتالي ضرورة نشرها على أوسع نطاق ممكن (٦٥).

مع ذلك فقد اتسعت المعارضة العربية للصهيونية ، وأكدت جميع تقارير المكتب العربي صعوبة الموقف مع قرب انتهاء العمليات العسكرية . وفي تقرير اعده وارلند (أحد رجال المكتب العربي) في تموز / يوليو ١٩١٨ (٦٦) اشارة الى « أن سياسة الحلفاء الصهيونية في فلسطين قد أضافت الكثير الى التعقيدات الشائكة للوضع الراهن في المشرق ، وانها قد نفرت المسلمين والمسيحيين على السواء » . وكان وارلند عديم الثقة بجميع اللقاءات التي قام بها وايزمان مع الزعماء العرب ، واعتبرها اشبه « بسوق الضحية الى المذبح » . وكذلك أكد هوغارت في مذكرته الى الخارجية في ١٩١٨/٨/٢ (٦٧) المصاعب التي تحيط بالقضية العربية ، فهو لا يتوقع « قبول الغالبية (غير اليهودية) للتغلغل الصهيوني او قبول المعاملة التفضيلية للصهيونية ». وينصح هوغارت بأن يتولى« العنصر الشريفي » أو ما يطلق عليهم اسم « البدو » السيادة من أجل ضمان قبول التغلغل الصهيوني بأقل صعوبة ممكنة حيث يمكن عقد صفقة مالية بنظره ، والا فانه « يتوجب فرض التعهدات البريطانية للصهيونيين

بالقوة » . وينقل هوغارت ما أسر به الزعماء الصهيونيون بأن«الوطن القومياليهودي» يعني بنظرهم ان تكون فلسطين كلها تحت السيطرة اليهودية سياسيا ، وهذا لن يحدث ، كما يقر هوغارت الا « باكراه السكان وليس برضائهم الحر او السلمي » .

واقر رئيس تحرير جريدة « الكوكب » في تقريره الى المكتب العربي في ٩/٢٩/ ١٩١٨(٦٨) ، اثر جولة قام بها في فلسطين بأن جهوده في « النصح والارشاد » لم تنجح في تبديد سوء الفهم الواقع بين الشعب والحكومة بسبب المسألة اليهودية . وقد لاحظ ان الشعور المؤلم قد ازداد بعد ان تمادي الصهيونيون في ايذاء مشاعر الناس بالاعتماد على تصريح بلفور ، كما لاحظ أيضا ان الاتراك قد استغلوا المسألة الصهيونية كسلاح ضد بريطانيا في المناطق التي لا تزال تحت سيطرتهم حيث أن السكان هناك أخذوا يفضلوناستمرار الحكمالتركي على توقع وصول القواتالبريطانية وذلك خشية فرض اليهود كحكام عليهم .

وظلت مسألة مطالبة البعثة الصهيونية بملكية حائط المبكى مشكلة معقدة للسلطات البريطانية في فلسطين . واقترح كلايتون في رسالته ١٩١٨/٨/٣١ الى الخارجية (٦٩) ضرورة تجنب تلك السلطات أي اجراء قد يعطي انطباعا بأنها تمارس ضغطا في هذه المسألة . ويضيف كلايتون أن الامر « يلاقي معارضة اسلامية لانه يعتبر نقطة انطلاق لتعديات يهودية اخرى قد تؤدي الى التعدي على منطقة الحرم بأكملها » . وقد تحقق كلايتون في رسالة أخرى الى الخارجية في١٩١٨/١٠/١(٧٠) ، ان جميع المغريات لم تثمر في تعديل موقف المسلمين ، بل بلغ الامر الى تخوف خطير . ورأى انه من غير المرغوب فيه ، ان لم يكن من الخطورة بمكان ، التقدم خطوة اخرى بشأن مسألة حائط المبكى . خاصة وان اسهام القوات العربية في الحرب قد زاد من توثيق العلاقات العربية البريطانية ، ويرى ان القضية الاكثر الحاحا في هذه المرحلة هي المفاوضات للتوفيق بين المصالح العربية والفرنسية في سورية . ولذا فالوقت الراهن غير ملائم كلية للقيام بنشاط صهيوني خاص حتى يتم التحديد النهائي لوضع البلد واسلوب ادارته . ويحذر الصهيونيين من اثارة مزيد من التخوف باذاعة تصريحات طائشة عن سياستهم ومطالب متطرفة تثير عداء مستمرا مما يؤثر على نجاحهم ويجعلهم عرضة للاتهام بأنهم يسعون لتحقيق أهدافهم بالقوة.. ولم يكن تخوف كلايتون نابعا من حرصه على المصلحة العربية ، بل ، كما أوضح في رسالته ، لان عدد اليهود في فلسطين لا يتجاوز ٦٦ الفا يقابلهم ٥٧٣ الفا من « غير اليهود »،ولذا

لا يمكن تحقيق المطامح الصهيونية الا بالصبر وباظهار مشاعر التعاطف نحو الغالبية الكبرى من السكان ، لان الصهيونيين لو تقدموا بالقوة فان مشــروعهم ، بنظــره ، سيقام على أساس غير راسخ .

وفي مطلع تشرين أول / اكتوبر ١٩١٨ دخل اللنبي الى دمشق للقاء فيصــل وابلاغه بالترتيبات العسكرية الادارية المؤقتة التي اتخذتها القيادة العامة بشأن ادارة أجزاء سورية التي اعتبرت « بلاد العدو المحتلة » . وشكلت فلسطين المنطقة الجنوبية منها ، بينما شكلت حكومة دمشق العربية المنطقة الشرقية . ورافق اللنبي في زيارته كل من كلايتون (الضابط السياسي الرئيسي في مقر القيادة العامة ، والمشرف على المكتب العربي في القدس) وكورنواليس (مدير المكتب العربي في القاهرة) .

وبتوقف العمليات الحربية في تشرين ثاني ١٩١٨ انتهت مهــام « المكتب العربي » وبدات مرحلة جديدة في تاريخ المشرق العربي .

* * *

الحواشـــي :

(١) انيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ص ٨٠ ــ ٨٤ .

(٢) كان وليام ييل ، ممثل وزارة الخارجية الامريكية في الشرق لتغطية أحداث الحرب العالمية الاولى، قد تمكن بطريقته الخاصة من الحصول على النشرة السرية للمكتب العربي واستخدمها في تقاريره التي بعث بها الى وزارة الخارجية الامريكية « دائرة شؤون الشرق الادنى » ، والتي بلغ عددها (٣٤) تقريرا منذ تشرين أول / اكتوبر ١٩١٧ وحتى اعـلان الهدنة في تشرين الثاني / نوفمبـر ١٩١٨ * وقـد سبق لوليـام ييل أن عمـل وكيلا الشركة ستاندرد اويل الامريكية في القـدس ١٩١٥ ــ ١٩١٧ .

(3) Aaronson, AL. , **with the Turks in Palestine** , London. 1917 p. 75.

والمؤلف هو شقيق هارون أرونسون .

(4) F. O. 882/14. pa/17/16. Arab Bureau Papers.

كان وولي عالم الآثار ومدير مكتب المخابرات البريطانية في بور سعيد ، يتولى الاشراف علىعملية المخابرات في الساحل الفلسطيني بالاتفاق مع مجموعة « نيلي » عند شاطىء عتليت . وحين قـام وولي شخصيا بمهمة الاتصال بالمجموعة فجرت السفينة التي كان عليها واعتقلته السـلطات العثمانية . التفاصيل في كتاب Engle, A. , **The Nili Spies**, London 1959 .
والمؤلفة تروي الاحداث المتعلقة بشبكة تجسس « نيلي » من خلال وثائق عائلة أرونسون .

(٥) روى عزيز بك ،وكان يعمل في المخابرات العثمانية ثم تولى مديرية الامن العام في الدولة العثمانية تفاصيل مثيرة في مذكراته « الاستخبارات والجاسوسية في الدولة العثمانية ، تعريب فؤاد الميداني ونشر جريدة الاحرار البيروتية ١٩٣١ » ، عن كيفية الكشف عن شبكة التجسس في زخرون يعقوب واعتقال أفرادها وانتحار سارة شقيقة هارون أرونسون ، وكانت قد تولت ادارة الشبكة بعـد رحيـل شـقيقها .

(٦) بدأت الحملة بنشر خبر في جريدة (جويش كرونكل) في لندن في ٤ أيار/مايو ١٩١٧ تحت عنوان « اليهود في فلسطين ــ تقارير محزنة ــ اعتداءات وحشية ــ تهديد بمذابح جماعية » . وكان مصدر الخبر برقية بعث بها مارك سايكس من القاهرة الى وزارة الخارجية . وقد حصل سايكس على التفاصيل من هارون ارونسون الذي طلب عدم الاشارة الى مصدر الخبر .

(7) F. O. 882/14 . pa /17/6. Arab Bureau Papers.

(8) F. O. 882/26 Arab Bulletin .

مقال عن المستعمرات اليهودية في فلسطين .

(٩) وقد اكد ويليام ييل ذلك في تقريره الى الخارجية الامريكية ونقلـه السفير البريطاني في واشنطن في ١٣ تموز / يوليو ١٩١٧ :

F. O. 371/3050/ 158286.

(10) F. O. 371/3055 / 221243 / 87895 F.

(11) F. O. 882/14. Pa /17/2. Arab Bureau Papers.

(١٢) كان السفراء الامريكيون الثلاثة الى عاصمة الدولـة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى مـن اليهود المتعاطفين مع الصهيونية وهم ستراوس ومورغنثو وايلكوس . وقد زاد الاهتمام الامريكي مع نشوب الحرب وانسحاب ممثلي الحلفاء من الدولة العثمانية ، فاصبحت الولايـات المتحدة بذلك الحامية الرئيسية لليهود في فلسطين .

(١٣) كان نفوذ اليهود والدونمة (فرقة من يهود سالونيك اعتنقوا الاسلام ظاهريا) قويا في جمعيـة الاتحاد والترقي . وقـد لعبوا دورا هامـا في الانقـلاب العثمـاني ١٩٠٨ ، واحتـــل بعضهم مراكز ذات نفوذ في الدولة ، ومنهم جاويد بك وزير الماليـة (دونمة من سالونيك) وقرهصـو (المحامي اليهودي الذي كان مع الوفد الذي أبلغ السلطان عبد الحميد خبر خلعه .
Arab Bulletin 26. 9. 1916.

(14) F. O. 882/26 Arab Bulletin.

(١٥) من تقرير أرونسون الى المكتب العربي في مطلع ١٩١٧ .

F. O. 882/14.pa /17/14. Arab Bureau Papers.

وكذلك من مذكرة ادجار سوارس (من يهود مصـر) الى السلطات البريطانيـة في القاهـرة في ١٩١٦/١٠/١٩ .

F. O. 882/14 pa 16/1 Arab Bureau Papers.

(16) F. O. 882 / 14. pa / 17 / 6 Arab Bureau Papers.

(17) **Zionism and the Jewish Future,** ed. ted by Sacher H., London, 1916.

(18) F. O. 882/14. Pa /17/ 14 Arab Bureau Papers.

(19) F. O. 882 / 26 vol. ll. No. 39.

مقال « المستعمرات اليهودية في فلسطين » ص ٣٠ وما يليها .

(20) F. O. 882 / 14 Arab Bureau Papers.

(21) F. O. 882 / 26 Arab Bulletin.

وايضـا :

F. O. 882 / 14 . Pa 17 / 2 Arab Bureau Papers.

(22) F. O. 882 / 14 . Pa 16 / 15 Aarb Bureau Papers.

(23) F. O. 882 / 14 . Pa / 17 / 2 Arab Bureau Papers.

(24) F. O. 882 / 14 . Pa / 17 / 6 Arab Bureau Papers.

(٢٥) وصل مارك سايكس الى القاهرة في نيسان / ابريل ١٩١٧ ممثلا لبريطانية في البعثة الانجليزية الفرنسية التي ألحقت بالقائد العام للقوات البريطانية في مصر . وكان من مهامها دراسة الوضع في الشرق العربي وضمان قبول الزعامة العربية للخطط البريطانية في المنطقة العربية .

(26) F. O. 371 / 3053 / 162458 / 84173.

(٢٧) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، لندن ١٩٣٩ (مترجم) بيروت ١٩٨٠ ، طبعة سادسة ، ص ٣٥٢ – ٣٥٤ ، ٣٧٥ وفيه تفاصيل ردود الفعل العربية لاتفاقية سايكس بيكو وتصريح بلفور .

(28) F. O. 371 / 3054 / 225623 / 86526..

(29) F. O. 371 / 3398 / 27647.

من برقية كلايتون الى وزارة الخارجية في ١٩١٨/١٢/١ .

(30) F. O.. 371 / 3054 / 235780.

(31) F. O. 371 / 3054 / 235200 / 84173.

(٣٢) برقية كلايتون الى الخارجية في ١٩١٧/١٢/١٤ الوثيقة السابقة .

F. O. 371 / 3054 / 235780.

(٣٤) من برقية وينجيت (المندوب السامي البريطاني في مصر) الى الخارجية .

F. O. 371 / 3054 / 245810.

(٣٥) هذه الصيغة هي خلفية ما يعرف برسالة هوغارث الى الحسين . وكانت التعليمات الموجهه الى هوغارث مي ابلاغ الحسين رسالة شفوية ، الا أن الاخير دونها ، واطلع عليها انطونيوس فيما بعد . ولم تنشر الحكومة البريطانية وقائع ما دار بين هوغارث والحسين حتى كان مؤتمر المائدة المستديرة (سان جيمس) حول قضية فلسطين في لندن ١٩٣٩ ، حيث نشرت مع تقرير اللجنة الخاصة التي كلفت ببحث مراسلات الحسين مكماهون :

Cmd. 5957 , Mis . No. 3, 1939.

وايضا جورج انطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٢٧٥ – ٢٧٦ .

(٣٦) تشير الرسالة في آخرها الى « عدم ضرورة نشر أي شيء منها في الصحف نظرا لما ينتج عنها من ضرر » .

(37) F. O. 371 / 3388 / 14557.

(38) F. O. 371 / 3388 / 14557 / 2070.

(39) F. O. 371 / 3388 / 14557.

(٤٠) جاء في المقطم ١٩١٨/٤/١٠ نقلا عن المجلة الصهيونية في القاهرة أن أعضاء البعثة الصهيونية ، بالاضافة الى وايزمان رئيسها ، هم « جوزيف كوين من اعضاء مجلس ادارة الشركة اليهودية للاستعمار ومجلس شركة انجلو فلسطين وكان من أكبر أعوان هرزل ، وليون سيمون من موظفي الحكومة البريطانية ومن المختصين بقضايا التعليم العبراني ، واسرائيل سيف وكيل رئاسة

المؤتمر الصهيوني في انجلترا وعالم في قضايا جغرافية واقتصاد فلسطين ، سلفان ليفي استاذ اللغة السنسكريتية في كلية فرنسا ، والدكتور ادر مندوب جمعية الاراضي اليهودية . وكان الماجور آورمسبي غور يصحب اللجنة كممثل للحكومة يساعده الكابتن جيمس روتشلد ابن البارون ادموند روتشلد » •

(41) F. O. 882 / 27 Arab Bulletin.

(42) Arab Bulletin 27. 3. 1918 , p. 91

وايضـا :

Arab Bulletin 7. 4. 1918, p. 92.

وايضا رسالة هوغارث في ١٩١٨/٤/٢

F. O. 882 / 14 Pa / 18 / 5 Arab Bureau Papers.

(٤٣) من تقرير آورمسبي غور ضابط الارتباط البريطاني المرافق للبعثة الى بلفور في ١٩١٨/٤/١٩ .

F. O. 371 / 3395 / 11053.

(44) Arab Bulletin , 30 . 4 . 1918.

(٤٥) كان رونالد ستورز قد عين حاكما عسكريا على القدس في ١٩١٧/١٢/٢٨ ، وتربطه باليهود صلات وثيقة منذ أن كان السكرتير الشرقي في دار المندوب السامي (المعتمدية سابقا) حتى ان الاحتفال بتعيينه حاكما عسكريا في القدس جرى في كنيس الاسكندرية . مع ذلك فقد اصبح ستورز موضع اتهام وايزمان بحجة عدم مسايرته الاهداف الصهيونية التي يتضمنها تصريح بلفور ، أي مع الوسائل التي يمكن بها تنفيذ الوطن القومي اليهودي .

Storrs, R. , Orientations , London. 1937, p. 379.

(46) F. O. 371 / 3398 / 92392.

(47) F. O. 371 / 3395 / 98470 / 11053.

(48) Arab Bulletin, 4. 6. 1918.

(٤٩) سعت الزعامة السورية في القاهرة الى التأكد من نوايا بريطانية في المستقبل بالنسبة للمنطقة العربية ، فتقدم سبعة من أعضاء الجمعيات العربية السياسية في القاهرة بمذكرة الى وزارة الخارجية عبر المكتب العربي . وكان جواب الخارجية الى السبعة في مذكرة عرفت باسم التصريح الى السبعة في ١٦ حزيران / يونيو ١٩١٨ ، سلمها لهم وارلوند أحد أعضاء المكتب العربي وفي التصريح عبارات غامضة عن سياسة الحكومة البريطانية تجاه البلاد العربية الداخلة في الحدود المرسومة لمراسلات الحسين مكماهون : الاعتراف باستقلال المناطق العربية التي كانت حرة ومستقلة قبل الحرب او التي حررها العرب بانفسهم ، أما المناطق التي لا تزال تحت حكم الاتراك او التي استولى عليها الحلفاء فالتصريح ينص على أن سكانها سيفوزون بحريتهم واستقلالهم وسيكون نظام الحكم فيها مبنيا على رضى المحكومين :

Cmd. 5964 , 1939.

وايضا : أنطونيوس ، ص ٢٧٨ — ٣/١٢ .

(50) F. O. 371 / 3395 / 125475 / 11053.

(51) F. O. 371 / 3395 / 130342.

(52) F. O. 731 /3395.

(53) F. O. 371 / 3381 / 123868 / 1467.

(54) F. O. 882 / 14. pa 18/14 Aarb Bureau papers.

(٥٥) جاء هذا الخبر في وقائع الاجتماع السابع عشر للبعثة الصهيونية ٢٩ حزيران / يونيو ١٩١٨ وارسلت نسخة منها الى الخارجية قبل ان ترفع الى مكتب المنظمة الصهيونية في لندن .
F. O. 371 / 3395 / 137853.

(56) F. O. 882 / 14 Arab Bureau papers.

(57) Arab Bulletin 4. 6. 1918.

(58) F. O. 882 / 14 . pa 18 / 10 ArabBureau papers.

(٥٩) الوثيقة السابقة .

(٦٠) من برقية كلايتون الى الخارجية في ١٢/٦/١٩١٨ .
F. O. 371 / 3398 / 105824 / 27647.

وكذلك رسالة كلايتون الى الخارجية في ١٦/٦/١٩١٨ .
F. O. 371 / 3395 / 105824 / 27647.

(٦٢) نقل الافتراح وينجيت (المندوب السامي) في رسالته الى بلفور ٢٥ تموز / يوليو ١٩١٨ .
F. O. 371 / 3381 / 123868 / 146.

(٦٣) جاء ذلك في تعليق سايكس على رسالة وينجيت . وقد رفع سايكس فحوي التعليق في مذكرة الى « اللجنة الشرقية » المختصة ببحث شؤون الشرق العربي وكانت تتبع مجلس الوزراء مباشرة.
F. O. 371 / 3381 / 123868.

(٦٤) كانت السلطات العسكرية البريطانية في مصر تشرف على اصدار جريدة فلسطين (النسخة العربية من Palestine News) ، وكذلك على جريدة الكوكب ، للقيام بمهمة الدعاية لبريطانيــة .

(65) F. O. 371 / 3409 / 137855.
ووردت خلاصة الكلمات الخطابية في Arab Bulletin 16. 7. 1918

(66) F. O. 882 / 14 Arab Bureau Papers.

(67) F. O. 371 / 3381 / 146256.

(68)F. O. 882 / 14 Arab Bureau Papers.

ويضيف رئيس التحرير ـ محمد القلقيلي ـ الى ان تقريره ينبع من ولائه للحكومة البريطانية وللقضية المشتركة ، وان سوء الفهم لو ترك دون تصحيح قد لا يؤذي سمعة بريطانية وحدها بل يكون مدمرا للحركة العربية ايضا *

(69) F. O. 371 / 3395 / 167915

(70) F. O. 371 / 3395 / 177513

مِنْ وَثائِقِ التّاريخِ الاجتِماعِيّ لِلْقُطْرِ العِراقي
شهادةُ عيانٍ على فواجعِ الحربِ العالميّةِ الأولى

د . عبد النبي اصطيف

جامعــة دمشــق

مقدمـــة :

تشير دايانا وود ـ غريم جونز الى ان ((التاريـخ كما يمكن ان يلاحظ الباحث بتامل ، هو ورق في مجمله ... والسجلات الرسمية بمن قال ، وما قال ، ومتـى ، ونصوص المعاهدات والقوانين ، ونقاشات البرلمان ، ووقائع جلساته ، أمثلة واضحة عما يمكن أن يسمى بأوراق عامة))(١) .

ولكن ثمة الى جانب هذه الاوراق العامة أوراق أقل عمومية تشـمل مذكرات صانعي قرارات الدولـة بعد لقاءاتهم ومباحثاتهم ، ومسودات المعاهدات والقوانين ، والرسائل الخاصة لاصدقاء هؤلاء الصانعين للقرارات وأسرهم، واليوميات التي ربما حوت آراء مخالفة تمام المخالفة للموقف الرسمي ، وغيرها .

وكتابة التاريخ مهما اختلف الشان فيها مدينة في نهاية الامر الى نوعية المصادر التي ينهل منها المؤرخ ويعل ، محكومة بها عمقا وشمولا ، لان المصادر التي تستخدم هي التي تساعد على تحديد التوكيدات التـي نموضعها ضمن الكل المعقد للعمليـة

---

(١) انظر ،

Diana Grimwood - Jones, **Guide to Private Papers Collection,** Mansell, London, 1979, P. 37

التاريخية (٢) . من هنا كان هذا الالحاح الدائم والجهد الدائب لاستقصاء المصادر بمختلف انواعها الشغل الشاغل للمؤرخ الجاد .

وليس ثمة من يماري في أن تاريخ العرب الحديث لا يمكن أن يكتب الكتابة الحقة ما لم ياخذ المؤرخ العربي بعين الاعتبار جميع المصادر المتوفرة عن المنطقة العربية عامها وخاصها ، وما لم يحاول استقصاءها حتى يستوعب الجوانب المختلفة للعملية التاريخية المعقدة . واذا ترافق انبثاق الكيانات العربية القطرية الحديثة مع احتكاك الوطن العربي بالقوى الغربية ومواجهته المتعددة الابعاد لها ، فانه من الاهمية بمكان ان ينظر المؤرخ المعني بدراسة تاريخ المنطقة العربية في وقائع هذه المواجهة كما سجلها كلا الجانبين ، وان لا يكتفي بالعام منها بل يقرنه بالخاص أيضا .

ان المكتبات الاوربية المختلفة تحتفظ بجملة معتبرة من هذه الاوراق الخاصة التي تلقي ضوءا تتفاوت اهميته بتفاوت نوعيتها وحجمها ، ومن الضروري أن يكون الباحث العربي على وعي بها عندما يمارس الكتابة والبحث في تاريخه الحديث وفي مجمل التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مر بها وطنه .

وربما كانت المجموعة التي يملكها مركز الشرق الاوسط Middle East Centre التابع لكلية سانت أنتوني St. Antony's College احدى كليات جامعة أكسفورد المعروفة ، واحدة من اغنى هذه المجموعات واهمها رغم أنه لم يمض على البدء بجمعها أكثر من ثلاثة عقود .

والواقع أن باحثي الشرق الاوسط مدينون للاستاذ الكبير البرت حوراني وللسيدة اليزابيت مونرو بالبدء بهذه العملية والتي استهدفت جمع الاوراق الخاصة (الرسمية والشخصية) للرعايا البريطانيين ممن عملوا في الشرق الاوسط كممثلين للحكومة البريطانية ، أو في الجيش البريطاني ، أو كان الشرق الاوسط جزءا من اهتماماتهم كرحالة أو رجال أعمال ومصرفيين ، أو كأعضاء في بعثات ارسالية تبشيرية .

ومنذ عام ١٩٦١ والمجموعة تنمو بالتدريج ، اذ اصبحت تضم الان أوراق ما ينوف على ٣٠٠ شخص من بينهم جون فيلبي وجورج أنطونيوس وآخرين ، وتغطي الفترة التي تلي عام ١٨٠٠ ، وهي متاحة للباحثين من جامعيين وكتاب وصحفيين من مختلف أنحاء العالم .

---

(٢) انظر ،

Albert Hourani, **the Emergence of the modern Middle East,** University of California Press, 1981, P. 37

ومما يميز المجموعة غنى مادتها المتعلقة بفلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني، فهي تضم جميع أوراق المفوضين الساميين الذين تعاقبوا على فلسطين ، وجملة صالحة من التقارير والمذكرات واليوميات وتقارير شهود العيان لاشخاص مارسوا مهنا مختلفة ووظائف متنوعة ، تشمل مفوضية المنطقية ، والامن الداخلي ، والصحة والتعليم ، والارساليات التبشيرية .

وكذلك فان ما تحتويه من مواد عن المملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج العربي في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى يتمتع بأهمية خاصة . وكذا الشأن فيما يتعلق بسورية ولبنان في العقود الخامس والسادس والتاسع من القرن الماضي ، وفي فترة الحرب العالمية الثانية .

والمجموعة غنية أيضا بالمواد المتعلقه بتاريخ العراق في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، وذلك اضافة الى المواد المتعلقة بعدن في الاربعينات والسبعينات من هذا القرن وبمصر بشكل عام في القرنين الاخيرين .

وتضم الاوراق الخاصة المعنية بالقطر العراقي ما يقرب من ثلاثين مجموعة تغطي الفترة ما بين ١٨٤٠ و ١٩٧٠ ، من بينها اوراق السير جون فيلبي وجورج انطونيوس وهمفري ارنست بومن Humfhrey Ernest Bowman (١٨٧٦ – ١٩٦٥) الشيقة والهامة .

وحتى ابين للقارىء العربي اهمية هذه المواد التي تحتويها هذه المجموعة الخاصة فاني أقدم تحقيقا لاحدى الاوراق التي تمثل شهادة عيان على ما حل بالموصل من مجاعة وبؤس زمن الحرب العالمية الأولى . وقد عثر على هذه الشهادة ضمن أوراق بومن مدير التربية في العراق بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٠ .

ولكن من هو **بومن** هذا ؟

ولد السيد بومن في عام ١٨٧٦ ودرس في كلية ايتن Eton بين عامي ١٨٩٢ و ١٨٩٨ ثم في كلية « نيوكوليج » New College في جامعة اكسفورد بين عامي ١٨٩٨ و ١٩٠٠ ، حصل بعدها على اجازة في التاريخ الحديث ، ثم عمل محاضرا في كلية كلم Culham لمادتي التاريخ والأدب الانكلزي بين عامي ١٩٠٢ و١٩٠٣. وانضم بعد ذلك الى وزارة التعليم في مصر فشغل وظيفة مساعد لمدير المدرسة التوفيقية الثانوية حتى عام ١٩٠٥ عندما اختير محاضرا في دار المعلمين في القاهرة .

وعمل بين عامي ١٩٠٦ و ١٩٠٨ مساعد مفتش للتعليم ثم رقي الى مرتبة مفتش في نهايتها ، واستمر في عمله هذا حتى ١٩١١ .

وأعير في عام ١٩١١ الى قسم التربية في الحكومة السودانية ليكون مفتشا للمدارس هناك حتى عام ١٩١٣ عندما عين مديرا للطلبة المصريين في بريطانيا . ولكنه مالبث أن استدعي ليخدم في الجيش البريطاني في المملكة المتحدة وفرنسا والهند والشرق العربي حتى تسريحه برتبة رائد عام ١٩٢٠ . وقد عمل في أثناء ذلك مديرا للتربية في العراق بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢٠ وصحب البعثة العربية لنجد والكويت الى انكلترا . هذا وانفق بومن الفترة الطويلة الممتدة بين عام تسريحه من الجيش وعام تقاعده (١٩٢٠ ـ ١٩٣٦) مديرا للتربية في فلسطين عاد بعدها الى وطنه حيث توفي عام ١٩٦٥ .

ومن الجدير بالذكر ان اورافة الخاصة تضم .

ـ مجموعة مراسلاته الخاصة بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ .
ـ مجموعة مراسلاته وأوراقه الرسمية بين عامي ٩١٧ و ٩٢٣ .
ـ مجموعة محاضراته ومقالاته وأحاديثه الاذاعية المعنية بشؤون المنطقة التعليمية بشكل خاص .
ـ يومياته بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٣٧ .

كما وتضم مجموعته ألبوما ضخما للصور يحتوي على اكثر من ٣٠٠ صورة لبغداد والبصرة والموصل ومدارس الحكومة ، والاحداث الرسمية في العراق بين عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ . وسلسلة من الصور الجوية للمدن الرئيسية في العراق تعود الى العشرينات من هذا القرن مأخوذة من قبل سلاح الجو الملكي البريطاني .

هذا وتعود شهادة العيان المحققة التي أضعها بين يدي القارىء العربي الى الفترة التي خدم فيها بومن مديرا للتربية في العراق . وهي مهداة من السيد خير الدين الفاروقي ، المواطن العربي العراقي ، الذي كان مع علاقة ـ لم أتمكن من معرفة مداها وطبيعتها ـ بالسيد بومن ، وأرادها سجلا لوجه من وجوه فواجع الحرب في منطقة الموصل في القطر العراقي . وقد لفت انتباهي الى وجودها الآنسة جيليان غرانت G. Grant ، قيمة مجموعة الاوراق الخاصة في المركز المذكور ، التي وضعت مشكورة ((اوراقها الخاصة)) تحت تصرفي وسهلت بالتالي كتابة هذه المقدمة التي آمل أن تكون ، وشهادة العيان ، بعض عون لدارسي التاريخ العربي الحديث وخاصة ما اتصل بجوانبه الاجتماعية والتعليمية .

٥-

(الظلم لايدوم وان دام دمر)

١) جارت الايام على هذه الامة المظلومه وكشرت تحت اعباء السنين الخوالي الاربع ولاسيما في السنة الاخيرة للحرب التي ادمت القلوب وابكت العيون عيوناً فسقط الفرد البشري الى دركات الهوان والذل بصورة لم يفصح التاريخ ولم تنظر لها عين الحقيقه .

نعم ان الحرب قد ظهرت بمظاهر شتى فان بعض الممالك المتحاربة كانت لا تشعر بوجود الحرب الا قليلاً ولكن سكان الحدباء قد رأوا ما رأوه من الاهوال التي شابت لها الطفل الرضيع واسودت لها الاوجه المدنيه .

أجل يطول احصاء المصائب والويلات التي أمطرتها سحب الحرب والظلم المتكاثفة على سكان هذه البلدة التعيسة . فلقد كان الخلق من مهاجرين وفقراء وأطفال يأكلون جيف الكلاب والدواب ، ويجمعون الدماء ويجمدونها ويأكلونها . كل ذلك جرى نصب أعيننا ، ونحن متبلهون حائرون ، لا نجد لهذه الفوادح رادا ، ولا لهذا البلاء دواء . اذ كانت المصيبة عامة والدواء ممنوع(١) .

كانت الحكومة مشتغلة بنزع الاسباب الحياتية من أيدي الناس ، فقيرها وغنيها (٢) وذلك باسم اعاشة الجند ، ولكنا كنا نرى ، والقلب ينقطع أسفا ، ان (٣) الجيش أيضا بدأ يموت من الجوع في خنادق الحرب ، وكانت الذخائر المغصوبة من الاهالي تمر على هاوية تسمى « المنزل » و « الانبار » ، وهناك تتلاعب بها ايدي ٢] الظلمة ، فيأخذون ما يأخذون ويسرقون ما يسرقون ، حتى أن هذه الحالة ادت الى

الارقام على هامش الصفحة تشير الى ارقام الصفحات الاصلية من الوثيقة

ذكرى لجناب الكابتن يومن ناظر المعارف في القطر العراقي
آل الفاروقي
١ آذار ٩١٩

الصفحة الاولى من الرسالة

اعتراف أولي الامر بوقوع الارتكابات ، والقبض على بعض الاشخاص الذين لهم علاقة بتلك الجنايات ، ولكن المسئلة(٤) كانت لا تصطلح بقتل شخص او اعتقال غيره ، بل انما كان المصاب قد عم ، وليس من الامكان الوقوف امام تلك الاحوال .

فحينما كان الخلق ملقون على الشوارع والطرق ، يتضرعون جوعا ، كان كبار الامراء يشتغلون بمعاقرة بنت الحان ، والمقامرة طول لياليهم ، غير مكترثين بما يجري من تلك الوقائع المؤلمة . فكنت ترى النساء والاطفال مطروحين على الرصيف مكشوفين (٥) العورة ، يقاسون آلام الموت والجوع والبرد ، وكان ولاة الامور وقوادها يمرون شامخي الرؤوس يتبخترون بملابسهم الذهبية ، وبأيديهم السياط الفضية . يهزونها كبرا وغرورا ، وكأني بهم يخاطبون المارين من الشوارع ، منكسفين البال ، ناكسين الرؤوس(٥) (هل رأيتم اقتدارنا وهممنا ونتائج أعمالنا ، هلم (٦) فانظروا هذه الاموات ، فانكم أيضا محكومون بذلك ، ولكن الويل لكم ان فهتم ببنت شفة ، فان عقباكم تكون أتعس منهم) .

سبحانك اللهم ! ما هذا الغرور ، ما هذا الجبروت ؟ ان العزة لله جميعا .

نعم ، مضت علينا أيام سود حالكة مميتة مبكية قتالة ، وليس الذي استخلص
٢) حياته من تلك الظلمات الا من أهل السعادة .

كنت أرى من اللازم على كل محرر ، أو كاتب ، او أديب ، أو شاعر أن يسجل ببنانه ما سطرته يد المظالم على طرس البشرية التعيسة من السطور السوداء ، لتكون موعظة كبرى للأخلاف ، وعبرة لاولي الالباب . لذلك كنت كلما رأيت أو سمعت عن ثقة منظرا مؤلما ، او حادثا محزنا ، أسطره كذكرى يتناقلها الخلف عن السلف . ولكني كنت أحاذر أن تقع أوراقي المبعثرة بين يدي أولئك الظالمين فتكون علي شاهدا ، ويعود

علي بالبؤس والشقاء . اذ الحق قد بطــل ، والباطل قد حكــم ، واذ كانت النتائج أمامنا ، معلومة لدينا ، كنت اكتب أو لا أبالي ، واراقب كل ما يقــع .

لم يكن الظلم سائدا فقط ، بــل كان الجنــون ، والعماء(٧) المبرح أيضــا قــد غشى (٨) على الابصار والبصائر ، فكنت أرى بعض الذين يراسون الامور لا يفتأون(٩) من أن يحبذوا مسير تلك الادارة ومجريها (١٠) ، فكان كلما سمعوا شيئا مؤلما قالوا : هذا كذب ، لا حقيقة له ، ومن هنا يخطر لي حادثة جرت امامي وهي :

ان رجلا من مهاجري الاكراد أعطى معروضا قال فيه [ان البلدية قد منعت أكل لحوم الحيوانات المائتة ، ونحن معشر المهاجرين اكثرنا نتقوت بتلك اللحوم فنسترحم أن تأمروا برفع هذه الممنوعية ، أو اعطائنا أقواتا غير ذلك] .

فدار المعروض على دوائر شتى ، ذي علاقة ، أو غير علاقة ، ثم جاء لاحدى الدوائر التي هي متكلفة بأرزاق المهاجرين فكتبوا عليه هذا الجواب . ٤

[ان أكل لحوم المائتة من الدواب لا يقبله المنطق والعقل وعلى هذا فان المدعي مجنون أو شبه مجنون ، فيلزم أخذه تحت المشاهدة الطبية] .

فيا ليت شعري ، هل كان صاحب المعروض مجنونا ، أم تلك الدائرة ؟

ثم رأيت ذلك المتهم بالجنون متورم الوجه والارجل ، وبعد قليل ، قيــل انــه مات وهذا أمر طبيعي .

تلك مضحكات الدهر ومبكياته . ولم تقف المصائب عند هذا الحد فقط ، بل شاع احدى الايام أن أحد الاشخاص المسمى عبود بن فتحي جاويش(*) ، قد ارتكب امرا فضيعا (١١) ، الا وهو أكل لحوم البشر ، وعليه أجريت التحريات في بيته ، بعد أن فــر ، والقي القبض على ابنته الصغيرة وامرأته ، فاعترفتا بالجريمة ، ووجد في بئر البيت تسعة رؤوس (١٢) صغار وأحشاء وعظاما كثيرة انسانية ، وقد شاهدت بعيني احدى تلك الرؤوس وقد ربطت بهذه الورقة عكسهم الشمس (١٣) .

فهاجت(١٤) الخلق وماجوا ، واضطربت الانحاء ، فلم يتمكن المرقوم من الفرار بين تلك الامواج المتلاطمة غيظا وحنقا عليه ، فاعتقل مــن طرف البعض من الاهالي ،

(*) ان المرقوم من اهالي السليمانية اصلا .

واتي به الى دار الحكومة ، وحيث أن المرقوم شخص قد تمايز بعمله القبيح على امثاله
٥) من الجناة ، احببت أن اراه واكلمه ففعلت .

فكان المرقوم غير مكترث بما يصب عليه من جامات الغضب ، ووابل الشتم ، هادىء البال ، ساكن الجأش ، فكان يتكلم ببداهة غريبة ، وكلما بادهته بسؤال ، كان يتكلم بسكينة عجيبة ، ثم يعطي اجوبة مقنعة تشفع له عند مخاطبيه لانه كان يقول :

نعم أنا بنفسي كنت ادور الشوارع والتقط الاطفال الذينهم(١٥) في حالة الموت ، وائتي (١٦) بهم الى بيتي ، أذبحهم ، ثم آكل لحمهم . فابتدرته بالسؤال الآتي :

ـ اانت بشـــر ؟

فأجابني متهكما :

ـ كما ترانــي .

فقلت له : أما كنت تتألم من ذبح تلك الاطفال المعصومة ، أو ما كــان ضميرك يواخذك ؟ فقال متضاحكا :

الضمير . يا للعجب ، فان الذي يحس بوخس (١٧) الضمير هو الذي عنده بطن ممتلئة ، وقلب لا يرتجف من الجوع ، وشيء من القوت يأكله . فأسئلكم(١٧) يا سادتي ان كنت أنا مجرما ، فاني لا ارفض الجزاء ؛ بل اني حاضر لاستقبال الحبل الـذي يلتف على عنقي ، ويرفع روحي الى ربي ، كي أتخلص من هذه الروح التعيسة ، ولا ارى وجوها كوجوه أرباب دولتكم الذين اوقعوا البشرية الى هذه الدركة من الذل .

ناشدتكم الله ، لو كنت جئت اليكم قبل هــذا وقلت لكم اني قد اكلت لحــوم الكلاب ولحوم الدواب ، وحفرت القبور ، وأخرجت الجنائز ، واكلتها جوعا ؛ ليس جناية على نوعي ، وتوسلت اليكم أن تسعفوني بما يقيتني مع امراتي وطفلي ما كان يكون جوابكم ؟

كنتم تقولون أن هذا مجنون وتطردوني ، او تعطوني كسيرات من الخبز مــن
٦) فضلات طعام خدامكم . لذلك لم اقبــل ذل ســؤال عظمائكم المنغمسين بالشـهوات التاركين الخلق في ديجور هذه المظالم ، واقترفت جناية ؛ لم يفعلها غيري .

اذاً يجب على الحكومة الجائرة أن تفعل ما عليها من الوجائب الظاهريـة ، اي تأمر بقتلي قصاصا ، وهذا حق مشروع . ولكني اقول لكم بأن قتلي لا يكون سـببا لاصلاح (١٨) ما عبثت بـه أيدي الجـور والظلم . فان اعطـاء الجزاء لا يكفي لردع الفضائع (١٩) ، بل يجب على المجازي أن يتحرى عوامل تلك الجرائم وأسبابها ويقمعها كي لا تعود بمثلها . فان جريمتي أكل لحم البشر ، وأما سـببها فالجوع ، وسـبب الجوع الغلاء ، وسبب الغلاء الظلم ، فان كنتم تريدون خيركم ، فاقمعوا الظلم ، والا فان قتلي لا يسمن ولا يغني من جوع . بل يكون سـببا لخلاصي من هذه الحيـاة المنكودة ، وتلك عندي من أعظم السعادة .

يمكن أن القارىء يظن أن هذا الكلام مختلق ، ولكن ذلك الوحش الضاري قـد فاه بهذه المقاصد ، لا حرفيا بل ضمنا ، وكان لسان حاله يصرخ قائلا :

ألا فليمت الظالمون .

وكان الحكم عليه ، وعلى امرأته بالصلب ، فصلبا وهاك صورتهما .

كنت حاضرا حين الصلب ، فلما ارتفعت جثتهما (٢٠) متدليتان (٢١) على الحبل ، ارتفع الى عنان السماء هتاف وتصفيق حاد ، اقشعر لـه بدني فسئلت(٢٢) أحـد الواقفين قائلا :

فقـال : انهم يهتفون للعدالة ويصفقون لها .

فقلت .

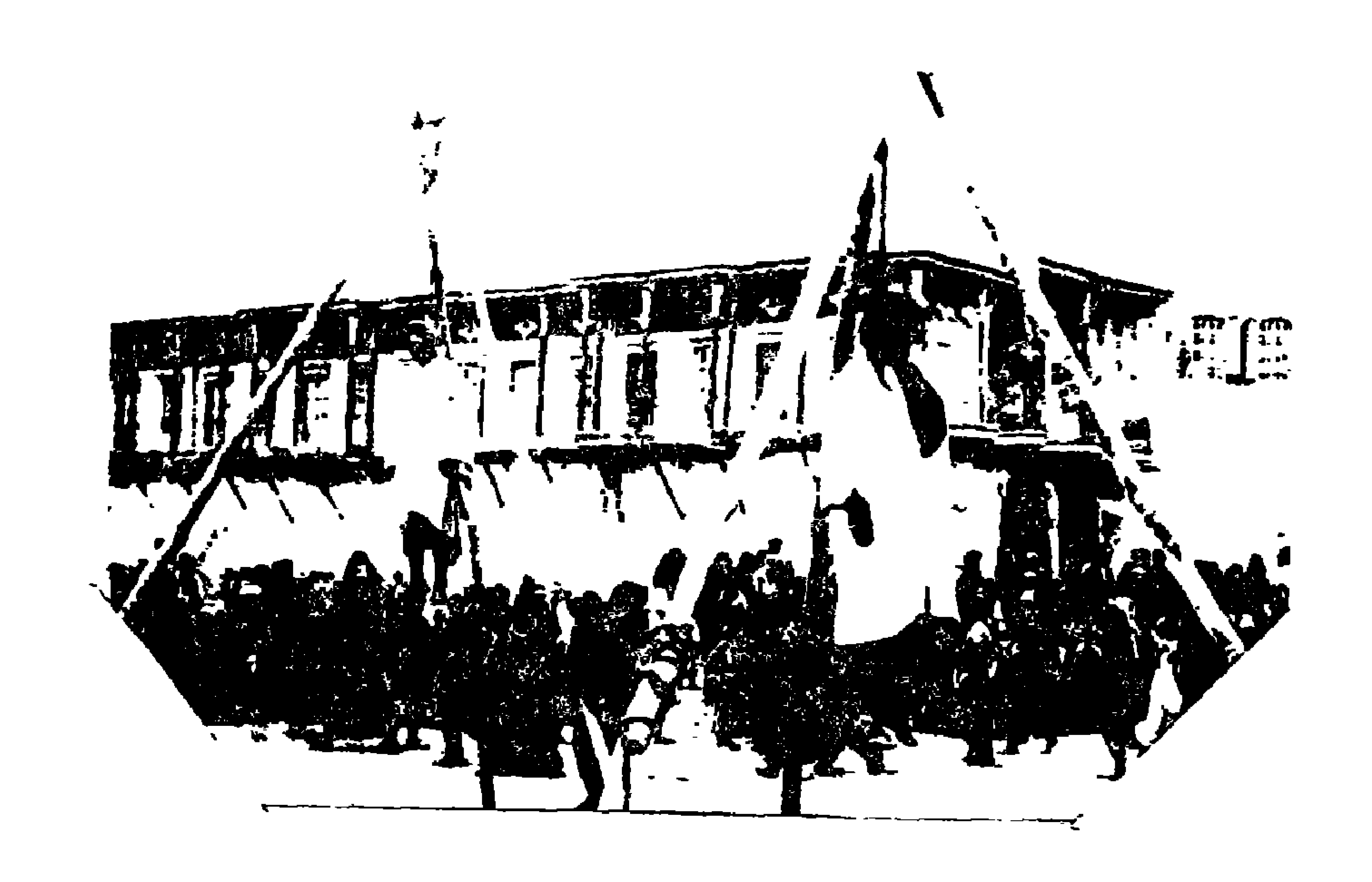
[٧] يا هذا ! ان هذه فجيعة بشرية ، ولم أعهد الهتاف يكون للفجائع والمصائب . فان الايام التي تكون فيها الغابات (٢٣) مأكلة للمشانق يكون العدل فوق التابوت . لان المشنقة والعدالة ضدان قلما يجتمعان .

فحدجني بنظرة ، ملئها (٢٤) الازدراء والانفعال وتباعد عني .

فقلت اللهم ! انظر الى هذه البهائم الناطقة المنتشرة في هذا الميدان ، انهم يعززون الفجائع بالهتاف لها ، فكنت اريد أن الاكف التي احمرت بالتصفيق بصلب هذا المنكود وامرأته لا تسقط تحت راس مطأطأ أمام الظلمة ، بل تذهب وتقبض على أعناق الظالمين وترمي بهم الى الحضيض مثلما القوا الناس في حضيض المذلة ، ولكن يا بعد ما أتمناه .

فكنت ترى بذلك الميدان مصلوبين محيط بهما جيش عرمرم من بهائـم الناس وامراء مبتسـمين متضاحكين ، وفوقهم الكابوس الاعظم وهو الظلم والخوف قد أحنى اظهرهـــم .

١٣٣٧ / ١٩١٩ — خير الدين الفاروقي



عبود بن فتحي ياديشي وامرأته على المشنقة
في ميدان باب الطوب في الموصل في ١٩١٨

هوامش المحقق

(١) كذا في الاصل ، والصحيح « ممنوعا »

(٢) كذا في الاصل ، والصحيح « فقيرهم وغنيهم »

(٣) كذا في الاصل ، والصحيح « أن »

(٤) كذا في الاصل ، والصحيح « مسألة »

(٥) كـذا في الاصـل ، والصحيح « مكشوفي » و « منكسفي » و « ناكسي »

(٦) كذا في الاصل ، والصحيح « هلموا »

(٧) كذا في الاصل ، والصحيح « والعمى »

(٨) كذا في الاصل ، والصحيح « غشي » دون حرف الجر « على »

(٩) كذا في الاصل ، والصحيح « يفتؤون » لأنها تعامل معاملة الهمزة المتوسطة

(١٠) كذا في الاصل ، والصحيح « مجراها » ، والعبارة مجراها ومرساها مقتبسة من القرآن

(١١) كذا في الاصل ، والصحيح « فظيعا » ، وربما كان سبب استبدال الضاد بالظاء ، أن الناس في القطر العراقي يقلبون الضاد ظاء

(١٢) كذا في الاصل ، والصحيح « رؤوس »

(١٣) يقصد صورتها الشمسية

(١٤) كان الاولى به أن يقول « فهاج الخلق وماجوا »

(١٥) كذا في الاصل ، والصحيح « الذين هم »

(١٦) كذا في الاصل ، والصحيح « وآتي »

(١٧) كذا في الاصل ، والصحيح « يوخز » و « فاسألكم »

(١٨) كذا في الاصل ، والصحيح « لاصلاح »

(١٩) كذا في الاصل ، والصحيح « الفظائع » وانظر الهامش رقم « ١١ »

(٢٠) كذا في الاصل ، والصحيح « جثتاهما »

(٢١) كذا في الاصل ، والصحيح « متدليتين »

(٢٢) كذا في الاصل ، والصحيح « فسألت »

(٢٣) كذا في الاصل ، ولعله يقصد « الغايات »

(٢٤) كذا في الاصل ، والصحيح « ملؤهـا »

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب كان يضع فوق كل الف ممدودة ــ متلوة بهمزة ــ مدة ، متأثرا فيما يبدو باحكام التجويد المتعلقة بالمد على نحو خاص .

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول : د . شاكر الفحام **رئيس التحرير : ناظم كلاس**

العددان التاسع عشر والعشرون ، نيسان ــ تموز ١٩٨٥

المراسلات :

لجنة كتابة تاريخ العرب ــ مجلة دراسات تاريخية
جامعة دمشق ــ الجمهورية العربية السورية

الاشتراك السنوي :

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية او ما يعادلها

للافراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سورية او ما يعادلها

تضاف اليها اجور البريد الجوي او العادي

حسب رغبة المشترك

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة
في السنوات السابقة بالقيمة نفسها

في هذا العدد

تنويـه

- ☐ ترتيب البحـوث يخضع لاعتبارات فنيـة .
- ☐ الآراء الواردة في المجلة تعبر عن راي كاتبها



تقديم

ان لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، وقد قطعت شوطا اساسيا في انجاز الخطوط الرئيسية لمشروع كتابة تاريخ العرب على صعيد الاعداد الفكري الاولي، وعلى الصعيد العملي ، رأت ان تحقق خطتها للعام الحالي نقلة نوعية على درب هذا الهدف العلمي والقومي النبيل ، تتجاوز مرحلة التهيئة والتحضير الى مرحلة التنفيذ . وفي سبيل ذلك دعت اللجنة الى ندوة تعقد في رحاب جامعة دمشق ، تضم مؤرخين وباحثين ومفكرين من جامعات ومراكز بحث علمي عربية متعددة ، في الفترة الواقعة بين ١٢ — ١٤ تشرين الاول ١٩٨٥ ، من اجل عرض ما تم انجازه حتى الان ، ولتدارس الخطوات التنفيذية اللازمة والاجراءات العملية الضرورية للسير قدما على درب تحقيق هذا المشروع واخراجه الى حيز الوجود .

ان لجنة كتابة تاريخ العرب تعود فتؤكد ما اعلنته مرارا عن قبل ، من انها على قناعة تامة بان اسهام المؤرخين والباحثين والمفكرين العرب ، في كل مكان ، ومشاركتهم مشاركة كاملة في انجاز هذا المشروع الجليل ، مطلب اساسي ، وشرط ضروري من شروط نجاحه ، وظهوره النور في اكمل صورة واتم وجه . وانها ، اذ تتقدم بالشكر للاخوة الزملاء الذين لبوا دعوتها وشاركوها مسيرتها ، تعود فتجدد الدعوة للذين لم يشاركوا بعد كي ينضموا الى الركب ، يحدوها الامل ان تلقى دعوتها ما تستحق ،لما عرف عنهم من غيرة قوميةوالتزام جاد بالمنهجية العلمية ، ومن مساهمات مشكورة في

خدمة امتنا العربية المجيدة . وهي ترحب كل الترحيب باية مشاركة مهما كان نوعها وميدانها ، وتتقبل بالشكر كل مقترح وراي ينير طريقها ويسدد خطاها .

في الصفحات التالية ، هدف المشروع ومبادىء العمل فيه ، وحلقاته الرئيسية، وبعض توجيهات عامة .

مشـــروع
كتابـــة تاريخ العـــرب

١ ــ هدف المشروع :

اعادة كتابة تاريخ العرب في موسوعة كاملة واحدة تؤكد الوحدة العريقة للامة العربية وغزارة ما قدمت للحضارة الانسانية ، وتكون وسيلة بين ايدي الاجيال العربية الجديدة لفهم الحاضر (الواقع) العربي في جوانبه المضيئة وجوانبه المظلمة وفي امكاناته الواعدة ، ولتزويد هذه الاجيال بالثقة بنفسها وبأمتها وبالقدرة على استيعاب منطق التقدم نفسه وبالوعي التاريخي الذي يحرر الماضي من اثقاله ويمنحه وزنه الحقيقي، والذي يعمل على تكوين بعد اساسي من ابعاد الشخصية العربية .

ان اعادة كتابة تاريخ العرب تنبع من حاجة قومية قائمة وملحة لتحرير الارادة القومية المبدعة في انطلاقها لصنع التاريخ الجديد ، ولذلك ليس المطلوب مجرد اضافة كتاب الى الكتب الموجودة ، بل المطلوب من كتابة التاريخ العربي من جديد ان يبرز خصائصه الكبرى ومنها :

١ ــ انه يحتفظ في جميع مراحلة بنزوع عميق الى ترسيخ وحدة الامة العربية . فهو يرسم خطا متصلا على الرغم من التعرجات والالتواءات التي فرضتها عليه التحديات الخارجية وعوامل الوهن الداخلي . فأمراض التخلف والتجزئة التي

لحقت أحيانا بجسد الامة العربية لم تحرف روحها الدفينة عن امانيها الثابتة . وذلك يؤكد ان الامة العربية لا تملك تاريخا واحدا فحسب ، ولكنها تنعكس في تاريخ وحدوي أصيل .

٢ ــ ان التوق الى العدل في صوره الفردية والاجتماعية ، سمة بارزة من سماته : تجسد ذلك في الفترات التي كان العرب فيها سادة انفسهم ، كما بقي، في الفترات الاخرى ، مخزونا في ضمائرهم ، يكشف عن نفسه في حركات القلق المتمرد وفي جملة نتاجهم الروحي .

٣ ــ ان الحرية بكل معانيها ملازمة للوجود العربي في الزمان والمكان، فهي من مقدسات الافراد والجماعات لدى العرب ، يدافع عن بقائها ويعتز بها حين تكون ، ويجاهد في سبيل استردادها حين تزول .

والعبرة هنا ليست في أشكال الحرية التي تحددها مقتضيات العصور وظروف النمو ، وانما في معناها الراسخ القائم على رفض السيطرة والطغيان ، وعلى الايمان بانها قانون الحياة الانسانية .

٤ ــ ان العرب لم يتخلوا مطلقا عن حمل رسالة انسانية ، فهم متفتحون على كل ماهو خير عند الاغيار ، قادرون على الأخذ والعطاء وعلى التفاعل الخصيب مع الانجازات البشرية ، بل ان القيم الكبرى التي تحدوهم للنضال لم يعتبروها حكرا لهم او مقصورة عليهم بمقدار ما اعتبروها حقوقا طبيعية للجماعات الانسانية كلها .

٥ ــ ان رابطة حية تجمع بين مظاهر الحياة العربية ، فأحداث السياسة لا تنفصل عن نتاج الفكر والوجدان ، ولا عن نزعات الشعب الدائمة . لذلك يجدر بالتاريخ العربي ان يؤكد الصلة بين تجلياته المتعددة بحيث يبرز ما فيها من تأثير متبادل، ومن تعبير موحد في الوقت نفسه .

٦ ــ ان التاريخ العربي الذي يكشف عن روح الامة العربية لا يمكن ان يفسر بهذا العمل وحده او ذاك ، وانما يفهم في ضوء مجموع العوامل المتآزرة حينا والمتناقضة حينا آخر ، بحيث يتضح دور كل من البيئة والتطور الاقتصادي والمؤثرات الاجنبية ، والتحديات والضعف الداخلي ، وغير ذلك ، الى جانب الارادة المصممة على تحقيق القيم المعنوية والرسالة الانسانية .

٢ ـ مبادىء العمـل :

تجري كتابة (تاريخ العرب) ضمن منظورات ثلاثة هي : المنطلـق الوحـدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد باسلوب البحث العلمي .

آ ـ ينطلق العمل من الايمان العميـق بوحدة الامة العربية بمر العصور مـن جهة وفي مختلف اقاليم الوطن العربي من جهة اخرى . والمنطلق الوحدوي يقتضي :

- كشف وحدة التيارات التاريخية والحضارية في مختلف العصور .
- اظهار ترابط الاقطار العربية وخاصة عند تعرضها للاخطار الخارجية التي تستهدف الوطن العربي أو جزءا منه .
- تأكيد استمرار العطاء الحضاري العربي للانسانية بمر العصور ، وفاعلية هذا العطاء وقيمته الانسانية الرفيعة .
- تجنب مزالق التعصب العنصري ، ومشاعر التفرقة والعصبيات الدينية او الطائفية .

ب ـ اما الفهم الحضاري للتاريخ فيهدف الى ابراز الجانب الانساني من تاريخ العرب ، واعطاء هذه الامة قيمتها الحضارية بين الامم . لهذا يؤكد على :

- ضغط التفاصيل السياسية والاحداث الهامشية قدر الامكان . وبالمقابل يجري التركيز على ابراز الاحـداث الحضارية مـن اجتماعية وفكريـة واقتصادية وفنية .
- تخفيف ما اعتاد المؤرخون من قبل ابرازه من ادوار الافراد في التاريـخ ، ليبرز بالمقابل دور الشعوب والقواعد الجماهيرية الواسعة .
- النظر الى التطورات التاريخية على انها تطور مجتمعات ذات روح حضارية واحدة وحركة ذاتية متصلة واتجاه لا ينقطع نحو الاسمى .
- كشف ما قدمه العرب من اسس حضارية للانسانية وبيان استمراريـة هذه الاسس وفاعليتها .

ج ـ واما التقيد باسلوب البحث العلمي فهو يقتضي :

- اتباع المنهج التاريخي في اغنى صوره ، من حيث اعتمـاده على مختلـف العلوم المساعدة وعلى المصادر الاصلية ، وعلى التوثيق الدقيق .
- عرض الآراء المختلفة عند الضرورة عرضا موضوعيا .

- تحليل الاحداث والوقائع في تطورها الحي وليس سردها المتسلسل السكوني .
- بحث الاحداث في جذورها الاقتصادية والاجتماعية واظهار دور العوامل الروحية ، وذلك بحسب ما تقتضيه الفترة التاريخية وطبيعة الاحداث .
- عدم اهمال الصلات العالمية تأثيرا وتأثرا في مختلف العصور ، بمعنى ان يكون المنظور العالمي الشامل حاضرا في الذهن عند التحليل والتفسير .
- اعتماد القيم الاساسية في الثقافة العربية لتقويم الاحداث الهامة والاشارة الى النقائص والاخطاء .
- الاهتمام الدائم بشرائط العرض التاريخي من حيث التماسك الداخلي ووضوح العبارة وسلامة الاسلوب .

هذا وان الهدف الاول من مبادىء العمل كلها ان تكشف الموسوعة عن روح الامة العربية وعبقريتها الذاتية ، وان تتخذ الاحداث الكبرى دلالات قومية وانسانية بحيث تفصح عن معنى الوجود العربي ونمائه في التاريخ .

٣ ـ حجم مؤلف (تاريخ العرب) وحدوده الزمنية واقسامه :

ينقسم (تاريخ العرب) الى خمس حلقات أو مراحل كبرى :

اولا ـ الاصول (في مجلدين) :

١ ـ جغرافية الوطن العربي .
٢ ـ الوطن العربي مهد الحضارات الاولى .
آ ـ التاريخ القديم لبلاد الشام وما بين النهرين والجزيرة العربية .
ب ـ تاريخ مصر القديم .
جـ ـ تاريخ المغرب القديم .

يتم التركيز على **التفاعل** بين الحضارات القديمة في الوطن العربي **والسمات المشتركة** بين هذه الحضارات **وأثرها** في تكون الامةالعربية .
٣ ـ الجذور التاريخية للامة العربية (الحضارة العربية قبل الاسلام).

ثانيا ـ الدولة العربية (في خمسة مجلدات)

آ ـ عهد الرسول ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الاموية ، والعصر العباسي الاول .

ب ـ الجناح الغربي من الوطن العربي : المغرب والاندلس وصقلية حتى قيام الخلافة في الاندلس .

ثالثا ـ تفكك السلطة المركزية (في ثلاثة مجلدات):

آ ـ سيطرة الجند التركي والبويهيين والسلاجقة ، وقيام الدويلات في الخلافة العباسية .
ب ـ قيام الخلافة الفاطمية في المغرب ومصر وبلاد الشام .
جـ ـ الخلافة في الاندلس .
د ـ ازدهار الحضارة العربية في المشرق والمغرب .

رابعا ـ التحديات والصمود (في اربعة مجلدات) :

آ ـ غزو الصليبيين والمغول للوطن العربي :
ب ـ ردود الفعل العربية في عهود الاتابكة والايوبيين والمماليك والمرابطين والموحدين .
ـ السلالات الاقليمية في المغرب والاندلس .
جـ ـ ابراز المظاهر الحضارية والتأثيرات المتبادلة بنتيجة الصراع بين الامة العربية والغزاة .
د ـ احتلال العثمانيين معظم اقطار الوطن العربي في القرن السادس عشر .
هـ ـ الثورات العربية على العثمانيين منذ القرن السادس عشر .
و ـ ظهور الحكم المحلي في المشرق والمغرب العربيين في القرن الثامن عشر .

خامسا ـ اليقظة القومية العربية (في مجلدين) :

آ ـ الوعي القومي في القرن التاسع عشر : عوامله ومظاهره .
ب ـ التدخل الاستعماري الاوربي .
١ ـ التدخل الاوربي في الوطن العربي .
٢ ـ الاحتلال الاوربي لاقطار الوطن العربي .
جـ ـ حركة النضال العربي:
١ ـ دور القوى التقليدية (الدينية والاقطاعية) .
٢ ـ دور الاحزاب ذات الاهداف الوحدوية والاجتماعية .

توجيهات عامـة

آ ـ عند كتابة **مرحلة الاصول** يستحسن مراعاة الامور التالية :

١ ـ ابراز الوجه الحضاري للامة العربية قبـل الاسلام والالحاح على اظهـار المنجزات الحضارية والثقافية للامة العربية في هذه المرحلة من تاريخها، ودحض الاتجاه الذي يحاول تصوير هذه المرحلة بانها فترة مظلمة خلت من كل تقدم وعطاء وقيم .

٢ ابراز التشابه في بعض المظاهر الحضارية بين مختلف الحضارات التي قامت على ارض المشرق العربي في (الدين ، المنجزات العمرانية ، المظاهر الفكريـة ، بعض التشريعات والقوانين والاعراف والتقاليد ، الاوضاع الاجتماعية) مع مراعاة ما ادى اليه التماس مع بعض الحضارات غير العربية من اختلاف في هذه المظاهر في منطقـة دون اخرى .

٣ ـ التاكد على ان الاسلام لم يكن مقطوع الصلة بالقيم والجوانب الايجابية في المجتمع العربي قبل الاسـلام ، وابـراز بعض المظاهـر السياسـيـة والاقتصادية والاجتماعية ، والقيم الاخلاقية ، التي كانت سائدة في المجتمع العربي قبل الاسلام، لتكون المرتكز في تاكيد ذلك .

٤ ـ بيان الصلة القائمة بين العروبة والاسـلام ، بالمقارنة بـين علاقة الاسـلام بالتاريخ العربي وعلاقته بتاريخ الشعوب الاسلامية الاخرى .

ب ـ وعند كتابة **مرحلة الدولة العربية** يستحسن مراعاة الامور التالية :

١ ـ التاكيد على ان الاسلام عطاء عربي ورسالة انسانية تمثل القيم العربيـة ، حملها العرب الى العالم ، مع ابراز الملامح الجديدة للمجتمع العربي بعد قيام الاسلام والتغيرات التي دخلت عليه .

٢ ـ ابراز دور الاسلام القومي في توحيد العرب واقامة الدولة العربية .

٣ ـ التاكيد على الوجود العربي في المناطق المفتوحة قبل الفتح ، واظهار أن الفتح لم يكن عملية غزو عسكري ، وابراز أهمية العامل العقائدي في الفتح او دحض نظرية العامل الاقتصادي كسبب اساسي للفتح ، والتركيز على كل الاحداث التي تبرزالدافع القومي في الفتوح في مواجهة الفرس والروم .

٤ ـ ابراز أهمية ظهور فكرة الدولة المركزية ذات الهدف الواحد والعقيدة الواحدة في توضيح الصراعات التي قامت بين النظرية القبلية ونظرية الحكم من المركز زمن الراشدين ، وبين الدولة العربية والقوميات التي خضعت لها في العصرين الاموي والعباسي (موالي ، شعوبية . .الخ).

٥ ـ اظهار دور العاملين الاقتصادي والقومي في شرح احداث العصرين الاموي والعباسي .

٦ ـ ابراز أهمية تمازج الثقافات في العطاء الحضاري والثقافي في العصرين الاموي والعباسي .

٧ ـ ابراز الوجه العربي للعصر الاموي وشرح اسباب انحسار النفوذ العربي عن المسرح السياسي بدءا من القرن الثالث الهجري وما بعد ، وتحول الثقل الى بعض القوى التي تنتمي الى قوميات غير عربية ، (بويهيون ، سلاجقة . .الخ) ، والاعتماد في هذا الشرح على بعض العوامل مثل : (العامل الجغرافي، الجيش ، الاسباب الاقتصادية والاجتماعية وما دخل من تغيير على حياة العرب).

جـ ـ وفي كتابة **تاريخ المغرب والاندلس في العصور الوسطى** يستحسن مراعاة ما يلي :

١ ـ في عرض النزاعات في ظل الامارة الاموية في الاندلس لا يتم ابراز الجانب الديني في هذه النزاعات على حساب الجوانب الاخرى ، كالجانب الحضاري والثقافي والاقتصادي والقومي. . الخ.

٢ ـ اعتبار الحلقات المتلاحقة لتاريخ المغرب خطوات متابعة على طريق تكوين الشخصية الحضارية الواحدة للمغرب والمشرق على السواء ، أي عكس ما تسير عليه المؤلفات الحديثة المتأثرة بالكتاب الفرنسيين ، والتي تجعل روحه الحركة الصدام بين المغرب كوحدة ، مع المشرق كوحدة ، اسفر اخر الامر عن انفصاله التام .

والاهتمام بدحض التفسيرات ذات النزعة الاستعمارية الواضحة لبعض المؤرخين الفرنسيين .

٣ ــ ابراز وحدة المصير بين المغرب والمشرق منذ الفترات التي سبقت فتحه (وحدة السلطات السياسية المسيطرة ــ الدور العالمي المتماثل للطرفين قبل الفتح ــ جزء من التجزئة العامة ــ الاخطار الخارجية الواحدة والحملات الصليبية خاصة وابراز الترابط العضوي بين المغرب والمشرق ، وتبيان اثر ضعف الجناح الغربي على الجناح الشرقي ــ دور جزر المتوسط ــ تدهور السيادة العربية على الشواطىء الاطلسية واثره في تهديد الشواطىء العربية في المشرق حتى الخليج) .

٤ ــ توجيه الانتباه في دراسة التيارات المذهبية التي سادت في المغرب الى اعتبارها مظهرا من مظاهر الوحدة والتركيز على جذورها الاقتصادية والاجتماعية لا على الفكر المذهبي واختلافاته مع المذاهب الاخرى التي بالغ فيها مؤرخونا القدماء (مسالة الخلافة والامامة ــ الخوارج والشيعة) .

٥ــ اعادة النظر في تقويم موضوع انسياح القبائل البدوية العربية في المغرب وعدم الانسياق مع الاتجاهات المغرضة لبعض المؤلفات الحديثة وخاصة الاوربية فيه (توضيح مفهوم ابن خلدون لكلمة العرب ــ دورهم في الاضطراب السياسي والاقتصادي).

٦ ــ معالجة تاريخ الاندلس في جميع الفترات على انه « تاريخ العرب في الاندلس» وليس « تاريخ اسبانيا الاسلامية » الذي درجت المؤلفات الاوربية على استخدامه .

٧ ــ ابراز اعتبار الاندلسيين لانفسهم جزءا من ديار الاسلام الواحدة والتماثل بين المشرق والمغرب في مختلف نواحي الحياة الادارية والاقتصادية والثقافية .

د ــ ومع اخذ الملاحظات السابقة المتعلقة بكتابة **تاريخ المغرب والاندلس** بعين الاعتبار، يستحسن عند كتابة مرحلة **تفكك السلطة المركزية** مراعاة مايلي:

١ ــ شرح بعض الاحداث السياسية الداخلية والحركات الثورية والدينية في القرن الرابع وما بعد (قرامطة ــ زنج ــ عيارون وشطار . .) من منظور اقتصادي واجتماعي وبشري .

٢ ــ ابراز العطاء الحضاري والثقافي في الادوار العباسية المتاخرة ودحض المتعارف عليه من تسميتها بعصور الانحطاط .

٣ ــ التمهيد لشرح اسباب ومبررات الصدام بين الشرق والغرب من واقـع الدولة العربية بدءا من القرن الرابع الهجري ، ومع واقع العلاقات الدولية في المرحلة والاوضاع الداخلية في دول الغرب .

وعند كتابة مرحلة **التحديات والصمود** تؤخذ الملاحظات السابقة المتعلقة **بتاريخ المغرب** بعين الاعتبار ، ويستحسن مراعاة مايلي:

١ ــ التركيز على ردود الفعل الوطنية في المشرق والمغرب على حد سواء وفي جميع الاقطار العربية ضد مختلف اشكال الغزو الاجنبي .

٢ ــ مع شرح العوامــل الاقتصادية التي ادت الى قيــام الحملات الصليبية ، من المفيد ايضاح اثر الانشقاق الكبير في الكنيسـة وشرح استغلال التعصب الديني في الدعوة الى هذه الحملات .

هـ ــ وعند كتابة مرحلة **اليقظة القومية العربية** يستحسن مراعاة مايلي :

١ ــ من المفيد عدم المبالغة في اثر حملة نابليون في اليقظة القومية العربية على نحو ما يذهب اليه البعض من انها أوجدت هذا الوعي القومي من الفراغ ، والتركيــز على ردود فعل الشعب العربي عليها وعلى اثرها باعتبارها تحديا للامة العربية وكونها اول شرارة او اول احتكاك مع الحضارة الغربية كشفت عن فساد اساليب الحياة القديمة وتفسخ الحكم العثماني .

٢ ــ التركيز على ان الدعوة الوهابية باعتبارها دعــوة الى العــــودة الى المنابع الاصلية للدين هي اول تحد ديني عربي للزعامة الدينية العثمانية وعدم التركيز علــى الجوانب الاخرى من الدعوة الوهابية .

٣ ــ التركيز بالنسبة الى عهد محمد علي على تعريب الدولة وتحديثها ــ ظهور فكرة الدولة العربية ، وهي أول محاولة في التاريخ الحديث لاعادة تكوين الدولة العربية في المشرق والمغرب وتحدي السلطة العثمانية ووقوف جميع القوى الكبرى في ذلــك العصر ضد قيام دولة عربية قوية في المنطقة .

٤ ــ دراسة تيار الجامعة الاسلامية في مصر وسائر الاقطار العربية في افريقيا ومقارنته بالتيار القومي العربي في المشرق .

٥ ـ يتم ابراز البذور الاولى للفكر التقدمي الاشـتراكي في الفكـر العربي في الفترة المنتهية بنهاية الحرب العالمية الاولى .

٦ ـ يتم التركيز على شرح السياسة الاستعمارية في ترسيخ التجزئة وفي خلق الدعوات الاقليمية (البربرية في المغرب ، الفرعونية في مصر ، القومية السورية في بلاد الشام) وردود الفعل العربية على هذه الدعوات .

٧ ـ في دراسة الحركة الصهيونية وتحالفها مع الاستعمار يجب الا يهمل ابراز المصلحة المشتركة بينهما في اقامة حاجز يفصل المشرق عن المغرب ويحول دون قيـام الوحدة العربية .

٨ ـ يتم التركيز على شمولية ردود الفعل على الحركة الصهيونية لجميع اقطار الوطن العربي .

المؤتمر الإسلامي العام في القدس ١٩٣١

محاولة للبحث عن نصير

د. خيرية قاسمية

جامعة دمشق

مقدمـة :

اتخذت فلسطين وضعا متميزا منذ نهاية القرن التاسع عشر ، حين اصبحت هدفا للحركة الصهيونية ، وخلال الحرب العالمية الاولى التقت على ارض فلسطين المصلحة البريطانية والصهيونية لايجاد الوطن القومي اليهودي ، وجاءت قرارات سان ريمو ١٩٢٠ لتحكم عليها بنظام الانتداب البريطاني الذي تكفل بانشاء الوطن القومي اليهودي فيها . ولم تنفرد فلسطين بهذه الظاهرة الاستعمارية ، فقد خرج عدد كبير من الاقطار العربية الاسلامية من الحرب وهو يرزح تحت صور مختلفة من اشكال النفوذ الاجنبي ، وأخذ يسعى لازالة السيطرة الاجنبية ولنيل الاستقلال التام . وفي فلسطين تعقدت المهمة ، لان الحركة الصهيونية كانت ذات طبيعة خاصة تختلف عن طبيعة اي احتلال اجنبي او اية قضية استعمارية اخرى ، ((فهي عاملة بكل الوسائل لاستئصال الوجود العربي من فلسطين ، بل من كل المنطقة العربية التي تتناولها مخططاتها)) (١) . وكذلك لانها كانت تحظى بتأييد اجماعي من الدول الغربية الاستعمارية.

وكان توازن القوى بين عرب فلسطين من جهة ، وتحالف الامبراطورية البريطانية مع الصهيونية العالمية خلال فترة الانتداب ، من جهة اخرى ، مفقودا . ولم يغب عن ابناء فلسطين ، وهم يواجهن الخطر المزدوج البريطاني ـ الصهيوني ، ان بوسعهم مقاومة سياسة الانتداب والصهيونية بنجاح أكبر لو التقوا مع قوى وطنية اخرى ،

عربية واسلامية ، تعمل على تحرير بلادها من الوجود الاقتصادي والسياســي الذي تعتبر الصهيونية اخطر اشكاله . وقدم قادة الحركة السياسية الفلسطينية قضيتهم على انها جزء من تحد عام للعالمين العربي والاسلامي(٢) : ففلسطين جغرافيا وتاريخيا قطعة من الوطن العربي بل صلةالوصل بين شطري الوطن العربي، الاسيوي والافريقي. والحركة الصهيونية تمثل خطرا على الوجود العربي تهدف لانتزاع اقليم هام له مكانته الخاصة في الوطن العربي ، والوقوف حاجزا في وجه الوحدة العربية . والقدس ، وطن الاسراء ، تلي الديار الحجازية في المقدسات ، تمثل القبلة الاولى للاسلام وفيها ثالث الحرمين الشريفين . وفلسطين مثوى علماء المسلمين وشهدائهم ومئات من الصحابة .

وعقدت الحركة الوطنية الفلسطينية الامال على عمل عربي عام ، وربطت بين اماني البلاد العربية الاخرى واماني فلسطين ، فكانت قضية فلسطين من اكثر العوامل في تعميق الوعي القومي ، كذلك ادرك العاملون في الحركة الوطنية اهميــة استنهاض العالم الاسلامي من أجل القضية الفلسطينية ، والحاجة الى تاييد دول هــذا العالم وشعوبه لمواجهة الصهيونية العالمية في غزواتها على الديار المقدسة ، والرد على الدعاوي الصهيونية الدينية في البلاد ، ودّعم المسيحيون في فلسطين موقف المســلمين ، وكان التعاون وثيقا بينهم لان الخطر الصهيوني على الاراضي المقدسة يهددهم ايضا(٣) .

وكان الاتجاهان القومي والديني يشكلان نسيجا متماسكا داخل الحركة الوطنية، للتصدي للحكم البريطاني وللقضاء على سياسة الوطن القومي . ويعد المؤتمر الاسلامي الذي عقد في القدس ١٩٣١ جسرا ما بين الاتجاهين ، مع انه ظاهريا يمثل أوج الجهد الذي بلغه مسعى الفلسطينيين للتاكيد على أهمية فلسطين للمسلمين في جميع انحاء العالم ، ومسؤولية كل المسلمين في الحفاظ على المقدسات الاسلامية فيها .

بدايات الفكرة :

بدات فكرة استنفار العالم الاسلامي وضرورة تعبئته الى جانب قضية فلسطين مع بدايات ظهور زعامة الحاج أمين الحسيني ، بعد ان عين في مطلع العشرينيــات في مركزين أتاحا له التمرّس بدور على جانبمن الاهمية فيسياسةبلده ، احدهما منصب مفتي القدس (٤) (واصبح يدعى المفتي الاكبر) ، والثاني رئيــس المجلس الاســلامي الاعلى (٥) ، وتجاوزت مكانة المركزين حدود الدوائر الدينية . ورغم وجود المؤسسات الصغيرة المتمثلة في المؤتمرات الوطنية واللجان التنفيذية المتعاقبة والمنتخبة فيالمؤتمرات الوطنية(٦) ، اصبح الحاج أمين القاعدة الاساسية للحركة الوطنية وزعيـم البـلاد ، والعنصر الموجه في المحيط العربي ، بالاضافة الى الدور العظيم الذي كان يقوم بـه في

مضمار الشؤون الاسلامية المحضة(٧) ، كما إصبح المجلس الاسلامي الاعلى وما يتبعه من دوائر واجهزة مركز الثقل في النضال ضد الوطن القومي وضد سلطات الانتداب، رغم وجود اساليب ومستويات اخرى للتعبير . وكان للحاج أمين يد طولى في تنشيط المواسم الدينية (كموسم النبي موسى) ، بما كان له من سلطة على الشؤون الاسلامية، لاذكاء الروح الوطنيـة وجعلها فرصة للتوعية القومية(٨) ، وحول المجلس الاسلامي الاماكن المقدسة الى رموز سياسية والى نضال للحفاظ على التراث الاسلامي التاريخي في فلسطين ، وهي مسألة لا تؤذي مشاعر المسيحيين الفلسطينيين لانهم يتخوفـون على سلامـة الاماكن المقدسـة في حال استيلاء الصهيونيـين على البـلاد(٩) . وتولى الحاج ، بوصفه رئيسا للمجلس الاسلامي الاعلى ومفتي فلسطين الاكبر ، تنفيذ خطة جمع كلمة المسلمين حول فلسطين ، واحرز نجاحا كبيرا تمثل في مبادرة العديد مـن زعماء المسلمين ومؤسساتهم الى ارسال التبرعات لاصلاح المسجد الاقصى واعماره(١٠)، وفي قيام وفود فلسطينية ، بزيارات متابعة الى عدد من البلدان العربية والاسلامية لتعزيز اهتمامها بوجود مشكلة فلسطين . واتصلت الوفود الفلسطينية الى الحجاز بالحجاج من جميع انحاء العالم واعلنت للعالم الاسلامي ان الاماكن المقدسة في خطـر عظيم من الاعتداء الصهيوني . وانه « لو تحققت اطماع واماني الصهيونية في فلسطين ، لا قدر الله ، كانت وبالا على المسلمين »(١١) . واخذ الحاج أمين يحـوز الاحترام مـن الشخصيات السياسية والدينية في كل العالم الاسلامي فرأس وفودا الى مصر ١٩٢٣ والعراق والكويت والبحرين وجنوب ايران ١٩٢٤ ، وبادر للتوسط في الصلح بين ابن سعود والحسين في حرب الحجاز، واتصل بحكام العرب المسلمين بهذا الشـأن(١٢) ، وحضر المؤتمر الاسلامي في القاهرة ١٩٢٦(١٣) . وانشغل المجلس الاسلامي بشكل علني في السياسة بعد عام ١٩٢٨ مع نشاط الحركة الوطنية اواخر العشرينيات اثر ظهـور مشكلة البراق(١٤)، ورعى المجلس (جمعية حراسة الاقصى والاماكن المقدسة (١٥))، وادار القضية الاسلامية التي قدمت امام اللجنة الدولية للتحقيق بمسألة البراق واستطاع حشد عدد من محامي العالم الاسلامي المشهورين في الدفـاع عن حقـوق المسلمين في البراق الشريف(١٦) وأكد المجلس على ان مسلمي فلسطين هم فقط سدنة الحرم الشريف باسم كافة المسلمين ، وان التعدي على حقوق العرب المسلمين في فلسطين سوف يكون له ردود فعل في جميع انحاء العالم الاسلامي(١٧) . ووصل هذا الجهد اوجه في المؤتمر الاسلامي الذي دعا له الحاج أمين ١٩٣١ .

ولم يكن مؤتمر ١٩٣١ المحاولة الاولى لعقد مؤتمر اسـلامي في العصر الحديث ، ويشير رشيد رضا في صفحات المنار(١٨) الى ان عددا من كبار اصحـاب الرأي مـن المسلمين منذ اواخر القرن الماضي فكر بشدة الحاجة الى الاجتماع للبحث في اسباب

ضعف امتهم وما يجب من معالجته واعادة مجدهم السابق بما تقتضيه حالة هذا العصر من علم وعمل والي تأليف جمعية ذات فروع كثيرة ، وان اعظم هؤلاء المفكرين جمال الدين الافغاني . ويذكر رشيد رضا بمقال له كتبه أواخر القرن الماضي عنوانه « الاصلاح الديني المقترح على مقام الخلافة الاسلامية » (١٩) وان « هذا الاصلاح يتوقف على تاليف جمعية اسلامية تحت حماية الخليفة يكون لها شعب اعظمها في مكة .. ويكون أهم اجتماعات الشعبة في موسم الحج » .. ويضيف رضا ، الى انه قد تبين في تلك المقالة مايجب ان تقوم به الجمعية من الاصلاح لجمع كلمة المسلمين والقيام بمصالحهم العامة(٢٠) ، والى ان الكواكبي في كتابه ام القرى هو « أوسع شرح لمشروع اعظم مؤتمر اسلامي للاصلاح العام » . وفي القرن العشرين ، وبالاضافة الى مؤتمري الحج في مكة آب/اغسطس ١٩٢٢ ويوليو / تموز ١٩٢٤ ، عقد مؤتمران اسلاميان عام ١٩٢٦ ــ ولا علاقة بين الاثنين ــ الاول مؤتمر الخلافة في القاهرة(٢١) والثاني المؤتمر الاسلامي العام في مكة(٢٢) . وشارك عدد من ابناء فلسطين في المؤتمرين، وكان مفتي فلسطين احد كبار الحضور في المؤتمر الثاني .

الدعوة الى عقد المؤتمر الاسلامي العام في القدس ١٩٣١ :

تعود فكرة عقد مؤتمر اسلامي في فلسطين يشترك فيه مندوبون وزعماء من مختلف الاقطار العربية والاسلامية الى ما قبل ثورة البراق ١٩٢٨ ، ذلك انه لمواجهة القوة السياسية والاقتصادية الصهيونية عبر العالم كان لابد للعرب من اللجوء الى قوة لايقاف الانحياز البريطاني تجاه اليهود ، وتوصل الحاج امين الى حلها باللجوء الى قوة العالم الاسلامي مستندا الى مكانته الدينية . ويقول عزة دروزة في مذكرات غير منشورة(٢٣) ان الفكرة قد انبثقت في ذهن الحاج امين والزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي (٢٤) الذي جاء الى فلسطين قبل ثورة البراق بمدة وقام بينه وبين الحاج امين وبعض المشتغلين بالقضية الوطنية ، ومن جملتهم دروزة ، انسجام وصداقة وثيقة . وتجددت الفكرة للدعوة الى مؤتمر اسلامي عام في القدس بعد تفجر احداث ١٩٢٨ من اجل اثارة اهتمام الرأي العام الاسلامي العالمي وكسب عطفه وتأليف جبهة اسلامية قوية تستطيع الوقوف في وجه الصهيونية العالمية ، « فالعاطفة الدينية الاسلامية هي من اقوى الاسلحة التي يمكن استخدامها للدفاع عن حقوق العرب في فلسطين ، اذ انها قادرة على التاثير على مئات الملايين من الناس المنتشرين في جميع انحاء العالم وعلى خلق مشاكل سياسية خطيرة لبعض الدول الغربية ولانكلترا بنوع خاص (٢٥) .. »
وحال اقدام الحكومة البريطانية على تشكيل لجنة البراق دون الاستمرار في تنفيذ الفكرة لعقد المؤتمر . ولا صحة للادعاء القائل ان عقد المؤتمر التبشيري في القدس

نيسان/ابريل ١٩٢٨(٢٦)، او عقد المؤتمر الصهيوني في زوريخ ١٩٢٩(٢٧) ، كان دافعا لعرب فلسطين لعقد مؤتمر مماثل(٢٨) .

ومن المحتمل ان تكون الفكرة عادت فتجددت مرة اخرى بمناسبة قضية البراق وشهادات ممثلي الاقطار الاسلامية امام لجنة البراق ١٩٣٠ ورأى الحاج أمين في هذا الجو من التعاطف على القضية الفلسطينية انه من المفيد اشراك المسلمين جميعهم في « همّ فلسطين العظيم وقضيتها » على حد قول دروزة في مذكراته غير المنشورة . وكان قرار عقد المؤتمر قد سبق واتخذ قبل توجيه رسالة مكدونالد (الكتاب الاسود) الى وايزمان في ١٣ فبراير / شباط ١٩٣١ (٢٩) ، وقبل صدور توصيات اللجنة الدولية للتحقيق بمسألة البراق في يونيو / حزيران من نفس العام(٣٠) ، ولم يكن للوثيقتين الدور الحاسم ولكن كان لهما أهميتهما في الجو الذي رافق الاعداد للمؤتمر(٣١) . وقد فاتح الحاج أمين الزعيم التونسي الثعالبي بذلك فحبذه ، وكان الثعالبي قد عاد الى فلسطين في اواسط ١٩٣١ بنية المكوث فيها مدة طويلة وهيأ له الحاج امين بيتا قرب الحرم وصار يلتقي مع رجالات الحركة الوطنية في المجلس الاسلامي وفي مناسبات متعددة(٣٢) .

ولاقت الفكرة موافقة الزعيم الهندي شوكت علي(٣٣) ، وبدات الاستعدادات الحثيثة لعقد المؤتمر قبل اشهر من انعقاده . ويقول عزة دروزة في مذكراته ، غير المنشورة ، « ان الحاج أمين والثعالبي اتفقا على بقاء الجهد في سبيل ذلك سرا ، الى ان تلوح بوادر نجاحه وعلى ان يرسل الحاج امين بصفته رئيس المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى رسائل الى بعض الشخصيات الاسلامية الشهيرة .. لمفاتحتهم بالفكرة واستطلاع رايهم فيها(٣٤) » ، وورد عليه ردود مشجعة . وحينئذ دعا المفتي عددا من اخوانه واصدقائه من رجال الحركة الوطنية ، وكان دروزه منهم ، وشرح لهم الفكرة بحضور الزعيم التونسي الذي ايدها وحبذها فوافقوا عليها . وتألفت لجنة تحضيرية للدعوة وتهيئة اسباب نجاح المؤتمر ماديا ومعنويا(٣٥) . وفي منتصف اكتوبر / تشرين أول ١٩٣١ ارسلت الدعوات باسم رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ومفتي (الديار القدسية) ، الى عدد من رجالات العرب والمسلمين من زعماء سياسيين ورجال دين وعلماء وادباء ، في مصر والعراق وسورية ولبنان وجزيرة العرب وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والهند وجاوا وماليزيا وايران وافغان وسيلان وتركية وتركستان والبشناق في يوغسلافيا . وجاء في نص الدعوة ان الهدف من المؤتمر هو من اجل « البحث في حالة المسلمين الحاضرة ، وفي صيانة الاماكن المقدسة الاسلامية من الايدي الممتدة اليها الطامعة بها ، وفي شؤون اخرى تهم المسلمين جميعا(٣٦) . » وحدد مكان وموعد المؤتمر في جوار المسجد الاقصى في ليلة الاسراء المباركة في ٢٧ رجب سنة ١٣٥٠

وفق ٧ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣١ . ولم تتضمن الدعوة جدولا محددا بالمسائل التي ستبحث في المؤتمر المقبل الا التاكيد على الطابع الاسلامي البحت للمؤتمر(٣٧) . وبدات الاجوبة ترد من شخصيات بارزة في مختلف الاقطار تعلن عزمها على القدوم والمشاركة في المؤتمر ، واخذت اللجنة التحضيرية توالي اجتماعاتهاالاعداد جدول اعمال المؤتمر واسباب اقامة راحة المدعوين ، « ولما اخذت جدية المؤتمر تبدو بدات الدسائس حوله وحول القائمين به في فلسطين وخارجها » (٣٨).

العثرات في سبيل عقد المؤتمر :

لم تحل العمومية الشاملة في الدعوة للمؤتمر دون فهم السلطات البريطانية ، وكذلك الصهيونية ، المقصد الرئيسي للمؤتمر ، فالحكومة البريطانية كانت تتخوف منذ قيام قضية فلسطين ان يتدخل مسلمو العالم في هذه القضية لانها كانت تخشى ان تقوم حركات في الاقطار الاسلامية تأييدا لقضية فلسطين وشعبها تتطور تلقائيا الى حركات ضد الحكم البريطاني في تلك الاقطار . كما انها كانت تدرك مدى الضرر الذي يستطيع العالم الاسلامي ان يلحقه بالحركة الصهيونية التي كانت بريطانيا تتبناها اذا هو ناصر الفلسطينيين ، ولذا دابت تعمل بشتى الوسائل لابعاد مسلمي العالم عن قضية فلسطين وعزلها عن العالم الاسلامي(٣٩) . ولا شك ان عقد مؤتمر اسلامي في القدس ليكون بمثابة مظاهرة للاعلان عن تضامن المسلمين مع الفلسطينيين قد اثار شكوك الحكومة البريطانية . واخذت الدعايات تبث لتشكيك العالم الاسلامي ببراءة فكرة عقده ، واشيع ان المؤتمر سيبحث مسالة الخلافة واختيار خليفة جديد ، وكتب الحاج امين حول ذلك في رسالة الى شوكت علي في لندن اشار فيها الى اتهام المفتي والثعالبي وشوكت علي بان غايتهم « ان يؤتى بالخليفة عبد المجيد وينصب خليفةعلى المسلمين في القدس الشريف . وقد قصدوا في نشرهذه الاراجيف ان يضطرب الرأي العام الاسلامي في جميع الاقطار »(٤٠) . واجرى المسؤولون البريطانيون اتصالات هامة رسمية بالحكام العرب والمسلمين وبعض اقطابهم وزعمائهم يحضونهم على رفض دعوة المفتي لعقد المؤتمر ، ويحاولون اثارة مخاوفهم من اجتماع المؤتمر(٤١) . ونجحت الاتصالات التي اجراها المفتي مع سائر حكام الاقطار الاسلامية وقادتها في ازالة الشكوك التي اثارتها في اوساطهم المساعي الاجنبية فقرروا تأييد المؤتمر وتشجيعه(٤٢).

واخذت حملة المعارضة للمؤتمر في مصر شكلا اوسع ، ذلك ان « الملك فؤاد او اولياؤه ظن ان المؤتمر قد يتناول موضوع الخلافة الاسلاميةوالبت فيها»(٤٣) ، واثارت صحف مصر احتمالات بحث موضوع الخلافة في المؤتمر المزمع عقده في القدس ، فسارع الحاج امين الى نفي ذلك ، « والتوكيد على ان المؤتمر هو من اجل القضية

الفلسطينية»(٢٤) . كذلك بدأ الطعن في المؤتمر بمقالات ينشرها بعض كبار شيوخ الازهر في الصحف انتقل الى تاليف مظاهرات من جميع المعاهد الدينية التابعة له في القطر . ويظهر ان رجالات الازهر فهموا الدعوة الى المؤتمر والاستعانة به على انشاء مدرسة اسلامية جامعة في فلسطين انما يراد به ان تكون هذه الجامعة معارضة للجامعةالازهرية ومضادة لها ، وصار موضوع الحوار بين الناس في هذا المؤتمر ان الغرض منه «مقاومة سياسة الحكومة الملكية المصرية وازهرها»(٤٥) . وبدأ رشيد رضا حملة توعية للدفاع عن اهداف المؤتمر واعتبر ان « نصر دعوة المؤتمر واجبة لانه مصلحة اسلامية ضرورية في احباطها مضار كثيرة عامة »(٤٦) . ورد على منتقدي المفتي بقوله « .. بان الرجل قد ثبت عنده وعند من شايعه وساعده على الدعوة الى هذا المؤتمر انه ضروري لتعزيز مركز فلسطين تجاه مطامع اليهود ومحاباة الدولة البريطانية لهم ولتقوية مركز المجلس الاسلامي الشرعي فيها ومركزه هو فيه .. والامر الضروري الذي لابد منه لايستشار فيه احد وانما الواجب الادبي الذي تقتضيه المصلحة والذوق ايذان المسلمين بالدعوة وطلب عطفهم ومساعدتهم » (٤٧) . ودعا رشيد رضا الحاج امين الى الاسراع الى مصر لتلافي الفتنة مع الحكومة المصرية ومشيخة الازهر(٤٨) .

وخلال شهر نوفمبر / تشرين ثاني . تلقت وزارة الخارجية البريطانية سيلا من الاعتراضات والاستفسارات في بعض الدول الاجنبية عن المؤتمر المزمع عقده : ففي تركيا اثير الموضوع في المجلس الوطني ووصف المؤتمر بالرجعية وكان اهتمام المجلس منصبا على موضوع احياء الخلافة . واعلن وزير الخارجية توفيق رشدي انه تلقى تاكيدات من الحكومة البريطانية بعدم اثارة اية مسائل سياسية ذات سمة معارضة للمصالح التركية في المؤتمر (٤٩) . واكد الوزير ان بريطانيا لم تعمل على رعاية وتشجيع عقد المؤتمر ، كما اعلن ان الحكومة التركية تعارض بقوة اية حركة تستغل الدين للاغراض السياسية(٥٠) . وبعثت الحكومة اليوغسلافية استفسارا الى لندن بشأن المؤتمر لان عددا كبيرا من رعاياها المسلمين كان يزمع المشاركة فيه(٥١) . وكانت الاحتجاجات الايطالية اكثرها عنفا ، ذلك ان الحكومة الايطالية كانت تخشى ان تثار الحملات ضد سياستها في ليبيا ، واوضحت الحكومة الايطالية في مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية ان عقد المؤتمر قد يكون له « وقع غير موات على العلاقات الانجلو ايطالية »(٥٢) .

ونتيجة لهذه الاحتجاجات عقدت الحكومة البريطانية عدة اجتماعات على مستوى عال بين موظفيها في وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات وحكومة الهند في ١٦ نوفمبر/ تشرين ثاني . وكانت وجهة نظر موظفي وزارة الخارجية وجوب منع انعقاد المؤتمر ، على ان ترفع مسؤولية ذلك المنع الى عصبة الامم من خلال اقتراح تتقدم به ايطاليا .

وكان لابد من استشارة السلطات البريطانية في حكومة فلسطين ، وكان امام تلك السلطات خياران : الاول ضمان عدم ذكر شيء في المؤتمر قد يؤذي من وجهة نظرها حساسيات الدول الاجنبية ، وبمعنى آخر عدم اثارة مسألتي الخلافة والسياسة الايطالية في ليبيا ، وانذار الحاج امين بالعزل من منصبه كرئيس للمجلس الاسلامي الاعلى اذا لم يتعهد بذلك .. اما الخيار الثاني فهو منع عقد المؤتمر بحجة « الحفاظ على الامن العام والعلاقات الاجنبية »(٥٣) . ونظرا لاهمية الموضوع كان لابد من عقد اجتماع اخر بين رجالات الاجهزة البريطانية في ٢٠ نوفمبر / تشرين ثاني ، رأسه وزير الدولة للمستعمرات ، ولم يكن قد تلقى بعد جوابا من القدس ، ولكنه كان يتوقع عدم موافقة المندوب السامي البريطاني واكهوب على منع عقد المؤتمر . وقد يكون هذا سبب اتخاذ قرار في الاجتماع اكتفي بابلاغ السلطات البريطانيةفي فلسطين بوجوب عدم اعطاء اية مساعدات او تسهيلات للمؤتمر ، والتاكيد على صفة المؤتمر غيرالرسمية(٥٤). وقامت السلطات البريطانية في فلسطين بابلاغ رئيس المجلس الاسلامي الاعلى عدم موافقتها على عقد مؤتمر يجري البحث فيه بامور خارجية او داخلية تمس احدى الدول الصديقة ، وطلبت منه ان يوافيها ببيان عن الموضوعات التي سيتناولهاالمؤتمر بالبحث فوافاها بالبيان المذكور(٥٥) .

وكان الصهيونيون ايضا حانقين من عقد المؤتمر ، وقد قيل انهم بذلوا اموالا طائلة بغرض التشويش على المؤتمر ، واصدرت الوكالة اليهودية بيانا مطبوعا ابان الاستعداد للمؤتمر ، جاء فيه ان المفتي عمد الى دعوة المؤتمر لتحويل تيار (المعارضة) ضد سلطته واعماله ، « وليس من شك في ان الصهيونيين كانوا خائفين اشد الخوف من حركة المؤتمر وما ينطوي عليه من دعاية واسعة في العالم الاسلامي ضدهم » (٥٦) .

وكان ما يمكن ان يضفيه المؤتمر على الحاج امين من مزيد من المكانة والنفوذ قد اثار حفيظة خصومه السياسيين الفلسطينيين ايضا(٥٧) ، ففي الوقت الذي كان الحماس للمؤتمر يزداد تصاعدا حركت الحكومة هؤلاء الخصوم بقيادة آل النشاشيبي الذين نظموا انفسهم في حزب خاص لمقاومته(٥٨) . « وهب المعارضون الى تشويه سمعة المؤتمر والطعن في مقاصده لصد المسلمين عن اجابة الدعوة اليه ... غرضهم من المعارضة منع عقد المؤتمر او الحيلولة .. دون جعله معززا لمركزه (أي المفتي) ومقويا لنفوذه في البلاد » ، واشاعوا كذلك ان الحكومة البريطانية اخذت عهدا على الحاج امين الا يبحث في المؤتمر السياسة البريطانية والا يجرى التعرض لصك الانتداب(٦٠) ، واخذوا يبثون هذه النقاط في الصحف الموالية لهم مثل (فلسطين) و (مرآة الشرق) و (الصراط المستقيم) وبين انصارهم « حتى كادوا يحولون مجرى المؤتمر الى مجال نزاع وتنافس شخصي ومحلي وحزبي »(٦١) . ويذكر دروزة في مذكراته غير المنشورة

عن محاولة اللجنة التحضيرية تلافي الامر بضم بعض المعارضين الى اللجنة فلم يستجيبوا ، ولم يقبلوا الدعوة التي ارسلت اليهم ، لانهم « ظلوا على يقينهم ان الحاج امين سيستغل المؤتمر لشخصه اعظم استغلال»(٦٢) . وحاول الزعيم الهندي شوكت علي والدكتور عبد المجيد سعيد (رئيس جمعية الشبان المسلمين في مصر) والشيخ التفتازاني (من علماء الازهر) التوسط وتسوية الامور بسبيل اشتراكهم في المؤتمر وعدم التشويش عليه ، ووجهة نظر الوسطاء هي « ان الصلح خير من الخصام بنص القرآن واتفاق جميع الناس وانه لا ينبغي ان يؤلف مؤتمر في فلسطين لاجل مصالح المسلمين وجمع كلمتهم على مايمكن من المنافع العامة واهلها في شقاق وخصام يمنع من اشتراك جميع احزابهم فيه»(٦٣) ،واظهر الحاج امين استعداده لقبول ما يقترحه الوسطاء ولكن جهودهم اخفقت(٦٤) .وظلت جبهة المعارضة على رفضها للاشتراك في المؤتمر وعلى سوء ظنها بالحاج امين والتشويش عليه عبر المؤتمر ، وانتهى بهم الامر الى عقد مؤتمر اخر منافس له اسموه « مؤتمر الامة الاسلامية الفلسطينية »(٦٥). ولكن الحركة المناوئة والشهيرة (بالمعارضة) فشلت هذه المرة لكونها قد جعلت للمنافسة السياسية الداخلية وللاحقاد الشخصية مكان الاولوية على القضية الوطنية العامة وفي مناسبة لا يجوز فيها السؤال اصلا ايهما اولى (٦٦) .

افتتاح المؤتمر :

اخذت الوفود تفد قبل ليلة الاسراء التي تقرر ان يكون افتتاح المؤتمر فيها : وجاءت الوفود غير الرسمية من ٢٢ قطرا مختلفا (الاردن ، سورية ، لبنان ،العراق، مسلمو البشناق ، الهند ، سيلان ، جاوا ، افغان ، تركستان ، القفقاس ، ليبيا ، تونس ، الجزائر والمغرب الاقصى (٦٧) وارسل امام اليمن مندوبا عنه من وزرائه(٦٨)، ولم يات من السعودية احد(٦٩) ولا تكمن أهمية المؤتمر في عدد اعضائه (بين ١٤٥ ــ ١٥٠) (٧٠) بمقدار ما كانت تكمن في نوعية الاعضاء . فقد اجتمع حشد من كبار علماء الدين ورجال العلم والرأي ومن الشخصيات السياسية وجميعهم من البارزين في بلادهم علميا او سياسيا او وطنية او اجتماعيا او اقتصاديا(٧١) ، كان من تلك الشخصيات المجتهد الكبير محمد الحسين ال كاشف الغطاء (العراق) وضياء الدين الطباطبائي (رئيس وزراء ايران السابق في عهد الملك القاجاري الذي اطاح بعرشه انقلاب البهلوي) ، وعبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي ، ومحمد اقبال الشاعر الهندي، والزعيم شوكت علي الهندي والعلامة الشيخ رشيد رضا والشيخ التفتازاني (الازهر) ومحمد علي علوبة (وزير الاوقاف السابق في مصر ومن حزب الاحرار الدستوريين)، وعبد الحميد سعيد (رئيس جمعية الشبان المسلمين مصر) وعبد الرحمن عزام (حزب الوفد) والامير سعيد الجزائري (حفيد الامير عبد القادر وكان يقيم في دمشق

ويراس لجنة الدفاع عن الخط الحجازي) ومحمد المكي الناصري ومحمد بنونـة من المغرب الاقصى وبشير السعداوي من ليبيا ، ومحمد علي بيهم ورياض الصلح (لبنان) وشـكري القوتلي وسعد الله الجابري (سورية) (٧٢) . كما شهد المؤتمـر نحو خمسة وعشرين من رجالات فلسطين بالاضافة الى اعضاء اللجنة التحضيرية ..

ويصف شاهدا عيان(٧٣) حفلة افتتاح المؤتمر وما رافقها من مشاهد على غاية من الروعة والفخامة حيث ازدانت ساحة الحرم الواسعة بالاضواء الكثيرة والاعـلام الاسلامية واحتشد آلاف الناس مع اعضاء المؤتمر في الساحة وداخل المسجد الاقصى الكبير. وكان قد وفد على مدينة القدس كثير من أهل المدن والقرى الفلسطينيةلحضور حفلة الافتتاح واتفق ان كان يوم الاحد ٢٦ رجب يوما شديد المطـر ، مع ذلـك كان المنتظرون في المسجد قبل المغرب يعدون بالالوف ، وعندما حضرت صلاة المغرب قدم الحاجامين كبير مجتهدي الشيعة محمد حسين ال كاشف الغطاء فصلى اماما بالناس، ويقول رشيد رضا « كان لهذا التقديم تاثير عظيم ووقع حسن في انفس اعضاءالمؤتمـر وغيرهم من المسلمين الذين يشعرون بشـدة الضرورة الى التأليف بين أهـل السـنة والشيعة والقضاء على هذا التفرق والتعادي الذي طال عليـه العهد ، وكان فسـاده وضرره على الاسـلام وشعوبـه ودوله عظيما . وبعـد صـلاة المغـرب قـرأ بعض القراء آيات من أول سورة الاسراء وتلاهـم الشيخ حسن ابو السعود فقرأ رسالـة في شمائل الرسـول وما جاء به من الاصلاح العـام للبشر الم فيها بمعجزة الاسـراء . ودعي الشيخ رشيد رضا الى القاء كلمة في معنى الاسـراء وفضـل المسجد الاقصى واختيار هذه الليلة الشريفة لافتتاح المؤتمر الاسـلامي(٧٥) .. وبعد صلاة العشـاء بامامة الاستاذ آل كاشف الغطاء افتتح المفتي المؤتمر بخطبة(٧٦) اشـار فيها الى « ان اكثر الاقطار الاسلامية قد فقدت عزها وسلطانها واصيب جميعها بمحنٍ وكوارثعديدة اثقلت كاهلها ولكن فلسطين هذه البلاد المقدسة التي قامت بالدعوة الى هـذا المؤتمـر اصيبت زيادة على ذلك بمصيبة خطيرة تهدد كيانها بانشاء وطن قومي صهيوني في هذه البلاد العربية الاسلامية المقدسة » .واوضح السبب الرئيسي للدعوة الى المؤتمربقوله « ... ولما كانت هذه البلاد تهم المسلمين جميعا لما لها من الموقـع الدينـي والجغرافي العظيم ، ولان فيها هذا المسجد الاقصى المبارك ... فقد راينا عملا بقوله : (وامرهـم شورى بينهم) وبقوله عليه الصلاة والسلام (المسلم للمسلم كالبنيان يشـد بعضـه بعضا) ان ندعو الى هذا المؤتمر العظيم من كافة الاقطار الاسلامية للبحث في هذا الامر الجلل وفي الشؤون الاسلامية التي تهم المسلمين جميعا . . ». واكد المفتي في ختام كلمته ان القصد من وراء المؤتمر ليس « الاعتداء على امة من الامم او مهاجمة دين من الاديان او مخاصمة احد في هذا العالم ، وانما القصد ان يعمل المسلمون لصالحهم يدا واحـدة

وصفا واحدا » . وكان من المتحدثين في جلسة الافتتاح الدكتور عبد الحميد سعيد وضياءالدين الطباطبائي والشاعر محمد اقبال والامير سعيدالجزائري ومصطفى الغلاييني من ادباء بيروت ، ورياض اسحق مندوب المسلمين في روسيا، وعبد القهار مذكر مندوب جاوا ، وبهجت الاثري من علماء العراق ، والشيخ نعمان الاعظمي رئيس مدرسة دار العلوم في بغداد (٧٧) .

وكانت كلمة الثعالبي في حفلة الافتتاح (٧٨) تأكيدا للمبادىء السامية التي عمل الثعالبي من اجلها طيلة حياته ، والتي لا تقتصر على العمل السياسي بل تركز على العمل الاسلامي الثقافي لمواجهة الغزو الثقافي الاجنبي ، وتدعو الى الاصلاح واليقظة من اجل استرجاع المكانة التي كانت للحضارة العربية الاسلامية في الماضي(٧٩) . وقد بين الثعالبي في كلمته اهمية عقد المؤتمر من اجل دفع فكرة الوحدة الاسلامية . « ... ومن المدهش الغريب ان المسلمين ، ودينهم دين الاتحاد والاخوة والتعاون واحكام الصلات الاجتماعية بين معتنقيه ، افرادا وجموعا ، لم يقدر لهم فيما سلف ان يعقدوا اجتماعا يلمون به شعثهم ويجمعون فيه اشتاتهم كما تم لهم في هذه الليلة . . » . ثم استعرض التاريخ منذ ظهور الاسلام وتلألؤ قوته حيث « .. طوى في برديه الشرق والغرب ووحد امم العالم القديم ، ونظم منه وحدة دينية سياسية من امم كانت متنافرة متشاكسة في العنصريات واللغات والاديان والسياسة ، فكانت قوة نشرت في العالم الهدى والنور والسلام والتمدن » الى الحالة التي وصل اليها اهله اليوم ، « من ضعف التماسك في الاقوام الاسلامية وتلاشي دولهم وذهاب ريحهم واستسلامهم لسلطات المغيرين عليهم بحيث لا توجد ممالك في اية قارة من القارات الخمس لها تاريخها ولها مدنيتها ولها نظامها نهبا للطامعين مثل الممالك الاسلامية » . وما يثير استغراب الثعالبي ان بلاد المسلمين لديها كل مقومات الوحدة في الجغرافيا واللغة « ... فقد اصطلحوا بسائق من الدين على جعل العربية لغة التفاهم والتخاطب . بدليل ما نشاهده في هذا المؤتمر فقد اجتمعت فيه امم الشرق الواقعة بين المحيطين الباسفيك والاطلنطيك وكلهم يتفاهمون ويتباحثون بهذه اللغة الشريفة كانهم من سلائل القحطانيين ، وهي اكبر قوة لنا في العالم نستطيع ان نلعب بها اكبر دور في مقدرات البشر » . ويتساءل عن اسباب الوهن ولدى المسلمين كل المؤهلات للتفوق « ... اقطارنا خصبة التربة معتدلة الجو وافرة المياه كثيرة المعادن مكتظة باسباب الارتزاق قابلة للزراعة وتربية الحيوان وانشاء المصانع بكثرة ما فيها من الوقود ، حراج وزيوت وفحم حجري ، تحيط بها البحار من سائر الجهات .. وفي سكانها من اعتدال المزاج وحدة الذهن وسرعة الخاطر وقوة الذكاء ما يخولهم التفوق في العلم والصناعة والسياسة وسائر مواد الحضارة ومقومات التمدن » ، وهو يرى اننا « ورثة حضارة عريقة ، واسلافنا في الشرق هم الذين ملكوا قياد العالم في أزمنة مختلفة مديدة ، وهم

الذين أوجدوا المثل العليا لاسمى مبادىء الفضائل والسيادة ، مع ذلك فقد وقعنا تحت قبضة الاجنبي ، ونستمطر الرحمة والعدالة ممن كنا نعدهم من موالينا » ، وهو اذ يدقق في عناصر المدنية الحاضرةالتي يفخر بها الغربي على الشرقي يجد كل مصادرها نابعة شرقية لا اثر للغرب فيها « فالشرق هو مفجر ينبوع الايمان ومبتكر أصول الشرائع وكاشف ناموس التطور في الحياة وملهم العقل لاكتشاف سر الحق في الوجود وباني المجتمعات البشرية ومستنزل روح الاديان ، والخلاصة هو مشرق النور والعظائم » .

ويصور الثعالبي كيف انتقلت مدنية الشرق للغرب واستنام الشرق للمكاره واستطاب عيشة الذل والخضوع للاقوياء « . . . وبذلك سلم الواجبات التي كانت ملقاة على عاتقه في السيادة العالمية لغيره من أمم الغرب التي تغلبت عليه» . ويبحث الثعالبي عن سبل انقاذ الشرق من محنته واعادة شعوره بالكرامة فلا تكون الا بأن « نلتفت لانفسنا وندرس ادواءنا وأمراضنا حتى نهتدي الى معالجتها وازالتها .. ونحن اذا شعرنا بانحطاطنا وأدركنا أسباب اعتزالنا للحياة . . . أمكننا أن نعالج انفسنا علاجا شافيا . .» . ويمضي الثعالبي الى مناشدة المجتمعين بالتخلي عن البكاء والاسترحام والاستجداء والشكوى « . . . فكلها مظاهر ضعف يجب أن نتلافاها . مضى ما مضى ولا عتب على الماضي وعلينا ان نبادر بتلافي الاخطاء التي استمرأها سلفنا وكانت السبب المباشر في أسرنا ووقوعنا في الهلاك » . .

مناقشات المؤتمـر :

كانت اللجنة التحضيرية للمؤتمر قد أخلت له مدرسة روضة المعارف الاسلامية التابعة للمجلس ووضع فيها من الورق والاقلام والدفاتر والمحابر والكتبة والخدم ومنهم سقاة الشاي والقهوة اليمانية الامامية (٨٠) وقد اعد في المدرسة(٨١) قاعات وغرف للجان المؤتمر ، كما خصت قاعة لنشر اخبار المؤتمر على الصحف ولتزويدها بها وقاعة اخرى لتنظيم شؤون المؤتمر وتلبية طلبات وحاجات الاعضاء . وجرى في الجلسة الاولى اختيار المكتب لادارة جلساته واعماله وتم الاتفاق بالترشيح والموافقة على ان يكون الحاج أمين رئيسا للمؤتمر (٨٢) ، وتألفت في المؤتمر ثماني لجان لبحث الشؤون التي عرضت عليه وتقديم تقارير وافية عنها ، وهي لجنة الدستور ، ولجنة الدعاية والنشر ، ولجنة المالية والتنظيم ، ولجنة الثقافة وجامعة المسجد الاقصى ، ولجنة السكة الحديدية الحجازية ، ولجنة الاماكن المقدسة والبراق الشريف، ولجنة الدعوة والارشاد ، ولجنة المقترحات (٨٣) . يقر رشيد رضا(٨٤) ان نظام جلسات المؤتمر كان حسنا لم يستطع اعداؤه الطعن فيها الا ان اكثر اوقاتها ضاعت بالقاء الخطب والمناقشات العديدة مع كثرة التكرار في الموضوع الواحد والخطبة الواحدة ،

وانتقد طريقة تاليف اللجان حيث ابيح لكل عضو ان يدخل في اللجنة التي يختار العمل فيها « فكان العضو الواحد يكتب اسمه في لجنتين او ثلاث بحسب ما يهوى لا بحسب استعداده للعمل فيها كلها» (٨٥) .

ويذكر عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة ان المؤتمر اخذ يتلقى برقيات ورسائل تأييد ورسائل فيها اقتراحات متنوعة من جميع انحاء العالم الاسلامي ، ومن الذين دعوا وتخلفوا لاسباب قاهرة ومن شخصيات اسلامية بارزة حتى صار المؤتمر « في من شهده وفي من ايده وفيما ورد عليه من مقترحات وفي ماأثير فيه من مواضيع يسمو سموا كبيرا ويظهر بذلك ما كان من حاجة المسلمين الى مثل هذا المؤتمر العام الاسلامي في سياق كفاحهم مع المستعمرين وما طرأ عليهم من قطيعة وما يتعرض له الاسلام من مؤامرات وما تحفزهم اليه النهضة المواتية الحديثة من اسباب التواصل وعوامل التجمع والتعاون . ومما هو جدير بالذكر ان مسيحيي فلسطين العرب شكلوا وفدا عنهم يضم بعض رؤساء الدين فيهم ، وزار الوفد المؤتمر الاسلامي في ساحة الاقصى حيث كان ينعقد المؤتمر واكد للمجتمعين تاييد النصارى للمؤتمر وترحيبهم بدخول مسلمي العالم فريقا مباشرا في قضية فلسطين»(٨٦) .

وكان من ابرز الاقتراحات التي انهالت على المؤتمر : انشاء جامعة اسلامية في القدس ، ومحاربة الاستعمار مهما كان شكله وكل مسلم يؤيد الاستعمار يعتبر خارجا عن الاسلام والمسلمين . وبعث الامير شكيب ارسلان من جنيف باقتراح مقاطعة بضائع كل دولة ترهق المسلمين عسرا وتاليف لجان للمقاطعة ، وكذلك مقاطعة المسلم الذي لا يتقيد بمقررات المقاطعة(٨٨) . وكان من المقترحات مؤازرة قضية انتخاب بطريرك عربي للارثوذكس(٨٩) . كما عرض على المؤتمر بيانات او تقارير مطبوعة منها تقرير طويل من جمعية الشبان المسلمين تعرض فيه على المؤتمر ماتراه من الاصلاح الاسلامي، وتقرير محمد علي علوبة في الاصلاح اللغوي بوضع معجم عربي للعلوم والفنون والاصطلاحات العصرية ، وتقرير لجنة البراق الدولية ، وتقرير في اعمال دعاة النصرانية، (٩٠) وتقرير لجنة الدفاع عن سكة الحديد الحجازية(٩١) . ووزعت على اعضاء المؤتمر بعض المواد الاعلامية التي تعالج الوضع في طرابلس ، والمغرب الاقصى والاتحاد السوفييتي (٩٢) . ويلاحظ ان المسائل ذات الطابع السياسي قد اجلت الى الجلسات الاخيرة . ويعلل عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة ذلك بقوله « . . شعر الحاج برغبة القوميين في تقديم اقتراحات بشان الاستعمار فبذل جهده لتأخير تقديمها الى اخر جلسة حتى لا يكون حرج عليه وعلى المؤتمر من جانب السلطات الانكليزية في فلسطين» . وشغل موضوعا الاصلاح الاسلامي والثقافة الاسلامية حيزا كبيرا في ابحاث المؤتمر ، وكان للشيخ رشيد رضا وجمعية الشبان المسلمين الاسهام الاكبر في الموضوعين .

وقد سبق للحاج أمين ان اقترح على رشيد رضا قبل عقد المؤتمروضع تقرير فيالاصلاح الاسلامي ليطرح في المؤتمر اثناء انعقاده ويكون مدارا لما يقرر في هذا الشأن(٩٣) ، ولكن رضا اثر ان يعرض ما يراه من الاصلاح في جلسات المؤتمر عند الحاجة اليها . وقد راس لجنة الدعوة والارشاد في المؤتمر (٩٤)، وقدم لاعضاء اللجنة تعريفا بمشروع الدعوة والارشاد على انه « اعظم مشروع اسلامي لاصلاح المسلمين في انفسهم ولتجديد هداية دينهم ومجده ، وهو يتوقف على تعليم جديد وتربية جديدة في مدرسة خاصة، وعلى جمعية كالجمعية التي سبق تاسيسها في مصر ، وعلى مال كثير لذلك وللدعاة والمرشدين الذين يتخرجون في المدرسة ولا يتم غرسه ونباته واثماره الا في سنين كثيرة »(٩٥) ..

وفي جلسة المؤتمر العامة تقدم رضا بتقرير لجنة الدعوة والارشاد وهي ملخصة من عدة مقترحات(٩٦) ، اهمها تاليف جمعية باسم (جمعية الدعوة والارشاد الاسلامية) على المنهج الذي كانت عليه الجمعية التي الفت بهذا الاسم في القاهرة يكون لها مدرسة كلية خاصة تكون احدى كليات الجامعة الاسلامية التي قرر المؤتمر السعي لانشائها في بيت المقدس لتخريج طائفتين من العلماء احداهما تخصص لارشاد المسلمين على اختلاف اجناسهم الى حقيقة الاسلام بالتعليم النظامي السهل والتربية الدينية العملية الموافقة لحالة العصر ، والثانية لاجل دعوة غير المسلمين الى الاسلام . ويستعان على انشاء الجمعية والمدرسة بما وضع للجمعية السابقة ومدرستها من نظام ومناهج وتجربة . وطالبت مقترحات اللجنة تكليف بعض العلماء بالكتاب والسنة ومسائل الاجماع والمذاهب الاسلامية تاليف رسائل في عقائد الاسلام وادابه وفضائله وعباداته وتاريخ نشاته ، تكون الوسيلة لاحياء روح الدين ومقاومة الالحاد والزندقة في عامة المسلمين وتحقيق الاخوة الاسلامية على اكمل وجه ممكن ، ويتوخى فيها ان تقتصر على المسائل الاجماعية عند جميع اهل المذاهب الاسلامية لتكون مقبولة عند جميع المسلمين وتمهيدا لجمع كلمتهم وان تكون في منتهى السهولة في العبارةوالاسلوب وان يكون الكلام في آداب الاسلام وفضائله مقرونا بما لها من التاثير في الاعمال النافعة من شخصية ومنزلية واجتماعية ، وان يقتصر في العبادات على الكليات المجمع عليها ، كما طلبت المقترحات من المؤتمر الاستعانة باعضائه ثم بلجانه التي تؤلف له ثم بجمعيات الشبان المسلمين وغيرها من الجمعيات الاسلامية على نشر هذه الرسائل في جميع الشعوب الاسلامية بعد ترجمتها بلغاتها الراقية . وكان من اخر مقترحات اللجنة مطالبة المؤتمر باتخاذ الوسائل التمهيدية لتعميم اللغة العربية في جميع الشعوب الاسلامية لما في ذلك « .. من توقف فهم الدين ووحدته عليها، واشتداد الحاجة في هذا العصر الى هذه الوحدة التي تجمع قوة هذه الامة المؤلفة من ٣٥٠ مليونا الى ٤٠٠ مليون لحفظ حقيقتها

واعلاء شانها ودفع ضروب العدوان عن دينها ودنياها .. فلا يتم لنا احياء هداية الاسلام بانواعها ولا وحداته المتقدمة ولا فائدة مؤتمراته الا باحياء لغته الجامعة»(٩٧). وقد القى الشيخ رشيد رضا خطابا على هيئة المؤتمر العامة في الاخطار التي تهدد العالم الاسلامي من امراضه الذاتية العامة لجماعته والشخصية في افراده والخارجية وما يجب على مثل هذا المؤتمر من السعي لدرء الاخطار ومعالجة الامراض(٩٨) ، وهي تؤكد اراء رضا التي تبناها منذ نهاية القرن التاسع عشر ، ثم تابع فيها رأي استاذيه الافغاني وعبده ، حول ضرورة الاصلاح وعلى اهمية الاسلام لتحقيق التقدم الذي اثبت الماضي امكان تحقيقه .

وتناولت كلمة جمعية الشبان المسلمين الى المؤتمر الاسلامي العام (٩٩)، بالاضافة الى مسألة الثقافة ، قضيتين هامتين : الاولى الاماكن المقدسة ، والثانية مسألة سكة الحديد الحجازية . وبعد مقدمةطويلة دعت الكلمة فيها الى الالفة بين المسلمين اقترحت على المؤتمر « .. ان يقرر وجوب تنظيم طرق التعارف بين الشعوب الاسلامية وازالة الجفاء بين جماعاتهم ذلك ان الاشتراك بين المسلمين حاصل في الاصول ، وقائم على جميع الاركان » . واهم ما يشترك به المسلمون اشتراكهم جميعا في عبادة الله عزوجل، وبالتالي اشتراكهم في بيوت الله واماكن الاسلام المقدسة « .. وكلهم مكلفون بحفظها وصيانة حوزتها ودفع السوء عنها » ، وتنتقل الكلمة الى مسألة الاماكن المقدسة في فلسطين فتشير الى قرار اعلنه مؤتمر مجالس ادارة جمعيات الشبان المسلمين في ١١ يوليو/تموز ١٩٣٠/ (١٥ صفر ١٣٤٩) والذي نص على تمسك المسلمين العام بمكان البراق الشريف الذي هو حق مقدس لهم لا ينازعهم فيه الا ظالم او معتد وان كل مساس بذلك الحق الذي لاشبهة فيه يترك في نفس كل مسلم جرحا عميقا ، ويذهب بكل ثقة له بالعدالة التي تنادي بها جمعية الامم والتي ينبغي ان تكون بعيدة عن مثار العواطف السياسية والاطماع . وتعلن كلمة الجمعية باعتزاز « ان مسلمي فلسطين هم جبهة الدفاع الاسلامية عن جميع الاماكن المقدسة في فلسطين ومن وراء هذه الجبهة اربعمائة مليون قلب تخفق بالايمان وتؤيد سكان فلسطين من اتباع محمد (صلعم) في كل ما يضطرون اليه من وسائل الاحتفاظ بحق الاسلام كاملا على مقدساته في هذه الديار » ..

وتناولت الكلمة مسألة سكة الحديد الحجازية التي اشتركت في الانفاق على تاسيسها بقاع الوطن الاسلامي الاكبر، وهذه السكة وقف اسلامي عام « فمن الاعتداء على حق المسلمين في ادنى الارض واقصاها ان يدار بايدي غير المسلمين ، وان يستغل لغير مصلحة المسلمين وان يظل اكثر من عشر سنين معطلا عن وظيفته الاولى وهي

الوصول الى المسجد النبوي الطاهر » . وطالبت الكلمة بحصول المسلمين على ادارة خطهم الحجازي ووضع ريعه في صندوق تحت ايديهم يستعملونه في ارجاع هذا الخط الى ما كان عليه قبل الحرب العظمى كما طالبت بان تقام في كل قطر اسلامي لجنة تتصل بلجنة دمشق للدفاع عن الخط الحجازي .

وكان الموضوع الاخير الذي تعرضت له كلمة الجمعية خاصا بثقافة النشء المسلم وما تتعرض له من اخطار من طريق الثقافة والدعاية والنشر « ولعل المسلمين أفقر أمم الارض في المدارس التي تصلح لانشاء ابنائهم انشاء يتفق مع عقيدتهم وهدايتهم وآدابهم وحاجاتهم الروحية والمعنوية » ، ومن اجل انشاء جيل جديد كفؤ للنهوض بحاجة المسلمين المادية والروحية تتقدم الكلمة باقتراح مزدوج احد شقيه « مقاومة دعايات الالحاد في داخل المدارس الموجودة الان وفي عالم الطباعة والنشر ، والثاني ايجاد مدارس جديدة تكون مستوفية الشروط من وجهة النظر الاسلامية ومعاونة وسائل النشر الاسلامية على السير في طريق الرقي حتى تتمكن من اظهار محاسن الاسلام للملأ ، وعرض حقائقه بالاساليب المحبوبة عند الجماهير » . واشارت الكلمة بأسى الى ان « جميع طوائف البشر لهم مدارس خاصة بطوائفهم ، ووسائل نشر تؤيدها من ورائها ، ما خلا المسلمين فانهم فقراء في المدارس وفي وسائل النشر حتى صارت البيوت العريقة في التقوى تنشأ فيها الناشئة الملحدة او على الاقل الناشئة الغريبة عن الاسلام وتاريخه ومحاسنه » .. وهي تحث اهل الاخصاء في التعليم والتهذيب على ايجاد مناهج محكمة للثقافة الاسلامية كما تدعو اغنياء المسلمين ان يكونوا كاغنياء غير المسلمين في العمل على تاسيس مدارس اسلامية جامعة لجميع الشروط ، وتحيي جمعية الشبان المسلمين اول من فكر في السعي لتاسيس جامعة اسلامية في فلسطين « يأوى اليها شباب هذه البلاد والمحتاجون الى مدارس عليا تعدهم للكفاح في ميادين الحياة وتهيئهم ليكونوا رجالات في عالم العمل » . وكانت جمعية الشبان المسلمين قد قامت بتوزيع تقرير عام على اعضاء المؤتمر عنوانه (النهضة الاسلامية عن طريق الثقافة والنشر)(١٠٠) ، شرحت فيه بالتفصيل وجهة نظرها بالنسبة لمسألة الثقافة فتناولت تعرّض النشء الجديد للغزو الثقافي الاجنبي بسبب تفريط المسلمين في مقوماتهم الاجتماعية ، وعالجت سبل نهضة العالم الاسلامي لمواجهة هذا التحدي على اساس الدين والعلم .. ورات ان تأسيس جامعة مدنية اسلامية في فلسطين ليس دافعه فقط الرغبة في مقاومة الاثر الصهيوني للجامعة العبرية « .. هذا مبرر من غير شك ومبرر كبير لكنه ليس المبرر الوحيد ، انما هو من المبررات التي تدعو الى تاسيس تلك الجامعة ، او بالاحرى هو المبرر لجعل مركز الجامعة المدنية الاسلامية هنا في فلسطين وفي القدس لا في غيرها من بلاد الاسلام » . اما التأسيس نفسه « تأسيس جامعة مدنية اسلامية

تعلم العلوم الكونية التي حض القرآن في نحو ربع آياته على طلبها وتعليمهـا فمبرره اسلامي عام والحاجة اليه قائمة منذ غربت شمس الاسلام عن الاندلس واندثـرت المدرسة او بالاحرى الجامعة النظامية التي اسسها نظام الملك في بغداد » .

وكان من بين المتحدثين عن الجامعة الاسلامية(١٠١) التي يراد انشاؤها في القدس الشاعر الهندي محمد اقبال وكيل المؤتمر وقد خطب فيه خطابا شائقا وقال أنه يجب ان تكون جامعـة يؤمها الشبان المسلمون من جميع انحاء العالم(١٠٢) ، وكذلك القى الطباطبائي خطابا قيما عن الثقافة والجامعة الاسلامية فاحاط بالموضوع احاطة تامـة وقد ساعده على ذلك انه يقيم في سويسرا من ثماني سنوات فتسنى له في خلال هذه المدة الوقوف على نظم التعليم في اوروبا ودرسها دراسة وافية(١٠٣) .

وتجدر الاشارة الى ان « الوحدة الاسلاميـة » كانت ترد على لسـان كثير مـن المتحدثين دون ان يخصص لها موضوع مستقل في مناقشات المؤتمر(١٠٤) . والوحدة كما تصورها المتحدثون لا تتجسد بالضرورة في شكل دولة اسلامية واحدة بل كانت صدى بعيد لافكار تلامذة الافغاني بضرورة قيام جبهة متحدة متجهة نحو غرض واحد هو القيام في وجه السيطرة الغربية المرهقة وتبديدها وتمزيقها ، وتحرير الامم الاسلامية من قبول السلطة الاوربية السياسية(١٠٥) ، كما كانوا يعنون جوهريا بالتراث المشترك القائم لا على وحدة الدين فحسب بـل على الثقافة والعادات والطباع وبالاخص رابطة اللغة ، وقد اكد المتحدثون على ان اللغة العربية هي وحدها لغـة التقوى والعقيـدة والشريعة اينما وجد الاسلام(١٠٦).

واجلت مناقشة موضوع الاماكن المقدسة حتى الجلستين الثامنة والتاسعـة اي يومي ١٢ و ١٣ ديسمبر / كانون اول ، نظرا للوقت الذي استغرقته اللجنة في اعداد الموضوع ، او ربما لتخوف المسؤولين عن المؤتمر من البـدء بمثـل هـذا الموضوع الحساس(١٠٧) . وقام رئيس اللجنة محمد الحسين آل كاشف الغطاء بقراءة مقترحات اللجنة وسط هتاف وترحيب اعضاء المؤتمر ، وقدم للمقترحات ببيان مفصل حـول النوايا الصهيونية بالنسبة لفلسطين والاماكن المقدسة(١٠٨) . وبلـغ الحماس اقصاه بعد خطاب سعيد ثابت ضد الصهيونية تلته دقيقتا صمت حدادا على ارواح الشهداء الذين سقطوا في سبيل قضية الاراضي المقدسـة . وكانت أكثر الخطب حماسا تلك التي القاها عوني عبدالهادي الذي لم يهاجم فقط الخطط الصهيونية حول الحرم الشريف بل اثار مسألة الانتداب البريطاني برمتها ، وقـدم اقتراحا للمؤتمـر ينص على طلب الغائه ، فعارضه شوكت علي طالبا استبعاد الاقتراح ، فانبرى رياض الصلح وحمل على شوكت علي قائلا: « يظهر لي ياسيدي انك تجهل تاريخ الجهاد في بلاد العرب .ان

الانتداب منشأ كل هذه البلايا في هذه البلاد . وهو الذي جزأ سورية هذه التجزآت، معاهدة كان او حماية هو الاستعمار بابشع صوره »(١٠٩) ، كما حمل عوني عبد الهادي بدوره على شوكت علي(١١٠) .

وكانت الجلسة العاشرة التيعقدت في ١٣ ديسمبر / كانون اولجلسة الانتداب، فانهالت فيها الاحتجاجات على الانتداب البريطاني . وفي الجلسة الخامسة عشر في١٦ ديسمبر/ كانون اول تقدم عدد من القوميين باقتراحات بشأن الاستعمار وافق عليها المؤتمر ، وتكلم في اثناء ذلك غير واحد من اصحاب الاقتراحات منددين باحتلال الدول المحتلة لتلك البلاد وتصرفاتها(١١١) ، ووقف بشير السعداوي في نهاية الجلسة طالبا الاحتجاج على الاعمال الاستعمارية العنيفة في طرابلس وبرقة ، والقى عبد الرحمن عزام كلمة حماسية حمل فيها على اعمال ايطاليا في طرابلس ، قرر المؤتمر على اثرها وقف الجلسة دقيقتين حدادا على استشهاد عمر المختار(١١٢) . واحتج قنصل ايطاليا على ما اثير في المؤتمر ضد سياسة بلاده ، فأمرت السلطة البريطانية عزام بمغادرة فلسطين فورا(١١٣) . ويقول دروزة(١١٤) « كانت السلطة البريطانية قد أخذت موقفا حياديا من المؤتمر الى ان بدأ المؤتمر يبحث في مسائل الاستعمار والمستعمرين فتدخلت في الامر » .

قرارات المؤتمر :

جاءت قرارات المؤتمر في مجموعتين : **الاولى عامة** ، تتناول قضايا دينية ثقافية لا علاقة لها بالاستعمار والصهيونية(١١٥) وهي :

أ ــ تنمية التعاون بين المسلمين على تعدد مواطنهم ومذاهبهم ، ونشر الثقافة والفضائل الاسلامية ، واذكاء روح الاخوة الاسلامية العامة .

ب ــ حماية المصالح الاسلامية وصيانة المقدسات من كل تدخل وسيطرة .

جـ ــ مقاومة المساعي والحملات التبشيرية بين المسلمين .

د ــ انشاء جامعات ومعاهد علمية تعمل على توحيد الثقافة الاسلامية وتعليم اللغة العربية للناشئة الاسلامية ، وان يبدأ ذلك بانشاء جامعة في بيت المقدس تسمى جامعة المسجد الاقصى تغذيها وترعاها مؤسسة المؤتمر وتشكيلاته(١١٦) .

هـ ــ تأليف دائرة معارف باسم القاموس الاسلامي، (١١٧) .

و ــ ادرك المؤتمر أهمية الدعاية وخطورتها دفاعا عن المصالح والثقافة الاسلامية ونشرا لغايات المؤتمر ، وذلك بتأسيس مكتب رئيسي للدعاية في القدس ومكاتب فرعية في البلدان التي بعثت بمندوبين لهذا المؤتمر .

ز ــ اتخذ المؤتمر قرارا عاما بالعمل على ترقية الصناعات في الاقطار الاسلامية

والقيام بمسح عام للعالم الاسلامي متضمنا احصاءات دينية تعليمية اقتصادية.

ح ـ دعا المؤتمر الى تحبيذ فكرة انشاء جمعيات الشبان المسلمين في الاقطار الاسلامية وفي ديار المهجر .

ط ـ اعتبر المؤتمر قضية العرب الارثوذكس جزءا من القضية العربية الكبرى ولفت نظر الحكومة الى وجوب تمكينهم من انتخابات بطريرك عربي لهم ، كما قدم الشكر لمسيحيي فلسطين وشرق الاردن على عواطفهم التي ابدوها نحو المؤتمر ، وحيا المؤتمر العربي الارثوذكسي المنعقد في يافا .

المجموعة الثانية من القرارات وهي التي تتناول عددا من القضايا السياسية المحددة :

ا ـ تأسيس شركة اسلامية كبرى لانقاذ الاراضي في فلسطين من خطر انتقالها لليهود يشارك فيها العالم الاسلامي كله (١١٨) .

ب ـ في صدد البراق قرر المؤتمر انه مكان اسلامي عام مقدس عند جميع المسلمين، وقرر استنكار كل تبديل او تغيير في حالته وصفته ، كما اعلن استنكار قرار لجنة البراق الدولية(١١٩) .

جـ ـ وفي صدد قضية فلسطين الاصلية ، قرر المؤتمر ان فلسطين ، باعتبارها أولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الاسلام ، هي مقدسة عند جميع المسلمين وان من حقهم وواجبهم حفظها اسلامية ومنع كل مطمع وعدوان عليها، وطالب باستقلالها وقيام حكم فيها باكثرية اسلامية لان المسلمين هم الاكثرية الكبرى فيها ، وقرر رفض وعد بلفور وصك الانتداب وبطلان كل ما جرى نتيجة لهما ، وطالب بمنع الهجرة اليهودية الى فلسطين وانتقال الاراضي العربية لليهود وبعدم محاباة اليهود في الوظائف والقوانين والمشاريع والامتيازات(١٢٠) .

د ـ استنكار الاستعمار بجميع انواعه وفي أي قطر من الاقطار الاسلامية وذلك لان الاستعمار لا يتفق مع الحق العام ومبادىء الدين الاسلامي القويم ،وبالتحديد، يستنكر المؤتمر السياسة البريطانية الاستعمارية في فلسطين ، وكذلك في مصر والسودان وبعض اقطار الجزيرة العربية ، ويستنكر المظالم التي ينزلها الطليان في طرابلس وبرقه والفرنسيون في سوريا ولبنان والمغرب(١٢١) .

هـ ـ يطالب المؤتمر بتسليم خط السكة الحديدية الحجازية الى ادارة اسلامية لانه ملك اسلامي قام باموال اسلامية لاغراض اسلامية ، ويطالب المؤتمر بالتقيد بصك الانتداب بشأن عدم التعرض للاوقاف الاسلامية ، وبتنفيذ ما اعترفت به معاهدة لوزان من كون الخط وقفا اسلاميا(١٢٢) .

و ـ استنكار الظهير الفرنسي البربري (القانون القاضي بتنصير مسلمي البربر في المغرب العربي ، الصادر في ١٩٣٠) ، « فالمؤتمر يحتج بشدة ويطالب بالغاء الظهير والكف عن تلك الاساليب الخطيرة (١٢٣) ».

ز ـ استنكار المعاملة السياسية التي لقيها زعماء طرابلس وبرقة ومجاهدوهم وسائر قبائلهم من تقتيل وتشريد وسلب املاك ، «ان المؤتمر يرجو باسم العدل والمدنية والشرائع السماوية والارضية ان تتدخلوا او تحولوا دون استمرار تلك الفظائع»(١٢٤) .

وفي سبيل العمل لانشاء منظمة اسلامية دائمة قرر المؤتمر وضع دستور باسم (دستور المؤتمر الاسلامي العام) وعهد برئاسة لجنة صياغته لمحمد علي علوبة (كان دروزة سكرتيرا لها) . وقد أقر المؤتمر مواد الدستور (من ١٧ فقرة) وكان من مقتضاها ان المؤتمر مؤسسة اسلامية دائمة ينعقد كل سنة في بلد اسلامي يعين في آخر كل دور انعقاد ، وان له تشكيلات ومكاتب في كل انحاء العالم الاسلامي لمساعدته في الجباية وفي تنفيذ القرارات (١٢٥) . ونص دستور المؤتمر على انتخاب لجنة تنفيذية من ٢٥ عضوا لتمثيل المؤتمر في فترة عدم انعقاده وملاحقة تنفيذ قراراته والاشراف على تشكيلاته وتهيئة انعقاد دورته التالية ، على ان تجتمع مرة واحدة كل شهر ، ونص على ان يكون لها مكتب مؤلف من رئيسها وسكرتيرها وخمسة من اعضاء آخرين منها يكون دائم العمل . وكانت اللجنة التي انتخبت ممثلة لجميع الاقطار الاسلامية العربية وغير العربية التي شهد المؤتمر وفود منها(١٢٦) .

وفي حفلة ختام المؤتمر ١٧ ديسمبر / كانون أول كرر الخطباء تأييد بلادهم لفلسطين وقضيتها واماكنها المقدسة والبراق ، واعتبار انفسهم وبلادهم شركاء اصليين في كل ذلك ، ووعدوا ببذل كل جهد في تنفيذ قرارات المؤتمر وديمومته . واقيم في الليل حفل ديني في المسجد الاقصى ، دعا المؤتمرون بنصر المسلمين وبلاد المسلمين وحماية فلسطين المقدسة من اخطار الاستعمار والصهيونية وكبت اعداء الاسلام والمسلمين(١٢٧) . ثم اجتمعت اللجنة التنفيذية والفت مكتبها حسب الدستور من الحاج أمين رئيسا ، والسيد الطباطبائي سكرتيرا عاما ونبيه العظمة مساعدا له ، ومن الزعيم الثعالبي ورياض الصلح وسعيد شامل اعضاء ، ومحمد علي علوبة امينا للمال(١٢٨) . وسار العمل اياما بنشاط كبير . « وكان جيشان المؤتمر وروحه مايزالان مؤثرين »(١٢٩) . ووضع الطباطبائي ونبيه العظمة بعض الانظمة والتعليمات بسبيل تشكيل لجان فرعية في المدن الفلسطينية والمدن الاسلامية الاخرى ، كما وضعا نظام جباية وتبرع ، وباشرت بعض مدن فلسطينية العمل وفقا لذلك بسرعة(١٣٠) .

تقيم عام للمؤتمر :

لا شك ان المؤتمر الاسلامي الاول في القدس كان الميدان الواسع الذي عبر ابناء العالم الاسلامي فيه عن اهتمامهم بالقضية الفلسطينية ، وقمة الجهود التي بذلها الفلسطينيون لمناشدة عطف البلدان العربية والاسلامية ودعمها، وقد شعر قادةالحركة الوطنية في فلسطين بالقوة الجبارة للعالم الاسلامي وما يمكن ان يحققه التحالفالوثيق معها من نتائج مثمرة ، كذلك فقد دلل المؤتمر للعالم ان الشعوب الاسلامية اصبحت تشعر بان الحاجة ماسة الى تضامنها وتكاتفها ، وان لا سبيل لها الى تحقيق كثير من اغراضها الا باتحادها وتعاونها ، وكان اهم ما انجزه المؤتمر هو جمع ذلك العدد الكبير من كبار رجالات المسلمين من مختلف الاقطار الاسلامية في صعيد واحد لمناقشة قضاياهم واستعراض مشاكل بلدانهم والتعرف على الاوضاع السائدة في سائر الاقطار الاسلامية ، واقتراح ضروب العلاج التي تسفر عنها احاديثهم ومناقشاتهم .

لم يقتصر نجاح المفتي على توجيه انظار العالم الاسلامي نحو قضية فلسطين ، وتنبيهه الى ما يحيط بها من اخطار وخلق راي عام اسلامي يساند القضيةالفلسطينية في السنوات التالية ، بل ترتب علىهذا العامل نتيجة اخرى ، هي تحقيق مجد شخصي له وتعزيز مركزه ونفوذه في انحاء العالم الاسلامي ، فتخطت شخصيته الحدود بعد ذلك المؤتمر واصبح شخصية اسلامية يعتد بها، بلاصبحخلال الثلاثينات وخاصة بعد وفاة الملك فيصل عام ١٩٣٠ وكاظم الحسيني ١٩٣٤، من ابرزالشخصيات في العالم العربي(١٢١) . واذا كان المؤتمر قد قصر عن تحقيق نتائج سياسية حاسمة فلا يعود ذلك الى فساد او وهن في اعماله ، بل الى ان معظم البلدان التي شاركت في المؤتمر كانت تفتقر الى الثقل الدبلوماسي الكافي ضد بريطانيا وسائر الدول الاوربية الاخرى ، والظاهرة الاستعمارية كانت لا تزال في اوجها في مرحلة مابين الحربين ،وجاء نقص التمويل عاملا اخرا لاحباط عدد من المشاريع الواسعة التي اقرها المؤتمر . ولا يمكن فصل هذا العامل عن الجو العام الذي كان يسود اقطار العالم الاسلامي سياسيا واقتصاديا .

في اعقاب المؤتمر :

عاش عرب فلسطين يحدوهم الامل بتنفيذ قرارات المؤتمر ، على ان امور المؤتمر لم تستمر على ما يرام ، فلم يباشر المكتب عمله كما يجب وذهب الطباطائي بعد اسبوعين الى اوربا ، كذلك لم تدع اللجنة التنفيذية إلى الاجتماع وتحولت الى هيئة فخرية غير فعالة (١٢٢. ويضيف عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة سببا آخر اذ

«... لم تبدر أية بادرة في البلاد الاسلامية العربية وغير العربية في صدد تأسيس فروع للمؤتمر وتنظيم الجباية وتنفيذ القرارات . وكان هذا مما وضع على عاتق رجال المؤتمر في هذه البلاد التي كانت منشغلة بهمومها حيث كانت كلها تقريبـا تحت الاحتـلال والسيطرة الاجنبية وتعاني من ذلك ما تعاني وينشغل اولئك الرجال بذلك اكثر ممـا ينشغلون في امور المؤتمر وكان قدومهم اليه مبادرة شخصية وفردية وهذا فضلا عن التخلف العظيم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي الذي كان يلف بلادهم وسكانها ..».

وكان تحقيق الوعدين ، الوعد بانشاء الجامعة(١٣٣) ، والوعـد بانشاء الشركـة الزراعية لانقاذ الاراضي ، بحاجة الى اموال ، فشرع مكتب المؤتمر يجمـع المال مـن الخارج ، وسافر الى الهند وفد مؤلف من الحاج أمين الحسيني ومحمد علي علوبـة ، وانضم اليه هناك الشاعر محمد اقبال ، فلقي نجاحا كبيرا وانهالت عليه التبرعات ، (مليون روبية من نظام حيدر اباد ، ونصف مليون من سلطان البهرة)... وبينما كانت التبرعات تنهال والوفد يزداد اطمئنانا لنجاح مهمته ، وصلت رسالـة من الحكومة في لندن الى ونتفتون نائب الملك في الهند تطلب منه عرقلة مساعي الوفد والحيلولة دون تحويل الاموال الى خارج الهند . ولم يكن صعبا على نائب الملك تنفيذ الاوامر بطبيعة الحال ، وبالتالي لم يعد صعبا على اعضاء الوفد وكبار الاعضاء في المؤتمر الاسلامي ان يروا بالعين المجردة لا بعين الخيال ، الحدود الضيقة التي وضعها الاستعمار امامهم لا يتخطوها ، فالاقطار العربية والاسلامية كلها كانت تعاني من ضغط اسـتعماري ، والاستعمار سواء اكان بريطانيا او فرنسيا او ايطاليا يبقى استعمارا متضامنا وموحدا في مجابهة الاماني التحررية والقومية والتقدمية لدى الشعوب المستعمرة(١٣٤) . وكانت فكرة جمع الاموال في العالم الاسلامي فكرة هزت بريطانيا واقلقتها ، فانشاء جامعة في القدس تهيىء سبيل العلم للعرب تحاربه بريطانية ، وانشاء شركة زراعية تمول مـن مسلمي العالم ، وتوفر لها القدرة المالية لن يجد اليهود بعدها شيئـا ميسـرا لهم في التملك والانشاء والانماء(١٣٥) . ولم تنجح فكرة المؤتمر حتى فيمقاطعة البضائعاليهودية لدى المسلمين ولم ينقطع سيل التصدير من الشركات اليهودية في فلسطـين والبيوت الصهيونية في العالم الى مختلف انحاء العالم الاسلامي الذي كان محكوما ببريطانيـا وفرنسا وايطاليا ،ولم يكن لسـكانه راي في هذا الميـدان بقدر ما لهم رأي في حكـم بلادهم(١٣٦) .. ولربما كان وفد السلاممن المؤتمر الاسلامي العام برئاسة الحاج امـين لحل الخلاف المسلح بين اليمن والسعودية على الحدود هو الانجاز الوحيد الذي حققه المؤتمر في تلك الفترة . وجرت المفاوضات بين الطرفين باشراف ورقابة الوفد وانتهت بعقد معاهدة صلح وتحالف بين البلدين . فقد اعتبر مكتب المؤتمر النزاع ضربةللوحدة الاسلامية وهذا ما برر التدخل ، وعزز ذلك مكانة الحاج الدولية وخلق جوا من حسن

النية امكن ان يستخدمه فيما بعد وهو يبحث عن دعم السعودية واليمن في الثلاثينات(١٣٧) .

ويذكر دروزة في مذكراته غير المنشورة ان هذه المبادرة قد منحت المؤتمر دفقة جديدة من الدم والحياة الا انها لم تبعث فيه حياة مستمرة ،« وظل الحاج امين يتحرق على اعادة اللألاء لشمس المؤتمر »، واستطاع ان يقنع الطباطبائي الذي كان في اوربا بالعودة الى فلسطين واستلام المكتب وانعاش حركة المؤتمر ، فعاد فعلا في اواخر سنة ١٩٣٣ واخذ يضع الخطط لذلك . واستطاع الحاج امين ان يقنع الزعيم الثعالبي ايضا بالعودة والاقامة الى جانب الطباطبائي في سبيل ذلك ايضا . وفي هذه الاثناء ورد خبر من حكومة فلسطين بوصول الحوالة بتبرع نظام حيدر اباد مشروطا دفع قيمتها. وشجع الخبر (الثلاثي الحاج والطباطبائي والثعالبي) على السير في مشروع جامعة المسجد الاقصى دون ان ينتبهوا الى ان المبلغ ليس سنويا ،وانه لا يمكن انشاء بناء كبير به للجامعة ، فضلا عن ما تحتاج اليه الجامعة من نفقات باهظة سنويا . فألفوا لجنة علمية واخرى دعائية واخذوا بوضع الخطط المتنوعة ، وانهمك الزعيمان الطباطبائي والثعالبي في ذلك مدة عامين وبدأ عملهم باحضار مهندس من مصر(١٣٨) كلفوه بوضع مخطط لبناء جامعة ذات كليات عديدة يتم انشاؤها مرحلة بعد مرحلة ، ثم فطنوا الى ان المال الذي في يدهم لا يكفي انشاء كلية واحدة فضلا عن تجهيزها . فراوا ان يقتصر عملهم على عمارة فندق الاوقاف الكبير لاقامة كلية او كليتين ، والحا علي الحاج امين الذي الح بدوره على المجلس حتىاستصدر قرارا بالموافقةعلىتخصيص العمارة للمشروع ، ثم تنبها الى ان المشروع يحتاج الى مبالغ كبيرة ليست متيسرة ، وان من الممكن تدبير اماكن مناسبة من البنايات والمدارس الوقفية الملحقة بالحرمبدون أجر او باجور رمزية . وكان عزة دروزة حينذاك قد تولى مديرية الاوقاف وطلبمنه المجلس ابداء الرأي، وبعد تقليب الرأي قال دروزة ان العمارات التي حول الحرم مشغول أكثرها ولو امكن اخلاء او تخصيص بعضها فانه يحتاج الى مبلغ كبير ،ومجمل القول ان المشروع يحتاج اولا الى مبلغ جاهز لاعداده ثم الى ريع ثابت كاف لادامةحياته فضلا عن تنميته ، ولا يجوز ان يعالج معالجة متسرعة ، وسلموا بما قالدروزة واخذوا يخططون لمدرسة صناعية او مصنع يتعلم فيه الطلاب ، ولكن هذا ايضا بقي في نطاق الكلام وهكذا قضوا « سنتين في فراغ »(١٣٩) .

خاتمة :

ان تقلص قرارات المؤتمر لا يعني فشل فكرته في البحث عن القوة الدينية لدعم النضال الوطني ، ولا يعني كذلك غياب زعامة الحاج ولكن اخذ كل منهما منحى اخر:

فالجيل الماضي من دعاة الجامعة الاسلامية والـذي كان يشـدد على الطابع الاسلامي للقومية العربية اخذ يحل محله جيل جديد يرى الاولوية في الرابطة القومية والوحـدة العربية دون ان ينفي أهمية التعبير الديني عن المشاعر السياسية او البعد الاسلامي للقضية الوطنية ، وهذا اتجاه عام كان يجري في ثلاثينات القرن الحالي في كثير من البلدان العربية ، بظهور احزاب تعبر عن عقيدة قومية اشد ترابطا والنظر الى الاسلام كحضارة او كخالق للامة العربية ومستودع لثقافتها وموضوع عزتها المشترك . وكان الشاعر محمد اقبال بعيد الرؤية عندما عبر بهذه الكلمات قبل مغادرته فلسطين « انني اعتقد ان مستقبل الاسلام متوقف على مستقبل العرب ، ومستقبل العرب متوقفعلى وحدة العرب ،فاذا تمت وحدتهم ، علا شأن الاسلام» (١٤٠) . وكانت كتلـة القوميين العرب داخل المؤتمر الاسلامي ، كما يصفهم دروزة في مذكراته غير المنشورة ، أقوى الجبهات من حيث التفاهم ووحدة الافكار ، وكادوا يكونون الروح الـذي سيرتـه في مناقشاتهم ومقترحاتهم ونشاطهم ، وكان عدد غير قليل منهم من ابناء جمعية الفتـاة وعهد فيصل من القوميين العرب يحملون وجهات نظر قومية عربية اكثرمنها اسلامية، فرأوا في اجتماعهم فرصة لتجديد العهد والميثاق في سبيل الحركة القومية . وقد تكون القيود التي فرضتها السلطات البريطانية على المؤتمر الاسلامي(١٤١) قد حملت عددا من هؤلاء على اغتنام فرصة انعقاد المؤتمر للدعوة الى عقد مؤتمر عربي قومي في القدس ، فاجتمعوا قبل انتهاء المؤتمر في بيت عوني عبد الهادي ليلة ١٣ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣١ ، وانضم اليهم اخرون من الشباب العرب ورجالاتهم القوميين ، مـن القدس وفلسطينوخارجها ، ممن شهدوا المؤتمر الاسلامياو كانوا حوله. وبلغ عدد المجتمعين نحو خمسين من مختلف اقطار العرب الاسيوية والافريقية ، وتداولوا في ما صارت اليه البلاد العربية وما تعانيه من تجزئة واحتلالواستعمار وصهيونيـة ومشـاكل اقليمية ، وقرروا وضع الميثاق التالي :

١ ــ ان البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ وكل ما طرأ عليها من انواع التجزئـة لا تقره الامة العربية .

٢ ــ توجه الجهود في كل قطر من الاقطار العربية الى جهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة ومقاومة كل فكرة ترمي الى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والاقليميـة .

٣ ــ لما كان الاستعمار بجميع اشكاله وصيفه يتنافى كل التنافي مع كرامة الامة العربية وغايتها فان الامة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها . واوضح المؤتمرون في الوثيقة العواقب السياسية الوخيمة لانقسام العالم العربي وتشرذمه وقرروا مكافحة

الاستعمار والنضال في سبيل استقلال جميع الاقطار العربية وتوحيدها . وانبثقت لجنة تنفيذية مهمتها نشر الميثاق القومي وتعميمه والاعداد لمؤتمر عام يضم مندوبين من جميع الاقطار العربية للبحث عن الوسائل والخطط اللازمة لتنفيذ الميثاق على مستوى شعبي في البلاد العربية كلها .

وفيا يتعلق بزعامة الحاج فان الهالة الدينية ،التي اخذت تكبر وتكبر حتى تكرست في المؤتمر الاسلامي العام ، بدات تتراجع لتحل محلها الزعامة السياسية اولا، واخذت الحركة السياسية في فلسطين بصورة عامة تنهج منهجا مختلفا ، وتتخلى عن ضرورة وجود الزعامة الدينية كعنصر هام من عناصر قيادتها ، ولم تقم الاحزاب السياسية التي ظهرت في فلسطين في الثلاثينات على اساس ديني ، ولم تعد تعتبر ان للمكانة الدينية التي يتمتع بها الحاج الافضلية في الميدان السياسي . ومن هنا اخذت الاحزاب السياسية تخاطبه كرجل سياسي اولا وثانيا(١٤٤) . ولا يعني هذا ان الحاج قد فرط بالهالة الدينية التي تحيط بشخصه او انه بدأ يتجاهل القوة الهائلة للعالم الاسلامي من اجل تعبئته الى جانب قضية فلسطين، بل ظل يدرك اهمية العامل الديني في خدمة الاهداف السياسية ، ومما يذكر في هذا المجال الحملة التي قادها المفتي ضد بيوع الاراضي ، والتي وصلت اوجها عام ١٩٣٤ باصدار الفتاوى الدينية بتكفير البيع والبائع ، والسعي الى استنقاذ الاراضي في فلسطين من خلال تحويلها الى وقف وحظر بيعها (١٤٥) . وظل المجلس الاسلامي الاعلى يشغل مكانة معنوية عالية بين أبناء فلسطين واستمر في ممارسة نفوذه في السياسات الفلسطينية المحلية حتى ابعاد المفتي . وكان تعاظم مكانة المفتي كزعيم له شهرة في العالم الاسلامي هي التي حملت بريطانيا ، وهي تخطط لابعاد المفتي عام ١٩٣٦ عن فلسطين، الى محاولة التاكد من الاثار السيئة التي يمكن ان تعقب عملا من هذا النوع ، وذلك بالتشاور مع ممثليها المنتشرين في الهند ومصر والعراق والجزيرة العربية(١٤٦) .

الحواشـي :

(١) خدوري ، عبد المجيد ، عرب معاصرون ، ادوار القادة في السياسة بيروت ١٩٧٣ (مترجم)ص١٥٩ من رسالة المفتي الى المؤلف .

(٢) **Lesch Ann Mosely**, Arab Politics in Palestine, 1914 - 1939 London, 1949, p. 132

(٣) الفوري ، اميل ، فلسطين عبر ستين عاما ، بيروت ، ١٩٧٢ جزء (١) ، ص ٢١٥ .

(٤) كان منصب الافتاء قد شغر بوفاة كامل الحسيني اذار / مارس ١٩٢١ . وجرت العادة في العهد العثماني ان يختار عدد من العلماء يمثلون مختلف القاطعات في البلاد ثلاثة رجال تختار السلطة احدهم لمنصب المفتي ورشح الحاج أمين نفسه فكانت تتوفر فيه المؤهلات المطلوبة (وهو شقيق المفتي الراحل) .وعارضت ذلك اسرة النشاشيبي (وهي احدى العائلات المنافسة التيانتقلت اليها رئاسة البلدية بعد الحرب) ، وضمنت ترشيح ثلاثة من اسر اخرى ذات نفوذ . ووفقا لقانون انتخاب الافتاء العثماني والذي طبقته السلطات البريطانية كان يحق لمتصرف القدس (والمندوب السامي يعتبر نفسه قد حل محله) ان يختار واحدا من الفائزين الثلاثة لتولي المنصب. ومن اجل الحفاظ على التوازن بين العائلات المتنافسة اقنعت السلطات البريطانية احد المرشحين الثلاثة بالانسحاب ليفسح المجال امام الحاج ويصبح المرشح الثالث واختير بعدها مفتيا للقدس. (كان عدد المفتين في فلسطين كلها سبعة الا ان مفتي القدس كان اكثرهم اهمية فقد كان يجري اختياره من بين ثلاثة مرشحين انتقاهم كبار علماء فلسطين ، بالاضافة الى قيامه بدور رئيسي في النشاط الاسلامي والسياسي) .

(٥) في العهد العثماني كانت السلطة التشريعية هي المرجع الرئيسي الذي يصدر عنه التشريع والقوانين في كل ما يختص بالمحاكم الشرعية والاوقاف الاسلامية ، وبعد الانتداب اصبح من الضروري ايجاد صيغة اخرى لتنظيم الشؤون الاسلامية وادارتها . وبعد التشاور مع عدد من العلماء والاعيان وموظفي الحكومة ، تم انشاء المجلس الاسلامي الاعلى في اذار / مارس ١٩٢١ للاشراف علىالشؤون الشرعية الاسلامية وادارتها من محاكم شرعية واوقاف ، وجرت الانتخابات الاولى لاختيار الهيئة العليا للمجلس (رئيس واربعة اعضاء) على طريقة الانتخابات لمجلس النواب العثماني وفازبالرئاسة في الانتخابات ١٩٢٢ الحاج أمين الحسيني . وقد اثارت الانتخابات التنافس بين العائلات ولعبت العصبيات المحلية دورها ، ودخل المجلس الاعلى في لعبة التوازن بين قوتين سياسيتين متنافستين اطلق عليهما فيما بعد « المجلسيون والمعارضون » .

نويهض الحوت ، بيان ، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨ بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٢٠٥ - ٢١٠ .

(٦) عقد عرب فلسطين في الفترة بين ١٩١٩ و ١٩٢٨ سبع دورات للمؤتمر العربي الفلسطيني ، ويعد هذا المؤتمر في بلد حرم ابناؤه العرب ممارسة حق الانتخاب ، مؤسسة وطنية تشبه المجلس النيابي ولها اهدافها الواضحة وبرامجها المحددة . ولميتم اختيار المندوبين الى دورات هذا المؤتمر وفق قاعدة واحدة بل تم من خلال الجمعيات واهمها « الاسلامية المسيحية » والهيئات الاخرى ، او بعرائض ومضابط انتخابية تقدمها المؤسسات والمدن والقرى . وراوحعدد المندوبين بين ٢٨ و ١٢٧ مندوبا من مختلف مدن فلسطين واقضيتها .وكانوا من العاملين في الحقل السياسي ومعظمهممن الذين تولوا مناصب عالية او ممن كانوا اعضاء في الجمعيات السياسية في العهد العثماني وعدوا

فيما بعد اعضاء في الجمعيات الوطنية الفلسطينية . وكان هدف المؤتمر وضع الخطوط السياسية لحركة النضال الوطني وبث الدعاية لها في الخارج ، وقد انبثق عن كل مؤتمر لجنة تنفيذية اتفق على ان تكون الناطقة باسم عرب فلسطين وتتولى الاشراف على تنفيذ قرارات المؤتمر وقيادة الحركة الوطنية وتوجيهها .وقد ظل موسى كاظم الحسيني يتولى رئاسة اللجنة التنفيذية حتى وفاته ١٩٣٤ وكان ذلك نهاية لوجود اللجنة نفسها وانتهاء لعهد المؤتمرات العربية الفلسطينية ،وستتولى قيادة الحركة الوطنية فيما بعد اللجنة العربية العليا برئاسة المفتي نفسه ممثلة لجميع الاحزاب الفلسطينية التي برزت في مطلع الثلاثينات .

(٧) الفوري ، اميل ، ص ٨١

(٨) الشقيري ، احمد ، اربعون عاماً في الحياة العربية والدولية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١١٨ .

(٩) **Peters, Rudolph,** Islam and Palestinian national movement 1918 — 1940 , a paper submitted at the 8 th congress of the Union Européenne des Arabisants et Islamisants, Amsterdam, p.11.

وفي الثلاثينات شن المسيحيون حملة مماثلة في العالم المسيحي :

كيالي ، عبد الوهاب ، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ ،بيروت ١٩٦٨ ، ص ٤٢٩ نداء من مسيحيي فلسطين الى العالم المسيحي لانقاذ الاماكن المقدسة من الخطر الصهيوني .

(١٠) الفوري ، اميل ، ص ٢٠٥ . في نهاية ١٩٢٤ بلغت الهبات ...ر١٧٠ استرليني ، ووصلت ...ر١٩٥ استرليني في منتصف ١٩٢٨؟

Political Report, Sep. 1924 , CO 733 / 74 Chief Secretay dispatch , August 30, 1928 C.O 733/160/57527.

وردت في كتاب : **Lesch. p.137**

(١١) اوراق اكرم زعيتر ، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ ، بيروت ١٩٧٩ ، وثيقة ٩٧ « نداءات الوفد الفلسطيني الاسلامي للحجاز الى الامم والدول العربية الاسلامية ١٩٢٢» .

وقد يكون هذا هو الذي دفع الحكومة البريطانية الى الالحاح على الوفود الفلسطينية التالية التي ذهبت الى الحج ١٩٢٣ و ١٩٢٤ بالامتناع عن أي نشاط سياسي .

Political Report June 1923, CO 733/47
High Commissioner telegram Sept 26 1929 CO 733/44

وردت في كتاب : **Lesch P.138**

(١٢) ارسلان ، شكيب ، السيد رشيد رضا واخاء اربعين سنة ، دمشق ١٩٣٧ ، ص ٣٨.

(١٣) انظر الحاشية (٢٢) عن المؤتمر الاسلامي ١٩٢٦ .

(١٤) ساحة البراق هي المكان الذي تتحدث الروايات الاسلامية انه البقعة التي ربط فيها الرسول الكريم فرسه ـ البراق ـ ليلة اسرائه من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، وفي جوار هذه البقعة حائط المبكى وهو جزء من جدار المسجد الاقصى. وفي عيد الغفران عندالبهود ايلول/سبتمبر ١٩٢٨ تدفق جموع اليهود على المدينة القديمة في طريقهم الى حائط المبكى في مظاهرة شبهعسكرية وكانت تقاليد اليهود الى ذلك العهد قاصرة على البكاء والدعاء ، ولكنهم في ذلك اليوم تجاوزوا ـ الستاتكو ـ فنفخوا في الصور ووضعوا الطاولات واقاموا الستائر ورفعوا اصواتهم ، وكانت حركاتهم آية في التحدي والاستفزاز . ولم تكن الطاولات والستائر والابواق ذات اهمية بذاتها ، لولا

ما كان العرب يحسونه من الخطر الصهيوني على المسجد الاقصى والمقدسات الدينية عامـة ، بل على فلسطين باسرها ، وخاصة تلك التصريحات اليهودية عن اقامة هيكل سليمان على انقـاض المسجد الاقصى . فاهتاجت المشاعر وابتدأ الصدام في القدس القديمة ، فتصدى الشعب بعنفـا للمسيرة اليهودية في القدس القديمة ، وتصدى رجال الشرطة للجماهير العربية وسقط القتـلى والجرحى بالمئات ، وعم الاضطراب جميع مدن فلسطين وبلغ اوجه في اب / اغسطس ١٩٢٨ ووقـع الاصطدام بين القرى العربية والمستعمرات اليهودية ونشـطت السلطات البريطانيـة في الاعتقالات واعلان الاحكام العرفية واصدار احكام الاعدام وساد البلاد جو مشـحون بالقلـق والاضطراب. وبعثت الحكومة لجنة تحقيق برلمانية عرفت باسم رئيسها (ولتر شو) تشرين اول اكتوبـر ١٩٢٩ لدراسة الاسباب التي ادت الى الاضطرابات ولتقديم التوصيات لمنع تكرارها .

(١٥) بعد تفجر مسالة البراق عقد مؤتمر اسلامي تشرين اول / اكتوبر ١٩٢٨ في القدس حضره سبعمائة من فلسطين والاقطار المجاورة طالب الحكومة باصدار تصريح عـن تعهداتها بحفظ حقـوق المسلمين في البراق ، وتمخض المؤتمر عن ولادة « جمعية حراسة الاقصى والاماكن المقدسـة » وكان للحاج أمين ودوائر المجلس الاسلامي دور كبير .

(١٦) في اواخر ايار / مايو ١٩٣٠ وفدت على البلاد لجنة البراق الدولية لدرس الخلافات حول هـذا المكان بين العرب واليهود ، وكان ذلك مما اوصت به (لجنة شو) ووضعت كل الطاقات والكفاءات بين يدي الحاج امين بوصفه رئيس المجلس الاسلامي الاعلى .وتداعـت الوفود من كل انحـاء العالمين العربي والاسلامي للمثول امام اللجنة الدولية للادلاء بشهاداتها وارائها حول ملكية المسلمين لحائط البراق وما حوله . ولم تكن القضية صعبة من الناحيةالقانونية فقد كانت وثائق المحاكم الشرعية وسجلات الاوقاف كفيلة بان تثبت حق المسلمين . وجاء تقرير اللجنة الدولية فاعلـن الملكية للمسلمين واعطى اليهود حق الزيارة في اضيق الحدود .

(١٧) Falastin, Englisf edition . Jun, 28, 1930, p.2
وردت في كتاب : Lesch , pp.139 - 140

(١٨) المنار ، جـ ٢ ، م ٣٢ ، فبراير ١٩٣٢ ، ص ١٣-١٤

(١٩) المصدر السابق .

(٢٠) منذ الربع الاخير للقرن التاسع عشر اخذت تحوم في مختلف ارجاء العالم الاسلامي أفكار تبحث في اسباب تخلف البلدان الاسلامية، وطرق مواجهة تحدي الغرب ، وانتشرت الافكار الاصلاحيةعلى يد تلامذة الافغاني تدعو الى الاصلاح بقبول المدنية الجديدة بالقدار الكافي لاستعادة العالم الاسلامي قوته وهيبته مع الحفاظ على الدين الاسلامي والقيم الاسلامية .
حول هذه المواضيع انظر : **Hourani , Albert** , Arabic thought in Liberal age 1798 — 1939. Oxford University Press, 1970, Chap. V.VI,VII

(٢١) بعد الغاء تركية للخلافة ١٩٢٤ يقول شكيب ارسلان « بادر العقلاء والمفكرون من المسلمين الىالنظر في هذا الموضوع حتى لا يبقى الاسلام بلا خليفة » وكان هو قد اشار بمعالجة هذه المسالة فيمؤتمر اسلامي عام فصادفت هذه الفكرة قبولا في جميع الاندية الاسلامية ، وانعقد مؤتمر الخلافة فيمصر ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٦م. ويضيف ارسلان « وبعد ان تذاكروا مليا في الموضوع لم يجـدوا مملكـة اسلامية فيهذا الوقت تقدر ان تقوم بشروط الخلافة سوى مصر ولكن الاحتلال الانجليزي وعـدم تمتع المملكة المصرية بتمام أستقلالها يومئذ جعلا سبيلا للاعتراض على جعل الخلافة في مصر وكان اكثر المعترضين هم من مسلمي الهند والجاوى » .

ارسلان شكيب ، السيد رشيد رضا واخاء اربعين عاما ص ٢٥٢

(٢٢) مؤتمر مكة ١٩٢٦ دعا له الملك عبد العزيز آل سعود بعد استيلائه على مكة وحضرته وفود رسمية وجمعيات اسلامية من عدة بلدان اسلامية ، ولم تبحث فيه مسألة الخلافة . وكانت مسألة النزاع حول العقبة ومعان بين الحجاز وشرق الاردن مثار بحث وكذلك مسالة الخط الحديدي الحجازي واعتبر انه وقف اسلامي .وكان من المقرر ان يجتمع المؤتمر سنويا على ان يمتد نطاقه ليشمل كل القضايا الاسلامية .

(٢٣) كان عزة دروزة احد الذين واكبوا الحركة السياسية منذ مطلع هذا القرن وخلال سنوات الانتداب كان في خضم الحركة الوطنية في مواجهة خطر الانتداب والصهيونية ولعب دورا محركا في الاحداث دون ضجة او اثارة . ومنذ ان تولى امانة سر المؤتمر السوري العام الذي اعلن استقلال سوريا وملكية فيصل ٨ آذار / مارس ١٩٢٠. سيتولى عزة دروزة امانة سر المؤتمر الاسلامي ١٩٣١ ومؤتمر بلودان ١٩٣٧ .

(٢٤) بعد ان غادر الثعالبي ارض تونس في ٢٦ تموز / يوليو ١٩٢٣ متجها الى الشرق استقر في فلسطين واستقبلته القدس ابنا بارا بقضية العروبة ، مبشرا مؤمنا بها واستمعت اليه محاضرا واسع المعرفة جذاب الحديث واعتبرته مناضلا منها ولها . وعمل فيها كما كان يعمل في مسقط راسه لا يفرق بين تونس والقدس بل ربما اولى هذه ما لم يوله تلك لانه يعلم انها مهددة بخطر افدح من الخطر المحيط بتلك ولانها ثاني القبلتين ترتاح روحه للصلاة في اقصاها .

الجندي ، سامي ، عبد العزيز الثعالبي - تونس الشهيدة - ترجمة - بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢٠، من المقدمة . وقد سعى الثعالبي للتوسط بين الاحزاب الفلسطينية المتنافسة ١٩٢٤ للتعجيل بعقد المؤتمر الفلسطيني السابع ووجه دعوة لعقد مؤتمر مصالحة في ١٩٢٤/٦/٢٤ في مدرسة دار الايتام الاسلامية بالقدس وذلك للسعي في كل سبب يفضي الى سوء التفاهم بين عناصر الفكرة الوطنية المكونة للوحدة الفلسطينية » .

خلة - كامل ، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩ بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ نقلا عن الجزيرة (يافا) ١٩٢٤/٦/٢٦ .

(٢٥) صدقة ، نجيب ، قضية فلسطين ، بيروت ١٩٤٦ ، ص ١٥٩ .

(٢٦) عقد في القدس على جبل الزيتون نيسان / ابريل ١٩٢٨ المؤتمر التبشيري العالمي وكان خاصا بالجمعيات التبشيرية البروتستنتية ورئيس المؤتمر جون موط وغرضه المشاورة في نشر الرسالة المسيحية في جميع انحاء العالم . ونشر تقرير عن المؤتمر في ثمانية مجلدات وكان القسم الخاص بالاسلام والبلاد الاسلامية ضئيلا ، ولم يمثل في المؤتمر أي مندوب عن المسيحيين العرب . وقد اثار المؤتمر موجة من الاستنكار والاحتجاج ، كما قامت المظاهرات والاضطرابات وعقد مؤتمر في يافا قرر على اثره تاسيس جمعيات الشبان المسلمين في فلسطين.

(٢٧) انعقد المؤتمر الصهيوني السادس عشر في زوريخ تموز - آب / يوليو - اغسطس ١٩٢٩ ونقلت وكالات الانباء خطب زعماء الصهيونيين التي تكشف عن اهدافهم التوسعية والعدوانية ، واعلنت قرارات المؤتمر فاذا بها تدعو الى مزيد من الهجرة اليهودية وشراء الاراضي ودعم المؤسسات العسكرية والمالية وتقوية الوكالة اليهودية .

(٢٨) Kupferschmidt, Uri, The general Muslim Congress of 1931 in Jerusalem. Asian and African Studies, Haifa, Vol. 12, No.1 March 1974, pp.125,132

(٢٩) تحركت الحكومة البريطانية ١٩٣٠ امام الدراسات العلمية والتحقيقات العادلة بعض الشيء، في تحقيق مطالب العرب فكان الكتاب الابيض تشرين اول / اكتوبر ١٩٣٠ وكان خطوة على الطريـق نص على انشاء مجلس تشريعي ووضع قيود على الهجرة وبيع الاراضي ولم تكن هذه كل المطالب الوطنية ولكن كان العرب في حاجة الى وقف « النمـو » الصهيوني ، ولكن الصهيونيـة غضبت واستقال وايزمان من قيادة الحركة احتجاجا وقامت الصهيونية بضغوط عالية انتهت باصـدار الحكومة البريطانية في شباط فبراير ١٩٣١ بيانا ايضاحيا تراجعت فيه عن الكتـاب الابيض في لهجة كلها اعتذار للحركة الصهيونية ، وجاء البيان في صيغة رسالة الى وايزمان اطلق عليهـا العرب اسم (الكتاب الاسود) .

(٣٠) انظر الحاشية رقم ١٦ .

(٣١) يذكـر Gibb ان القرار الحقيقي لعقد المؤتمر اتخذ بعد يونيو / حزيران ١٩٣١ ومعنى ذلك انه قد ربطه بالتطورات السياسية المذكورة سابقا .

Gibb , H. A. R., The Islamic Congress of Jerusalem in December 1931 , In, **Toynbes , Arnold,** Survery of International Affairs, 1934 , London , 1935, p.100.

(٣٢) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة . ويصف دروزة الثعالبي بقوله : « .. وكان في الحق رجـلا ناضجا رصينا واسع الثقافة الاسلامية والعربية والغربية طلق اللسان طويل النفس في الكـلام والتقرير بارعا في الالقاء والخطابة يستعمل الكلام الجذل الفصيح النافذ » .

(٣٣) محمد علي وشقيقه شوكت علي زعيمان من زعماء مسلمي الهند السياسيين وهما المؤسسان لجمعية الخلافة هنالك . وكانت الصلة بين مسلمي الهند وفلسطين قديمة فقد بعث الحاج امين الحسيني باول وفد فلسطيني الى الهند ١٩٢٣ للاتصال بقادتها لنصرة القضية ولجمع الاموال لاصلاح الحرم الشريف .كما اجتمع الحاج مع الاخوة علي في مكة خلال الحج ١٩٢٤ ومؤتمر مكة ١٩٢٦ كماجرت مراسلات بين الحاج والاخوين علي ، تطلب رفع المسلمين في الهند احتجاجات ضد الخطط اليهودية على الاماكن المقدسة ، ولاقت احداث ١٩٢٩ صداها في الهند واظهر مسلمو الهند تضامنهم مع عرب فلسطين . وشارك وفد هندي في المثول امام اللجنة الدوليـة للبراق ، وكان محمد علي احـد المتحدثين باسم الجانب الاسلامي امام اللجنة .

FO 371/16001, CO 733/173- (67314) CO 733/179 - (77013) .

وردت في مقال : **Kupferschmidt , p.129.**

وقد نقل جثمان محمد علي بعد وفاته ١٩٣١ (وكان يحضر مؤتمر المائدة المستديرة الخاص بمشكلة الهند) نقل الى القدس بدعوة من الحاج امين الحسيني ، ودفن في حجرة من الحجر التابعـة للمسجد الاقصى الذي كان يدافع عنه .

المنار جـ ٧ ، م ٣١ ، ١٨ فبراير ١٩٣١ ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥ .

وتذكر بعض المصادر ان شوكت علي هو أول من طرح فكرة عقد مؤتمر في القدس للبحث في الشؤون الاسلامية التي تهم المسلمين وافضى بالفكرة الى الحاج امين لما قام بنقل جثمان شقيقه لدفنها في الحرم بعد ان رأى الخطر المحيق بالاماكن المقدسة في فلسطين .

الهلال جزء ٣ ، مجلد ٤٠ اول يناير ١٩٣٢ ص ٣٤٩ .

(٣٤) كان العلامة الشيخ رشيد رضا احد هؤلاء الذين استمزج الحاج امين رأيهم بعقد المؤتمر . وقد نشر رضا على صفحات المنار ج٢ م ٣٢ فبراير ١٩٣٢ نص الدعوة الخاصـة التي كان قـد تلقاها من

المفتي والتي تفيد بغرض المؤتمر وهو البحث في القضايا الاسلامية العامة التي تتعلق بفلسطين على الخصوص بعد ان بات من الضروري الاستعانة برأي العالم الاسلامي في تقرير الخطة التي ينبغي اتخاذها ، ويطلب المفتي من صاحب المنار عناوين ارباب الكانة والزعماء والفكر والقيادة من المسلمين في جميع الاقطار ليبعث لهم بالدعوة . وتعود صلة الحاج امين برشيد رضا الى ماقبل الحرب العالمية الاولى حين كان يتردد على منزله خلال اقامته في القاهرة لتلقي العلم كما كان يتردد على دار الدعوة والارشاد التي اسسها رضا قبل الحرب .

(٣٥) كان في اللجنة التحضيرية عشرون عضوا جميعهم فلسطينيون عدا الثعالبي وكان الحاج امين وامين التميمي هما العضوان الوحيدان من المجلس الاسلامي الاعلى .

(٣٦) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ نقلا عن اوراق نبيه العظمة الخاصة (المحفوظة في مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت) . وايضا المنار ، ج٢ ، مجلد ٣٢ فبراير ١٩٣٢ ص١١٧ ــ ١١٨.

(٣٧) كان شوكت علي قد اكد ذلك في حديث خاص مع السلطات البريطانية في لندن ٢٩ سبتمبر/ ايلول ١٩٣١ لضمان موافقة تلك السلطات على عقد المؤتمر .

F.O 371/15282

وردت في مقال : Kupferschmidt, p.135

(٣٨) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(٣٩) الفوري ، اميل ، ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥ .

(٤٠) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٢٤ نقلا عن اوراق نبيه العظمة الخاصة ويشير رشيد رضا في المنار ج٢ ، مجلد ٣٢ ،فبراير ١٩٣٢ ص.١٢٠ انه « كان قد ذاع وشاع ان (مولانا شوكت علي) احد مؤسسي جمعية الخلافةفي الهند لترويج سياسة الخلافة العثمانية التركية هو الذي اقترح على السيد محمد امين الحسيني عقد هذا المؤتمر وا ن اهم غرض فيه مبايعة عبد المجيد اخر سلاطين الترك بالخلافة » .

(٤١) الفوري ، اميل ، ص ٢٠٥ .

(٤٢) المصدر نفسه ص ٢٠٦ .

(٤٣) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(٤٤) المصدر نفسه .

(٤٥) المنار ج٢ ، م٣٢ فبراير ١٩٣٢ ، ص ١٢١ . ويبدو ان هناك تخوف اخر بالاضافة الى مسالتي الخلافة والازهر ، وهو امكانية حضور خديوي مصر السابق عباس حلمي المؤتمر للحصول على دعم لمطالبته بعرش سوريا .

F.O 371/15282

وردت في مقال : Kupferschmidt, p.127

(٤٦) المنار ج (٢) ، م ٣٢ ، فبراير ١٩٣٢ ، ص ١٢١ ، ص ١٢٣ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ ــ ١٢٤ .

(٤٨) وصل المفتي الى القاهرة فزاره اركان حزب الوفد المعارض برئاسة مصطفى النحاس مؤيدين ثم كانت مقابلة الحاج مع رئيس الوزراء مقنعة للجميع ، واثر المقابلة ارسل الاول للثاني رسالة خاصة اكد فيها على ان الابحاث في المؤتمر ستكون بعيدة كل البعد عن ان تمس الشؤون المصرية البحتة من سياسية وقومية ، او ان يتعرض للازهر الشريف واوضح ان الجامعة في القدس يقصد منها خدمة مسلمي فلسطين ، ثم نفى الاشاعات حول البحث في الخلافة .

المنار جزء ٢ ، م٢٣ فبراير ١٩٢٢ ، ص ٢٦ ١ـ ١٢٧

(٤٩) FO 371/15284

وردت في مقال : Kupferschmidt, p.136

(٥٠) غنيم ، عادل ، المؤتمر الاسلامي العام ١٩٣١ ، شؤون فلسطينية ، سبتمبر / ايلول ١٩٧٥، ص١٢١. نقلا عن Jewish Chronicle 11.12.1931 ويشير المقال الى ان بعض الاتراك الكماليين قد حضروا المؤتمر مثل رضا توفيق الفيلسوف التركي والوزير السابق ، بينما منع من حضور المؤتمر الشيخ مصطفى صبري شيخ الاسلام السابق وكان في اليونان (نقلا عن الاهـرام ١٩٣١/١٢/١٢) وكان العلم التركي مرفوعا مع اعلام البلاد المشتركة في المؤتمر لكنه سحب من القاعة بعد تدخل قنصلية تركيا في القدس (نقلا عن وادي النيل ١٩٣١/١٢/١١) .

(٥١) F O 371/15282

وردت في مقال Kupferschmidt, p.137

(٥٢) الاحتجاجات الايطالية على الحملة الصحافية المعادية لايطاليا في فلسطين في الوثيقة رقم : FO 371/15334

وردت في المقال السابق ص ١٣٧

(٥٣) FO 371/15283 FO 371/15282

وردتا في المقال السابق ص ١٣٨

(٥٤) FO 371/15282

وردت في المقال السابق ص ١٣٨

وقد كرر في نفس الاجتماع التاكيد على رفض السماح للخليفة السابق عبد المجيد بالدخول الى القدس قادما من مقر اقامته في نيس .

(٥٥) غنيم ، عادل ، ص ١٢٦ نقلا عن الشعب (القاهرة) ١٩٣١/١١/٣٠. (بيان اللجنة التحضيرية في المؤتمر) . ووفقا للوثائق البريطانية التقى المندوب السامي (واكهوب) بالمفتي فاكد الاخير على عدم بحث الامور السياسية المتعلقة بموضوع الخلافة او السياسة الايطالية في طرابلس او الاعتداءات اليهودية على الاماكن المقدسة . واشار واكهوب الى ان منع المؤتمر لم يوضع في الحسبان وان وزارة المستعمرات قد قبلت بنصيحته . مع ذلك فقد ظل واكهوب متيقظا واستدعى المفتي ثانية بعد ان تلقى بيانا حول جدول اعمال المؤتمر وجدد المفتي تاكيداته السابقة .

FO 371/ 15283

وردت في مقال : Kupferschmidt, p.139

(٥٦) دروزة ، عزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، صيدا ١٩٥١ ، الجزءالثالث ، ص ٧٧.

(٥٧) كيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديثة ، بيروت ١٩٧٠. ، ص ٢٦٧ .

(٥٨) يشرح رشيد رضا في المنار جزء٢ ، م٢٣ ، فبراير ١٩٢٢ ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ خلفية التنافسات العائلية بين اسر القدس الوجيهة . فآل الحسيني توارثوا منصب الافتاء في حين توارث آل الخالدي اعمال القضاء والمحاكم الشرعية . وبعد انشاء المجلس الاسلامي الاعلى ، ورئيسه مفتي القدس من آل الحسيني ، صارت المحاكم الشرعية تابعة لرياسته فكان هذا سببا لقوة التنافس بين الاسرتين. ووجد راغب النشاشيبي ، رئيس البلدية وعميد آل النشاشيبي ، (وهي ايضا من الاسر الوجيهة) ، في علو وجاهة المفتي ما اقتضى الاتفاق بينه وبين آل الخالدي على معارضة الحسيني، ولكل من الفريقين انصار فانصار الحسيني يسمون المجلسيين والاخرون يسمون المعارضين ولكل منهما جرائد تدافع عنهم وتطعن بالاخرين ، « وعقلاء البلاد الفضلاء يخشون عاقبة هذا

الشقاق ويمقتون جميع مظاهره ولا يهتدون الى ازالته سبيلا » .

(٥٩) المنار ، المصدر السابق ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .

(٦٠) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢١٤ .

(٦١) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(٦٢) المصدر نفسه .

(٦٣) المنار ، جزء٢ ، م ٣٢ ، فبراير ١٩٣٢ ، ص ١٣٨ .

(٦٤) تشير الهلال في جزء ٣ ، م ٤٠ اول يناير ١٩٣٢ ، ص ٣٥١ الى ان فشل شوكت علي في سعيه للتوفيق ثم عطفه على المعارضة ، كان سببا في فتور العلاقات بينه وبين الفريق الاخر . وقد ظهر هذا الفتور في اول ايام المؤتمر ثم لم يلبث ان تجلى بعد ذلك .

(٦٥) الغوري ، اميل . ص ٢٠٦ .. يقول الغوري ان عقد هذا المؤتمر كان بايعاز انكليزي ولايستبعد دروزة في مذكراته غير المنشورة ان يكون اليهود قد بذلوا اموالا طائلة عن طريق فخري النشاشيبي وكان لولب الحركة المعارضة والاشد نشاطا للقيام بهذه الحركة التشويهية ضد الحاج وضد المؤتمر ويبدي دروزة اسفه لعمل المعارضين وقد عقد مؤتمر المعارضة في فندق الملك داود .

(٦٦) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٤ .

(٦٧) دروزة ، عزة . مذكرات غير منشورة .

ونقلا عن اعداد جريدة الجامعة العربية (القدس) ١٩٣١/١١/٢٥ كما وردت في كتاب نويهض الحوت ، بيان ، ص ٨٧٢ فان الاقطار العربية والاسلامية التي قدمت منها الوفود هي : مصر ، سورية ولبنان ، الاردن ، العراق ، تونس ، مراكش ، السعودية ، اليمن ، عدن ، الجزائر ، القفقاس ، كاشغر ، جاوه ، سيلان ، نيجيريا وافريقيا الوسطى ، ايران ، الاورال ، البوسنة والهرسك ، يوغوسلافيا ، البانيا ، الهند ، كامبالا واوغندا ، اميركا الشمالية والجنوبية .

(٦٨) كانت الدعوة قد وجهت الى بعض ملوك المسلمين وامرائهم ولكن امام اليمن كان الوحيد من رؤساء الدول العربية الذي رحب رسميا بالدعوة الى المؤتمر قبيل انعقاده ، ولم يكتف بارسال مندوبه بل ارسل مقدار طن من بن الملكة اكراما لاعضاء المؤتمر . غنيم ، عادل ، ص ١٢١ نقلا عن المقطم ٢٤/١٩٣١/١٠ والبلاغ (القاهرة ١٩٣١/١٠/٢٠) .

(٦٩) كان الملك عبد العزيز آل سعود قد عين ممثله كامل القصاب بعد ايام من بدء المؤتمر . غنيم، عادل ص ١٢١ نقلا عن وادي النيل ١٩٣١/١٢/١١ .

(٧٠) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٨٧١ جدول باسماء اعضاء المؤتمر نقلا عن اوراق نبيه العظمة الخاصة (مؤسسة الدراسات الفلسطينية) .

(٧١) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(٧٢) تذكر الهلال في جـ ٣ ، مجلد ٤٠ اول يناير ١٩٣٢ ص ٣٥١ ان من بين اعضاء المؤتمر عياض اسحاقي بك مندوب مسلمي اورال في روسيا وقد وافى مندوب الهلال بالشيء الكثير عن مسلمي روسيا وما يلقونه من اضطهاد البلاشفة ومناوأتهم لهم . واخبره انه يعيش في بولندا لان البلاشفة حكموا عليه بالاعدام لانتصاره لدينه واحتجاجه على محاربتهم للاديان اذ انهم يحاربونها كلها على السواء .

(٧٣) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة ، ورشيد رضا في المنار جـ ٣ ، م ٣٢ مارس ١٩٣٢ ص ١٩٥ يقول دروزة ان ليلة الافتتاح كانت ٢٧ رجب بينما يقول رضا انها ٢٦ رجب .

(٧٤) المنار ، العدد السابق .

(٧٥) يروي رشيد رضا ـ العدد السابق ص١٩٦ ـ انه سعى في كلمتـه الى « تقريب وقوع منقبة الاسراء الى العقول بما اجمع عليه العلماء والفلاسفة الروحيون» ، كما ذكر من حكمته تسمية هذا المكان الشريف بالمسجد الاقصى بعد خراب ما بناه سليمان عليه السلام ومحو اثره هو ان اللـه تعالى شرفه بجعله معبدا للمسلمين الى اخر الزمان ، وجعله في المرتبة الثالثة بعد المسجدالحرام ومسجد الرسول ، واوجب على المسلمين صيانته وحفظه الى اخر الزمان ولهذا اختير افتتاح هـذا المؤتمر الاسلامي العام فيه واقامته بجواره .

(٧٦) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٥ نقلا عن الجامعة العربية (القدس) ١٩٣١/١٢/١٦ .

(٧٧) غنيم ، عادل ، نقلا عن البلاغ ١٩٣١/١٢/٨ . وكان من الخطباء عبد الرحمن عزام الذي ابلـغ تحيات رئيس حزب الوفد المصري (مصطفى النحاس) ورجال الوفد وتضامنهم مع اعضاء المؤتمـر ومقاصده ، ويقول دروزة في مذكراته غير المنشورة انه بعد خطاب عزام « قـام صاحب الكشـكول (القاهرة) بالهتاف للملك فؤاد فكانت مفاجاة وهرج حتى خشي من ذلك على مصير المؤتمر لـولا ان استجار صاحب الكشكول بالمفتي وانتهت الحفلة بسلام ، وكان الراي العام العربيمتعاطفابقوة على الملك ورئيس وزرائه اسماعيل صدقي » .

(٧٨) البلاغ (القاهرة) .١ كانون اول / ديسمبر ١٩٣١ .

(٧٩) الجندي ، انور ، عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الاسلاميـة ١٨٧٩ ـ ١٩٤٤ بـيروت ١٩٨٤ ص ٣٣ ، ٥٨ ـ ٦٤ . ويذكر المؤلف ان الثعالبي كان قد بعث اليهبعد وصوله اليالقدسابان الاعداد للمؤتمر بطاقة مفتوحة رسمت على احد وجهيها صورة البحر الميت وفي ضفافها يهـودي يستحم فيها وعلى رأسه مظلة تقيه حرارة الشمس وبيده كتاب يقرؤه ، ودبج الثعالبي في الوجه الثاني « كلمات حارة تصف غيرته وحفاظه على الوطن العربي وعداءه للاستعمار والصهيونيـة، وتدفق اسى وحسرة على ان انشب الاستعمار والصهيونية مخالبهما في هذه البقعة الطيبة المباركة المقدسة من وطننا العربي ، وان كانت فلسطين مراحا وسراحا لليهود يوشك ان يقيموا فيها دولتهم ان لم ينهض العرب والمسلمون لطردهم قبل استفحال امرهم فيها ..» ويضيف المؤلف انه قـد اجتمع بالثعالبي ابان المؤتمر « ونحن نجاهد هذين العدوين : الاستعمار والصهيونية » .
المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٨٠) المنـار جزء ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٣٢ ص ١٩٥ .
ويقول رضا انه من اجل التمهيد لراحة اعضاء المؤتمر والاقتصاد في نفقاتهم اتفق المجلس الاسلامـي مع اصحاب الفنادق على اسقاط قدر غير قليل من النفقة المعتـادة عنهم ، واتفق مـع اصحاب سيارات الركاب على نقلهم من الفنادق الى المؤتمر ومنه اليهـا او الى حيث شاءوا على حسـاب المجلس ، « بل احتمل المجلس جميع نفقة الفنادق عن بعضهم ».
كما يذكر رضا في المنار جـ ٣ ، م ٣٢ ، ص ١٣٢ . ان اعضاء المؤتمر قد دعوا الى مـآدب تكريمفي القدس نفسها وفي يافا وفي ضواحيها « فكانت السيارات تجري بهم ارسالا وكان اهل القرىوالمزارع في طرقهم يجتمعون لتحيتهم والهتاف لهم ». قد نشرتصورة لاعضاء المؤتمر خلالالوليمة علىالطريقة العربية في اريحا (الشونة) في مجلة الهلال الجزء٣ ، م ٤٠ ، اول يناير ١٩٣٢ .

(٨١) علقت صورة جمال الدين الافغاني في القاعة الرئيسة للمؤتمر وقد اقترح تقديم نسخة منالصـورة لكل عضو (مقررات المؤتمر الاسلامي في دورته الاولى القدس ص ٢٣) .

(٨٢) دروزة ، عزة . مذكـرات غير منشورة . تم الاتفاق بالترشيح والموافقـة على ان يكون الحاجرئيسا

للمؤتمر ومحمد علي علوبة وضياء الدين الطباطبائي ومحمد اقبال ومحمد زبارة (مندوب امام اليمن) وعزت دروزة ورؤوف مندوب سيلان وابراهيم الواعظ (العراق) والشيخ عبد القادر المظفر امناء للسر واحمد حلمي عبد الباقي امينا للمال والشيخ محمود الدجاني مساعدا لامين المال وشكري القوتلي ورياض الصلح مراقبين . ويشرح دروزة كيف ان النشاط الاقوى كان له لان المكتب جعل الشيخ المظفر مختصا بالعلاقة بينه وبين الناس وابراهيم الواعظ مختصا بحفظ الملفات وكان رسم رؤوف السيلاني شكليا لانه لا يحسن العربية ويضيف « فكنت انا يد الرئيس ولسانه والمشترك الاول في صياغة القرارات وتاليها وشارعها ومقررها » .

(٨٣) المنار ، جزء ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٣٢ ص ١٩٨ .

(٨٤) المصدر السابق ص ١٩٧ .

(٨٤) المصدر السابق، ويقول رضا « وقد دخل زهاء نصف الاعضاء في لجنة تنقيح القانون الاساسي للمؤتمر فكان اكثر الكلام في جلساتها لغوا جدلا باطلا » .

(٨٦) كان من بين الذين بعثوا برسائل الى المؤتمر : الملك فيصل ملك العراق ، عباس حلمي خديوي مصر السابق ، احمد حلمي الصباح أمير الكويت ، سلطان لحج ، مصطفى النحاس ، احمد شفيق باشا ، وزير خارجية ايران ، حمد الباسل ، عبد الوهاب عزام ، الامير عمر طوسون ، الامير شكيب ارسلان ، اهالي سومطرة ، الطلبة المراكشيين في باريس ، مسلمو بولونيا وفنلندا . غنيم ، عادل ، ص ١٢٧ نقلا عن البلاغ ١٩٣١/٢/٨ ، السياسة ١٩٣١/١٢/٩ وادي النيل ١٩٣١/١٢/١١ . وكان من بين الرسائل الهامة التي تلقاها المؤتمر تلك التي وردت من مسجوني ثورة ١٩٢٩ من العرب الفلسطينيين جاء فيها « من اعماق السجون ، التي يسيطر فيها قوة المستعمر الغاشم ، يرتفع صوت مرحبا بكم ايها المؤتمرون الاباة .. » .
المصدر نفسه ، نقلا عن مصر ١٩٣٢/١/١٩ .

(٨٧) الفوري ، اميل ، ص ١٤٦ .

(٨٨) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٦ .

(٨٩) وكان قد عقد في يافا في تلك الفترة المؤتمر العربي الارثوذكسي الثاني للاشراف على انتخاب بطريرك عربي للطائفة الارثوذكسية خلفا للبطريرك اليوناني الذي توفي . صدقة ، نجيب ، ص ١٦٠.

(٩٠) المنار جزء ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٣٢ ، ص ١٩٩ .

(٩١) كان الامير سعيد الجزائري (حفيد عبد القادر ويعيش في دمشق) يتولى رئاسة جمعية الدفاع عن سكة الحديد الحجازية الاسلامية ووزع على المؤتمرين كراسة تاريخية سرد فيها تاريخ هذه السكة وجميع التطورات التي طرأت عليها . الهلال ، ج٣ ، م ٤٠ اول يناير ١٩٣٢ص ٣٥٠ .

(٩٢) كان من بين المواد منشورا من بعض أهل مكة معاديا للملك عبد العزيز آل سعود .
FO 371/16009
وردت في مقال Kupferschmidt, p.142

(٩٣) المنار ج٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٣٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٩٤) كان مع رضا في اللجنة رضا توفيق (وزير المعارف في الدولة العثمانية) ومحمد عبد الرسول كاشف الغطاء (من علماء النجف الشرعيين) والشيخ محمد عبد اللطيف دراز (من علماء الازهر) وحسن ابو السعود (قاضي الرملة) واسعاف النشاشيبي (من ادباء فلسطين) .

(٩٥) يقول رضا في المنار ، ج ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٣٢ ، ص ٢٠١ انه سجل نفسه في لجنة ثانية هي لجنة القانون الاساسي لاجل حضور بعض مواده واهمها عنده المادة الثالثة التي موضوعها تاليف

المؤتمر وقد قاوم فيها راي الزعيم شوكت علي جعل المؤتمر (شعوبيا) كما اقترح في مؤتمر مكـة « وتقرر فكان افضل الاسباب في قتل ذلك المؤتمر واقترح مثل هذا في مؤتمر القدس ففند اقتراحه فلم يقبل » .

(٩٦) المنار ، جـ٤ ، م ٣٢ ، ابريل ١٩٣٢ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٧ .

(٩٧) اثار التقرير بعض الجدل بين اعضاء المؤتمر واتهم البعض رشيد رضابان التقرير وضع لتاييدمذهب الوهابية ، وافتتح رشيد رضا دفاعه عن التقرير بالاشارة الى ما يعرفه اكثر اعضاء المؤتمروغيرهم «من جهادي مدة ثلث قرن ونيف في سبيل جمع كلمة المسلمين على طريقة استاذي العصر وحكيميه السيدجمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ويشهد لي بذلك اكثر من ثلاثين مجلدا من مجلة المنار » . المنار ، المصدر السابق ، ص ٢٩١ .

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .

(٩٩) كانت جمعية الشبان المسلمين قد تاسست في القاهرة على يد مجموعة من الرجال المتدينين ،وركزت على الامور الدينية والاجتماعية وحاولت ان تبتعد عن النشاط السياسي ، وقد جاء في نظـام الجمعية ان اهدافها : نشر القيم الاسلامية الدينية والخلقية . السعي لتنوير الشباب بالمعرفة وبطريقة تتلاءم مع روح العصر ، مقاومة العادات الشاذة والفاسدة التي يمكن ان توجد في الاحزاب والجماعات ، اخذ كل ما هو مفيد من حضارات الشرق والغرب ونبذ كل ما هو ضـار . وانشـأ الاعضاء ناديا تلقى المحاضرات فيه حول موضوعات ثقافية واجتماعية وتجري فيه مختلف انـواع الرياضة والالعاب والموسيقى ، واصدرت الجمعية ١٩٢٩ مجلة تبشر برسالتها وافتتحت فروعا لها في فلسطين وسورية والعراق ولكن الجمعية المصرية المركزية وصحيفتها ذات الانتشار الواسع هي التي ارست التعاليم الاساسية للجمعية .وفي ١٩٣٠ عقدت الجمعية مؤتمرا في القاهرة رسـم خطوط نشاطها في المستقبل ، وكان اول رئيس للجمعية عبد الحميد سعيد عضو البرلمان والعضو النشط في الحزب الوطني .

Khadduri, Majid Political Trends in the Arab world, Johns Hopkins Press U. S. A. 1970, pp. 71 - 73 .

ويذكر الشقيري ان فكرة الجمعيات قد راقت لبعض الشباب في فلسطين بعد ان قام عبد الحميد سعيد بجولة في معظم مدن فلسطين داعيا الى تاسيس هذه الجمعيات شارحا اهدافها ومبادئهـا وكان من الحوافز على ذلك قيام جمعيات الشبان المسيحية في فلسطين وهي تحت رعاية السلطة. وقد قرر مؤتمر يافا تاسيس الجمعيات في كل انحاء البلاد « وحرصنا ان تظل الجبهة الوطنيـة في فلسطين الاسلامية المسيحية قوية متماسكة وبات مفهوما لدى الاوساط المسـيحية ان تاليف الجمعيات هو قوة جديدة للحركة الوطنية وليس انفصاما للجنة القومية » .

الشقيري ، احمد ، اربعون عاما في الحياة العربية والدولية ، بيروت ١٩٦٩ ،ص ١١٠ — ١١١.

(١٠٠) مجلة ــ الشبان المسلمون ــ جزء ٤ سنة ثالثة ، يناير ١٩٣٢ ، ص ٢٣٦ — ٢٤٤ « كلمة جمعيـة الشبان المسلمين الىالمؤتمرالاسلاميالعام في بيت المقدس » .

(١٠١) يذكر رشيد رضا في المنار جـ٧ ، م ٣١ ، ص ٥٥٨ ، انه منذ الفترة التي سبقت عقد المؤتمـر اتفق الحاج امينمعشوكتعليعلى السعي في العالم الاسلامي لانشاء مدرسة عربية اسلاميـة جامعة في القدس الشريف لتقوية الاسلام والعرب فيها تجاه الخطر الصهيوني والمدارس اليهودية في فلسطين.

(١٠٢) الهلال ، جـ ٣ ، م ٤٠ ، اول يناير ١٩٣٢ ، ص ٣٥٠ .

(١٠٣) المصدر نفسه.

(١٠٤) كان كاشف الغطاء قد تعرض في خطابه الى الوحدة الاسلامية وطريقة نموها وقرر المؤتمر طبع خطبه وتوزيعها بكل اللغات ، وقد نشرتها اللجنة التنفيذية للمؤتمر ١٩٣٢ . غنيم ، عادل ، ص ١٢٩.

(١٠٥) ارسلان ، شكيب ، تعليق على حاضر العالم الاسلامي جزء ١ القاهرة ١٩٢٥ ، ص ١٥٥ ــ ١٥٦ .

(١٠٦) اثيرت مشكلة لغة التدريس في الجامعة المقبلة ففي حين طالب شوكت علي ان يكون التدريس بكل اللغات الاسلامية ، عارضه الثعالبي وكثيرون والحوا ان تكون العربية هي لغة التعليم نظرا لان على كل مسلم ان يكون قادرا على التحدث بهذه اللغة . وارضاء لشوكت علي فقد قبل اقتراحه بتخصيص قسم خاص في الجامعة المقبلة لتعليم العربية للطلاب الذين ليس لديهم المام كامل باللغة على ان تقوم مدرسة روضة المعارف في القدس بدور هام في هذا البرنامج التعليمي، ولكن لغة القرآن هي اللغة الوحيدة الرسمية للجامعة . Gibb, p.106

(١٠٧) اشار الى ذلك دروزة ، عزة ، في مذكراته غير المنشورة وفي كتابه حول الحركة العربية ج ٣، ص ٨٠ ، ٨٧ .

(١٠٨) اعداد الجامعة العربية (القدس) م ن١٣ــ١٦ ديسمبر / كانون اول ١٩٣١ وشارك في لجنة الاماكن المقدسة عدد كبير من الفلسطينيين منهم امين عبد الهادي ، حسن ابو السعود ، عزة دروزة وجمال الحسيني .

(١٠٩) غنيم ، عادل ص ١٢٧ ، نقلا عن الجهاد (القاهرة) ١٩٣١/١٢/١٣ .

(١١٠) اشار رضا في رسالة بعث بها من القدس اثناء انعقاد المؤتمر الى شكيب ارسلان في جنيف ، الى ان شوكت علي قد اتهمبانه من انصار الانكليز الغلاة في المسالة الهندية وغيرها وانه يحاول في المؤتمر منع التشنيع عليهم وعلى الفرنسيين والطليان المستعمرين وظهر منه هذا في المؤتمر فتحامل عليه الوطنيون بعض التحامل وفندوا بعض ارائه واقتراحاته .
ارسلان ، شكيب ، رشيد رضا واخاء اربعين عاما ، ص ٥٦٤ .

(١١١) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(١١٢) غنيم ، عادل ، ص ١٢٧ نقلا عن المقطم ١٩٣١/١٢/١٧

(١١٣) غادر عزام القدس في حراسة بريطانية الى مدينة غزة ١٧ ديسمبر / كانون اول وترك هذا الابعاد اثرا سيئا في نفوس اهل فلسطين واعضاء المؤتمر واقيمت مظاهرات في بعض مدن فلسطين تحتج على هذا التصرف .
غنيم ، عادل ، ص ١٢٨ نقلا عن البلاغ ١٩٣١/١٢/١٨

(١١٤) دروزة ، عزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(١١٥) غنيم ، عادل ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩ نقلا عن مقررات المؤتمر الاسلامي.

(١١٦) كان هناك تجاوب شعبي كبير للمشروع تجلى بسيل البرقيات والتبرعات التي بعث بها اهل فلسطين الى المؤتمر. الجامعة العربية . ١٠و١٥ ديسمبر/كانون اول ١٩٣١ . وكانت القرارات التي تباها المؤتمر حول الجامعة تنص على ان تكون دينية وعلمانية في منهجها وان تقدم التعليم الثانوي والعالي معا للوقوف بوجه المدارس الثانوية غير الاسلامية ، كما تقرر ان ينفذ المشروع على مرحلتين تبدأ المرحلة الاولى بجمع المال اللازم ، وبعد ذلك يتقرر بالتشاور مع مجموعة من الخبراء امور تنظيمها من وجهة النظر التعليمية .

(١١٧) هو مشروع مصري تقرر ان يعد في مصر باشراف محمد علي علوبة ، وتعود فكرة المشروع الى عام ١٩٢٨ ، واعيد احياؤه في المؤتمر الاسلامي. الجامعة العربية ١٩٣١/١٢/١٢ .

(١١٨) لم تكن الفكرة جديدة الا ان القرار كان وراء الحملة التي سيتولاها المفتي ضد بيع الاراضي في

السنوات التالية . وقد لاقى مشروع انشاء الشركة دعما معنويا بالغا .
الجامعة العربية ، ١٩٣١/١٢/١٧ .

(١١٩) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(١٢٠) المصدر نفسه .

(١٢١) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ ، حول قرارات المؤتمر .

(١٢٢) المصدر نفسه .

(١٢٣) المصدر نفسه .

(١٢٤) المصدر نفسه .

(١٢٥) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(١٢٦) المصدر نفسه . كان من بين اعضاء اللجنة المفتي ، الطباطبائي ، محمد علي علوبة ، رشيد رضا ، شكري القوتلي ، سعيد ثابت ، الثعالبي ، بشير السعداوي ، محمد المكي الناصري ، شوكت علي ، سعيد شامل ، عياض اسحاقي ، محمد زيارة ومندوبان عن فلسطين هما توفيق حماد وعوني عبد الهادي . المصدر السابق .

(١٢٧) المصدر نفسه .

(١٢٨) نويهض ، الحوت ، بيان ، ص ٨٧٤ ، نقلا عن الجامعة العربية ١٧ كانون اول ديسمبر ١٩٣١ .

(١٢٩) دروزة ، عزة . مذكرات غير منشورة .

(١٣٠) المصدر السابق ، ويقول دروزة انه كان من جملة نظام الجباية والتبرع بطاقات مطبوعة بخمسين ملا وقد وزعت مجلداتها في فلسطين في بدء الامر ، وبلغ المجموع منها في الشهر الاول نحو الفي جنيه ، واهتم الحاج امين بتشجيع المشروع واستعان عليه بموظفي الاوقاف والوعاظ والقضاة والائمة والمدرسين والخطباء .

(١٣١) لم يقاوم الانتداب وحده نفوذ الحاج امين في العالم الاسلامي فالدوائر الصهيونية احتجت على ذلك النفوذ وقاومته بشدة ، وعبر الكاتب الصهيوني (ايتمار بن افي) في مقال له نشرته جريدة (دوآر هايوم) ١٩٣١/١/١٢ عن حقده الشديد على النفوذ العالمي للحاج امين ، ودعا الى انشاء مجمع ديني يهودي كبير في القدس يتالف من كبار حاخامي اليهود ، وهو ما يسمي بالعبرية (سنهدرين) أي الكنيس الاكبر ويرمي بن افي من وراء السنهدرين الى اقامة مؤسسة دينية يهودية عالمية في فلسطين تقف في وجه المجلس الاسلامي الاعلى . نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٨ .

(١٣٢) كيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديث ص ٢٦٨ . وقد وجه رشيد رضا نقدا للمؤتمر للطريقة التي اختارها لانتخاب اللجنة التنفيذية اذ انتخبت ٢٥ عضوا من اقطار بعيدة عن المركز (القدس) . واجتمع هؤلاء الاعضاء مرة واحدة في مساء اليوم الذي انتخبوا فيه وانتخبوا بضعة اعضاء لادارة مكتب اللجنة من المقيمين في فلسطين وسورية ومصر ، ومضى على ذلك بضعة اشهر ولم يجتمعوا ولم يتيسر للطباطبائي السكرتير العام (ومقامه في اوربة) العودة الى القدس الا بعد تلك المدة واكتفي في ادارة اعمال المكتب بمن يوجد في القدس من اعضاء . المنار جـ ٧ ، م ٣٢ ، يوليو ١٩٣٢ ، ص ٥٥٥–٥٥٦ .

(١٣٣) كان رأي رشيد رضا ان لا يسرع المكتب الان في جمع المال لانشاء المدرسة الجامعة بل يجب اولا أن يعني بوضع النظام والرسم الهندسي لبنائها ، وتقدير النفقات الدقيقة لها ثم يضع النظام لجمع المال من جميع الاقطار الاسلامية التي يعلم ان لاهلها من الحرية مايمكنهم من البذل لمصلحة

الاسلام العامة . وقد لاحظ رشيد رضا ان لجنة الجامعة قد وافقت على البدء بثلاثة فروع من كلياتها : وهي الشرعية والصناعيةوالطبية واهملت الدعوة والارشاد والتي هي اهمها بنظره ، وجل مباحث المؤتمر كانت تدور حولها .المنار ، العدد السابق ص ٥٥٦ـ٥٥٧ .

(١٢٤) نويهض الحوت ، بيان ص ٢٤٦

(١٢٥) ابو بصير ، صالح مسعود، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، بيروت ١٩٦٨ ص١٦١.

(١٢٦) المصدر نفسه .

(١٢٧) Lesch, P.104

(١٢٨) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة ، وكانت المنار قد تلقت من مكتب المؤتمر نداء الى مهندسي المسلمين بشان جامعة المسجد الاقصى لوضع الخرائط والتصميمات وفق القواعد التي بينهاالمكتب والتي تتالف من ثلاث شعب في ابان انشائها شعبة العلوم الشرعية ، شعبة الفنون والصناعات، شعبة الطب والصيدلة .

(١٢٩) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(١٤٠) نويهض الحوت ، بيان ، نقلا عن يوميات خاصة اكرم زعيتر ٦ ـ ١٩٣١/١٢/١٦ .

(١٤١) FO 371/16854

وردت في مقال Kupferschmidt, p.141

وايضا Gibb, p.107

(١٤٢) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة

(١٤٣) كيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٢٦٩

(١٤٤) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٩ .

(١٤٥) عبر المجلس الاسلامي منذ ١٩٢٩ عن فكرة استنقاذ الاراضي بتحويلها الى وقف . وكانت ترد على المجلس بين حين واخر اقتراحات لتحويل الاراضي العربية الى وقف .

Erskins, Steuart, Palestine and the Arabs, London 1935 , p.141

(١٤٦) CO 733,311 - (75528/6)

وردت في مقال Kupferschmidt, p.157

من تاريخ سورية الحديث
العلاقات السورية ـ التركية ★
١٩١٨ ـ ١٩٢٦

د. عبد الكريم رافق
جامعة دمشق

١ ـ التعاضد والدعم لمواجهة العدو المشترك (١٩١٨ ـ ١٩٢١).
٢ ـ العلاقات السورية ـ التركية والمطامع الاستعمارية الاوربية (١٩٢١ ـ ١٩٢٦) .

* * *

يتناول هذا البحث فترة من تاريخ سورية ، كانت ، على الرغم من قصرها ، بالغة الاهمية ، اذ شهدت تطورات مصيرية في تاريخ كل من سورية وتركيا ، في وقت حاولت فيه كل من الدولتين اعادة تنظيم بنيانها على أسس قومية وطيدة . ولكنهما جوبهتا بالمطامع الاستعمارية الاوربية ابان الحرب العالمية الاولى وفي اعقابها .

وكان من نتائج التدخل الاوربي بشؤون كل من الدولتين ازمات سياسية وقومية تركت اثارها في حياة كل من البلدين وفي العلاقات بينهما . وفي حين استعادت تركيا قوتها في فترة قصيرة نسبيا وبدلت في بنيتها السياسية والاجتماعية ، في عهد مصطفى كمال اتاتورك ، فان سورية وبلاد الشام ، بل الاقطار العربية بعامة ، قاست من

★ اعد هذا البحث للمؤتمر الدولي الثالث للعلاقات العربية ـ التركية ، جامعة اليرموك ـ مكتب ارتباط عمان ، ٢٥ ـ ٢٧/٤/١٩٨٥ .

الاستعمار الاوربي الذي مزق اوصالها وفرط بحقوق اهلها ، وباراضيها التي اؤتمن عليها من قبل المجالس الدولية .

ونظرا لتشابك الاحداث القطرية والاقليمية والدولية في هذه الفترة الحاسمة ، فمن الضروري تفسير الاحداث على هذه المستويات المتعددة والمتداخلة .

١ ـ التعاضد والدعم لمواجهة العدو المشترك (١٩١٨ ـ ١٩٢١) .

أدرك الاتحاديون الاتراك ، في الاسابيع الاخيرة من حكمهم في سورية ، قرب خسارتهم الحرب وخروجهم من سورية ، فحاولوا الاتصال بالوطنيين السوريين ، في الداخل وفي الخارج ، لاجراء المصالحة معهم ومنحهم حقوقهم القومية . وارسلوا في صيف عام ١٩١٨ وفدا يمثل دمشق وبيروت ، يضم رضا الصلح ورضا باشا الركابي وسليم سلام وفارس الخوري ، الى سويسرا للاتصال بالعرب المطالبين بالاستقلال . وكانت الحركة الوطنية العربية على مفترق طرق تحاول كل من بريطانيا وفرانسا ، وحتى تركيا التي انهكتها الحرب ، ان تشدها باتجاهها . وحدث انقسام في الرأي بين العرب ، تدل على ذلك الرسائل التي وجهها احمد مختار الصلح من القاهرة في ٢٩ اب ١٩١٨ الى اعضاء الوفد هؤلاء ، يذكرهم فيها بدعم بريطانيا للعرب ويندد بمساوىء الاتحاديين وبالحادهم ، وبان الاسلام لن يتأثر من انهيارهم ولكنه سيتأثر من انهيار العرب(١) . ولم تجد محاولات الاتحاديين هذه في ثني العرب عن رايهم ومطالبتهم بالاستقلال .

وفي اعقاب الهزيمة العسكرية التي منيت بها تركيا وحليفتها المانيا ، على ايدي العرب والحلفاء ، انسحب الاتراك من دمشق في ٢٧ ايلول ١٩١٨ ، ومن حلب في ٢٥ تشرين الاول . ووقعت تركيا الهدنة مع الحلفاء في مودرس ، في جزيرة لمنوس ، في ٣٠ تشرين الاول ، واتمت انسحابها الكامل من سورية في ١٢ تشرين الثاني بعد ان اخلت منطقة دير الزور(٢) . وتسلمت القوات العربية التي ارسلها الشريف حسين بقيادة ابنائه ، وعلى راسهم الامير فيصل ، الحكم في سورية بمساندة القوات البريطانية .

ومن الطبيعي ان تثار مساوىء الحكم التركي ، وبخاصة سياسة القهر والتتريك والتجنيد التي اتبعتها جماعة الاتحاد والترقي ، واعدام جمال باشا شهداء العرب في عام ١٩١٦ ، لتمكين الحكومة العربية من تأليف الناس من حولها . وحدث انقسام في صفوف السوريين ، بين ما عرف بطبقة الذوات القدامى التي خشيت على مصالحها ان تتهدد من دعاة الاستقلال فعارضت حكومة فيصل العربية ، والوطنيين الشباب الذين

أيدوا الامير فيصل لتحقيق الاماني العربية في التحرر والاستقلال . وانقلب الذوات هؤلاء فيما بعد الى مؤيدين للحكم الفرنسي الذي انهى حكومة فيصل العربية للحفاظ على امتيازاتهم(٣) .

والى جانب هذا الازدواج في الولاء حدثت ازدواجية في السلطة. فالحاكم العسكري العام للمنطقة الشرقية ، الخاضعة للنفوذ البريطاني ، كان رضا باشا الركابي الذي كان مركزه دمشق . وهو من اعيان هذه المدينة ومن كبار الملاك فيها ، وقد عينه في هذا المنصب الجنرال البريطاني اللنبي القائد العام للقوات الحليفة في الشرق الاوسط، وجعله مسؤولا مباشرة تجاهه . وبالمقابل ، كان هناك الامير فيصل ، ممثل والده الشريف حسين ، والقائد العام للقوات العربية العاملة في المنطقة الشمالية . وقد اعترف فيصل بحكومة الركابي كاول حكومة عربية في سورية . ولكن الركابي بقي يخضع للنفوذ البريطاني الى ان تم الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني في ١٥ ايلول ١٩١٩ القاضي بجلاء الجيوش البريطانية من سورية وكيليكيا واحلال الجيوش الفرنسية مكانها ،مقابل تنازل فرنسا عن المطالبة بمنطقة الموصل والتخلي عن شرقي الاردن لبريطانيا . وتازمت العلاقات ، في اعقاب ذلك ، بين الامير زيد ، ممثل فيصل في سورية ، وبين الركابي الذي عارض مقترحات الامير زيد بالاعداد للدفاع الوطني ضد الفرنسيين . فاستقال هذا الاخير في ١٠ كانون الاول ١٩١٩(٤) . واصبحت المبادرة السياسية اثر ذلك في يد فيصل .

وكان فيصل ، ازاء معارضة بعض الفئات له ، والازدواجية في السلطة مع بريطانيا ، وخطر التآمر الفرنسي ـ البريطاني ، حريصا على عدم الامعان في استثارة الاتراك ومؤيديهم في الداخل . لذا هاجم حكم الاتحاديين حين وجب ذلك ، كما فعل في حلب ، حين القى خطابا فيها في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، بين فيه جهود والده لانقاذ العرب من الحكم التركي الفاسد ، وعرض بالاتحاديين الاتراك ، وبسياستهم تجاه العرب ، وبتنكيلهم بالاحرار واعدامهم الشهداء . وعلق بعض المراقبين انه لم يصدر عن فيصل مثل هذا التعريض لا في دمشق ولا في حمص او حماه ، ولكنه فعل ذلك في حلب ردا على ما « كان يأمله الاتراك من مناصرة الحلبيين لهم لدى انسحابهم ، استنادا لصلة القربى مع بعض الاسر البارزة في حلب ولوجود اقليات تركية في بعض اقضيتها الواقعة على الحدود » (٥) .

ولم تكن تركيا ، من ناحيتها ، في وضع يسمح لها بمعاداة العرب . فقد كانت مهددة ، في عقر دارها ، باحتلال الدول الاوربية لاراضيها وبالانقسام الشديد بين

الحكومة الاتحادية المهزومة التي يراسها السلطان ــ الخليفة ، والوطنيين الاتــراك ، بزعامة الضابط مصطفى كمال ، الذين يرفضون الخضوع للاحتلال الاوربي ويدعــون لاقامة حكم وطني ثوري .

وقد سيطر الحلفاء ، في اعقاب هدنة مودرســ ، على العاصمــة استانبول في ٨ كانون الاول ١٩١٨ ، واحتل البريطانيون كيليكيا ، بعد احتــلال سوريــة . وتوغل الفرنسيون ، بعد احتلالهم الساحل السوري ، بما في ذلك الاسكندرونة وانطاكية ، في منطقة اضنة باتجاه كيليكيا . وانزلت ايطاليا قواتها في نيســان ١٩١٩ في انطاليــا ، بموجب الاتفاقيات السرية بين الحلفاء . وكــان السلطان ــ الخليفــة العثماني منشغلا آنذاك بملاحقة اعدائهمن جماعة الاتحادوالترقي . واستثار الاتراك، اكثر من كل شيء، احتلال جيش يوناني لمدينة أزمير في ١٥ ايار ١٩١٩ ، بحماية من قوات الحلفاء ، وبدأت تتراءىمخاطر احياء احلام اليونان القديمة وبيزنطة. وتركزتانظار الوطنيين الاتراكعلى شخص مصطفى كمال الذي انسحب مع القوات التركية والالمانية من سورية . وقــد رفض السلطان طلبه باعادة تنظيم الجيش الذي اصدر امرا بحله . ومع ذلك تمكــن مصطفى كمال من تنظيم بقايا الجيش في الاناضول ، ودعوة الوطنيين للالتفاف من حول ميثاق وطني ، واقامة مجلس وطني كبير في انقرة في نيسان ١٩٢٠ ، ثم مجلس وزراء في الشهر التالي متحديا بذلك حكومة السلطان في استانبول . وقد تعرض السلطان الى نقمة كبيرة بتوقيعه مع الحلفاء معاهدة سيفر في ١٠ آب ١٩٢٠ التي اقرت مكاسب الحلفاء في تركيا .

وتمكن مصطفى كمال من استغلال النقمة على السلطان وعلى الدول الاوربيــة فهزم اليونانيين في أول موقعة كبرى معهم عند نهر سقاريا في آب ١٩٢٠ ، واستحق بذلك لقب « غازي » (٦) . واضطرت الدول الكبرى ان تعترف بحكومته في انقرة★ .

★ عقدت ايطاليا في ١٣ اذار ١٩٢١ اتفاقية مع حكومــة مصطفى كمــال سحبت بموجبها قواتها مــن الاناضول ، وعقد معها السوفيات اتفاقية في ١٦ اذار ١٩٢١ . وكان الفرنسيون قد وقعوا معها اتفاقيــة هدنة في لندن في١١ اذار من العام نفسه اتبعوها باتفاقية شاملة في انقرة في٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ تخلوا بموجبها عن معظمامتيازاتهم التي منحتهم اياها معاهدة سيفر . وهزم مصطفى كمال اليونانيين واجلاهــم عن الاناضول في ايلول ١٩٢٢ ، وبذلك استعاد كافة مناطق الاناضول من سيطرة الدول الاوربية . واضطر البريطانيون في ١١ تشرين الاول ١٩٢٢ الى عقد هدنة مودانيا مع حكومة مصطفى كمال تخلوا بموجبها عن استانبول والمضائق وتراقيا الشرقية . وتاكدت هذه الانتصارات التركية في معاهدة لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٣. وكان مصطفى كمال قد صمم على الغاء السلطنة والاحتفاظ بالخلافة كمرحلة اولى . وتم ذلك في الاول من تشرين الثاني ١٩٢٢ ، وهرب السلطان محمد الرابع وحيد الدين ، وعين عبد المجيد خليفــة . وانتخــب مصطفى كمال رئيسا للجمهورية في ٩ اب ١٩٢٣ بعد ان نقل مقر الحكومة الى انقرة . والغيت الخلافة في ٣ اذار ١٩٢٤ ،واطيح باسرة عثمان (٧) .

وكان الحكم العربي الفيصلي يرسخ قواعده في بلاد الشام ، في اعقاب انسحاب الاتراك منها ، مؤكدا على زعامة الشريف حسين للحركة العربية وللمسلمين . واطلق رسميا في دمشق على الشريف حسين القاب سلطان العرب وخليفة المسلمين ، وكذلك ملك العرب . وصدرت الاحكام في محكمة الحقوق الاولى بدمشق باسم الحسين وبالقابه هذه (٨) . واعتمدت سجلات محكمة البداية بدمشق تاريخ ابتداء قيام الدولة العربية بانه في غرة محرم ١٣٣٧/ (٧ تشرين الاول ١٩١٨) ، وبدأ ترقيم القضايا في هذه المحكمة برقم جديد (رقم ١) اثر ذلك ، كما استخدمت العربية محل التركية في السجلات(٩) .

ولم يؤثر انسحاب القوات التركية من سورية على نشاط السوريين والعرب المقيمين في استانبول والذين كانوا يعملون لاستقلال الاقطار العربية. وما ان سمع هؤلاء بخبر نشرته صحيفة « التايمز » اللندنية في ١٩ ايار ١٩١٩ حول منح بريطانيا « الامة العربية » استقلالها ، حسب تعبيرهم ، حتى توجه وفد منهم برئاسة نجيب ملحمة وعضوية رشدي الصفدي وعبد الرحمن العابد من دمشق ، واحسان الجابري من حلب ، وروحي عبد الهادي من نابلس ، الى مقر المفوض السامي البريطاني في استانبول يشكرون فيه ملك بريطانيا وحكومتها على هذه البادرة . وقد اربك هذا التفاؤل العربي المسؤولين في المفوضية لانه لا علم لهم بأي قرار من هذا النوع ، وربما كان ذلك للتذكير (١٠) .

ان عنف الاحداث التي شهدتها تركيا في هذه الفترة لم يصرفها عن الاهتمام باحداث سورية سواء في عهد فيصل ام في عهد الانتداب . وفي الواقع ادى احتلال الحلفاء لاجزاء كبيرة من سورية وتركيا واستمرار قواتهم في توسيع عملياتهما ، وبخاصة تصميم الفرنسيين على احتلال سورية بكاملها ، الى التقارب بين المسؤولين في البلدين الى حد الدعم العسكري . وتحدثت الانباء عن عقد اتفاقية سرية بين الامير فيصل ومصطفى كمال في حلب بتاريخ ١٦ حزيران ١٩١٩ بوساطة متصرف الكرك اسعد بك . وكان اسعد بك هذا عضوا في جمعية الاتحاد والترقي . ونقل نص الاتفاقية بالفرنسية دون الاشارة الى اللغة التي كتبت بها الاتفاقية في الاصل .

تتألف الاتفاقية من تسعة بنود يذكر اولها ان الطرفين المتعاقدين ، الامة التركية والامة العربية ، يشهدان بكل اسف انقسام العالم الاسلامي ، وان واجبهما راب الصدع وتاكيد التعاون بين الامتين اللتين تربطهما المصالح المادية والروحية والدينية. وان على الامتين التعاضد والدفاع بقواتهما الموحدة عن الدين والوطن . وجاء في المادة الثانية انه في هذه اللحظة التي يتهدد فيها استقلال العرب ووحدة وحرية الاتراك ،

بسبب رغبة الدول الاجنبية ان تقتسم فيما بينها العراق وفلسطين وسورية وما جاورها ، بالاضافة الى جزء كبير من اسيا الصغرى ، فقد عزمنا غداة انعقاد مؤتمر الصلح في باريس واصداره قرارا بشأننا ، على اعلان الجهاد المقدس للدفاع عن الدين والوطن . ولبلوغ هذا الهدف فان الطرفين المتعاقدين يتفقان على البنود التالية :

البند الثالث (حسب تسلسل بنود الاتفاقية) : لايمكن للطرفين المتعاقدين قبول تقسيم الامبراطورية التركية والبلاد العربية (Arabie) او احتلالها من قبل القوى الاجنبية .

البند الرابع : تعترف الحكومة العثمانية رسميا بتشكيل حكومة عربية تنضم اليها الحجاز و (Médome) ★ والعراق وفلسطين ودمشق وبيروت وحلب ، شريطة ان ترتبط البلاد العربية بالامبراطورية العثمانية وان تبقى مخلصة للخلافة . وتقبل الحكومة العثمانية وتصادق على سلطة الشريف حسين على هذه البلاد باستثناء ما يتعلق بالتفاصيل حول شكل الحكومة والقضايا الاخرى التي ستناقش فيما بعد وتقررها اتفاقية اخرى .

البند الخامس : في المناطق التي يحتلها جيش الشريف سيذكر اسم السلطان من منابر الجوامع وسيعترف بخلافة السلطان من جديد ويعلن ذلك .

البند السادس : لكي يبدأ الجهاد المقدس وتتأكد وحدة الاتراك فان صاحب السمو الشريف يوجه بيانا ، بلغة تتناسب والاوضاع ، في كل البلاد العربية شارحا لها الموقف العدواني للقوى الاجنبية تجاه الدين الاسلامي . وللبدء بالجهاد المقدس يجمع الشريف حسين جميع شيوخ وزعماء القبائل العربية ويعقد معها اتفاقيات ومعاهدات. وينظم الشريف جيوشا وطنية مماثلة للتنظيمات الوطنية في الاناضول بشكل تكون فيه هذه القوى ، عند اعطاء الاشارة ، جاهزة تماما للمساهمة مباشرة في الجهاد المقدس .

البند السابع : يتعهد الشريف ، بمساعدة القوى الوطنية في الاناضول ، بجمع قواته المتوافرة وغير المشتغلة بمهام اخرى ، ويتعهد الطرفان المتعاقدان بالتعاون المتبادل ، ماديا ومعنويا ، في الهجوم كما في الدفاع ، حتى تحقيق هدفهما .

البند الثامن : يعلم الشريف بمضمون هذه الاتفاقية ليس فقط عرب الحجاز

★ لا يعرف معناها بدقة . واذا كانت (Médone) فهي مديان ، وتعني باللغة السامية شرقي الاردن .

وزعماء القبائل ولكن ايضا الامام يحيى والسيد ادريس والمسلمين في بنغازي ومراكش وتونس والجزائر والهند ، ويبذل جهوده ليجعل هؤلاء يساهمون في الانتفاضة العامة. ويتعهد الشريف ان يتخذ في الحال جميع الاجراءات التي لابد منها لتحقيق هذا الهدف .

البند التاسع : كتبت هذه الاتفاقية على نسختين وقعتا وتبودلتا في حلب في ١٦ حزيران ١٩١٩ بوساطة اسعد بك متصرف الكرك . ويلي ذلك اسم مصطفى كمال من اليسار ثم اسم الشريف فيصل .

يصف تقرير المخابرات البريطانية في استانبول الموجه الى هيئة الاركان العامة البريطانية فيها ، بتاريخ ٣ اب ١٩١٩ (رقم ٥٣٧) ، المعطوف على تقرير سابق بتاريخ ٢٤ من الشهر السابق (رقم ٥١٧) وعلى غيره من التقارير ، يصف هذه الاتفاقية ، التي يورد نصها بكامله بالفرنسية ، بانها « مزعومة » ، ويقول ان النص الفرنسي هو ترجمة ولكن لا يذكر باية لغة كتب النص الاصلي . ويذكر ان المخابرات حصلت على النص الفرنسي بواسطة عميل حصل عليه بدوره من موظف في مكتب المراسلات الخاصة في وزارة الداخلية التركية ، وقد وصلت نسخة النص الى هذه الوزارة من والي ارضروم . اما النص الاصلي فيقول التقرير انه حمله الى استنبول الجنرال كجك جمال باشا (جمال باشا الصغير) الذي رفعه الى السلطان . وكان هذا الجنرال يعمل مع مصطفى كمال في قونية . ويضيف التقرير ان نسخة اخرى من هذه الاتفاقية قد شريت لحساب السلطات الفرنسية بمبلغ مائة وخمسين ليرة تركية على يد ارمني هو الدكتور طوبجيان . ويذكر أيضا ان مصطفى كمال كان قد تلقى اوامر من وزير الحربية ومن غيره في الوزارة بالوصول الى اتفاق ما مع العرب لمقاومة الاحتلال الاجنبي بتشكيل عصابات من الثائرين وانه بناء على هذه التعليمات وقع الاتفاقية مع فيصل . ويقول التقرير انه لم يمكن الحصول على معلومات اخرى للتأكد من صحة نسخة الاتفاقية ، أي النسخة الفرنسية(١١) . ويقول تقرير بريطاني اخر بتاريخ ٢٤ تموز ١٩١٩ ان مفاوضات كانت تدور بين الامير فيصل والسلطان ، بوساطة اسعد بك وكجك جمال باشا ، حول اقامة حلف اسلامي ـ تركي ، وان الامير فيصل بعث برسالة الى السلطان الذي ناقشها في اجتماع وزاري بتاريخ ٢١ تموز ١٩١٩ وارسل جوابا عنها الى فيصل (١٢) .

لم يكن الاتصال وارسال الوفود وحتى عقد الاتفاقيات بين الحكومة العربية في سورية والحكومة التركية منعدما . فقد ذكر سعيد حيدر ، احد مؤسسي جمعية الفتاة والكاتب العام انذاك لحزب الاستقلال العربي انه ذهب في وفد رسمي من دمشق

الى استانبول عام ١٩٢٠ ، وقابل ممثلي مصطفى كمال ووضع اتفاقا وديا من اربع نقاط بين الطرفين رفع لموافقة الحكومة السورية . ويتضمن الاتفاق تعديل الحدود ، وبخاصة في منطقة الموصل ، وتشكيل جبهة موحدة ضد الاعداء ،من معان الى البحر الاسود ، ووضع الجيوش التركية والعربية تحت قيادة موحدة . وفي حال نجاح الطرفين ضد القوى الاجنبية فسيعيش العرب والاتراك في دولتين مستقلتين وتكون علاقتهما كما في الامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية قبل الحرب . ويذكر سعيد حيدر انه عندما عاد الى دمشق في نيسان ١٩٢٠ كان الوضع قد تغير ورفض فيصل (الذي اصبح ملكا مستقلا) الدخول في مفاوضات مع تركيا . وعندما غير رايه في تموز ١٩٢٠ كان الاوان قد فات (١٣) .

وعلى هذا فالاتصالات بين فيصل والسلطان والاتفاقية بين فيصل ومصطفى كمال ، ان صحت ، لم تكن الوحيدة في اثناء قيام الحكومة العربية في دمشق ، ولا الاخيرة . ولكن مما يلفت النظر ان ايا من الكتابات العربية المعاصرة للاحداث او مذكرات السياسيين المعاصرين لم تذكر الاتفاقية ، ربما لكونها سرية . ويلاحظ ان تشجيع الثورات ضد الفرنسيين ، في سورية والاناضول ، ومدها بالدعم ، كما نصت الاتفاقية في البند السادس ، قد نشط بعد تاريخ الاتفاقية ، واعلن الثوار السوريون الجهاد على الفرنسيين ، وترقب الدعم من تركيا وشغلوا قسما كبيرا من القوات الفرنسية التي كانت ستتوجه ضد الاتراك ، كما نشطت الدعوات الى الجهاد المقدس في المدن السورية والتركية ، ونشرت بيانات موجهة من مصطفى كمال الى السوريين بضرورة التعاون وذلك بعد تاريخ الاتفاقية . واذا كانت قد حدثت اتصالات اخرى واعد مشروع اتفاقية بين الجانبين ، كما روى سعيد حيدر ، فان اتفاقية فيصل ـ مصطفى كمال قد نصت في بندها الرابع على ان القضايا الاخرى ستناقش فيما بعد وتقررها اتفاقية اخرى .

والجدير بالذكر ايضا ان الامير فيصل سافر من دمشق الى حلب في ٩حزيران ١٩١٩ حيث القى خطابا في ناديها العربي(١٤) . والمعلوم ان اتفاقيته مع مصطفى كمال تذكر انها وقعت في حلب بتاريخ ١٦ حزيران ١٩١٩ .وقد اشار القنصل الامريكي في حلب الى قيام اتصالات بين مصطفى كمال وفيصل ، والى طلب فيصل دعم تركيا ، ملمحا الى امكان اقامة اتحاد بين سورية والحجاز وتركيا ، وان ملك الحجاز ارسل وفدا الى السلطان للمصالحة والاتحاد في ظل الروابط الدينية والسياسية(١٥) .

وقد تتالت علائم التعاون العربي التركي بعد الاتفاقية « المزعومة » ، على المستويين السياسي والعسكري . فعلى المستوى السياسي كثرت تصريحات

المسؤولين الاتراك وتوجهاتهم الى عواطف العرب الدينية للوقوف معا في وجه الاستعمار الاوربي . ومن الطبيعي ان تكون مدينة حلب مركزا هاما لهذا النشاط السياسي . وكمثال على ذلك تصريح وجهه مصطفى كمال الى السوريين ، بواسطة مؤيديه (ربما حزبه) في حلب ، في حوالي ٩ تشرين الاول ١٩١٩ . وقداهاب مصطفى كمال بالسوريين ان يصغوا الى صوت امة حزينة يتحكم فيها الاستبداد ونوايا الاعداء الشريرة . وينبه مصطفى كمال الاهلين ، كاخ في الدين ، الا يأخذوا بالصراع الذي فرق بيننا، ويدعوهم لازالة كل سوء فهم بين الطرفين ، وتسديد السلاح معا ضد الاحزاب الخائنة التي تود التفريق بين البلدين . ويهيب بهم الا يصغوا الى وعود اعداء الدين الملحدين . ويستثير مصطفى كمال العاطفة الدينية بدعوته لانقاذ البلاد والاسلام من أيدي الاعداء، ويشير الى انتصاراته في قونية وبروسه ، وان المجاهدين الاتراك سيؤيدون اخوانهم العرب ويمزقون الاعداء . ويختم البيان بالدعوة الى العيش كاخوان في الدين وبالتمني بزوال الاعداء(١٦) .

ووزع في حلب ، في النصف الاول من تشرين الاول ١٩١٩ ، بيان بالتركية يبين مطالب الاتراك ورفضهم الحكم الاجنبي ، وتعهدهم بحماية الاهالي بقطع النظر عن الدين . ويشير البيان الى حب المسلمين للسلطان والي احقية الاتراك بالخلافة (١٧) .

وكانت تصل حلب تباعا رسائل من قبل مصطفى كمال موجهة الى زعماء العرب والاتراك والبلاشفة تحضهم على توجيه الجهود ضد القوى الاوربية . وكانت حلب مركزا رئيسيا لنشر الدعايات العربية والتركية والبلشفية وغيرها ضد الانكليز والفرنسيين في سورية والعراق ، وضد الانكليز في الهند(١٨) .

وفي محاولة من حكومة فيصل العربية ، في الاسابيع الاخيرة من وجودها ، لتجنيد كافة القوى لمجابهة الخطر الفرنسي المحدق ، وصل يوسف العظمة ، وزير الحربية في حكومة هاشم الاتاسي ، التي شكلت في ٨ ايار ١٩٢٠ ، الى حلب بتاريخ ٨ حزيران ١٩٢٠ ، واجتمع بقائد القوات الوطنية التركية العاملة في كيليكيا ، في قرية ترجمان ، قرب كلس ، لتنسيق الجهود العسكرية . ولم تقترن هذه الزيارة بالنجاح نظرا للتحسن الذي حصل انذاك في العلاقات بين الاتراك والفرنسيين والذي وصل الى حد الاتفاق ، في محاولة من الاتراك لاستخدام الفرنسيين ضد القوى الاوربية الاخرى (١٩) .

وحضر فيصل بنفسه الى حلب في ١٥ حزيران ١٩٢٠ ، واشيع انه سيغادر الى دير الزور في اليوم التالي . ولكنه الغى سفره الى هناك ، وحاول الاتصال بالاتراك في

محاولة منه للحيلولة دون الاتفاق بينهم وبين الفرنسيين . وقيل انه فشل في ذلك . واعلن انه سيعود الى دمشق في ٢٠ حزيران(٢٠) . ومع ذلك ظل الملك فيصل ، حتى الايام الاخيرة من حكمه فيسورية ، يدعم الاتراك في نضالهم ضد الفرنسيين . وعارضت حكومته استخدام الفرنسيين سكة حديد رياق ــ حلب لنقل الجنود والعتاد الى الشمال باتجاه أورفه وكلس وعنتاب . ويقول ساطع الحصري ، وزير المعارف آنذاك، ان موقف حكومة فيصل هذا ساعد الاتراك مساعدة ثمينة وازعج الجنرال غورو الى درجة كبيرة . وكانت هذه القضية موضوع البند الاول في الانذار الذي وجهه غورو في ١٤ تموز ١٩٢٠ الى فيصل واحتل دمشق في اعقابه . وحتى بعد مغادرة فيصل سورية ارسل الحصري الى تركيا للاتصال بالكماليين لتنسيق الجهود معهم(٢١) .

وكان الملك فيصل قد ابدى استياءه ،في الاشهر الاخيرة من حكمه في سورية ، من ازدياد النفوذ البلشفي على حكومة مصطفى كمال وانتقال هذا النفوذ ، اما مباشرة او عن طريق الاتراك ، الى سورية ، مما اغاظ ايضا بريطانيا لانه كان موجها ضدها بصورة خاصة . وقد ارسل فيصل في ربيع عام ١٩٢٠ عدة رسائل الى اللنبي ، الذي كان المفوض السامي في مصر انذاك ، يبين له مدى تفشي النفوذ البلشفي في المنطقة . وابلغت لندن بهذه الرسائل بتاريخ ٢٣ حزيران ١٩٢٠ . وضمت احدى رسائل فيصل بيانابلشفيا بالعربية مؤرخا في ١٣ ايار ١٩٢٠ يهاجم الانكليز ويشير الى هزائمهم على ايدي الروس والى انتفاض الهنود ضدهم ، ويذكر مساعدة روسيا للشعوب الاسلامية ، ويعرض على هذه الشعوب ، تركية كانت ام عربية أم هندية أم فارسية ، مساعدتها في الثورة لتستخلص حقوقها ، وان روسيا حشدت ثلاث فرق من البلاشفة المسلمين على حدود ارمينيا لهذا الغرض . وفي احدى رسائل فيصل الى اللنبي بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٢٠ اشار الى ان الهدنة مع تركيا وجهت انظار شعبنا الى مصطفى كمال . ولكن التدخل البلشفي ،بواسطة الاتراك ، الذي وصفه فيصل بالخطر الذي اجتاز الحدود التركية الى سورية ، جعله يعطل بعض الصحف اليومية فيسورية التي كانت تروج له وان يبعد بعض الافراد الذين كانوا على استعداد للسير تحت راية الاتراك ــ البلاشفة(٢٢) .

استغلت حكومة مصطفى كمال ، من ناحيتها ، النفوذ البلشفي وتزويد البلاشفة السوفيات لها بالسلاح ، وتتويج ذلك ، فيما بعد ، بعقد اتفاق بين البلدين في ١٦ اذار ١٩٢١ ، في مجابهة الاحتلال الاجنبي لاراضيها وفي مواجهة القضية الارمنية . واصبح النفوذ البلشفي عنصرا جديدا في العلاقات بين الاتراك والسوريين سواء في المجال السياسي ام العسكري . واخذت بالظهور بوادر المطامع التركية في منطقة حلب وفي شمال سورية بصورة عامة . وشهدت سورية ، وبخاصة حلب ، نشاطا بلشفيا قويا

من خلال الاتراك ، في الحقبة التي اعقبت احتلال الفرنسيين لسورية واستئناف القتال بينهم وبين الاتراك في كيليكيا .

وقد وصل الى حلب في اول تموز ١٩٢٠ ضابطان تركيان متخفيان واشاعا ان مصطفى كمال يعد حملة على حلب ، وان تفاهما يسود العلاقات بين السوفيات ومصطفى كمال ، وانه تلقى منهم السلاح والدعم(٢٣) . وذكر في ١٣ كانون الاول ١٩٢٠ ان منشورات بلشفية بالعربية ، تحمل توقيع لينين ، موجهة الى سكان حلب ، قد وزعت في حلب على مقربة من المكتب السياسي الفرنسي . وهي تحذرهم من الاستعمار الفرنسي وتنصحهم بتبني البلشفية كوسيلة لمقاومة الفرنسيين(٢٤) . وفي ١٨ كانون الاول علقت في حلب ملصقات مكتوبة بالعربية وبالتركية تتضمن تحذيرا للسكان من الفرنسيين ، وتحضهم على الثورة وطرد الفرنسيين خلال عشرة ايام واذا لم يستطيعوا ذلك فليبقوا على الحياد ويتركوا الامر للاتراك . ولم يعرف مصدر هذه الملصقات ولكن قيل انها صادرة عن مقر مصطفى كمال وروجها عملاؤه في حلب(٢٥) .

واكب الاهتمام التركي بسورية ، على المستوى السياسي ، تقديم الاتراك المساعدة للثائرين على الحكم الفرنسي في سورية على المستوى العسكري . وافاد الطرفان ، العربي والتركي ، من ذلك ، لان الثائرين السوريين شغلوا قوات فرنسية كبيرة كان من الممكن ان تدعم القوات الفرنسية العاملة ضد الاتراك في كيليكيا . والعكس صحيح ايضا .

نشبت في سورية عدة ثورات ضد الفرنسيين منذ ان بدأ هؤلاء باحتلال الساحل السوري ، أي المنطقة الغربية ، وبالتوسع باتجاه الشرق والشمال . ولم تتوقف الثورات باستيلاء الفرنسيين على جميع المدن السورية وعلى قسم كبير من البلاد بل ازدادت شدة مع مرور الزمن . وما يهمنا من هذه الثورات الموجة الاولى منها التي قامت بين ١٩١٨ وصيف عام ١٩٢١ . وقد اصيبت هذه الثورات بضربة كبيرة في اعقاب اتفاقية الهدنة التي وقعت في لندن بتاريخ ١١ اذار ١٩٢١ بين الفرنسيين والاتراك والتي أوقف الاتراك بموجبها دعمهم للثوار السوريين(٢٦) . وتلت ذلك الاتفاقية الفرنسية التركية في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ التي انسحبت بموجبها القوات الفرنسية من كيليكيا ، مما مكن الفرنسيين من تركيز وتكثيف قواتهم ضد الثائرين السوريين .

ولا يتسع المجال هنا لتحليل هذه الثورات★ ، لان الهدف هو تسليط الضوء

★ انظر دراستنا حول تحليل هذه الثورات ، بابعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، في بحثنا بالانكليزية بعنوان : الاقتصاد والمجتمع والسلطة السياسية في سورية ١٩١٨ ـ ١٩٢٤ ، الذي القيناه في الندوة الدولية حول ((الشرق الاوسط في فترة ما بين الحربين ـ تفاعل التطور السياسي والاقتصادي والثقافي)) التي نظمها معهد التاريخ الاوربي في باد هومبورغ بالمانيا ، في اب ١٩٨٤ . البحث قيد النشر بالانكليزية وبترجمة الى الالمانية .

على العلاقات السورية ـ التركية من خلالها . وتبرز في هذا المجال ثلاث ثورات شغلت منطقة الساحل بدءا من بانياس جنوبا وحتى الاسكندرونة شمالا بما في ذلك الجبال المحاذية لها ، ثم المنطقة الشمالية بين حارم وكفر تخاريم وادلب شمالا وجبل الزاوية وجسر الشغور جنوبا وقضاء صهيون في منطقة اللاذقية غربا ، ثم معرة النعمان وأطراف حماه شرقا . وكان اقل الثائرين شانا ، من الناحية العسكرية ، صبحي بركات الذي ثار في منطقة الاسكندرونة ـ انطاكية ، وكان على اتصال مع الاتراك . واكبر الثائرين شانا في هذه المناطق الزعيمان ابراهيم هنانو قائد ثورات المنطقة الشمالية والشيخ صالح العلي قائد ثورة الساحل وجبال العلويين . وقد ترأس هنانو اربع ثورات في المنطقة الشمالية : الاولى في منطقة انطاكية ، المعروفة بالقصير ، حيث تزعم الثائرين يوسف السعدون في اعقاب مصالحة صبحي بركات مع الفرنسيين ، والثانية في منطقة صهيون ، ومركزها الحفة ، حيث تزعم الثائرين الصهاونة عمر البيطار ، والثالثة في جبل الزاوية وتزعمها مصطفى الحاج حسين ، والرابعة في منطقة كفر تخاريم وتراسها نجيب عويد . وكان هنانو القائد الاعلى لهذه الثورات التي عرفت بمجموعها بالثورة الهنانية .

وكان هناك اتصال وثيق بين هؤلاء الثائرين والحكومة العربية برئاسة فيصل . فقد عهد رشيد طليع محافظ حلب ، الذي يمثل الحكومة العربية ، الى صبحي بركات وابراهيم هنانو بتزعم ثورات انطاكية والشمال ، على التتالي ، في محاولة لتنظيمها وتوجيهها الوجهة الوطنية الصحيحة . وظهرت في ثورات انطاكية ، منذالبداية ،عناصر تركية بسبب تواجد الاتراك بين سكان المنطقة من ناحية ولان معظم قادة الثورة سبق لهم ان خدموا فيالجيش التركي او شغلوا مناصب فيالادارة العثمانية من ناحية اخرى. وعرف عن صبحي بركات انه لا يتقن العربية ، وعندما عين رئيسا للاتحاد السوري كانت خطاباته تلقى نيابة عنه .

واشترك في ثورة صبحي بركات ابن خالته عاصم وكان برتبة بكباشي ركن في الجيش التركي ، واصله من انطاكية . وقد نفته الدولة العثمانية لخلاف بينهما الى هذه المدينة فانضم الى ثورة صبحي بركات مع تركي اخر هو حقي بك . وقد اغرى الفرنسيون صبحي بركات وعاصم بالاستسلام ففعلا ، وكافأوا الاول بتعيينه رئيسا للاتحاد السوري الذي ضم دولتي دمشق وحلب وبلاد العلويين في ٢٩ حزيران ١٩٢٢ . وهناك من يقول ان تعيين صبحي بركات لهذا المنصب كان بالحاح تركيا وارضاء لها من قبل الفرنسيين. وبقي في هذا المنصب حتى كانون الاول ١٩٢٥(٢٧) . اما عاصم فقد خشي من الايقاع به من قبل الفرنسيين فلجأ بمن معهمن الثائرين الى مرعش حيث دعموا الثوار الاتراك ضد الفرنسيين . وعهد الاتراك ، فيما بعد ، الى عاصم

بامرة قوة ارسلوها لدعم ثورة ابراهيم هنانو . ومما تجدر ملاحظته ان الدعم لم يكن من جانب واحد اذ ان اوائل الثوار السوريين ، في منطقة انطاكية ، التحقوا بالثورة التركية وحاربوا الجيوش الفرنسية في مناطق مرعش وعنتاب وغيرها(٢٨) .

وكان ابراهيم هنانو ، الذي خدم في الجيش التركي وعين رئيسا لديوان ولاية حلب ، قد عهد اليه الشريف ناصر ، قائد القوات العربية التي حررت سورية ، بتطهير منطقتي حارم وانطاكية المجاورتين لقرية كفر تخاريم ، حيث تقوم زعامة هنانو الاقطاعية وتقيم اسرته ، من فلول الجيش التركي المتراجع . واقام فيها في تشرين الثاني ١٩١٨ حكومة عربية تابعة لحكومة فيصل . وحين اعلم الجنرال اللنبي ممثل الحكومة العربية في حلب ان هاتين المنطقتين تقعان ضمن النفوذ الفرنسي استدعي هنانو الى حلب . ثم انتخب مندوبا عن حلب واقضيتها الى المؤتمر السوري الذي انعقد في دمشق في ٣ حزيران ١٩١٩ . ومن موقعه كممثل للشعب عهد الى هنانو ، في مطلع تشرين الاول ١٩١٩ ، بقيادة الثورة في المنطقة الشمالية ضد الفرنسيين . وكان هنانو وصالح العلي وغيرهما من قادة الثورة يعملون بتأييد ومباركة ودعم حكومة فيصل العربية التي امدتهم بالسلاح والعتاد والمال والضباط لتدريب رجالهم ومساعدتهم . ومن هؤلاء الضباط في الجيش العربي ابراهيم الشغوري الذي كان همزة الوصل بين الحكومة العربية وثورة هنانو .واصبح الشغوري امين سر ثورة هنانو ومرافقه العسكري .

وقد منع الانكليز الشريف حسين من ارسال المال الى ابنه زيد في سورية في ربيع عام ١٩٢٠ خشية وصول هذا المال الى هنانو . وكان الانكليز قد طلبوا من الحسين الا يرسل أي جزء من اعانتهم المالية له الى الثائرين على حلفائهم الفرنسيين في سورية(٢٩) . ولم يتمكن الانكليز ان يحولوا دون دعم حكومة فيصل العربية للثائرين . وكما امدت هذه الحكومة هنانو بالدعم امدت كذلك ثورة الشيخ صالح العلي بالدعم والمال والضباط حتى ان يوسف العظمة وزير الحربية التقى بالشيخ صالح قرب مصياف للبحث في شؤون الثورة(٣٠) . وكان اخر نداء للحكومة العربية الى الثائرين ذلك الذي وجهه الشريف زيد بن الحسين حين ارسل برقية من حماة في ٢٥ تموز ١٩٢٠ الى هنانو يقول فيها ان داوموا على اعمالكم ولا تصغوا الى أوامر حلب(٣١) . وكانت القوات الفرنسية قد احتلت حلب في ٢٣ تموز ١٩٢٠ ، وذلك بعد ان غادرها في اليوم السابق رشيد طليع واليها ونبيه العظمة مدير الشرطة وغيرهما(٣٢) .

بعد ان قضى الفرنسيون على حكومة فيصل العربية ، واحتلوا المدن الرئيسية في سورية ، وتخلى صبحي بركات وجماعته عن الثورة في تموز ١٩٢٠ ، شعرت الثورة الهنانية ، شانها شان ثورة الشيخ صالح العلي ، بحاجتها للعتاد والدعم ، وبخاصة

الخرطوش ، لمواصلة الثورة ومقاومة الفرنسيين الذين كانت تدعمهم ، بالاضافة الى قواتهم ، اعداد كبيرة من المرتزقة المحليين الذين اشار اليهم الثوار بالمتطوعة . وقرر هنانو ورفاقه الاتصال بتركيا التي كانت هي الاخرى تحارب الفرنسيين في كيليكيا . وسافر هنانو على راس وفد من الثوار الى تركيافي ١٧ اب ١٩٢٠ وقابلفي مرعشصلاح الدين عادل بك قائد الفيلق الثاني التركي . ووقعت اتفاقية بين الطرفين في ٧ ايلول ١٩٢٠ . واتفق ، كما يروى الشغوري عضو الوفد ومرافق هنانو ، أن ما يقوم به هنانو من اعمال حربية هو باسم الحكومة العربية السورية ، اي ان تركيا اعتبرت هنانو استمرارا للحكومة العربية ، وان ما يعطى للجانب السوري من عتاد وسلاحيكون هديةلا قيمة له في الحال والمستقبل . وتقرر ان تبقى الحدود مفتوحة لتبادل التعاون العسكري عند الاقتضاء(٢٣) . ويضيف يوسف السعدون ، زعيم الثورة في منطقة القصير، التي كانت ضمن الثورة الهنانية ،ان من جملة بنود الاتفاقية ان تقدم تركيا الخرطوش ومدفع واحد او اكثر حسب اللزوم ، وان لا تحدد الحدود بين سورية وتركيا الا بعد جلاء العدو عن أراضيهما وحصولهما على الاستقلال التام فعندئذ تعين لجنة مشتركة لوضع الحدود . كما تقدم الحكومة التركية بعض الجنود المدربين على المدفعية لتدريب الثوار . وحين يتوافر بين الثوار متدربون على المدافع بانواعها يعود هؤلاء الجنود الاتراك الى بلادهم(٢٤) . وكان تزويد تركيا الثائرين بالخرطوش والعتاد من اهم العوامل التي مكنت الثائرين من متابعة القتال .

وقد وجه هنانو في اعقاب عودته من تركيا في ١٢ ايلول ١٩٢٠ بيانا الى الشعب بدأه بعبارة « من العرب الى العرب » ، جاء فيه ما بالكم ترضخون وانتم خير امة اخرجت للناس . ان جريمتكم أنكم من ابناء الشرق المسلمين . ونبه الى اتخاذ الفرنسيين الاديان ستارا للمطامع ، واهاب بابن سورية أن ينهض للمحافظة على حريته ودينه . واشار الى الخونة وعقابهم . ووجه نداء الى قناصل الدول يناشدهم فيه التوسط لوضع حد لسفك الدماء . واختتم البيان بالقول : نحن السوريون نموت ونتبلشف اي نصير شيوعيين ونجعل البلاد رمادا ولا نخضع لحكم الظالمين . وارفق بيان هنانو بفتوى من مفتي الاتحاد الاسلامي (لا يعرف من يمثل) الحاج محمد افندي ابي زاده تبيح دم من يتعاون مع الذين يحاربون الاسلام (٢٥) .

وقد لاحظ هنانو ان الشعب يكاد لا يصدق عقد مثل هذه الاتفاقية ، سيما وان الثورة تلاقي المصاعب ، فقرر قبول العرض التركي بارسال سرية من الجيش التركي مجهزة بالرشاشات وبمدفع واحد على الاقل ، لا لزجها في الحروب بل لتهدئة النفوس المضطربة التي تشكك بوجود حكومة تشد ازر الثائرين . وبالفعل وصلت هذه السرية المؤلفة من مائتي جندي نظامي بقيادة الرئيس بدري بك الشركسي ، وهي تحمل علما

يشير الى الاخوة بين العرب والاتراك اذ حمل احد وجهيه العلم العربي والوجه الاخر العلم التركي . وزنر كل منهما بوشاح ابيض نقش على الوجه الاول منه بالقصب الاية الكريمة « انما المؤمنون اخوة » ، وعلى الوجه الثاني « فاصلحوا بين اخويكم »(٣٦) . وقد تجولت السرية التركية في مناطق الثوار ، بما في ذلك منطقة الشيخ صالح العلي، لتقوية الروح الثورية لديهم . وذكر انها كانت تحمل العلم التركي لتدلل به على وجودها كقوة تركية . وفي حين يذكر الضابط الشغوري ، مرافق هنانو والذي خاض معه المعارك ، ان القوة التركية لم تدع لاي عمل حربي واحتفظ بها كرمز للتآخي(٣٧) ، يذكر أدهم آل الجندي ، الذي لم يخض الثورات بل ارخ لها ، ان القوة التركية خاضت المعارك الى جانب الثوار(٣٨) . ولا يتطرق الثائر السعدون في مذكراته الى أي نشاط عسكري للقوة التركية .

ويتجلى في بيان هنانو الى الاهالي ، وفي بنود الاتفاقية التي عقدها مع تركيا ، التوجه العربي والاسلامي في آن واحد . فقد خاطب العرب باسم العرب ، كما انه استثار الاخوة الاسلامية بين العرب والاتراك للوقوف في وجه العدو المشترك . ويعلق السعدون زعيم ثوار منطقة القصير ـ وهو المعروف بتدينه ، واستشهاده باستمرار في مذكراته بالايات الكريمة ، ووصفه تركيا بالدولة الاسلامية التي تقاتل المشركين ـ بان الثورة في سورية ليست لحساب الاتراك بدليل ان هنانو ، بعد فشل ثورته، لجأ الى الاردن وليس الى تركيا . ويعلق السعدون على موقف هنانو هذا بقوله :« وبان رحمة الله لا يطمئن قلبه للاتراك ولمساعدتهم الصورية » (٣٩) . ومع ذلك يقول السعدون بمناسبة محاكمة هنانو في حلب واطلاق سراحه في اذار ١٩٢٢ ، بعد أن اعتقله الانكليز وسلموه للفرنسيين ،ان ذلك تم بتدخل تركيا وباتفاق دولي (٤٠) . كما أن السعدون نفسه يروي انه ونجيب عويد ، قائد ثورة كفر تخاريم والمساعد الايمن لهنانو ، رفضا تنفيذ طلب تركيا ، بعد لجوئهما اليها ، حين حاولت تجنيدهما لمساعدتها في ضم الاسكندرونة عام ١٩٣٦(٤١) . ويظهر كلام الثائر السعدون هذا حسا وطنيا عاليا تدعمه روح دينية تبعث فيه الاخلاص للجهاد في سبيل الوطن فقط .

وقد حرص زعماء الثورة على تنقيتها من المستغلين والمستهترين وغير المنضبطين لتحافظ على مصداقيتها واحترام الشعب والاعداء لها . وطبقوا ذلك حتى على القادة العسكريين الاتراك الذين ارسلتهم تركيا لدعمهم★ ، وذلك حرصا على الثورة من أن تشوه صورتها .

★ حدث في اواخر ايام ثورة هنانو ان هاجم افراد من القوة التركية قرية الصقيلبية المسيحية ،في منطقة حماة ، وسلبوا اهلها مالهم ومواشيهم ، فعقد ابراهيم هنانو ونجيب عويد مجلسا عسكريا فوريا اقر اعدام الضابط التركي المسؤول عاصم ، وتم ذلك بموافقة السلطات التركية(٤٢) .

ولم يقتصر الدعم التركي على الثورة الهنانية ، فقد اتصل الشيخ صالح العلي في ١٠ شباط ١٩٢١ بهنانو يطلب توحيد جهود الثورتين والحصول على السلاح من تركيا نظرا لاشتداد المعارك بينه وبين الفرنسيين . ويفسر تركيز جهود الفرنسيين ضد ثورة الشيخ صالح العلي بعنف المقاومة التي كانوا يلاقونها من ثواره ، وبخطتهم في القضاء عليه اولا ثم توجيه قواتهم ضد ثورة صهيون وثورة هنانو . لذا حشدوا قوات كبيرة ضده واخذوا يحرقون قرى الثوار(٤٣) . وقد سهل الاتصال بين ثورتي هنانو والعلي انضمام جبل الزاوية بزعامة مصطفى الحاج حسين الى ثورة هنانو ، في ٢٧ شباط ١٩٢١ ، مما اتاح نقل الامدادات بينهما . ووصلت وفود الشيخ صالح الى تركيا، وتم تزويدها بالخرطوس والسلاح (٤٤) .

والى جانب الحصول على الدعم العسكري عمد قادة الثورة الى الاتصال بالقناصل الاجانب لينفوا اتهامات الفرنسيين لهم بانهم يعملون للفوضى والنهب . وقد قاموا بتسليم رسائل متشابهة في ٢٩ اذار ١٩٢١ الى قناصل كل من امريكا وبريطانيا وايطاليا واسبانيا بحلب ، يؤكدون فيها رفضهم الاحتلال الاجنبي ، وعملهم الى جانب الخلافة الاسلامية ، اي العثمانية ، التي تشكل جزءا من الوحدة الاسلامية التي تدعمهم ، وان اعمال الثوار تصدر من القلب ومن وطنية الامة التي نمثلها . وتضيف الرسائل انه بناء على رغبة اللجنة الوطنية التي اجتمعت رسميا في مقر القيادة العسكرية الوطنية ، التي تنتظم فيها جميع فصائل الثوار والاحزاب السياسية في سورية ، وبناء على القرارات التي اتخذتها بتاريخ ٢٧ شباط ١٩٢١ في جلستها الثالثة ، تقرر توجيه هذه الرسائل الى القناصل في بيروت وحلب والمدن السورية الاخرى لابلاغ عصبة الامم بصوت الثوار وقد وقع الرسالة الموجهة الى القنصل الامريكي بحلب ، باسم المجلس الوطني المنعقد في مقر القيادة العسكرية الوطنية ، كل من نائب رئيس الحركة الوطنية العامة في سوريا وفلسطين سيف الدين هلال ، ونائب رئيس قائد الحركات الوطنية العمومية في منطقة حلب صالح العلوي ، وكاتب العام قائد حركات العمومية بمنطقة غربي حلب ابراهيم هنانو . ولا تحمل الرسالة تاريخا (٤٥) . ويتبين من هذه الرسالة اعتماد الثوار على الدعم المعنوي للخليفة العثماني ، وبالتالي على دعم الاتراك العسكري . كما انها تشير الى تنظيمات ثورية على مستوى سورية بل بلاد الشام بكاملها .

وفي نيسان ١٩٢١ حدث تبدل هام في موقف تركيا من الثوار وفي موقف هؤلاء العسكري ككل . فقد توصلت فرانسا وتركيا . كما سبق القول ، الى اتفاقية هدنة وقعت بينهما في لندن في ١١ اذار ١٩٢١ ، وناب عن تركيا فيها سامي بك بكير مندوب المجلس الوطني الكبير في انقرة ، وعن فرانسا رئيس وزرائها ووزير خارجيتها اريستد

بريان . وتوقفت ، بموجب هذه الاتفاقية ، العمليات العسكرية بين الطرفين، الفرنسي والتركي ، في منطقة كيليكيا ، كما توقفت تركيا عن تقديم العون العسكري للثوار السوريين ، وسحبت قواتها التي كانت قد أرسلتها لدعم هؤلاء الثوار (٤٦) . وقد ذكر الشغوري(٤٧) أن نجدات فرنسية تزيد على خمسين الف جندي جلبت من كليليكيا الى سورية في اعقاب الاتفاقية ، فرفعت اعداد الجيش الفرنسي الذي يقاتل الثوار السوريين الى خمسة وسبعين الف جندي . واكد تقرير المخابرات البريطانية في ٢٠ نيسان ١٩٢١ ان الاتفاقية الفرنسية ــ التركية وتوقف العمليات في كيليكيا اتاح للفرنسيين استخدام اعداد كبيرة من الجنود ضد الثائرين(٤٨) .

وترتب على هذه التطورات نتائج هامة . فقد اختلت ، اول الامر ، المعادلة العسكرية على الجبهتين السورية والتركية . وكانت القوات التركية المشتبكة مع الفرنسيين في كيليكيا قد افادت من اشغال الثوار السوريين لقوات فرنسية كبيرة ، كان من الممكن ان توجه ضد الاتراك في غياب الثورات السورية . وذكرت التقارير الفرنسية ، مثلا ، ان اكثر من سبع فرق عسكرية فرنسية كانت تقاتل ثوار الشيخ صالح العلي في جبال العلويين في عام ١٩٢١ (٤٩) . ولا ادل على شدة ما أوقعه الثوار السوريون من اصابات في صفوف القوات الفرنسية في عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ من احصاءات هذه الاصابات التي قدمتها الحكومة الفرنسية لمجلس النواب الفرنسي في جلسته بتاريخ ٥ تشرين الثاني ١٩٢٥ . فقد جاء أن عدد الفرنسيين الذين قتلوا ، باستثناء ما قتل من قوات تعمل في الجيش الفرنسي من اصول افريقية شمالية او محلية متطوعة ، بلغ ٢٨٩٣ قتيلا عام ١٩٢٠ ، و ٢٠٣٢ قتيلا عام ١٩٢١ . ثم هبط العدد الى ٦٣٦ عام ١٩٢٢ ، وعاد وارتفع الى ٥٨٨٥ خلال ثلاثة اشهر (١٥ تموز ــ ١٥ تشرين الاول ١٩٢٥) ابان الثورة السورية الكبرى(٥٠) .

وبسبب هذه التطورات غدا من الصعب على الثوار الانتصار على الفرنسيين . وكان الحصول على السلاح من الفرنسيين في المعارك أحد المصادر التي زودت الثوار بالسلاح ، والمصدر الاخر هو شراؤه ، وبخاصة من منطقة حماة ، حيث يكثر في أيدي البدو (٥١) . وقد شح هذا المصدر بدوره بسبب تشديد الفرنسيين قبضتهم على القبائل البدوية ومصادرتهم السلاح الذي كان يشترى للثوار من لبنان وفلسطين . وتوقف كذلك المصدر الثالث للسلاح عن طريق تركيا (٥٢) . وكان زعماء الثورة ، مثل هنانو وصالح العلي ، ينفقون ، في تمويل الثوار وتزويدهم بالسلاح ، من واردات املاكهم وقراهم ، ومما يرد الى الثورة من جباية العشر في المناطق التي تسيطر عليها . وكان الممول الاكبر لثورة هنانو الحاج فاتح المرعشي الذي هرب من حلب الى مرعش بسبب

ملاحقة الفرنسيين له ، وكان يُمد الثوار وهو في مرعش بالمالمن واردات قراه فيالمنطقة الحدودية ، كما كان صلة الوصل الرئيسية بينهم وبين الاتراك (٥٣) .

وكان الهاشميون ، سواء في الاردن أم في العراق والحجاز ، يسعون لمد الثورة بالمال والسلاح بقدر ماتسمح به الظروف . وكان ذلك استمرارا لسياسة الشريف حسين وحكومة فيصل العربية في دمشق بدعم الثورات السورية على الفرنسيين . وقد سبقت الاشارة الى أن الجنرال اللنبي اشترط على الشريف حسين عدم ارسال المال الى الثوار . ويذكر الشغوري (٥٤) أن هنانو وصالح العلي اتصلا بالامير عبد الله في شرقي الاردن لهذه الغاية ، ولكنهما لم يحصلا منه على أكثر من الوعد بالمساعدة. وقد ذكر أن الامير فيصل ظل يرسل الدعم الى الثوار السوريين بعد خروجه من سورية ، وانه ارسل ، قبل سفره الى العراق ، رسالة الى الشيخ صالح العلي من جدة بتاريخ ٥ شوال ١٣٣٩ /١٢ حزيران ١٩٢١ يقول فيها انه تلقى رسالة الشيخ صالح ، وانه امر الشريف شند حاكم المدينة بالذهاب فورا الى معان ومنها يتوجه الى الشيخ صالح . وقال فيصل في رسالته انه سيذهب الى العراق ويتابع من هناك الاتصال بالشيخ صالح وينسق العمليات معه . وطلب من الشيخ صالح الا يوقف الاتصال مع شرقي الاردن وان يثابر في العمليات العسكرية ، واضاف « حيث اخذت كلام قطعي من لندن ان لا تنازل عن سورية ، وارجو سباتكم (هكذا) على اندفاعكم ريثما تتم مخابرتنا مع العشائر » . وقد نفى فيصل رسالته هذه ، كما نفتها الحكومة البريطانية في حين اكدها القنصل البريطاني في بيروت . وتحتفظ الوثائق الفرنسية بنص الرسالة العربي وترجمتها الفرنسية التي حصل الانكليز على نسخة عنها(٥٥) .. وارسل ابراهيم هنانو بدوره برسالة الى الشريف علي بن الحسين ، قائد عمليات الشمال ، يذكر فيها انه تلقى رسالة من الامير عبدالله بتاريخ ٢٩ اذار ١٩٢١ . ويضيف هنانو انه يحارب لاجل الدين باسم الشريف علي وباسم اللنبي ، وانه بمساعدة الشريف علي قد وحد جهوده مع الشيخ صالح العلي ومع حاجم باشا (لعله الامير البدوي من قبيلة العنزة في منطقة الرقة)★ ، وانه أسس اربع دول في سورية الشمالية (ربما يشير الى الثورات الاربع التي كان يراسها) ، باسم الملك حسين .واختتم بقوله « انه يحارب من أجل عقيدتنا ولدعم القضية العربية » . ويلقب هنانو نفسه في التوقيع بانه زعيم الدفاعالوطني فيسورية الشمالية(٥٦) .

★ يذكر احمو وصفي زكريا ، عشائر الشام ، جزاين ، ط ٢ ، دمشق ١٩٨٣ ، ص ٥٩٨ ،ان حاجم ال مهيد تقلد المشيخة على الفدعان ، ولقب بباشا في عهد الملك فيصل، وان اهالي قضاء الرقة كلفوه بالاستيلاء على حلب التي احتلها الفرنسيون فسار اليها بقوة بدوية مع سرية من الجند التركي ولكن الفرنسيين صدوه .

ولكن نظرا لصعوبة وضع الثائرين العسكري قبل هنانو التفاوض مع الفرنسيين في ١٧ نيسان ١٩٢١ . وتم ذلك في بلدة كورين ، في منطقة ادلب ، دون الوصول الى اية نتيجة (٥٧) . ولذلك عدل زعماء الثورة الهنانية من استراتيجيتهم العسكرية وقرروا جعل تشكيلاتهم الثورية وحدات صغيرة تختص كل واحدة منها بمنطقة معينة . واوصوا بتجنب الاشتباك في معارك مكشوفة تستجرهم اليها القوات الفرنسية ، وبالاكتفاء باعمال التفجير والمداهمة والمباغتة وبالانقضاض على وسائل التموين وعلى الدوريات والمخافر . اما الشيخ صالح العلي فقد جرب التفاوض مع الفرنسيين وفشل(٥٨) ، ثم احتل هؤلاء مركز قيادته في الشيخ بدر . واصبحت كل فئة من ثوار الشيخ صالح تعمل مستقلة عن الاخرى . وبعد ان اخذت ثورته بالتلاشي احتجب الشيخ صالح مدة من الزمن ثم استسلم للفرنسيين الذين وضعوه قيد الاقامة الجبرية، وذلك بتاريخ ٢ حزيران ١٩٢٢(٥٩) . وتعلق برقية ارسلت من قبل هيئة اركان الجيش الفرنسي في بيروت الى باريس بتاريخ ٧ حزيران ١٩٢٢ تشعر باستسلام الشيخ صالح بان ذلك كان نتيجة لتوقف تزويده بالسلاح من قبل الاتراك في اعقاب الاتفاقية التي عقدوها مع الفرنسيين في انقرة في ١٩٢١ . وتضيف البرقية ان الفرنسيين سروا باستسلامه ، الذي توقعوه بعد هذه الاتفاقية ، لانه يعتبر مرحلة هامة نحو استسلام جميع المنطقة التي يتمتع فيها الشيخ صالح بالنفوذ(٦٠) .

وبالرغم من اجراء تعديل في خططهم العسكرية ، لم يتمكن هنانو وثواره من الثبات . وفي اجتماع لهم رأى البعض الالتحاق بالجانب التركي لقربه وأملا بشن الهجمات منه ضد الفرنسيين في سورية . ورای البعض الاخر ، وعلى رأسه هنانو ، الالتحاق بشرقي الاردن ، حيث ثوار الجنوب ، أملا بالمساعدة . ووجدت فئة ثالثة « اقعدتها كبر العائلة وكثرة الاولاد عن اللحاق باحدى الفئتين » ، فاختارت البقاء ولكنها اقسمت انها لن تخون القضية (٦١) .

ومن قادة الثورة البارزين الذين انسحبوا الى تركيا ، في الفترة بين ٥ آب وأوائل كانون الاول ١٩٢١ ، نجيب عويد قائد ثورة كفر تخاريم ، ومصطفى الحاج حسين قائد ثورة جبل الزاوية ، وعمر البيطار قائد ثورة صهيون ، ويوسف السعدون قائد ثورة القصير(٦٢) . وقام هؤلاء بعد ذلك ، وعلى فترات ، حسب الظروف ، بشن هجمات على الفرنسيين عبر الحدود . واتصف موقف الاتراك منهم ، كما سنرى ، بالتشجيع او بالقمع حسب علاقتهم بفرانسا .

٢ ـ العلاقات السورية ـ التركية والمطامع الاستعمارية الاوربية (١٩٢١ ـ ١٩٢٦) .

شهدت العلاقات السورية ـ التركية في هذه الفترة محاولات الحكومة الكمالية

استمالة السوريين اليها عن طريق الدعاة والاحزاب ،كما شهدت الخلاف حول الحدود بين البلدين الذي لعبت فيه المطامع الاستعمارية دورا كبيرا . وتقلب موقف فرانسا بين مؤيد لتركيا او ناقم عليها ، تبعا لتقلبات السياسة البريطانية وموقفها من الخلاف مع تركيا وفرانسا حول قضية الموصل ،ودعمها الهجوم اليوناني في الاناضول ، وفرض نفوذها في استانبول ، وانعكاس ذلك على موقفهامن المعارضةللحكم الفرنسي في سورية. واستثار الموقف البريطاني حكومة مصطفى كمال في انقرة ، كما اقلق الفرنسيين ، وقرب بالتالي بينهم وبين الكماليين .وحين تفاهمت بريطانيا مع الفرنسيين انعكس ذلك على موقف هاتين الدولتين من الوطنيين في سورية ، ومن الكماليين في تركيا .

ادى الاتفاق بين الفرنسيين والكماليين في عام ١٩٢١ الى تغاضي الفرنسيين عن نشاط الكماليين ومؤيديهم في سورية ، ظنا منهم ان هذا النشاط سيوازن ازدياد نفوذ الوطنيين السوريين الذين كانوا يتطلعون الى دعم بريطانيا وامريكا لهم . واختلف موقف بريطانيا من فترة الى اخرى ، ومن قضية الى اخرى ، ومثال ذلك تسليم بريطانيا ابراهيم هنانو ، الذي اعتقلته في فلسطين بعد أن لجأ الى شرقي الاردن ، الى السلطات الفرنسية في سورية في آب ١٩٢١ .

ولم ينقطع تأييد بعض فئات السوريين لتركيا حتى بعد انسحابها الكامل من سورية ، نظرا لارتباط مصالح هذه الفئات بها ، وتمتعها ، في السابق ، بالامتيازات التركية ، أو بسبب خضوعها دينيا للسلطان ــ الخليفة العثماني . ثم جاء احتلال الدول الاوربية لكل من سورية وتركيا فزاد من التقارب بين الشعبين ازاء العدو المشترك . وكان لانتصارات مصطفى كمال ضد تحالف الدول الاوربية المحتلة لتركيا ، وبخاصة قتاله الفرنسيين في كيليكيا ، صدى محببا لدى الشعب السوري الذي كان يقاتل هو الاخر الفرنسيين . وترجم هذا الاعجاب بالتعاون بين الثوار في البلدين . ولم يخفف من هذا التعاون ، حتى في الاوساط المحافظة السورية ، ازدياد النفوذ البلشفي في صفوف الكماليين وانتقاله من خلالهم الى سورية . وقد زاد الاتفاق الكمالي ــ السوفياتي في ١٦ اذار ١٩٢١ من نشاط البلاشفة ، ليس فقط في تركيا وانما في سورية أيضا . ووجد بين العلماء المسلمين من رحب بهذا التعاون مع روسيا البلشفية . ولا ادل على ذلك مما كتبه احد كبار العلماء ، وهو الشيخ محمد رشيد رضا ، في جريدة (المنار) التي كان يصدرها في مصر في عام ١٩٢١ قائلا : « ومن آيات الله وحججه أيضا ان سخر الدولةالروسية الجديدة لمظاهرة الترك وشد ازرهم بعد ان كانت هذه الدولة على عهد القياصرة هي الخطر الاكبر على السلطنة العثمانية »(٦٢).

وقد اقلق هذا النفوذ التركي المتزايد في سورية الفرنسيين في وقت مبكر من

احتلالهم البلاد ، مما حدا بمراقب عالم بأمور المنطقة مثل المستشرق لوي ماسينيون ان يبدي دهشته من ازدياد هذا النفوذ ، وذلك في برقية له من حمص الى روبير دوكيه في بيروت ، بتاريخ ٢ كانون الاول ١٩٢٠ ، اشار فيها الى خطر تبلور النفوذ التركي الذي هو في اساس المشاعر الاسلامية والذي كان مفيدا لفرانسا في البدء ولكنه سيتحول ضدها اذا ما نفذ مصطفى كمال تهديده بمهاجمة حلب في الربيع(٦٤) . وظهرت ، بين الفينة والاخرى ، علائم تخوف من قبل الفرنسيين من ازدياد النفوذ التركي في سورية . ومن ذلك رفض السلطة الفرنسية طلب بعض مسلمي دمشق ، في آيار ١٩٢١ ، السماح لهم بجمع التبرعات لجمعية الهلال الاحمر التركية بحجة ان تركيا لم توقع بعد على معاهدة الصلح(٦٥) .

وبالرغم من التحفظات الفرنسية على نشاط الكماليين واتباعهم في سورية ، ازداد هذا النشاط ، الى حد كبير ، في اعقاب الاتفاقين بين فرانسا وتركيا في آذار وتشرين الاول ١٩٢١ . وتسرب الدعاة الاتراك من جماعة الاتحاد والترقي ، متسترين بلبوس تجار او موظفين أو ضباط عثمانيين سابقين ، الى المدن الكبرى في سورية وفلسطين ، كما تشير المخابرات البريطانية . وكان هؤلاء الدعاة ينشرون دعوتين : يقولون للذين هم من أصول تركية ويتكلمون العربية الا يقاوموا الفرنسيين بل يساعدونهم كأصدقاء ، ويقولون للعرب انتظروا قليلا لانه بعد ان اصبح الفرنسيون أصدقاءنا وغيروا سياستهم السابقة فسيفعلون مثل ذلك بالنسبة لكم . ويهيبون بالجميع لمقاومة بريطانيا العدو المشترك الذي يبتلع الامم . والجدير بالذكر ان بريطانيا آنذاك كانت تحتل استانبول وتدعم الاحتلال اليوناني في الاناضول . ويعلق تقرير المخابرات البريطانية على ازدياد النفوذ التركي هذا بان الفرنسيين غير قادرين على الاحتفاظ باستمرار بخمسين الف جندي في سورية لدعم سيطرتهم عليها ، ولذلك لن يتمكنوا من مقاومة الوجود التركي المسيطر حتى في دوائر الدولة . ودليل ذلك ان قائد الدرك في دمشق ، وحيد بك ، هو تركي من جماعة الاتحاد والترقي ، كما ان حقي بك العظم رئيس دولة دمشق معروف بولائه لتركيا ، وكذلك مدير الشرطة حمدي الجلاد الذي كان يعمل لحساب جمال باشا . وفي حلب كان معظم الموظفين الكبار من المتعاطفين مع الاتراك (٦٦) . وقد رحبت حلب اكثر من غيرها بالاتفاق الفرنسي ـ التركي بسبب تضرر تجارتها من اغلاق سوق الاناضول التقليدي في وجهها. ونشط الهدوء على الحدود تجارة حلب وقصدها تجار الاناضول لشراء منتجاتها(٦٧) .

وقد تسرب النفوذ التركي ايضا من خلال جمعية سرية للكماليين تدعى استقبال، بدأ التحدث على وجودها في تموز ١٩٢١ . وكان المركز الرئيسي لهذه الجمعية في سورية في حلب ، ولها فرع في دمشق ، وهي على اتصال دائم بمسؤول تركي يدعى نهاد باشا

في ماردين . وكان اكثر اعضاء الجمعية نفوذا في دمشق حسب تسلسل اهميتهم : يحيى حياتي ، الذي كان ضابطا في الجيش التركي ثم التحق بالجيش العربي الشريفي ، محيي الدين مملوك ، وهو ضابط سابق ويشغل آنذاك رئيس معتمدية الدرك ، بديع بكداش ، ضابط في الدرك ، الضابط سليم (؟) ، وحيد بك قائد الدرك ، وهو شقيق يحيى حياتي ، ووجيه الايوبي ، وهو ضابط سابق في الجيش العثماني . ويجمع بين هؤلاء انهم كانوا ضباطا سابقين في الجيش التركي ثم التحقوا بجيش الامير فيصل . ويليهم في الاهمية عثمان الشرابي ، وهو تاجر ، وعبد الله الهايني من الميدان ، وجلال باقي ، ثم والده باقي افندي ، والشريف تقي الدين (؟) نقيب الاشراف السابق ، ونسيب البكري ، مستشار الامير فيصل سابقا ، وشاكر بك الحنبلي ، متصرف دمشق . واقتصر عمل فرع الجمعية في دمشق على الدعاية للكماليين . وكانت الجمعية ككل معنية بمساعدة الموظفين السابقين في العهد التركي في العودة الى الوظيفة . وذكر ان الرئيس العام لجمعية استقبال هو التركي كمال بك ، ابن علي رضا بك ، وانه زار دمشق في ايلول ١٩٢١ قادما من انقرة . ولا يعلم فيما اذا كان المقر الرئيسي لهذه الجمعية هو انقرة(٦٨) .

وازدادت مع الزمن اعداد السوريين المجندين للقضية الكمالية . ونذكر في دمشق الاشخاص التالية اسماؤهم الذين كانوا يجمعون المال للكماليين في تشرين الاول ١٩٢١ ، وهم : سعيد عبيد ، سعد دمشقية ، محيي الدين جمعة ، وجميعهم من التجار ، ثم حقي زكريا من الشرطة(٦٩) . كما ذكرت ، في الشهر نفسه ، اسماء عدد من الكماليين الناشطين في دمشق ، وهم : مصطفى (؟) ، وكان ضابط احتياط في الجيش التركي ، كول اغاسي عرفان افندي ، وهو ضابط سابق في الجيش التركي ، ابراهيم حقي ، وهو الاخر ضابط سابق في الجيش التركي ، وجميعهم من اصل عربي . والى جانب هؤلاء ذكر الضابط زكي الحلبي ، وكان قائدا للشرطة في عهد فيصل ، وضابط المدفعية عبد الفتاح ، الذي عمل في وزارة الحربية في عهد فيصل . وداب هذان الضابطان على تجنيد الاعضاء للجمعيات الكمالية السرية في دمشق(٧٠) .

وشاع في دمشق ، في تشرين الاول ١٩٢١ ، امر رسالة بعث بها هندي من برلين ، عبر انقرة ومرعش ، الى هندي في دمشق يدعى رمضان محمد او رمضان بن محمد . وكان هذا يمتهن الكحالة ، ويحمل التابعية البريطانية ، ومسجلا في القنصلية البريطانية بدمشق . وهو عضو في فرع دمشق لجمعية دولية تسمى الجمعية الاسلامية . وتتحدث الرسالة التي كتبت بالعربية عن اطماع الدول الغربية لابتلاع الامم الشرقية بعامة ، والعالم الاسلامي بخاصة ، وان هذه الدول قد زادت في شدة استبدادها ، وهدفها القضاء المبرم على جميع امم الشرق . لذا ، تقول الرسالة ، اتصل « عقلاء الامم

الشرقية » ، من سائر الاديان والاجناس ، ببعضهم ، وقرروا تاسيس جمعية عمومية شرقية غايتها خلاص الشرق من اسر الغرب . وانضم الى هذه الجمعية الشرقية كثير من احرار الامم الغربية . واجمع عقلاء الامة الاسلامية في الشرق على تاييد هذه الجمعية وتشكيل فرع اسلامي لها مستقل في ذاته يتفق معها في المبدأ ، وهو تخليص الشرق من الغرب ، وينفرد عنها في شؤون خصوصية ، وهي ضم جميع العناصر الاسلامية بعضها الى بعض ، والاهتمام بترقية شؤون المسلمين . وقد تأسست هذه الفرقة في برلين تحت اسم « الجمعية الاسلامية » ، واعضاؤها من اعاظم الرجال من سائر الاقطار الاسلامية . وتشكلت شعبة عسكرية مخصوصة لهذه الجمعية برئاسة انور . وقد اتسعت هذه الحركة واتفقت مع الفرق الانقلابية بين المسلمين . وتعمل الجمعية الاسلامية في مصر وانقرة وغيرها . وهي متفقة مع موسكو وايرلندا وغيرهما ، لنجدتها بالسلاح والمال والقوة ، من غير ان يكون هناك اقل اتفاق للقبول بالمبدأ البلشفي . وتذكر الرسالة انه سيعقد بعد قليل مؤتمر عام ثان في برلين للجمعية الاسلامية . وتضيف ان حكومة انقرة ستعقد الصلح طبق رغائبها ، ولكن الامة التركية لم تنته وظيفتها لان القيام سيكون عاما في سائر الاقطار الاسلامية والشرقية . ولا يمكن تحرير البلاد الا بحرب العصابات . وتطلب الرسالة جوابا عليها ، وعندئذ تعلم الجمعية فروعها بعنوانها في برلين وروما وغيرها من المراكز . وقد اعطيت نسخة من الرسالة الى ثروت بك ، وكان سابقا في خدمة الهاشميين . ووصلت هذه النسخة الى الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي اعطاها بدوره الى القنصل البريطاني بدمشق . وحصل على نسخة اخرى حسن افندي الزنبركجي ، مخبر القنصل . واعطيت هذه النسخة الى علي رضا باشا الركابي الذي اخبر القنصل بها . وكان الزنبركجي عضوا في الجمعية ثم انسحب منها لانها تعمل ضد الهاشميين . وضم فرع الجمعية الاسلامية بدمشق الاسماء التالية : الشيخ عبد القادر الاسكندراني ، مدرس السنانية ، وهو رئيس الفرع ، وزكي الحلبي ، وعبد الفتاح ومحمود كول اغاسي ، وسليم طبنج ، وكلهم ضباط سابقون في الجيش التركي ، بالاضافة الى راجي افندي ، وهو كاتب رئيسي في المحكمة الجزائية بدمشق وشوكت العائدي ، شقيق منيف العائدي ، وهو ضابط سابق لدى الامير عبد الله طرده الامير ، ورمضان محمد . وقد حاولت الجمعية استمالة الامير عبد الله للانضمام اليها ولكن الامير اعتقل موفدها وارسله الى مصر(٧١) .

ويبدو ان الجمعية الاسلامية هذه كانت تعمل بصورة وثيقة مع الكماليين ،بدليل ان احد اعضائها البارزين وهو رمضان محمد الهندي تلقى رسالة منهم ، بطريق مرعش ،في اوائل كانون الاول ١٩٢١ ، تشير الى تفهم الكماليين لانزعاج الدمشقيين من توقيع الاتفاقية بينهم وبين الفرنسيين . والمقصود طبعا اتفاقية فرانكلين ـ بويون

المعقودة في انقرة في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ .وتوضح الرسالة ان الحقيقة هي ان الاتفاقية تعطي الاتراك السيادة على سورية (في الواقع تعطيهم فقط امتيازات في لواء الاسكندرونة) وان دور فرانسا كدولة منتدبة يقتصر على الامور المالية والادارية . وتضيف الرسالة ان الكماليين عندما ينهون صراعهم مع اليونانيين فسيوجهون قواتهم باتجاه سورية (٧٢). ويلاحظ ان نشاط الجمعية الاسلامية وتأكيدها على جمع المسلمين ومعاداة الاوربيين احرج موقف الكماليين ، اثر عقدهم الاتفاقية مع فرانسا ، مما اقتضى ارسالهم هذه الرسالة لاشاعة الاطمئنان ولابداء استعدادهم بالتوجه الى سورية ضد الفرنسيين في احسن الظن .

وجرت محاولة اخرى في دمشق للتهوين من امر اتفاقية تركيا مع فرانسا ولامتصاص نقمة الجمعية الاسلامية وغيرها . فقد تحدث الامير سعيد الجزائري ، في احتفال دعا اليه في ١٢ تشرين الثاني ١٩٢١ بمناسبة المولد النبوي ، وشارك فيه المسلمون والمسيحيون ، على وجوب عدم النظر للمسيحيين على انهم كفار لان القران الكريم اعترف بموسى وعيسى . ورغم ان هذا الكلام ينسجم مع سلوك جده الاكبر الامير عبد القادر الجزائري ، الذي دافع عن المسيحيين في دمشق ، فقد فسر كلام الامير سعيد في تلك الفترة بالذات ان القصد منه عدم وجود اعتراض ديني على الصداقة الكاملة بين المسلمين وفرانسا ، والهدف من ذلك الدفاع عن الاتفاقية التركية ـ الفرنسية .ومن شأن هذا التصريح أيضا ان يوازن موقف الداعين الى تحقيق الجامعة الاسلامية . وحتى لو كان كلام الامير سعيد عفويا ، فمن شانه ان يوظف لهذه الاهداف (٧٣) .

واتضحت ، فيما بعد ، نوايا الامير سعيد من تاييده لتركيا لانه ، بعد ان عجز عن الوصول الى حكم سورية بدعم من الفرنسيين ، توخى الخير من دعم الاتراك.
عجز عن الوصول الى حكم سورية بدعم من الفرنسيين ، توخى الخبر من دعم الاتراك.
ويذكر كيف ان الامير سعيدا قد تراس حكومة مؤقتة في دمشق دامت ثلاثة ايام ، بين انسحاب الاتراك منها في ٢٧ ايلول ١٩١٨ ودخول الجيش العربي اليها في الاول من تشرين الاول(٧٤) .وغدا الامير سعيد من انشط الدعاة للكماليين . وذكر القنصل البريطاني في دمشق ، في تقرير له بتاريخ ١٩ حزيران ١٩٢٢ ، وبكثير من التحفظ لان المعلومات نقلت اليه من اشخاص معادين للنشاط التركي ، ان الامير سعيدا تراس جمعية تدعو للكماليين في دمشق ، وان هدفه ان يصبح اميرا على سورية بمساعدة الاتراك . وقيل ان الامير التركي صباح الدين ، الذي ايد الحركة التحررية الكمالية، كان يدعم الكماليين في دمشق . وذكر مصدر موثوق للقنصل ان المؤيدين لتركيا في دمشق ارسلوا مصطفى فخري وداود مارديني ومحمود الخيمي الى انقرة للحصول على المال للاستمرار في الدعاية للكماليين(٧٥) .

ومن المرموقين دينيا في دمشق الذين عملوا للكماليين ابان قتالهم للفرنسيين وقبل فصلهم السلطنة عن الخلافة ثم الغاء هذه الاخيرة ، الشيخ الكتاني ، ولعله السيد مكي. وكان مغربي الاصل ، وفي دمشق من فضله على الشيخ بدر الدين الحسني. وقد زاره فيصل ابان حكمه ، وطلب منه مصطفى كمال الشخوص اليه ، ووافق الفرنسيون على سفره . وبعد عودته عمل في الدعاية للكماليين . وقيل ان جميل الالشي ، الذي كان يتردد على الشيخ الكتاني ، عملهو الاخر في الدعاية للكماليين(٧٦).

ويبدو ان اتفاقية تركيا مع فرانسا سرعان ما تناساهابعض السوريين على الاقل، وبخاصة دعاة الكماليين في سورية . وازداد نشاط هؤلاء الى درجة كبيرة . وبرز في هذا الميدان في دمشق ، في حزيران ١٩٢٢ ، كل من سعد الله نامق من حلب ، وامين بك جركس ، وغالب النائلي ، الكاتب الرئيسي في ديوان حاكم دمشق حقي بك العظم، والشيخ عبد الجليل الدرة . وقد وصف هؤلاء بانهم يبذلون جهدا كبيرا في نشر الدعاية التركية في سورية ، وكسبوا الى صفهم انور البكري ، قريب نسيب البكري ، ونشروا بيانا حثوا فيه العرب على عدم نسيان اصدقائهم القدامى الاتراك ، ودعوا للاعداد لثورة على الفرنسيين . وتضمن البيان وعدا من الاتراك بارسال كمية من الاسلحة في وقت قريب الى السوريين المؤيدين لهم .

وكان عدد من هؤلاء المؤيدين ناشطا آنذاك في جمعية عرفت بجمعية تخليص الشرق الادنى ، دعت في دمشق الى الثورة على الفرنسيين وتأييد الاتراك . وذكر ان برنامج الجمعية اتي به من انقرة الى دمشق على يد شخص يدعى محمد محيي الدين بك الذي كانت له علاقة بالبنك الزراعي في انقرة . وقيل ان هذه الجمعية جزء من حركة تعاون فرنسي ـ تركي هدفه تحقيق اتحاد اسلامي تحت رعاية فرانسا. ويدعو برنامج الجمعية الى الحكم الذاتي والاستقلال ، ويشجب تدخل الدول الاوربية ، مثل فرانسا وبريطانيا وامريكا ، في سورية بشكل خاص وفي مصر وفلسطين وغيرهامن البلاد الشرقية ، ويقول بالتعاون مع الشعوب الشرقية تحت شعار الشرق للشرقيين، ويذكر ان الاجانب قتلوا الاقتصاد الوطني الذي يجب تشجيعه . ويؤكد البيان للسوريين ان اربع عشرة دولة شرقية تؤيدهم . ولهذه الاهداف تشكلت هذه الجمعية في سورية ، وسترفع تقاريرها الى مقر الجمعية الرئيسي . ولا يذكر البيان مكان هذا المقر .

وضمت جمعية تخليص الشرق الادنى في عضويتها كلا من : اديب تقي الدين ، عبد الجليل الدرة ، عبد الحميد العطار ، عبد المحسن الاسطواني ، انور البكري ، سليم الملقي ، محمد البكري ، حمدي الجلاد ، صادق التميمي ، سليم الجيرودي،

محمد حسين ميركردي ، ابناء عبد الرحمن باشا اليوسف ، عطا العجلاني ، الشيخ محمد المجتهد ، صادق الميداني ، ابو الخير الفرا ، توفيق المنيني ،محمد الكزبري ، موسى كاظم ، جلال باقي ، حلمي عزيز ، داود مارديني ، محمود عابد ، ومعظم اسرة العابد وآل السكري ، عارف القدسي وعزت الخجا(٧٧) . وشكلت هذه الاسر ، الى جانب الضباط السابقين في الجيش التركي ، دعامة النفوذ التركي في سورية ، وذلك نظرا للامتيازات التيتمتعت بها سابقا والتي طمعت بالحصول عليها من جديد . كما ان فرنسا كانت تؤيد بعضهم .ومع ذلك شكل هؤلاء ، بتوجههم نحو تركيا ، اقلية سياسية بالمقارنة مع الفئات التي تعاملت مع الفرنسيين ، والجماعات الاكثر عددا التي قاومت الحكم الفرنسي (٧٨) .

ومما شجع على ازدياد نشاط الكماليين في سورية تحسن العلاقات بشكل مطرد آنذاك بين فرانسا وتركيا ، حتى انه ذكر ان الكماليين مارسوا ضغطا على فرانسا لتعيين صبحي بركات ، الذي عرف بنشأته وبميوله وبلغته التركية ،وبتسميته فيما بعد عضوا في البرلمان التركي ، رئيسا للاتحاد السوري في ٢٩ حزيران ١٩٢٢(٧٩) وطبيعي ان فرانسا ، هي الاخرى ، كانت راضية عنه لتخليه عن قيادة الثورة ضدها في منطقة انطاكية واعلانه الولاء لها .

وكانت فرانسا تمد تركيا بالعتاد الحربي ، بما في ذلك الطائرات ، لاستخدامه ضد المحتلين اليونانيين في غربي الاناضول . ويشحن العتاد من بيروت وطرابلس اما مباشرة الى ميناء مرسين او الى ميناء الاسكندرونة ومنه الى كيليكيا . وهدفت فرانسا من هذه المساعدة الى اقامة توازن مع النفوذ البريطاني فيالمنطقة(٨٠) .

ولم تخفف مساعدة فرانسا لتركيا من معارضة السوريين للانتداب الفرنسي. واستقبلت انتصارات تركيا على اليونانيين في الاناضول بمظاهر الفرح في دمشق وبالتظاهرات والاحتفالات في حلب . واطلق على مصطفى كمال لقب سيف الاسلام. وابرزت انتصاراته لان الوطنيين السوريين كانوايقاسون بدورهم منمقاومة الفرنسيين لهم(٨١) .واقيمت الصلوات في المساجد بهذه المناسبة . وذكر ان الاحتفالات اقيمت كل يوم في مسجد من مساجد حلب على نفقة دائرة الاوقاف(٨٢) . وارسل مصطفى كمال برقية الى مفتي دمشق يعلن فيها انتصاره على اليونانيين ويطلب اليه اقامة الصلوات في الجوامع لنصرة قضية الاسلام . واقيمت الصلوات في عدة جوامع في دمشق مساء ٢٢ ايلول .وارسلت برقية من بعض الشيوخ والاعيان الدمشقيين يهنؤون فيها مصطفى كمال. وفي بيروت جمعت عشرة الاف ليرة ذهبية وارسلت الى الكماليين (٨٣) . ويعلق القنصل البريطاني في بيروت على مظاهر الفرح هذه بان السكان

سروا فعلا بانتصارات مصطفى كمال على اليونانيين وتحديه الدول الاوربية وتناسوا موقف مصطفى كمال من الخليفة العثماني الذي جرد من صلاحياته كسلطان . ولكن السوريين لم ينسو بعد الماضي، وبخاصة تجنيد الاتراك لهم وارسال الالاف منهم الى جبهة اليمن حيث قتلوا(٨٤) . وخشيت العناصر غير الموالية لتركيا من اعادة احتلال تركيا لشمالي سورية على الاقل ،وربما للبلاد بكاملها . ومما ساعد على هذا التخوف ان بريطانيا والشريفيين في الاردن والحجاز كانوا منشغلين آنذاك بالتوسع الوهابي وحشده القوات على حدود المنطقتين . وزاد في الامر ان قائد الدرك في دمشق عرض في ٢٢ ايلول ١٩٢٢ على حوالي الفي ضابط تركي سابق يقيمون في دمشق التوظيف في لبنان الكبير . وبدا للناس ان القصد من ذلك اعادة تدريب هؤلاء الضباط لصالح الاتراك .

ونشط الكماليون في مجال توزيع المنشورات في سورية ، كما عملت بعض الصحف لصالحهم . وابرز هذه الصحف جريدة « فتى العرب » ، ذات التوجه الاسلامي التي عرف عنها موالاتها للكماليين(٨٥) . ولم يغب عن ذهن المراقبين في دمشق تساهل الفرنسيين تجاه توزيع المنشورات المؤيدة للكماليين وشدتهم بالنسبة لموزعي المنشورات الوطنية الذين صدرت الاحكام بسجنهم ، كما ذكرت تفاصيلها جريدة « الف باء » بتاريخ ٢٢ ايلول ١٩٢٢ و ٣ تشرين الاول ١٩٢٢و ٢٢ تشرين الثاني١٩٢٢. حكم على موزعي المنشورات الوطنية ،بموجب هذه الاحكام ، بالسجن مددا راوحت من سنة الى خمس سنوات .

وكانت اكثر المنشورات التركية رواجا صور مصطفى كمال ، وتحمل احداها ، التي وزعها دعاته في دمشق ، العبارات التالية بالعربية ، في الاعلى : وما النصر الا من عند الله ، وفي الجانب الايمن : حب الوطن من الايمان ، وفي الطرف الايسر : الوطن فوق كل شيء ، وفي الاسفل : محرك العواطف العثمانية والقائد العام للجيوش الوطنية بطل الاناضول دولة المشير الغازي مصطفى كمال باشا . ويلي ذلك اسم دار النشر وهي مكتبة الأمل ، بيروت ، شارع المعرض . ووزعت ايضا صورة اكبر لمصطفى كمال تحمل كتابة تركية(٨٦) .

ووزعت المنشورات الدعائية التركية في دمشق اما مجانا او بسعر اقل بكثير من سعر التكلفة . ويدل بيعها على رواجها ، كما ان تقاضي سعر رمزي عنها يضفي عليها الاحترام . وتظهر احدى الصور التي بيعت في دمشق انور باشا يقدم خريطة تركيا الى مصطفى كمال باشا . وكتب بالعربية على هذه الصورة : البطل انور باشا يهدي خريطة تركيا الى الغازي مصطفى كمال باشا عقب انتصار الجيش العثماني . ولفتت

انتباه الناس في هذه الصورة ان سورية تظهر على الخريطة باللون الاحمر وانور باشا يشير اليها باصبعه . وتظهر صورة اخرى الشيخ السنوسي ، الذي كان يقاتل في الاناضول الى جانب الكماليين، ومصطفى كمال باشا وصلاح الدين الايوبي وهم يحيطون بالقرآن الكريم . وكان الطلب شديدا على هذه الصورة ، وباعها الاولاد في الشوارع بسعر بخس . ومثلت صورتان اخريان حرية النساء في ظل الحكم التركي، وبيعتا في مجموعات كتب على غلافها بالفرنسية : جميلات شرقيات ، وبالتركية: هدايا استانبول وكان لهذه الصور رواج كبير بين النساء السوريات بسبب الازياء التي ظهرت فيها(٨٧).

وقد وصفت الدعاية التركية في سورية في تشرين الثاني ١٩٢٢ بانها ناجحة . ووضعت مبالغ كبيرة من المال بتصرفها . وكانت بعض الطبقات المحافظة والدنيا تؤيدها علنا . وقام بالترويج لها في الغالب شبان من اصول تركية ومحلية. واثار هذا التأييد خشية الطبقات العليا من اقطاعيين وبورجوازيين ومثقفين وطنيين الذين عارضوا النفوذ التركي . كما ان الجمع بين الدعاية الكمالية والدعاية البلشفية من قبل البعض اثار غائلة بعض المحافظين ، وكذلك حفيظة بريطانيا خشية تسرب ذلك الى فلسطين والعراق . لذا قرر القنصل البريطاني بدمشق التشدد في منح الكماليين والبلشفيين سمات الدخول الى مناطق الانتداب البريطاني .

وجرت محاولة آنذاك لانشاء حزب تركي بلشفي في سورية . واعتقل الفرنسيون كلا من مصطفى فخري وراجي افندي القباني ، لذهابهما الى أنقرة وتفارضهما مع الاتراك لهذا الغرض ، وكذلك لذهابهما الى بيروت لمقابلة محيي الدين باشا حاكم اضنة وكيليكيا وتبادل الراي معه حول انشاء هذا الحزب . وقد اعطاهما مائتي ليرة تركية ذهبية لانشاء الحزب ، ووعد ان يحصل لهما على ٢٥٠٠٠ ليرة لهذا الغرض. وقد اعترف راجي افندي القباني بهذه الوقائع امام محكمة عسكرية في دمشق بينما نفى زميله ذلك (٨٨) .

وطبيعي ان الكماليين لم يكونوا يعملون في فراغ ، لان الحركة الوطنية في سورية ضد الفرنسيين كانت مسيطرة على الساحة المحلية ، سواء في المدن ام في الارياف ، ويمثلها في المدن نخبة من الوطنيين تدعمهم تنظيمات سياسية وتحركات شعبية . وكان من ابرز هذه التنظيمات في السنتين الاوليين من الانتداب الفرنسي جمعية القبضة الحديدية . وتخرج معالجة هذه التنظيمات عن نطاق بحثنا .

وحدث في اواخر عام ١٩٢٢ تحول كبير في العلاقات الفرنسية ــ التركية ، بسبب حشد تركيا قواتها على حدودها الجنوبية وتهديدها باحتلال منطقتي الموصل والاسكندرونة وغيرهما من المناطق بحجة تسوية الحدود . وقد قرب هذا الخطر

المشترك بين بريطانيا وفرانسا ، وبرزت مشكلة الحدود بشكل عنيف منذئذ . وعادت تركيا الى دعم الثوار السوريين اللاجئين اليها في شن هجماتهم عبر الحدود ضد الفرنسيين في سورية .. ووجدت لجان كمالية متطرفة في عنتاب وكلس واورفه ، كانت على اتصال بالعناصر الموالية للكماليين في حلب وجوارها . كما كانت تقدم الدعم لمجموعات الثوار السوريين في جبل الزاوية وعلى العاصي . وكان ابرز هؤلاء المتطرفين الشيخ السنوسي ومركزه اورفه(٨٩) . وتأثرت الحالة الاقتصادية في حلب الى حد كبير من جراء استئناف هجمات الثوار الاتراك والسوريين عبر الحدود وتهديد قطاع الطرق للطريق التجاري بين حلب والاسكندرونة .

وانعكس هذا التطور في العلاقات الفرنسية ـ التركية على نشاط الكماليين في سورية ، اذ اخذت فرانسا في ملاحقتهم في اوائل عام ١٩٢٣ . ونشرت جريدة « فتى العرب » الدمشقية بتاريخ ٦ شباط ١٩٢٣ بيانا اذاعه الكولونيل بتشون ، مراقب الامن العام في لبنان الكبير ، الى رجال الامن العام هذا نصه : لقد علمت للمرة الثالثة ان بعضهم يبيع كتبا ورسوما قصد بث الدعوة الكمالية ، واتصل بي ان احد الباعة كان يعرض في شارع النبي خريطة سورية والعلم العثماني مرفوع فوقها على حلب وانطاكية وحماه فلذلك انبه الى ضرورة منع هذه الامور ومصادرة كل خريطة او رسم او كتاب من هذا الصنف(٩٠) . وفي حلب ، في الفترة نفسها ، اوقف الفرنسيون بيع كمية من صور مصطفى كمال التي كان يعرضها اصحاب المحلات في واجهات محلاتهم(٩١) .

وضرب الفرنسيون بقوة ضد جمعية ثورية تركية اتخذت اسم الحزب الثوري الوطني ، وكانت تعمل في حلب . ووزع هذا الحزب ، قبيل زيارة الجنرال ويغان المفوض السامي الفرنسي لمدينة حلب ، منشورا في مختلف انحاء المدينة ، كما بعث برسالة مؤرخة في ٢٧ ايار ١٩٢٣ ، ضمنها نسخة من المنشور ، الى القنصل البريطاني في حلب . ويقول القنصل ان لغة الرسالة العربية ركيكة وتظهر صياغة تركية . وجاء فيها ان رسالة وصلت الحزب الثوري من عنتاب تعلم بالوصول الى اتفاق بين حكومتكم (اي بريطانيا) وحكومتنا التركية . ولهذا فان حزبنا الوطني الحلبي ، الذي يرتبط مباشرة بالمجلس الكبير في انقرة ، يشكركم على هذا الاتفاق . وتضيف الرسالة ان الحزب الثوري امر بان يشرح الى سكان حلب مهمة الجنرال ويغان ، ولهذا اصدر الحزب المنشور وفقا للاوامر التي تلقاها من حزب الدفاع التركي . وتطلب الرسالة من القنصل المساعدة المادية والمعنوية ومنح الحماية الادبية لبعض الاشخاص اذا ماقبل ان يلتقي ومندوب الحزب . وتمضي الرسالة الى القول أن هدف الحزب طرد الفرنسيين وان تحركاته مبنية على تحركات الجيش التركي وحزب الدفاع . وتحمل الرسالة في النهاية اربعة احرف بمثابة التوقيع . ويبدأ المنشور باسم الله ثم يهيب

بالعرب ان يفيقوا من سباتهم . ويندد بمساوىء الفرنسيين ويقول ان الجيش الكمالي على اهبة الاستعداد للسير الى سورية ، ويطلب من السكان دعمهم له . ويشير الى ان الضباط الاتراك السابقين التحقوا بالجيش الكمالي واقسموا على دخول حلب رافعين العلم المقدس ، وعلى السكان ان يدعموهم . ثم يذكر كيف ان الفرنسيين بعد ان دعموا الاتراك قاموا ضدهم الان ، في حين ان انكلترا ، عدوتهم وحليفة امريكا ، قد عقلت وتفهمت الاتراك .

وقد اعتقل الفرنسيون اعضاء هذا الحزب الثوري ، وحاكموهم أمام محكمة عسكرية ، وحكموا بتاريخ ٩ ايلول ١٩٢٣ على عدد منهم بالسجن مددا راوحت بين خمس سنوات وعشرين سنة ، مع مصادرة اموالهم ونفي بعضهم . والذين حكم عليهم هم : بهجت بك ، علي اسحق ، محمد سليمان المعروف بابي سليم ، سليم الوراق ، الحاج احمد ابو قدرو المصري ، حمدي بك ، محمد صبري ، عبدو ابن قدري ، صفو المصري ، فتاح البيطار ، طاهر بن عبد القادر ، مصطفى بن علي الخربوطلي ، محمد صبري سليمان ، وهو مأمور في الشرطة ، وتوفيق حسن بك الشامي . وقد اطلق سراح الحاج احمد ابو قدرو المصري وطاهر بن عبد القادر وتوفيق حسن بك الشامي لان الحكم ضدهم لم يكن بالاجماع . كما انحي باللائمة ، اثناء المحاكمة ، على مدير شرطة حلب ، عزيز بك خياطة ، وهو من اصل عراقي ، لقوله بانه لا يعرف شيئا عن وجود هذا الحزب ، ثم طرد من الخدمة وامر بمغادرة حلب الى بغداد (٩٢) .

وبالاضافة الى محاولة الفرنسيين قمع الحركة المؤيدة للكماليين ، قام هؤلاء ، من ناحيتهم ، باغضاب عدد كبير من مؤيديهم داخل تركيا وخارجها حين الغوا السلطنة وابقوا على الخلافة في ١ تشرين الثاني ١٩٢٢ . ففي حلب مثلا ، حيث كان النشاط الموالي للكماليين قويا ، استقبل الغاء السلطنة وتجريد الخليفة من اية سلطة مدنية بالوجوم ، وبخاصة في اوساط رجال الدين ، الذين اعتبروا ذلك العمل خطيئة سياسية كبرى (٩٣) . ومع ذلك ، لم يشن الراي العام المتدين هجوما سافرا على الكماليين بسبب ذلك . وكانت « المنار » تعبر عن رأي الكثيرين حين قالت ان فصل السلطنة عن الخلافة والغاء الاولى هو خطيئة يجب الا تتخذ عذرا لاضعاف صمود الكماليين ضد الاستعماريين . فالكماليون يستحقون الدعم ، ويؤمل ان يعيدوا الاعتبار الى الخليفة في المستقبل (٩٤) . وكتب محمد جميل بيهم ، وهو مؤرخ لبناني ، في مجلة « العرفان » انبيروتية انه بالرغم من تصدي مصطفى كمال ومؤيديه للدين ، فهم ليسوا اعداء الاسلام (٩٥) . وعلقت « العرفان » التي استعرضت تاريخ الخلافة فيما بعد على الغائها بقولها : « فما هي باول قارورة كسرت في الاسلام » (٩٦) . وحين الغى الكماليون الخلافة في ٣ اذار ١٩٢٤ اصيب النشاط الموالي للاتراك في سورية بضربة كبرى (٩٧) .

واغتاظ الفرنسيون حين اعلن الشريف حسين خليفة ، لان ذلك سيثير الاضطرابات عليهم في سورية ، فقاموا باعداد عريضة لتوقيعها من علماء دمشق ضد خلافة الملك حسين (٩٨) .

والسؤال الذي يطرح نفسه بشأن ازدياد الشعور المؤيد لتركيا الكمالية في سورية هو: **الى اي مدى يعبر هذا الشعور عن رغبة حقيقية وعامة في العودة الى الحكم التركي ..؟** لقد أعجب السوريون ، كما أعجب غيرهم ، وبخاصة الشعوب التي كانت تناضل ضد الاستعمار الاوربي ، ببطولة مصطفى كمال وطرده الدول الاوربية من الاناضول لان السوريين انفسهم كانوا يرزحون تحت الحكم الاوربي . كما انهم قدروا مساعدة الكماليين للثورات السورية الاولى ، قبل ان يتحولوا عن دعمها اثر اتفاقهم مع فرنسا . ولم يغب عن زعماء الثورات السورية مغزى تحول تركيا عن دعمهم ، حين تعارضت مصلحتها مع مصلحتهم ، لذلك الحوا على الانتماء القومي بأكثر من الرابطة الدينية وهم المتدينون، كما رأينا في امثلة ابراهيم هنانو ويوسف السعدون وغيرهما .

وقد قوّم أحد المراقبين الغربيين في دمشق ، في ١٢ شباط ١٩٢٣ ، موقف السوريين من تركيا فقال بأنهم لا يرغبون بعودة الحكم التركي ، واذا كانوا قد أثاروا شعورا مواليا لتركيا فهدفهم تهديد الفرنسيين والانكليز لاعطائهم التنازلات ، واذا أبدوا العودة الى امبراطورية تركية فليتخلصوا من الانتداب وليس حبا بالامبراطورية . وعلق مراقب آخر في بيروت ، في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٣ ، بأن انتصارات مصطفى كمال على اليونان والدول الغربية جعلت المسلمين يتناسون تجريده الخلافة من السلطنة والغاء هذه الاخيرة . ولكن العرب ما زالوا يذكرون تجنيد الاتراك لهم وموتهم في حروب الامبراطورية (٩٩) . وذكرت تعليقات غربية اخرى من حلب ، في ١٢ شباط و ٣١ أيار ١٩٢٣ ، ان مؤيدي تركيا يمنون انفسهم بان الاتراك سيمنحونهم مقدارا من الحكم الذاتي أكبر مما يمكن ان يمنحهم اياه الانتداب الفرنسي . كما أن الشعور الموالي لتركيا بين سكان حلب خارج اطار الاتراك او من هم من أصل تركي هو ردة فعل ضد الفرنسيين وضد الاوضاع الاقتصادية السيئة لمدينة حلب في عهدهم بسبب فصل هذه المدينة عن اسواقها التقليدية في الاناضول ، وحتى عن بقية المدن السورية ، حين جعلت فرانسا ولاية حلب دولة قائمة بذاتها . وحتى المسيحيين في حلب ، الذين تضرروا كالمسلمين من سوء الوضع الاقتصادي في ظل فرانسا، كانوا يحنون الى وحدة اقتصادية مع الاناضول في ظل الاتراك ، رغم خوفهم من تدفق اللاجئين المسيحيين ، بما فيهم الارمن ، الى حلب من الاناضول(١٠٠) .

قضايا الحدود :

اثارت قضايا الحدود ، بين سورية وتركيا ، كثيرا من الحساسيات في العلاقات بين البلدين . وكانت منطقة الاسكندرونة في طليعة هذه القضايا . وكانت فترة الحكم العربي الفيصلي هادئة بالنسبة لحدود سورية الشمالية لان كلا من الحكومتين ، التركية والعربية الفيصلية ، كانتا منشغلتين بمقاومة الفرنسيين . ولكن الامير فيصل ابدى تخوفه من التحالف البلشفي ــ التركي ، وشكى الى اللنبي فيحزيران ١٩٢٠ من الخطر الذي اجتاز الحدود التركية الى سورية(١٠١) .

وبعد الاحتلال الفرنسي لسورية اصدر الجنرال غورو قرارا بتشكيل حكومة مستقلة في ولاية حلب ، اعتبارا من اول ايلول ١٩٢٠ ،تكون عاصمتها حلب . والحق لواء الاسكندرونة الذي كان تابعا للمنطقة الغربية الساحلية الموضوعة من قبل الحلفاء تحت النفوذ الفرنسي ، بحكومة حلب بدءا من ذلك التاريخ ، مع احتفاظه باستقلاله الاداري بموجب القرار الفرنسي رقم ٣١٩ تاريخ ٣١ آب ١٩٢٠ . وعهد باللواء الى متصرف مرتبط بحاكم حلب(١٠٢) .
ثم اصدر غورو تنظيما مؤقتا لدولة حلب نشرته جريدة « حلب » الرسمية بتاريخ ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٠ . وتقرر ان تشتمل حدودها الادارية على ثلاثة صناجق حلب والاسكندرونة ودير الزور(١٠٣) . وكانت دولة حلب واحدة من اربع دويلات اوجدها الفرنسيون في سورية انذاك ، والثلاث الاخرى هي : دمشق ، بلاد العلويين، ولبنان الكبير .

وفي اتفاقية الهدنة التي وقعتها فرانسا وتركيا في لندن في ١١ آذار ١٩٢١ ، حددت الحدود الشمالية لسورية بانها تبدأ من نقطة على الساحل تبعد حوالي ١٥ ميلا شمالي الاسكندرونة ، وتمر في ميدان اكبس ، ومنها باتجاه الجنوب الشرقي نحو كلس ، ثم شرقا على طول الخط الحديدي حتى نصيبين . واعطي الفرنسيون حق تشغيل الخط بين باياس وميدان اكبس لتامين المواصلات بين حلب والاسكندرونة .
وفي اواخر أيار ١٩٢١ ابلغ الاتراك الجنرال غورو ان هذا الاتفاق ليس في صالحهم وطالبوا بمناطق كبرى جنوبي الحدود تشمل الاسكندرونة وحلب . واتبع الاتراك ذلك بتحريك ثلاث فرق عسكرية يبلغ عدد افرادها ١٢٫٠٠٠ رجل الى منطقة الحدود . ورافق ذلك ارسال وفود تركية الى الشمال الشرقي من حلب ، والى الغرب من الخط الحديدي بين حلب وحماة ، والى الشرق منه بين حماه وحمص لاثارة المشاكل على الفرنسيين . وخشيت فرانسا من ان تستخدم روسيا البلشفية ، صديقة تركيا هذا التحرك التركي من إجل مصالحها(١٠٤) . وكانت روسيا تمد الكماليين بالسلاح

والعتاد بهدف تشديد قبضتهما معا على جمهورية ارمينيا التي سبق لتركيا ، بموجب معاهدة سيفر، في ١٠ آب ١٩٢٠ ، ان اعترفت بوجودها. وازالة جمهورية ارمينيا يسهل الاتصال بين روسيا وتركيا .

وعمدت فرانسا بفعل عوامل متعددة ، منها عدم احراز اي تقدم عسكري في كيليكيا ضد الكماليين، وتعرضها لخسائر كبيرة في حربها مع الثوار السوريين ـ الامر الذي اثار معارضة داخلية في فرانسا ـ وخشيتها من ازدياد النفوذ البريطاني المؤيد للغزو اليوناني في الاناضول والمسيطر في استانبول ، وانعكاس ذلك على الوجود الفرنسي في سورية ، ومحاولتها الحد من التسرب البلشفي الى تركيا ، عمدت الى توقيع اتفاقية شاملة مع حكومة مصطفى كمال في انقرة في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ ، عرفت باتفاقية فرانكلين ـ بويون ، وهو اسم المفاوض الفرنسي الذي وقعها .واستاء الحلفاء من هذه الاتفاقية واعتبروها خرقا لمعاهدة سيفر . ولكن الواقع ان الاتفاقية اطلقت يد الكماليين في التفرغ لقتال اليونانيين واحراج موقف الانكليز(١٠٥) . وادت الاتفاقية ، من ناحية اخرى ، الى خوف الارمن والمسيحيين من عاقبة انسحاب الفرنسيين من كيليكيا ، بأكثر مما خشوا سابقا انسحاب بريطانيا الكامل منها في تشرين الثاني ١٩١٩، فأخذوا يهاجرون الى حلب او مرسين ، قبل ان يبدا الفرنسيون باخلاء كيليكيا في ٤ كانون الثاني ١٩٢٢ . وادت الهجرة الى حلب الى مشاكل اجتماعية وسياسية هامة .

اعطت اتفاقية انقرة هذه للاتراك امتيازات في لواء الاسكندرونة ، التابع لدولة حلب ، اكثر من تلك التي حصلوا عليها بموجب اتفاقية ١١ اذار ١٩٢١ التي نصت على اقامة ادارة خاصة في منطقة الاسكندرونة(١٠٦) . وتنص البند السابع من اتفاقية انقرة على قيام سلطة ادارية خاصة في منطقة الاسكندرونة ، وعلى تمتع السكان الاتراك فيها بتسهيلات لتطوير ثقافتهم ، وعلى الاعتراف بالتركية لغة رسمية الى جانب العربية والفرنسية(١٠٧) . وكانت الاوساط الفرنسية تعتقد ان اقامة الحكم الذاتي في لواء الاسكندرونة لن يضعف من علاقاته الاقتصادية مع حلب التي احتاجته مثلما احتاجها، في هذا المجال ، عبر القرون . والتطور الهام ، على اية حال ، هو الاعتراف برسمية اللغة التركية(١٠٨) . وقد قدر القنصل البريطاني في حلب ، في تقرير له مفصل حول لواء الاسكندرونة ، في ٧ تشرين الثاني ١٩٢٣ ، ان نسبة الاتراك في اللواء ٣٨٪ يقابلها ٦٢٪ من العرب على اختلاف مذاهبهم (علويون ٢٨٪ ، سنة ٢٢٪ ، مسيحيون ١٢٪) (١٠٩) .

وبقي امر اللواء من الناحية القانونية على هذا الوضع ، اي انه يتمتع بادارة خاصة مع ارتباطه بحلب ، ومن خلالها بالسلطات العليا السورية المعنية ، في ظل

الانتداب الفرنسي ، سواء كانت هذه السلطات هي دولة حلب ، ام الاتحاد السوري الذي اعلن في ٢٨ حزيران ١٩٢٢ . وحين اعلنت الدولة السورية في ١ كانون الثاني ١٩٢٥ ، وضمت دولتي دمشق وحلب ، اخرج الفرنسيون اللواء من تابعيته لحلب وربطوه مباشرة برئيس الدولة السورية ، على ان يحتفظ بالادارة الخاصة به(١١٠) . وبقي اهم تطور في اللواء لصالح الاتراك هو اعتبار التركية لغة رسمية . ويذكر انه في اجتماع المجلس التمثيلي لدولة حلب احتج النواب العرب على استخدام بعض نواب انطاكية اللغة التركية . فتدخل المندوب الفرنسي (ركليس) وقال انه نظرا لكون اللغة التركية احدى اللغات الرسمية في اللواء ، بموجب اتفاقية انقرة ، فلا يمكن معارضة نواب تلك المنطقة من استخدامها شريطة ان تكتب سجلات المجلس الرسمية باللغة العربية فقط (١١١) .

ويبدو ان حكومة انقرة لم تكن تسيطر على الغلاة من الكماليين في مناطق الحدود. فلم تكن مثلا اللجان التركية المتطرفة في عنتاب وكلس واورفه براضية عن الامتيازات التي منحتها فرانسا لتركيا . لذا كانت تدعم الثوار السوريين اللاجئين الى تركيا في استئناف نشاطاتهم ضد الفرنسيين في سورية . كما نظرت الى اتفاقية انقرة على انها قصاصة ورق ، واعلنت انها تتطلع الى اليوم الذي تسلم فيه حلب والاسكندرونة الى تركيا (١١٢) .

ومع ذلك كانت المساعدات العسكرية الفرنسية للكماليين ، في اعقاب اتفاقية انقرة ، تنهال عليهم باتجاه استانبول واضنة ، بطريق الاسكندرونة ، وكذلك عن طريق حلب ومنها الى الحدود التركية ـ العراقية . وكان حجم هذه المساعدات كبيرا اذا ما قيس بتفاصيل العتاد الذي نقله الفرنسيون للاتراك بين آذار وآب ١٩٢٢(١١٣) . وكانت بعثة تركية قد وصلت بيروت ، برئاسة محيي الدين باشا ، في صيف عام ١٩٢٢، للتباحث مع الفرنسيين في عقد معاهدة جمركية مع سورية . ولكن هدف البعثة الاساسي كان اجراء محادثات عسكرية لاستمرار الدعم الفرنسي للاتراك . وبالمقابل اشتد العداء بين الكماليين وبريطانيا ، بسبب دعمها اليونانيين في حربهم مع تركيا ، الى درجة جعلت احدى صحف بيروت تصف الحرب بين اليونانيين والكماليين انها حرب بين بريطانيا وفرانسا .

وبعد ان هزم الكماليون اليونانيين واستعادوا منهم ازمير في ٩ ايلول ١٩٢٢ ، وقعوا مع الحلفاء ، وعلى راسهم بريطانيا ، هدنة مودانيا في ١١ تشرين الاول ١٩٢٢ وبموجبها استعادت تركيا سيادتها على استانبول والمضائق وشرقي تراقية . ثم وقعت تركيا معاهدة لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٣ التي اعترفت فيها الدول الكبرى بسيادة تركيا

على الاناضول وبالغاء نظام الامتيازات الاجنبية . واكدت هذه المعاهدة ما جاء في اتفاقية انقرة بين تركيا وفرانسا في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ من بقاء لواء الاسكندرونة ضمن الاراضي السورية . وبقي امر مطالبة تركيا بالموصل معلقا في معاهدة لوزان ، واتفق انه اذا لم يتم التوصل الى حل خلال سنة تحال الى تحكيم عصبة الامم .

كان الحصول على الموصل في مقدمة اهتمامات تركيا آنذاك . ويذكر ان الموصل كانت ضمن منطقة النفوذ الفرنسي بموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو ، ولكن الفرنسيين تخلوا عنها للانكليز في كانون الاول ١٩١٨ مقابل حصة من بترول الموصل . وكانت تركيا تطالب بالموصل بحجة ان الانكليز احتلوها في ٣ تشرين الثاني ١٩١٨ ، وذلك بعد اربعة ايام من انتهاء الحرب مع تركيا واعلان هدنة مودرس . واثار هذا الاحتلال مشكلة اخرى مع الاكراد . ولم ينقطع الاتراك ، ابان حربهم مع اليونان ، من ايلاء قضايا الحدود الجنوبية اهتمامهم . ولكنهم لم يكونوا على استعداد لحل هذه القضايا بالسلاح نظرا لانهماكهم في حروب الاناضول ولانصرافهم للوضع الداخلي. ومع ذلك ، كانوا يمدون الشيخ السنوسي في اورفه بالمال لشراء الدعم لهم في العراق(١١٤) . كما انهم اشتروا بالمال دعم زعيمين بدويين من قبائل العنزة يسيطران في منطقة دير الزور ـ اورفه ويتحكمان بالطريق بين حلب والعراق ، وهما حاجم ومجحم بن مهيد(١١٥) .

وبعد ان انتصر الاتراك على اليونانيين وجهوا قوات كبيرة ، اسموها جيش الشرق ، نحو الحدود مع العراق ، كان بعض عتادها فرنسيا نقل بالخط الحديدي من ميناء طرابلس الى حلب ، ومنها الى جرابلس حيث نقل في الفرات ، وبعدها بالخط الحديدي الى الشرق (١١٦) . واشيع آنذاك ، في ايلول ١٩٢٢ ، انه اذا ما استعادت تركيا الموصل فان فرانسا ستتخلى لها عن شمال سورية طمعا بالحصول على امتيازات اكبر في بترول الموصل وفي الخطوط الحديدية ، وفي تمديد الكهرباء في كيليكيا ، وان بريطانيا ستكون مشلولة الحركة ، في هذه الجهة ، بسبب انشغالها بهجمات الوهابيين المركزة في الجنوب(١١٧) . وتفسر هذه المعطيات السياسية اشتداد الدعاية الكمالية في سورية انذاك كما سبقت الاشارة الى ذلك .

ادى ازدياد الاستعدادات العسكرية التركية على الحدود السورية والعراقية وانتشار الشائعات بين السوريين عن قرب انسحاب الفرنسيين من المناطق الشمالية واحتلال الاتراك الى خشية كل من فرانسا وبريطانيا من التوسع التركي ، لذا حدث تقارب بين الدولتين ، وتباعد بين فرانسا وتركيا ، واضطرت فرانسا الى ان تصدر بيانا نفت فيه انها ستتخلى عن اي جزء من سورية لتركيا . وازاء الحشود التركية على الحدود السورية توجه الجنرال دي لاموت de Lamothe ، القائد العام للقوات

الفرنسية في منطقة حلب ، الى فلسطين في شهر كانون الاول ١٩٢٢ ، حيث اجتمع بالجنرال البريطاني تيودور Tudor . وتعطي تقارير الاستخبارات البريطانية ، المبنية على تقارير هيئة الاركان العامة الفرنسية ، بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩٢٢ ، تفصيلات ضافية عن اعداد القوات التركية وانواعها واسلحتها واماكن تواجدها ، مع خرائط تفصيلية لهذه الاماكن ، واسماء قادتها الاتراك(١١٨) .

وعقد اجتماع بين ضابط الارتباط البريطاني في بيروت والجنرال الفرنسي غودو Goudot ، رئيس اركان جيش الشرق ، تباحثا فيه بشأن تبادل المعلومات حول الاستعدادات العسكرية التركية على الحدود الشمالية . وابدى الجنرال غودو رغبته بان يتم تعاون وثيق بين الجيشين البريطاني والفرنسي كما كان عليه الحال في الحرب العامة . وقيل انه اذا هاجم الاتراك الموصل فانهم سيهاجمون ايضا شمال شرقي سورية ، وان الجنرال غودو مدرك تماما انه اذا تخلى الانكليز عن الموصل لتركيا فلن يكون باستطاعة الفرنسيين التمسك بالاسكندرونة وحلب ، والعكس صحيح ايضا . لذا كان الفرنسيون آنذاك يعارضون بشدة التخلي عن أي جزء من الاراضي السورية . وليعيق الفرنسيون نقل الجنود الاتراك الى الحدود السورية طلبت السلطات العسكرية الفرنسية من شركة فرنسية (كانت ستمنح امتياز اصلاح وتشغيل خط حديد بغداد) الامتناع عن اصلاح الجزء المعطل من الخط في جبال الامانوس بفعل احداث ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ (١١٩) .

وفي تقرير للملحق العسكري البريطاني في باريس ، ارفق برسالة السفير البريطاني فيها بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٩٢٢ ، ذكر انه اجتمع برئيس دائرة الاستخبارات العسكرية الفرنسية وعلم منه انه بنتيجة الضائقة الاقتصادية في فرنسا فقد خفضت جيش الشرق من ٣٥ الف الى ٢٦٫٥٠٠ جندي ، بما فيهم اعداد الفرقة السورية المقدرة بـ ٦٫٠٠٠ جندي ، وذلك اعتبارا من أول كانون الثاني ١٩٢٣ ، شريطة ان تبقى حدود سورية واوضاع الامن فيها هادئة على ما هي عليه الان ، وعلاقات فرنسا مع تركيا ودية . اما اذا ساءت هذه العلاقات فسيزاد عدد الجيش . واضاف المسؤول الفرنسي ان بلاده حين وجدت ان قدرة جيش الشرق لن تمكنه من مقاومة الكماليين في كيليكيا في عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ ، وتحت الحاح الضائقة الاقتصادية ، قررت الانسحاب من المناطق التركية بموجب اتفاقية انقرة . وباستتباب السلام مع الاتراك تقرر تخفيض جيش الشرق الى اعداده الحالية . وحين سئل المسؤول الفرنسي عن التخلي عن مناطق في سورية لتركيا نفى ذلك بشدة وقال ان فرنسا مؤتمنة على سورية من قبل عصبة الامم . ونبه الى ضرورة عدم تخلي بريطانيا عن الموصل لتركيا لان ذلك يجعل من الصعب على فرنسا عدم تسليم الاسكندرونة ، والعكس صحيح . ورحبت

السلطات الفرنسية المدنية والعسكرية في سورية بهذا الموقف الفرنسي في العاصمة من تركيا(١٢٠) ، وشددت من قبضتها ضد ازدياد النفوذ التركي والدعاية الكمالية في سورية كما سبق القول .

وفي الجانب التركي ، جرت مناقشات في المجلس الكبير في انقرة في كانون الاول ١٩٢٢ حول الحدود الجنوبية لتركيا ، حددت فيها المخططات التركية من قضايا الحدود . وشنت الصحف في كيليكيا حملة تطالب بمناطق الاسكندرونة وانطاكية . وذكرت هذه الصحف ان الحدود التي رسمتها اتفاقية انقرة غير منطقية لانها تترك، على حد قولها ، نصف مليون تركي في سورية . واتهمت فرانسا بعدم اعترافها بالمطالب التركية ، وبايجاد الزاس ـ لورين في سورية . وردت الصحف السورية بان ارقام السكان التي يوردها الاتراك خيالية ، وان عدد سكان لواء الاسكندرونة ٢١٢٫٠٠٠ نسمة منهم ٨٧الف تركي وتركماني والباقون هم عرب(١٢١) .

وازاء هذا الموقف التركي ازداد التقارب الفرنسي ـ الانكليزي ، وقام الجنرال تيودور بزيارة دمشق في ١١ نيسان ١٩٢٣ كمرافق رسمي لفريق رياضي وفي الواقع للتباحث مع الضباط الفرنسيين حول تنسيق الجهود العسكرية على الحدود الشمالية واثر مغادرته دمشق توجهت تعزيزات فرنسية الى الحدود الشمالية(١٢٢) .

وسمح الاتراك لمجموعات الثوار السوريين اللاجئين في اراضيهم باجتياز الحدود ومهاجمة الفرنسيين في شمال سورية .واشتدت هذه الهجمات بدءا من صيف عام ١٩٢٣ واستمرت في عام ١٩٢٤ . وهذا ما تؤكده ايضا مذكرات هؤلاء الثوار . وقام عطيل اسقاطي ورفاقه من المجاهدين الثوار بعمليات ضد الفرنسيين في منطقتي انطاكية وجبل الزاوية ،كما قام مصطفى الحاج حسين ونجيب عويد ونجيب البيطار بعمليات اخرى في منطقة ادلب . وهاجم يوسف السعدون صندوق مالية مملحة الجبول(١٢٣) . واشارت الصحف التركية ، الواردة الى حلب ، الى مناطق الاضطرابات هذه بانها « الجبهة » والى الثوار السوريين بانهم « اخوة وطن » يحاربون في سبيل الاستقلال والوحدة مع تركيا(١٢٤) . وبازدياد العداء بين تركيا وفرانسا ، اشتدت الدعوة الى الجامعة الاسلامية في سورية ، كما سبق القول ، وظهرت ملصقات في حلب في حزيران ١٩٢٤ تتحدث احداها عن المومسات وشرائهن العطور الاجنبية والامراض التي يسببنها وتهيب بالناس على اختلاف مذهبهم ان يلبسوا الملابس البسيطة(١٢٧) .

وانقسمت الصحافة السورية فيما يتعلق بتأزم الوضع على الحدود . وقد نقلت صحيفة « فتى العرب » الدمشقية ، الموالية لتركيا ، في عددها بتاريخ ١١ ايار ١٩٢٤

اقوال الصحف التركية واقترحت ضرورة اقامة حدود منطقية بين سورية وتركيا . واستعمال كلمة « منطقية » فيه الكثير من الغموض ويحتمل اكثر من تفسير . اما صحيفة « التقدم » الحلبية ، وهي من ابرز الصحف المستقلة ، فترى ان لا تعلق اهمية كبيرة على المطالب التركية في سورية لان الانتداب قائم على سلطة الدول وان فرانسا قادرة على حماية البلاد(١٢٦) . وفي الجلسة الثالثة لمجلس الاتحاد السوري ، كما اوردت جريدة « الف باء » الدمشقية بعددها رقم ١١١٩ وتاريخ ١٨ ايار ١٩٢٤، وافق المجلس على ارسال برقية الى الجنرال ويغان يبين له فيها اساليب الاتراك آنذاك ، وهي اشبه باساليبهم في عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ ، للاستيلاء على اراضي سورية ، ويحثه ، بموجب ميثاق الانتداب ، ان يدافع عن حدود سورية وعن اراضيها وشعبها (١٢٧) .

ثم نشبت ثورة كردية كبرى في شباط ١٩٢٥ في المناطق الشرقية من الاناضول بزعامة شيخ الطريقة النقشبندية . وكان الاكراد يحاولون اقامة دولة خاصة بهم . وادعى قادة الثورة انهم ناقمون على علمانية الكماليين والغائهم الخلافة . وشكت تركيا ان اثارة هذه المشكلة تم بتحريض من بريطانيا لالهائها عن المطالبة بالموصل . ونقلت تركيا اكثر من ٣٥٫٠٠٠ جندي عبر سورية ، بطريق الخط الحديدي المار في كيليكيا وشمال سورية . وتعاون الفرنسيون من جديد مع الاتراك باعطائهم التسهيلات اللازمة لنقل الجنود والعتاد ، وحتى بتزويدهم بالطائرات . وقضى الاتراك على الثورة في نيسان ١٩٢٥ .

وكان هذا الدعم الفرنسي لتركيا مؤقتا املاه خطر ثورة الاكراد من ناحية ونذر قيام الثورة السورية الكبرى من ناحية اخرى . واضطرت فرانسا الى اجراء تنقلات بين قواتها على الحدود الشمالية وسحبت الجنود المراكشيين من حلب ووجهتهم الى الجنوب واحلت مكانهم جنودا من مدغشقر . وساءت العلاقات الفرنسية ـ البريطانية آنذاك بسبب اتهام فرانسا بريطانيا بتشجيع الثورة ضدها في سورية . وكانت بريطانيا قبل ذلك قد حاولت التقرب من تركيا وعرضت عليها مساعدتها في سورية مقابل التخلي عن الموصل . وقد نشرت صحيفة « اوم ليبر » الفرنسية Homme Libre بعددها بتاريخ ٢٧ ايار ١٩٢٤ مقالا بعنوان « مؤامرة انكليزية ـ تركية ضد فرانسا في سورية » ضمنتها برقية من استانبول تقول ان الحكومة البريطانية تعرض مساعدة تركيا في سورية والبلقان مقابل موافقة تركيا على القبول بوجهة النظر البريطانية فيما يتعلق بالموصل(١٢٨) .

واثارت تركيا من جديد قضية الحدود بينها وبين سورية . وكانت لجنة سورية

برئاسة الكولونيل ماي Mailles قد تشكلت قبل اربع سنوات ، بموجب المادة الثامنة من الاتفاقية الفرنسية ــ التركية في انقرة ، ولكنها لم تقم باكثر من عقد الاجتماعات . وتوجه الكولونيل ماي الان الى انقرة بشان قضية الحدود وقيل انه احرز بعض التقدم . وقام فرانكلين ــ بويون هو الاخر بزيارة الى انقرة لهذا الغرض . وعينت تركيا احد ضباطها الاحتياط وهو طلعت بك قنصلا لها في حلب (١٢٩) .

وفي الوقت الذي كانت فيه الثورة السورية في اوجها برزت مشكلة اخرى بين الاتراك وسورية حول حق حلب بحصة من مياه نهر قويق الذي ينبع من الاناضول وتشكل مياهه المصدر الرئيسي لري بساتين حلب . وكان الاتراك قد حولوا مياه النهر عن حلب . وسبق ان تقرر بموجب اتفاق فرنسي ــ تركي ان تحصل حلب على حصة من مياه هذا النهر مقابل حصة اخرى لتركيا . ولم تُفد زيارة لجنة رسمية من حلب الى كلس للتباحث في هذا الامر (١٣٠) .

واتجهت الانظار في هذه الاثناء الى قضية الموصل والقرار الذي ستتخذه بشانها عصبة الامم . وكانت معاهدة لوزان في ١٩٢٣ قد اقرت بقاء الموصل تحت الاحتلال البريطاني الى ان يتم التوصل الى اتفاق بشانها . واذا لم يتم الاتفاق خلال سنة فستعرض القضية على عصبة الامم للتحكيم . وبالفعل رفعت قضية الموصل الى العصبة في عام ١٩٢٥ . وعينت لجنة دولية لمعالجتها . وقامت تركيا بنقل قوات عسكرية كبيرة الى جبهة الموصل بواسطة الخط الحديدي في شمال سورية . وكانت فرانسا آنذاك منشغلة بالثورة السورية ضدها . واحتجت بريطانيا لدى فرانسا لسماحها بمرور القوات التركية في الاراضي السورية (١٣١) .

ومما يدل على ترابط الاحداث في المنطقة كلها ما نشرته صحيفة سان فيل Sans Fil الباريسية الواسعة الاطلاع حول قضايا الشرق الادنى ، في عددها الصادر بتاريخ ١٨ ايلول ١٩٢٥ ، بان الوضع في سورية مرتبط بقضية الموصل التي ستملي على تركيا ما ستتخذه بشأن القضية السورية . فاذا جاء قرار لجنة التحكيم في جنيف لصالح ضم الموصل الى تركيا فالثورة السورية ستسير ببطء ، اي ان تركيا لن تدعمها واذا كان الامر عكس ذلك فسيكون رد الفعل التركي موازيا لما ستتخذه في الموصل . واضافت الصحيفة ان عشرين الف مقاتل سوري مسلحين ومنظمين في لجان موزعة على انحاء البلاد ، بادارة لجنة سورية ثورية تقيم خارجها ، سيشاركون في الثورة ضد فرانسا (١٣٢) .

جاء تقرير لجنة التحكيم التي شكلتها عصبة الامم للنظر في قضية الموصل لصالح

بريطانيا . وبناء على هذا التقرير وافق مجلس عصبة الامم في ١٦ كانون الاول ١٩٢٥ على اعطاء الموصل للعراق شريطة ان يستمر الانتداب البريطاني على العراق لمدة خمس وعشرين سنة . واحتجت تركيا بان قرار المجلس كان لارضاء بريطانيا لا للتحكيم في الخلاف . وردت بان عقدت في اليوم التالي ، في ١٧ كانون الاول ، اتفاقية جديدة من الصداقة وعدم الاعتداء مع الاتحاد السوفياتي.

وطرأ تحول في موقف تركيا من الثوار السوريين اللاجئين اليها فبعد ان مانعت في تاييد هؤلاء للثورة السورية الكبرى عند قيامها سمحت لهم ، بفعل هذه التطورات ، في اجتياز الحدود ومهاجمة الفرنسيين(١٣٣) . ونشرت صحيفتان في بيروت هما: «لاسيرى La Syrie » ، وهي صحيفة شبه رسمية تصدر بالفرنسية ، وصحيفة « لسان الحال » التي تنطق بلسان الماسونيين الاحرار من العرب ، مقالين متشابهين بتاريخ ١٧ كانون الاول ١٩٢٥ . ويشير المقالان الى محاولة لاقامة تحالف بين الثوار في جنوب سورية والاتراك لمضايقة الفرنسيين في شمال سورية وفي وسطها ، في منطقة حماة ـ حمص (١٣٤) .

وقد أرسل القائمون بالثورة السورية مبعوثين لتنظيم الثوار في المنطقة الشمالية ونشر الثورة فيها ضد فرانسا .وذكرت الصحف ان المؤتمر السوري ـ الفلسطيني كلف يحيى بك حياتي ، وهو من دمشق ومعروف بميوله للكماليين ،بتعبئة ثوار الشمال والاتصال بتركيا . واشيع ان فرانسا القت القبض على مبعوثيه في الشمال في اوائل كانون الاول ١٩٢٥ .وذكر ان يحيى بك حياتي سافر الى انقرة والتقى مع مصطفى كمال والسفير الروسي فيها . ولم تتوافر معلومات حول النتائج التي اقترنت بها محادثاته(١٣٥) .

وتوجه المفوض السامي الفرنسي الجديد هنري دي جوفنيل الى حلب في ١٠ كانون الاول ١٩٢٥ ، بعد ايام من وصوله الى بيروت ، ليحول دون انضمام المنطقة الشمالية الى الثورة السورية . ووصل الى حلب في الوقت نفسه رئيس الدولة السورية صبحي بركات للمهمة ذاتها . وبعد ذلك بايام استقال صبحي بركات من منصبه في ٢١ كانون الاول احتجاجا على السياسية الفرنسية . واستقال كذلك في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٦ حاكم ولاية حلب نوري باشا الملاح احتجاجا على قمع الفرنسيين التظاهرات الوطنية فيها(١٣٦) .

وكانت الحكومة الكمالية ، في هذه الاثناء ، مهتمة بقضايا الاصلاح الداخلي وباكتشاف مؤامرة لاغتيال مصطفى كمال في ١٥ حزيران ١٩٢٦(١٣٧) ، لذا اقتصر عملها،

بالنسبة للثورة السورية ، على تشجيع الثوار السوريين اللاجئين اليها في العمل ضد فرانسا . ويروي يوسف السعدون في مذكراته تفاصيل الهجمات التي قام بها ورفاقه في الجهاد ، مثل نجيب عويد ومصطفى الحاج حسين وعقيل اسقاطي ، عبر الحدود السورية في المناطق الشمالية . ويقول السعدون انه ارسل اكثر من كتاب الى زعماء الثورة للحصول على الخرطوش ولم يتلق جوابا ، ولو فعلوا ، كما قال ، لقطع علاقته وثواره بالاتراك الذين كانوا يلحون عليهم للتخلي عن نشاطهم وعودتهم . وعبثا حاول الاتصال بكبار الاقطاعيين في المنطقة لمده بالمعونة الضرورية . واضطر هؤلاء الثوار ، تحت ضغط الفرنسيين ، الى العودة الى تركيا في ٢٨ نيسان ١٩٢٦ . وهكذا انتهت سلسلة من الثورات الهامة في شمال سورية ، بدأت عام ١٩١٨ ، ولم تتمكن الان بسبب ضعفها وانقطاع الدعم عنها من توحيد جهودها مع الثورة السورية الكبرى(١٣٨) .

وعادت المفاوضات من جديد بين فرانسا وتركيا لتحديد الحدود . وسافر الى انقرة لهذه الغاية المفوض السامي الفرنسي دي جوفنيل ، وتوصل الطرفان الى توقيع اتفاقية بينهما في انقرة في ٣٠ ايار ١٩٢٦ ، وقعها عن فرانسا سفيرها في انقرة البير سارو A. Sarraut ، وعن تركيا وزير خارجيتها توفيق رشدي بك . وجاء في عنوان الاتفاقية انها اتفاقية صداقة وحسن جوار تركي ـ سوري . كما جاء في مقدمتها انها مبنية على اتفاقية انقرة في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ . وقد وافقت فرانسا على الاتفاقية ونشرتها جريدتها الرسمية في ٢٧ آب ١٩٢٦ . وعرفت هذه الاتفاقية باتفاقية انقرة الثانية ، وقد نصت على تشكيل لجنة فرنسية ـ تركية لتخطيط الحدود على اساس ما ورد في اتفاقية انقرة الاولى وما اتفق عليه بموجب البروتوكولات الملحقة بالاتفاقية الجديدة . وبموجب البروتوكول رقم ١ الملحق بالاتفاقية والذي سبق ان وقع عليه دي جوفنيل وتوفيق رشدي بك في انقرة في ١٨ شباط ١٩٢٦ ، حول تحديد الحدود ، اعتمدت اتفاقية انقرة الاولى ولكن ادخلت عليها بعض التعديلات لصالح تركيا بحيث امتدت الحدود داخل الاراضي السورية لبضع كيلو مترات في بعض المناطق . وتبدأ الحدود من البحر جنوبي مصب نهر باياس بكيلو متر واحد ، كما انها تمتد جنوبا بمقدار سبعة كيلو مترات عندمدينة كلس . وجرت مثل هذه التعديلات الطفيفة على نقاط اخرى من الحدود (١٣٩) .

وقد استاء السوريون من هذه التعديلات كما استاؤوا اصلا من استبعادهم من المشاركة في المفاوضات التي ادت الى توقيع اتفاقية الحدود هذه والتي ناقشت امور بلادهم(١٤٠) . وفي رسالة رفعها احسان الجابري والامير شكيب ارسلان ، بصفتهما مندوبين عن المؤتمر السوري ـ الفلسطيني والاحزاب المطالبة بالاستقلال السوري ، الى رئيس مجلس عصبة الامم واعضائه في جنيف ، بتاريخ ١٥ آذار ١٩٢٦، احتجا على

عقد فرانسا وتركيا الاتفاقيات على حساب الارض السورية وكانها ارض الجمهورية الفرنسية ، وطالبا بان تشرك سورية في كل الاتفاقيات التي تتعلق بها (١٤١) .

اما لواء الاسكندرونة فقد سبق ان انفك ارتباطه بدولة حلب بموجب المرسوم التنظيمي الذي اصدره الجنرال ويغان برقم ٢٩٨٠ وتاريخ ٥ كانون الاول ١٩٢٤ ، والحق بدولة سورية ، التي تشكلت من دولتي حلب ودمشق ، اعتبارا من اول كانون الثاني ١٩٢٥ . واتخذ مجلس اللواء التمثيلي قرارا في ٢٠ اذار ١٩٢٦ باعلان استقلاله عن دولة سورية وتشكيله دولة مستقلة ، وطالب المفوض السامي الفرنسي بالموافقة على ذلك . وخشيت سورية ان يكون ذلك مقدمة لضم اللواء الى تركيا . ولكن هذا المجلس عاد وعدل عن قراره باغلبية تسعة اصوات مقابل صوت واحد ، وذلك بعد اقتناعه بحجج مندوبي رئيس دولة سورية الداماد احمد نامي وهما : يوسف الحكيم وزير العدل وشاكر نعمت الشعباني وزير المالية . وبقي اللواء محتفظا باستقلاله الاداري(١٤٢) .

وبالرغم من كل هذه التسويات كانت قضايا الحدود تثار بين الحين والاخر واللجنة المشتركة الفرنسية ـ التركية تنعقد هي الاخرى بين الحين والاخر . وعين لرئاسة اللجنة جنرال دانمركي زار حلب وانقرة في تشرين الثاني ١٩٢٦ ، ثم استقال بسبب صعوبة الوصول الى حل المشاكل المعلقة . وشكلت لجنة اخرى في اذار من العام التالي(١٤٣) .

وجرت محاولات ، في هذه الاثناء ، لتبادل الرعايا بين البلدين بموجب اتفاقية انقرة الثانية وملحقاتها . وقدر عدد السوريين في تركيا في عام ١٩٢٧ ، بالفين ، والاتراك في سورية بخمسة عشر الفا ، وذلك بعد ان اعطوا حق اختيار الجنسية التي يرغبون بها (١٤٤) .

وبهذا نكون قد استعرضنا مرحلة حافلة بالتطورات في العلاقات السورية ـ التركية من خلال الاوضاع الدولية المستجدة في المنطقة .

الهوامش

(١) انظر الترجمة الانكليزية لهذه الرسائل في :
Foreign Office dispatches (FO) , 371,3384 E 6758, Director of Military Intelligence , 15 October 1918 .

(٢) يوسف الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٠، ص١٥–١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٨، ٥٨، ١١٤، ١٢٢ ــ ١٢٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٤ . وانظر نص الخطاب الكامل في : ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، بيروت ، ١٩٤٧ .

(٦) كان يطلق هذا اللقب ، عند نشأة الامارة العثمانية ، على امارات التركمان الغزاة في الاناضول ، ومنها امارة عثمان ، وذلك منذ القرن الحادي عشر ، لان هذه الامارات كانت تغزو اعداء الدين .

(٧) للحصول على تفاصيل وافية حول هذه التطورات انظر :
B.Lewis , The Emergence of Modern Turkey, 2 nd ed.,Pb., OUP 1966, PP. 238 - 264 ; G.Lenczowski, The Middle East in World Affairs , 4 th ed . Pb ., Cornell , 1981 , PP . 98-107 .

(٨) انظر مثلا سجلات المحاكم التجارية بدمشق ، مجلد رقم ١٤٧ ، ص ١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٦٣ .

(٩) انظر مثلا سجلات المحاكم التجارية بدمشق ، مجلد رقم ١٤٩ (بعض سجلات المحاكم الاخرى مدرجة تحت عنوان المحاكم التجارية).

(١٠) انظر نص الكتاب والتواقيع في :
FO, 371,4181 E 88766, C'Ple , 28 May 1919 .

(١١) انظر النص الكامل للاتفاقية بالفرنسية وتقرير المخابرات البريطانية حولها في :
FO, 371, 4233 E 6779 , I.C. 537, (C'Ple) 3 August 1919 .
(Traité Secret entre les Gouvernements Turc et Arabe Signé par Emir Faycal et Moustafa Kémal le 16 Juin 1919 à Alep) .

(١٢) FO, 371 , 4182 E 6778 , B.I. 4963, (C'ple) 16 August 1919 (Report dated 24. 7.19 , titled Turkish - Arab Pan - Islamic Activities-)-.

(١٣) انظر تفاصيل ذلك في كتاب : الدكتورة خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ ــ ١٩٢٠ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١ ، ص١٥٤ وبخاصة الهامش ١ وانظر تفاصيل اخرى في :
Zeine N.Zeine , The Struggle for Arab Independence , Beirut, 1960 , PP, 147, n.2, 148.

(١٤) الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، ص ٧٤ ، انظر نص الخطاب في الحصري : ص ٢١٢ ــ ٢١٧ .

(١٥) National Archives (Washington)(NAW), Records of the Department of State , M 722 , roll No. 8 , Dispatch number 463 , Aleppo . 28 February 1920 .

(١٦) FO , 371 , 4233 E 6778 (Translation of a Proclamation issued by the Mustapha Kemal Party in Aleppo about 9/10/19) .

(١٧) FO , 371 , 4186 E 6749 , Damascus , 15 October 1919 .
NAW,M 722, r. 8. No . 498 , Aleppo, 1 May 1920 .

(١٩) NAW,M 722, r.8, Aleppo, 14 June 1920, C'ple, 30 June 1920.

(٢٠) NAW ,M 722, r.8, No. 520, Aleppo, 17 June 1920.

(٢١) الحصري ، ص ١٦١ ــ ١٦٢ ، ١٦٥ ــ ١٧٨ ، الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي،١٧٩ــ١٨٠ .

(٢٢) FO , 371 , 5036 E 7277/2/44 , Cairo, 23 June 1920 .

(٢٣) NAW , M 722 , r . 8. No. 526, Aleppo, 3 July 1920 .

(٢٤) NAW, M 722, r. 8, No. 598, Aleppo , 17 December , 1920.

(٢٥) NAW, M 722, r.8, No. 600, Aleppo, 20 December , 1920 .
FO , 371, 6453 E 854/117. 89, Beirut, 30 December 1920.

(٢٦) انظر نص الاتفاقية في :
Ministére des Affaires Etrangères (AE),Quai d'Orsay Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban, Paris, vol. 35, pp. 182-182, E. 313. 1., Londres, 11 mars 1921 .

(٢٧) الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، ص ١٦٨ ، سورية والانتداب الفرنسي، بيروت ، ١٩٨٣ ،ص ٨٦ ، ١٢٧ .

(٢٨) انظر تفاصيل ذلك في :ادهم آل الجندي ،تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي ، دمشق ١٩٦٠ ، ص ١٢ ، ١٣٠ ، يوسف السعدون ، مذكرات يوسف السعدون عن ثورة هنانو ، دارالوثائق التاريخية ، القسم الخاص ، الوثيقة ٢١ ، ص٤ ــ ٦،٥ ــ ١١ (مكرر) ، ابراهيم الشـغوري ، مذكرات ابراهيم الشغوري عن ثورة هنانو ، القسم الخاص ، الوثيقة ٢٢،ص ٦ــ٧ .

(٢٩) FO, 371, 5035 E 4459/2/44, Cairo, 20 April 1920 .

(٣٠) الجندي ، ص ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٦٤ ــ ٦٦ ، ١٣٩ ، السعدون ، ص١١ ، الشغوري ، ص ٢ ، الحكيـــم ، سورية والعهد الفيصلي ، ص ١٦٨ .

(٣٢) FO, 371, 5039 E 10316, Cairo, 12 August 1920 (including dispatch from American Consular Service in charge of British interests,Aleppo, 30 July 1920) .

(٣٣) الشغوري ، ص ١٠ــ١١ ، الجندي ، ص ٧٤ .

(٣٤) السعدون ، ص ١٣

(٣٥) الشغوري ، ص ١٠ ـ ١١ ، الجندي ، ص ٧١ .

(٣٦) الشغوري ، ص ١٢ـ١٣ ، الجندي ، ص ٧٤ .

(٣٧) الشغوري ، ص ٤٢ .

(٣٨) الجندي ، ص ٧٥ ، ٧٩ ـ ٨٠ .

(٣٩) السعدون ، ص٣٦ .

(٤٠) المصدر السابق ، ص٤٥ .

(٤١) المصدر السابق ، ص ١٢ـ١٣

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٣٥، الشغوري ص ٤٢ ـ ٤٣ ، الجندي ص ٩٠ـ٩١ .

(٤٣) الجندي ، ص ٣٩ـ٤٠ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٤٨ ، الشغوري ، ص ٢٦ـ٢٧ ، ٣١ ، ٣٣،السعدون ، ص ٢٢،٢٧،٣٢ .

(٤٥) NAW, M722, r. 8, No. 634 , Aleppo , 31 March 1921.

(٤٦) السعدون ، ص ٤٥ ـ ٦١ ، الشغوري ، ص ٤١ ، الجندي ، ص ٥١.
وانظر ايضا هامش ٢٦ .

(٤٧) ص، ٤١ .

(٤٨) FO, 371 , 6454 E 5715/117/89 , Beirut, 3 May 1921 .

(٤٩) AE , Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban , vol. 117 , Beyrouth, 5 juin 1922 .

(٥٠) FO , 371, 3558 E 1085, Paris , 7 November 1925 .

(٥١) الشغوري ، ص ٣٦ـ٣٩ ، السعدون ، ص ٣٠ .

(٥٢) الشغوري ، ص ٤١ـ٤٢ ، الجندي ، ص ٤٩ـ ٥٠.

(٥٣) الجندي ، ص ١٢٥

(٥٤) ص ٤١ .

(٥٥) FO, 371, 6455 E 3362/117/80 , Beirut , 1 August 1921 , 7845 E 597 /274/89, Colonial Office to Foreign Office , 16 January 1922; AE, Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban , vol. 36, P. 162 .

(٥٦) AE, Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban, vol. 36, P.161 .

(٥٧) الشغوري ، ص ٣٦ ـ ٣٩ ، السعدون ، ص ٣٠، غالب العياشـي ، الايضاحـات السياسية، بيروت ، ١٩٥٤ ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٤ .

(٥٨) الجندي ، ص ٤٠ـ٤٣ .

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٥٤ـ٥٧. انظر تفاصيل ذلك في :
FO, 371, 945 E 9810/117/89, Paris, 29 August 1921 (Le Temps, Paris, 26 August) , E 11026/117/89, Beirut, 24 September 1921, E 11482/117/89, Beirut, 5 October 1921 ; AE, Levant , 1918 - 1929 , Syrie - Liban , vol. 40, p. 138, Beyrouth, 5 juin 1922.

(٦٠) المصدر الفرنسي السابق ، وانظر ايضا :
FO, 371 , 7847, p.69 (Translation of French Report on the situation in Syria and Cilicia, 26 th May to 10 th June 1922) .

(٦١) الشفوري ، ص ٤٤ـ٤٥

(٦٢) السعدون ، ص ٤٥ ـ ٤٧ .

(٦٣) « المنار » مجلد ٢٢، جزء ١٠ (١٣٤٠/١٩٢١) ، ص ٧٤٢ .
وانظر ايضا :
FO, 371, 4653 E 3013/117/89, Beirut, 21 February 1921

(٦٤) AE, Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban, vol. 35, p.138, IV annexe, Télégramme à M. R. de Caix, HCF , Beyrouth, Homs, 2 décembre 1920.

(٦٥) FO, 371, 6455 E 6280/117/89, Damascus, 18 May 1921 .

(٦٦) FO, 371, 6454 E 6280/117/89, secret Intelligence Service Report, 25 May 1921.

(٦٧) FO, 371, 6455 E 9105/117/89, Aleppo, 23 July 1921 .

(٦٨) FO, 371, 6455 E 9296/117/89, Damascus, 29 July 1921, 6456 E 9657 /117/89 , Damascus , 9 August 1921 , 6457 E 11532/ 117 / 89 , Damascus, 27 September 1921.

(٦٩) FO, 371, 6463 E 11983/11978/89, Damascus, 17 October 1921.

(٧٠) FO, 371, 6463 E 12243/11978/89, Damascus, 24 October 1921.

(٧١) FO, 371, 6462 E 12485/11978/89, E 14239/11978/89, Damascus, 9 December 1921.

(٧٢) FO, 371, 6463 E 14236/11978/89, Damascus, 13 December 1921.

(٧٣) FO, 371, E 13741/13741/89, Damascus, 24 November 1921.

(٧٤) الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، ص ١٩ـ٢٠ .

(٧٥) FO, 371, 7847 E 6605, Damascus , 19 June 1922.

(٧٦) FO, 371, 9056 E 2857/2857/89, Damascus, 1 March 1923.

(٧٧) FO, 371, 7847 E 6857, 274/ 89, Damascus , 27 June 1922;
NAW , M722, r.11, Damascus, 14 August 1922.

(٧٨) NAW, M722, r 8, No. 284, Damascus, 29 September 1922.

FO, 371, 7849 E 14041/274/89, Damascus, 30 November 1922. (٧٩)

NAW, M722, r.8, No. 780, Aleppo, 3 March 1922, No. 844, Aleppo, 28 August 1922; FO, 371, 7848 E 9298/274/ 89, War Office, 14 September 1922. (٨٠)

NAW, M 722, r.8,Telegram, Beirut, 30 September 1922,Damascus, 29 September 1922, No. 854, Aleppo, 29 September 1922, No. 802, Beirut, 10 October 1922. (٨١)

FO, 371, 7848 E 10963/274/89, Aleppo, 27 September 1922. (٨٢)

FO, 371, 7848 E 10967/274/89, Damascus, 23 September 1922. (٨٣)

FO, 371, 9053 E 867/867/89, Beirut, 1 January 1923. (٨٤)

FO, 371, 7846 E 2765/274/89, Damascus, 23 February 1922, 7847 7847 5510/274/89, Damascus, 13 May 1922. (٨٥)

NAW, M 722, r.8, No. 292, Damascus, 13 October 1922. (٨٦)

NAW, M722, r.8, No. 309, Damascus, 16 November 1922. (٨٧)

FO, 371, 7849 E 13430/274/89, Damascus, 16 November 1922. (٨٨)

FO, 371, 7847 E 5759, Beirut, 25 May 1922, 7874, PP. 30 - 33 (Translation of French Secret Report on the Situation inSyria and Cilicia for the Period lst to 20 th May, 1922). (٨٩)

NAW, M 722, r. 11, No. 358, Damascus, 13 February 1922. (٩٠)

FO, 371, 9055 E 2345/2204/89, Aleppo, 12 February 1923. (٩١)

FO, 371, 9053 E 6332/867/89, Aleppo, 31 May 1923, E 9385/ 867/89, Aleppo, 5 September 1923, E 9623/867/89, Aleppo, 10 September 1923. (٩٢)

FO, 371, 7849 E 14040/274/89, Beirut, 4 December 1922. (٩٣)

« المنار » مجلد ٢٣، جزء ٩ (١٣٤١/١٩٢٢) ص ٧١٦ – ٧١٨ . (٩٣)

« العرفان » ، مجلد ٩ (١٣٤٢/١٩٢٢) ، ص ٦٢٢–٦٢٧. (٩٥)

المجلد ٨ (١٣٤١ – ١٣٤٢/١٩٢٢ – ١٩٢٣) ، ص ١٥٨ . (٩٦)

FO, 371, 10160 E 4178/218/89, Aleppo, 30 April, 1924. (٩٧)

FO, 371, 10164 E 4171/4171/89, Damascus, 24 April 1924. (٩٨)

FO, 371, 9053 E 867/867/89, Beirut, 10 January 1923. (٩٩)

FO, 371, 9055 E 2345/2204/89, Aleppo, 12 February 1923, 9053 E 6332/867/89, Aleppo, 31 May 1923. (١٠٠)

FO, 371, 5036 E 2277/2/44, Cairo, 23 June 1920. (١٠١)

FO, 371, 5040 E 12976/2/44, Beirut, 5 October 1920. (١٠٢)

(١٠٣) FO , 371 , 6453 E 485/117/89 , (Cairo) , 30 December 1920 .

(١٠٤) FO , 371 , 6455 E 8309 , Enclosure 7 , 7 June 1921 .

(١٠٥) Lenczowski , P. 105 , NAW , M 722 , r. 8 , No, 715 , Aleppo , 9 November 1921 .

(١٠٦) انظر تفاصيل اتفاقية اذار في :
AE , Levant , 1918 - 1929 , Syrie - Liban , Vol 125, P. 182 , Londres , 11 Mars 1921.

(١٠٧) انظر حول التطورات التي ادت الى هذه الاتفاقية : افاديس سانجيان ، سنجق الاسكندرون، (مترجم) ، دمشق ،١٩٨٠ ، ص١٥-٢٠.

(١٠٨) انظر تفصيلات اخرى وتعليقات حول المنجق في :
FO , 371 , 7846 E 4800/274/89 , Beirut , 28 Apil 1922 (Enclosure 3 , No. 1 , P. 5 , Extract from the «Syrie» of 9 March 1922 , entitled « 1 , Autonomie du Sandjak d , Alexandrette et le Recensement»).

(١٠٩) FO , 371 , 9053 E 12159/876/89 , Aleppo , 7 November 1923 .

(١١٠) الحكيم ، سورية والانتداب الفرنسي ، ص ١١٠ .

(١١١) FO , 371 , 9053 E 12168/867/89 , Beirut , 12 December 1922 .

(١١٢) FO , 371 , 7847 , P. 30 (Translation of French Secret Report on the Situation in Syria and Cilicia for the Period lst to 20th May, 1922).

(١١٣) FO , 371 , 7848 E 9298/274/89 , War Office, 14 September 1922 (Enclosure No.1, Report on the Situation in Syria, dated 22August 1922) , E 10961/274/89, Beirut, 3 October 1922 ; NAW , M722 , r.8, No. 780 , Aleppo , 30 March 1922.

(١١٤) NAW , M 722 , r.8, No. 780, Aleppo, 30 March 1922.

(١١٥) NAW, M 722, r.8, No. 836, Aleppo, 29 July 1922 .

(١١٦) NAW, M 722, r.8, No, 854, Aleppo, 29 Septamber 1922 .

(١١٧) NAW , M722, r.8, No. 84, Damascus, 29 September 1922.

(١١٨) NAW , M 722, r.9, Beirut , 27 December 1922 (Enclosed Order of Battle of Turkish Forces up to 6 th December 1922) .

(١١٩) NAW , M 722, r. 9, Beirut , 22 December 1922 (British Liaison Officer Report , B. L./3/35, Beyrouth) .

(١٢٠) Ibid ., (British Liaison Officer Report, B. L./5/2.

(١٢١) NAW, M 722, r. 9, No. 936, Beirut, 27 February 1923.

(١٢٢) NAW, M 722, r. 9, No. 12, Damascus, 20 April 1923.

(١٢٣) الشفوري، ص٤٨-٥١، السعدون ، ص ٥٧، وانظر تفاصيل اخرى هامة عن هجمات الثوار على الفرنسيين في:

NAW, M 722, r. 9, No. 973, Aleppo, 4 June 1923, No. 997, Aleppo 25 July 1923, No. 1003 , Aleppo , 2 August 1923, No, 3,Aleppo, 24 August 1923; Aleppo ,19 November 1923 ; FO, 371 , 9055 E, 7012, Aleppo,8 June 1923 , E 7047 , Aleppo,5 July 1923,10163 E 1834/1057 /89, Aleppo, 7 February 1924, E 2993/1057/89 , Aleppo , 24 March 1924, E 3179 1057/89, Aleppo , 27 March 1924 , E 4176/1057/ 89 , Aleppo , 23 April 1924 .

(١٢٤) NAW, M 722, r. 9, No. 197 , Aleppo , 15 May 1924 .

(١٢٥) NAW, M 722, r. 9, No. 973, Aleppo, 4 June 1923 .

(١٢٦) NAW, M 722, r. 9, No. 197, Aleppo , 15 May 1924.

(١٢٧) FO, 371, 10163 E 4674/1057/89, Damascus , 20 May 1024.

(١٢٨) FO, 371 , 1063 E 4530/1057/89 , Paris, 23 May 1924.

(١٢٩) NAW, M722, r. 9, No. 401, Aleppo, 24 April 1925, No. 438, Aleppo, 6 August 1925.

(١٣٠) NAW, M722, r.9, No. 438, Aleppo,6 August 1925.

(١٣١) NAW, M 722, r. 9 , No. 469 , Aleppo , 24October 1925, No. 477 , Aleppo, 12 November 1925.

(١٣٢) NAW, M 722, r. 9, No. 758, Paris, 18 September 1925.

(١٣٣) انظر : السعدون ، ص ٥٨ ، والشفوري ، ص ٤٩ـ٥٠ .

(١٣٤) NAW, M722, r. 9, No. 49, Aleppo, 19 December 1925.

(١٣٥) NAW, M 722, r. 9, No. 488, Aleppo, 15 December 1925; FO, 371 , 11517 E 236/236/89, Damascus , 30 December 1925.

(١٣٦) NAW, M 722, r. 9, No. 487, Aleppo , 14 December 1925, No. 493, Aleppo, 30 December 1925, No . 300 , Damascus , 30 December 1925, No. 502, Aleppo, 13 January 1926.

(١٣٧) انظر تفاصيل ذلك في :

Lewis, PP. 268 FF.

(١٣٨) انظر تفاصيل العمليات التي قام بها السعدون ورفاقه في : السعدون ، ص ٥٨ـ٧٧ ، وانظر تفاصيل اخرى في :

NAW, M 722, r. 9. No. 569 , Aleppo, 17 May 1926 ; FO, 371, 11511 E 1233, Aleppo, 10 February 1926 , Aleppo, 9 April 1926.

(١٣٩) انظر نص الاتفاقية وملحقاتها ونقاط الحدود بالتفصيل وكذلك التعليق عليها في :

FO. 371, 11519 E 3898/1189/89, Paris , 25 June 1926 ، NAW, M 722, r. 10, No. 10, Aleppo, 18 September 1926 .

(١٤٠) NAW, M722, r. 10, No. 579, Aleppo, 18 June 1926.

(١٤١) FO, 371, 11515 E 1905, pp. 121-124.

(١٤٢) NAW, M 722, r. 12, No. 66097, Paris, 26 March 1926, r. 10, No.579, Aleppo , 18 June 1926, No. 599, Aleppo, 7 August 1926.

وانظر أيضا : الحكيم ، سورية والانتداب الفرنسي ،ص١٥٥ ، ١٦٦ .

(١٤٣) انظر حول اعمال هذه اللجان :
NAW, M 722, r. 10, No. 26, Aleppo, 19 November 1926, No. 28, Aleppo, 18 December 1926, No. 34, Aleppo, 8 February 1927, No. 47, Aleppo, 15 April 1927.

(١٤٤) NAW, M 722, r. 10, No . 34 , Aleppo , 8 February 1927, No . 47 , Aleppo , 15 April 1927 .

الحياة الفكرية في الأندلس

من خلال النشاط الفكري في بلاط الحكم المستنصر بالله

د . أحمد بدر

جامعة دمشق

مكتبة ضخمة قدر عدد ما حوته من الكتب باربعمائة الف مجلد ، وتمويل وتوجيه للبحث والتاليف تجلى بوضع مئات — ان لم نقل الاف — من الكتب في شتى صنوف المعرفة ، وشكل من اشكال توفير التعليم الاولي المجاني لابناء الفقراء تجسد بانشاء سبعة وعشرين مكتبا للتعليم في قرطبة .

معالم بارزة على دروب تطور الحياة الفكرية في الحضارة العربية الاسلامية ، تعكس النشاط الكبير لهذا المظهر من مظاهرها في الاندلس وازدهاره العظيم ، لاسيما في عصر الخلافة الاموية فيها .

ارتبط جل هذا النشاط والازدهار باسم الحكم المستنصر بالله ، تاسع الحكام الامويين في الاندلس وثاني خلفائهم فيها ، بين ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ (٩٦١ — ٩٧٦) ، وان يكن توجيه الحكم لهذا النشاط وتشجيعه له قد بدأ قبل هذا التاريخ بعقدين من السنين على الاقل ، كان خلالهما وليا للعهد .

انعكست آثار هذا النشاط في كتب التاريخ وتراجم الاعلام ، على شكل وقائع صغيرة مبثوثة ومبعثرة في هذا المصدر او ذاك ، لكنها مع ذلك تستلفت نظر القارىء .

وقد اغرت وفرتها الباحث الاسباني ملشور انطونيا في اوائل القرن الحالي بجمعها والخروج منها بصورة للنشاط الفكري في بلاط الحكم(١) ، كانت من الدقة والكمال بالدرجة التي يسمح بها المعروف والمكتشف حتى زمنه من مصادر التاريخ الاندلسي. لكن تتابع الاكتشافات وتكاثر البحوث عن الحياة الفكرية في الاندلس ، والتي تلامس حينا هذه النقطة أو تلك ، او تنير بعض جوانبها احيانا اخرى ، تستدعي البحث من جديد لرسم صورة أدق وأكمل . وسعيا للوصول الى اجابات على تساؤلات عدة تدور كلها حول اسهام الحكم في الحياة الفكرية ، مثل : دوافعه ، وهل كانت ذاتية أم موضوعية ، أم كليهما معا . . ما هو شكل اسهامه ، هل كان قاصرا على الانفاق والتمويل أم تعدى ذلك الى المشاركة والتوجيه . . ما رؤيته في هذا المجال ، هل كان مقلدا يسير على سنن سابقيه ودروب اسلافه ، أم كان مجددا يستشف حاجات دولته ومتطلبات بلده الناجمة عن مجموعة الظروف المحيطة به ، ويحاول ان ينجز ما فيه تحقيق المتطلبات وتلبية الحاجات في تلك الظروف . .

العوامل المؤثرة في تكوين الحكم الفكري :

يتضح لنا بجلاء من دراسة سيرة الحكم المستنصر ان عظمته وليدة نتاج وتفاعل بين جهد ذاتي ومناخ وبيئة محيطة، شانه في ذلك شأن كل البارزين والعظماء في التاريخ الانساني . ويمكن تحديد اطار هذه البيئة في المجال السياسي ، بان الاندلس في زمن ابيه قد توحدت بعد تجزؤ والتأم شملها بعد شتات وتمزق . كما أصبح سلطان خلفائها معترفا به من قبل ملوك وامراء الدويلات الاسبانية في الشمال ، وتحارب تحت لوائه ، في الجنوب ، قبائل زناته المغربية منافسيها من قبائل صنهاجة وأسيادهم الأئمة الفاطميين ، الذين أضفوا على اشخاصهم صفات قدسية تجعلهم يتبوؤن – حسب زعمهم – مرتبة سامية بين المراتب الكائنة بين البشر وخالقهم . وقد اتخذوا قاعدة لسلطانهم في المغرب الادنى، قبل انتقالهم للقاهرة التي انشئت لهم في مصر . اما في داخل الاندلس ، حيث خيم سلام نسبي ، فقد نشطت الفعاليات الاقتصادية بشتى أشكالها ، مما ساعد على تنشيط المبادلات التجارية مع الخارج الذي توسعت اطرافه وتعددت جوانبه ، فدخلت ضمن دائرة التبادل مع الاندلس دولة امالفي الايطالية(٢)، اضافة للمغرب والمشرق الاسلامي . وتمخض نشاط هذه الفعاليات عن ظهور طبقة غنية في الاندلس نجد مؤشرا على درجة غناها في الهدايا الثمينة التي قدمها افراد منها للخلفاء بلغت قيمتها مئات الالوف من الدنانير الذهبية . وقد تجاوز هؤلاء الخلفاء الفوائد غير المباشرة ، التي جنوها من نشاط الفعاليات الاقتصادية، الى الافادة المباشرة

عن طريق المشاركة فيها بواسطة ضياعهم المغلة الكثيرة ، وممارسة التجارة ، التي مكنهم مركزهم من احتكارها وجني ارباح طائلة منها .

كان لهذه الاوضاع الاقتصادية ـ الاجتماعية داخل الاندلس اثر ايجابي على الحياة الفكرية فيها ، اذ انفق هؤلاء الاغنياء بسخاء على تطوير الفكر ، من خلال رعاية رجال الفكر وتشجيعهم ، واقتناء الكتب وانشاء المكتبات . واذا تصدرت العائلة الاموية المالكة في الاندلس هذه الطبقة الغنية ، فانها كانت أيضا في مقدمة المشاركين في النشاط الفكري ومشجعيه . ونلاحظ تقدما مطردا لامرائها وخلفائها في هذا المضمار، حتى اقترب من الذروة بشخصية عبد الرحمن الناصر والد الحكم (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) الذي أظهر اهتماما غير عادي بالعلم والثقافة ، فلم تمنعه المشاكل السياسية المعقدة التي واجهها ومشاغله في الحروب الكبيرة ، من تخصيص وقت يكرسه للفكر ، فنراه يجمع عددا من المثقفين لبحث ترتيب قصائد الشاعر المشرقي المشهور أبي تمام عندما جمعت له في ديوان . ويحس" أحد الاطباء باهتماماته في هذا الميدان فيؤلف له كتابا عن « الأنيسون وفوائده في المعالجة »(٢) .

بهذا كان عبد الرحمن جزءاً اساسيا من البيئة المحيطة بالحكم ، والتي اسهمت في خلق توجهاته الفكرية ، لما يمثله الاب من قدوة للابناء . وزاد على ذلك اتخاذ الاجراءات المساعدة على تكوينه التكوين الفكري الراقي ،فاستمر أول الامر على اتباع التقليد الذي ساد في البلاط الاموي منذ ايام الامير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ) والهادف الى تخصيص موارد اقتصادية مستقلة لكل من أبناء الامراء على حدة ، وتعيين شخص للاشراف على استثمارها من جهة ، وللاعتناء بتثقيف وتربية هذا الولد من جهة ثانية ، مما يعوض عن عناية الاب ، الذي قد لا تدع له مهامه السياسية وقتا كافيا للاشراف على تربية ابنائه الكثيري العدد في الغالب . وقد نقل المؤرخ الاندلسي ابن حيان عن الكاتب القبشي هذا التقليد بقوله : « كان يعجّل ـ اي الأمير محمد ـ لكل واحد من الابناء ، أول ترعرعه بقصر يسكنه وضياع تغل له وعقار بداخل البلد يجري عليه خرجه ، الى رزق هلالي ومعروف سنوي (أي مرتب شهري وآخر سنوي) يجريهما عليه تتأكد بهما ملوكيته وتتأثل نعمته ، ويختار لكل ولد منهم في وجوه الناس واولي مرواتهم وكيلا يسند بشأنه اليه ويقلده النظر في دخله وخرجه وأمر قصره وضياعه يرزقه على ذلك ما يقوم به . فلا تزال نعمة الولد تنمى بنمو سنه » . ويتابع المؤرخ ذاته اقتباسه مما يذكره الكاتب نفسه عما ادخله عبد الرحمن الناصر من تجديد في هذا المضمار ، يتعلق بزيادة المخصصات وتوسيع دائرة اشراف الوكلاء على ابنائه الاحد عشر من الذكور بقوله : « قرن الناصر لكل واحد منهم القصر بمنية (بستان) بخارج البلد في امكنة منتزهاته الحسنة واضعف لهم على ذلك

الارزاق الهلالية والمعارف السنوية واوسع لهم من الضياع المغلة والعقار الخراجية»(٤) ورغم اننا لا نعرف على وجه الدقة مقدار واردات هذه المصادر كلها بالنسبة لكل ابن ، لكن يمكن القول انها كانت ضخمة لان الاشراف عليها لم يعد مقتصرا على الوكيل بل عين فوقه كاتب يدقق في حساباته ويشاركه في الاشراف على ترتيب امر الولد لدى حذاق المعلمين .

وفرت هذه البيئة الاندلسية والعائلية سبل النضج الثقافي والرقي الفكري لابناء عبد الرحمن الناصر الاحد عشر . وهنا يبرز أثر الجهد الذاتي اذ لم يبرز منهم سوى اثنان اولهما عبد اللهالذي اتسعت دائرة ثقافته لتشمل المعرفة باللغة والخبر وقرض الشعر والادب ، حيث وضع كتابا في اخباره بعنوان « العليل والقتيل في اخبار بني العباس » . واضاف الى اتساع دائرة الثقافة عمقا وتجديدا في بعض نواحيها ، فتراه عالما في مجال الفقه مستقل الرأي فيه ، اذ كان شافعيا في بلد سادته المالكية كمذهب اوحد ، واعتبرت الاسرة الحاكمة فيه نفسها حامية له خارج حدود الاندلس(٥) . من ناحية اخرى عقد هذا الامير العالم صلات وثيقة مع العلماء الاخرين ،لعل من اشهرهم أحمد بن عبد البر بن يحيى الذي الف له كتاب « تاريخ الفقهاء والقضاة » ، الذي اعتبره الكتاب المعاصرون ومن تلاهم مصدرا هاما ، رغم مآخذ بعضهم عليه مردها تتبعه لمثالب الائمة . وقد اتهم الامير وصديقه بالتامر على الخليفة ، فقبض عليهما معا ولقيا مصيرا واحدا وهو القتل(٦) .

اما ثاني البارزين من الابناء فكان الحكم ، الذي سيصبح ولي عهد ابيه وتاليه على عرش الخلافة . وقد اتيح له،كأخيه ، اخذ العلم منذ نعومة اظفاره على حذاق المعلمين ، ووفر له بقاؤه على قيد الحياة ومكانته ان يتابع الاخذ عن العلماء حتى تجاوز اخاه في اتساع دائرة معارفه وتعمقه فيها . ويمكننا التعرف على الخطوط الاساسية لاتجاه ثقافته من تتبع كبار من اخذ العلم عنهم بعد تحصيله الاولي والاساسي . كان في مقدمة هؤلاء علماء بالعربية والحديث والفقه والادب ، وكلهافروع من المعارف مجمع على ضرورتها في الاندلس . لكنه لم يقتصر عليها بل اخذ عن علماء في علوم مكروهة لدى الاندلسيين، كالفلسفة ، بما حوتهانذاكمن علوم كالمنطقوالرياضيات وغيرها(٧) .ولم يتم تكوين الحكم في فترة طفولته وفتوته وشبابه الاول فقط ، بل استمر طيلة حياته تقريبا ، فنراه وهو في الثامنة والعشرين من عمره (أيسنة ٣٣٠هـ) يستقدم علماء من المشرق ، كأبي علي القالي ، ويأخذ عنهم، هذا اضافة لمن يستقدمهمن علماء المناطق الاخرى بالاندلس وعلماء قرطبة ، الذين يسمع منهم ويتدارس معهم قضايا علمية متنوعة .

جهود الحكم في النشاط الفكري :

واكبت عملية استزادة الحكم من العلم عملية تسهيل نشره وارتقائه ، عن طريق جمع كتبه وتشجيع وتمويل البحث والتاليف في شتى مناحيه ، وتوجيهه .

كانت عملية نشر العلم بين الناس سهلة نسبيا في الاندلس ، لما شاع فيها من اقبال عليه ، وخاصة لدى الطبقة الغنية التي انفقت بسخاء على اقتناء الكتب ، وعلى مؤدبي ابنائها . لكن الطبقة الفقيرة بقيت محرومة حتى من الاساسي منه، والذي يدور حول تعلم قراءة القران الكريم . فحاول الحكم سد النقص حسب ما يورده ابن عذاري بقوله « ومن مستحسنات افعاله وطيبات اعماله اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حول المسجد الجامع وبكل ربض من ارباض قرطبة ، واجرى عليهم المرتبات . .» . وقد بلغ عدد المكاتب التي انشأها لهذه الغاية سبعة وعشرين مكتبا ، منها ثلاثة حول المسجد الجامع وباقيها موزع على ارباض المدينة . وقد ذكر هذا العمل الخير احد الشعراء من خلال مدحه للحكم بقوله :

وساحة المسجد الاعلى مكللة مكاتبا لليتامى في نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك يا خير تاليها وواعيها(٨)

لكن المهم والجوهري في دور الحكم الفكري كان الاسهام في تطوير وترقية الفكر عن طريق جمع كنوزه المكنونة في الكتب ، والعمل في الوقت نفسه على وضع البحوث والمؤلفات الجديدة . وتكون من مئات العاملين لدى الحكم وبتوجيهه شكل من أشكال « الاكاديمية » أو المجمع العلمي المعروف في عصرنا الحديث . كان لهذه « الاكاديمية » مقر للعمل هو قصر ملكي مطل على نهر قرطبة يدعى بدار الملك ، سمي بذلك لكونه منزلا لعدة امراء اندلسيين انتقلوا منه مباشرة لقصر الخلافة ، كان المنذر بن محمد آخرهم ، وانتقلت الدار من ورثته بالبيع لعبد الرحمن الناصر الذي حبا بها بكره الحكم ، رغم اجباره له من دون سائر اخوته على الاقامة معه في قصر الخلافة ، ثم في الزهراء مدينة الملكية . اما دار الملك هذه فقد جعلها حسب قول المؤرخ الرازي «لخاصة نشبه (النشب المال الاصيل من الناطق والصامت) ومخازن امتعته ومصاون دفاتره، ومجالس نساخه ومقابلي دواوينه ، واحلها ثقات خدمة واقادم كتابه . . ينتابهم فيها بالاوقات لما يتخذه له فيها ويختزن في مخازنها » . يفهم مما مر ومما يرد في ثنايا الحديث عن تراجم العاملين ، ان دار الملك كانت مقر اقامة عمل دائمة لجهاز المكتبة ، ومقرا مؤقتا للمؤلفين والباحثين ، اذ ارادوا الرجوع لمصادر المكتبة او التمسوا اعتزال المشاغل والناس للتفرغ للتاليف .

المكتبة والجهاز العامل فيها :

اقتنى الامراء والخلفاء الامويون ، شأنهم في ذلك شأن كثير من الاندلسيين ، مكتبة كانوا يدعونها خزانة الكتب . لكنها لم تتميز عن غيرها كثيرا ، على ما يبدو ، ولم تستلفت بالتالي اهتمام الكتاب ، الذين اعتنوا بذكر كل صغيرة وكبيرة من حياتهم . واختلف الامر زمن الحكم فتواترت الأنباء عن مكتبته وكثرت الاشارات غير المباشرة اليها كذلك ، مما يمكننا من رسم صورة غنية بالتفاصيل لها . ينقل أن حزم عن قيمها الفتى تليد : ان عدد الفهارس المحتوية لتسمية الكتب اربع واربعون فهرسة في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين فقط ، وان عدد كتبها بلغ اربعمائة الف مجلد(٩) .

يمكن تصديق الخبر عن ضخامة عدد المجلدات ، وتفسير هذه الضخامة من ملاحظة امور عدة ،كالعمل الدائب والسعي المستمر في عملية جمع الكتب واغناء المكتبة ، وطول المدة التي استغرقها جمعها ، وكذلك تعدد مواردها وتنوع اعمال العاملين بها . فقد ظل الحكم دائبا على جمع الكتب خلال فترة ولايته للعهد التي استمرت عدة عقود من السنين ، واثناء مدة خلافته التي بلغت نحو ستة عشر عاما . وكانت موارد الكتب متعددة ، فمنها ما ورثه عن سلفه ، كما هو الحال في نسخة الموطأ لمالك بن انس ، التي وصفتبانها بالغة الجودة وقد ورثها عن ابيه الناصر وقرأ بها ابنه هشام(١٠) ، ومنها ما كان من مكتبة اخيه بعد مقتله . اما المورد الاهم فكان الشراء من منبع ثقافة الاندلسيين ، وهو المشرق العربي الاسلامي ، حيث كان له وكلاء ينتخبون له غرائب التواليف من اشهرهم محمد بن طرخان وراق الحكم في بغداد ، وعمر بن محمد المعروف بابن الوفي ، الذي اقام بالبصرة حوالي عشرين سنة تولى خلالها ابتياع الكتب والذخائر له ، وبلغت النفقات التي جرت على يديه لهذا الغرض مائة وعشرين الف دينار(١١) . نستنتج من المثلين السابقين ان وكلاء الحكم كانوا مؤهلين لاختيار الجيد المناسب من الكتب شكلا وموضوعا ، فالكتب كانت صناعة الاول ، الذي ينعت بالوراق ، كما كان الثاني فقيها عينه الحكم إثر عودته قاضيا في مدينتين كبيرتين . ويبدو ان الوكلاء لم يكتفوا بشراء المعروض من الاسواق ، بل عملوا ايضا كهمزة وصل بين الحكم ومشاهير المؤلفين في المشرق ، من ذلك الاتصال بين الحكم وابي الفرج الاصبهاني الذي تلقى من الخليفة الاندلسي الف دينار ذهبي مع التماس لنسخة من كتابه « الاغاني » ، فارسل اليه منه نسخة حسنة منقحة قبل ظهور الكتاب لاهل العراق او نسخه من قبل احد منهم ، والف له ايضا « انساب قومه بني امية موشحة بمناقبهم واسماء رجالهم ، فاحسن فيه جدا ، وخلد لهم مجدا وأرسل به الى قرطبة ،

وانفذ معه قصيدة حسنة من شعره يمدحه بها ويذكر مجد قومه بني أمية وفخرهم على سائر قريش فجدد عليه الصلة الجزيلة» (١٢) . اضافة لما كان يرسله الوكلاء للحكم ، كانت اعداد غفيرة من الاندلسيين ترتاد بلدان المشرق حتى وصل بعضهم الى الهند ، طلبا للعلم وسعيا للاخذ عن مشاهير الشيوخ ، وربما اشترى بعضهم الكتب فوصلت للحكم، الذي كان اكثر رغبة باقتناء كتب الاسمعة للعلماء ، من الاندلسيين المتجولين في المشرق ، نظرا لسعة ادراكهم وتحريهم عندما يسجلون ما يسمعون، ممن ينقله بسند مباشر عن المؤلف نفسه ، كما هو حال كتاب « الكامل » للمبرد(١٣) ، الذي سمعه وسجله محمد بن ابي علاقة القرطبي من الاخفش الذي سمعه بدوره من المبرد نفسه ، وصار الكتاب للحكم الذي قال : كتاب الكامل لم يصح عنده برواية الا من قبل ابن علاقة . واقتنى الحكم من الفقيه يوسف بن محمد الهمداني (ت ٣٨٣ هـ) ،كتاب « الام » للشافعي في مائة وعشرين جزءا ، الذي سجله الفقيه بخطه ، وكان من جملة ما سمعه في المشرق خلال اقامته مدة عشر سنوات فيه اعتنى فيها اضافة لذلك بكتب الطبري المشهور من تاريخ وتفسير واختلاف الفقهاء(١٤) . واذا كان الحكم قد اهتم باقتناء الكتب من اماكن بعيدة في المشرق ، يبدو من الطبيعي ان يجمع نتاج بلده منها ، في وقت بلغ النشاط الفكري فيه ذروة لم يبلغها من قبل ، وان يضيف فيه الى الشراء نسخ ما لا يتوافر منه نسخ مطروحة للبيع. واخيرا ، لم يكن من المتيسر دائما بالنسبة لتلك العصور توافر المؤلفات ، وخاصة الكبيرة منها ، في نسخ كاملة ، بل كان الشائع بالنسبة للكثير منها ان يكون اشتاتا مبعثرة بين ايدي التلاميذ الذين يسمعونها جزئيا أو كليا عن شيوخهم وقد يسجلون كل ما يسمعون او بعضه . وكان هذا المورد الاخير موضوع ومجال عمل اكثرية افراد الجهاز العامل في المكتبة .

تمايز أفراد الجهاز العامل بمكتبة الحكم في فئتين : الوراقون والمقابلون . كانت عملية الفئة الاولى بسيطة لا تتعدى النسخ، لكن الحكم الساعي وراء جودة الكتابة ودقة المكتوب استخدم ذوي مؤهلات عالية تتعلق بالمهمة ، فلم تقتصر على حسن الخط وجماله بل تعدته الى المعرفة حتى يستطيع ضبطه ، لذلك نرى كل نساخيه من ذوي المعارف العلمية المختلفة ، فقد كان يوسف البلوطي حسن الخط والضبط ذا معرفة بالادب ، ومثله اسحاق بن محمد الذي وصف بأنه من أهل الادب والفهم . ووجد المبرزون في هذا الميدان من بلاد أخرى سوقا رائجة لهم في بلاط الحكم فقصدوه ، وصل ظفر البغدادي من بغداد وعينه الحكم رئيسا للوارقين ، ومن صقلية ورد عليه أيضا عباس بن هارون الكناني بعد اقامته في القيروان لمدة واحد وعشرين عاما ، وكان عالما بالكلام والرد على اصحاب المذاهب (١٥) .

عملت الفئة الثانية فيما سمي بخطة المقابلة ، ومهمة المشتغلين بها مقابلة النسخ المتعددة للمؤلف الواحد ، أو قطع منها لنساخين متعددين ، بغية اخراج أكمل واصح نسخة للمؤلف ، وبهذا تكون مماثلة لعملية التحقيق في العصر الحاضر ، وقد تكون اكثر منها صعوبة في بعض الحالات . ولعل في بعض انجازات هذه الفئة ما يقدم صورة واضحة لنوعية العمل وصعوباته . فقد كان من جملتها اخراج نسخة كاملة للبارع المعجم اللغوي الكبير الذي وضعه أبو علي القالي في بلاط الحكم وأملاه على الناسخين على مدى ستة عشر عاما تخللتها فترات انقطاع . ثم حاول جمع ما كتبوا وتنقيحه ، الا أن الاجل وافاه ولم يتم له تنقيح سوى أجزاء الهمزة والعين والهاء ، في حين بقيت الاجزاء الاخرى غير منقحة وبخطوط متعددة ، منها ما كان لمحمد الفهري وعمر الجياني فكلف الاثنان باتمام العمل واخراج نسخة كاملة قدمت للحكم المستنصر . وكان القالي نفسه قد ترأس قبل ذلك فئة من المقابلين للقيام بمهمة مماثلة ولكنها اكثر صعوبة،وهي اخراج نسخة كاملة وصحيحة من معجم « العين» المنسوب للخليل بن احمد الفراهيدي. ومن المعروف أن انتشار الكتاب كان بطيئا حتى في المشرق . فقد توفي المؤلف سنة ١٧٠ هـ . لكن الكتاب وصل الى البصرة سنة ٢٤٨ هـ عندما حمله اليها من خراسان أحد الوراقين بثمانية وأربعين جزءا . ويسجل أول دخول له الى الاندلس في نهاية القرن ذاته ، أي القرن الثالث الهجري ، على يد قاسم بن ثابت بن حزم وابيه . ومنذ ذلك الوقت كان حاملو العلم من المشرق يدخلون الاندلس منه نسخا او قطعا متفاوتة في الصحة والضبط ، مما جعل الحكم يكلف ابا علي القالي مع محمد بن الحسين وابنا سعيد بمقابلة جميع النسخ واخراج نسخة جديدة كاملة وصحيحة . ومثل هذا العمل جرى في وضع الدواوين الشعرية لشاعر مشهور ، بعد جمع قصائده المبعثرة او المحفوظة لدى اناس متعددين ، كما حصل في شعر الكاتب الاندلسي المشهور ابن عبد ربه الذي جمع بامر من الحكم في ديوان واحد مؤلف من نيف وعشرين جزءا(١٦) .

لهذا كانت المؤهلات التي يتطلبها الحكم في المقابلين اعلى من تلك المطلوبة في النساخ ،اذ يتطلب عملهم معرفة واسعة وعميقة وخاصة باللغة ، وهو أمر يتجلى بوضوح لدى تصفح اخبار من استخدمهم في هذه الخطة . فقد رأينا مثلا عليهم في ابي علي القالي ، كما نعثر على امثلة اخرى غزيرة : كاحمد المعافري الذي استكمل ثقافته في المشرق بعد الاندلس وادخل منه لبلده علما جما ، ومنهم ايضا احمد بن عبد الوهاب المعروف بابن صلي الله ، وكان فقيها شافعيا ذكيا بصيرا بالحجاج وذا حظ وافر من العربية ، وكذلك محمد بن يحيى الرياحي الذي يصفه الزبيدي بالقول « كان حاذقا بعلم العربية دقيق النظر فيها غاية في الابداع والاستنباط وكان قد طالع كتب اهل الكلام وتفنن فيها ونظر في المنطقيات فاحكمها » . ويضيف الى ذلك انه احدث تغييرا كبيرا في تعليم النحو على نطاق الاندلس كلها .

جمع العلماء

كانت قرطبة مركزا فكريا مزدهرا زاخرا بالعلماء . لكن الحكم لم يكتف بهم بل كان يستقدم العلماء الذين يبرزون في حواضر الاندلس الاخرى بعد استكمال تحصيلهم العلمي في المشرق بعد بلادهم . ثم تجاوزذلك الى البلاد الاخرى ، المجاورة منها في المغرب او البعيدة ، مثل بلدان المشرق . استقدم من سبته محمدا بن حارث الخشني، الذي اعتبره اهلها حجة في العلم فأطاعوا قوله وشرقوا قبلة مسجدهم الجامع لانه وجد فيها تغريبا ، رغم تعدد الاجيال التي ادت صلواتها فيه وهوعلى هذا الوضع. كما تمسكوا به الى الحد الذي يقترب من الحبس . ومن اشهر مراكز المغرب الفكرية ، وهو مركز القيروان ، استقدم محمدا بن يوسف الوراق العالم الخبير بأرض المغرب وبلدانه وسكانه . كما قدم عليه محمد بن الازرق من مصر وهو صاحب معرفة بالادب والعلوم الحكمية او الفلسفية ، ومن حلب في الشام محمد بن العباس حافظ وحامل اسناد الشام . ومن العراق اكبر المراكز الفكرية في المشرق حل في حاشية الحكم محمد بن ابي بردة البغدادي الشافعي الذي لم يصل للاندلس افهم منه بالمذهب ، على حد قول ابن الفرضي(١٨) . لكن عالما آخر طغى عليه ، وربما على سائر القادمين الآخرين، وهو اسماعيل بن القاسم ابو علي القالي ، الذي استغرقت رحلته من العراق الى الاندلس قرابة ثلاث سنوات ، نزل بعدها على شواطىء الاندلس سنة ٣٣٠هـ ليجد في استقباله وفدا من وجوه رجال الكورة التي نزل بشاطئها برفقة واليها ، ورافقوه بعد ذلك الى قرطبة تنفيذا للامر الصادر لهم من ولي العهد الحكم بن الناصر . الف القالي بتشجيع من الحكم وتوجيهه عددا كبيرا من المؤلفات ، لكن اهميته لا ترجع الى هذا الامر بقدر ما ترجع الى مقدار ما حمله من نتاج الثقافة العربية والذي يشتمل فيجملة مواضيع اخرى على مؤلفات رجال الادب واللغة الكبار ، كسيبويه وابن قتيبة ويعقوب السكيت واحمد بن يحيى الشيباني الملقب بثعلب وابي عبيد . ومن ناحية اخرى اسهم اسهاما كبيرا في الحركة الفكرية بواسطة من اخذوا عنه من التلاميذ او اولئك الذين ناقشوه من العلماء الاندلسيين في قضايا اثيرت حول ما درسه او الفه .

قد تختلف الاراء حول سبب قدوم هؤلاء العلماء للاندلس ، وهل قدموا بدعوة من الحكم أم سعيا وراء رزق في سوق عرفوا رواج بضاعتهم فيه .. لكن الاتفاق قائم على ان شهرتهم في الاندلس وغزارة انتاجهم فيها مرده لتقريب الحكم المستنصر ورعايته لهم . ويبدو ان تنوع اصول ومواطن هؤلاء المقربين لم يكن وليد اعتباط او محض صدفة ، وانما كان مقصودا على الارجح لتحقيق غايات معينة ، منها ان عددا من العلوم العربية وخاصة الدينية منها ، كانت علوم حفظ ورواية عن السلف تعود بدورها

الاولى واصولها الاساسية الى الصحابة الذين حلوا في كل قطر ، لذلك فان عالم قطر من الاقطار تعلو اسناده لتصل الى الصحابة الاول الذين نزلوا في هذا القطر . اضف الى ذلك ان العلوم كلها قد اتخذت اتجاهات متمايزة في تطورها ورقيها ، ومن شأن تعدد اقطار العلماء الوافدين ايصال هذا التنوع للاندلس . واخيرا فان بعض العلماء كانوا ذوي خبرة بأوضاع بلادهم الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية ، ومن السهل عليهم نقلها الى رجال الاندلس وحكامها .

كانت مؤهلات المحيطين بالحكم العلمية وسيلة ايضا لنيل الوظائف في ادارة دولته ، كالقضاء والشورى والكتابة . ويظهر ان الخدم المحيطين به ادركوا اهمية التحلي بحلية العلم لنيل حظوة اكبر لديه فانكب بعضهم على تحصيله حتى برزوا فيه ، على الرغم من أن هؤلاء كانوا من الصقالبة الذين اشتهروا بجهلهم . وقد عبر عن هذا المعنى ابن حيان في وصفه لخادمي الحكم فاتن وجؤذر « اجمع أهل الدولة انه لم يقم على راس امير بالاندلس من هذا الجيل الغليظ الطباع من الصقلبكهذين الخادمين فاتن وجؤذر سعة معرفة .. خلاف ما عليه العصابة»(١٩) . لكن شهرة هؤلاء العلماء لم تكن نتاج المراكز الادارية التي شغلوها ، وانما بالمؤلفات التي درسوها او وضعوها ، وكانوا في هذا الميدان يمثلون شتى نواحي العلم والمعرفة مما يمكننا من تصنيف نشاط التأليف في بلاط المستنصر حسب التقسيم المألوف للعلوم .

علوم اللغة والادب

ابدى الحكم اهتماما بالغا باللغة تجلى في سعيهالدائب لجمع نسخة كاملة صحيحة من معجم العين كما رأينا ، كما انعكس هذا الاهتمام في الحفاوة التي اظهرها باللغوى المشرقي ابي علي القالي ، لا عند استقباله فقط وانما خلال اقامته بجواره ، اذ ينقل الحميدي عن ابن حزم قوله « وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الامور وبعد ان صارت اليه ، يبعثه على التاليف وينشطه بواسع العطاء ويشرح صدره بالافراط في الاكرام » وقد ألف القالي استجابة لذلك عددا من المؤلفات المتفاوتة فيما بينها من حيث الجدة والاهمية والضخامة ، لكن ما يجمعها كونها باجمعها في اللغة والنحو .

ولعل أهم هذه المؤلفات معجم البارع ، الذي استغرق العمل فيه ستة عشر عاما تخللتها فترة انقطاع . وما انجز في هذه المدة كلها منه كان املاؤه ثم تهذيب وصياغة كتاب الهمزة والهاء والعين فقط ، وتوفي قبل انجازالتهذيب والصياغة فاكملها معاوناه، كما مر سابقا ، وخرج في مائة مجلد . وقد تجاوز القالي ــ حسب راي معاصريه ــ معجم العين للفراهيدي بزيادة في كلمات البارع قدرها خمسة الاف وست مائة وثلاث وثمانين كلمة . وقد قدم هذا للزبيدي مبررا لحكمه القائل « لا اعلم احدا من العلماء

المتقدمين والمتاخرين الف مثله في الاحاطة والاستيعاب »(٢٠) .. ومن كتب القالي الهامة كتاب « الامالي » المشهور والمتداول على نطاق واسع حتى ايامنا هذه . وهو من كتب المجموعات الادبيةالتي تحوي اخبارا ولغة وادبا . ويقول عنه ابن حزم انه « مبار لكتاب الكامل الذيجمعه ابو العباس المبرد ، ولئن كان كتاب ابيالعباساكثر نحوا وخبرا،فان كتاب ابي علي لاكثر لغة وشعراً »(٢١) .

يلي اباعلي القالي في الشهرة بين المؤلفين في ميداني اللغة والنحو ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، وكانت صلته بالحكم وثيقة الى حد ان كل ما ألفه كان بامر وتوجيه وتخطيط للموضوع منه ، او بمباركته في حالات اخرى . ياتي في مقدمة هذه المؤلفات اختصاره لكتاب « العين » ، وقد جاء ميسرا للاستفادة من مادة المعجم حتى فضله الناس على الاصل ، اذا صدقنا ما ينقلهصاحب المزهر من قول لابي الحسن الشاري بان الناس « قد لهجوا كثيرا بمختصر العين للزبيدي فاستعملوه وفضلوه على كتاب العين لكونه حذف مما اورده مؤلف كتاب العين من الشواهد المختلفة والحروف المصحفة والابنية المختلفة ، وفضلوه على سائر ما الـف على حروف المعجم من كتب اللغة »(٢٢) .

وكان للحكم أيضا دور مماثل في مؤلف آخر للزبيدي هو « طبقات النحويين واللغويين » وقد عرض من هذا الكتاب المتداول حتى ايامنا هذه الى ذكر تراجم لكل من الفئتين في مراكز الفكر المشهور بديار الاسلام بدءاً من اوائلهم وحتى أيامه على طبقاتهم . تقدمت البصرة هذه المراكز وتلتها الكوفة ثم مصر فالقيروان ، وختم كتابه بطبقات النحويين واللغويين بالاندلس .

في الكتاب الثالث للزبيدي وهو « لحن العامة » او «لحنعوام الاندلس »» يقتصر دور الحكم على المباركة فقط اذ يقول في مقدمته « وكان الذي دعانا لتأليف هذا الكتاب ما أملناه في الثقة التي اسندها الى المؤلف الامام الفاضل والخليفة العادل . . » . أما مضمون الكتاب فيأخذ بعين الاعتبار طبقة القراء التي يتوجه اليها ، هي بالطبع متعلمة وبالتالي فانه لا يحتوي على كل مايلحن به العوام اذ يمكن للمتعلم تمييزه بسهولة ولا ضرورة لتنبيهه عليه . ويقتصر ما يورده على ذلك اللحن الذي تسرب من العامة الى المثقفين مع الزمن فاستعمله جملة الكتاب وعلية الخدمة وضمنه الشعراء أشعارهم ، فهو والحالة هذهمن قبيل الخطأ الشائع الذي تتوهم صحته..وقد سبقه لهذا الموضوع عديد من المشارقة لكن فائدة كتبهم في الاندلس محدودة ، فحسب قوله « سلمت عامة الاندلس من موافقة الكثير من لحن اهل المشرق ونطقت بوجه الصواب فيه » (٢٣) .

عمل في ميدان اللغة والنحو ايضا محمد بن عبد العزيز الشهير بابن القوطية ، وان كان يدين بشهرته لعمله في مجال التاريخ والاخبار . وقد اشتهر في الميدان الاول عمل له بعنوان « شرح رسالة ادب الكاتب » معان مضمونها لايتعدى شرح مقدمة ادب الكاتب، للكاتب المشرقي المشهور ابن قتيبة .

على شاكلة ما جرى في المشرق رافق جمع كلمات اللغة في المعاجم جمع الشعر العربي ، وقام الحكم بتوجيه عملية جمع الشعر الاندلسي على وجه الخصوص . واتخذ اشكالا عدة منها جمع اشعار شخصية ادبية مشهورة غزيرة الشعر في ديوان ، كما هو حال الكاتب والاديب والشاعر الاندلسي أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، والمتوفى سنة ٣٢٨هـ عن عمر يناهز اثنين وثمانين عاما . وقد انتج في هذا العمر الطويل الكثير من الشعر لدرجة أن مدائحه في بني أمية الحاكمين كانت من نصيب اربعة عاصرهم . ورأى ابن حزم ديوان شعره فوصفه قائلا : وشعره كثير مجموع رأيت منه نيفا وعشرين جزءا (٢٤) .

واتخذ جمع الشعر بأمر الحكم شكلا ثانيا هو المختارات الشعرية ، ونرى مثلا عليها فيما وضعه له أبو عمر احمد بن محمد بن فرج الحياني ، في كتابه المعروف « الحدائق » الذي عارض فيه كتاب « الزهرة » المشرقي لابي بكر محمد بن داود . وقد تجاوز كتاب الحدائق كتاب الزهرة من ناحية الحجم على الاقل اذ احتوى على اربعة أمثال ما احتواه الكتاب الثاني . ويقول ابن حزم في هذا الصدد ان « ابا بكر بن داود انما ذكر مائة باب ، في كل باب مائة بيت ، وابو عمر اورد مائتي باب في كل باب مائتي بيت » . ثم يضيف لهذه الميزة ميزة اخرى قائلا « احسن ابو عمر الاختيار ما شاء وأجاد فبلغ الغاية واتى الكتاب فردا في معناه »(٢٥) .

يمكننا ايضا اعتبار المؤلفات في اخبار الشعراء شكلا ثالثا من اشكال جمع الشعر وحفظه . وقد صنفت هذه الكتب لتسجيل أخبار شعراء مناطق أو كور الاندلس ، وقد رأى ابن حزم بعضها فقال بصددها « ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الاندلس للمستنصر رحمه الله تعالى رأيت فيها أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء » . من ناحية اخرى لم يخل بلاط الحكم المستنصر من مؤلفين في الادب كعمر بن عمير المعروف بابن الجزر والذي الف رسالة ناقض فيها عبد الله بن المقنع (٢٦) .

العلوم الدينية

ويأتي في مقدمتها علم الحديث . وكانت كتب الصحاح للبخاري ومسلم والنسائي

والترمذي قد نقلت للاندلس، واستمر العمل بهذا العلم في المشرق على اساس دراسة الاسناد ورجالها . واسهم الاندلسيون في بلاط الحكم بشيء من هذا العمل ، فوضع محمد بن أحمد بن مفرج تبويبا لكتاب الاسماء والكنى لابي عبد الرحمن النسائي ، وظل هذا الكتاب يدرس حتى بعد قرن ونصف على الاقل في الاندلس . وقام العالم ذاته بجمع احكام رجال الحديث من الاجيال الاولى في المشرق، وجاء جمعه لفقه الحسن البصري في سبعة اسفار ، أما فقه الزهري فجمعه في كتب كثيرة ، واشتهر بين الاندلسيين في علم الحديث محمد بن معاوية من الاسرة الاموية الحاكمة ، الذي تتلمذ على النسائي وادخل سننه للاندلس . وبعد وفاته أمر الحكم يعيشا بن سعيد الوراق بتأليف كتاب عما رواه ابن الاحمر من الحديث وسماه « مسند حديث ابن الاحمر »(٢٦) . انصب الاهتمام في مجال علم الفقه على الدراسات ووضع المؤلفات عن الامام مالك ومذهبه ، خاصة وان المذهب اضحى الرسمي للدولة واصبح العمل بموجب احكامه لدى قبائل المغرب وبلدانه تعبيرا عن ولائها لخلفاء الاندلس وخروجها عن سلطان الفاطميين . تزامن ذلك مع افول نجم آل حماد ، القضاة وذوي الثروة والنفوذ في بغداد نهائيا عام ٣٢٩ هـ ، أي عندما كان الحكم وليا للعهد ، وكانوا أصحاب اليد الطولى في بسط مسائل المذهب والمنافحة عنها . فتسلم الحكم راية حماية المذهب والمنافحة عنه ، والسعي لبثه ، وآية ذلك اكماله لمشروع بدأ به أصحابهم في بغداد ، وكان عبارة عن تأليف ديوان جامع لقول مالك بن انس لا يشاركه فيه قول احد من اصحابه وباختلاف الروايات عنه وذكر من رواها . وتم تأليف خمسة اجزاء حول الموضوع وقعت بيد الحكم ، فكلف بعد التشاور مع قاضيه ابن السليم والفقيهين ابي بكر المعيطي وابي عمر بن المكوى باتمام العمل وانجازه . استطاع الفقيهان انجاز العمل بعد ما أباح لهما الحكم البحث في مكتبته عن اقوال مالك حيث كانت في روايات المكيين والمدنيين والعراقيين والمصريين والاندلسيين وغيرهم ، وخرج المؤلف في مائة جزء ودعي بكتاب « الاستيعاب الكبير » . وقد أعجب به الحكم فوصل كلا منهما بألف دينار ومنديل بكسوة وقدمهما الى الشورى .

عمل الفقيهان المصنفان لكتاب الاستيعاب تجاه اقوال مالك ما فعله كل من مسلم والبخاري تجاه أقوال الرسول (ص) ، وفي الاتجاه ذاته سار البحث حول الامام مالك فبدات دراسة الرجال الذين رووا عنه ، كما كان يجري في الحديث الشريف حول دراسة سلاسل أسناده ، وقد تصدى لهذا العمل محمد بن أبي دليم القرطبي (ت ٣٥١ هـ) ، وكان قاضيا للحكم على عدة مدن ، وانجز كتاب « الطبقات فيمن روي عن مالك واتباعهم من اهل الامصار » . وظل الكتاب بعده واحدا من اكبر المصادر لمن الف وكتب عن أعلام المالكية .

وفي خضم الجدل المذهبي الذي ملأ آنذاك دنيا المغرب والاندلس خدمة لاغراض

سياسية ، دخل الاندلسيون ميدان الحجاج والمجادلة بعد طول احجام ، والف أحد المقربين للحكم الذي قدمه للشورى وهو ولي عهد ، كتبا عدة في نصرة مذهب مالك منها « كتاب الدلائل والبراهين على مذهب المدنيين » (٢٨).

التاريخ والجغرافيــة

نشط التأليف في هذين المجالين في بلاط الحكم ، بتوجيه وامر منه ، وفق انماط جرى التأليف عليها بالاندلس تقليدا للمشرق . من هذه الانماط ذلك النمط من التاريخ الوثيق الصلة بمؤلفات الرجال في علم الحديث . واذا كان الهدف في المؤلفات الاخيرة معرفة الرواة في النواحي التي تساعد على التثبت من صحة الاحاديث التي يروونها ، فان الغاية أصبحت في المؤلفات الاندلسية القريبة معرفة المشاهير والبارزين في الاندلس كلها او في حدود كورة من كورها او مدينة من مدنها . وقد تتسع نطاقها ليشمل البارزين في شتى المجالات ، او يضيق ليقتصر على البارزين في مجال واحد من مجالات النشاطات الفكرية او الادارية(٢٩) . من الامثلة على رجال الاندلس ، ما الفه خالد بن سعد باسم « رجال الاندلس » للحكم المستنصر الذي اعتبر الكاتب مفخرة من مفاخر الاندلس في مواجهة علماء المشارقة المماثلين . اما المؤلفات عن البارزين في ناحية محددة ، فقد نالت فئة الفقهاء والقضاة الحظ الاوفر من اهتمام المؤلفين وتكريس المؤلفات . ومع ذلك فقد ضاع جل هذه المؤلفات على كثرتها ولم يبق منها سوى نتف واقتباسات لدى الكتاب المتأخرين . ولعل أشهر ما تبقى منها كان لابن حارث الخشني ، الذي استقدمه الحكم ــ كما مرّ ــ من سبتة ، والف له على ما يقال مائة ديوان (٣٠) ، يهمنا منها في هذا الصدد كتاب عن علماء افريقية ، وآخر عن قضاة قرطبة ، الذي حقق في زمنه للحكم رغبته في التعريف بقضاة الجماعة وبحاضرته وتخليد ذكرهم ، لكنه اعتبر لدى الكتاب المحدثين منبعا ثرا للمعلومات عن سائر نواحي الحياة بقرطبة ، ويعبر سانشيث البورنوث عن ذلك بقوله « ان القارىء المتمعن للكتاب يشعر وكأن اهل قرطبة الذين عاشوا قبل ألف عام قد بعثوا من القبور لانه يرى أمام ناظريه كل نواحي حياتهم : لهجات كلامهم ونظم ادارتهم وعاداتهم في البيت والسوق ومأكلهم وملابسهم »(٣١) . شكل آخر من اشكال الكتابة التاريخية ازدهر في بلاط الحكم ، تجاوز مشاهير المدن والحواضر ليبحث في كل شيء يتعلق بمنطقة من المناطق او كورة من الكور ، كالبحث في أرضها ومنتجاتها وتاريخها ومشاهيرها . وقد يقوم نفس المؤلف بالتأليف في النمطين ، كما هو حال مطرف بن عيسى الغساني (ت٣٥٦هـ)، الذي الف كتابا في فقهاء البيرة وآخر في شعرائها ثم تجاوز هذا الاطار المحدود ليؤلف حسب قول ابن بشكوال للحكم المستنصر كتابا سماه « المعارف في اخبار كورة البيرة واهلها وبواديها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها » . وظل الكتاب مرجعا لكل من حاول

الكتابة عن المنطقة حتى أواخر أيام التاريخ الاندلسي (٣٢) . وفي الكورة المجاورة وهي كورة ريّـة وحاضرتها مدينة مالقة قام ابن مسعدة او ابن سلمـة بالتأليف في النمط نفسه بكتاب ذي اجزاء كثيرة في « اخبار ريّـة مـن بلاد الاندلس وحصونها وولاتهـا وحروبها وفقائها وشعرائها » . ثم قام بتجاوز هذا الاطار والف بناء على أمر من الحكم المستنصر كتابا شاملا لاخبار الاندلس. ويبدو مما اقتبسه المتأخرون من هـذا المؤلف الضائع انه شمل فترات تاريخ الاندلس منذ الفترة التي سبقت فتحها (٣٣) .

وفي فترة ولاية الحكم للعهد وخلال خلافته ، انتج أب وابنه من عائلة الرازي اهم مؤلفات هذه الفترة في التاريخ والجغرافيا . وتنتمي العائلة الى قبيلة كنانة العربية ، وبذلك يكون أصلها عربيا صريحا . لكنها استوطنت الري في بلاد فارس ، ومن هنـا جاءت شهرتها ونسبت الى المدينة . واتصل الداخل منها ، وهو والد المؤرخ محمد بن موسى ، بالامير الاموي في الاندلس وعمل لديه جاسوسا ، وينسب اليه تأليف كتـاب « الرايات » وهو عمل تاريخي صغير ينصب على موضوع محدد لايتجاوز القبائل العربية التي دخلت الاندلس تحت راية موسى بن نصير . وعاش أحمد ابنه شبابه وبقية حياته في عصر خلافة الناصر والد الحكم (توفي ٣٤٤ هـ) ، ووضع في التاريخ والجغرافية عدة مؤلفات ، ففي الميدان الاخير وضع كتابا في طبوغرافية قرطبة ذكر فيه صفتها وخططها ومنازل العظماء بها ، على نحو ما بدأ بـه ابن أبي طاهر في اخبـار بغداد وذكره لمنازل صحابة المنصور فيها ، كذلك الف في الموضوع ذاته كتابا عن جغرافية الاندلس بكاملها جمع فيه النمطين المعروفين لدى العرب وهما : المسالكي والبلداني ، وقد وصفه ابن حزم بأنه « كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الاندلس ومراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة وخواص كل منها وما فيه مما ليس في غيره » .

أما في التاريخ فقد وضع كتاب الفائق في « انساب مشاهير الاندلس » ويصفه ابن حزم بأنه في خمس مجلدات ضخمة (٣٤) . ووضع كتابا في التاريخ العام للاندلس بدءا من الفترة الاسطورية ، أي ما قبل الروماني فالقوطي فالاسلامي . وقد اعتمد عليـه المؤرخون الاندلسيون في العصور التالية ، وعبرت شهرته الحدود الاسلامية لتصل الى اسبانيا المسيحية فتستوحي منه المروية العامة لاسبانيا التي امر بكتابتها بعد ثلاثـة قرون الفونسو الحكيم ــ مراحل التاريخ الاسباني اضافة للمعلومات التاريخية ، كما عبرت البحر الى المشرق ، واعتمد عليه ابـن الاثير فيما كتبـه عن فترته مـن تاريخ الاندلس . وفي القرن السابع الهجري ايضا أمر ملك البرتغال دون ديونيس بترجمتـه مـع وصف الاندلس الجغرافي ، وضاعت هذه الترجمة ، وما بقي ترجمة عنها للاسبانية باسم « مروية المسلم راسيس cronica del moro Rasis » (٣٥) واعاد بعده ابنـه عيسى للحكم المستنصر صياغة تاريخ الاندلس بشكل أكثر غنى ، وقد ادعى أن إيـاه

احمد هو مبتكر علم التاريخ بالاندلس وذلك بقوله« فغلب عليه حب الخبر والتنقير عنه، ولم يكن من شأن أهل الاندلس ، فالتقطه عمن لحقه من مشيختهم ورواتهم ودوّنه ، ووضع قواعد التاريخ بالاندلس مبتدئا ، فازلفه بالسطان واعتلت به منزلة والده ،من بعده ، واكسبوا أهل الاندلس علما لم يكونوا يحسنونه » .

يتضح من هذا القول ان مفهوم التاريخ هنا قاصر على التاريخ العام ، الذي يرتب الحوادث على السنين خلال فترة طويلة ، ويتناول اضافة لها حديثا عن الشخصيات البارزة كالامراء والوزراء . أما تراجم الرجال والمؤلفات التي تروي حادثة والاراجيز التي تقص تاريخا ، وهي مؤلفات معروفة عند الاندلسيين منذ زمن ، فلا تعتبر تاريخا. ومع ذلك فان في حديث الابن عن أبيه مبالغة واضحة ، اذ وجد لكل من مؤلفات أبيه ما يشابهها في الفترة نفسها التي عاشها وفي البلاط الذي عاش قريبا منه ذاته ، وهو بلاط عبد الرحمن الناصر ، حيث كان ولي العهد المستنصر مهيمنا في هذا المجال . فاذا بدأنا بالانساب نرى الحكيم عبد الله بن عبيد الله (المتوفى سنة ٣٤١ هـ) ، يرفع للناصر سنة ٣٣٠ هـ كتابا ألفه في الانساب يحتوي على « ذكر الخلفاء ومن تناسل منهم في الاندلس ومن سائر قريش ومواليهم وأهل الخدمة والتصرف لهم ومشاهير العرب الداخلين الى الاندلس من المشرق من غير قريش ومواليهم ومشاهير قبائل البربر الذين احتلوا الاندلس »(٢٦) .

وعاش في بلاط الناصر ثم في بلاط ابنه ككاتب له عريب بن سعد (أو ابن زيد) ، وكان عالما موسوعيا ، فهو شاعر له مؤلفات في الطب والزراعة ، كما ألف للحكم كتابا في الانواء ، نشره دوزي مع رسالة مشابهة لاسقف قرطبة تحت عنوان « تقويم سنة ٣٦١ هـ » (٢٧) . واشتهر أيضا بكتاب له في التاريخ العام على السنين وصل به تاريخ الطبري باخبار عن المشرق بين سنوات ٢٩٠ ــ ٣٢٠ هـ ، وهو مطبوع متداول في عصرنا . بهذا يبدو غير صحيح القول بأن أحمد الرازي كان المبتكر الوحيد لفن التاريخ، حتى لو أخذنا التاريخ بالمفهوم المشار اليه سابقا . ويبدو أنه ظهر في فترته لدى عديدين لتوافر العوامل الموضوعية الملائمة لظهوره ، وفي مقدمتها تراكم الى الحد الكافي في المعلومات التاريخية ، مثل المعلومات عن الرجال والحوادث بالنسبة للفترة الاسلامية من تاريخ الاندلس ، وكذلك اخبارها قبل الاسلام بنتاج ما ألفه وترجمه بعض المستعربين عن أيام القوط ومن سبقهم .

العلوم القديمة :

وهي بمفهوم العرب المسلمين تلك العلوم الداخلة ضمن اطار الفلسفة او

الحكمة ، والتي تضم ، عدا الفلسفة بمفهومنا ، مجموعة العلوم الرياضية والطبية والكيميائية . وقد سميت كذلك لاخذ العرب لها من الحضارات القديمة ، وخاصة اليونانية . كانت هذه العلوم مكروهة في الاندلس لدرجة انهم لم يتجردوا للبحث فيها الا في اواسط القرن الثالث الهجري ، وابقوا عملهم فيها في طي السرية والكتمان ، وحصل الانقلاب الكامل تجاهها في عهد الحكم حسب قول صاعد الطليطلي « ثم لما مضى صدر من المائة الرابعة انتدب الأمير الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر ، وذلك في ايام ابيه ، الى العناية بالعلوم والى ايثار اهلها واستجلب من بغداد ومصر وغيرها من ديار المشرق عيون التآليف الجليلة والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة ..... فكثر تحرك الناس في زمانه الى قراءة كتب الاوائل وتعلم مذاهبهم » (٣٨) .

لقي العاملون في هذا المضمار لدى الحكم ما لقيه غيرهم من العلماء في المجالات الاخرى من التقريب والحظوة ، الا انه قربهم تحت ستار كونهم اطباء ، اما من لم يعرف منهم بالطب فقد ابقى نفسه على مسافة منه ، كما هو حاله مع عبد الله بن محمد المعروف بالسرى ، المبرز في علوم العدد والهندسة وينسب اليه العلم بصناعة الكيمياء ، وكان الحكم يعظمه ويؤثره ويروم الاستكثار منه فيقبضه عنه ورعه ويكفه عن مداخلته زهده . وقد انشأ الحكم للباقين المعروفين بالطب ديوانا يشرف على نفقاتهم كل بحسب مرتبته . ويظهر ان عطاياه لهم كانت كبيرة لدرجة ان العديدمنهم كانوا اصحاب وظائف عالية في مجالهم بالمشرق فقدموا الى موطنهم الاندلس والتحقوا بخدمة الحكم ، ومن مشاهيرهم احمد وعمر ابنا يونس الحراني، اللذان اتما تحصيلهما في العراق ثم عملا بخدمة رجال السلطان ببغداد ، ثم قدما على الحكم وبقيا في خدمته حتى الوفاة ، وقد خلف الثاني منهما ما تزيد قيمته على مائة الف دينار . تابع هؤلاء الاطباء المقربون للحكم عملهم في مجالات عملهم ، بعضهم يعمل في الفلسفة والمنطق وبعضهم الاخر في الهندسة والحساب ، كما ان ابني الحراني اقاما داخل سكنهما بمدينة الحكم الملكية الزهراء معملا صغيرا لتركيب الادوية . ويروي عن ابن جلجل انه رأى لاحمد الحراني فيه « اثني عشر صبيا صقالبة ، طباخين للاشربة صناعين للمعجونات بين يديه . وكان قد استاذن امير المؤمنين المستنصر ان يعطي منها من احتاج من المساكين والمرضى ، فاتاح له ذلك» (٣٩) .

يلاحظ من تتبع اسماء المقربين للحكم في مضمار العلوم القديمة ان اغلبهم قد اكملوا علمهم في المشرق ، حيث تطورت هذه العلوم اثر ترجمة اصولها الى العربية ، ويبدو ان الحكم اراد للاندلسيين الاطلاع على الاصول القديمة من يونانية ولاتينية مباشرة وتبلور الشكل الذي اخذه هذا المسعى ، بالطريقة التي اتبعها في ترجمة كتابين ، احدهما يوناني والاخر لا تيني ، يقال انهما وردا ضمن هدية من امبراطور بيزنطة لبلاط

الخلافة في قرطبة . الكتاب اللاتيني هو « كتب التاريخ السبعة في الرد على الوثنيين» الفه باولوس اوروزيوس ، المحرف في الرواية العربية الى هيروشيشس ، ويعرف « بانه تاريخ للروم عجيب فيه اخبار الدهور وقصص الملوك الاول وفوائد عظيمة ». يورد ابن خلدون ان الكتاب قد ترجم للحكم المستنصر من قبل كل من قاضي نصارى قرطبة وترجمانهم فيها ، وقاسم بن اصبع شيخ العصر . ويبدو ان الاول كان ينقل الفكرة من اللاتينية الى العربية او العامية الاندلسية ويقوم الثاني بصياغتها صياغة عربية سليمة .

وقد شك الباحث الايطالي ج.ليفي دي لافيدا بأن تكون القسطنطينية مصدر المؤلف التاريخي اللاتيني ، لكن احدا لم يشك باصل الكتاب الثاني وهو لديسقوريدس اليوناني ، ويحتوي على الحشائش الطبية ، يضاف اليها حسب قول ابن جلجل «صور للحشائش بالتصوير الرومي العجيب ». ولم يكن هذا الكتاب مجهولا بالاندلس، اذ حوت مكتبة القصر ترجمة مشرقية له انجزت زمن المتوكل العباسي . لكن فائدتها بقيت محددة لان اسماء اعيان الحشائش في المشرق لا تطابق دائما اسماءها الاندلسية ، اضف الى ذلك ان المترجم المشرقي لم يعرف اعيان بعض النباتات فتركها على شكلها اليوناني ، عسى ان يتعرف عليها غيره(٤٠) . شجع الحكم عملية ترجمته من جديد ، وطلب من امبراطور بيزنطة ان ينفذ اقتراحه بايفاد عارف باليونانية من بلاطه ، فاوفد الراهب نقولا الذي انضم اليه فريق اندلسي بينهم عارفون باللاتينية واطباء وعلماء نبات ولغويون . واستمر العمل به امدا توفي خلاله نقولا الراهب ، الا انه تيسر للاندلسيين عارف باليونانية من مسلمي صقلية . وانجز العمل بدرجة من الاتقان كافية ، اذ استطاع العاملون التعرف على « اشخاص » الحشائش العقاقير في كتاب ديسقوريدس بمدينة قرطبة ونواحي الاندلس ، ولم يبق دون معرفة الا حوالي عشرة ادوية .

اسهام الحكم في الحياة العلمية والرؤية الموجهة لسياسته فيها

لعل اول اسهام له كان التمويل وتقديم عطايا للعاملين بلغت ضخامتها حدا جعل بعض اعلام المشارقة يشدون الرحال اليه متحملين مشاق الرحلة الطويلة والبعد عن الاوطان . وتبع التمويل تيسير سبل العمل بتهيئة المكان المريح اللائم وتأمين المكتبة والسماح بالرجوع لوثائق دواوين ادارته . وقد لا يبدو الحكم ضمن هذه الحدود متميزا عن غيره من الخلفاء والسلاطين المسلمين ، اذ انهم اولو أمر في دول اسلامية والاسلام يحض على طلب العلم ، اضف الى ذلك ان تجمع العلماء في بلاط ما يخلق حول الحاكم هالة من العظمة ، اذ لا يخلو ان يكون بينهم شاعر او شعراء يتغنون بامجاده ومؤرخ او مؤرخون يسجلون ما هو مشرق من احداث حكمه .

لكن الحكم تجاوز غيره بكثير من نواح عدة ، منها انفتاحه وتسامحه ، كما تجلى لنا ذلك من تقديمه للعلماء من مذاهب اخرى غير المالكيــة ، وكذلك في انفتاحــه على العلوم القديمة ، لكن هذا التسامح لم يكن مطلقا ولا يصل لحد السكوت عمن يتهم في دينه من العلماء . لذلك نراه يبعد فقيها شافعيا قد آواه في بلاطه ، عندما نمي اليــه انه على مذهب الاعتزال .

مما تميز به الحكم عن غيره ايضا انه شارك في التاليف كتابة وتخطيطا ومراجعة. كتب في الانساب والرجال ، اذ ينسب اليه ملحق لكتاب « قضاة قرطبة » للخشني ، وكذلك تعليقات كثيرة على بعض كتب مكتبته تناولت حديثا عن اطبــاء ايضا ، وتبــدو انه كان متقنا لما يكتب كثير التحري عن صحته ، اذ تتردد كثيرا لدى مؤلفين عاشوا بعد عصره وزوال حكم اسرته جملة « قرات ذلك بخط الحكم المستنصر وقوله حجة عندنا بالاندلس » . وفي حالة وضعه مخططا للؤلفات اتخذ تخطيطه اكثر من شكل ، فاحيانا يكون تحديدا دقيقا ، كما هو الحال في طبقات النحويين للزبيدي الذي يقول في مقدمته « الفت هذا الكتاب على الوجه الذي امرني به امير المؤمنين اعزه الله واقمته على الشكل الذي حده ، وامدني ابقاه الله في ذلك بعنايته وعلمه ووسعني من روايته وحفظه » . وأحيانا يكون التخطيط عبارة عن تحديد الهدف والغاية فقط من الكتاب والاكتفاء بوضع الاطار العام ، كما يظهر ذلك في كتابم « قضاة قرطبة » للخشني ، الذي يقول في هذا الصدد « ان الحكم منطلقا من الرغبة في حفظ العلوم ومطالعة الاخبار وفي معرفة النسب وتقييد الآثار ، وفي الاشارة لفضائل الســلف والتقليد لمناقــب الخلف وفي التذكير بالمنسي من الانباء والاشارة للسالف من القصص وبخاصة ما كان في مصره قديما وفي عصره حديثــا وقد امر بتأليــف كتاب القضــاة مقصورا على من قضى للخلفــاء بارض المغرب في الحاضرة العظمى قرطبة ولعمالهم بها من قبل» .

قام الحكم ايضا بمراجعة بعض المؤلفات على الاقل . ومن الامثلة على ذلــك انــه لما اكتمل معجم البارع لابي علي القالي « ورفع اليه اراد ان يقف على ما فيه من الزيادة على النسخة المجمع عليها من كتاب العين فبلغ ذلك الى خمسة الاف وست مائة وثلاث وثمانين كلمة » . وشبيه بهذا ما حدث لمختصر العين الذي قام بــه الزبيدي « على التصنيف والترتيب اللذين حدهما له . . ارتضى عمله فيه عند تصفحه . . واوصله الى نفسه يومه هذا ففاوضه في عمله الذي برع فيه واستثار له من غوامض فنونه . . » صفوة القول اذن ان النشاط الفكري في بلاط الحكم المستنصر كان موجها من قبلــه. ويبقى المهم بالتالي تبين رؤيته الموجهة وهل كانت تقليدية ، بمعنى اعطاء قــوة دافعة فقط لمسيرة الحياة الفكرية وفق الخطوط التي كانت تسير عليها ضمن اطار تقليــد المشرق . . ؟، يبدو لاول وهلة ان النشاط الفكري ظل على انتاج الانماط نفسها ، كما

يتجلى ذلك في المؤلفات اللغوية والادبية التي تختصر او تعارض تلك المؤلفات التيظهرت في المشرق . الا ان نظرة اكثر شمولا في الاستقصاء وأعمق في التامل تدل على انظروف الواقع الاندلسي والحاجات المنبثقة عنه كان لها تاثير كبير بحيث كونت تلبيتها الرؤية الموجهة للحكم في توجيه النشاط الفكري ببلاطه .

يمكن اجمال ظروف الواقع الاندلسي بكون الاندلس الوحدة القوية التي تبسط نفوذها على شمال اسبانيا من جهة ؛ كانت تواجه تحديا خطيرا من الجنوب متمثلا بالفاطميين الذين يسيطرون على جزء كبير من المغرب العربي الاسلامي ويطمحون لاخضاع ديار الاسلام كلها ، بما فيها الاندلس ، لسلطان امامهم الذي اعتبروه الامام الوحيد لها . وقد رد الاندلسيون سياسيا على هذا التحدي باعلان اميرهم خليفة اوحد لديار الاسلام ، من دون الامام الفاطمي في المغرب والخليفة العباسي في المشرق . وفي مواجهة المذهب الفاطمي دعم الخلفاء الاندلسيون المذهب المالكي وفقهاءه ، كما حاولوا ابراز مكانة قاعدتهم وهي الاندلس وجلاء تفوقها لا على المغرب فحسببل وعلى العراق أيضا .

انبثقت الرؤية الموجهة للنشاط الفكري لدى الحكم من ضرورات تلبية حاجات الاندلس ودولة الامويين فيها . وهكذا نرى اهتماما موجها نحو تمجيد وتعظيم الامويين ، اذ يؤلف شيخه وشيخ ابيه قاسم بن اصبغ كتابا في فضائل قريش . علما ان اموي الاندلس ينعتون انفسهم بالقرشيين . كما ان الحكم يجمع اشعار الخلفاء من بني امية في كتاب ، كما يحاول ان يعلي من ذكر اسرته في الاقطار الاخرى فيكافيء من يؤلف عنهم كما هو حالهمع ابي الفرج الاصفهاني صاحب الاغاني ، الذي الف في انساب قومه ومدحهم معه بقصيدة ، وكذلك هديته المالية الى ابيعمر محمد بنيوسف الكندي صاحب كتاب الولاة والقضاة ، الذي الف عن اخر المروانيين مروان الجعدي. وفي الوقت نفسه سدت الحاجة لتمجيد قاعدتهم الاندلس بتلك المؤلفات الكثيرة في الجغرافيا والتاريخ ، التي اعطت صورة عن غناها بالموارد المادية والطاقات البشرية التي عكستها كتب تراجم الشعراء والاطباء والفقهاء والمحدثين . ونظرا لمكانة الاخيرين الدينية بذل الحكم جهدا شخصيا لابرازهم عند المؤلفين المشارقة . فقد الف ابوسعيد عبد الرحمن بن احمد بن يونس المصري تاريخا لاهل الاندلس والمغرب اخذه من كتاب انفذه اليه الحكم المستنصر (٤٢) . اما التاريخ العام فيبدو في الظاهر وكانه تقليد للنمط المشرقي ولا علاقة له بتمجيد الاندلس ، لكن الاطلاع على مضمون المؤلف منه في الاندلس يبين انه يخدم الغرض خدمة وافية ، اذ يتحول هنا لتاريخ للاندلس فقط منذ العصور القديمة ، وبالتالي يعكس أستمرارية حكم الامويين من جهة ويجلي عراقتها كقاعدة للملك منذ اقدم العصور . لكن الشعوبيين الاندلسيين استغلوا هذا الغرض ليدسوا في

ثنايا المكتوب ما يبين فضل اهل الاندلس القدماء على العرب المسلمين ، كما يظهر ذلك واضحا من كتاب « تاريخ افتتاح الاندلس » لابن القوطية(٤٣) .

من ناحية اخرى اقتضت ضرورات الصراع مع الفاطميين الى اعتماد الاندلسيين على جملة وسائل ، منها دعم الفقهاء المالكيين والمذهب المالكي واعتبار سير القبائل المغربية بموجب احكامه علامة طاعة لهم . ولم يقتصر دعم الفقهاء على من وجد منهم في الاندلس والمغرب بل تعدى الامر ذلك الى مصر ، حيث كانت الهبات توزع عليهم بمعدل مائة دينار للواحد ، مع مضاعفتها لكبيرهم . ويصب في المجرى نفسه التشجيع الذي رأيناه من الحكم للتاليف حول اقوال مالك ورجاله . وتتضح الغاية الدعائية في الحديث عن رجال المالكية واضحة بجلاء في كتاب الخشني « علماء افريقية » الذي يبدو كتابا ذا طابع موضوعي يعرض لعلماء افريقية كلهم وعلى اختلاف مذاهبهم . لكن تفحصه بشيء من الدقة يوصل الى مكمن الدعاية فيه ، فبينما تقتصر تراجم الغالبية فيه على سطور قليلة من المطبوع نراه يخص سعيدا بن الحداد ، الفقيه المالكي الذي تحلى بالقدرة على الجدل والدفاع عن المالكية ضد الدعوة الفاطمية المعادية بعشرين صفحة ٢٥٧ ــ ٢٧٨ من هذا المطبوع . والاهم من طول الترجمة في تعيين الغاية هو مضمونها ، اذ حوت على وقائع مجادلاته مع احد كبار الدعاة الفاطميين وافحامه له ونقضه للاسس الفكرية التي يقوم عليها مذهبه ، كقضايا ترتيب كبار الصحابة في الفضل ، والامامة بالنص والامر الالهي لا باختيار الناس ، وامامة المفضول مع وجود الافضل . وبذلك يكون الخشني قد بث بين مطالعي الكتاب تسفيها للفكر الفاطميين.

من الجوانب الفكرية التي شجعها الحكم تلك التي تخدم ضرورات سياسته الخارجية القائمة على فرض الهيمنة وبسط النفوذ في المغرب وشمال اسبانية . ففي المنطقة الاولى كان يحارب الفاطميين باثارة القبائل والقوى الاجتماعية في المدن ضدهم ، وتتحرك رسله عبر المغرب في كل الاتجاهات لتحقيق الغرض ، وبالتالي كان لابد له من معرفته ارضا وسكانا ، وتيسر له ذلك بمؤلفات محمد بن يوسف الوراق القيرواني الموطن ، الذي الف له « في مسالك افريقية وممالكها ديوانا ضخما وفي اخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتبا جمة وكذلك الف في اخبار تاهرت ووهران وسجلماسة ونكور والبصرة تواليفا حسانا »(٤٤) . اما الشمال الاسباني فكان يعرفه عن طريق مبعوثيه المقيمين ، نظرا لصلات المنطقة مع امراء الفرنجة في غاليا ، فقد تعرف على اخبارهم وملوكهم بواسطة اسقف مدينة جرندة الحدودية بين اسبانيا وغاليا ، الذي ارسل له كتابا بهذا الصدد رأى المؤرخ المشرقي المسعودي نسخة منه بمصر (٤٥) .

ولبى حاجات التنافس مع المشرق ايضا ذلك الجانب من النشاط الفكري في بلاط الاندلس ، المتمثل اولا بانهاء التبعية الثقافية للمشرق ، ويظهر ذلك بنقل الاصول

الفقهية للفقهاء القدماء كالزهري والحسن البصري ، وفي العلوم القديمة بالاطلاع على اصولها القديمة ، لاعبر الترجمات المشرقية بها ، كما رأينا في كتاب ديسقوريدس . ولدينا العديد من المؤشرات الاخرى على رغبة الحكم لا بانهاء التبعية للمشرق فحسب بل التفوق عليه ، فعندما بلغه نبأ انسحاب احد اعضاء الوفد الذي ارسله لاستقبال ابي على القالي وامتناعه عن مرافقته لانه اكتشف له اخطاء في رواية شعر ، لم يحاسبه الحكم على ذلك بل بارك عمله بقوله « الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطىء وافد اهل العراق الينا وابن رفاعة اولى بالرضا عنه من السخط » .

اصابت عدوى منافسة الاندلس للعراق في تبوؤ مركز الصدارة في ديار الاسلام للجماعات الخاضعة من اهل الذمة ، فقد كانت الجماعة اليهودية في الاندلس على سبيل المثال تتبع السلطة اليهودية المشرعة والمدبرة لشؤون اليهود في بغداد ، والتي كانت منذ ايام الساسانيين تضع القواعد والتشريعات الهادفة الى تسيير حياة جماعتها وفق احكام التلمود(٤٦) . وهكذا كان يهود الاندلس « يضطرون في فقه دينهم وسني تاريخهم ومواقيت اعيادهم ليهود بغداد . وفي زمن الحكم قام احد خدمته في الطب وهو حسداي بن اسحق اليهودي باستجلاب تاليف من المشرق وعلم حينئذ يهود الاندلس ما كانوا يجهلونه واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه» (٤٧) .

من هذا كله يمكننا القول ، انه كان لدى الحكم المستنصر رؤية واضحة في توجيهه النشاط الفكري في بلاطه ، قائمة على جعل هذا النشاط يخدم ويلبي الحاجات المنبثقة من واقع سلطانه وسياسته الداخلية والخارجية .

الحواشـــي :

(1) Melchor M.Antuna, La Corte Literaria de al-Hakam II, el - Escorial, 1929 .

(٢) ابن حيان القرطبي ، المقتبس ، ج٥ ، تحقيق شالميتا واخرين (مدريد ١٩٧٩) ، ص ٣٢٢ .

(٣) الزبيدي ، طبقات النحويين ، (القاهرة ، ١٩٧٣) ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣ . ابن الابار ، التكملـة (ط القاهرة ١٩٦٥) ج١ ، ت ٥٤٨ .

(٤) المقتبس ، تح شالميتا ، ص ١٤ــ١٥ .

(٥) ابن الابار ، الحلة السيراء ، تح حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٣) ص ٢٠٦ــ٢٠٨ .

(٦) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، تح احمد بكير محمود (بيروت) ج٣ــ٤ ، ص٤٢٠ــ٤٢١.

(٧) طبقات النحويين ، ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩ و ٢٨٤و٣٠٣ . ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلـم بالاندلس ، (ط القاهرة ١٩٥٤) ، ت ١٥٤٥ و ١٠٧٠ .

(٨) ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تح بروفنسـال ، ج٢ ، ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ .

(٩) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تح بروفنسال ، ص ١٠٠ التكملة ، ت٦٢١ .

(١٠) المقتبس ، تح عبد الرحمن الحجي ، ص ٢١٧ .

(١١) ترتيب المدارك ، ج ٣ــ٤ ، ص ٥٧ ــ ٥٧٣ .

(١٢) الحلة السيراء ، ج١ ، ص ٣٠٢ .

(١٣) ابن النديم ، الفهرست ، (ط خياط)، ص ٥٩.

(١٤) التكملة ، ج١ ، ت ٩٨٠ . ابن الفرضي .ت ١٦٣٦ .

(١٥) المقري ، نفح الطيب ، ع محمد الدين عبد الحميد ، (القاهرة ١٩٤٩) ج٤ ، ص ١٠٨ ، تكملـة ج١،ت ٥٠٨و٩٣٦ . ابن الفرضي ، ت ٨٨٦.

(١٦) الفهرست ، ص ٤٢ ــ ٤٣ . الحميدي ، جذوة المقتبس ، تح محمد بن تاويت الطنجي،ت١٧٢ .ابن الفرضي ، ت ١٠٦٢.

(١٧) المصدر السابق ، ت ١٥٩، طبقات النحويين ، ص ٣١٠ ــ ٣١٤

(١٨) نفح الطيب ، ج٤ ، ص ١١٧ . ابن الفرضي ، ت ١٤٠٤و١٤٠٢ .

(١٩) التكملة ، ج١ ، ت ٦٩٩ .

(٢٠) من مؤلفاته التي لم نورد لها ذكرا في المتن « المدود والمقصور » و « فعلت وافعلت » و « حلـي الانسان والخيل وشياتها » و « مقاتل الفرنسان » و « تفسير القصائد المعلقات » و « الامثال » . انظر ، طبقات النحويين، ص ١٨٦.

(٢١) جذوة المقتبس ، ت ٣٠٣ ، انباه الرواة ، ج ١،٩٦١ التكملة ، ت ١١٠٤ . ابن خلكان ،وفيات الاعيان ،ج١ ، ص ٧٤. ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج٧ ، ص ٢٥ــ٣٣.

(٢٢) الزهر ، ص ٤٤ .البير حبيب مطلق ، الحركة اللغوية في الاندلس ، ص ١٣٠.

(٢٣) المصدر السابق، ص١٢٦ــ١٦٥.

(٢٤) جذوة الاقتباس ، ت ١٧٢ .

(٢٥) رواية ابن حزم في « جذوة الاقتباس » ، ت ١٧٦ وفي نفح الطيب ، ج٤ ، ص١٦٦ .

(٢٦) طبقات النحويين ، ص ٢٠١ــ٢٠٢.

(٢٧) ابن خير ، فهرسة ما رواه عن شيوخه (سرقسطة ١٨٩٣) ، ص ٢١٤ ، نفح الطيب ، ج٤، ص١٦٤ جذوة الاقتباس ،ت ٩١٥ .

(٢٨) ترتيب المدارك ، ج٣ـ٤ ، ص ٦٣٤ ـ ٦٣٥ و ٤٤٠ ـ ٤٤١ . ٤٣٦ـ٤٣٧ .

(٢٩) الف محمد بن هشام المرواني كتاب « اخبار الشعراء » وقاسم بن سعدان كتاب «فقهاء ريه » وابو اسحاق الباجي « رجل باجه » و « فقهاء باجه » واحمد بن عبد البر « فقهاء قرطبة » والف ابن عبد البر « فقهاء قرطبة » والف ابن عبد البر الكشكيناني « فقهاء وقضاة قرطبة » .

(٣٠) من كتبه الاخرى التي الفها للحكم « فقهاء المالكية » و « التعريف » و « المولد والوفاة » و « النسب » و « الاقتباس » .

(٣١) J.Ribera, al-Jusani, **Historia de los Jueces de Cordoba,** PPXXII - XLIII .

C. Sanchez. Albornoz, **En Torno a los Origenes del Feudalismo** (Buenos-Aires 1977) T.II, PP 162-166.

(٣٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ١٣٦٧ . ابن الفرضي ، ت ١٤٤٢ . ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تح عبد الله عنان ،ج١ ، ص ٣٢٠ .

(٣٣) ابن الفرضي ، ت ٢٣٨ . جذوة الاقتباس ت ٢٠٥ . نفح الطيب ، ج ٤، ص ١٦٦. المقتبس ،تح شالميتا ،ص٤٦ و ٢٧٤ـ٢٧٨ .

(٣٤) المقتبس ، تح محمود مكي ، ص ١٦٥ ـ ٢٦٩ . التكملة . ت ١٨٥ ، جذوة الاقتباس،ت١٧٤ .

(٣٥) Pons Poigues , **Historiadores Y Geografos Arabigo - Espanoles** , Madrid 1898 PP. 62- 66.

C.Sanchez Albornoz , **En torno** .. PP. 115-158.

(٣٦) محمد بن عبد الملك المراكشي ، الذيل والتكملة، تح محمد بن شريفة ، ق١،ص٢١٢ـ٢١٣ .

(٣٧) Levi Provencal , **Historia de Espana, Mosulmana,** (Madrid 1957) , P,137-135.

(٣٨) صاعد الطليطلي ، طبقات الامم ، ص٨٤و ٨٦.

(٣٩) ابن ابي اصيبعة ، طبقات الاطباء ، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ و٤٨٧ .

(٤٠) حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس ،ص ٣٠ـ٣٩.

(٤١) محمد بن حارث الخشني ، قضاة قرطبة ، نشر الحسيني ، ص ١٠ .

(٤٢) ابن الفرضي ، ص ٩ـ١٠ .

(٤٣) **J,Ribera, Disertaciones Y Opusculos** (Madrid 1956), T.I,PP 119-129.

(٤٤) التكملة ، ت ٩٩٦ و ١٧٧ .

(٤٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص٢ـ٨ .

(٤٦) Michael Morony, **Iraq After the Muslim Conpuest** , Oxford 1983, PP . 306-314 .

(٤٧) ابن ابي اصيبعة ، طبقات الاطباء ، ص ٤٩٨ .

القبائل العربية في بلاد الشام
وموقفها من حركة الفتح الإسلامي

د. محمد ضيف الله البطاينة
جامعة اليرموك

وجود العرب في بلاد الشام سابق على انتشار الاسلام فيه ، وقد استرعى ذلك اهتمام المؤرخين المعاصرين عند دراسة حركة الفتوحات الاسلامية ، وترك اثرا بينا في اثناء تعليل النصر الذي احرزه المسلمون ، وتفسير السرعة التي تمت الفتوحات فيها (١) .

وانتشار العرب بكثرة أو بقلة ، بين الداخل والساحل من بلاد الشام ، وبين البادية والحاضرة منها ، أمر له أهميته في العلاقات العربية الشامية والقوى السياسية الأخرى قبل الفتح الاسلامي للشام وبعده .

قيل كانت كلب تنزل في الجاهلية دومة الجندل ، وكان ينزل معها قوم من قضاعة وغسان ومذحج(٢) ، وغزاهم في دومة الجندل عبد الرحمن بن عوف عام ست من الهجرة(٣) .

كما نزلت كلب تبوك وأطراف الشام(٤) ، واتصلت منازلهم في هذه البلاد بتدمر،

وحمص ، والسويداء ، وباديــة السماوة من حد دومة الجندل الى عين التمر ، وقيل لم يخالطهم فيها أحد(٥) ، وقراقر وسوى ، وهما من مياه كلب التي مر بها خالد بن الوليد في اثناء قدومه من العراق الى الشام(٦) .

وكانت فزارة تنزل وادي القرى وحسمى من جنوب الاردن ، وغزاها في وادي القرى زيد بن حارثة (٧) .

ونزلت بهراء شمالي منازل بلي ، وامتدت منازلها من الينبــع الى ايلــة(٨) ، وكانت لخم وجذام تنزل على طول الطريق الى الشام ، وامتدت منازلهم بين مديــن الى تبوك فالى اذرح (٩) ، وغزاهم عمرو بن العاص في ذات السلاسل (١٠)

وغزاهم اسامة بن زيد بن حارثة عام ١١ هـ في آبل الزيت ويبنى بــين البلقاء وفلسطين ، واغار على منازلهم ، فاصاب في بني الضبيب من جذام ، وفي بني خيليــل من لخــم(١١).

ويبدو ان قومــا من لخم كانوا ينزلون فلسطــين ، لما روي أن وفداً مــن من الداريين من لخم كان يضم تميم بن أوس واخاه نعيم بن أوس ، ويزيد بن قيســ وعرفه بن مالك ، قدموا من الشام على الرسول صلى الله عليه وســلم ، فاقطعهــم الرسول (ص) حبرى وبيت عينون ومسجد ابراهيم ، فلمــا افتتح الشام دفع ذلك اليهــم (١٢) .

ومضت سليح وتنوخ وخشين والقين وغيرها من قبائل قضاعة الى الشــام ، فنزلت سليح بناحية فلسطين على بني اذينة بن سميدع من عاملة(١٣) ، وكان بنــو عاملة وهم من القبائل اليمنية ، ينزلون قرب دمشق في جبل الجليل الذي يشرف على طبريا ، ويمتد الى البحر المتوسط ، وقد نسب اليهم وعرف باسم جبل عاملة(١٤) .

ونزلت تنوخ حاضر قنسرين مذ أول ما أقاموا بالشام ، واتخذت خيم الشــعر لسكناها ، ثم ابتنوا به المنازل ، وكان حاضر حلب يجمع اصنافا من العرب من تنوخ واياد وغيرهم ، ونزل بنو القعقاع العبسيون الحيار التي عرفت باسمهم « حيار بني القعقاع » ، وكانت تجاور منطقة حلب(١٥) ، ويذكر البلاذري ان طليعة عياض بن غنم انتهت الى الرقة ، فاغاروا على حاضر كان حولها للعرب(١٦) .

ويروى أنه لما اتى عمير بن سعد الانصاري شق الفرات الشامي ، عرض الاسلام على من هناك من بني تغلب(١٧) ، ويذكر الهمداني ان الفرات ياتي من بلد الروم شاقا

في طرف الشام على التواء الى العراق ، فغربيه ديار كلب ، وشرقيه ديار مضر(١٨) ، ومن قبائل مضر بنو كلاب قوم زفر بن عاصم الهلالي(١٩) .

وفي قول للواقدي ، ان الرسول (ص) بعث سرية الى مؤته بقيادة زيد بن حارثة، واهل موته يومئذ غسان(٢٠) . وكانت منازل غسان(٢١) ، متفرقة في بلاد الشام ، نزلوا البلقاء ، والجولان ، واليرموك ، والغوطة ، ودمشق (٢٢) ، وكان خالد بن الوليد لما ترك ميدان العراق الى الشام اغار على غسان في مرج راهط ومرج الصفر(٢٣) .

وعندما يتحدث الازدي(٢٤) عن اهل الاردن وفلسطين يذكر منهم : .. وكثير من العرب .

ولما فتح المسلمون قيسارية وجدوا بها خلقا من العرب ، وكانت فيهم شقراء وقيل شعثاء ، التي يقول فيها حسان بن ثابت :

تقول شقراء لو صحوت عن الخمر　　لاصبحت مثري العدد (٢٥)

ويقول ابن حوقل(٢٦) ، واما بادية الشام فانها ديار لفزارة ، ولخم ، وجذام ، وبلي وقبائل مختلفة من اليمن وربيعة ومضر . ويرد ذكر بعض القبائل العربية في الشام في الاخبار التي تتحدث عن معركة مؤتة ، فتقول ، ان المسلمين لما نزلوا معان في جنوب الاردن، بلغهم ان بيزنطة حشدت قبائل العرب من لخم ، وجذام وبلقين، وبهراء ، وبلي ، وقبائل من قضاعة وغيرها من القبائل التي كانت تنزل تلك البلاد من جنوب الشام(٢٧) .

ويذكر ابو جعفر الطبري(٢٨) هذه القبائل ثانية في اثناء خروج المسلمين لفتح بلاد الشام في خلافة ابي بكر ، ويذكر لقاء المسلمين بهم دون زيزاء ، منهم كلب وسليح، وتنوخ ، ولخم ، وجذام ، وغسان ، كما يذكرهم الازدي(٢٩) في اثناء فتوح الاردن منهم ، جذام ،ولخم وغسان وعاملة والقين وقبائل من قضاعة .

بخصوص هجرة العرب من مواطنهم وانتقالهم الى الشام وغيرها من البلاد المجاورة لشبه الجزيرة العربية ، يقول ابو جعفر الطبري ، وكان ناس من العرب يحدثون في قومهم الاحداث ، او تضيق بهم المعيشة ، فيخرجون الى ريف العراق ، أو الى ما يليهم من بلاد اليمن ، او مشارف الشام(٣٠) .

ونظرة الى الوجود العربي في الشام زمن الراشدين والامويين والعباسيين ، ثم

الى الحلف الذي عقده صالح بن مرداس امير الكلابيين في شمال الشام ، وسنان بن عليان أمير الكلبيين في وسط الشام ، وحسان بن الجراح امير الطائيين في جنوب الشام عام ٤١٥ هـ لاخراج الفاطميين من الشام (٣١) ، ودلالته على مراكز القوى للقبيلة العربية وتجمعها في الشام ، نجد ان الخطوط الرئيسية لخارطة انتشار القبائل العربية في الشام قبل الفتح الاسلامي وبعده ، تنطوي على بعض نقاط الالتقاء والتشابه ، وتكاد الفوارق بين الوضعين تكون في الكثافة العددية للقبيلة التي اخلت بطونها وافخاذها تتحرك من مواضعها في داخل الجزيرة ومن تخومها الى الشام بدافع ذاتي وبترتيب اداري(٣٢) من جهة ، وبسعة المنطقة التي صارت القبائل تنزل فيها وتمتد حتى تصل الى الساحل احيانا من جهة اخرى .

وفي الفترة التي نتحدث عنها ، كانت بلاد الشام تابعة لبيزنطة ، وكان من المعقول جدا ، ان لا تظل القبائل العربية في الشام خارجة عن تدابير بيزنطة واجراءاتها في الشام ، تلك الاجراءات التي كانت ترمي الى حماية سلطان بيزنطة في المنطقة ، وضمان الامن والاستقرار فيها لخدمة مصالحها ، سيما وقد كانت المنطقة تشهد الصراع الذي كان يحتدم بين بيزنطة وفارس ، وكان الاستيلاء على تخوم الشام واطراف شبه الجزيرة باعتبارها معابر لاهم الطرق التجارية يمثل واحدا من مظاهر هذا الصراع(٣٣)، كما كانت سلامة الطرق التجارية ، وحماية القوافل التجارية من الاعتداءات عليها ، وبخاصة اعتداءات الاعراب،بعدا آخر في سياسة هاتين الدولتين . لذلك قبلت بيزنطة القبائل العربية التي كانت تنزل الشام ، وملكت المتغلب منها عليها ، ومدتها ببعض المال سنويا(٣٤) ثم فوضت اليها حماية الحدود ، والمواضع التي يصعب حمايتها ودفع هجمات القبائل عنها ، وفي احيان كانت تشركها معها في حروبها الخارجية . ويبدو ان بيزنطة وجدت سياسة اتخاذ هذه القبائل العربية لحرب العرب المناوئين ، حلا عمليا مجديا عسكريا واقتصاديا ، وبخاصة في الدفاع عن الحدود ضد عدو مراوغ فر"ار(٣٥) .

فهي لما وجدت قبيلة تنوخ تغلبت على غيرها ، ملكتها على العرب بالشام ، ثم وردت سليح وغلبت تنوخ ، فملكتها بيزنطة على العرب(٣٦) ، ثم وردت غسان ،وكانت خاضعة أول الامر لسليح ، وتدفع لهم اتاوة(٣٧) ، ولكنها تغلبت عليهم فملكتها بيزنطة على عرب الشام(٣٨) ، وبخصوص تأثير بيزنطة لغسان ، ذكر ابن حبيب في المحبر قال، لما غلبت غسان سليح ، خافت بيزنطة ان يميل الغساسنة مع الفرس، فاستمالتهم ، وكتبت كتابا جاء فيه ان يساندوها وتساندهم(٣٩) ، وتكاد امارة غسان ان تكون آخر الامارات العربية التي ظهرت ببلاد الشام في فترة ما قبل الفتح الاسلامي، وجاء ظهورها عام ٥٢٩ في عهد الامبراطور البيزنطي جستنيان الكبير (٥٢٧م —

٥٦٥م) (٤٠) ، وقيل كان ذلك عام ٥٠٢م ، في عهد الامبراطور البيزنطي انستازيوس الاول (٤٩١م – ٥١٨م) . الذي وقعت في زمنه الحرب الفارسية البيزنطية ما بين ٥٠٢ – ٥٠٦ م (٤١)

بلغت الامارة الغسانية منزلة جيدة عند البيزنطيين ، وكان امراء غسان يحملون منذ عام ٥٣٦ م لقب « فيلارك » ، بمعنى رئيس أو شيخ القبيلة او عامل ، وانعم القيصر طيباريوس قسطنطين (٥٧٨م – ٥٨٢ م) عام ٥٨٠ م على الامير الغساني المنذر بـ « التاج » ، وكانوا ينعمون قبلا على عمالهم بـ « الاكاليل » (٤٢) ، وشملت سلطة الامارة الغسانية القبائل العربية الرحل ، أو شبه الرحل التي كانت تنزل دوماً ، أو في اوقات معلومة في فلسطين الثانية ، والولاية العربية ، وفينيقية لبنان ، حتى في فلسطين الثالثة ، وربما ايضا في ولايات سورية الشمالية ، اي القبائل العربية في جميع بلاد الشام ، أما في البيداء فبلغت الى الحد الذي كان العرب يخشون فيه بأس الأمير الغساني وسلاحه ، وقدمت الحكومة البيزنطية للامارة الغسانية الاعانات السنوية ، غير أنها جعلت سلطة الامير الغساني مقيدة بسلطةالحكام المدنيين والحربيين المعينين من لدن الحكومة البيزنطية المركزية(٤٣) .

لم ينعم الغساسنة بهذه المكانة طويلا ، وتأثر وضعهم بتطور الاحوال السياسية والاقتصادية في بيزنطة ، تلك الاحوال التي اسفرت عن ضعف مركز بيزنطة فيالعلاقات البيزنطية الفارسية ، وفرض الاتاوات المالية على بيزنطة نتيجة خسارتها الحرب مع فارس غير مرة(٤٤) ، كما تأثر وضع الامارة الغسانية بالخلافات الدينية التي كانت تجري في بيزنطة وبخاصة بين المركز والاطراف كبلاد الشام حول طبيعة المسيح(٤٥) .

ثم لم يلبث الفرس أن قاموا بهجوم شامل على الامبراطورية البيزنطية منذ عام ٦٠٥م ، واستولوا على دمشق وطرسوس والقدس عام ٦١١م ، ثم على مصر عام ٦١٩ م ، وظلت هذه البلاد خارجة عن سلطان بيزنطة حتى عام ٦٢٨م ، (٤٦) ولابد ان الفرس في هذه الفترة لم يبقوا في هذه البلاد على عمال بيزنطة ، وطبيعي ان عمال الفرس من العرب لم يشاؤوا ان يتركوا الحكم في سورية بايدي الغساسنة الذين اراقوا دماءهم وعاثوا في ديارهم(٤٧) .

ثم خرج الفرس عام ٦٢٨ م وقيل عام ٦٢٩م من بلاد الشام ، وعادت بلاد الشام الى سلطان بيزنطة ، فما الذي جرى في مجال العلاقات العربية البيزنطية في بلاد الشام .

ذكر نولدكه أن المصادر السورية والبيزنطية انقطعت عن رواية اخبار الامارة

الغسانية منذ نهاية القرن السادس الميلادي(٤٨) ، واما ميرسون(٤٩) ، فذكر ان بيزنطة بعد عودتها الى سورية اعتمدت في جنوب فلسطين على القبائل البدوية في تلك المنطقة في حفظ الأمن على مداخلها وطرقها مقابل مبالغ مالية معينة ، واقامت في جنوب البحر الميت خطا دفاعيا اعتمدت فيه على الجند من حرس الصحراء ، وكان القائد البيزنطي في فلسطين يجمعهم لرد اعتداءات أهل البادية ، وأما بخصوص الحدود الشرقية مع فارس ، فذكر ميرسون ان جستنيان كان قد اعتمد على الغساسنة في حمايتها ، مثلما اعتمدت فارس على المناذرة ، ولكنه لا يذكر بعد عودة بيزنطة الى بلاد الشام شيئا عن الترتيبات التي أتخذتها في هذه المنطقة ، وبخاصة فيما يتعلق بالامارة الغسانية ، وعندما تعرض اسماعيل الخالدي(٥٠) لسقوط الامارة الغسانية ، كان اعتماده في تتبع الاخبار المتعلقة بزوال هذه الامارة على المصادر العربية وذكر ، اعتمادا على ذلك ، ان جبلة بن الايهم كان آخر امراء الغساسنة ، وان معركة اليرموك كانت نهاية الامارة الغسانية .

وورود غسان وجذام وبلقين وغيرها في المصادر العربية ، يعني القبائل التي كانت تسكن بلاد الشام عند الفتح الاسلامي ، وورود بعض الاسماء مثل جبلة بن الايهم وغيره كامراء ، يعني شيوخ هذه القبائل ورؤساءها ، وأما الشواهد التاريخية فلا تدل بعد عودة بيزنطة الى بلاد الشام ، على قيام اسرة مالكة غسانية ، أو غير غسانية يتمتع اميرها بما كان الامير الغساني الحارث او المنذر مثلا يتمتع به ، من بسطة في النفوذ والسلطان

ويبدو ان الاطاحة بالاسرة اللخمية نظيرة الاسرة الغسانية . اضافة الى الحرب البيزنطية الفارسية التي ادت الى هزيمة الفرس وكسيرتهم في عقر دارهم ، كانت سببا الى عدم اقامة امارة غسانية ثانية، وان الامبراطورالبيزنطي هرقل (٦١٠م-٦٤١م) لم ير ذلك ضرورة ملحة ، واكتفى بالتعامل مع رؤساء القبائل المختلفة كجزء من خطته في حفظ الأمن على حدود الامبراطورية ، وتأمين سلامة الطرق والمعابر التجارية .

وهكذا لم تؤد العلاقة العربية البيزنطية الى توحيد موقف الجانبين ، وتدعيم جبهة مشتركة بينهما ، بل شهدت أواخر القرن السادس الميلادي والثلث الاول من القرن السابع الميلادي ، حالة ارتخاء وفتور وعداء احيانا ، ثم مباينة واضحة بين الجانبين (٥٢) .

وفي الجانب الآخر ، كانت شبه الجزيرة العربية تشهد في بداية القرن السابع الميلادي ، ظهور الدعوة الاسلامية في مكة ، ثم قيام الدولة الاسلامية من بعد في المدينة،

وصارت المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية موضع اهتمام الرسول (ص) منذ السنة الخامسة للهجرة، وصارت قبائل قضاعة من سليح وبلي وكلب وعذره وبهراء، وغيرها من القبائل العربية التي تنزل هذه المنطقة وامتدادها نحو تخوم الشام وداخله طرفا في العلاقات الاسلامية ، فقد بعث الرسول (ص) زيد بن حارثة في جيش الى جذام من السنة السادسة للهجرة ، وبعث من السنة نفسها عبد الرحمن بن عوف الى بني كلب في دومة الجندل ، وقاد الجيش بنفسه عام سبعة للهجرة الى خيبر وما حولها ، وارسل عمرو بن العاص في الجيش عام ثمانية للهجرة الى ارض بلي وعذرة من بلاد قضاعة ، ذلك ان ام العاص بن وائل كانت امراة قضاعية من بلي ، وبعث من السنة نفسها عمرو بن كعب الغفاري الى ذات اطلاع بناحية البلقاء من الشام ، كما ارسل زيد بن حارثة الى مؤتة ، ثم قاد الجيش في السنة التاسعة للجهرة بنفسه الى تبوك ودومة الجندل وايلة ومقنا واذرح وجرباء والبلاد الاخرى من حولها(٥٤) .

والى جانب ذلك ، وجه رسله بالكتب الى الملوك والامراء من أهل البلاد المجاورة، فبعث دحية بن خليفة الكلبي الى قيصر الروم(٥٥) ، وشجاع بن وهب الاسدي الى الحارث بن ابي شمر الغساني ، وقال ابن هشام ، بعثه الى جبلة بن الايهم الغساني وكتب معهم اليهم يدعوهم الى الاسلام(٥٦) .

وفي ظني ان دعوة الناس الى الاسلام لم تكن وقفا على الجهود الدبلوماسية فحسب ، بل كانت البعوث العسكرية مجالا آخر من مجالات التبادل والاتصال الفكري ، واعطت الدبلوماسية والجهود العسكرية معا نتائج ملموسة في هذا الجانب، فعندما بعث الرسول (ص) عبد الرحمن بن عوف الى بني كلب في دومة الجندل ، قال له : ان أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم ، فاسلم القوم وتزوج عبد الرحمن بن عوف تماضر بنت الاصبغ الكلبي ، ولما مات الرسول (ص) كان عامله على كلب امرؤ القيس بن الاصبغ الكلبي ، ولما قيل ارتد من ارتد بعد وفاة الرسول (ص) بقي امرؤ القيس على دينه ، وكان عامله على القين عمرو بن الحكم ، وعامله على سعد هذيم ، معاوية الوائلي(٥٧) .

ونجح الرسول (ص) في عقد معاهدات مع أهل ايلة ، وجرباء ومقنا ، وتعهد اصحاب هذه البلاد بدفع الجزية ، وان يقروا المسلمين اذا مروا بهم ، وان لا يكونوا عيونا أو ادلاء عليهم(٥٨) .

وقيل اسلم اكيدر دومة الجندل(٥٩) ، وجاء وفد من كلب ، فكتب الرسول(ص) لهم كتابا ولاهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب (٦٠) .

وقدم على رسول الله (ص) رفاعة بن زيد الجذامي ، فاهدى لرسول الله (ص) غلاما ، واسلم ، وكتب له الرسول (ص) كتابا الى قومه يدعوهم فيه الى الاسلام فاسلموا(٦١) .

واسلم فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي ، وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب في منطقة معان وما حولها من بلاد الشام ، وارسل للرسول هدية بغلة بيضاء ولما علم الروم اسلامه طلبوه ، وارادوه على الرجوع عن الاسلام ، فلما ابى ضربوا عنقه(٦٢) .

ووفد الى الرسول (ص) عدي بن حاتم الطائي، وكان فرَّ الى الشام ، فاكرمه الرسول ، واحسن وفادته ، واسلم عدي ، واسلم قومه ، وولاه الرسول صدقات قومه وانقلب بغضه للرسول حبا وايمانا ، ولما ارتد من ارتد بعد وفاة الرسول ومنع الزكاة ، روي ان عدي بن حاتم قال لقومه : « والذي نفس عدي بيده ، لا اخيس بها ابدا ، ولو كنت جعلتها لرجل من الزنج لوفيت بها فان ابيتم قاتلتكم »، فانقاد له قومه ودفعوا زكاة اموالهم ، فسار عدي بها الى ابي بكر(٦٣) .

ووفد على رسول الله (ص) بنو الدار بن هانيء من الشام(٦٤) ، كما وفد عليه وفد من غسان ثلاثة اسلموا ، وعادوا الى قومهم في الشام(٦٥) .

ويبدو ان هذه النتائج وفرت للدعوة الاسلامية مناخا حسنا ، وجعلت مشاعر المنطقة التي كانت مأخوذة بالنوازع القبلية في مواقفها الاولى من الحركة الاسلامية ، جعلتها باتجاه التطلعات الاسلامية واغراضها ، وتركتها وسط تيار الاسلام المتوثب نحو بلاد الشام ، اذ ليس من قبيل المصادفة ، ان تصير قبائل طي وقضاعة وغيرها من القبائل العربية التي كانت تسرب اليها البعوث الاسلامية بالامس ، ان تصير مددا للجيوش الاسلامية السائرة الى بلاد الشام عام ١٢ هـ/ ٦٣٣م في خلافة ابي بكر(٦٦).

وقل الشيء نفسه بخصوص القبائل العربية التي كانت تنزل ارض مؤاب من بلاد الشام . قال ابو جعفر الطبري ، استنفرت الروم القبائل العربية ، ونفر اليهم من بهراء ، وكلب ، وسليح ، وتنوخ ، ولخم ، وجذام ، وغسان من دون زيزاء بثلاث، فسار اليهم خالد بن سعيد بالمسلمين، فلما دنا منهم ، تفرقوا واعروا منزلهم ، فنزله خالد ، ودخل عامة من كان تجمع له في الاسلام(٦٧) ، مع ان هذه القبائل هي القبائل التي ذكرتها الروايات العربية شريكا للروم في مأساة مؤتة زمن النبي (ص) .

وقاتلت لخم وجذام فيمعركة اليرموك مع المسلمين ، وقيل ان الذين استنفرهم هرقل من مستعربة الشام ، ما لوا وقائدهم جبلة بن الايهم ،الى جانب المسلمين(٦٨) .

وفي معركة فحل قاتلت لخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة ، والقين ، وقبائل من قضاعة الى جانب المسلمين ، وذكر ابو طيبة القيني قال ، حضر قومي بنو القين يوم فحل ، وحضرتها لخم ، وغسان ، وعاملة ، وقضاعة مع المسلمين ، فكان من هذه القبائل هناك جمع عظيم قوي بهم المسلمون على عدوهم(٦٩) ، ولما بلغ المسلمون ارض قنسرين وما حولها من شمال الشام ، دخل اكثر من كان هناك من العرب وغالبيتهم من تنوخ في الاسلام ، ومن لم يسلم صالح على الجزية ، ثم اسلموا بعد ذلك الا قليلا منهم، ، وكانوا مع المسلمين على الروم (٧٠) .

وأما ما ورد من اخبار عن وقوف بعض العرب ممن كان لهم نية في النصرانية الى جانب الروم(٧١) ، فهي اخبار تصف حالات فردية ، وتنطبق على القلة ، اكثر مما تصف حالات عامة ، وجماعية ، أو تنطبق على الكثرة ، وفضلا عن ان هذه الاخبار جاءت مجردة ،وعامة،ولاتذكر قبائل عربية بعينها ، فان الروايات التي تحدثت عن موقف عرب الشام من حركة الفتح الاسلامي ، ذكرت انحياز القبائل العربية الى جانب المسلمين ، وسمت هذه القبائل باسمائها ، وورود لفظ « القبيلة » في هذه الروايات، ينسجم مع طبيعة الحياة العربية التي كان يحكمها الاطار القبلي ، ويلعب الدور الاساس في علاقاتها الخارجية .

وهكذا لما اثار المسلمون تفكير الناس في الشام ، انتفعوا برابطة القربى مع القبائل العربية فيها(٧٢) . وعملت رابطة القربى علىتعجيل الاستعداد النفسي لعرب الشام في قبول شعارات المسلمين ، والمشاركة في طرد البيزنطيين(٧٣) ، ولم يكن ايقاظ الفكر محصورا في عرب الشام فحسب ، بل نجد غيرهم من أهل الشام يبرز في ظلال الظروف المستجدة « غرباء وبلديين »(٧٤) ، ويبحث مع المسلمين امر مواطنتهم بعيدا عن المداخلات البيزنطية ، ولعل أقرب ما يعبر عن الحالة التي حركت أهل الشام عربا وغير عرب في موقفهم من الحركة الاسلامية منجهةوبيزنطة من جهة اخرى، ما ورد عن خالد بن الوليد ان قال في العراق : ويحكم ! ما انتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب! او عجم ! فما تنقمون من الانصاف والعدل ! (٧٥) .

الحواشـــي :

(1) انظر : اسد رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ، ج1 ، ص248 . عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للقومية العربية ، ص 15 ـ 16 . فيليب حتى ، تاريـــخ العرب (مطول) ج1 ، ص 194ـ195 .

(2) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص 180 (مخطوط) .

(3) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج1 ، ص 131 . المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص 235 .

(4) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج1 ، ص 316.

(5) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص 324 . ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، ص 41 ، الهمداني، صفةجزيرة العرب ، ص 272 .

(6) البلاذري ، فتوح ، ج1 ، ص 131 .

(7) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص 77 . المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص 235 ، الهمداني، صفة جزيرةالعرب ، ص 272 .

(8) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج1 ، ص 317 .

(9) الهمداني ، صفة ، ص271 ـ 272 . ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، 421ـ424 .

(10) البلاذري ، انساب الاشراف ص 573 (مخطوط) . المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص 247.

(11) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ، ج3 ،ص 243 . البكري ، معجم ما استعجم ، ج1 ،ص101.

(12) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج3 / 368 ، البلاذري ، فتوح البلدان ،ج1 ، ص153 . ابـن عساكر ،تهذيب تاريخ دمشـق ، ج3 ، ص 253.

(13) البكري ، معجم ،ج1 ، ص 23 .

(14) اليعقوبي ، كتاب البلدان ص 327 . ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص 324 ـ 329 الهمداني ، صفة ،ص 272 .

(15) البلاذري ، فتوح ، ج1 ، ص 172 ، 173 ، 194 . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ،ج1،ص 162 ، ج2 ، ص 42 .انساب الاشراف ، ص 573 (مخطوط) . المسعودي ، التنبيه والاشراف، ص 247 .

(16) البلاذري ، فتوح ، ج1 ، ص 205 .

(17) البلاذري ، فتوح ، ج1 ، ص 216.

(18) الهمداني ، صفة ، ص 275 .

(19) البلاذري ، فتوح ، ج1 ، ص 173 .

(20) الواقدي ، كتاب المغازي ، ص 401 .

(21) غسان من بطون الازد ، وكانوا ينزلون على ماء بالقرب من اليمن يدعى غسان واليه نسبوا .

(٢٢) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٦ ، تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ١٥٧ . ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص٣٢٤ ، ٣٢٩ . الهمداني / صفة ، ص ٢٧٤ ، ٣٣١ – ٣٣٢ . الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٢٠ . البلاذري / انساب الاشراف ، ، ص ١٨٠ (مخطوط) ابو جعفر الطبري ،ج٣ ، ص٤٠٧، ٥٧٠ . المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص١٠٨ – ١٠٩ . القلقشندي ، صبح الاعشى ،ج١ ، ص ٣١٩ . شيخو ، اداب النصرانية ، ج٢ ، ص ٣٤٦ .

(٢٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ ، ج٣ ، ص٤٠٧ . البلاذري / فتوح ، ج١ ، ص ١٦٨ .

(٢٤) الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٠٧ ، ١١١ .

(٢٥) البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ١٦٨ .

(٢٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٢ . الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٢٦ .

(٢٧) ابو جعفر الطبري ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٣٧ .

(٢٨) المصدر نفسه، ج٣ ، ص ٣٨٩ .

(٢٩) الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٠٧ ، ١١١ .

(٣٠) ابو جعفر الطبري / تاريخ ، ج١ ، ص٦٠٩ ، ج٢ ، ص٤٢.

(٣١) انظر : تاريخ يحي بن سعيد الانطاكي ص ٢٤٤ .

(٣٢) للتدليل على ذلك ، نذكر ان ابا عبيدة رتب في انطاكية وبالس جماعة من المسلمين ، واسكن قوما من العرب ، وقوما لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس، ويذكر البلاذري ان كان في صور والسواحل جند من العرب ،ثم نزع اليها اهل بلدان شتى ونزلوها، وشحن معاوية بن ابي سفيان في آخر خلافة عمر بن الخطاب او اول خلافة عثمان بن عفان السواحل بالمقاتلة ، وفعل مثل ذلك في اثناء خلافته ، واهتم بتعمير السواحل وشحنها بالناس الخلفاء من بعد ، عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك ، وابو جعفر المنصور ، وهارون الرشيد ، والمعتصم وغيرهم .
انظر : البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص : ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٨٧ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ ، ج٤ ، ص ١٦١ .

(٣٣) احمد الشريف ، قريش قبيلة العرب قبل الاسلام ، مقالة نشرت في مجلة كلية الاداب والتربية ، الكويت ، العدد الاول حزيران ١٩٧٢ ، ص١٢٠ .

(٣٤) انظر جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ،ج٢ ، ص ٤٠-٤٢ ، ٦٠١-٦٠٤ .

(٣٥)
Trimingham: **Christianity among the Arabes** p. 180.
Mayerson, Article : The First Muslim Attacks on Southern Palestine A.D. 633 - 634 PP. 188-189 .

(٣٦) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٧٨ .

(٣٧) ذكر الفيروز بادي ، ان غسان كانت تؤدي كل سنة الى ملك سليح دينارين عن كل رجل ، وكان المتولي لامر الاتاوة رجلا اسمه سبطة بن المنذر السليحي ، فجاء سبطة يسأل يوما رجلا من غسان اسمه جذع ، الدينارين ، فدخل جذع منزله ، وخرج مشتملا سيفه ، وضرب به سبطة حتى قتله وقال : خذ من جذع ما اعطاك» الفيروزبادي ، القاموس المحيط، مادة جذع .

(٣٨) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣٩) ابن حبيب البغدادي / المحبر ص ٣٧١ .

(٤٠) نولدكة / امراء غسان ص ٩- ١١ .

(٤١) انظر :
Kawar Irfan, Article: Ghassan and Byzantium: A New terminus aqueo. Islam , 1958, vol. 33 P . 235 .

وانظـر :
Ismail R.Khalidi , Article : The Arab Kingdom of Ghassan : Its Origins, Rise and Fall, Muslim World 1956, vol 46 , P197 .

وانظر ، نولدكة ، امراء غسان ، ص ٤

(٤٢) ذكر بروكوبيوس ان جستنيان رقى الامير الغساني الحارث بن جبلة الى رتبة « ملك » ، وبسط سلطته فوق قبائل عربية متعددة ليتخذه خصما قويا في وجه المنذر ملك عرب الفرس ، ويقول نولدكة بصدد لقب «ملك» ، لكن لقب « ملك » هو لقب القيصر فقط ، ومثل اطلاق هذا اللقب على امراء غسان هو من صنيع الناس في الشرق ، اذ لم يكونوا يدققون في معنى هذه الالقاب ودرجاتها ، فكانوا يطلقون على من كانت له سلطة كسلطة بني غسان لقب « ملك » ، ويذكر نولدكة ، ان المؤرخ ثيوفانس ذكر عام ٥٦١ م لقبا رسميا للحارث الغساني هو «الحارث البطريق رئيس القبيلة » ، واضاف نولدكة ان الامير الغساني كان يحمل منذ عام ٥٣٦ م اسم « فيلارك ».
انظر : نولدكة ، امراء غسان ، ص ١٣ ، ١٤ ، ٢٦ .

(٤٣) نولدكة ، ص ١٦ ، ١٧ . وانظر :
Ismail Khalidi . Article : The Arad Kingdom of Ghassan Moslem World , 1956, vol 46 pp 199-203 .

(٤٤) كانت الحرب بين بيزنطة وفارس واحدا من معالم السياسة الخارجية لبيزنطة ، وفي عهد جستنيان (٥٢٧م ــ ٥٦٥م) ، حركت سياسته التوسعية الدولة الفارسية في عهد كسرى انوشروان الى مهاجمة الاراضي البيزنطية في سورية واسيا الصغرى عام ٥٣٩م ، واضطر جستنيان بسبب ذلك الى توقيع معاهدة مع فارس لمدة خمسين سنة ، ودفع جزية سنوية أقل من تلك التي كانت تؤديها بيزنطة لفارس من قبل ، ونقضت الاتفاقية في عهد الامبراطور البيزنطي جستين ، واندلعت الحرب ثانية بين فارس وبيزنطة ، واستمرت في عهود من تلاه من الاباطرة البيزنطية ، ثم جاء الزحف الفارسي الشامل من بعد على اسيا الصغرى وسوريا ومصر عام ٦١١م ، وقد كلفت هذه الحروب وغيرها من الحروب في الجبهات المختلفة الامبراطورية البيزنطية مبالغ طائلة ، وادت الى حدوث ازمة اقتصادية خطيرة في داخل الامبراطورية البيزنطية ، وكان من بعض نتائجها ان بيزنطة كانت تتاخر في دفع الاعانات السنوية للامارة الغسانية أحيانا ، وتوقفها أحيانا اخرى ، كما اتهم الامير الغساني المنذر بن الحارث بن جبلة بالخيانة والتواطؤ مع العدو ، مما كان لذلك اثره في زعزعة العلاقات الغسانية البيزنطية وانعكاساته على موقف بيزنطة من الامارات الغسانية ، وتصدع الامارة الغسانية في نهاية القرن السادس الميلادي.
انظر : اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص٨٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، تعريب د. مصطفى بدر ، دار الفكر العربي ١٩٥٣ .

وانظر : نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٦٠ ، تعريب د. حسين مؤنس ، و د. محمود زايد ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، طبعة ثانية ١٩٥٧ .
وانظر :الباز العريني،الدولة البيزنطية ٣٢٣ ـ ١٠٨١ م ، دار النهضية العربية ١٩٨٢ ، ص٦٨ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٩ . نولدكة ، امراء غسان ، ص ٢٩ ـ ٣٤

انظر : Vasiliev, A : The Byzantine Empie, Madison 1982 .

وانظر : Arthur E.R. Boak, William Sinnegen
History of Rome to A.D. 565 p : 495 .
Fifth edition New York , London 1964 - 1965

(٤٥) قيل ان الامبراطور البيزنطي جستنيان الكبير وخلفاءه من بعده ، كانوا يتخذون الارثوذكسية مذهبا رسميا للدولة ، ويعملون على ربط رعايا الدولة بكيان الكنيسة الرسمي ، وكان امراء الغساسنة من اتباع مذهب الطبيعة الواحدة المناوىء للمذهب الرسمي للدولة ، وعقدوا تحت رعايتهم بعض المجامع الدينية ، وتولوا الدفاع عن اتباع هذا المذهب الذين تعرضوا لاضطهاد الدولة ، وقيل ان هذا الخلاف الديني كان من اسباب غضب بيزنطة على الامارة الغساسية ، وزعزعة العلاقات بين الجانبين .
انظر : ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٨٧ . نولدكة ، امراء غسان ص٢١ـ٣٢ .

(٤٦) الباز العريني ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٣ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٧ .
وانظر : Philip Mayerson : Article : The First Muslim Attacks on Southern Palestine A.D.633.634 vol.xv 1965 pp : 190 - 192 .

(٤٧) نولدكة ، امراء غسان ، ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٤٨) نولدكة ، امراء غسان ، ص٣٥ . وانظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ،ج٢، ص ٤١٨.

(٤٩) انظر : Mayerson : Article : The First Muslim Attacks on Southern Palestine pp : 189 - 192

(٥٠) انظـر : Ismail R. Khalidi : Article :
The Arab Kingdom of Ghassan : Its Origins , Rise and Fall pp: 205-206.

(٥١) قيل ان كسرى ابرويز اطاح بالاسرة اللخمية ، وازال ملكهم اواخر القرن السادس الميلادي ،واحل محلهم اياس بن قبيصة الطائي في الحيرة ، ثم اخذ الفرس زمام الامور من اياس وفوضوها الى حاكم فارسي ، من اجل ذلك انظر :
ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، مكتبة المثنى ببغداد ، ص ١٠٩ـ١١٠ .
ابو جعفر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ص١٩٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ .
حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، ص ٩٦
ابن حبيب ، المحبر ، المكتب التجاري ، بيروت ، ص٣٦٠ .

(٥٢) كان ممن تعرض للحديث عن فتح بلاد الشام والعلاقات العربية البيزنطية قبيل الفتح الاسلامي وفي التاليه :

De Goeje , Wright, Wellhausen , Kremer , Muir , Caetani , Weil , Caussin , Mayerson and others.

وقد اكد هؤلاء على المال ، والمعونات السنوية ، اساسا في العلاقات العربية البيزنطية ، وراوا اعتمادا على ما ذكره ثيوفانس وغيره ، ان القبائل العربية حولت وجهتها عن بيزنطة ، حين اوقفت الاخيرة المعونة المالية السنوية التي كانت تدفعها لهذه القبائل من أجل ذلك انظر :

Mayerson : Article: The First Muslim Attacks on Southern Palestine pp : 156 - 159 .

وانظر : George Haddad : Article : The Fall of Damascus In The Hands of The Saracens , Beirut, March 30 ,1928.See the preface pp.XI-XII

وفي حين ذكر بعض الباحثين ، ان الخلافات الدينية والخلافات المذهبية بين الامارة الغسانية وحكومة بيزنطة ، كانت من اسباب الجفاء بين الجانبين ، نجد اكثر الباحثين لا يقيم وزنا لنصرانية القبائل العربية في التاثيرعلى العلاقة بين الجانبين :

يقول ولفنسون : « اني اعتقد ان النصرانية لم تتغلب فيوقت ماعلى النفوس العربية» .

انظر : ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، القاهرة ، ص٣٧

ويذكر ريتشارد بل : يمكن القول بعدم وجود وازع ديني عند هذه القبائل .

انظر : R. Bell, The Origins of Islam In Its Christian Environment. p17 The guning lectures , Edinburgh Univ. Frank Cass and Co.Lld. , 1968.

ويذكر ترتون وسير وليم ميور : «ان تدين القبائل العربية بالنصرانية كان اسميا » .

انظر : A.S.Triton, The Caliphs and their Non - Muslim Subjects: p:76 Frank Cass and CO.LTD., 1970

Sir william Muir, The Caliphate : Its Rise , Decline and fall . p:48 Beirut, Khayats , 1963 .

ومهما يكن اختلاف هؤلاء الباحثين ، فانهم مجمعون على ان المباينة كانت الحالة القائمة بين الجانبين ، وان كل جانب ظل محتفظا بشكله في الغالب ، ولم تخدم الظروف بغض النظر عمن كان مسؤولا عن ذلك، اتجاه الاندماج بقدر ما خدمت اتجاه الاستقلال بين الطرفين .

(٥٣) ذكر المسعودي في التنبيه والاشراف قال : « ثم غزوته (ص) دومة الجندل ، وهي أول غزواته للروم ، وبين دومة الجندلوبين دمشق خمس ليال ، وبينها وبين المدينة خمس عشر ليلة ، وقيل ثلاث عشرة ، وكان صاحبها اكيدر من طاعة هرقل ملك الروم ، وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم، وطرق أهل دومة الجندل ، ولم يجد الرسول (ص) بها أحدا ، وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة .

انظر : المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٢٣٠ .

(٥٤) الطبري ، تاريخ ، ج٢ ص ٦٤٢ ، ج٣ ص ٣١ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٧ .

(٥٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٤ ص ٢٥٤ .

(٥٦) انظر : ابن هشام ، السيرة ، ج٤ ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ .
خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص ٧٩.

(٥٧) الطبري ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٢٤٢ .

(٥٨) انظر : البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ٧١ — ٧٢ . ابن هشام ، السيرة ، ج٤ص ١٦٩. الشافعي، الام ، ج٤ ، ص ١٩٢ .

(٥٩) البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ٧٢.

(٦٠) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج١ ص ٣٢٥ .

(٦١) ذكر ابن هشام ان الرسول (ص) كتب :
بسم الله الرحمـن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد اني بعثته الى قومه عامة ، ومن دخل فيهم ، يدعوهم الى الله والى رسوله ، فمن اقبل منهم ففي حزب الله وحـزب الرسول ،ومن ادبر فله امان شهرين ، فلما قدم رفاعة على قومه اجابوا واسلموا .

(٦٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ص ٢٥٥ .

(٦٢) ابن هشام ، السيرة ، ج٤ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٦٣) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ص ٢٥٥ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة ، ج٤ ، ص ٢٢٥ — ٢٢٨ .
ابن سعد ، الطبقات ، ج١، ص ٣٢٠ — ٣٢٢ .
الكلاعي ، الاكتفاء في السير ، ص ٨٢ (مخطوط).

(٦٤) ابن هشام ،السيرة ،ج٢ ، ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٦٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٢٣٨ .

(٦٦) ذكر الازدي ان ملحان بن زيـــاد الطائي ،اخا عدي بن حاتم الطائي لامـه ، اتـى ابا بكر في نحـو الف من قومه من طي من اهل شمال شبه الجزيرة العربية .

انظر : الازدي / فتوح الشام ص ٢٤ .
وذكر ابو جعفر الطبري ، ان عمرو بن العاص والوليد بن عقبة ناديا في قبائل قضاعة فتتام اليهما بشر كثير ، الحقهم ا بو بكر بجيوش الشام . انظر : الطبري ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٣٩٠ .

(٦٧) الطبري ، تاريخ ، ج٣ ص ٣٨٩ .

(٦٨) قيل جمع هرقل جموعا كثيرة من الروم واهل الجزيرة وارمينية ، وجعل على المقدمة جبلة بـن الايهم في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم ، وذكر البلاذري ان جبلة بن الايهم انحاز الى الانصار وقال : انتم اخوتنا وبنو ابينا واظهر الاسلام .

انظـر : البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ١٦٠ — ١٦١ . الطبري ، تاريخ ، ج٣ ،ص٥٧١ . اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ١٤١ . المقدسي ، البدء والتاريخ ، ج٢ ، ص ١٤١ .

(٦٩) انظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص ١١١ ،١٢٠ .

(٧٠) البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ١٧٢ — ١٧٥ .

(٧١) انظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص٤٤ ، ١٠٧ ، ١١١ ،١٦٩ ، ١٧٥ .

(٧٢) انظر: Butler : The Arab Conquest of Egypt : 152.

(٧٣) انظـر : George Haddad : Article : The Fall of Damascus in The Hands of The Saracens . p3 .

(٧٤) ذكر ابن البطريق ان منصورا عامل دمشق صعد على الباب الشرقي لدمشق وكلم خالد بن الوليد ان يعطيه الامان له ، ولاهله ولمن معه ، ولاهل دمشق ، سوى الروم .
انظر : ابن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ١٥ . وسأل اهـــل فحل المسلمين الصلح لانفسهم ، ومن كان من الروم أن يلحق بالروم انظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٤٠ .

(٧٥) انظر : الطبري ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٣٦١ .

ثبت باهم مراجع البحث ومصادره

١ ـ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ـ ١٩٥٨ .

٢ ـ ابن بطريق ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ـ مطبعة الاباء اليسوعيين عام ١٩٠٩م. ومعه تاريخ يحي بن سعيد الانطاكي .

٣ ـ ابن حبيب البغدادي ، المحبر ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت .

٤ ـ ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

٥ ـ ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ومعه كتاب البلدان لليعقوبي ، ليدن ـ ابريل ١٨٩١ .

٦ ـ ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠ .

٧ ـ ابن عساكر ـ تهذيب تاريخ دمشق ، تهذيب عبد القادر بدران ـ الطبعة الثانية ١٩٧٩ . دار المسيرة ـ بيروت.

٨ ـ ابن قتيبة الدينوري ، المعارف ، دار احياء التراث العربي ،بيروت، تحقيق الصاوي ، الطبعة الثانية ١٩٧٠م .

٩ ـ ابن هشام ، السيرة النبوية تحقيق السقا ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٠ .

١٠ ـ ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال مكتبة المثنى ، بغداد .

١١ ـ احمد الشريف ، قريش قبيلة العرب قبل الاسلام ، مقالة ـ مجلة كلية الاداب والتربية ـ الكويت العدد الاول ١٩٧٢.

١٢ ـ الازدي ، تاريخ فتوح الشام تحقيق عبد المنعم عامر ، مؤسسة سجل العرب ١٩٧٠ .

١٣ ـ اسد رستم ، الروم وصلاتهم ، دار المكشوف ، الطبعة الاولى ١٩٥٥ بيروت .

١٤ ـ الاصطخري الكرخي ، المسالك والممالك تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال ـ دار العلم ١٩٦١ .

١٥ ـ الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء .

١٦ ـ السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية دار النهضة المصرية ١٩٨٢ .

١٧ ـ اومان ، الامبراطورية البيزنطية، ، تعريب الدكتور مصطفى بدر ، دار الفكر العربي .

١٨ ـ البكري / معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع تحقيق مصطفى السقا،الطبعة الاولى ١٩٤٥م. عالم الكتب ـ بيروت .

١٩ ـ البلاذري / فتوح البلدان تحقيق الدكتور صلا حالدين المنجد / مكتبة النهضة المصرية . انساب الاشراف / مخطوط عاشر افندي ٥٩٧ السليمانية ـ استانبول .

٢٠ ـ جواد علي / المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٦ .

٢١ ـ حتي ، فيليب / تاريخ العرب مطول، الطبعة الرابعة ١٩٦٥ ـ دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع .

٢٢ ـ خليفة بن خياط / تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق الدكتور اكرم العمري / مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، دار القلم دمشق .

٢٣ ـ الدوري ، عبد العزيز ، الجذور التاريخية للقومية العربية ، الطبعة الاولى ١٩٦٠ ، دار العلم للملايين .

٢٤ ـ الشافعي / كتاب الام ، مطبوعات دار الشعب / القاهرة ١٩٦٨ .

٢٥ ـ شيخو / النصرانية وآدابها ، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٢٤ .

٢٦ ـ الطبري / تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف .

٢٧ ـ القلقشندي / صبح الاعشى في صناعة الانشاء نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ـ المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر .

٢٨ ـ الكلاعي / الاكتفاء في السير ومغازي الخلفاء الثلاثة مخطوط ايا صوفية ٢٩٧٢ ـ السليمانية ـ استانبول .

٢٩ ـ المسعودي / مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بمصر . الطبعة الرابعة ١٩٦٤ ، التنبيه والاشراف ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت

٣٠ ـ المقدسي / البدء والتاريخ ـ طبعة ١٨٩٩ ـ باريس .

٣١ ـ نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور حسين مؤنس د . محمود زايد ، الطبعة الثانية ١٩٥٧ لجنة التاليف والترجمة والنشر .

٣٢ ـ نولدكة / امراء غسان ، تعريب بندلي جوزي وقسطنطين زريق ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣ ، بيروت .

٣٣ ـ الهمداني / صفة جزيرة العرب ، نشر محمد بن بليهد ـ مطبعة السعادة بمصر .

٣٤ ـ الواقدي / كتاب المغازي ـ طبعة ١٨٥٥م .

٣٥ ـ ولفنسون / تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ـ القاهرة .

٣٦ ـ اليعقوبي / تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠م .

37 — Bell, R. : The Origins of Islam in Its Christian Environment The guning lectures , Edinburgh Univ . Frank Cass and Co Ltd 1968.

38 — Butler , A.J. : The Arab conquest of Egypt : the last thirty years of the Roman Dominion .
Second abition, Printed in Great Britain at Univ. Press,Oxford.

39 — Haddad , George : Article : The Fall of Damascus in the Hands of The Saracens . Beirut, March 30 , 1928 .

40 — Irfan, Kawar:Article: Ghassan and Byzantinm: a new terminus aqueo . Islam , 1958 , vol. 33 PP : 232 - 255 .

41 — Khalidi , Ismail : Article : The Arad Kingdom if Ghassan . Moslem World, 1956, vol 46 pp.199 - 203.

42 — Mayerson , Philip : Article : The First Muslim Attacks on Southern Palestine (A.D. 633-634) Trans . Proc. Amer. Philol. ASSOC . 95 (1964) PP.155-199 .

43 — Muir, Sir William : The Caliphate : Its Rise, Decline and fall Beirut, Khayats, 1963 .

44 — R,E, Arthur Boak and William Sinnegen : History of Rome to A.D. 565

Fifth edition 1964 New York , London .

45 — Trimingham , J.S : Christianity Among the Arabs in pre-Islamic times. Longman . London and New York .

46 — Triton, A.S : The Caliphe and Non - Muslim Subjects Frank

47 — Vasiliev, A, : The Byzantine Empire , Madison , 1952.
Cass and Co. Ltd., 1970.

دور جذام في الفتوح الإسلامية

د. صالح الحمارنة

الجامعة الاردنية

ان دور جذام في الفتوح الاسلامية يماثل الى درجة بعيدة دور بقية القبائل العربية التي كانت تسكن الديار الشامية ، خاصة الاجزاء الجنوبية منها، في الفترة التي سبقت الفتح .. بيد ان لجذام خصوصيتها . وقبل ان ندخل في تفصيل ذلك يجدر بنا ان نحدد قدر المستطاع مساكن جذام ومنازلها آنذاك .

كانت جذام قبيل الفتح تنزل المناطق فيما بين الحجاز والشام ومصر وكانت جموعها المتعددة منتشرة على مساحة شاسعة من أرض العرب، تمتد من الحدود الشمالية لوادي القرى ــ في المساحة من تبوك في الحجاز شمالا بامتداد الشمال الشرقي من وادي عربة حتى البحر الميت الى البلقاء ، حول مدينة عمان ، ثم الى الجنوب الغربي الى غزة جنوب فلسطين(١) . بالقرب من تبوك يرتفع جبل حسمى الذي يعتبر جبل جذام ، وجاء في تاج العروس جذام من اليمن تنزل بجبال حسمى وراء وادي القرى»(٢) ، ومن ابرز منازل جذام مَدْين ، وكما يذكر البكري « ومدين منازل جذام ، بلد الشام معلوم تلقاء غزة»(٣) ويقول ابن خلدون .. ونزلت جذام من حدود أيله الى ينبع محاذية للساحل (٤) ، وكانت لهم رئاسة في معان وما حولها من أرض الشام(٥) .

اعد هذا البحث للندوة الثانية للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، الجامعة الاردنية ، ١٦-٢٢ اذار ١٩٨٥ .

ومنطقة حسمى تقع في الاردن اليوم في الجنوب من مدينة معان من راس النقب الى الجنوب حيث موقع القويرة وما جاورها .

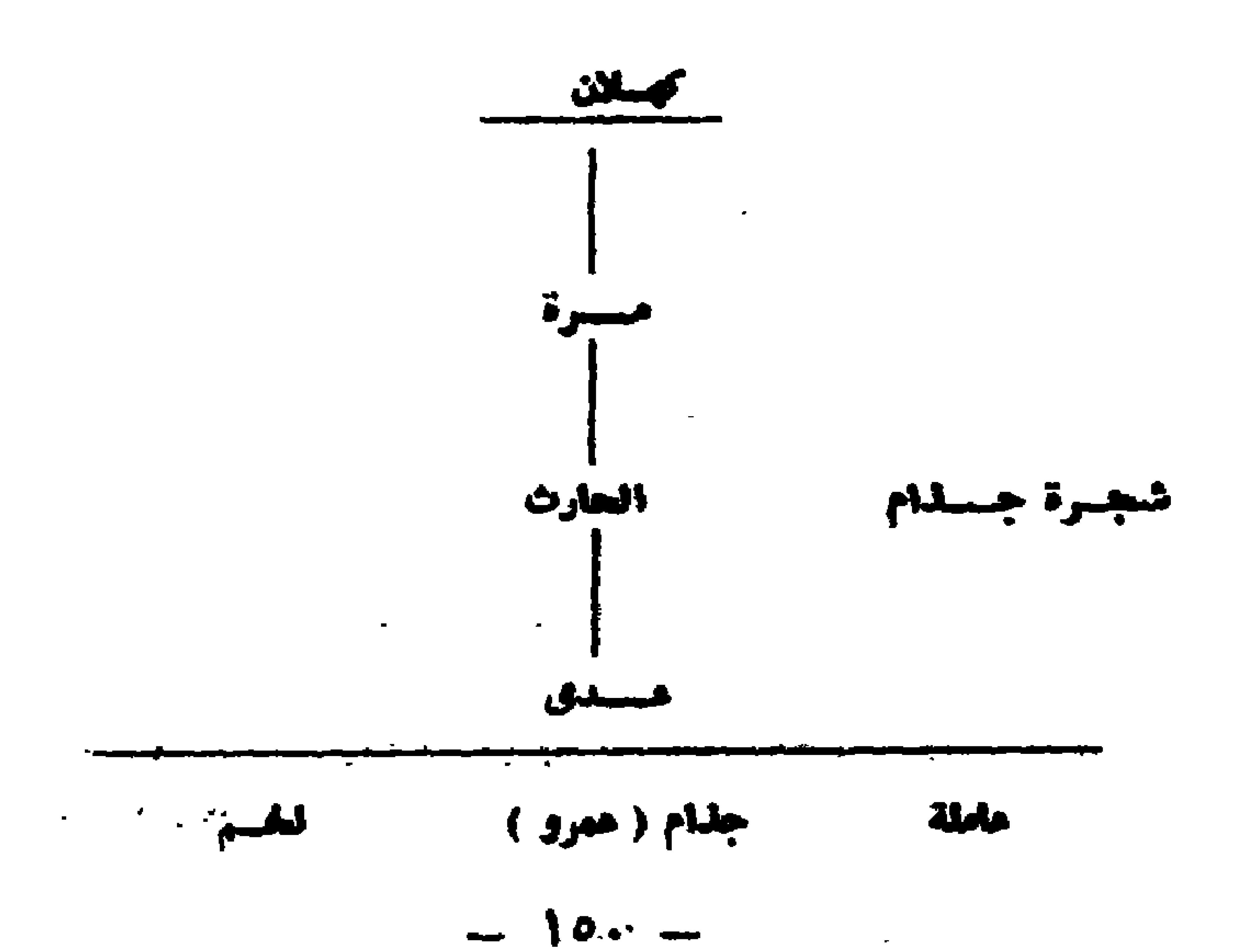
اذن فبنو جذام قد امتدت مساكنهم من شمال الحجاز ، وكان جبلهم حسمى ومن مراكزهم معان ، والبلقاء ، والى ايلة وجنوب فلسطين حتى سيناء الى حـد الفرما ، ومن خلف الفرما الى مصر ، ويقول الهمداني« .. ما تياسر نحـو البحر من بلد القبط فهو يماني»(٦) ، وتذكر المصادر كثيرا ان بني جذام ، نزلوا غزة وبعض منهـم في بيت جبرين والعريش ، وبعض ما بين طبرية من أرض الاردن الى اللجون واليامـون * ، وناحية عكا (٧) .

مما سبق نرى ان منازل جذام تقع في وسط الطرق التجارية وطرق القوافـل وطرق الحج ما بين مصر والشام والحجاز . فكانت القوافل تمر في ديارهـم ويتولى رجالها حراستها وجباية الرسوم والمكوس من التجار الذين يجتازونها (وكان عمر بن الخطاب في الجاهلية قد مر تاجرا بهم ودفـع العشر)(٨) .

يضاف الى ذلك وجود مراع لابلهم وجـذام من اكثر العرب ابـلا (٩) ، بل يبدو لنا أن أقساما منهم كانت تمارس الزراعة من سكان القرى والحواضر الكثيرة ..

بنو جذام في الواقع تكـون مؤتلف قبائل ، وحسب تعبير ابن خلـدون « بطن متسع له شعوب كثيرة »(١٠) وجذام هي المهيمنة . واما العرب الـذين كانوا في معادن الخصب .. للمراعي والعيش .. مثـل لخم وجذام وغسان وطي وقضاعـة واياد، فأختلفت انسابهم وتداخلت شعوبهم (١١) وهناك « بطون ثلاث يقال لهـم الاحلاف من جميع قبائل العرب من كنده ولخم وجذام وعبد قيس » واما جذام واسمه عمـرو بن

* اليامون : قرية تقع الى الشمال الغربي من جنين على مسيرة تسع كيلـو متـرات منها . مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، القسم الاول ، الجزء الاول ، ص٧٠٩ .



عدي اخو لخم بن عدي وعاملة بن عدي (انظر الشجرة) فبطن متسع له شعوب كثيرة(١٢) .

لست هنا بصدد ذكر ما قاله النسابون من أن جذام من مضر وانهم انتقلوا الى اليمن في الايام الخالية ، لكني مع الرأي الغالب عند النسابين ان جذام من اليمانية(١٣) .

بل انني أريد ان اذهب أبعد من ذلك فأقول ـ مستطردا ـ ان جذام وهي بطون كثيرة او بالاصح بطن متسع له شعوب كثيرة ، انما تتكون في مجموعها من مؤتلف قبائل ، سكنت نفس المواطن تقريبا ـ مع اختلافات بسيطة ـ التي سكنها من قبل المديانيون ، والادميون ـ (في جزء بسيط) وخاصة الانباط ومن جاء بعدهم اهل ثمود .. التي كانت منازلها في حسمي ، فلما هلكت ثمود انتقل ملكهم الى قوم آخرين ، آخر من نعرف منهم « جذام » الذين كانوا ينزلون في حسمي عند ظهور الاسلام ، وهم في زعم الاخباريين ابناء جذام شقيق عاملة ولخم (١٤) .

وازعم ان هذه الشعوب شعوب ارومية Autochton قد ذابت بعضها ببعض واندمجت وظهرت لنا بالتالي باسم جذام وقد هيمن هذا الاسم الذي حملته القبائل العربية الخارجة من الجزيرة وعلى فترات ابرزها في القرن الرابع الميلادي ، فهذه الشعوب والقبائل العربية التي نزلت أرض الشام خاصة في القرنين الثالث والرابع للميلاد قد غذت الارض الشامية بدماء جديدة فزادت في الكثافة السكانية وزادت بالتالي من ازدهار المنطقة وفعاليتها ، ولم يخلق وجودها اي اضطراب او عداوات، اذ في حقيقة الامر انما نزلت في أرض الشعوب العروبية (السامية) القديمة التي سبقتها والتي خلقت حضارات هذه المنطقة على مدى آلاف السنين خدمت بها الانسان وقضية تقدمه منذ نشأة الحضارات ، اذن فهذه الشعوب قد تداخلت مع السكان السابقين تداخلا واسعا وسهلا بسبب الارومة الواحدة من جهة ، ومن جهة اخرى فان الديار الشامية الواسعة وقد استوعبتها فزادت بذلك قوة وفعالية ، ناهيك عن وحدة الحضارة في الاساس مما حفظ للجميع البقاء والاستمرار امام العناصر الخارجية . ويكفي دليلا ذكر (مجر ذكر) أهم القصبات والمدن العربية التي اشتهرت في تلك الحقبة : مثل بصرى ، وغزة ، والبتراء ، ومعان ، وايلة والعريش ومدين (١٥) ...

قبل الفتح الاسلامي انتشرت النصرانية في البلاد الشامية انتشارا واسعا وقد كان في عداد المسيحيين الاوائل الشعوب العروبية (السامية) الاراميون وبعدهم

الانباط العرب ، وقد تأثرت بقية الشعوب العربية بابناء عمومتهم الاراميين «السريان» الذين سبقوهم الى النصرانية، وايضا بتاثير مباشر من البيزنطيين في الفترة اللاحقة(١٦) .

فنسمع ان الضجاعمة وهم فرع من سليح قد تنصـرت وملكت في الشام ــ في منطقة البلقاء ـ قبل الغساسنة ، وجاء في الاخبار ان اسم احد امراء الضجاعمة داوود ابن الهبوبة المعروف باللثق تنصر (وتنصر من نفس العائلة اناس قبله) وذلك في اواخر القرن الثاني للميلاد(١٧) ، ويذكر المسعودي « وكانت قضاعة بن مالك بن حمـير اول من نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم فمدوهم بعـد ان دخلوا النصرانية عـلى من حول الشام من العرب »(١٨) وان القبائل الكبيرة مثل جذام ولخم وعذره وبهراء وقسم كبير من كلب وطي ، وغيرها، هذه القبائل جميعها قد تنصرت وبدوافع عـدة ، في حين ان القبائل التي تقع في الجنوب منها مثـل : سليم ومزينـة وجهينـة وبلي بقيت في الغالب الاعم حتى مجيء الاسلام على وثنيتها وحيث ان جذام كانت في عداد كبرى هذه القبائل ومن اقواها ، وذلك بسبب من مؤتلفها القبلي الكبير ، فقـد اصبحت في مصاف القبائل العربية المشهورة أمثال كنده ، وغســان ، وكلب ، وما ان أخـذت الغزوات الاسلامية تزداد وتندفع في اتجاهها نحو الشمال ــ نحو الشام ــ عندهـا وجدت بيزنطة في جذام القوة التي يمكن ان تقف في مواجهة العرب المسلمين ، خاصـة وان ملك الغساسنة قد ذهب اثر الحروب الفارسية الساسانية ولم يقم حكم او دولة قوية تكون حاجزا وقائيا أمام شعوب الجزيرة العربية كما في السابق(١٩) .

مع تصاعد قوة الاسلام وانتشاره في الجزيرة وخارجها ، نستطيع ان نقسم دور جذام في الفتوح الى ثلاثة اقسام ، او أدوار ، تبقى متداخلة لتداخـل الاحداث التي تأخذ بعضها ببعض :

الدور الاول : زمن الرسول الكريم وفي عهد ابي بكر الصديق .

الدور الثاني : في خلافة عمر بن الخطاب .

والدور الثالث: مابعد خلافة عمر بن الخطاب حتى قيام الدولة الاموية.

ويمكن ان نصف دور جذام أيام الرسول وابي بكر بالنسبة للفتوح بانه دور سلبي وذو طابع معاد ــ في الغالب ــ للمسلمين ، مع الاستثناءات التي سنشير اليها .

أما دورها أيام عمر بن الخطاب فكان دورا ايجابيا على العموم وتبرز ايجابيتـه بشكل خاص بعد معركة اليرموك وتصل ذروة ايجابيته بالمشاركة الفعالـة لجذام في فتـح مصر .

اما بعد خلافة عمر ووقوع الفتنة ، فتأخذ جذام مكانها الكبير في طليعة أهل الشام المناصرين لبني امية والذابين عن حكمهم ، فكان لدور كلب وجذام والقبائل اليمانية ـ الشامية عموما الاثر الحاسم في تمكين معاوية بن ابي سفيان من الخلافة ونقلها لولده يزيد ، ثم في ترسيخ البيت الاموي أيام مروان بن الحكم وولده عبد الملك ، وساهمت جذام مساهمة فعالة في كل الاحداث التي تمت آنذاك ويكفي ان نذكر دور روح بن زنباع الجذامي زعيم الجذاميين خاصة واليمانية عامة ووقوفه بجانب مروان وولده عبد الملك ، ودور يمانية الشام في الفتوحات الكبرى التي تمت فيما بعد، خاصة ايام الوليد بن عبد الملك .

دعنا الان نرجع الى مصادرنا التاريخية التي تعالج السيرة النبوية ، والمغازي والفتوحات الكبرى . . نستعين بها على تفهم الوضع ولو بشكل شمولي .

ان اول شيء يجب الالتفات اليه هو ان جذام لم تكن وحدة موحدة في تصرفاتها امام الاحداث سواء أيام الرسول او بعدها ، وكما قلنا فان غالبية جذام كانت مواقفها أيام الرسوم ضد المسلمين غير أن افرادا منها ومعهم بطون صغيرة من قومهم انتقلت الى صف الرسول مع الاسلام فمثلا : تذكر المصادر ان رفاعة بن زيد الجذامي الضبيبي قدم على رسول الله في هدنة الحديبية قبل خيبر واسلم واهدى رسول الله غلاما ، وكتب له الرسول كتابا الى قومه وفي الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد ، اني بعثته الى قومه عامة ومن دخل معهم ، يدعوهم الى الله والى رسوله ، فمن اقبل فمن حزب الله وحزب رسوله ومن ادبر فله أمان شهرين ، فلما قدم رفاعة على قومه أجابوا وأسلموا(٢٠) .

ولكن الامور لا تمضي بهذا الوضوح ، فتحدثنا المصادر ان قوما من جذام اعتدوا على مبعوث رسول الله دحية بن خليفة الكلبي ، في طريق عودته من الديار الشامية ـ في تجارة له وفي نفس الوقت في مهمة للرسول ـ وان رسول الله قد أرسل الصحابي زيد بن حارثة ـ وهو ايضا بالاصل من كلب ـ لتأديب المعتدين وقد شمل هذا التأديب أصحاب رفاعة بن زيد الضبيبي الجذامي ، وتفصيل ذلك في النص التالي : ان رفاعة بن زيد لما قدم من عند رسول الله بكتابه يدعوهم (قومه) الى الاسلام ، فاستجابوا له ، ولم يلبث ان أقبل دحية بن خليفة الكلبي من عند قيصر الروم ـ وربما من عند عظيم بصرى ـ حين بعثه رسول الله ومعه تجارة له ، حتى اذا كان بواد من أوديتها ، يقال له شنار اغار على دحية الهنيد بن عوض وابنه عوض بن الهنيد الضليعيان ـ والضليع بطن من جذام ـ فأصابا كل شيء كان معه ، فبلغ ذلك نفرا من بني الضبيب ، قوم رفاعة ممن كان اسلم وأجاب . فنفروا الى الهنيد وابنه . . حتى لقوهم فاقتتلوا . . فاستنقذوا ما كان في يد الهنيد وابنه فردوه على دحية .

وتمضي الرواية « فسار دحية حتى قدم على رسول الله واخبره .. فبعث الرسول زيد بن حارثة وذلك ان الذي هاج غـزوة زيد جذاما ، وبعث معـه جيشا ، واقبـل جيش زيد من ناحية الاولاج فأغار بالفضافض (موقع) من قبل الحرة وجمعوا ماوجدوا من مال واناس ، وقتلوا الهنيد وابنه (فيمن قتل) . ويبدو من سياق الروايات ان بعضا من قوم رفاعة بن زيد اصيبـوا بأذى كبير اذ اخذوا يصيحـون في وجـه جيش زيد بن حارثة « انا قوم مسلمون » وتمضي الروايات فتقول :ان جماعـة من قـوم ضبيب ــ من جذام جاءوا رفاعة حيث يقيم بظهر الحرة على بئر ــ هناك ــ وهو لا يعلم بما جرى ــ فقالوا له : انك لجالس تحلب المعزى ونساء جذام يجرون أسارى ، قـد غرها كتابك الذي جئت به ، فدعا رفاعة بن زيد بجمل له ، فجعل يشكل عليه رحله وهو يقول : « هل انت حي أو تنادي حيا » ثم غدا رفاعة بن زيد الى المدينة فدخل على رسول الله واشتكى امره ، فامر رسول الله علي بن ابي طالب فرد للقوم اموالهـم واتصفهم ، وأطلق لهم رجالهم(٢١) .

وسرية اخرى قامت بغزوة عرفت بغزوة ذات السلاسل ، والسلاسل ماءلجذام ، بعث هذه السرية رسول الله لمحاربـة قضاعـة (بمختلف فروعها) وذلك حين بلـغ الرسول ان جمعا من قضاعة قد تجمعوا يريدون ان يدفعوا عن أطراف المدينـة فدعـا رسول الله عمرو بن العاص وعقد له لواء ابيض ، وجعل معه راية سـوداء وبعثه في ثلثمائة من سراة المهاجرين والانصار ــ فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح ــ والمصادر تشير انه لم يحدث صدام ، اذ حـين اقبل المسـلمون وحملوا عليهم (أي على قضاعة) هربـوا في البلاد وتفرقوا . وتعرف هـذه الغزوة « بجيش ذات السلاسل » (٢٢) .

أجل ان هذه الغزوات من الناحية الحربية ليسـت بذات بـال ، فما هي الا مناوشات طفيفة خفيفة ولكن أرى ان مدلولها كبير وكبير جدا فهي :

أولا : تدلنا على ان اقساما من جذام واختها لخم وغيرها من قبائل قضاعة قـد وفدوا على رسول الله معلنين اسلامهم واسـلام البطون التي تتبعهـم ، وهذا لـه أهمية بالغة اذ انه المقدمة لاسلام عرب الشام ، ويبدو لنا ان اسلام هذه البطـون لم يكن ضئيلا ويدل عليه ان الرسول الكريم قد عين من قبله رجلا هو من ابرز الصحابة ومن كبار قادة المسلمين عمرو بن العاص عينه على صدقات **جذام ولخم** « كان رسول الله ولاه (عمرو بن العاص) صدقات سعد هزيم وعذرة ومن نصها من جذام وحدس (بطن من لخم)(٢٣) .. وجدير بالذكر انه في نفس الفترة عين الرسول عبـد الرحمن بن عوف على صدقات كلب وهذه اشارة الى ان قسما من هذه القبيلة الكبيرة قد اسلم »(٢٤).

ثانيا : ان هذه المناوشات قد بعثت القلق في قلوب الروم وقلق مع الروم كبار رجال القبائل العربية المتنفذة في الشام وشمال الحجاز والموالية للروم جميعهم باتوا يخافون من تصاعد قوة المسلمين* لذا أخذوا يدنون بغاراتهم من المدينة ، ويعتدون على التجار الذين يسيرون بتجارتهم ما بين المدينة ودومة الجندل والبلاد الشامية . . فكما اعتمدوا على دحية بن خليفة الكلبي اعتدوا كذلك على غيره من التجار ، ويؤيد ذلك المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف حيث يقول : « وكان صاحبها (دومة الجندل) اكيدر بن عبد الله الكندي يدين بالنصرانية وهو في طاعة هرقل ملك الروم وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم » وليسوا بنو جذام الذي يسكنون على الطرق التجارية بمنأى عن كل هذا(٢٦) .

وثالثا : فان الامر الخطير الذي كانت الروم تخافه هو نقل اخبارها للمسلمين عن طريق التجار الذين يأتون المدينة من الانباط وغيرهم من أعوان المسلمين ، فيذكرابن عساكر ذلك فيقول « كانت . . الانباط يقدمون المدينة بالدرمك (الدقيق)والزيت في الجاهلية ، وبعد ان دخل الاسلام فانما كانت اخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الانباط . ويؤكد هذا المعنى الواقدي في المغازي » .لذا فالروم في ضيق وفي خوف من تواصل التجارة ما بين البلدان المجاورة والمسلمين في المدينة ، فالروم وحلفاؤهم لايريدون لهذا الشريان الحيوي الاستمرار والتدفق ، بجانب ان الروم منزعجة من هؤلاء الانباط وغيرهم من العرب الذين يفدون على المدينة للتجارة ، وهم ينقلون بنفس الوقت اخبار الشام في كل يوم للرسول وأصحابه ، فوق كل هذا فاعداد الذين يسلمون منهم ومن غيرهم في ازدياد مضطرد .

قد تكون معركة مؤته قد وقعت قبل شهر واحد من غزوة ذات السلاسل من السنة نفسها (٨هـ / ٦٢٩م) ، لكن طبيعة هذه المعركة واستعداد الرسول والمسلمين لها يختلف اختلافا جذريا عن سابقتها .

لقد اصبحت معركة مؤته من المعارك المشهورة في التاريخ العربي الاسلامي وذكراها حية في اذهان ووجدان كل العرب والمسلمين** . والامر الذي ننشده في بحثنا

* وذكر الواقدي : « ان دومة الجندل وايلةوتيماء قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما راوا العرب قد اسلمت له »(٢٥) .

** وحتى هذه الايام فان سكان شرق الاردن ، وخاصة في الجنوب من البلاد يروون قصصا شعبية يتداولها الناس فيما بينهم من مشاهدة مناظر القتال ، وسماع اصوات صهيل الخيول وصليل السيوف في ايام معدودة من السنة – في موضع مؤتة – بل يتحدث الناس عن سماع التكبيرة والحث على القتال والترحيب بالاستشهاد ولقاء وجه الخالق .

في حيثيات وقائع هذه المعركة هو دور جذام فيها ، والذي جاء واضحا ان جـذام في غالبيتها قد وقفت بجانب الروم وضـد المسـلمين فيها . فقد جـاء عنـد الطبري : « فبلغ الناس ان هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء **في مائة الف من الروم** ، وانضمت اليه المستعربة عن لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي في مائة الف منهم»(٢٧) .

ويبدو لنا ان دور جذام في هذه المعركة كان كبيرا وذلك للاسباب التالية :

أولا : لقد جرت المعركة في ديار جذام ومؤتلفها ،فكما قلنا مساكن جذام تمتـد من تبوك الىجبال حسمى فيشمال الحجاز الى الشمال الشرقي، فالىوادي عربةوحتى البحر الميت الى البلقاء (٢٨) ، ومن ايله شمالا الى ينبع جنوبا على طول الساحل .

ثانيا : سبق وان حصل في البلاد الشامية خراب كثير ودمار واسع بسببالحرب الطويلة التي وقعت ما بين الفرس الساسانيين وبين الروم البيزنطيين فالفرس عنـد احتلالهم الاراضي الشامية عام ٦١١م ، دمروا البلاد وقتلوا العباد وانتشر بين الناس الجوع والهلع واحتلوا كبرى مدن الشام مثل انطاكية وحلب ودمشـق والقدس ، وهدموا الكنائس وابادوا كثيرا من القرى ومن جملة ما ابادوا ملك غسان . فلما تـم النصر للروم ، واخذوا يتهيأون لتنظيم سورية واعادة السيطرة عليها عـام ٦٢٩ أو ٦٣٠ ، بعد ان تضعضع نفوذهم كثيرا حتى ان سيطرتهم لم تتعد البحر الميت في حـين كانت في السابق تمتد حتى ايلة(٢٩) . .

ولسد هذا الفراغ جاء الروم بجذام وقلدوها الرئاسة بشخص فـروة الجذامي في معان وما حولها (وسنأتي بالحديث عنه فيما بعد) الذي أصبح عاملا للروم علىقومه وعلى من كان حوالي معان من العرب (٣٠) .

ثالثا : لا حاجة بنا ان نستغرب عدم ذكر غسان بين المستعربة التي جاءت لقتال المسلمين في مؤتة ، فلم يذكرها الواقدي ولا الطبري ولا كثير غيرهما ، واكتفت المصادر ذاتها بالقول ان قاتل رسول رسول الله (الحارث بن عمير الازدي) الى ملك بصرى هو شرحبيـل بن عمرو الغساني . واخلص من كل ما تقـدم بالقـول **ان دور جـذام ومؤتلفها كان كبيرا في معركة مؤتة**(٣١) **. فكانت هي الركيزة والمعول .**

أما بالنسبة للمسلمين فبالرغم من أن المعركة لم تحقـق نتائج عسـكرية وراح ضحيتها ثلاثة من ابرز شهداء المسلمين (زيد بن حارثة وجعفر بن ابي طالب ، وعبد الله بن رواحة) ، مع هذا يبدوا انه لم يكن فيالطرفين كثير من القتلى. وتفسير ماتذكره المصادر عن الاعداد الغفيرة للجيشين (مائة الف جيش الـروم) وجيـش المسـلمين

(ثلاثة آلاف)(٣٢) ، قد يعود ذلك الى أن البلاد السورية ما زالت تعيش آثار الحرب الفارسية البيزنطية وفي جنوب سورية بالذات . نستشف من المصادر **ان الفريقين المتحاربين جلهم من العرب** ، فعرب الشام بدعم من الروم تحارب ضد العرب المسلمين ، لوقف تصاعد قوة الرسول والمسلمين .

وتذهب بعض الكتابات التاريخية الى القول من أن احد اهداف المسلمين من غزوة مؤته هو الوصول الى السيوف المشرفية الشهيرة ، التي يعتقد انها كانت تصنع في مؤتة ونواحيها ، او في قرية مشارف الشامية القريبة . وفي معجم البلدان « السيوف المشرفية منسوبة الى مشارف ، وهي قرى من ارض العرب تدنو من الريف » ، بل ان ياقوت نفسه يحدد في حديث عن مؤتة :« ثم مضى الناس حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء لقتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف » هذا النص يجعلها قرية بعينها بهذا الاسم ، كما وردت في خطط الشام لمحمد كرد علي(٣٣) . ومعلوم ان منطقة وادي عربة وعجلون وغيرهما مشهورة بمناجم الحديد وقد استغل بشكل واسع منذ الفترة الرومانية(٣٤) وقبلها . كما وانه الى الشمال من مؤتة توجد اليوم قرية اردنية باسم المشيرفة .

حملة مؤتة كانت هي الحملة الاولى والوحيدة التي جردها المسلمون نحو الشام في حياة الرسول ،وهي بذلك تؤلف الحملة الاولى في معركة تحرير البلاد الشامية من البيزنطيين الامر الذي تم بفضل الفتوحات الباهرة التي تلتها .

اما غزوة تبوك (٩ هـ) فدور جذام فيها يتضح كمايلي:

لقد ذكرنا ان اخبار بلاد الشام كانت تصل الى رسول الله في المدينة عن طريق الانباط وغيرهم ، فقدمت قادمة عام تسع للهجرة فذكروا ان الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وان هرقل قد رزق أصحابه لسنه ، وانه استنفر العرب المتنصرة فأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وبهراء وغيرها من عرب الشام وزحفوا وقدموا مقدماتهم الى البلقاء وعسكروا بها ، فرأى الرسول ان لم يبدأ الروم القتال بداه ، فامر في سنة تسع للهجرة بالتجهيز لغزو الروم ، والطلب بدم جعفر ومن استشهد معه في مؤتة في السنة الفائتة .وجاء عند الطبري . « ان رسول الله امر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم .. وذلك في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد .. وكان رسول الله قلما يخرج في غزوة الا كنى عنها .. الا ما كان من غزوة تبوك ،فانه بينها للناس لبعد الشقةوشدة الزمان وكثرة العدو ..ليتأهب الناس لذلك اهبته ، وامر الناس بالجهاز»(٣٥) . ويذكر محمد كرد علي انه كان معه (الرسول) (الرسول) أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله فحمل رجال من أهل الغنى

فاحتسبوا وانفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة ، ولم ينفق احد اعظم من نفقته. كذلك فان ابا بكر انفق في تجهيز هذا الجيش جميع ماله »(٣٧) .

ومع كل هذا الاستعداد والمشقة الفائقةالوصف ــ حتىسميت هذه الغزوة بغزوة العسرة ــ فان المسلمين لم يلاقوا كيدا ، فعادت الحملة من تبوك دون ان تصطدم بقتال ولكنها حققت المهام التالية :

أولا : كانت غزوة تبوك تجربة كبيرة لمستقبل التعبئة النفسية والاستعداد العسكري لحروب الفتح المقبلة .

ثانيا : عقد رسول‌الله خلالها الصلح مع‌اصحاب اهم المواقع التي تقع على الطرق التجارية ما بين الشام والبلاد الحجازية ، واكثر هذه المواقع تمر بديار جذام ومن جاورها من القبائل .

ثالثا : ان اهتمام الرسول بجنوب بلاد الشام اصبح ضرورة ملحة سيما بعد معركة مؤتة كما يقول صالح درادكة ، فلا بد اذن من ترتيب الاوضاع ما بين المدينة والشام لصالح سياسة التوجه نحو البلاد الشامية (٣٨) .

ولهذا اتخذ الرسول عدة اجراءات تضمن عدم عداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز ، وذلك عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الامان .

واثر غزوة تبوك تم بالفعل عقد الصلح مع الحواضر التالية :

أ ــ تم الصلح مع أهل اذرح من جبال الشراه (في هذا الموقع تم فيما بعد التحكيم ما بين علي بن ابي‌طالب‌ومعاوية‌بن‌ابي سفيان وذلك عام ٣٨ هـ) (٣٩) .

ب ــ صالح الرسول أهل جرباء ــ من الشوبك ايضا واهل مقنا على مقربة من أيلة ــ كما وسبق الصلح مع دومة الجندل.

جـ ــ ثم صالح الرسول الكريم اسقف أيلة يحنه بن رؤبة . وصلح أيلة له دلالة عميقة فأيلة ــ كما هو معروف ــ مدينة تعتمد على التجارة بالدرجة الاولى . واهلها يعيرون هذا الامر جل اهتمامهم ، وحيث ان الرسول في هذا الوقت اصبح يسيطر على اهم الطرق التجارية البرية المؤدية الى ايلة من اليمن وجنوب بلاد العرب ، لذا سارع اهلها بقيادة صاحبها يحنة بن رؤبة بعقد الصلح مع الرسول وقبلوا دفع الجزية وتبادل الرسول مع اسقفها الهدايا(٤٠) .

ويبرز هنا أمر جانبي يمس دور جذام ، ذلك ان بعض المؤرخين يذهب الى القول

ان يحنه بن رؤبة اسقف ايلة هونفسهمن جذام(٤١)، ناهيك ان كثيرا مناساقفة ايلةقبله كانوا من أصل عربي(٤٢) .

د ـ يذكر الطبري في حوادث السنة التاسعة للهجرة ان « وفدا من الداريين (من لخم) قدموا على رسول الله واسلموا » ونرجح انه في السنة نفسها اعلن فروة الجذامي اسلامه(٤٣) وفروة بن عمرو الجذامي من بني نفاثة كان ـ كما ذكرنا سابقا ـ عاملا للروم على قومه لبني النافرة من جذام ـ وعلى من حوالي معان منَ العرب ، ولما وقعت غزوة تبوك بعث الى رسول الله باسلامه وأهداه ، وغلم قيصر الروم بذلك فسلط عليه الحارث بن شمر الغساني فاعتقله وصلبه بفلسطين . وورد ذكر فروة الجذامي عند ابن الاثير هكذا « فلما بلغ الروم اسلامه (فروة)طلبوه حتى اخذوه فحبسوه عندهم فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له عفرى ـ شمال مدينة الطفيلةاليوم بفلسطين ـ . وقال ابن اسحق زعم الزهري انهم لما قدموه ليقتلوه قال :

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي اعظمي ومقامي(٤٤).

ويعلقدونرعلى مقتل فروة الجذامي قائلا «ربما انها مجردقصة دينية وفيالهامش يقول ربما ان فروة الجذامي قد قتل بسبب الحرب الفارسية البيزنطية »(٤٥) ويقول مصطفىالدباغ « فروةالجذامي أولعربي استشهد (من)بلاد الشام بسبب اسلامه»(٤٦).

ويحلو لصاحب الاوائل ان يطيل في وصف قصة فروة الجذامي وفي سرد الابيات الشعرية التي قيل انه قالها وهو مصلوب ويقارنها بابيات جميلة لابي تمام ولان القصة مؤثرة وهدية فروة للرسول قد اثارت على ما يبدو اهتماما ما في المدينة ، راينا اثباتها* :

---

* قال ابو الهلال العسكري :
بعث فروة بن عمرو الجذامي حين اسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بثياب فيها قباء سندس مخوص بالذهب وفرس وحمار وبغلة شهباء ، فكانت أول شهباء رئيت في المدينة . وكان فروةعاملا من قبل الروم على عمان (والاصح معان) من أرض البلقاء ، فقسم رسول الله الثياب بين نسائه ، اعطى القباء مخرمة ، ومات الحمار عند منصرفه من حجة الوداع ، وبلغ ملك الروم صنيع فروة ، فاراده على الرجوع الى دينه فابى ، فامر بصلبه ، فقال حين صلب :

الا هل اتى هندا بان خليلها على ماء عفرى فوق احدى الرواحل
على ناقة لا يضرب الفحل امها مشذبة اطرافها بالمناجل

ومن هنا اخذ ابو تمام قوله في مصلوبين :

اسسوا واضحوا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
سود الثياب كانما نسجت لهم ايدي الجنوب مدارعا من قار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم ابدا على سفر من الاسفار

العسكري ، ابو هلال ، جـ١، ص ١٦٩ ـ ١٧١ ، دمشق ١٩٧٥.

وقبل ان ننتقل الى المعارك الكبرى والحاسمة والتي وقعت في الديار الشاميـة لنواصل تتبعنا لدور جذام ، يجدر بنا ان نرجع الى الوراء قليلا لنسوق ملاحظة هـي بالحقيقة مربكة ولكنها تتعلق بجذام ، او بالحرى تتعلق ببني النضير وبني قريضة من يهود يثرب حيث قيل انهما من جذام ، يذكر اليعقوبي في تاريخه ان بني النضير وهم فخذ من جذام الا انهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير ، فسموا بـه ، اخرجهم رسول الله من يثرب (المدينة) فتحملوا الى الشام والى خيبر (سنة٤ هـ/٦٢٦م) ونزلت في بني النضير سورة الحشر كلها(٤٧) ، وهو « الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم »(٤٨).

ويذكر اليعقوبي الامر نفسه عن بني قريضة : « بنو قريضة وهي فخذ من جذام ، ويقال ان تهود بني قريضة كان في ايام السموال (عاديا) ، ثم نزلوا بجبـل يقال لـه قريضة فنسبوا اليه ، وقيل ان قريضة اسم جدهم . وكان بينهم وبين رسـول الله صلح فنقضوه وحالفوا قريش(٤٩) .

لا ندري هل من الممكن ان نقبل ما ذكره اليعقوبي وغيره ، ولكن ان صح ما ذهب اليه ، ففيه دليل آخر على نفوذ جذام وبعد اثرها .

ومع هـذا وبتردد زائد نسوق بعض الاشارات التي تدعـم مقولـة اليعقوبي ، تاركين الحكم فيها للقارىء الكريم :

اولا : ان اليهودية كانت دينا تبشيريا لعصور طويلة .

ثانيا : ان كثيرا من العرب قد تهودوا في فترات متباينة، فيذكر اهل الاخبار وجود اليهودية في حمير وبني الحارث بن كعب وكنده ، وتهود بني حشنة من بلي ودخولهـم تيمـاء (٥٠) .

ثالثا : ويذكر حمد الجاسر ان كثيرا ممن سكن خيبر كان من صرحاء العرب مع انهم يهـوّد مثل مرحب اليهودي الذي سجلت الكتب جانبـا من بطولتـه وهو مـن قبيلة حمير القحطانية(٥١) .

رابعا : ان جماعة اليهود المتعصبة التي استطاعت بسبب ضعف السلوقيين ان تكون زعامة ما (المخابيون) في القرن الثاني قبل الميلاد في فلسطين وكانت لتخوفها من

الهيلينية ، قد حملت الناس في جنوب فلسطين وفي الجليل على التهود ، تحت طائلة الطرد والابـادة .. وقد تكون هذه الاعمال قد امتدت عبر السنين فنسمع عن التهود بين سكان جنوب سورية حتى ايام هيرودس الكبير والي روما في فلسطين ، وكان هـو نفسه وأهل بيته من الادوميين ،فمشيا مع هذه النظرية نقول ان هذه الاعمال اصابت جذام أو بالحرى أصابت جزءا من الشعوب التي كانت تسكن المنطقة وذابت في وسطها واندمجت فيه واخذت تحمل اسم جذام فيما بعد من الزمن .

ليس موضوعنا في هذا البحث الكلام عن دوافع الفتح واسبابه وسـير المعارك العظمى التي جرت وانما هدفنا رصد دور جذام رغم تواضعه خلال هـذه الاعمـال العظام ، فقبيل خروج جيوش الفتح التي تشكلت في خلافة ابي بكر الصديـق وقعت كما هو معروف حروب الردة ، اثر انتقال الرسول الكريم الى رفيقة الاعلى .. فشمر ابو بكر الصديق والمسلمون لحرب المرتدين . ومن جملة هؤلاء كان بطن من جذام سبق وان اسلم وهم بنو الضبيب قد ارتدوا فيذكر الطبري انه « لما توسط اسامة (بن زيد) بلاد قضاعة بث الخيول فيهم وامرهم ان ينهضوا من اقام على الاسلام الى مثل مـن رجع عنه ، فخرجوا هرابا حتى ارزوا (التجأوا) الى دومة واجتمعـوا الى وديعـة (الكلبي الذي ارتد بدوره) ورجعت خيول اسامة اليه ، فمضى فيها اسامة حتى أغار على الحمقتـين (موقـع) ، فاصـاب من بني خبيب مـن جذام ، ومـن لخـم ولفها من القبيلين وحازهم من آبل (موقع) وانكفأ سالما غانمـا »(٥٣) هـذه ملاحظة بسيطة سجلناها ونمشي مع سير المعارك .

قلنا ان غزوة تبوك قد مهدت الطريق لجيوش المسلمين للسير نحو الشام، وطبيعي ان الطريق الذي سلكته معظم الجيوش الاسلامية قد مرت في ديار جذام التي نحسب ان ارتالا منها قد انضمت لجيوش المسلمين بعد الاعلان عن اسلام اقسام منهم ومـن بني لخم(٥٤) .

وكما ذكرنا كان سكان الشام قد اثقلتهم الضرائب التي فرضها هرقل للتعويض عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالبلاد اثر الحرب الفارسية البيزنطية الطويلة .

ان اكثرية السكان النصارى الذين لم يسلموا بعد كانوا في خصام مذهبي شديد مع الكنيسة الرسمية الملكانية .

وقـد لاقى رجال الدين ، وكثير من الشـعب العنت والاضطهاد من الحـكام البيزنطيين نتيجة للخلافات والصراعات ما بين المذهب الكنسي السوري (الشامي) المونوفيستي وبين الكنيسة الملكانية . فاصبح المجتمع السـوري معاديـا من الناحية الروحية للسلطات الحاكمة . وما المونوفيستية بالحقيقة الا تعبير وطني عن انفصـال

الحضارة السامية عن الفكر الروماني الهيليني الدخيــل ، لذا اختار العرب الوقــوف بجانب اخوانهم المسلمين ، الذين جاؤوا ارض الشام والعراق لنشر الاسلام ، ولمحاربة سلطان الدولتين الاجنبيتين الكبيرتين آنئذ بيزنطة وفارس ؛ ولم يكن النصارى العرب في يوم من الايام على سجل الاعداء بل العكس ، والارجــح ان النصرانيــة الاراميــة ـــالعربيةـ القبطية كانت حليفا للاسلام في اطار الصراع التاريخي ، الذيظل يتجاذب المنطقة قرونا قبل ظهور الاسلام(٥٥) .

وللموضوعية نرجع هنا الى المصادر الاجنبية نفســـها التي تخبرنا عن الترحيب الذي لقيه العرب المسلمون من السكان الاصليين للبلاد السورية ، يــورد الاب قنواتي عدة نصوص تبين ترحيب السكانبالعرب و فرحهم بخلاصهممن ظلم البيزنطيين ونسجل كمثال نصا اخذه عن بطريرك انطاكية في مذكراته « ميخائيل الســوري » مترجمة الى الفرنسية والانكليزية نورد ترجمته بالعربية كمايلي « انتقام من الله ، الذي راى شرور الروم ، الذين حيثما حكموا فحكمهم ظالم : هدموا كنائسنا واديرتنا ، ساسونا بــلا رحمة . . حتى جاءمن الجنوباولاد اسماعيل ليتم خلاصنا منالرومعلى أيديهم »(٥٦).
كل هذا يحملنا على القول ان جذام ولخم وغيرهما من القبائل العربية من الشام اسرعت وانضمت ، خاصة بعد معركة اليرموك ، الى اخوانهم العرب المســلمين واعتبروهــم محررين لهم بدليل استسلام وانسياق كثير من الحواضر والمدنللمسلمين دونما حرب، وعلى سبيل المثال مؤاب(٥٧) .

اما ما قبل اليرموك ، فنستشفمنمصادرنا ان اقساما من المتنصرة العربخاصة غسان وقفت بجانب الروم . فيذكر الطبري « سار هرقل في الروم حتى نزل انطاكية ومعه من المستعربة **لخم وجذام** وبلقين وبلي وعاملة، وتلك من قضاعة ، بشرا كثيرا ، ومعه من أهل ارمينية مثل ذلك ،فلما نزلها اقام بها » ،وبعد ذكر الاعداد والقادة يقول « سار اليهم المسلمون وهم اربعة وعشرون الفا عليهم ابو عبيدة بن الجراح ، فالتقوا باليرموك في رجب سنة ١٥ هـ » ويستمر الطبري « فاقتتل الناس قتالا شديدا حتى دخل عسكر المسلمين ، وقاتل نساء من نساء قريش بالسيوف ، حتى سابقن الرجال وقد كان انضم الى المسلمين حين ساروا الى الروم **ناس من لخم وجذام** . فلما رأوا جد القتال فروا ونجوا الى ما كان قربهم من القرى ، وخذلوا المسلمين . . وقال قائل من المسلمين حين راى من لخم وجذام ما راى :

القــوم لخم وجــــذام في الهــرب ونحن والــروم بمــرج نضطــرب

فان يعــودوا بعدها لا نصطحب

وما جاء عند الطبري ذكرته كثير من المصادر العربية الاخرى مع اختلافات بسيطة(٥٨) .

من هذه النصوص نحكم ان اقساما من جذام كانت حتى اليرموك مع المسلمين وقسم مع الروم وعند الازدي نرى المسألة اكثر وضوحا حيث يقول بصدد معركة اليرموك« خرج الناس على راياتهم وفيها اشراف العرب وفرسانهم من رجالهم وقبائلهم وفيها الازد . وفيها همدان ومذحج وخثعم**وقضاعة ولخم وجذام** وغسان وعاملة وكندة وحضرموت ومعهم جماعة من كنانة ولكن اعظم الناس من اهل اليمن» . . ويفسر الازدي ذلك فيقول « ولم يحضرها يومئذ اسد ولا تميم ولا ربيعة ، ولم تكن دارهم وانما كانت دارهم عراقية فقاتلوا فارس بالعراق » . ويذكر في مكان ا خر « ان جذام ولخم حاربت في ميسرة المسلمين حيث انكشفوا للعدو » . من هذا النص نرى ان جذام وغيرها من قبائل العرب في الشام حاربت مع المسلمين في اليرموك ايضا (٥٩).

وبما ان معارك مثل داثن (وهي من قرى غـزة) **واجنادين** مابين الرملة وبيت جبرين ، (وبيت جبرين سكانه من جذام كما مر معنا) ، قد وقعتا في اراضي جذام فنحسب انجذام كانت بجانب المسلمين آنذاك (٦٠) . ونلمح ذلك بوضوح عند فتح قيسارية حيث ارسل قائد الفتح معاوية بن ابي سفيان باثنين من بني جذام يحملان بشرى الفتح للخليفة عمر بن الخطاب(٦١) . وقيسارية من المدن الشامية التي قاومت لانها كانت مركزا هاما للبيزنطيين ومعقلا كبيرا للهلينية في الارض الشامية .

يقول الاستاذ محمد كرد علي « ومن المحقق ان العرب المتنصرة ـــ ومنهم جذام ـــ في الشام عادوا بعد ان صاروا مع الروم فانضموا الى العرب المسلمين واخذتهم النعرة الجنسية . . واصبحوا للمسلمين عيونا على الروم» (٦٢) .

وشاركت جذام مشاركة فعالة بالفتوح ودليلنا المادي على ذلك هو اجتماع يوم الجابية الذي وقع ١٧هـ على الارجح حيث اجتمع عمر بن الخطاب مع امراء الجيش ورؤساءالشام وبصحبته عدد من كبار الصحابة، وكان من دواعي الشهرة ان يكون المرء من شهود هذا اليوم . امر عمر بان يوزع العطاء على المقاتلين في فتوح الديار الشامية . . ورؤي اول الامر استبعاد القبائل العربية من اهل الشام في العطاء ولكن هؤلاء العرب الذين شاركوا الفاتحين من الحجاز واعانوهم عارضوا هذا **الراي فلم يؤخذ به** ، فيذكر اليعقوبي « وامر عمر بن الخطاب ـــ بالجابية ـــ ان تقسم الغنائم بين الناس بالسوية خلا لخم وجذام وقال : اجعل من خرج الشقة الى عدوه كمن خرج من بيته »(٦٣) .

ولكن صاحب الاموال ساق الخبر بتفصيل اكثر وبما انتهى فعلا اليه فذكر

« شهدت خطبة عمر بن الخطاب بالجابية ، قال : فحمد الله واثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : اما بعد ، فان هذا الفيء شيء افاءه الله عليكم ، الرفيع فيه بمنزلة الوضيع ، ليس احد أحق به من أحد ، الا ما كان من هذين الحيين .لخم وجذام فاني غير قاسم لهما شيئا ، فقام رجل من لخم فقال : يا ابن الخطاب ، انشدك الله بالعدل والتسوية ، فقال : ما يريد ابن الخطاب بهذا الا العدل والتسوية ، والله اني لاعلم ان الهجـرة لو كانت بصنعاء ما خرج اليها من لخم وجذام الا قليل . افاجعل من تكلف السفر وابتاع الظهر بمنزلة قوم انما قاتلوا في ديارهم . فقام ابو حدير فقال : يا أمير المؤمنين ان كان الله تبارك وتعالى ساق الهجرة الينا في ديارنا فنصرناها وصدقناها اذاك الذي يذهب حقا ؟ فقال عمر : والله لاقسمن لكم ، ثم قسم بين الناس فاصاب كل رجـل منهـم نصف دينار ، اذا كان وحده ، واذا كانت معه امراته اعطاه دينارا(٦٤) .

ان مشاركة جذام ولخم بالعطاء يعطينا دليلا ماديا يثبت المشاركة الفعلية لهما في الفتح الامر الذي استحقتا معه المشاركة في العطاء على السواء .

في نهاية بحثنا .. لنقف عند حادث اليم أصاب المسلمين وهو طاعون عمواس ؛ وتقـول اكثر المصادر انه وقـع في عام ١٨ هـ . وسـمي باسم المدينـة الفلسطينيـة ـعمواسـ التي تقع على الطريق الرئيسي الموصل القدس باللد .

وطاعون عمواس كان عنيفا وامتد الى مناطق واسعة ، ويذكر ياقوت في معجمـه انه راح ضحيته خمسة وعشرون الفا من المسلمين(٦٥) .

ان يحدث طاعون في الارض الشامية ـ او مناطق منها على الاقل ـ في ذلك الوقت ليس بالامر الغريب ، يذكر كونراد في دراسة له حول الطاعون انـه قد حـل بسورية طاعون جارف في أيـام جستنيان الاول عام ٥٤٢م ، وفي أواخر القرن السادس ، وفي مطلع القرن السابع للميلاد ، وقع طاعون آخر . وتشير المصادر الى ان الطاعون كأنه قد استوطن بعض الارض الشامية في الفترة الاموية وبداية الفترة العباسية(٦٦) .

ولكن السؤال : ما علاقة ذلك بدور جذام في الفتوح ؟ موضـوع بحثنـا .. انني افترض انه بسبب هذا الوباء الذي راح ضحيته تلك الالاف من الشهداء المسلمـين ، كان من بينهم قادة جيش الفتح ابو عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان ، ومعاذ بن جبل واخرون ـ رضوان الله عليهم ـ ، قد احدث فراغا في القوى البشرية للمسلمين وهم في نشوة انتصاراتهم على البيزنطيين في الشام ، ويستعدون للسير لفتح مصر . وحيث ان هذا الوبـاء يصيب الحواضر وسـكان المـدن اكثر مما يصيب البـوادي ،

والهضاب والواحات واطراف الصحراء حيث تعيش جذام وجموعها ، تلك الجموع التي كما قلنا اكثر العرب ابلا . . فهم معها خارج المدن المكتظة ، وجذام ومؤتلفها تم انضمامها في هذا الوقت بالذات الى صفوف المسلمين . اذن ففي **الجموع الجذامية وجد المسلمون التعويض البشري الكبير عن كوارث الطاعون والمد الوافر من المجاهدين للانضمام الى جيش فتح مصر** ..ودون الخوض بتفاصيل كثيرة حول فتح مصر ودور جذام في تلك الفتوح يكفي القول ان جذام ومعها لخم وبهراء وبلي وغيرهم قد كونت عماد جيش الفتح بقيادة عمرو بن العاص ، الذي انطلق من موطن جذام جندفلسطين.

وحيث ان موضوع فتح مصر ، يخرج بنا عن نطاق حدود هذا البحث ، فيكفي ان نسوق هذه الملاحظات البسيطة نختتم بها حديثنا عن دور جذام في الفتوح :

ان أول من سكن الفسطاط هم أهل الراية وفيهم القبائل التي شاركت بالفتح منها بلي ولخم وجذام خاصة فرع وائل التي شكلت أهم الفرق(٦٧) .يقول القلقشندي « بنو جذام أول من سكن مصر من العرب جاءوا في الفتح مع عمرو بن العاص ، واقطعوا فيهابلادا بعضها بأيدي بنيهم الى الان » . وقال في موضع آخر « ومن اقطاعاتهم ـبني جذام ـ هريبط ، وتل بسطه ونوب وغير ذلك » . وذكر القلقشندي عدة بطون لجذام وقال « بالاسكندرية من جذام ولخم أقوام ذو عدد وعدة واهل شجاعة واقدام وضرب بالسيف ورشق بالسهام ولهم أيام معلومة وأخبار معروفة ووقائع في البر والبحر مشهورة »(٦٨) .

المصادر والمراجـع :

(١) القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧ ، القاهرة ١٩٥٩ . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٩٢ ، دار المعارف المصرية ١٩٥٢ . ابن خلدون ، العبر ، جـ ٢ ، ص ٣٧، الكتاب اللبناني بيروت . البلاذري،فتوح البلدان ، ص ١٢٥،١٥٩، الطبعة الاوروبية .

(٢) الزبيدي ، تاج العروس ، حـ ٨ وايضا النويري ، نهاية الارب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ ، القاهـرة . ابن منظور : لسان العرب، حـ ١٤ ، ص ٣٥١ ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .

(٣) البكري ، معجم ما استعجم ، تحقيق السـقا ، القاهـرة جـ ٤ ص ١٢٠١ . ايضـا القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٥ – ٢٠٩ .

(٤) ابن خلدون ، العبر حـ٢ ، ص ٣٧ .

(٤) ابن خلدون ، العبر جـ ٢ ، ص ٣٧ ، الكتاب اللبناني : بيروت .

(٥) ابن خلدون ، العبر جـ٢ ، ص ٣٧.

(٦) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٥– ١٢٦ .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان جـ ٢ ، ص ١١٤ ، بيروت ١٩٧٩ . اليعقوبي ، بلدان ، ٢٣٠–٢٣٩ (مـع كتاب الاعلاق النفسية) ليدن ١٨٩١ .

(٨) الحلبي ، المناقب المزيدية ، جـ١ ، ص ٧٠،٦٧ .
هبة الله ، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسا ت، عمان ١٩٨٤ .

(٩) ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ١٤ ص ٣٥٦ ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .

(١٠) ابن خلدون ، العبر ، جـ٢ ، ص ٥٢٥.

(١١) ابن خلدون ، ن.م ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ .

(١٢) ابن خلدون ، ن.م ، جـ٢ ، ص ٥١٧ .
ابن عبد ربه ،العقد الفريد ، جـ ٣ ، ص ٤٠٣ .

(١٣) ابن حزم ، جمهرة الانساب ، ص ٣٩٥ . القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٦ ، القاهـرة ١٩٥٦ .

(١٤) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٤ ، ١٦٦ – ١٦٧ .

(١٥) عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للامة العربية ، مركزدراسات الوحدة العربيـة ، بـيروت ١٩٨٤ . فيليب حتي ، تاريخ العرب (مطول) ، بيروت ١٩٦١ . شاكر مصطفى ، العرب والاسـلام وفلسطين عبر التاريخ (من كتاب القضية الفلسطينية) ، الموصل ١٩٨٣ .

انظـر :
Trimingham, J.S., **Christianity among the Arabs in pre-Islamic Times**, Longman, London 1971 .

(١٦) صالح الحمارنة ، المسيحية في ارض الشام في اوائل الحكم الاسلامي ، (من كتاب المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام) عمان ١٩٧٤ ، ص ٥٤٩ – ٥٥١ .

(١٧) توفيق فهـد ، ماوية وضجعم او العرب والرومان في اواخر القرن الرابع ، بحث مقدم لمؤتمـر بلاد الشام الرابع ١٥-٢١ تشرين اول سنة ١٩٨٣ .

(١٨) المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق محمد عبد الحميد ، جـ ١ ، ص ٦١ ، القاهرة ١٩٦٦ .

(١٩) ترمنجهام ، ن.م ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢٠) الطبري ، تاريخ جـ٣ ، ص ١٤٠ . ابن هشام ، السيرة جـ٢ ، ٣٤ تحقيق عبد السلام هارون .

(٢١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى جـ ١ ، ص ١٣١ لجنة الثقافة القاهرة . الطبري ، تاريـخ جـ٣ ، ص ١٤٠ - ١٤١ . ابن الاثير ، اسد الغابة ، جـ ٢ ، ص ١٨١ . خليفة بن خياط ، تاريخ ص ٨٥ ، تحقيق اكرم العمري . ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٢٥١ ، بيروت سنة ١٩٧٩ .

(٢٢) الطبري ، تاريخ جـ٣ ، ص ١٢٥ - ١٢٨ . خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٨٥ . ابن سيد الناس، عيون الاثر ، جـ٢ ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .

(٢٣) الطبري ، تاريخ ، جـ ٣ ، ص ٨٩ .

(٢٤) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢٥) الواقدي ،المغازي ، جـ٣ ، ص ٣١ . محمد بن عمر ، تحقيق جونس .

(٢٦) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ ، بيروت سنة ١٩٦٣ .
علي بن الحسن

(٢٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشـق تحقيق ، صلاح الدين المنجد ، جـ١ ، ص ٤١٣ ، دمشـق ١٩٥٤ .
الواقدي ، كتاب المغازي ، جـ ٢ ، ص ٤٠٣ ، جـ ٣ ، ٩٨٩ ، القاهرة ١٩٦١ . صالح الحمارنة ، دور الانباط في الفتوح الاسلامية ، مجلة دراسات « الاردنية » المجلد السابع ، العدد ١ ، عمـان ١٩٨٠ ، ص ١٦٧ ومابعدها .

(٢٧) الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص ٣٧ .

(٢٨) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٩ . ابن خلدون ، العبر ،جـ ٢ ، ص٢٤ . جواد علـي ، المفصل جـ٤ ، ص ٢٤٥ .

(٢٩)
Donner, F., **The Early Islamic Conquests,** pp,99 - 101, Newjersey 1981.
Trimingham
Anawati, G., **Factors and Effects of Arabization and Islamization in Egypt and Syria,** p.20, Otto Harrassowitz , wiesbaden 1975.

نودلكة ،امراء غسان ، ص ٤٩-٥٠ الترجمة العربية ، بيروت ١٩٣٣ .

(٣٠) البكري ، معجم ما استعجم ، جـ ٤ : ص ١٢٤١ القاهرة سنة ١٩٥١ . ابن الاثـير : اسـد الغابة جـ٢ ، ص١٧٨ .

(٣١) الواقدي : كتاب المغازي جـ ٢ ص ٧٥٥ - ٧٦٩ تحقيق جونس اكسفورد ١٩٦٦ .
الطبري : تاريخ جـ ٣ ، ص ٣٦-٤٢ .

(٣٢) الواقدي ، المغازي : جـ ٢ : ٧٥٥ - ٧٦٩ اكسفورد ١٩٦٦ .

(٣٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٤ ص ٥٣٦ طهران ١٩٦٥ الزبيدي : تاج العروس جـ٦ : ص١٥٤ دار ليبيا للنشر . ابن منظور : لسان العرب (مادة الشرق) جـ ٩ : ص ١٧٤ دار صادر بيروت . ف ـ حتى : تاريخ العرب مطول ص ١٩٩ بيروت ١٩٦١ . محمد كرد علي : خطط الشـــام ٧/١ دمشق ١٩٦٩ .

(٣٤) Rothenberg,B., **Timma Valley of the Biblical Copper Mines** London, Themes and Hudeon, (1976).
Coughenour, R. , **Preliminary Riport on the Exploration of Mugharat el Wardeh and Abu Thawab, Annual of the Department of Antiquities, XXI, 1976, Amman, Jordan.**

(٣٥)الطبري : تاريخ جـ ١ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ ، دار المعارف المصريـــة . البـلاذري : فتـــوح ص ٧١ . ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ، ص ١٤٠ ، صادر بيروت سنة ١٩٧٩ . محمد كردعلي: خطط الشامجـ١ ص ٧٤ وما بعدها ، دمشق ١٩٦٩ .

(٣٦) محمد كردعلي : ن.م جـ ١ ، ص ٧٤ .

(٣٧) الطبري : ن.م ، جـ١ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ . محمد كردعلي : ن.م ، جـ ١ ، ص ٧٤.

(٣٨) صالح درادكة : لمحات من تاريخ ايلة ـ العقبة ـ في العصر الاسلامي ص ٦٧ـ٧٨ مجـلة دراسات تاريخية جامعة دمشق العددان ١٥، ١٦، دمشق ١٩٨٤.

(٣٩) الطبري : تاريخ، جـ٥ ، ص ١٥٨ وما بعدها .نبيه عاقل : خلافة بني امية ص ٤١ـ٤٢ دمشق١٩٧٢

(٤٠) الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ . محمد كـرد علي ، خطط الشـــام ،جـ١ ، ص ٧٥.

(٤١) ابن سعد الطبقات ، جـ، ١ ص ٢٨١ دار صادر بيروت ١٩٥٧ . ابن خلدون ، العبر ، جـ١ ص٣٢٤ صالح درادكة : لمحات من تاريخ ايلة،ص ٧٢ .

(٤٢) لويس شيخو : النصرانية وادابها بين عرب الجاهلية، جـ٢ ، ص ٤٤٨ ، بيروت ١٩٢٣ .

(٤٣) الطبري ، تاريخ، جـ ٣ ، ص ٩٧.

(٤٤) ابن الاثير ، اسد الغابـة ،جـ٢ ، ص ١٧٨ . البـكري ، معجـم ما استعجـم ، جـ ٤ ، ص ١٢٤١ القاهرة ١٩٥١ . ابن خلدون ، العبر ، جـ ٢ ، ص ٥٢٥ دار الكتاب البناني بيروت . الزركلي ، الاعلام جـ ٥ ، ص ٩٤٥ . مصطفى الدباغ ، فلسطين بلادنا جـ ١ قسم ١ ، ص ٧٠٨ .

(٤٥) Donner, F;, **The Early Islamic Conquests,** p.105, p. 304 .

(٤٦) مصطفى الدباغ ، فلسطين بلادنا ، جـ ١ قسم ١ ص ٧٠٨ .

(٤٧) اليعقوبي ، تاريخ جـ٢ ، ص ٤٩ ـ ٥٢، صادر بيروت .

(٤٨) سورة الحشرة ٢ .

(٤٩) اليعقوبي ، ن.م ، جـ٢ ، ص ٥٢.

(٥٠) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٢٤ . ابن رستة ، الاعلاق النفسية ، ص ٢٢٥ . جواد علي ، المفصـل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ ٣ ،ص ٥٧٢ ـ ٦٢٩ ، بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ . عبد العزيز الدوري،

اليهود في المجتمع الاسلامي عبر التاريخ ضمن كتاب ((القضية الفلسطينية)) ص ٧٩-١٢٠ الموصل ١٩٨٣ .

(٥١) حمد الجاسر ، في شمال غرب الجزيرة ص ٢٣٦ دار اليمامة : الرياض . ابن هشام : السيرة ، جـ٣ ، ص ٣٤٨ طبعة الحلبي القاهرة .

(٥٢) شاكر مصطفى ، العرب والاسلام وفلسطين عبر التاريخ ضمن كتاب « القضية الفلسطينية » ، ص ٣٢-٣٣ ، الموصل ١٩٨٣ . نقلاعن:

Josaphos, Antiquities, Book XII , eh. 15,p.4.

انجيل مرقس ١٤/٧٠ ومتى ٢ ، ١٤ . فليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان جـ١ ، ص ٣٧٣ وما بعدها بيروت ١٩٥٨ .

(٥٣) الطبري ، جـ ١ ١٧٧٩ (الاوروبية) . ابن سعد ، جـ١ ، ٧٢.

(٥٥) فكتور سحاب ، من يحمي المسيحيين العرب ، المستقبل العربي ، ص ١٣٠ - ١٦١ ، ٨/١٩٨٠ بيروت.

(٥٦) Chronique de Michel , Le Syrien Patriarche Jacobite d'Antioche , ed . and trans . J.B., Chabot , Paris (1905) , XI,U.

عن مقالة

Anawati, G., Factors and Effects ..pp;20 - 44 .

(٥٧) الازدي ، فتوح الشام ٢٩ ، القاهرة ١٩٦٩.

(٥٨) الطبري ، تاريخ ٣ (٧٥٠ - ٧٥١) . ابن خلدون : العبر ، ٢ ، ٤٦٦ . الواقدي ، فتوح الشام ص ١٠٧ . البلاذري ، فتوح ، ص ٦٤٠ . .

(٥٩) الازدي ، فتوح الشام ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، القاهرة ١٩٦٩.

(٦٠) اليعقوبي ، بلدان ص ٣٣٠.

(٦١) اليعقوبي ، تاريخ ٢ ، ٥١ ابيروت ١٩٦١ . البلاذري ، فتوح ١٤٧ - ١٤٨ .

(٦٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، جـ١ ، ص ٩١.

(٦٣) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، بيروت ١٩٦٠ .

(٦٤) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣٧٤-٣٧٥ ، الطبعة الازهرية ، القاهرة ١٩٦٨ .

(٦٥) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ١٥٣ E.I. 2 طبري ، تاريخ ، جـ٤ ، ص ٥٦ ومابعدها .

(٦٦) Conrad, L.I., The paagae in Bilad al - Sham in pre - Islamic Times , (A Paper for Bilad al - Sham Conference, Amman, Oct, 1983.

(٦٧) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١١٦ الطبعة الاوروبية . المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ص ٢٩٦-٢٩٨ ، بولاق ١٢٧ هـ ، ١٨٥م .

Kubiak, W.,Al Fustat, its Fondation and Early Urban Development, pp. 83 - 97 , Warsau, 1982 .

(٦٨) القلقشندي ، نهاية الارب ص ٢٠٦-٢٠٧ ، القاهرة ١٩٥٦ .

عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الآرامي القديم

(حتى أواخر القرن الثامن ق.م)

د. محمد حرب فرزات

جامعة دمشق

منذ الربع الاخير من الالف الثاني ق.م برزت جملة من التغيرات الاساسية على المسرح السياسي في سورية الشمالية وفي كل المشرق القديم ، نتيجة لتدخل عاملين اثنين من العوامل التي اثرت بصورة متزامنة وعميقة في تاريخ المنطقة : أولهما ، تحرك الشعوب التي عرفت باسم « شعوب البحر » في الوثائق المصرية الفرعونية ، وثانيهما ، تحرك الاقوام العربية القديمة من البادية العربية السورية ، بادية الشام ، نحو انحاء مختلفة من الهلال العربي الخصيب ، في وادي الرافدين وبلاد الشام ، وهي الاقوام الارامية التي تربط فيما بينها لغة مشتركة ، وان اختلفت لهجاتها ، هي اللغة الآرامية الام ، التي تعد كما هو متداول عادة من « اللغات السامية » .

وإننا في هذا البحث سنحاول ان نلقي بعض الضوء على هذه المرحلة من تاريخ المشرق العربي القديم وما آلت اليه من نتائج خطيرة ، أبرزها على الصعيدين **الديموغرافي والسياسي انتشار القبائل الآرامية واستقرار** بيوت حاكمة آرامية في أهم مدن سورية الشمالية منذ اواخر الالف الثاني ق.م ومطلع الالف الاول ، أي في العصر الذي يعرف عادة بالعصر الآرامي القديم . وتعتبر هذه التحركات البدوية العربية من حيث نتائجها هذه ، المباشرة والبعيدة ، أهم مراحل الانتشار العربي قبل الفتوحات العربية الاسلامية . اما على الصعيد الاقتصادي فهو ظهور **الآراميين** في سورية الى جانب البابليين في الرافدين والفينيقيين على الساحل **كاهم عامل اقتصادي في المنطقة** مدة

سبعة قرون (من القرن العاشر ـ القرن الثالث ق.م) أي الى العصر الهلنستي .

١ ـ انقلاب الوضع الدولي في سورية الشمالية في مطلع الالف الاول ق.م .

مع تحرك « شعوب البحر » تعرضت سواحل الحوض الشرقي للبحر المتوسط الى سلسلة من الهجمات منذ القرن الثالث عشر كان من نتائجها وقوع انقلاب وتغيرات تاريخية في أوائل القرن الثاني عشر منها(١) : تهديم الحضارة الإيجية في كريت وحوض بحر ايجه ،وانهيار الامبراطورية الحثية في آسية الصغرى ، واختفاء مدينة أوجاريت العظيمة على الساحل الكنعاني الشمالي في سورية ، واستقرار بعض عناصر من « شعوب البحر » الهائجة في الساحل الكنعاني الجنوبي ممن اطلق عليهم اسم **فلسطيين** (فلسط ، بلست) لان بينهم من كان ينتمي الى قبائل آخائية إيجية كانت تحمل هذا الاسم ، وبدات تدعى تلك المنطقة عند اليونان ، وكذلك في الديوان الملكي الاشوري (منذ القر الثامن ق.م) ، باسم مشتق من هذا الاسم ، والذي غلب على البلاد بعدئذ في العصر الروماني ، بصيغة فلسطين .

ولم تنج مناطق سورية الشمالية من عواقب هذه التغيرات ، اذ يرجح وقوع هجمات من الشعوب التي كانت تقطن سواحل خليج مرسين وشمالي خليج الاسكندرونة ، وهي المنطقة التي كانت تعرف في المصادر الحثية باسم كيزوواتنا ، ثم وردت باسم قوة في المصادر الآرامية وهي كيليكية (٢).. ولكن هذه العناصر من الاقوام الشمالية اصطدمت بالسكان المحليين ، وهم خليط من عناصر حورية وامورية ذات ثقافة بابلية ابرز ملامحها استخدام الكتابة المسمارية على الواح من الطين . وهذه العناصر هي بقايا مجتمعات امبراطوريتي ميتاني وحاتي وممالك امورو وبخاصة مملكة حلب ـ يمحاض ، التي قامت بأدوار اساسية في الصراع الدولي الذي نشب حول المنطقة واشترك فيه فراعنة مصر اعتبارا من القرن السادس عشر وطوال أربعة القرون . ولقد كان من عواقب نهاية مملكة حلب وتدهور ميتاني المبكر ، وسقوط الامبراطورية الحثية وانحسار نفوذ الفرعون المصري وتقلص مملكة بابل ، ترك الحبل على الغارب امام العوامل الفاعلة التي ظهرت بقوة على المسرح الدولي وهي:

اولا : الشعوب الاخائية وغيرها التي كانت فرت من وجه الغزو الدوري المتحرك من البلقان نحو سواحل هيلاد (اليونان) وجزر بحر ايجة ، لكي تبحث بالقوة عن وطن جديد على شواطىء اسية الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وبرقة ، اي على امتداد شواطىء الحوض الشرقي للبحر المتوسط . لكن هذه الاقوام التي لم تخلف وراءها وأمامها سوى الدمار لم تجد بدا من الانضواء تحت نفوذ الفرعون المصري رعمسيس

الثالث الذي عمل على توطينها واستقرارها مع الكنعانيين في منطقة عسقلان واسدود وغزة على الساحل الفلسطيني الجنوبي .

وثانيا: القبائل الآرامية التي استطاعت بانتشارها السريع والكثيف ان تسد الفراغ وان تحل محل الدول الكبرى المنهارة دولا جديدة هي سلسلة من الامارات والممالك العديدة التي تزعمتها بيوت حاكمة اتخذت قواعد راسخة لها في مدن وحصون قديمة على سفوح طوروس وفي شمال سورية . واذا ما القينا نظرة على الخارطة السياسية التي ارتسمت في اعقاب هذا التغيير لوجدنا الوضع الدولي في سورية العليا (سفوح طوروس) وفي شمالي سورية ، فيما بين القرنين العاشر والثامن ق.م(٣) ، على الشكل التالي :

انقسمت المنطقة الى دول عديدة : ففي اقصى الشمال اتحاد ممالك وامارات **طابال** الذي كان يضم العديد من الدويلات الصغيرة على سفوح طوروس العليا ، وترجع اهمية هذه المنطقة الى ثروتها المعدنية واهمها الفضة والحديد مما جعلها هدفا دائما للحملات الاشورية وبخاصة في القرنين الثامن والسابع . ويتصل هذا الاتحاد بشعوب **كيزوواتنا** الحثية ، **خيلاكو** (كيليكية بعدئذ) التي كانت تتحرك باتجاهين من الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب الى الغرب اي على امتداد كيليكية التاريخية التي شكلت في ذلك العصر ، اي في مطلع الالف الاول ق.م ، جبهة احتكاك وتفاعل مباشر مع الاقوام العربية القديمة التي كانت تتكلم لغات ولهجات سامية ، وهم القبائل الآرامية التي عرفت اولا باسم اخلامو .. ومن الدويلات التي تشكلت على هذه الجبهة السورية الشمالية : **قوه** في سهول كيليكية وكانت مشهورة بالخيول . **ويؤوديا** وعاصمتها **شمأل** اقصى مدائن بلاد العرب . وقد ذكرت شمأل مهموزة على انها الشمال وهي ريح تهب من قبل الشام نحو بلاد العرب(٤) . **وعنقي** (العمق) ومملكة « حاتي الكبرى » وهي المملكة التي بقيت تحمل اسم الدولة الحثية حول **كركميش** (جرابلس) حتى القرن السابع ق.م. اما اهم هذه الممالك فهي **ياحان** في منطقة لوحوتي (وهي لعش في النصوص الآرامية كما في نصب ملك حماه **زكور** في النقوش الآرامية من القرن التاسع ولعل الاسم محرف من نوحاشة الواردة في النصوص المصرية من اواسط الالف الثاني) ، وهي منطقة حلب التي احتفظت بأهميتها الاقتصادية ومكانتها الدينية وبخاصة بعد ان تزايدت أهمية معبد هدد المعبود الارامي الرئيسي .. واضحت ياحان التي ورثت يمحاض القديمة جزءا من مملكة آرامية كبيرة بزعامة اسرة ارامية حاكمة هي بيت أجوشي التي جعلت معاقلها في ارفاد (تل رفاد) وأعزاز . وقد قامت هذه المملكة الآرامية في شمال سورية في القرن الثامن بدور يماثل في الاهمية الدور الذي قامت به مملكة آرام دمشق في سورية الوسطى والجنوب سياسيا واقتصاديا .

وقد رافق هذا التغيير العنيف للخارطة السياسية للمنطقة بدء مرحلة انتقالية على الصعيد الثقافي واللغوي بخاصة . فزوال الامبراطورية الحثية من الوجود لم يكن ليعني زوال الحضارة الحثية ، فلقد استمر التأثير الثقافي للغة الحثية والفن الحثي على طول شريط سفوح طوروس ومناطق سورية الشمالية . ويلاحظ غورني بحذر انه يمكن ان نميز خطا مفترضا مارا بجبال طوروس وجبال أمانوس ، تبرز السمات الحضارية الحثية في شماله بينما تبرز ملامح ثقافية ولغوية عربية سامية في جنوبه . ولكن ينبغي ان نلاحظ انه ليس من الحكمة تبسيط الامور وصبها في قالب شكلي جازم على هذه الصورة ، لان التبادل الثقافي لغويا وفنيا واجتماعيا كان عميقا ومتنوعا تبدو آثاره في الآثار المكتوبة وفي العمارة والطقوس واللباس والحياة المنزلية . ولعل أهم مراكز التلاقي والتفاعل الحضاريين في تلك الفترة مملكة كركميش (جرابلس على الفرات) التي كانت تمثل بقية الامبراطورية الحثية في الوسط الآرامي المتعاظم الى جانب مراكز اخرى اقل أهمية مثل مرعش (شمال أرفاد) وكوموخوعلى الضفة اليمنى للفرات (وهي كوماجين الكلاسيكية) .

وينبغي علينا ان نشير هنا الى ان التغيير لم يقتصر على سورية الشمالية ، لان مناطق سورية الجنوبية وفلسطين تعرضت بدورهاالى تغيير مماثل نجم عن الضعف الذي أصاب مصر نتيجة للهزات الداخلية التي مرت بها زمن الاسرة العشرين وللغزوات المتلاحقة التي قامت بها « شعرب البحر » لاراضي الامبراطورية الفرعونية على الساحل الكنعاني الجنوبي وبرقة حتى انها اخترقت اراضي مصر نفسها الى دلتا النيل . لكن رعمسيس الثالث (١١٩٧ – ١١٦٥) تمكن من احتواء الخطر واستطاعت مصر ان تنجو ، لكن وضعها الدولي تضعضع ،ونفوذها تراجع عن ارض كنعان المنقسمة ، فسقطت هذه البلاد في خضم صراع بين شعوبها وقبائلها التي تنازعت على السيطرة فيها . وانتهى الامر الى تاسيس مملكة على راسها داود الذي اورث ملكه لابنه سليمان (القرن العاشر ق.م) . الا ان هذه المملكة ، حتى في ذروة قوتها وفي اقصى درجات اتساعها . لم تزد عن كونها قوة اقليمية محلية لم تستطع ابدا أن توازي في اهميتها القوى الدولية التي سادت المنطقة في المرحلة السابقة(٥) . وهكذا فان الفراغ الذي تشكل فيما بين الفرات والبحر المتوسط جذب القوى المتحركة الحديثة في وادي الرافدين وبلاد الشام ، وفي طليعتها **الآراميون والآشوريون** .

لقد كان لابد من نشوب صراع مرير وطويل بين العناصر القادمة الجديدة وبين العناصر القديمة ،استغرق قرابة القرنين، وبدات ملامح نهايته في اواخر الالف الثاني ق.م عندما اخذت سورية تسترد شيئا فشيئا اسس الاستقرار السياسي والاقتصادي مع تاسيس الاسرات الحاكمة وتكوين الدول الآرامية في المنطقة على أيدي زعماء

القبائل العربية البدوية الآرامية الذين تحركوا من بادية الشام وانداحوا بعشائرهم نحو مراكز المعمورة والحضارة سواء في وادي الفرات أم في سورية الشمالية والوسطى.

وعلى الرغم من هذا التبدل الكبير في الخارطة السياسية لسورية في تلك الفترة من مطلع الالف الاول ق.م ، فان المصطلحات الجغرافية القديمة(٦) بقيت هي الدارجة في الحوليات الآشورية الرسمية وفي النصوص التاريخية من العهد القديم . فاصطلاح « بلاد حاتي » بقي يتردد في هذه المصادر ليدل على مناطق من سورية العليا على سفوح طوروس وسورية الشمالية وعلى الاخص مملكة كركميش (جرابلس) وحطينا (شمالي حوض العمق) . كما يتردد اصطلاح « بلاد حاتي الكبرى » ليشمل ميليد (ملاطية) ، وطابال وخيلاكو (كيليكية)، وجرجم (مرعش) التي تلامس حدودها الشمالة حدود مملكة بيت أجوشي الآرامية القوية في أرفاد (تل رفاد).

وينبغي هنا ان نشير بوضوح الى ان وصف هذه المناطق بالحثية ليس له أي معنى إثني فهو لا يعني ان السكان كانوا حثيين او ان الحضارة حثية. فليس للاصطلاح سوى قيمة جغرافية اقليمية لان الشعوب كانت مختلطة في هذه المنطقة وهي من اصول حورية وحثية وامورية وآرامية .

وهكذا حل الانقسام والتعدد محل الوحدة السياسية التي تمثلت بالامبراطورية الحثية الى حين سقوطها . ولم تستطع هذه الدول الصغيرة الجديدة سد الفراغ السياسي والعسكري الناجم عن التغيير في خارطة المنطقة ، وكان لابد من احلال توازن دولي جديد محل التوازن المنهار بسقوط القوى القديمة او بتراجعها . وهكذا اتاح الوضع الجديد الفرصة لظهور القوى الدولية الجديدة على مسرح الاحداث ممثلة بالدولة الآشورية والحلف الآرامي ، يضاف اليها مملكة اورارتو (أرمينية) التي تزايدت أهميتها واقتربت من مسرح الصراع في شمال سورية خلال النصف الاول من القرن الثامن . وقد كانت آشور من بين هذه القوى الدولية كلها هي الاهم ، على الرغم من المصاعب الداخلية والخارجية التي واجهتها ، واكثر عوامل الاستقرار شانا في المنطقة. وذلك خلال مدة طويلة امتدت من القرن الثاني عشر الى اواخر القرن السابع . ولم يكن بوسع اورارتو منافستها بالدرجة نفسها من القوة والفعالية ، بسبب من موقعها البعيد جغرافيا من جهة والغريب حضاريا من جهة أخرى. اما الآراميون فقد كانوا يملكون من عناصر القدرة على الصراع ما مكنهم من الصمود طويلا ، ومن فرض ثقافتهم ولغتهم اخيرا ، رغم سقوط دولهم . اما وراء جبال زاغروس فقد اخذت القبائل التي كانت تظهر في لمحات خاطفة خلال المراحل السابقة ، كالغوتيين والكاشيين، تتحد لتكون دولا قوية في شمال ايران وجنوبها اهمها مملكة الميدين والفرس .

إننا سنتتبع فيما يلي هذا الدور **الآرامي سياسيا واقتصاديا في مناطق سورية الشمالية** نظرا لطبيعة هذا الدور الذي تميز بمواجهة التوسع الآشوري . ولن نتعرض في هذا البحث الى الدور الارامي في الجنوب ، وهو الدور الذي تميز بمواجهة التوسع العبراني وبفرض العامل الآرامي في سورية الوسطى وفلسطين عسكريا واقتصاديا ولغويا لان لهذا الموضوع مجال اخر سنتناوله في فرصة اخرى .

٢ ـ الدول الآرامية عامل سياسي في المشرق القديم وسورية الشمالية :

الى جانب هجمات « شعوب البحر » نحو بلاد الحوض الشرقي للبحر المتوسط، يشكل تحرك القبائل الآرامية من شمال الجزيرة العربية وبادية الشام نحو حوض الفرات وبلاد الشام العامل الاخر المهم في تاريخ المشرق العربي القديم كله منذ القرن الثالث عشر ق.م .

وترجع بدايات الموجة الآرامية الى اواسط الالف الثاني ق.م عندما اخذت قبائل بدوية آرامية تتحرك وباعداد كبيرة ، نحو حوض الفرات واراضي الجزيرة وسهول سورية الداخلية كما فعلت موجات سابقة كالاموريين قبل ذلك بالف عام تقريبا (٢٣٠٠ ق.م) . لكن الانتشار الآرامي كان اقوى واعم واشد رسوخا ، ومتصلا ، ولذا كانت آثاره الديموغرافية والسياسية والحضارية ، الثقافية والاقتصادية ، كبيرة جدا .

فقد اخذت الدويلات التي كانت منضوية في نطاق الامبراطورية الحثية السابقة تتساقط في ايدي بيوت حاكمة آرامية . فتكونت مملكة بيت عديني حول العاصمة تل برسيب في وادي الفرات جنوبي كركميش (جرابلس) . واقام بيت حباري ، مملكة شمأل ، محل يؤوديا . اما حلب التي كانت مركز مملكة ياحان فقد حلت فيها أسرة حاكمة آرامية قوية هي بيت جوشي التي اتخذت من ارفاد قاعدة لها .

اننا لا يمكن ان نعرف كيف وقع هذا التغيير بالتفصيل ، فالمصادر لا تقدم لنا سوى معلومات محدودة ومجزوءة . ولاسبيل الى تفهم الظروف التي احاطت بالاحداث التي وقعت في مطالع الالف الاول ق.م الا بالعودة الى ما كان يجري في الالف الثاني عندما كانت تتوغل القبائل البدوية العربية القديمة (الامورية والآرامية) في اراضي بلاد الشام والجزيرة وحوض الفرات متتبعة خطى تحركات اسبق بنفس الاتجاه (٧) . ويتقدم ج بوتشللاتي (١٩٦٦) بفرضية تقول ان اصول الاموريين ترجع الى بادية الشام والى منطقة جبل بشري بخاصة . وهو يربط بين حركات هذه القبائل وبين تحركات الاخلامو الآراميين، ومنهم السوتيون، في أواخر الالف الثاني، ويعتبر الاستيطان

الارامي متمما للاستيطان الاموري القديم الذي كشفت حفريات تل مرديخ (إبلا) عن مدى اهميته . أن تتبع مجريات التطورات تجعل نظرية بوتشلاتي مقبولة ولكن ينبغي ان نلاحظ انها لم تكن جديدة تماما ، الا انها تلخص المعطيات السابقة وتربط فيما بينها(٨) . فقد سبق ن. شنايدر (١٩٤٩) الى القول بوجود عناصر آرامية في عصر مبكر يرقى الى الزمن السومري الاخير ، عصر اور الثالثة (٢٠٠٠ ق.م) ودرس **كوبر** في كتابه الهام عن « البدو في ضوء وثائق ماري » (١٩٥٧) تحركات القبائل البدوية ومراحل استيطانها في وادي الفرات منذ مطالع الالف الثاني ق.م . وطرح ليفراني (١٩٦٢) مسألة وجود عناصر آرامية في مملكة أوجاريت . وفي ضوء هذه الدراسات كلها يمكن التأكيد دون تردد مع **أ. دوبون ـ سومر** (١٩٥٣) ان بدايات التاريخ الآرامي ترقى الى زمن أبعد من الزمن التي قامت فيه الدول الارامية المعروفة في مناطق كثيرة من سورية وحوض الرافدين .

وقد توصل الآراميون بالتدريج الى السيطرة على المناطق الواقعة غربي الفرات ومناطق الجزيرة الواقعة بين الخابور والفرات (آرام النهرين) ، ثم نجحوا في شق طريقهم في اتجاهات متعددة نحو بابل ونحو شمال سورية وجنوبها.

وإذا ما أردنا ان نعيد تكوين تطور الاحداث في ضوء المعلومات المتوفرة لدينا فاننا نجد مثالا على ذلك في تصورنا لتقدم القبائل الآرامية من مناطق سفوح جبل بشري الذي كان يعتبر معقلها الاول باتجاه ضفاف الفرات شمالا نحو ارفاد واعزاز ، وغربا نحو حوض نهر قويق (الجاف حاليا) ، ومنطقة نوحاسه التي يرد ذكرها في المصادر المصرية وهي لعش في المصادر الآرامية(٩) . ومركزها الطبيعي والاقتصادي والحضاري مدينة حلب نفسها عاصمة يمحاض الاموربة وباحان الحثية (١٠) . وتتضح من طبيعة هذا التحرك واتجاهه الدوافع الاقتصادية من أجل السيطرة على طرق القوافل والتجارة ما بين وادي الفرات والبحر المتوسط وما بين الاناضول والجنوب ، اي نحو بلاد جزيرة العرب ومصر ، وهي طرق تمر كلها في منطقة حلب .

ويجد الباحثون اصداء هذه الاحداث وما سببته من اضطراب لحبل الامن في الوثائق الرسمية الحثية والاشورية . فالملك الحثي حاتوشيلي الثالث (١٢٨٣ ـ ١٢٦٠) يعبر عن قلقه من تحركات قبائل الأخلامو التي اضرت بسلامة المواصلات مع بلاد بابل . كما شكل هؤلاء الاخلامو انفسهم ، وهم الذين يرد ذكرهم الى جانب الآراميين في اقدم الوثائق المعروفة ، خطرا كبيرا اقض مضاجع الاشوريين في المرحلة التي نهضوا فيها لاحتلال موقعهم الفذ في تاريخ المنطقة بعد الفراغ الذي خلفه الانهيار الحثي المفاجيء في مطلع القرن الثاني عشر .

وقد ظهرت أقدم اشارة تاريخية الى الغزاة الآراميين في حوليات تكلات فلاصر الاول (أواخر القرن الثاني عشر) ملك آشور بصيغة (آرامايا) ولكن ذكرهم بقي مقرونا باسم (**الاخلامو**) الذين استطاعوا قبل ذلك اختراق حدود بلاد آشور وعملوا على اضطراب حبل الامن فيها زمن الملك اريك ــ دين ــ إيلي (اواخر القرن الرابع عشر) . واهتم عدد من الباحثين في بدايات التاريخ الارامي بمعاني التسميات القديمة التي اطلقت على أجيال الآراميين الاولى من أجل فهم الصلات فيما بينها والروابط القبلية والاجتماعية فيها . ومن بين هؤلاء الباحثين ر.ت. او كلاّغان الذي وجد في اصطلاح اخلامو معنى (صديق أو رفيق) بالعودة الى جذر (خلم) في معاجم اللغات السامية ومنها العربية . ففي العربية، الخِلم : الصديق الخالص ، والجمع أخلام ، وخلماء ، وهم الاصحاب ، والاخلام ايضامرابض الغنم(١١) . ولكن س.موسكاتي ينتقد هذه النظرية واساسها اللغوي وينتهي الى ان أخلامو علم على قبيلة او مجموعة من القبائل البدوية المتحالفة .

أما اذا اعتبرنا ان لاصطلاح اخلامو صلة بالجذر (حلم) فأصل مدلول الكلمة يمكن ان يشير عندئذ الى معان اخرى نجدها في المعجم الآرامي والعبري ، مثل القوة والبأس(١٢) ، وما يضادها في العربية مثل الاناة والعقل ، فأولو الاحلام والنهى هم ذوو الالباب والعقول ، وعند ابن سيدة ، الاحلام : الاجسام(١٣) . فأحلامو ارمايا يمكن ان تعني إذن : احلاف الآراميين ، أو شيوخ الآراميين وحلماؤهم . ومهما يكن ، فقد ورد ذكر تغلغل عناصر من الاخلامو الى بابل في اواسط الالف الثاني حتى وصل بعضهم الى شواطىء شرقي الجزيرة العربية (ديلمون) والى مناطق من الفرات والجزيرة كما يؤكد جاريللي . وقد بقي الاصطلاح المزدوج أحلامو ــ ارمايا واردا في المصادر الاشورية في عصر اشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ ــ ٨٥٩) . الى ان تغلب الاصطلاح ارمايا الدال على الاراميين على الاصطلاح الاخر اخلامو ، ولكن هذا الاسم لم يزل من الاستخدام حتى عصر سنحريب (القرن السابع ق.م) . فاضحى كلا الاصطلاحين مترادفين ، ولكن لايوجد في المصادر ما يمكن ان يثبت ان الامر كان كذلك في القرنين الثاني عشر والحادي عشر .

وكما اثارت كلمة اخلامو اهتمام الباحثين اللغويين والمؤرخين ، فان اسم الاراميين يرقى الى زمن ابعد بكثير من الزمن الذي شغل فيه الآراميون دورا خطيرا في تاريخ المنطقة (خلال الالف الاول ق.م) . فقد قيل ان اقدم اشارة الى اسم آرام تعود الى القرن الثالث والعشرين ق.م ، في وثيقة يعلن فيها نرام ــ سين الملك الاكادي العظيم انتصاره على هرشمتكي (هرشمه = هرثمة ؟) وهو سيد آرام وعم . ولا ادري لماذا تردد الاستاذ فرانسوا تورو ــ دانجان في قبول الصلة بين اسم آرام في هذا النص

القديم وبين الآراميين(١٤) ، ما دام هذا الاسم يرتبط باسم قبائل عـم" . وهي قبائل عربية كثيرا ما أشير اليها في عين المرحلة التاريخية في المصادر الفرعونية المصرية عندما كانت تذكر قبائل عمو" في بلاد الشام وسيناء والصحراء الشرقيـة(١٥) . وهي قبائـل كانت بصورة ما تمت بصلات القربى الى أجيال الاموريين أو العموريين .

وبالاضافة الى ذلك يرد ذكر كلمة آرام (أرام — كي) في وثائق رافدية تعود الى عصر اور الثالثة (اواخر الالف الثالث) ، وفي وثائق تجارية تعود الى حوالـي ٢٠٠٠ ق.م كما يرد أرام في اسم علم في نص من نصوص ماري من عصر زمري ـليم ملـك ماري(١٦) .

ومهما يكن ، فان هذه المؤشرات جميعا ان لم تؤكد ان الأخلامو هم الاجيالالاقدم من الآراميين ، فان المصادر الاشورية ربطت مابين الاخلامو والآراميين لوجود تشابـه اجتماعي وثقافي مابين هؤلاء جميعا ، كما لاحظ لاول مرة برنكمان(١٧) . وإننا نستطيع ان نؤكد بدورنا انه يصعب علينا الفصل فيما بين هذه الشعوب البدوية العربية التـي كانت تمت جميعا الى ارومة واحدة وترجع الى اصولواحدة مهما تعددت الاسماء التي اطلقت عليها من قبل الحضر المقيمين ، سواء اكانت من الاموريين (الالف الثالث) ، ام من الأخلامو والآراميين (الالف الثاني ق.م) . وقد تفهم هذه الحقيقة الاستـاذ كوبر بوضوح وشرحها فيما يلي : « كانت حركة البدو نحو مناطق العمـران والحضر متصلة ومستمرة . وانه لمن الصعب التمييز بين هذه العشائر او تلك لانها تنحدر من اصل واحد وتتكلم لهجات متقاربة .أما القبيلة الاكثر عددا والاشد بأسا فهي التي كانت تفرض اسمها دون غيرها . وربما يكونذلك لمجرد الصدفة، او لما ينشأ منعلاقات وثيقة بين بعض القبائل البدوية وبين سكان المـدن والحضر الذيـن كانوا يتعاملـون معهـا » (١٨) .

وهكذا يمكن ان نقول ان الانتشار الآرامي الواسع تكرر على الارض التي انتشر عليها الاموريون قبل ذلك باكثر من الف عام . ولكن نجاح الانتشار الآراميكان حاسما، لما تميز به من كثافة وقوة وبراعة في اختيار نقاط الارتكاز والاستقرار ، وبخاصـة في المنطقة التي تعتبر الجسر الاستراتيجي الممتاز مابين وادي الفرات والبحر المتوسط ، حيث فرض الآراميون اسمهم على طريق آرام او حقل آرام (فدّان آرام) ، وعلـى ارض الجزيرة التي عرفت باسم آرام النهرين (آرام نهرايم) . ولم يقتصر انتشـار الآراميين على شمال سورية ووادي الرافدين فقد امتد كما هو معروف الى كل مناطق سورية الداخلية والوسطى وبخاصة مناطق البقاع ودمشق والجولان وشمال وادي الاردن .

كان على حركة الانتشار الآرامي هذه ان تواجه في آن واحد تحديين اثنين. فمن الشمال والشرق كانت مملكة اشور ، التي تكونت نواتها الاولى في منطقة تقع عند التقاء نهر الزاب بنهر دجلة ، هي التي وقفت في وجه التوسع الآرامي وعملت على احتوائه في صراع طويل استمر عدة قرون .. اما في الجنوب فقد اصطدم الانتشار الارامي بحركات الشعوب والقبائل المتنازعة على الاستيطان في ارض كنعان ووادي الاردن ، واهم هذه الحركات هي التي ادت الى استيطان قبائل عبرية في بعض مناطق من كنعان وتكوين مملكة على انقاض الممالك الكنعانية المتداعية بعد صراع طويل كان للحلف الارامي بزعامة مملكة آرام دمشق الدور الاكثر اهمية فيه من القرن العاشر الى القرن الثامن ٧٣٢ ق.م .

لم يستطع الآراميون ان يحققوا انتصارا حاسما على آشور وان استطاعوا ان يشكلوا خطرا مهددا لها في بعض المراحل ، كما حدث في القرن الثاني عشر قبل ان ينجح تكلات فلاصر الاول في دحرهم الى ما وراء الفرات . كما استطاعوا ان يمنعوا شلمناصر الثالث في معركة قرقر على العاصي (القرن التاسع) من تحقيق ما كان يرمي اليه من حملته التي قادها بنفسه واضطر الى التوقف عند ميدان المعركة ثم الى الانسحاب . . ولكن الدول الآرامية والدول الاخرى في كنعان وفلسطين تداعت كلها امام الحملات العسكرية المتعاقبة للفاتح الاشوري تكلات فلاصر الثالث وخلفائه (القرن الثامن) ، الذي تمكن من القضاء على اكبر دولتين آراميتين : بيت أجوشي في ٧٤٠ ، ودمشق في ٧٣٢ ق.م.

ولئن لم ينجح الآراميون سياسيا في تكوين وحدة سياسية فانهم نجحوا في تكوين دول وممالك قامت بدور هام سياسيا واقتصاديا خلال النصف الاول من الالف الاول ق . م. وتمكنت في بعض الفترات وفي ظروف حرجة مرت بها المنطقة من تكوين احلاف آرامية قوية بزت في اهميتها العسكرية والسياسية الدولة الآشورية نفسها ، كما فعلت أرفاد (منطقة حلب) ودمشق .

اما الاثر الاكبر للدور الارامي في تاريخ المنطقة فهو دون شك النجاح في **نشر اللغة الآرامية** التي اضحت لغة متداولة ومعروفة في كل وادي الرافدين وبلاد الشام منذ القرن التاسع ، واضحت لغة رسمية ثانية الى جانب الاشورية التي كانت تكتب بالمسمارية في الديوان الاشوري نفسه(١٩) ، الى حد ان الدولة الاشورية نفسها اضحت سكانيا وثقافيا بل واداريا بعد تكلات فلاصر الثالث دولة مزدوجة الجنسية ، اشورية ـ آرامية ، كما يؤكد دوران ولومير(٢٠) .

* * *

لنحاول بعد هذه النظرة المجملة الى الدور التاريخي للآراميين في سورية الشمالية، ان نوضح بشيء من التفصيل **أهمية هذه الدول الآرامية سياسيا في المدة الواقعة مابين** القرنين الحادي عشر والثامن ق.م.

لقد ادى احتلال الآراميين للنقاط الاستراتيجية الهامة على طرق الموصلات في غربي الفرات ، أي بلاد امورو وفي سورية الشمالية ، الى تمكينهم من بسط سيادتهم على المنطقة بصفة مطلقة . فقد استقروا بقوة على ضفتي الفرات عند المنعطف الكبير حيث قامت مملكة بيت عديني ، وفي وادي الخابور حيث قامت مملكة بيت بخياني على انقاض غوزانا الحثية (تل خلف) . ولم يكن نجاح التغلغل الآرامي في الفرات الاوسط أقل أهمية مما حدث في وادي الفرات الاعلى . فقد اضحى الوزن الديموغرافي والسياسي للاراميين حول بابل من القوة لدرجة انه مكن زعيما آراميا من احتلال عرش بابل وهو (أدد ـ ابال ـ ادينا) ، (١٠٦٧ ـ ١٠٤٦)(٢١) ، بينما كانت قبائل آرامية اخرى تستوطن وتستقر على نطاق واسع في منطقة غوطة دمشق والبقاع ووادي الاردن الاعلى وبخاصة في جبال الجليل وسفوح حرمون وهضبة الجولان وبدأت تتكون حول آرام دمشق قوة آرامية عسكرية وسياسية استطاعت ان توقف التوسع العبراني في بداية القرن التاسع وان تمد نفوذ الدولة الآرامية الى حدود مملكة بيت اجوشي الآرامية الاخرى في الشمال ، كمايستدل من نصيب برهدد المكرس لملقرت والذي عثر عليه في موقع البريج(٢٢) . واننا يمكن ان نجد من المؤشرات ما يؤكد وجود شعور بالقربى والانتماء القبلي المشترك ما بين هذه الدول الارامية . أو لم يتوجه ملك صوبة (البقاع) الى مناطق الفرات مستنجدا ، ساعيا الى طلب العون والايد من أجل التصدي لحملات وهجمات الملك داود . ولكن الم ينشب ايضا وبالمقابل ذلك الصراع المرير ما بين ملك آرام دمشق وحلفائه من آرام والساحل الفينيقي من جهة ، وبين زكر ملك حماة ولعش من جهة اخرى ، بسبب النزاع على زعامة العالم الآرامي ، وهو الصراع الذي خلد ذكره في وثيقة مشهورة من أواخر القرن التاسع (٢٢) . كان برجوش ملك أرفاد الحليف الاول لملك دمشق برهدد بن حزئيل في هذا الصراع كما وقف الى جانبه فيه ملك قوة (كيليكية) والعمق وجرجم وشمأل وميليد (ملاطية) وآخرون .. ولم ينته الصراع الداخلي الى نتيجة حاسمة لانه كان على الحلف الارامي ان يواجه خطرا أكبر هو تحرك الملك الاشوري ادد نيراري الثالث نحو سورية عبر الفرات في ٨٠٥ ق.م .

ان موقع الملك برجوش في هذا التحالف الآرامي السوري الكبير يبرز لنا أهمية مكانة مملكة ارفاد في شمال سورية ، بمقابل الاهمية التي تميزت بها مملكة آرام دمشق في الوسط والجنوب . ولربما عرفت دمشق بدورها هذا للدور الذي سجل لها في

الاسفار التاريخية من العهد القديم . ولكن الدور الذي قامت به ارفاد وحلب في الشمال لم يكن أقل اهمية ، كما تدل على ذلك الوثائق الآرامية على انصاب سفيرة (القرن الثامن) . وتدل الوثائق التي تبرز فيها مملكة ارفاد طرفا في حلف سياسي مع برجاية ملك « كتك » ضد طرف ثالث على ان لارفاد تاريخا طويلا يرقى الى ما قبل القرن الثامن . ويمكن ان يعتبر وريثا لدور مملكة حلب الامورية وياحان الحثية(٢٤) .

لقد فرض الآراميون انفسهم ، على الرغم من انقسامهم ، عاملا رئيسيا في الصراع السياسي ـ العسكري الطويل الذي امتد قرونا (القرن الثاني عشر ـ القرن الثامن)، وقامت فيه دمشق بزعامة ملوكها ، وبخاصة برهدد وحزائيل ، وارفاد بزعامة برجوش ومتع إل ، بدور بارز كان من الممكن ان يؤدي الى قيام اتحاد آرامي حقيقي يضم آرام العليا وآرام السفلى . أي آرام الشمالية وآرام الجنوبية . ولكن الجهود الآرامية والسياسية آلت اخيرا الى الاخفاق واحبطت كل محاولات الاتحاد امام هجمات الآشوريين المنهكة .

ولكن رغم هذا الاخفاق سياسيا فان الآراميين برهنوا ، مع ذلك ، على قدراتهم المبدعة وعلى فعالية امكاناتهم على الصعيدين الاقتصادي واللغوي .

٣ ـ الآراميون عامل اقتصادي في المنطقة :

كان لظهور الآراميين على مسرح المشرق العربي القديم نتائج هامة على الوضع الاقتصادي للمنطقة التي كانت تمر آنذاك في مرحلة تغيير جذري . فبعد فترة من الاضطراب والعنف ساد المنطقة جو من الاستقرار ساعد على استرداد الفعاليات الاقتصادية نشاطها السابق ، في وقت تميز بتطور تقني هام في تاريخ الحضارة العام وهو **التوسع في استخدام الحديد** في الصناعة وتقلص صناعة البرونز ، مما كان مؤشرا على دخول الشرق الادنى في **عصر الحديد** (اواخر الالف الثاني ق.م) . ورافق ذلك تطور في المواصلات كانت له انعكاساته على الصعيد العسكري أيضا ، وتميز كذلك باستخدام الخيل على نطاق واسع وما يتصل بذلك من تطور صنع العربات وكل ما يتعلق بها من التقنيات بالاضافة الى ازدياد اهمية حرفة سائس الخيل والفرسان(٢٥). وفي مثل هذه الظروف التاريخية التي تعتبر من اهم مراحل تطور تاريخ المنطقة كان الآراميون الوافدون من البوادي يجدون الابواب مفتوحة امامهم على مصاريعها للعمل في الحرف والمهن وفي التجارة والجيش .

ومن المعروف ان لسورية تاريخا عريقا في التجارة والاقتصاد يرقى الى ما قبل العصر الارامي بقرون . ولمنطقة حلب مكانة خاصة في هذا المضمار بكونها الجسر الطبيعي

للاتصال ما بين وادي الفرات والحوض الشرقي للمتوسط . فكل الطرق في سورية الشمالية تؤدي عبر طرق الامانوس الى آسية الصغرى أو عبر حوض العمق الى موانىء البحر المتوسط ، الى اوجاريت وارواد وجبيل وغيرها ، ومنها موانىء كانت لها فعالية تجارية مرموقة منذ عصر ابلا في الالف الثالث ومنذ تاسيس اقدم العلاقات التجارية عن طريق البحر ما بين مصر والساحل الكنعاني ـ الفينيقي(٢٦) . وقد تطورت هذه الفعالية واحتفظت بعض الموانىء بأهميتها ، أو ظهرت موانىء اخرى خلال الالف الاول، مثل عرقة وسيميرا والمينا الواقعة مقابل اوجاريت .

وقد استطاع الآراميون الذين أضحوا سادة سورية الشمالية في مطلع الالف الاول ق.م . ان يفرضوا لانفسهم مركزا متفوقا على الصعيد الاقتصادي والتجاري ، خاصة في منطقة المشرق القديم ، بعد ان وطدوا اقدامهم عند مفارق الطرق وعند المحطات الاساسية لطرق المواصلات التقليدية وبخاصة مابين الاناضول ومناطق آسية الصغرى من جهة وسورية والرافدين من جهة اخرى . وقد وضح اهمية هذا الدور كل من ج **ماكوين و ج ملارت** في دراساتهما القيمة(٢٧) . وقد ابرزا فيها مقدار ما تحقق في سورية من ثراء وغنى وعمران مما جعلها مطمعا للغزاة والطامعين . وقد كانت مملكة اشور على راس هذه القوى المجاورة الطامعة بثروات سورية ، ولم تكن لترضى ان تفيد منها ببناء علاقات تجارية منظمة ، فقد بنت سياستها الاستراتيجية تجاه سورية المنقسمة والغنية على اساس من التوسع والتفوق بالاستناد الى الاداة العسكرية الساحقة التي كان يتمتع بها الجيش الاشوري . وقد اضحت هذه السياسة التوسعية الآشورية تجاه كل بلاد امورو وآرام الواقعة غربي الفرات وحتى البحر المتوسط سياسة تقليدية ما بين القرنين التاسع والسادس ، اي مذ أشور ناصر پال وحتى سقوط اشور على أيدي التحالف الميدي ـ الكلداني ، وكان هدفها الاساسي فرض السيطرة المباشرة على اقتصاد البلاد واعتباره مصدرا اساسيا لحاجات الحياة اليومية في المدن الاشورية عامة وفي البلاط الملكي وقصور الطبقة الحاكمة خاصة . وقد ورث هذه السياسة فيما بعد ملوك بابل الكلدانيون ، ثم الملوك الفرس الاخمينيون . ومن الجدير بالذكر ان لاشور تقاليد عريقة في بناء سياستها الاقتصادية على اساس الاستغلال في مناطق خارجية وبعيدة ، كما تشهد بذلك دراسة فعالية المستعمرات الاشورية في كابا دوكية منذ اوائل الالف الثاني ق.م ، وقد كشف عن بنيات هذه السياسة بوضوح الاستاذ **پ. جاريللي** في دراسته الرائعة عن الاشوريين في كبادوكية(٢٨) .

وبعد ان تحقق لاشور السيطرة على معابر الفرات الرئيسية اثر نزاع طويل منذ عصر تكلات فلاصر الاول (أواخر القرن الثاني عشر) الى عصر اشور ناصر پال الثاني

(اوائل القرن التاسع) ، وبعد ان اضحت الضفة اليمنى للنهر بيد اشور بعد انهيار مملكة بيت عديني الارامية ، دار الصراع حول مناطق سورية الشمالية والمعابر والطرق المؤدية الى شواطىء المتوسط .. في تلك المرحلة كانت مصر بعيدة تماما عن الساحة لما كان يكتنفها من ضعف وانقسامات داخلية وصراع على السلطة المركزية بين الاسرات الحاكمة في وادي النيل (الاسرات ٢١ ــ ٢٤) . اما آسية الصغرى فلم تظهر فيها قوة كبرى هامة منذ سقوط الامبراطورية الحثية في القرن الثاني عشر حتى ظهور الفريجيين في غرب آسية الصغرى في القرن الثامن ق.م .. ولذلك فقد بقيت الساحة خالية تقريبا امام التحركات العسكرية الاشورية التي اضحت تحركات موسمية للغزو وجمع الغنائم والمحاصيل وفرض الغرامات كلما كان الظرف مناسبا وكلما ازداد الانقسام في العالم الآرامي .. ولم تتدخل لمنافسة اشور سوى دولة واحدة هي مملكة اورارتو التي برزت في مرحلة محدودة خلال النصف الاول من القرن الثامن ، عندما توسعت هذه الدولة من مركزها الاساسي حول بحيرة وان (ارمينية)نحو الغرب وسفوح طوروس الجنوبية باتجاه الممالك الآرامية الشمالية وبخاصة مملكة بيت اجوشي في ارفاد . ومن النافل ان نؤكد ان الدافع الاساسي لهذا التدخل هو سعي كل من أورارتو واشور ، وهما كلتاهما دولتان داخليتان ، الى الوصول الى البحر المتوسط ..

ومن اهم الدراسات الحديثة حول السياسة الاقتصاديةالاشورية دراسة الباحثة السوفياتية **ن.ب. يانكوفسكا**(٢٩) التي وجهت الانتباه بصفة خاصة الى تنوع العلاقات ما بين آشور والاقطار الاخرى ، ومنها بلاد آرام ، بصورة تتناسب مع اختلاف شروط الانتاج في كل منها وحاجة الدولة الاشورية لهذا الانتاج . ويوضح لنا اختلاف المصطلحات المستخدمة في اختلاف نوعية هذه العلاقات وقيمها القانونية .. فهناك الضريبة التي تكون بالواقع غرامة مفروضة (بالاكادية : **بيلتو**) ، والتقدمات او الهبات التي يتوجب على المغلوبين تقديمها للملك ورجاله من القادة والحكام (وهي بالاكادية **ماندانو** ، من الفعل نادانو : اعطى . وفي العربية الندى الكرم والعطاء) . وهناكالغنائم التيتعقب الحروب مباشرة . تلاحظ يانكوفسكا ان التشابه واضح في المواد التي يرد ذكرها سواء في قوائم الغرامات أم في قوائم الغنائم التي يحرزها الجيش الاشوري في اعقاب تحركاته . فمهما تعددت الصيغ القانونية او الرسمية فان ما كان يهم الدولة الاشورية هو الحصول على الانتاج المطلوب من اقتصاد المناطق المفتوحة ، او المغلوبة . ولا تتيح دراسة قوائم الغرامات والغنائم والاسلاب معرفة مصدر المواد التي تم الاستيلاء او الحصول عليها انكانت من صنع محلي في سورية او مستوردة .. امالمعدن المستخدم للدفع او لتسديد القيمة فهو الفضة على الاغلب والقصدير والنحاس . ولم يستخدم الذهب كمادة نقدية الا في زمن متاخر وعلى الاغلب في القرن السابع بعد الاقتراب من مصر وازدياد التعامل معها .

٤ ــ اقتصاد الدول الآرامية ، « ارفاد » نموذجا :

بعد هذه النظرة الشاملة على دور الاقتصاد السوري في العصر الارامي القديم واهميته في اقتصاد الدولة الاشورية وسياستها التوسعية ، يمكن ان نتعرف على نموذج لبنية هذا الاقتصاد الارامي ومقوماته من خلال العلاقة ما بين دولة ارامية هامة هي مملكة ارباد (ارفاد) وبين مملكة اشور . وتستند هذه الدراسة الى ما تقدمه لنا معطيات التنقيبات الاثرية في موقع تـل رفاد (تل رفعـت) في شمال سوريـة، بالاضافة الى مايستخلص من الحوليات الملكية الاشورية التي تعود الى الفترة الواقعة في القرنين التاسع والثامن ق.م .

فقد اظهرت نتائج التنقيبات التي قامت بها البعثة البريطانية بقيـادة سيتون وليامس وجود بقايا اثار من أوان نحاسية يرجح ان يكون مصدرها من اورارتو . وقـد ربطت سيتون وليامس بين وجود اشياء من هذا النوع في تلك الفترة وبـين الظروف الدوليةالتي اتاحت الفرصةفي فترة ما لنموالعلاقات السياسية والاقتصادية بين مملكة اورارتو على عهد ملكها ساردور الثالث وبين مملكةارفاد على عهد ملكها متع" إلى خلال القرن الثامن(٢٠) . على ان مثل هذه العلاقة الوثيقة بين الطرفين ما هي الا مرحلة في تاريخ العلاقات التي لم تنقطع منذ اقدم العصور بين اقطار الاناضول وما وراءطوروس وبين دول الجزيرة وسورية الشمالية منذ عصر تل حلف في الالف الخامس ق.م .

وقد عثر في هذه السوية من سويات التنقيب (خلال موسم ١٩٦٠) ، على بقايا قطع من مرآة على قاعدة من الجص . واشياء مصنوعة من الحديد وسكين بقرابها. وكسرة من آنية غرانيتية عليها كتابة آرامية ، واشياء اخرى برونزية واسـلحة مـن البرونز والحديد ولكنها بحالة سيئة . ويعتبر وجود هذه الاثار المعدنية دليلا ماديا على المرحلة الانتقالية التي كان يمر بها التطور التقني في المنطقة من العصر البرونزي الاخير الى عصر الحديد .

اماالفخار الذي وجد في هذه السوية فلا يزيد على كسرات صغيرة جدا من النوع الذي عثر عليه في موقع الميناء (السوية ٨) ومجدو (السويـة ٥ـ٤) وفي حمـاه . بالاضافة الى ذلك عثر على لقى واشياء وكسـرات فخارية قبرصية واغريقيـة تعود الى القرنين الثامن والسـابع ق.م،، وجد اكثرها في غرفة من السويـة الثانية (ب)، بالاضافة الى بعض الحلي وادوات الزينة..وتدل هذه المؤشرات جميعاعلى وجودعلاقات تجارية واسعة مع مناطق داخلية من آسية الصغرى ومع مناطق واسعة من الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، مما يؤكد على الاهمية التجارية والاقتصادية لموقع ارفاد في شمال سورية في الفترة التي ندرسها(٢١) .

اماالوثائق التاريخية الاشورية فانها تقدم لنا معلومات اغنى واكثر اهمية عن القدرة الاقتصادية لمملكة ارفاد الارامية خلال مراحل التوسع الاشوري نحو امورو ، اي غربي الفرات ، وهو الاسم الذي كان يطلق على معظم بلاد الشام . واننا سنحاول ان نقدم صورة عن **القدرة الاقتصادية** لهذه الدولة الارامية الهامةولبعض الدول المجاورة المعاصرة لها ، من خلال الحوليات الاشورية ، ونعتمد الى حد كبير على الدراسة القيمة التي قامت بها الباحثة ن.ب.يانكوفسكا ، والتي سبقت الاشارة اليها .

تشير حوليات الملك الاشوري **اشور ناصر بال الثاني** (٨٦٣ – ٨٥٩) الى الانتصارات التي حققها الملك وما ترتب عليها من نتائج . فقد ارغمت مملكةبيت اجوشي على دفع مبالغ من الذهب والفضة والقصدير والنحاس ، وعلى تقديم اعداد من الماشية وبخاصة من الاغنام والجلود ، ومن الملابس الممتازة المصنوعة من الكتان الملون والمصبوغ والملمع ، ومن الاقمشة (٢٢) . وقد ذكر في وثائق اخرى ان كركميش وبيتعديني قدمت للملك اشياء ثمينة مصنوعة من الذهب والفضة .

اما في زمن **شلمناصر الثالث** (٨٥٨ – ٨٢٤) فقد كان على بيت اجوشي بعد هزيمتها مرة اخرى اماماشوران تدفع غرامة مقدارها ١٠٠ مينا من الذهب (= ٥كغ تقريبا) و ٦ وزنات من الفضة (= ١٨٠ كغ) .وبالاضافة الى ذلك موادا عينية اخرى من الاغنام والجلود والملابس والاقمشة مما اشتهرت به مناطق سورية الشمالية ، بالاضافة الى ذكر كميات من الخمور . ويتباهى العاهل الاشوري بانه تلقى من آرامي ملك بيت اجوشي سريرا نفيسا مرصعا بالذهب والفضة(٢٣) .

ان اية موازنة تجري بين المبالغ التي كان على ارفاد ان تدفعها للفاتح الآشوري وبين ما كان يفرض على جيرانها ، تظهر لنا ان ارفاد لم تكن تعتبر في المرتبة الاولى من حيث الثروة المعدنية . وفي الدراسات المتتابعة التي قام بها ب.مايسنر حول مصادر الفضة عند الاشوريين منذ مطلع هذا القرن (عام ١٩١٢)(٢٤) ، وتابعها بعده آخرون مثل جاريللي (١٩٥٩) ولارجمان (١٩٦٣) وغيرهما(٢٥) ، ما يؤكد على أهمية مناطق الاناضول كمصدر لاهم المعادن التي كانت يحتاج اليها الاقتصاد الاشوري . وكانت حطينا في وادي نهر عفرين اكثر قربا من مناجم التعدين في الاناضول ويبدو انها كانت اكبر ثروة من ارفاد ، كما يستدل من مقادير الغرامات الباهظة التي كانت تفرضعليها حسب الوثائق الاشورية . ولكن ينبغي ان نشير الى ان الفاتحين الاشوريين استطاعوا ان يستولوا على اكبر ما تم تحصيله من مقادير من الذهب من مدينة صور اعظم موانىء المتوسط في عصرها . واضطرت دمشق عاصمة ارام ان تدفع كميات هامة ولكن اقل مما فرض على صور . اما الدول التي كانت تملك ثروات من الفضة فكانت دمشق

وكركميش تاتي في مقدمتها ، وتليها مصيصير في اورارتو وطابال في بلاد الاناضول نفسها . وهاتان المنطقتان الاخيرتان من اغنى المناطق بالمعادن الثمينة ، الذهب والفضة، في ذلك العصر ، وهذا مما جعلهما هدفا دائما للحملات الاشورية والتدخل الموسمي للجيش الاشوري .

كانت الفضة تاتي في المرتبة الاولى بين المعادن المرغوبة في التبادل التجاري قبل ان تتخلى عن دورها الممتاز للذهب(٣٦) خلال الالف الاول ق.م . وبعد هذين المعدنين الثمينين ياتي القصدير في المرتبة الثالثة من حيث الاهمية ، وكان يطلب الى جانب النحاس لتصنيع البرونز . وقد وجدت سبائك نحاسية وقصدير بكميات هامة في المراكز والمدن والموانىء الرئيسية في كل الشرق الادنى القديم ، وبخاصة في موانىء البحر المتوسط وفي كركميش وارفاد ، كما يتضح من دراسة الحوليات التاريخية من عصري شلمناصر الثالث (القرن التاسع) وتكلات بلاصر الثالث (القرن الثامن)(٣٧) .

وقد تمكن الاشوريون خلال حملاتهم على سورية من الحصول على النحاس والقصدير من المناطق التالية : دمشق التي دفعت غرامة للملك ادد نيراري الثالث(٣٨) (حوالي ٨٠٥ ق.م) مقدارها (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف وزنة (= ٩٠ طنا) من النحاس . بينما تلقى اسلافه كميات هامة من القصدير والنحاس من الموانىء الساحلية الفينيقية ومن كركميش وبيت عديني على الفرات ومن حطينا (عنقي) وهي منطقة العمق (٣٩).

وقد اضحى الحديد في المرحلة التي ندرسها المعدن الاستراتيجي الاكثر اهمية في ذلك العصر ، ومع ذلك كان ذكره في المصادر الاشورية اقل من ذكر المعادن الاخرى التي اشرنا اليها . وكان يستحصل عليه ويستورد من مناطق مختلفة من اسية الصغرى ويصنع على الاغلب في الموانىء الكنعانية ـ الفينيقية في سورية ، ثم يجري تصديره الى بلاد الرافدين . وتاتي دمشق في المرتبة الاولى من حيث الكميات التي قدمتها لاددنيراري الثالث تليها حطينا وكركميش . وقد ذكران دمشق قدمت (٥٠٠٠) خمسة الاف وزنة (= ١٥٠ طنا) من الحديد ، ولكن مدن الساحل قدمت كميات اكبر لجيش تكلات بلاصر الثالث (٤٠) . فاستنادا الى هذه المعلومات التي حملتها لنا الوثائق الرسمية من الديوان الاشوري يمكن ان نستنتج ان ارام دمشق كانت اكثر الدول الارامية غنى بالنحاس والحديد لان الطريق التجارية الرئيسية من الشمال الى الجنوب كانت تمر بدمشق حامله بضائع وموارد اسية الصغرى عن طريق عملاء تجاريين من حطينا وبيت اجوشي كانوا يتعاملون مع ارام دمشق اكبر دول العالم الارامي واكثرها اهمية سياسيا واقتصاديا .

وكان النسيج الذي تنتجه المدن السورية مرغوبا في اشور وغيرها ، وكانت لـــه شهرة قديمة ومعروفة منذ قرون بعيدة . وقــد فرض على ارفــاد ان تقــدم للجيش الاشوري كميات كبيرة من الملابس (٤١) . وافضل انواع القماش الارجماني (بالاكادية ارجمانو) والقماش المصبوغ بالازرق والبنفسجي المعروف باسم (تاكلتو) وهي مـــن منتجات المدن الساحلية الفينيقية .

ولا ننسى قيمة الاخشاب وتجارتها في اقتصاد سورية القديم لما لها من اهمية في البناء ، بناء المعابد والقصور وعمـارة المـراكب والسفن والاثاث والادوات . وكانت الاخشاب تستورد من سورية الى اشور وبابل بصورة منظمة واما مصادرها فهي جبال الامانوس ولبنان . وكانت تعد البعثات للحصول على الاخشاب تجاريا او بطريق الحرب كغنائم او غرامات تدفع سنويا .

وماتزال نتائج التنقيبات الاثرية في ارفاد تزونا بمعلومات اضافية عن اهمية الموقع في العصر الارامي القديم وبعده ، كما اكدت ذلك الحفريات التي اجرتها بعثة جامعـة لندن عام ١٩٧٧ . وهناك قطعة من رقيم مسماري وجد في حصن شلمناصر في موقــع نمرود في شمال العراق يفيدنا عن كميـة مـن الاقـواس (٧٨٤ قوسا) كـان يتوجب ارسالها من ارفــاد الى مخازن الاسلحة الاشورية . ولا نعرف بالضبط تاريخ هــذه الوثيقة ، ولكن لابد ان ترجع الى مرحلة اسبق من ضم ارفاد الى المملكة الاشوريـة في ٧٤٠ ق.م . وقد نالت هذه الوثيقة حظا كبيرا من الاهتمام ودرسها كل من مالوان، واواتس (٤٢) . وقد بقيت ارفاد تحتفظ بدورها بعد ان اضحت تدار من قبل الادارة الاشورية . ففي حوليات الملك اسر حدون (٦٨٠ ـ ٦٦٩) نجد مـا يفيد بـأن اشور استجلبت من ارفاد الخيول والبغال .

٥ ـ خاتمة :

قبل نهاية هذا البحث يمكن ان نستنتج أن أرباد (ارفاد) كانت تمثل في سورية الشمالية اهمية استراتيجية فوق اهميتها الاقتصادية . كانت الواجهـة التي تلقت الضربات الاشورية بعد انتقال اشور الى ضفة الفرات اليمنى . الم يؤد سقوط ارفاد الى سقوط الدويلات السورية تباعا امام الزحف الاشوري ؟ ان ملاحظة الشواهــد السابقة التي عرضناها في حديثنا عن الاقتصاد الارامي واهميته بالنسبة لاقتصاد اشور تؤكد لنا مرة أخرى ان السياسية الاستراتيجية التي رسم خطوطها ونفذها الملك تكلات بلاصر الثالث لتحويل الدويلات السورية الارامية والفينيقية الى ولايات اشورية تدار من قبل الحكومة المركزية او باشراف ممثليها المعينين ، لم يكن هدفهـا حماية أمـن

اشور وحسب ، ولكن بالدرجة الاولى وضع اليد مباشرة على طرق المواصلات الدولية التي تعبر اراضي سورية الشمالية ، ووضع المدن الرئيسية وهي مراكز التجارة والاقتصاد في سورية في خدمة الدولة الامبراطورية الاشورية . وهذا مايفسر لنا كيف استخدمت الثروات الضخمة التي رفدت بها التجارة الارامية ، عبر الطرق مابين الاناضول والمتوسط ومصر والجزيرة العربية، خزائن العواصم الاشورية . وانه على الاخص في هذا العصر بالذات ،اي في النصف الثاني من القرن الثامن وفي خلال القرن السابع بلغت اشور اقصى درجات اتساعها واعلى درجات الثراء وشادت ارفع البنيان وعمرت الحصون والقصور في كلح ونينوى وغيرهما .

لقد اتجهت حركة التوسع الاشوري في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ المنطقة باتجاهين : **الاول** نحو الغرب الى بوابات التجارة البحرية على البحر المتوسط اي نحو الموانيء الفنية العامرة : ارواد وعرقة وسيميرا وجبيل وصور ، أما الثاني فكان نحو **الجنوب**، أي الى بابل وبلاد البحر (سومر القديمة)لانتزاع التجارة من ايدي البابليين الكلدانيين والاراميين في تلك المنطقة من اجل الاشراف على التجارة مع مناطق الخليج: ديلمون وماجان (أي بلاد البحرين وعمان) .

وكان هؤلاء الاخلامو والاراميون القدماء ، الذين شكلوا في السابق مصدر ازعاج لاية سلطة مركزية في بلاد الرافدين ،هم العامل الاقتصادي الاهم في المنطقة ، لما كانوا يقومون به من دور الوساطة التجارية بين البلاد الداخلية في حوض الفرات والجزيرة وحتى الى مصر من جهة ، وبين الهند البعيدة كانوا يستوردون الحجارة الكريمة والتبر والذهب والخشب النفيس والعاج المرغوب من اجل الزينة وصنع أثاث القصور . وهكذا اضحت تلك الاقوام ، مصدر الاضطراب في أواخر الالف الثاني ق . م ، هي عامل الازدهار والاستقرار في الالف الاول ، وهي التي ، بعد ان فقدت استقلال دولها، كان عليها ان تستمر في تادية دورها الحضاري قرونا طويلة في ميداني الاقتصاد واللغة حتى جعل الاراميون من اللغة الارامية لغة رسمية الى جانب لغات الفاتحين من الاشوريين والكلدانيين والفرس . وهذا الدور الحضاري يجعل للاراميين في الالف الاول ق . م دورا في الدرجة الاولى من الاهمية ، مهد السبيل بما تركه من أثر ثقافي أرامي ــ سرياني لتجدد الحضارة العربية وانبعاث رسالتها .

(١) من اجل تفصيلات احداث هذه الرحلة : **T. Bossert,** Anatolien (1942) P. 67;
Seton - lloyd, Early Anatolia (1956) P. 159;
J. Howinktencate, Kleinasien - Zwischen Hethitern u.Persern,Fiseher Weltgeschichte 4 (1967) , P . 112.

(٢) ورد اسم المكان فو من ديار بكر شرقي جزيرة العرب . وفو جبل عند الهمداني في « صفة جزيرة العرب » ،وذكرعلى انه من منازل اياد . و « ذات القوة » موضع اليمن . فربما حملت الهجرات العربية هذا الاسم الى اقصى الشمال .

(٣) انظر : **A. Goetze,** Kizzuwatna and The Problem of Hittite Geography New - Haven, Yale Univ . Press (1919) P. 4-5, R. Gurney, The Hittites, (Penguin Books) , (1967) , P. 40 .

(٤) انظر لسان العرب لابن منظور ، مادة « شمل » .

(٥) **A. Alt, Das** Grossreich Davids, (Kleine Schriften II), (1955) P66-75,
A. Malamat, The Kingdom of David and Solomo in its Contact With Egypt and Aram Nahraim , (Biblical Archeologist B.A , XXI), 4 , (1958) , P.96 .
P.Naster , L' asie Mineure et L Assyrie au VIII et VII , sieèles av .J.C. d' après Les Annales des reis assyriens , Biblioo-theque du Museon 8) , Louvain (1938) P . 2 sq .
L . Delaporte , Les Hittites (Bibliotheque des Syntheses Histori ques ; coll , (L' Evolution de L' Humanité) Paris (1936) carte III.
D. D. Luckenbill, Ancient Records Of Assyria and Babylonia , Chi cago , (1926 - 1927), I = ARAB.

العهد القديم ، ٢ ، ٧ : ٦ سفر العدد ، ٢ ، ١ : ١٧

(٧) انظر :
G. Buccellati, The Amorites of the Ur III Period , (Instuto Orientale di Napoli , 1966) P . 133 , 236 - 237 .

(٨) انظر :
N . Schnelder , Aram und Aramaer in des UrIII Zeit , Biblica , 30 (1949) P . 109 - 111 ; A. Dupont - Sommer , Sur tes débuts de L, Histoire araméenne « dans Supplement à Vetus Testamentum , Vol. I , Leiden , (1953) P . 4 - 9 .
J . P . Kupper , Les Nomades en Mesopotamie au temps des rois de Mari , Paris (1957) , Ch . III .
M . Liverani , Storia di ugarit , Roma (1962) P . 153 .

(٩) انظر نصب زكر ملك حماة ولعش في :
H. Donner W . Rollig , Kanaanäicsche u. Aramaicshe Inschriften , = (K A I) , No 202 , S . 204.

(١٠) حول اختلاط الاحلامو الاراميين بالاموريين في بمحاض / حلب راجع :
G . Buccellati , The Amorites , P . 242 - 243 .

(١١) انظر مادة « خلم » في ابن منظور : لسان العرب :

(١٢) انظر حلم - חלם في **W . G esenius** , Handworterbuch

(١٣) انظر مادة حلم في ابن منظور : لسان العرب .

(١٤) انظر بهذا الصدد :
J . R . Kupper ; Les Nomades en Mesopotamie au temps des rois de Mari , Paris (1957) . P . 112 - 113 ; P . Garelli , le Prode -Oriend Asiatique 2 bis , Paris (1974) , P . 217 .

(١٥) انظر مادة كنعان في :
Guy et. M . F . Rachet, Dictionnaire de La civilisation Égyptienne , (Larousse (1968) , (canaan , P . 60) ;

(١٦) انظر : **J . R . Kupper** , op . Cit. P . 108.

(١٧) انظر برنكمان :
J . A . Brinkman , A political History of Post - Kassite Babylonia (1158 - 722) , Rome (1968) n . 1799 .

(١٨) انظر : **J . R . Kupper** , op . cit P, 134 - 135.

(١٩) انظر :
E. Dhorme, les Langues et Les ecritures Sémitiques , Paris (1930) P . 29 ; **A, Dupont** - sommer , L'Ostracon arameen d'Assur , Syria , XXIV , 1944 - 45 P . 24 - 61 .

(٢٠) انظر اخيرا :
A. Lemaire , J . M . Durand , les inscription Arameenes de Sefire et L'Assyrie de Shamshi - Ilu , (1984) , P. 111.

(٢١) انظر برنكمان: **Brinkman,** op. cit, P. 335 - 338 :

(٢٢) **Donner , Rollig ,** = KAI, no 201;
H. Farzat, Le royaume araméen d'Arpad, Paris , (1972) P.37.

(٢٣) انظر : **Donner , Rollig,** = KAI no 202;
A. Dupont - Sommer, Les Arameens P, 45 - 48.

(٢٤) انظر : **H. Farzat,** op. cit .p.38.

(٢٥) انظر :
F. M. Heichelheim , An Anecient economic History , vol . I Leiden (1965) , P.203;
J.Deshayes, Les Givilisations de l'Orient - Ancient, (Arthaud -Paris) (1969) P. 111 - 116 .

(٢٦) انظر :
Polanyi et oppenheim, Trade and Market in the Early Empires,(1957), p. 12 - 27 , 38 .

وحول العلاقات التجارية ، انظر :
Schachermeyer , Agais und Orient , Wien (1967) , p . 20 - 26 ;

انظر مقالة جان لوكلان Jean Leclant في :
W. A. WARD, The role of the Phoenicians in the interaction of the Mediterranean civilizations; Beirut , the American Univ. (1968) ;
A. Parrot, M. Chehab et S.Moscati, Les Phéniciens, Gallimard, Paris (1975) P. 34 - 35.

(٢٧) انظر حول الطرق التجارية مع اسية الصغرى خلال الالف الثاني:
J. G. Macquen, Geography and History in Western Asia Minor in the second Millenium B.C.«Anatolian Studies » 18, (1968) P. 169 - 185;
J.Mellart, «Anatolian Trade with Europe and Anatolian Geography and culture Provinces in the Bronze Age» in An.St. 18 (1968) P. 187-200;

(٢٨) راجع : **P. Garelli, les** Assyriens en Cappadoce, Paris (1963) p. 225.

(٢٩) انظر دراسة يانكوفسكا
N. B. Jankowska, some problems of the economy of the Assyrian Empire. p. 253 - 275 .

في كتاب لعدد من المؤلفين باشراف الاستاذ دياكونوف
I. M. Diakonoff (ed) , Ancient Mesopotamia , Socio - Economic History, Moscou , (1969).

انظر ايضا : **H. Farzat,** Le royaume arameenn d'Arpad , p. 40, 134.
Seton - Williams, Iraq XXIII (1961) , planche XL; I no 14,p. 79.

(٣١) انظر مقالة سيتون وليامز في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية ، عدد ١٧ (١٩٦٧).
Seton - williams, « tell Rifat » AAsyr XVII , 1967 , p.67 , 72.

(٣٢) انظر :
D.D. Luckenbill, Ancient Recorde of Assyria and Babylonia (1926) = ARAB Vol. I, N° 477.

(٣٣) راجع المصدر السابق : **Luckenbill** = ARAB , I, n° s 475 - 476 , 600-601.

(٣٤) انظر : **B. Meissner** , « Woher haben die Assyrer silber bezogen ? » Orientalische Literaturzeitung = Olz , XV , (1912), 145-149.

(٣٥) انظر جاريلي ، التاريخ العام للعمل :
P. Garelli, Histoire generale du travail , I, Paris (1959) p. 49 - 104;
ومادة تعدين Métallurgie ومقاييس Métrologie في : Dictionnaire archéologique des Techniques , 2 vols . Paris 1963 ; Langement, II p. 660. **D.Arnaud**

contribution à l' etude de la metrologie Syrienne au II ème millénaire , in Revue de L'Assyriologie = RAss 61 (1067).

(٣٦) **R. J. Forbes** , Gold in the ausient Near - East, dans Ex. Oriente Lux N° 6, (1936) p. 237 - 250 ; **Forbes** , Metallurgy in Antiquity, Leiden n°6, (1950).

(٣٧) انظر : **Luckenbill,** ARAB ,I, ns . 603, 772, 801,

(٣٨) انظر المصدر السابق : ARAB, I, no 740.

(٣٩) انظر المصدر السابق ، الارقام :
nos 454 , 466, 475 , 476, 479; 518; nos 593, 601, 585, 655 , 769.
وهذه الوثائق تعود بالترتيب الى حكم كل من : اشور ناصربال الثاني ،شلمناصر الثالث،وتكلات بلاصر الثالث .

(٤٠) المصدر السابق ، ARAB, I, 740,
ايضا : 585; 476, 477, 772, 801 , 601.

(٤١) المصدر السابق ، الارقام : 476, 479, 601, 655, 740.
انظر ايضا : **Jankowska,** idem , p. 285.

(٤٢) **M. E. L. Mallowan,** Nimrud and its remains I , II , London (1969) , I,p. 386, n° 21 . II, p. 406 ; **D. Oates,** Fortshalmanassar , an Interim Report, Irap, XXI, (1959) P. 98 - 129.

الصلات التجارية بين مصر وسورية
منذ عصور ما قبل الأسرات حتى نهاية الدولة القديمة
(٤٠٠٠ ـ ٢٢٨٠ ق.م)

د. محمود عبد الحميد أحمد
جامعة دمشق

عوامل كثيرة ساعدت على قيام صلات تجارية مبكرة بين مصر وسورية(١) ، من أهم تلك العوامل ، الموقع ، الطرق ، اختلاف منتجات البلدين الواحد منهما عن الآخر وضرورات التبادل التجاري .

فمن ناحية الموقع ، فان سورية تجاور مصر برا ، ولا يفصلهما فاصل طبيعي لا يمكن التغلب عليه(٢) . كما أن مصر وسورية تقعان على بحر واحد . فسورية تحتل كما هو معروف الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، أما مصر فتحتل الطرف الجنوبي الشرقي من هذا الساحل .

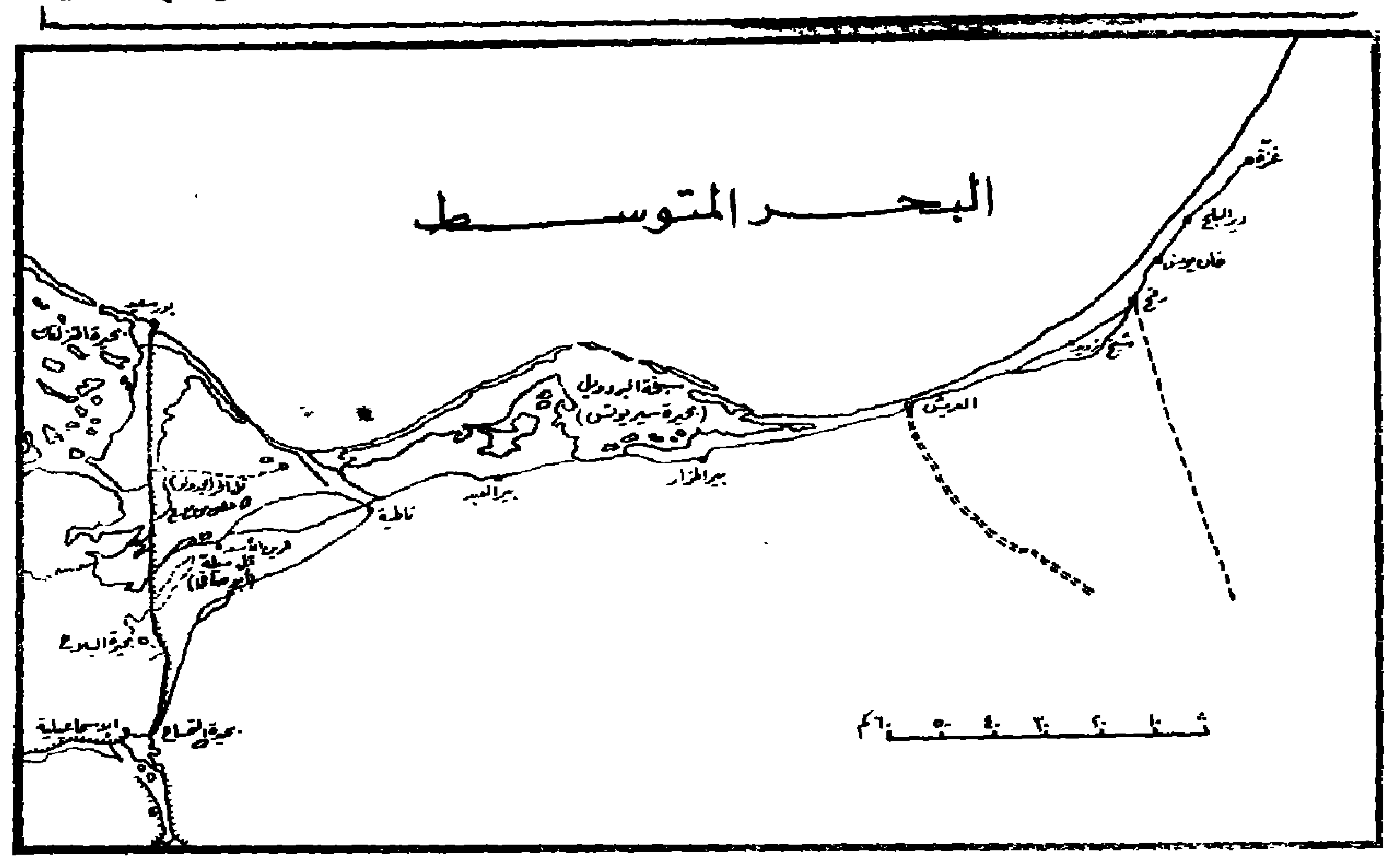
اما فيما يتعلق بالطرق ، فقد اتصل البلدان الواحد منهما بالآخر بواسطة طريقين ، الاول بحري والثاني بري اذ كان الطريق الاول (البحري) يبدأ من مصاب نهر النيل على البحر الابيض المتوسط ، متجها نحو الشرق ويستمر بمحاذات الشاطىء الشمالي لشبه جزيرة سيناء ، فسواحل فلسطين ولبنان وسورية . وتدل اسطورة اوزيريس وايزيس ، على ان طريق البحر قد سلك منذ وقت مبكر جدا ، حيث تبدأ الاسطورة بالاعلان عن ولادة (الملك العادل) اوزيريس ، الذي حقق العدل بين الناس ، وعلمهم عبادة الالهة ، لكن اخاه ست ، كان يتقد غيرة منه ، ولذلك دبر له مؤامرة اشترك فيها اثنان وسبعون رجلا . وتتلخص المؤامرة في أن ست صنع صندوقا جميلا بحجم اخية اوزيريس ، وعرض هذا الصندوق خلال مأدبة اقامها ، ووعد أن يهدي

الصندوق لمن يناسب جسمه تماما . وبطبيعة الحال لم يناسب الصندوق جسم أحد، الى ان وصل الدور الى اوزيريس ، الذي تمدد فيه ، وكان مناسبا لجسمه ، وفي هذه اللحظة اسرع المتامرون فأغلقوا الصندوق والقوا به في نهر النيل ، حيث جرفت ميـاه النهر الصندوق الى البحر الابيض المتوسط ، واخيرا قذفت أمواج البحر الصنـدوق فاستقر على الشاطىء بالقرب من جبيل عند شـجرة صغيرة(٣) . ونمـت الشـجرة بسرعة واحتوته بداخلها ، غير ان ملك جبيل اعجب بضخامة هذه الشجرة ، فقطعها واستخدمها عمودا في قصره . وتخبر الريـح المقدسة الاخت المفجوعـة ايزيس بكل ما حدث ، فترحل الى جبيل . وفي جبيل جلست بجوار نبع تبكي بصمت ولا تكلم احدا عدا وصيفات الملكة ، وكانت تصفف شعورهن وتعطرهن بالطيب الخاص بهـا . ولاحظت الملكة كل ذلك ، فأمرت باحضار المرأة الاجنبية ، واتخذتها مربية لطفلها . وبعد فترة قصيرة استطاعت ايزيس ان تنزع العمـود من سقف القصـر ، وتخرج الصندوق (التابوت) حيث حملته على سفينة وعادت بهالى مصر(٤) .

أما فيما يتعلق بالطريق البرى ، فقد كان يبدأ بالقنطرة الحالية على حدود مصر الشرقية ، وينتهي عند رفح أول مدن فلسطين . ويعد سير ألن جاردنر من العلمـاء الكبار الذين استطاعوا أن يحددوا بداية هذا الطريق ، والمواقع المميزة الهامـة التي يمر بها عبر شمال سيناء الى أن ينتهي عند رفح . وقد وضع جاردنر مخططا للطريق بالاعتماد على دراسة علماء المصريات للمنطقة الواقعة على حدود مصر الشرقية منـذ حملة نابليون بونابرت على مصر . كما اعتمد في وضع مخطط الطريق على دراسة قـام بها هو شخصيا ،تناولت سلسلة المناظر المنحوتة على الجدار الخارجي لقاعة العمـد الكبرى في معبد الكرنك عند جهتها الشمالية (٥) .

استنتج العالم الكبير ان الطريق يبدأ من حصن تل ، او سيلة(٦) ، وينتهي بمدينة رفح في كنعان (فلسطين) ، حيث جاء في النقش (الشكل ـ ١) : [السنة الاولىللملك

الشـكل (١)



من مارع رع ، وقد قامت يده القوية بالسلب بين الهالكين من بلاد الشاسو] « مبتدءا من حصن تل الى كنعان» .

يبلغ طول هذا الطريق نحو مائة واربعين ميلا ، اذ ان المسافة بين القنيطرة والعريش نحو واحد وتسعين ميلا ، وبين العريش ورفح وغزة نحو عشرين . ومن الجدير بالذكر ان الابار محفورة على امتداد الطريق ، لتزويد المرتحلين بالماء(٧) . كما اقيمت القلاع والحصون(٨) في الاماكن ذات المواقع المتحكمة ، لحماية الطريق والقوافل من عبث العابثين(٩) .

وأما فيما يتعلق باختلاف منتجات مصر عن سورية ، فمن الطبيعي ان يؤدي اختلاف موقعيهما على درجات عرض متفاوتة الى اختلاف في مناخيهما ، فانتج كل من البلدين طبقا لهذا المناخ منتجات نباتية وحيوانية خاصة بكل منهما . وكانت حاجة مصر لمنتجات سورية من الاخشاب ومشتقاتها ، بالاضافة الى زيت الزيتون والنبيذ ، وما يتجمع في مواني سورية من المنتجات الاسيوية ، كالفضة من آسيا الصغرى وحجر الاوبسيديان(١٠) واللازورد من منطقة افغانستان وما يجاورها ، والنحاس والقصدير من جزر البحر الابيض المتوسط ، كانت حاجة مصر لهذه المنتجات ماسة وضرورية جدا . وقد اعطت مصر مقابل ذلك ذهبا وعسلا وحبوبا وكتانا وحبالا واواني حجرية . وفيما يلي نعرض لاهم الآثار التي عثر عليها في كل من سورية ومصر ، والتي تعد دليلا

على قيام صلات تجارية مبكرة بين البلدين ، وسوف نقصر بحثنا هذا على صلات البلدين التجارية منذ عصور ما قبل الاسرات وحتى نهاية الدولة القديمة عند الربع الاخير من الالف الثالثة قبل الميلاد ، اي في الفترة الواقعة بين ٤٠٠٠ ـ ٢٢٨٠ ق.م .

تركزت الآثار المصرية التي ترجع الى عصور ما قبل الاسرات المصرية ، وتلك التي تؤرخ بعصر الدولة القديمة ، في مدينة جبيل على الساحل السوري . وقد عثر في هذه المدينة على الاثار المصرية التالية التي تؤرخ بعصور ما قبل الأسرات وهي : خرزة من الذهب ، طائر من العاج ؟ ، قطعتان من حجر الكوارتز ربما استخدمتا فيلعبة ما ؟، تمثال قرد صغير ، اناء حجري يشبه بعض الاواني المصرية الحجرية التي ترجع الى هذه الفترة (١١) . يضاف الى ما سبق قطعة من اناء حجري(١٢) ، نقش عليها سرخ ملكي مصري ، واسم الملك المصري خع سخموي ، اخر ملوك الاسرة الثانية المصرية(١٣).

قبل عرض الاثار المصرية الدالة على التجارة بين مصر وسورية خلال عصر الدولة القديمة ،لابد ان نقدم للقارىء الفكرةالقائلة ،انه نظرا لدين المصريين ، وللاهمية التجارية الكبيرة التي تمتع بها ميناء جبيل ، تولد عندهم اعتقاد ، مفاده ، انه لابد لهم ، ليتيسر حصولهم على الخشب ، من ارضاء آلهتها ، اي الهة جبيل ، التي يحصل المصريون من منطقة عبادتها على الخشب الثمين . كما ان نجاحانتفاعهم بالخشب ونجاح رحلاتهم في المستقبل كان يعتمد على ارادة الهة جبيل . ولذلك اسرع ملوك مصر من الدولة القديمة الى تقديم الهدايا الى امراء جبيل والى آلهتها(١٤) . وهكذا اعتبرت هداياهم تلك خير دليل على ازدهار التجارة بين مصر وسورية . وفيما يلي نعرض لاهمها :

ـ اناء من حجر الديوريت على شكل قرد ، وربما كان يرجع الى عهد الملك خوفو من ملوك الاسرة الرابعة المصرية(١٥) .

ـ كسرة اناء من حجر الالباستر عليه سرخ خوفو وبداخله اسم الملك(١٦) .

ـ كسرة من الالباستر منقوش عليها اسم الملك « منكاورع »(١٧) من ملوك الاسرة الرابعة .

ـ كسرة اناء من حجر الالباستر ، بقي عليها اثار علامتين من اسم الملك « نفرايركارع » ثالث ملوك الاسرة الخامسة المصرية(١٨) .

ـ كسرات عدة تحمل اسم الملك « اوناس » اخر ملوك الاسرة الخامسة المصرية(١٩) .

ـ اناء كامل يحمل اسم الملك السابق(٢٠) .

ــ كسرتان عليهما ما يحتمل انه اسـم الملـك « تيتـي » اول ملـوك الاسـرة السادسة(٢١) .

ــ اناء جميل من الالباستر ، يحمـل اسم الملـك« بيبي الاول »(٢٢) من ملـوك الاسرة السادسة .

ــ عدة كسرات حجرية تحمل اسم الملك السابق(٢٣) .

ــ كسرة حجرية تحمل الاسم الحوري كاملا للملك « مرنرع » من ملوك الاسـرة السادسة المصرية(٢٤) .

ــ عدة كسر تحمل اسم « بيبي الثاني » اخر ملوك الاسرة السادسة(٢٥) .

ــ سدادة جرة تحمل اسم الملك السابق(٢٦) .

ــ جزء من مائدة قربان حجرية ، تؤرخ بالايام الاولى للاسـرة الرابعـة ، كتب عليهااسم موظف مصري والقابه ويبدو انه كان واحدا من الكتاب الملكيـين المقيمين في جبيل ، ومن المحتمل انه كان مسؤولا عن مجموعة من الكتاب الملكيين المقيمين فيهـا ، حيث كان وجودهم هنا ضرورة ملحة لتسييراعمال الجالية التجارية المصرية في جبيل ، ولتسهيل وتنظيم عملية نقل الاخشاب الى مصر(٢٧) .

واخيرا نعرض لـ « المعبد المصري » الذي عثر عليه في جبيل ، هذا المعبد الذي يعد من الادلة الكبيرة على ازدهار التجارة بين مصر وسورية .

عثر في مدينة جبيل على معبد مصري(٢٨) يؤرخ بعصر الاسرة الرابعة ، من المحتمل انه اقيم هنا لخدمة الجالية التجارية المصرية المقيمة في جبيل ، واهم ما يلفت النظر في اثار هذا المعبد لوحة حفر عليها مشهد يصور ملكا مصريا جاثيا ، وقد حمل آنيتين صغيرتين يقدمهما الى الهة امامه ، خصت ببعض رموز الآلهة المصرية حاتحور . ولكن كتب في اعلى اللوحة « محبوب حاتحور سيدة جبيل »(٢٩) فهل قصد المصريون بذلـك الالهة بعلة الهة مدينة جبيل ، بعد ان رسموها برموز آلهتهم ؟ أم هي محاولة للتوفيق بين بعلة وحاتحور ، حيث وجد المصريون صفات مشتركة في رموز الالهتين ..؟ مهما كان الامر ، فمن المؤكد ان المعبد المصري قد وجد في مدينة جبيل ، ووجوده هـذا يدل دلالة قاطعة على مدى اهمية ميناء جبيل التجارية بالنسبة لمصر ، كما يدل على ان كثيرا من المصريين قد اقاموا في جبيل اقامة دائمة بصفة تجار او كتبة ، ارسلهم ملك مصر لتنظيم عملية نقل الاخشاب الى مصر من ميناء جبيل ، ولشراء ما تحتاجه مصر من منتجات اسيا المختلفة الواردة الى جبيل .

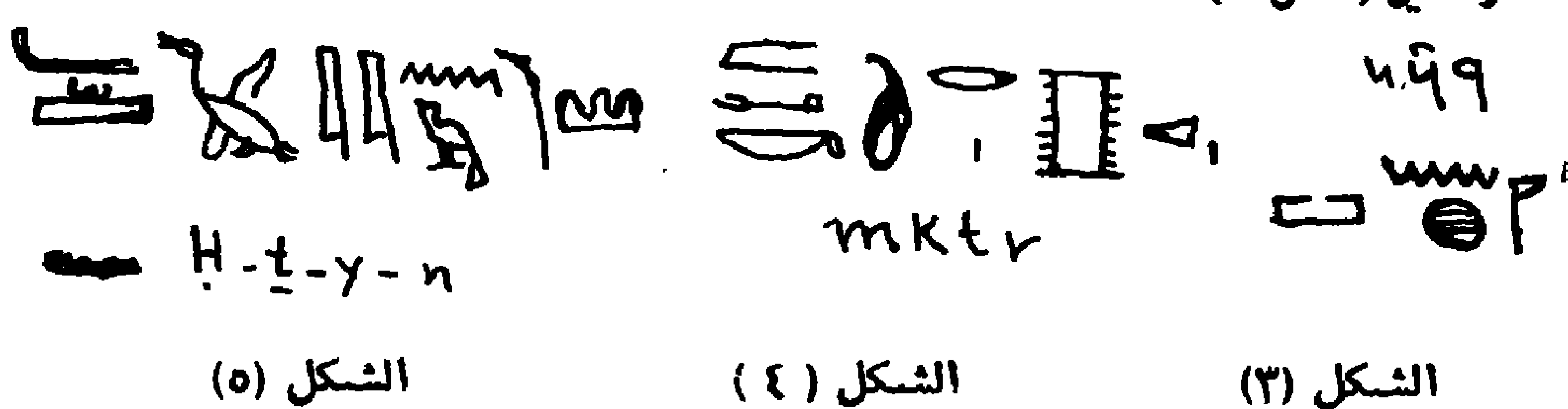
Ht-Hr mry nb Kbn

الشكل (٦)
« محبوب حاتور سيدة جبيل »

تناولنا في الفقرات السابقة الصلات التجارية بين مصر وسورية خلال عصـور ما قبل الاسرات وعصري الدولة القديمة ، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على الادلة الاثرية التي عثر عليها في مدينة جبيل بخاصة .وفي مقال تال سوف نعرض الادلة التـي عثر عليها في مصر ، والتي تتعلق بالتجارةبين مصر وسورية منذ عصور ما قبل الاسرات وحتى نهاية الدولة القديمة .

الحواشـــي :

(١) يقصد الباحث سورية الطبيعية .
(٢) يرى بعض الباحثين ان منطقة الشرق العربي امتداد لقارة افريقيا ، اذ ان مظاهر السطح لاتتغير الا عند جبال طوروس وزاغروس .
(٣) تقع جبيل على ساحل البحر الابيض المتوسط شمال مدينة بيروت .
(٤) ارمان ، ا.، ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم ابو بكر ومحمد انور شكري، القاهرةص٩٨ــ٩٩.
(٥) يعود تاريخ القائمة والنقوش الى عهد الفرعون « ستي الاول » من فراعنـة الاسرة التاسعـة عشر (١٣٠٩ ــ ١٢٩١ ق.م) .
وتصور النقوش والنص الهيروغليفي المرافق لها ، استقبال المصريين لملكهم الذي عاد منتصرا من كنعان ، والطريق الذي سلكه في عودته .
(٦) حصن تل هو تل ابو صالح الحالي على بعد ميلين من القنطرة الحالية . ومن الجدير بالذكر ان الموقع نفسه كان يدعىسيله في كتابات اليونان والرومان . الموسوعة المصريـــة ، المجلد الاول ، الجزء الاول ص ٣٣١ .
(٧) تقدر المسافة الواقعة بين بئرين متجاورين بحوالي (٩ــ١٠كم) .
(٨) اطلق على هذه الاماكن الهامة في نقوش ستي الاول الاسماء التالية قلعة (شكل ٣) ومجدل (شكل ٤) وحصين (شكل ٥)



الشكل (٥) الشكل (٤) الشكل (٣)

والللفظان الاخيران عربيان ، وقد بقيا مستخدمين في مصر حتى العصر البطلمي حيثكتبا كما يلي:

ME σ TO λ — MI γ TO λ

مشتول (شكل ٦) — مجتول (شكل ٧)

(٩) Gardiner, A. The Ancient military road bitween Egypt and Palestine, Journal of Egiptian Archaeology, vol. VI, p. 99 FF.

(١٠) حجر سليسي متبلر ، غالبا ما يكود بلون اسود ، يستخدم في صنع ادوات الزينة .

(١١) Montet, P., BYBLOS ET L'EGYPTE , Paris, 1928, No. 170 333 , 334, 176.

(١٢) Dunand, M., FEUILLES DE BYBLOS, 1, Paris, 1939 , No. 1115, P. 26 .

(١٣) السرخ لوحة حجرية مستطيلة الشكل ، كتب بداخلها ضمن اطار اسم الملك ، ورسم تحت هـذا الاسم واجهة بناء ربما تمثل واجهة القصر الملكي .

(١٤) «وفي عهد الملك تحوتمس الثامن ، ذهب رئيس الخزانة الى جبيل لاحضار كتل من خشب الارز . ولكنه قبل ان يصعد الى الغابة المليئة بالاشجار ليختار ما يريده من الخشب ، قدم القرابينلآلهة جبيل المسماة بعلة ، التي تعرف عليهاالمصريون وقالوا بانها الهتهم حاتحور » . ويلســـون ،ج، الحضارة المصرية ، ترجمة احمد فخري ،القاهرة ١٩٥٥ص٢١٤ .

(١٥) Montet, P., op. cit., No. 58.

(١٦) Dunand, M., op . cit., No. 4506.

(١٧) Dunand , M; , FBII, No. 11327.

(١٨) Dunand, FB I , No. 4909 .

(١٩) Dunand, FB I,No. 7867, 3980, 4029 .

(٢٠) Ward, W., Egypt aid the East Mediterranean from Predynastic Times table end of the old kingdom, J.E.S.H.O., vol. VI, P.23

(٢١) Dunand , FB I, No. 3753 .

(٢٢-٢٣) Ward, op. cit.p.23

(٢٤) Dunand, FB I.No. 1940.

(٢٥-٢٦) Dunand, FBI, No. 3800, 1927;2874.

(٢٧) Ward, op. cit ., p.21.

(٢٨) عثر على هذا المعبد بالقرب من نبع مدينة جبيل

Ward , op. cit., p.24.

(٢٩) Montet, op. cit ., No. 11.

تفرد مجلة « دراسات تاريخية » بدءا من هذا العدد بابا خاصا لنشر بحوث الدارسين ، المرشحين لمناقشة الرسائل المعدة لنيل شهادة الماجستير او الدكتوراه في جامعة دمشق .

الموقف الدولي

من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام (١٨٣١ - ١٨٤٠) من خلال الوثائق العثمانية

علي يوسف البلخي

جاءت حملة محمد علي على بلاد الشام في اعقاب انتصارات هامة حققها جيشه في الحجاز وفي اليونان وفي السودان . وكانت الظروف الدولية مواتية لهذه الحملة ، فبريطانية كان يشغلها الاصلاح الداخلي لاستبعاد خطر الثورات التي ظهرت في فرنسة ، وفرنسة منشغلة بثورات ١٨٣٠ في باريس التي جاءت بالملك لوي فيليب الى الحكم . وكان يشغلها ايضا الوضع المضطرب في الجزائر الذي ادى الى ثورة الامير عبد القادر الجزائري عام ١٨٣٢م . وكانت الامبراطورية النمسوية مهددة بثورة بولونية . أما الدولة العثمانية فكان جيشها الجديد ما زال فتيا بعد قضاء السلطان محمد الثاني على الانكشارية عام ١٨٢٦ ، كما ان الاسطول العثماني كان قد هزم من قبل الاساطيل الاوربية ابان حرب اليونان في معركة نفارينو عام ١٨٢٧(١) .

رأى محمد علي باشا بثاقب نظره ضعف الدولة العثمانية فقرر تأسيس عرش له يتربع فوقه ويورثه لاحفاده ، لذلك احكم قبضته على مصر ثم جهز قوة عسكرية برية وبحرية بقيادة ابنه ابراهيم وأمره باحتلال بلاد الشام ، وانطلقت تلك القوات من مصر في ٢٩ تشرين الاول ١٨٣١ م .

وبرهن ابراهيم باشا على قدرة قتالية عندما هزم قوات عبد الله الجزار ودخل عكا عام ١٨٣٢ ، وتقدم الى دمشق بعد ان بدد قوات عثمانية قربها ، وتابع سيره الى الزراعة وانتصر على الجيش العثماني فيها وتقدم الى حماة وحلب ومضيق بيلان.

والحق ابراهيم باشا هزيمة ساحقة بالجيش العثماني في معركة قونية في ٢٧رجب ١٢٤٨ هـ/٢١ كانون الاول ١٨٣٢ م ، واسر رشيد باشا قائده .

تركت هزيمة العثمانيين في قونية آثارا سلبية على العثمانيين والمصريين على السواء ، بسبب التدخل الاوربي في شؤون السلطنة العثمانية ، بحجة كبح محمد علي. وحاول السلطان العثماني توقيع الصلح مع محمد علي باشا فارسل وفدا الى مصر برئاسة صارم أفندي ، أحد كبار رجال الديوان السلطاني ، ليقنعه بالصلح ، فباءت محاولته بالفشل ، وعرض السلطان عليه ولاية عكا وطرابلس ، فرفض محمد علي واصر على ضم بلاد الشام الى مصر . وارسل الباب العالي(٢) خليل رفعت باشا، وهو أحد أعيان استانبول ، الى مصر ، حاملا الى محمد علي عفو السلطان عنه . ونظرا لوجود صداقة بين خليل رفعت باشا ومحمد علي فقد قررا ابرام الاتفاق على انهاء الحرب ضد السلطنة العثمانية مقابل اعطاء محمد علي ولاية سورية وادنة . وتم انهاء النزاع على هذا الوجه(٣) .

وحتى يتضح موقف الدول الاوربية تجاه وجود محمد علي باشا في بلاد الشام ، نرى من الضروري بيان سياسة كل دولة اوربية على حدة . والدول المعنية بهذا المجال هي : انكلترا ، فرنسا ، النمسا ، وثم روسيا وبروسيا .

كانت **سياسة روسيا** منذ عهد بطرس الاول (٤) تهدف الى الوصول الى المياه الدافئة في الدردنيل والبوسفور . لذلك اغتنم قيصر روسية هزيمة العثمانيين في قونية وارسل وفدا عسكريا برئاسة الجنرال مورافيف الى الاستانة ليعرض مساعدته العسكرية ، البرية والبحرية ، للسلطان العثماني . وبعد هزيمة قونية كلف السلطان محمود الثاني ريس افندي ، الذي كان صدرا اعظما ، بمقابلة بوتيف سفير روسية بالاستانة لطلب مساعدة عسكرية روسية قوامها ٢٠ او ٢٥ الف جندي ، فاتصل السفير الروسي بالقيصر وابلغه طلب السلطان فاصدر أوامره الى الاسطول الحربي بالتقدم من سيباستبول الى البوسفورفي ١٤ شباط ١٨٣٣ فوصل الى مياه الاستانة في ١٩ شباط ، وامر القيصر الجزال كيسليف باجتياز الروملي الى استانبول ووضعت قوات اوديسا على اهبة الاستعداد (٥) .

أما مورافيف فكان قد غادر الاستانة الى مصر وقابل محمد علي باشا في ١٣ شباط ١٨٣٣ وعرض عليه رغبة القيصر باتفاقه مع السلطان ، فرد محمد علي عليه بانه عرض الاتفاق على السلطان منذ شهر تشرين الثاني عام ١٨٣٢ ، وعاد مورافيف من الاسكندرية الى استانبول وابلغ الباب العالي بان محمد علي قد امر ابنه ابراهيم

هذه الوثيقة موجودة في ارشيف رئاسة الوزراء التركي في استانبول ومحفوظة بدوسية رقم ٧٨. وتتضمن موقف كل من فرنسة وانكلترة وروسية تجاه احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام ، وقد دونها محمد نافق بك الذي كان سكرتيرا خاصا للسلطان محمود الثاني ، وقد جمع معلوماتها من رسائل ملوك الدول المذكورة والموجهة الى السلطان العثماني .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بالتوقف في كوتاهية ، لكنه نصح رجال الباب العالي باخذ الحيطة والحذر من محمد علي . وعندما عسكر ابراهيم باشا في كوتاهية وصل اليه ثلاثة رسل :

الاول من قبل الباب العالي ليبلغه أنه أرسل خليل رفعت باشا الى مصر من أجل الاتفاق مع والده (٦) .

والثاني من قبل مورافيف الذي ارسل أحد معاونيه (دوهامل) لينصح ابراهيم باشا بالتوقف عن القتال .

وأما الرسول الثالث فهو : بودوليا رسول سفير فرنسة ، وكانت مهمته اقناع ابراهيم باشا بالتوقف عن القتال .

وكان جواب ابراهيم الى الرسل الثلاثة بانه قائد لقوات محمد علي باشا ، وأنه خاضع لتعليماته ومنفذ لاوامره .

وخافت كل من فرنسا وانكلترا من تعاظم النفوذ الروسي في الدولة العثمانية فتدخلتا لتسوية الامور بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا ، واسفر تدخلهما عن ابرام معاهدة كوتاهية في ٥ أيار ١٨٣٣ والتي جاء فيها :

١ ـ انسحاب ابراهيم باشا من الاناضول الى ما وراء جبال طوروس .

٢ ـ اعطاء ولاية مصر لمحمد علي مدى حياته ، ومنحه حق تعيين الولاة على ولايات بلاد الشام الاربع (عكا ، طرابلس ، حلب ، ودمشق) واعطائه جزيرة كريت .

٣ ـ تعيين ابراهيم باشا واليا على أضنة .

اعتبر السلطان العثماني معاهدة كوتاهية هدنة ليعيد تنظيم قواته من أجل طرد ابراهيم باشا من بلاد الشام .

وردت روسيا على التدخل الانكليزي الفرنسي بأن وقعت مع السلطان محمود الثاني في ١٨ محرم ١٢٤٩ هـ / ٨ حزيران ١٨٣٣م معاهدة هجومية عرفت بمعاهدة أونكيار اسكلة سي، تعهدت بموجبها بالدفاع عن الدولة العثمانية اذا هاجمها المصريون او غيرهم ، وحازت بذلك على حق التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية .

واعتبرت معاهدة اونكيار اسكلة سي نصرا كبيرا لروسيا لانها حققت حلمها بالوصول الى المياه الدافئة .

معروض بنده لريدر

افندم دولتلو مخلصاً نصب اولنه اولرق صلح واصلاح مشغول اولمقده هنوز باشلیه برایشه

اولنمامش سبعا امور اجنبیه ناظری لورد پالمستون نزدنده مقیم امور اجنبیه ناظری بولنمش اولان لورد ابردینه

جنابلری الیوم قپودانیا ناظری نصب اولنمش ملاقاته ورود بونلر [illegible] احواله وجزایر دائر مصاحبه اولندقده

مشترو موی الیه کندوسی ورفیقلری بعض وکلای سائر دولت علیه هر وجهله معاونته ایلیوب محمد علینک

بو حالله بولنمه‌سی [illegible] دولت علیه طرفندن اول یاوز مبادرت اولنمیوب محمد علی پاشا ادبی طاقتیدی

تقدیره دولت علیه جندن حقلی انسه برقانده حقلی بولنوب جمیع دول اوروپا محمد علینک معارض اولمقلرنه

استناد اولنمقده بحث ایدرک جزایر مصلحتی ذکر لقرری ایلدوکم عطوفتلو رشید بک افندی بنده لرنک

فرانچه وکلاسیله مباحثه مبادرت ایلک اوزره اولدیغی بیان ایلدیکی مشترو موی الیه بونده دورر سنه

مقدم بزلر وکلای دولته بولندیغمز اشنده فرانچه دولتی جزایری دولت علیه ده دائما [illegible] وعد ایتمش ایدی

اگر اول اراده عودت اولنمیوب منصبده قالسه ایدی شمدیه قدر جزایر فرانچه دولت علیه یه [illegible]

دائما اولورانزی شمدی اشته دورر سنه دنبرو حالی اوزره قالدی باقه‌لم نصل اولور دیمه انسه

استحصالنه امید وار ایلدیکی ودولت عالیه خصوصی شهر ۲۸ تاریخیله عطوفتلو صدارت افندی بنده لرینه

امر دولتلریه تحریر ایلدیکی [illegible] برامرنامه والده‌ه ورود ایتمش [illegible] اشعار والادرک

اوزره تحریر وارسال [illegible] اولدقده افاداته بناء ایدرک [illegible] جناب دولتلرینه [illegible]

بتکرار اولدقده مقاصد [illegible] زمینده وکلای موجوده لسانا [illegible] افاداته اولنه هنوز [illegible]

واهلیه‌لریله مشغول اولدقلری طول مدارزا استماعه وتقلید اولنمقده ناشی [illegible]

اولنوب امور اجنبیه ناظری [illegible] جنابلرینه اعطا اولنمه اولمغله منظور عالیلری [illegible] ضمنده [illegible]

خاکپای دولتلرینه ملفوفاً گوندریلدوک بو طرفده بچه نچه [illegible] صدرده مذکور بحث مقیم

موسیو یانی قولارینه گوندریلوب اوطرفده کاشه [illegible] جنابلری [illegible] دولت علیه اولدیغی وجوهله تماما

اولمسه اولنمقده امر دولتلری اوزره موی الیه برقاتده طوغیه [illegible] استحصال ضمننده

صمیمیه مذکور [illegible] موی الیه [illegible] بعض دولتلو بغداد والیسی طرفنه گوندریلوب اندرجک

خاکپای دولتلرینه ارسال اولنمش ماوردیانی قولارینه تحریر واشعار عاجزانم اولنمقده بسته محمد علی پاشا

هذه الوثيقة موجودة في ارشيف رئاسة الوزراء التركي باستانبول ومحفوظة بدوسية رقم ٧٨ . وقد دونها محمد نافق بك بناء على رغبة السلطان محمود الثاني موضحا رغبة محمد علي باشا بالاستقلال عن السلطنة العثمانية واعتبر احتلاله لبلاد الشام تمردا لذلك نعته بالعاصي.

استقلال داعيه‌سى شال دول ثلثه‌يه اقدمجه تقديم ايتمش اولديغى تقارير معهوده‌سنده ازجمله نجد دولتنه تقديم ايلديكى تقريرنه اولوقت بريغ موسى اليه جانبلرى طرفندن ويريلدوكى جوابى اكلتدم وكلامنه كوسترلديكى ايجون لوندره‌ده مقيم نجد مصلحتكذارينه كوندريلوب محمد على‌نك حال وكيفيتنى بيان ايدرك دولت عليه‌يه اطاعت وانقياد اوزره مستحاله‌سى بركفيل اولمق ضمننده قوه جبريه‌سى اخذيله دولت عليه‌يه ويرلمسى موسى اليه نك ... تمامًا تشجيع ايتمش اولديغى اوده وقتده بالذات منظور عاجزانم اولمش ايسه‌ده وكلاى سابقه طرفندن اصغا اولنمامش اولديغنده مقام والدينه دخى بو قضيه‌يى تحريريله اشعار واخبار لكتابم اولمامش ايدى لكن شمديلك مقتضاى وقته ومداركه بريغ مشرينك جانبلرندن صحبو رأى واراء سابقه خيريه‌سى بولنمقده حاليه نظرًا الحالة هذه كاركر اولمسى ملاحظه‌سى ذكر اولنان معاودت بروجه بالا قوه جبريه‌سى دولت عليه‌يه تسليم اولنمسه بر حفظ عصيانه انجامه بركفيل ويرلسى اولاجغى كيفيتنى ماوروالذكر قوللرى بريغ موسى اليه جانبلرينه بيان ايله اسبوراى سابقنى حالا موجود بولنان انكلتره مشترولرينه تكرار تحرير ايلمسى ضمننده ترغيب ومطالبه‌يله موسى اليهك صحبو اراى خيريه‌سى استحصالنه اولوقت انكلتره وفرانچه ورويه دولتلرى طرفلرنده دخى بو خطه‌يه مماثله كوستريله‌جكى ملحوظ اولنمه ايدى بوماده‌يه دائر خاكپاى دولتلرنه تحريرا استيذان اولنمش جواب ورودنه قدر زمان فرصه فوت اولنمه اولاجغى معلوم دولتلرى بيوريلمش وحضور عرفيه جكرلر تابعى توخ عطوفتلو رشيد بك افندى بنده‌لرى طرفندن خاكپاى عاليه‌يه اشعار ايتمش اولاجغى وجهله جزائر مصلحتنه مباشرتله ابتداء بو طرفده دخى معاونه لدى البحث كلمسى اولديغى بيان ايلديكده قوللرى دخى بونكله خصوصات امور اجنبيه ناظرى وليفقتور جانبلرينه طعامه مدعو اولديغمده خصوص مذكوره دائر لدى البحث حاله معاونه والتزام موافق استحصال ضمننده مومى اليهك فرانچه مشتروسيله وقوع اولدقده مكالمه‌سنى تلا موسى اليه بسط ايدرك بويابده خيريه وحقى تحريك ايتمه سارعه نيكاتم اولاجغى معلوم دولتلرى بيوريلدقده هر حالده امر وفرمان دولتلو عنايتلو افندم حضرتلرينكدر

[illegible]

اما **السياسة الانكليزية** فكانت تهدف الى بقاء الدولة العثمانية ضعيفة وابعاد النفوذ الروسي عنها ، وان لا تقوم دولة قوية على طريقها الى الهند ، وان لا يملك محمد علي العراق والخليج العربي وسواحل بلاد الشام . وكان الباب العالي راغبا بالاستناد الى دولة قوية لرد خطر محمد علي ، وكان في الوقت نفسه يخشى مطامع روسيا وانكلترا في المضائق ، الدردنيل والبوسفور ، لذلك كلف الباب العالي ريس افندي بمقابلة سترافورد كانج ، سفير انكلترا بالاستانة ،فقابلــه في ١١ آب ١٨٣٢ وابلغه رغبة الباب العالي بالمساعدة الادبية والمادية ضد محمد علي باشا .

وارسل الباب العالي أمرا الى ماورو باني سفير تركيا في فيينا بأن يتجه الى لندن فوصلها في ٣ تشرين الثاني ١٨٣٢ م حاملا اقتراحات الباب العالي الى الحكومة الانكليزية بخصوص طلب المساعدة ، وان تركيا تتحمل كافة نفقات تلك المساعدة ، وتمنح انكلترا جميع الامتيازات التجارية التي تريدها مقابل وقوفها ضد محمد علي. فاجابت انكلترا بانها لا تستطيع الرد العاجل على مقترحات الباب العالي(٧) . وكرر الباب العالي محاولة طلب المساعدة من انكلترا فوصل نامق بك السكرتير الخاص للسلطان محمود الثاني الى لندن في ١٣ كانون الاول ١٨٣٢ حاملا مقترحات السلطان والباب العالي بطلب المساعدة ، فردت انكلترا انها لا تستطيع الاندفاع في عمل عسكري وانها تفضل الانتظار . ورات انكلترا ان ترسل اسطولا حربيا الى مياه الدردنيل بقيادة الاميرال ماندفيل بعد معركة قونية المارة الذكر .

اما **فرنسا** ، فقد كانت السبب الذي جاء بمحمد علي الى مصر . ذلك انه دخل الى مصر مع الفرقة الالبانية التي جهزها السلطان العثماني لطرد الفرنسيين من مصر . وهذا يستوجب وجود عداء بين محمد علي وفرنسا . ولكن الاحداث كشفت عن نوايا نابليون بونابرت وطموحه الى كرسي العرش الفرنسي ، وان بريطانيا لـن تترك فرنسة على هواها فتصدت لها ، وحتى تقيم فرنسة العراقيل امام انكلترا فقد رغّبت محمد علي باحتلال الجزائر ، ولكنه لم يستجب لطلبها لانه صمم على احتلال بلاد الشام ، التي رأى فيها اقتصادا مزدهرا يتيح له انجاز مشاريعه ،ويوفر شبابا يجنده لخوض ساحات القتال ، وحدا عازلا عن السلطة العثمانية (٨) . وأفاد محمد علي من التنافس الاستعماري الانكليزي ــ الفرنسي بأن نال دعم فرنسة لـه في بداية تنفيذ مشروعه باحتلال بلاد الشام .

لكن السياسة الروسية السابقة الذكر لم ترق لفرنسا في عام ١٨٣٢ ــ ١٨٣٣ . لذلك جهزت أسطولا حربيا وارسلته الى مياه الدردنيل بقيادة الاميرال روسين ، الذي وصل الى المضيق المذكور في ٢٠ كانون الثاني ١٨٣٣ م ، وأبلغ الباب العالي عندما وصل

الى المياه التركية انه سيدافع عن مصالح الدولة العثمانية ضد ابراهيم باشا ، اذا سحبت الدولة طلب المساعدة من روسيا . ولم تتحقق أماني روسين بسبب وصول الاسطول الروسي الى مياه البوسفور ، فابلغ الباب العالي بان مجيء القوات الروسية يذهب عنه كل استقلال ، ولذلك فقد بات وجود السفير الفرنسي باستانبول عبثا . وعلم ريس أفندي بمقترحات روسين فكلفه بالوساطة بين محمد علي والباب العالي لوقف القتال على أن يعطى محمد علي ولاية عكا وطرابلس والقدس ونابلس ، فوافق روسين على الوساطة شريطة ان يغادر الاسطول الروسي المياه العثمانية . ووقع ريس افندي مع روسين اتفاقا بهذا الخصوص في ٢١ شباط ١٨٣٣ (٩) .

وارسل روسين رسولا الى كوتاهية ليبلغ ابراهيم باشا الاتفاق الذي وقعه مع ريس افندي ، والذي ينسحب ابراهيم باشا بموجبه الى ما وراء جبال طوروس ، لكن ابراهيم باشا رد عليه ، بأنه مقيم في كوتاهية بأمر من والده ، وانه لن يعمل الا بالاوامر الصادرة عن محمد علي باشا .

وكان روسين قد اعاد الحكم العثماني الى ازمير في ٢٤ شباط ١٨٣٣ ، بعد أن احتلها ابراهيم باشا على اثر تقدمه الى كوتاهية . ووقف قناصل كل من انكلترا والنمسا وبروسيا الى جانب روسين في أمره باعادة حكم السلطان العثماني الى أزمير (١٠) .

ولم يتاثر الموقف الروسي باتفاق ٢١ شباط بل ازداد قوة عندما عين رؤوف باشا صدرا اعظما في عام ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٣ م .

وفي ١٥ آذار ابلغ الاميرال روسين الباب العالي بأن على الاسطول الروسي مغادرة مياه البوسفور خلال ٢٥ ساعة ، واذا لم يغادر خلال هذه المدة فانه ناقض لاتفاق ٢١ شباط لذلك استدعى السلطان العثماني ديوانه الى الاجتماع وكلف ريس افندي بابلاغ الجنرال مورافيف (١١) أن الاتفاق قد ابرم مع محمد علي باشا ، فهو يأمل اعادة الاسطول الروسي الى المياه الروسية . وكانت انكلترة قد نظرت الى اتفاق ٢١ شباط نظرة ارتياح فكتب بالمرستون وزير خارجيتها رسالة الى وليام كامبل سفيرها في الهند قائلا ما معناه : ان تركيا افضل دولة تملك طريق الهند فهي افضل من أي ملك عربي ، والواجب على الانكليز مساعدة السلطان العثماني (١٢) .

اما النمسا فقد تلقت خبر اتفاق ٢١ شباط بارتياح ، غير أن مترنيخ(١٣) وجه اللوم للجنرال روسين لانه جرح الشعور الروسي عندماطلب انسحاب الاسطول الروسي

من مياه البوسفور . ويرى مترنيخ انه لولا طلب هذا الانسحاب في الاتفاق لانسحب الاسطول الروسي .

واحكمت روسيا قبضتها على البوسفور بأسطول حربي وجيش بري نكاية بالموقف الفرنسي . وارسل روسين رسالة مع رسول الى محمد علي ليبلغه اتفاق ٢١ شباط للعمل بموجبه ، فرفضه محمد علي ووجه انذارا الى الباب العالي بأن ابراهيم باشا مخول بالسلطة المطلقة للحصول على ولاية سورية وأدنة . فغضب روسين وكتب الى وزير خارجية فرنسة رسالة جاء فيها انه اذا ارادت فرنسا واوربا انقاذ السلطنة العثمانية وجب عليها ايقاف محمد علي ولو ادى هذا الى اعلان الحرب عليه ، واشار في رسالته الى احتمال(١٤) وصول ابراهيم باشا الى الاستانة بعد مرور ثمانية ايام وسيضطر السلطان الى اعطائه ولاية سورية . وتملك الباب العالي جزع شديد ،لذلك طلب رجاله النجدة من سفير روسيا ، وقرر روسين احباط خطة الباب العالي فتقرب من رجاله واتفق معهم في ٢٩ آذار ١٨٣٣ على ارسال فارين وكيل سفير فرنسا باستانبول مع مندوب عن الباب العالي (رشيد بك) الى كوتاهية للاتفاق مع ابراهيم باشا على منحه ولا ية سورية كلها ؛ وعلى تخفيض الشروط الخاصة بادنة . وحمل الرسولان كتابي روسين وماندفيل الى ابراهيم باشا بهذا الخصوص (١٥) . وارسلت فرنسا بوالكنت وهو من كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية الى محمد علي ليقنعه بالجلاء عن الاناضول ، في الوقت الذي أصدر فيه بالمرستون الانكليزي اوامره بتعزيز البحرية الانكليزية بالبحر المتوسط . واشتد الاضطراب في لندن بسبب مجيء نجدة روسية الى استانبول في ٥ نيسان ١٨٣٣م ، فاقترح تاليران وزير خارجية فرنسا ان تتفق انكلترة والنمسا وفرنسا وروسيا على مساعدة السلطان العثماني دون ان تطمع اي منهن بامتلاك ارض تركية ، فوافقت انكلترا على: (١٦)

١ ــ عدم تجزئة تركيا .

٢ ــ يجب ان يتضمن كل اتفاق بين الباب العالي ومصر سيادة تركيا .

٣ ــ استخدام الوسائل اللازمة لارغام محمد علي على قبول هذا الاتفاق .

ولم ينل الاتفاق موافقة النمسا وروسيا ، لان السياسة الروسية تهدف الى السيطرة على المضائق ، وكانت النمسا متعاطفة مع روسيا .

أما فرنسا وانكلترا فقد صممتا على ابعاد النفوذ الروسي عن الدولة العثمانية والحيلولة دون ان يؤسس محمد علي دولة قوية .

لم تكن معاهدة كوتاهية الا تسوية مؤقتة لان محمد علي باشا لم يقبل بها الاخوفا من اجبار الدول له على ترك فتوحاته ، اما السلطان العثماني محمود الثاني فانه قبل بها لتفرق جيوشه وعدم امكانه صد هجمات ابراهيم باشا عن الاستانة الا بمساعدة روسيا واعتبرها بمثابة هدنة ليعيد بناء قواته ، ومن ثم شن الحرب على ابراهيم باشا واعادة بلاد الشام ومصر ولاية عثمانية دون أي امتياز .

* * *

وبعد توقيع معاهدة كوتاهية في ٥ ايار ١٨٣٣ اخذ ابراهيم باشا ينظم ادارة بلاد الشام ، فعمل على ضرب نظام الاقطاع العثماني واعلن المساواة الدينية بين فئات السكان وشجع الزراعة واحياء الارض الموات واعادة الحياة الى القرى الخربة ، ومنع البدو من اخذ (الخوة) او الاعتداء على المزروعات . وبدا ابراهيم باشا للاهالي في بداية حكمه مصلح(١٧) لكنه خضع لاوامر والده فاضطر الى فرض الضرائب الكثيرة ، وكان جنوده يصادرون المواشي وحيوانات الزراعة ، فنشبت الثورات الاولى ضده في نابلس والقدس ، ثم أمره والده بنزع سلاح السكان(١٨) وفرض التجنيد الالزامي عليهم ، فتصاعدت الثورات ضده في صافيتا وعكار وجبال العلويين . وكانت ثورات حوران ١٨٣٧ ــ ١٨٤٠ اعنف ثورات بلاد الشام واشرسها ضد الحكم المصري(١٩) .

استغل السلطان العثماني والانكليز اندلاع الثورات في بلاد الشام فدسوا الدسائس ضد ابراهيم باشا . والامر الجدير بالملاحظة هو : ان ابراهيم باشا قد طور اقتصاد بلاد الشام ولكن لخدمة سياسة محمد علي ، وان الدسائس العثمانية لم تكن لصالح الثوار بل لاعادة الحكم العثماني الى البلاد . اما الدسائس الانكليزية فقد كان هدفها التغلغل الاقتصادي في البلاد ، فقد دخل اول قنصل انكليزي الى دمشق في ٢١ رمضان ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م(٢٠) . وأرسل سفير انكلترا في الاستانة في عام ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤م ريتشارد وود ترجمان السفارة الانكليزية الى لبنان بحجة حبه لتعلم اللغة العربية ، فاتخذ كسروان مقرا له واخذ يدس الدسائس ضد ابراهيم باشا(٢١) . وكانت انكلترة الذراع القوي الذي استند اليه الباب العالي في حربه ضد ابراهيم منذ عام ١٨٣٤ ، فاخذ يحشد الجيوش في سيواس ، وأسند مهمة تدريبها الى ضباط بروسيين (ملباخ وفيشر وفون مولتكه ...) وكانت القيادة العليا في سيواس لرشيد باشا الذي اسره ابراهيم باشا في موقعة قونية كما مر .

وكان ابراهيم باشا ، على الرغم من تصاعد ثورات بلاد الشام ضده ، لا يغفل الحدود العثمانية . فقد كان يتوقع شن هجوم عثماني مفاجيء لان السلطان محمود

الثاني لم يغفر لمحمد علي فعلته تجاه بلاد الشام . وتروي المصادر العثمانية أن رشيد باشا توفي اثر اصابته بحمى ادت الى التهاب النخاع الشوكي ، فخلفه في قيادة الجيش العثماني حافظ باشا (٢٢) .

وكان الجنود العثمانيون يناوشون جنود ابراهيم باشا ، حتى انهم اجتازوا نهر الساجور ـ أحد روافد الفرات ـ وهاجموا فرقة فرسان مصرية ففرقوها وقتلوا منها وأسروا ٧٠أسيرا . وكان الانكليز والنمساويون يدفعون بالاتراك الى قتال الجيش المصري، فأصدر السلطان العثماني أمرا الى حافظ باشا بالهجوم على قوات ابراهيم باشا ، فعبر هذا نهر الفرات عند بلدة (بلاجيق) في شهر نيسان ١٨٣٩ وعسكر في سهول مدينة نصيبين (نزبا) في ١١ ربيع الثاني ١٢٥٥ هـ / ٢٤ حزيران ١٨٢٩ حيث التقى بالجيش المصري ، ودارت معركة شديدة اسفرت عن فوز المصريين وتقهقر الجيش العثماني ، وغنم الجيش المصري ١٦٦ مدفعا وعشرين الف بندقية وكثيرا من الذخائر والمؤن . ومن قبيل المصادفات ان المنية وافت السلطان محمود الثاني دون ان يعلم بنتيجة معركة نزب ، وصعد الى عرش السلطنة ابنه عبد المجيد البالغ من العمر يومذاك سبع عشرة سنة (٢٣) .واسند الخليفة منصب الصدارة العظمى الى خسرو باشا غير عالم بالعلاقة السلبية بين أحمد باشا ، قائد الاسطول العثماني ، وبين خسرو باشا الذي كان على علاقة سيئة مع محمد علي باشا ، لانه اخرج من مصر بناء على رغبة أهليها عندما طالبوا بتعيين محمد علي واليا عليها ، فقاد احمد باشا الاسطول العثماني واتجه الى الاسكندرية ، وهناك سلمه الى محمد علي باشا في ٢ جمادى الاولى ١٢٥٥/ ١٤ تموز ١٨٣٩ ، وطلب اللجوء السياسي من محمد علي(٢٤) .

وعندما علم قناصل الدول الاوربية بالاستانة بتسليم الاسطول العثماني الى محمد علي باشا خشوا ان يزحف ابراهيم باشا على الاستانة فترسل روسيا جيوشها لمحاربته استنادا الى معاهدة اونكيار اسكلة سي ، لذلك اجتمع سفراء فرنسا وانكلترا والنمسا وبروسيا وروسيا ووجهوا مذكرة موقعة منهم الى السلطان العثماني في ١٦ جمادى الاولى ٢٨/١٢٥٥ تموز ١٨٣٩ ، طلبوا منه بموجبها ان لايقر شيئا في امر المسألة المصرية الا باطلاعهم ، وابدوا استعدادهم للتوسط بينه وبين محمد علي باشا لحل هذه المشكلة . وقبل السلطان والباب العالي مذكرة قناصل الدول الاوربية ، واجتمع أولئك السفراء مع الصدر الاعظم وتداولوا فيما يجب اعطاؤه لمحمد علي . وابدى سفيرا انكلترا والنمسا ضرورة ارجاع بلاد الشام للدولة العثمانية ، وعارضهم في هذا الراي سفيرا فرنسا وروسيا وطلبا ان يمنح محمد علي مصر وولايات الشام الاربع . لكن سفير بروسيا انحاز الى الرأي الاول ، واقترح مترنيخ مستشار النمسا أن يعقد مؤتمر دولي في مدينة فيينا او لندن لاتمام المحادثات حول المسألة المصرية(٢٥) .

وقد عارضه كل من سفيري فرنسا وانكلترا لعدم ثقتهم به ، واعلن سفير روسيا حق بلاده في التمسك بمعاهدة اونكيار اسكلة سي . لذلك طلب سفير فرنسا وسفير انكلترا من الباب العالي تصريحا لمراكب دولتيهما بالمرور من مضيق الدردنيل لحماية الدولة العثمانية ، عند الضرورة ، من روسيا ومن العساكر المصرية ، وجاء الاميرال ستوفورد الى الاستانة للحصول على هذا التصريح . ولما علم باقي السفراء بهذا الطلب اضطربوا وخشوا حصول انشقاق بين الدول المتوسطة . واعلن سفير روسيا بانه سيقطع علاقته مع الباب العالي ويغادر الى موسكو اذا دخل الاسطول الانكليزي او الفرنسي مضيق الدردنيل او البوسفور . وكانت حكومته قد ارسلت له مركبا حربيا ليسافر عليه اذا اقتضى الحال (٢٦) . وكتبت النمسا رسالة الى لندن واخرى الى باريس معلنة ان طلبهما مخل بسلم اوربا ، وان النمسا ستخرج من التحالف وتحفظ لنفسها حرية العمل ، اذا اصرت الدولتان على هذا الطلب . وعندما علم الباب العالي بموقف النمسا خاف من تفاقم الخطب ، فرفض طلب حكومتي فرنسا وانكلترا ، وطلب منهما ابعاد اسطوليهما عن مضيق الدردنيل(٢٧) . وتقدم بوسونبي سفير انكلترا بالاستانة بعرض الى الباب العالي جاء فيه ان دولته قادرة على ارغام محمد علي باشا على رد الاسطول العثماني شريطة حصوله على موافقة الدولة العثمانية على السماح للاسطول الانكليزي بدخول خليج استانبول لصد الاسطول الروسي عند الضرورة . وعندما علمت فرنسا بالعرض الانكلزي ارسلت الى الاميرال لالاند قائد الاسطول الفرنسي بالمياه العثمانية في ١٨ كانون الاول ١٨٣٩ أمرا بان لا يشترك مع الاسطول الانكليزي في اية حركة عدوانية ضد محمد علي باشا . واصبح الخلاف بين انكلترة وفرنسا حول المسالة المصرية أمرا محتما ، اذ رات انكلترا ارجاع محمد علي باشا من بلاد الشام الى مصر ، في حين كانت فرنسا ترغب ببقائه فيها(٢٨) . اما النمسا ، فقد قررت عدم التدخل لان الدول لم توافق على طلبها بعقد اجتماع في فيينا او برلين ، واعلمت كل من روسيا وبروسيا بانهما تقبلان كل ما تقرره الدول بشأن المسالة المصرية شريطة ان يكون الحل موافقا لرغبة الباب العالي .

ودار النقاش بين انكلترا وفرنسا ، فقد رات الاولى تجريد محمد علي من بلاد الشام في الوقت الذي رات فيه فرنسة عدم حرمانه من بلاد الشام وخاصة بعد ان قهر الجيش العثماني في معركة نزب ، واعلنت انكلترا موافقتها على اعطاء محمد علي نصف بلاد الشام الجنوبي مدى حياته بشرط ان لا تدخل مدينة عكا من هذا النصف ، فرفضت فرنسا اقتراح انكلترا بحجة انه يفتح باب الحرب امام محمد علي ، ويتيح الفرصة لتدخل روسيا ، وتكون الحرب العامة نتيجة لذلك(٢٩) . اما روسيا فقد رات ان تغتنم فرصة الاختلاف بين انكلترا وفرنسا لتعزيز نفوذها في الشرق وحق حمايتها

للدولة العثمانية ، لذلك ارسلت البارون دي برونو الى لندن بصفة سفير فوق العادة، فوصلها في ٢٨ ايلول ١٨٣٩ ، واعلن للحكومة الانكليزية نيابة عن قيصر روسيا بان حكومته تترك لانكلترا حرية العمل بمصر وتساعد في اذلال محمد علي باشا بشرط ان توافق على انزال جيش روسي قرب استانبول في مدينة سينوب على شاطىء البحر الاسود . لكن بالمرستون لم يقبل الحل الروسي بحجة استقباح الرأي العام له ، بل طلب من روسية ان تتنازل عن كل ما خولتها اياه معاهدة اونكيار اسكلة سي من حق في حماية الدولة العثمانية ، فرفضت روسيا ذلك . وارسلت روسيا للمرة الثانية برونو الى لندن في تموز ١٨٤٠ ، حاملا اقتراحات جديدة : ان ترسل كل من انكلترا وفرنسا ثلاث سفن حربية الى بحر مرمرة للاشتراك مع الجيش الروسي في حماية الاستانة لو هاجمها ابراهيم باشا ،ولم تفز روسية بمرامها في هذه المرة ايضا (٢٠) .

وعلم محمد علي باشا بالمحادثات الدائرة ضده على ساحة أوربا ،وتاكد من تصميم انكلترا على ارجاع جيشه من بلاد الشام الى مصر ، ومن ان فرنسا لا تتمكن من مساعدته ، بالاضافة الى تعصب معظم دول اوربا ضده . لذلك قرر رد القوة بالقوة بحيث لا يسلم شبرا من الارض التي احتلها الا مضطرا . ، واخذ يستعد لخوض معركة قريبة الحدوث مع الدول الاوربية . وعادت النمسا في اوائل عام ١٨٤٠ م الى طلب عقد اجتماع الدول في مؤتمر في فيينا لتسوية المسألة المصرية ، واستجابت انكلترا لطلبها وتقرر عقد المؤتمر في لندن ، وان يكون للباب العالي مندوب فيه مراعاة له لما يتمتع به من سيادة على البلاد المتنازع عليها (٢١) . وجاء تولي تيير رئاسة الوزارة الفرنسية في اول اذار عام ١٨٤٠ ليضع خطة جديدة في حل المسألة المصرية ، اذ قرران يحلها باتفاقه مباشرة مع الباب العالي ومحمد علي باشا ، وذلك بان يلزم الباب العالي بان يترك لمحمد علي ولايات مصر والشام ، وهدد بالوقوف الى جانب محمد علي باشا. وارسل تيير الى والي مصر بان لا يقبل مطالب انكلترا . ولما علم بالمرستون بنوايا تيير حقد عليه وبذل جهودا كثيرة في الاتفاق مع النمسا وروسيا وبروسيا لارجاع محمد علي الى مصر . ونجح بالمرستون في مسعاه ووقع في ١٥ تموز ١٨٤٠ مع الدول الثلاث ومندوب الباب العالي معاهدة لندن . وجاء فيها (٢٢) :

١ ـ يلزم محمد علي باشا بارجاع ما احتله للدولة العثمانية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبي من بلاد الشام ماعدا مدينة عكا .

٢ ـ ان يكون لانكلترا حق الاتفاق مع النمسا في محاصرة مواني بلاد الشام ومساعدة كل من اراد من الاهالي خلع طاعة المصريين والرجوع الى الدولة العثمانية ،

واشعال نار الثورة ضد الجيوش المصرية كي لا تقوى على مقاومة المراكب الانكليزية والنمساوية .

٣ ــ يحق لاساطيل انكلترا والنمسا وروسيا الدخول معا الى مياه البوسفور لحماية الاستانة في حال تعرضها لهجوم الاسطول المصري .

٤ ــ لا يحق لاي اسطول حربي دخول مياهالبوسفور مادامت الاستانة غيرمهددة .

٥ ــ يجب على الدول الموقعة على معاهدة لندن ان تصدقها خلال مدة لاتزيد على شهرين وان يكون التصديق في مدينة لندن .

ابرمت معاهدة لندن بين دول اوربية بحضور مندوب عن الباب العالي . وقد قررت الدول الموقعة على تلك المعاهدة معرفة موقف السلطان ، تجاه المعاهدة من جهة ، وتجاه محمد علي باشا من جهة ثانية ، لذلك ابرمت مع السلطان عبد المجيد اتفاقية عرفت بملحق معاهدة لندن ، ضم الملحق البنود الاتية :(٣٢)

١ ــ يمنح السلطان العثماني محمد علي باشا وسلالته من بعده ولاية مصر ، ويمنحه ولاية عكا والجزء الجنوبي من بلاد الشام مدى حياته ، بشرط قبوله هذه المنح خلال مدة عشرة ايام من تبليغها اليه في الاسكندرية على يد رسول من قبل السلطان ، ويسلم محمد علي الى رسول السلطان الاوامر اللازمة لقواد قواته برا وبحرا لينسحبوا في الحال من الاناضول وبلاد الشام ، ماعدا الجزء الذي منحه له السلطان .

٢ ــ اذا لم يقبل محمد علي هذه التسوية خلال عشرة ايام يفقد ولاية عكا وتبقى ولاية مصر له ولسلالته بالوراثة ، شرط ان يعلن قبوله هذه المنحة في مدى عشرة ايام تالية للعشرة الاولى ، ويسلم محمد علي التعليمات اللازمة لانسحاب قواته برا وبحرا الى حدود ولاية مصر .

٣ ــ ان يعيد محمد علي الاسطول التركي الى السلطنة العثمانية في مدى عشرين يوما تبتدىء من اليوم الاول الذي يتلقى فيه البلاغ (الملحق) ويشهد روبرت ستوفورد قائد اساطيل الحلفاء تسليم الاسطول المصري .

٤ ــ تعتبر المعاهدات والقوانين النافذة في السلطنة العثمانية نافذة في مصروولاية عكا . ويمنح محمد علي حق تحصيل الضرائب والرسوم مقابل دفعه اتاوة للسلطان العثماني .

٥ـ تعد القوات البرية والبحرية التي ينظمها محمد علي باشا في مصر قسما من قوات السلطنة وتعتبر دائما معدة لخدمة الدولة العثمانية .

٦ ـ اذا لم يقبل محمد علي في مدى عشرين يوما بنود الملحق ، يكون السلطان حرا باتباع الخطة التي يراها مناسبة ، طبقا للنصائح التي يسديها اليه حلفاؤه .

وبعد اقرار بنود الملحق وقع الحلفاء اتفاقا بينهم بتنزههم جميعا عن كل ربح او مغنم . وارسل السلطان العثماني ، في ١٤ اب ١٨٤٠ ، رفعت بك الى الاسكندرية ليبلغ محمدا عليا قرار السلطان والدول الاوربية . وعندما علم محمد علي ببنود الملحق اجاب: ان ما اخذته بالسيف لا اسلمه الا بالسيف . وجاء قناصل الدول الاربع انكلترا ، النمسا ، روسيا وبروسيا ، في ١٥ جمادى الثانية ١٢٥٦هـ/١٥ اب ١٨٤٠ ، الى مقر محمد علي باشا وابلغوه قرار الدول (معاهدة لندن ١٨٤٠) واستمهلوه عشرة ايام ، وبلغوه ان فرنسا لا تستطيع مساعدته وان الدول مصممة على تنفيذ قرارها وان ادى ذلك الى اعلان الحرب ضده ، فاصر محمد علي على ان ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة(٢٤) . وفي ٢٤ آب عاد قناصل الدول ومندوب السلطان وابلغوا محمد علي انه لم يبق له حق في ولاية عكا لانه لم يعلن قبوله في الايام العشرة الاولى ، وان الدول لن تسمح له الا بولاية مصر كما جاء في قرارها . فاحتد محمد علي غضبا وطرد القناصل من حضرته ، لكنهم اعطوه مهلة عشرة ايام اخرى لاعطاء جوابه ، فان لم يفعل تكون الدول المتحالفة غير مسؤولة عن النتائج ، اما فرنسة فلم تقدم المساعدة التي وعدت بها الى محمد علي ، وحمل الشعب الفرنسي تيير المسؤولية وطالب باعفائه من منصبه ، فتخلى عنه في ٢٩ تشرين الاول عام ١٨٤٠م . وشكلت الدول الموقعة على معاهدة لندن قوة مشتركة لالزام محمد علي باشا بتنفيذ بنود المعاهدة اذا رفض قبولها . وكانت القوة من قسمين : برية بقيادة الجنرال الانكليزي سميث ، وبحرية مؤلفة من عشرين سفينة انكليزية وثلاث سفن نمساوية وثلاث سفن عثمانية بقيادة القبطان الانكليزي ووكر ، المعروف عند الاتراك باسم ياور باشا(٢٥) . وفي ٩ أيلول ١٨٤٠ وصل الاميرال الانكليزي ستويفورد القائد العام لقوات الحلفاء الى مدينة بيروت ، وانضم الى قوات نابير الانكليزي الذي كان قد اعلن عن مجيء القوات الحليفة وتوزيعها السلاح على الاهالي والثائرين ضد ابراهيم باشا . ونزلت القوات الحليفة مقابل بيروت وهاجمت ميناءها الذي كان قاعدة للجيش المصري ، وانزل الاسطول الجيوش على شواطىء جونية ، وقد اعلنت الدول الاوربية التي اشتركت في الحرب ضد ابراهيم باشا الغاية من تدخلها كما جاء في اعلان وزارة الخارجية البريطانية وهي : الحفاظ على سلامة السلطنة العثمانية ، وللدول الموقعة على معاهدة لندن ١٨٤٠ الحق في الحفاظ على سلامتها لان سلامة

السلطنة العثمانية من مقتضيات توازن القوى في اوربة وهي ضرورية لحفظ السلام في العالـم .

وعندما كان الاسطول الانكليزي راسيا امام بيروت وصلت سفينة من مصر فأمر الاميرال نابير بتفتيشها فوجدوا فيها رسالة من بوغوص بك وزير خارجية محمد علي باشا الى سليمان باشا الفرنساوي معاون ابراهيم باشا يؤكد فيها ان فرنسا ستستدعي قنصلها مورا من بيروت لانه كان يساعد الثوار ضد المصريين(٢٦) . أما امير جبل لبنان بشير الشهابي الثاني الذي اضطر الى الوقوف الى جانب ابراهيم باشا فقد حرم على اهالي لبنان التعاون مع القوات المشتركة وهدد بانزال اقصى العقوبات بالمتعاونين معها . واستمرت قوات الحلفاء في شن الهجوم على جيش ابراهيم باشا ، خلال الفترة من ٩ ايلول حتى ١١ تشرين اول ١٨٤٠ ، وكانت معركة قرية (بحر صاف) معركة شديدة اسر الحلفاء فيها من جيش ابراهيم باشا ٧٠٠ اسير . وارتد ابراهيم باشا الى البقاع في ١١ تشرين الاول وسلمت الحامية المصرية المرابطة في بيروت (٢٧) . وكان الحلفاء قد خلعوا الامير بشير الشهابي الثاني وعينوا بدلا منه ابن عمه الامير بشير قاسم ، وعلم الامير بهزيمة ابراهيم باشا وتسليم حامية بيروت لذلك غادر مقره في بيت الدين في ١١ تشرين الاول ١٨٤٠ واتجه الى صيدا واعلن الى خالد باشا متسلم صيدا انه جاء مستسلما . فقابله بالاجلال والاحترام ، واتجه من صيدا الى بيروت في سفينة خاصة مع ابنه الامير امين وحفيده الامير محمود ولما وصل بيروت ابلغه عزت باشا الذي عين واليا على سورية ان يختار لنفسه مكان الاقامة ما عدا فرنسا ومصر وسورية ، فاختار جزيرة مالطة ، واتجه اليها على ظهر باخرة انكليزية في ١٦ تشرين الاول ١٨٤٠م ، ومعه زوجه واولاده واحفاده وثلة من اعوانه وخدمه . وهكذا طويت صفحة امارته بعد حكم طويل(٢٨) . وبعد تسليم الامير بشير ، انسحبت الحاميات المصرية من طرابلس واللاذقية وادنة بدون قتال ، ولم يبق من مدن الساحل في ايدي المصريين سوى عكا . واصدرت انكلترا أوامرها الى الاميرال روبيرت ستوبفورد في أواخر تشرين الاول بمهاجمة عكا ، فجمع قوات برية وبحرية وحاصرها في ٢ تشرين الثاني ١٨٤٠ ، وامطرها وابلا من القذائف دمرت حصونها وكبد المصريين خسارة فادحة في الارواح قدرت بالفي قتيل وجريح وثلاثة الاف اسير ، وبعد الاستيلاء على عكا اتجه اسطول الحلفاء الى يافا واحتلها بلا قتال . وبعد السيطرة على عكا ويافا وحيفا ارسل الحلفاء الاميرال الانكليزي نابير الى الاسكندرية ليضغط على محمد علي فوصل اليها في ٢١ تشرين الثاني وفي يوم ٢٢ منه وجه رسالة الى محمد علي عن طريق بوغوص بك ، ووقع نابيير اتفاقا في ٢٧ تشرين الثاني ، مع محمد علي باشا ، نص على جعل حكم مصر والسودان وراثيا في اسرته (٢٩) .

وبقي الموقف الفرنسي الى جانب محمد علي باشا . فقدوجهت الحكومة الفرنسية مذكرة الى الحلفاء في ٨ تشرين الاول حملت الحلفاء فيها اسباب وقوع الحرب لانهم حرموا محمد علي ثمرة انتصاراته واقدموا على تنفيذ قرار السلطان العثمايي بعزله .

وكانت فرنسا قد وجهت رسالة الى محمد علي باشا حضته على ترك بلاد الشام والاكتفاء بمصر ، فوجدت رسالتها قبولا عندما علم محمد علي باشا بتعيين الامير بشير قاسم بدلا من الامير بشير عمر الشهابي الثاني ، وبسبب سيطرة الحلفاء على ساحل بلاد الشام ، بالاضافة الى نقص الاموال في مصر ، وكان جيشه في بلاد الشام تعبا بسبب الحروب التي ما زال يخوضها منذ ثماني سنوات . وكان السلطان العثماني قد حصل على فتوى في ١٥ تشرين الاول ١٨٤٠ بخلع محمد علي من الحكم واعلن تعيين عزت محمد باشا خلفا له في حكم مصر وسورية(٤٠) .

وكان اتفاق نابيير مع محمد علي المار الذكر . والموقع في ٢٧ تشرين الثاني ، قد اكده قائد السفن الحربية الانكليزية بالبحر المتوسط (نابير) الذي ذهب الى ميناء الاسكندرية وعرض على محمد علي ان يعرض الاتفاق بينهما على دول اوربية لتثبيت حكم محمد علي الوراثي في مصر ، لذلك اصدر محمد علي امرا الى ابنه ابراهيم باشا بالانسحاب من بلاد الشام والعودة الى مصر والتزم محمد علي باتفاق ٢٧ تشرين الثاني والذي تضمن اعادة الاسطول التركي والانسحاب من بلاد الشام والاكتفاء بحكم مصر على ان يورث هذا الحكم لاولاده الذكور .

وتلقى ابراهيم باشا امر والده في ٩ كانون اول ١٨٤١ بالانسحاب فاخذ يستعد لمغادرة بلاد الشام ، وكان الحلفاء قد اعدوا خطة للايقاع بابراهيم باشا خلال انسحابه لكن ابراهيم باشا ، بعد ان اعلن طريق انسحابه ، تحول عنه فجأة الى طريق اخر فجنب نفسه خطورة مؤكدة ، وعاد الى مصر .

المصادر

(١) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .

(٢) الباب‌العالي : بني في استانبول ، وكان مقرا للصدر الاعظم ، واعتقد الناس انه مركز السلطة العليا بالسلطنة العثمانية منذ ان وصل مصطفى باشا من اسرة كوبرولي الى منصب الصدارة العظمى (١٦٩١) . وتعرض الباب العالي الى الهدم مرات عديدة واعيد ترميمه . ويقع الان خلف مديرية الامن باستانبول وقرب ارشيف باش باكانليك (رئاسة الوزراء) فيها .

(٣) وكان عدو محمد علي باشا في استانبول الصدر الاعظم خسرو باشا الذي بـدأ خدمتـه في قصر السلطان العثماني وترقى الى المناصب الرفيعة ، ناصب محمدا عليا والي مصر العداء ولعب دورا خطيرا في المشاكل التي نشبت بين تركية ومصر ، اباد الانكشارية . امضى اخريات ايامه في عمل الخير وتوفي في عام ١٨٥٥م .

(٤) بطرس الاكبر او بطرس الاول (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥م) ، امبراطور روسية (١٧٢١ ـ ١٧٢٥م) وقيصرها. وهو مؤسس الدولة الروسية الحديثة . كان اصغر اولاد القيصر الكسيس من زوجته الثانية . قضى بطرس صباه شبه منفي باحدى ضواحي موسكو ، يحيط به رفاق من اشد الصبية خشونة ، وظهرت عليه موهبة القيادة في حالة مبكرة . وجعل هدفه بعد ان وصل الى الحكم السيطرة على البحر البلطي والبحر الاسود لكي تصبح روسية دولة بحرية وتجارية .

(٥) ارشيف استانبول (رئاسة الوزراء) ، دوسية ٧٨ .

(٦) ارشيف استانبول ، المصدر نفسه ، الوثيقة المرفقة رقم (١) .

(٧) المصدر نفسه

Dosya Usulu - Iradaler Jurba - 78

الوثيقة المرفقة رقم (٢) .

(٨) ارشيف استانبول ، المصدر نفسه ، الوثيقة المرفقة رقم ٣ . ثم انظر محمد خـير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، دمشق ١٩٦٩ ، ص ١٧٠ .

(٩) عبد الرحمن الرافعي بك ، عصر محمد علي ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٩١ . ثم انظر الوثائق العثمانية المرفقـة ، ثم انظر كادلفين وبارو ، حرب مصر ضد الباب العالي والاناضول سنة ١٨٣١ ـ ١٨٣٣، ص ٤١٢ .

(١٠) ارشيف استانبول ، خارجية ، دفتر رقم ١ تاريخ ١٢٤٩ ، الوثيقة رقم ٢٤ .

(١١) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٨ ، وثيقة رقم ٣٥٨٢٢ .

(١٢) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٩ ، الوثيقة رقم ٣٦٨١٢ .

(١٣) مترنيخ : سياسي نمسوي ، كان سفيرا للنمسة في باريس عام ١٨٠٦ وترأس مؤتمـر فيينا ويانـة في عامي ١٨١٤ و ١٨١٥ ، كان زعيما للرجعية واعتزل السياسة عام ١٨٤٨ وتوفي عام ١٨٥٩ .

(١٤) ارشيف استانبول ، ارادة ، الدفتر رقم ١٢٤٩ داخلية ،الوثائق ٢٣٤٢٩، ١٢٣، ١٥٠ .

(١٥) ارشيف استانبول ، مهمة مصر دفتري ، من اوائل ربيع الاخر عام ١٢٤١ الى اخر جمادى الاخـرة ١٢٨٠ هـ رقم الدفتر ١٣ ، الصفحة ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٠ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ – ١٣٥ .

(١٧) H. Dodhel , The Egypt, Cambridge, 1931 , p.253.
وانظر ، اسد رستم ، المحفوظات الملكية المصرية ، ج٢ ، بيروت ١٩٤١ ، ص ١٢٤ .

(١٨) اسد رستم ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ . ثم انظر سميليا نسكايا ، الحركات الفلاحية في لبنان ، ص ٧٥ .

(١٩) اسد رستم ، المصدر السابق ، الجزء الرابع ، بيروت ١٩٤٣ ص ٢٤٠ – ٢٤١ – ٢٤٣ – ٣٤٤ ، الجزء الثالث ، بيروت ١٩٤٢ ، ص ٣٣٠ – ٣٣٣ .

(٢٠) محمد كرد علي ، خطط الشام ج٣ ص ٦٣ ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، وانظر بيركريتيس ، ابراهيم باشا في سورية ، تعريب بدران ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٢١٣ ، ٢٥٨ .

(٢١) ريتشارد وود : قنصل انكلترة في الاستانة ، ارسل الى لبنان لزرع بذور الثورة ضد ابراهيم باشا، ووقف ضد الامير بشير الشهابي الثاني ودعم الامير بشير قاسم الذي عين بمساعيه حاكما على جبل لبنان بعد رحيل الامير بشير الثاني .

(٢٢) ارشيف استانبول ، الدفتر ١٢٥٥ ، ارادة داخلية ، الوثائق رقم ١٢٣ ، ١٥٠ ، ٢٢٧ ، ٢٧٠ وانظر الارقام : ١٩،٤٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٤٧ ، ١٠٣ في الدفتر نفسه .

(٢٣) ارشيف استانبول ، ارادة داخلية ، الدفتر ١٢٥٥ ، ارقام ٣٣ ، ٤٥ ، ٧٧ ، ٨٧ .

(٢٤) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ،١٩٧٧، ص ٢٤٢.

(٢٥) ارشيف استانبول ، Gefdet Lktisat مؤرخة في عام ١٢٥٥هـ ص ١٢٢ .

(٢٦) ارشيف استانبول ، جودت ، مالية ، دفتر رقم ١ ،١ الوثائق ذات الارقام : ٩١٠٧ ، ٩٣٠٦ ، ٩٣٥٧ ، ٩٦٧٥ .

(٢٧) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٨، الوثائق : ٢٥٧٩١ ٣٥٨٢٢ ،٣٣٨٥٦ .

(٢٨) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٨ ،الوثيقة رقم ٣٦٢٠٦ .

(٢٩) ارشيف استانبول، المصدر نفسه، الوثائق : A ٣٦٢٠٠ - B ٣٦٢٠٠ - C ٣٦٢٠٠ - D ٣٦٢٠٠.

(٣٠) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العثمانية ، بيروت ١٩٧٧ ص ٢٣٩ .

(٣١) ارشيف استنبول Meclis , Hariciys، دفتر ٢٦٠ ، ١١ الوثائق ذات الارقام ١٢٢، ١٧٣، ١٨٢.

(٣٢) المصدر نفسه ، الوثائق ١٨٨ ، ٢١٤ ، ٢٢٢ .

(٣٣) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ص ٤١٠ ، ثم انظر محمد فريد بك المحامي – المصدر السابق ص ٢٤٣ .

(٣٤) ارشيف استانبول ، مهمة مصر دفتري ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٣٥–٣٦–٣٧) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ٩ ، الوثائق : ١٧٢١٣ ، A ١٧٢٨٥ ، B ١٧٢٩٧ .

(٣٨) فيليب حتي ، تاريخ لبنان ، تعريف د.انيس فريحة ، بيروت ، ط٣ ١٩٧٨ ، ص ٥١٦ .

(٣٩) محمد فريد بك المحامي ، المصدر السابق ص ٢٤٠ .

(٤٠) ارشيف استانبول ، ارادة داخلية ، دفتر عام ١٢٥٦، الوثائق ١٠٥٦، ١٠٩٦ :١٠٩٧،٢ :١١٩٠٤٢، ١٤٤٦ .